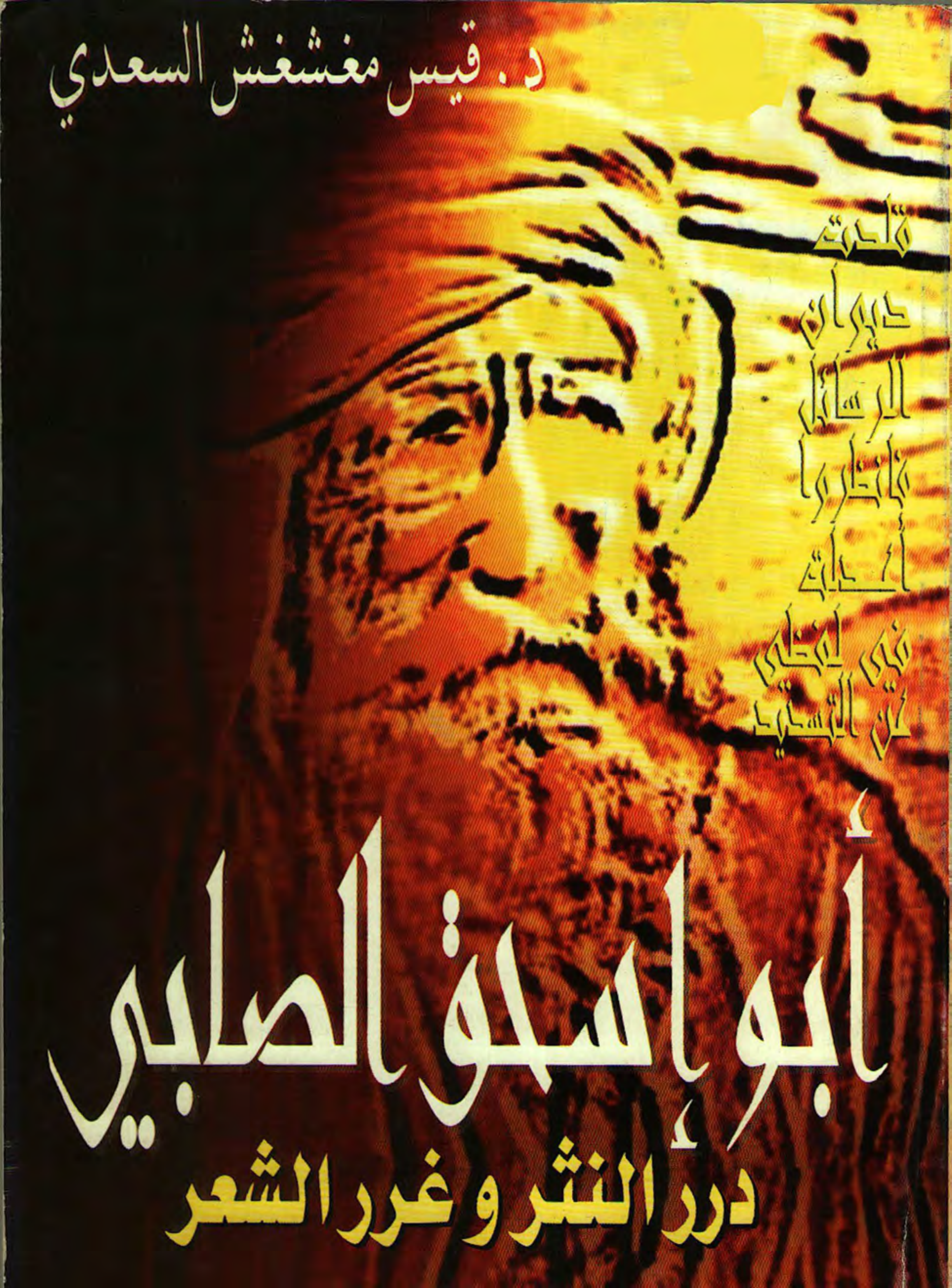

د. قيس مغشغش السعدي
أبو إسحق الصابي
درر النثر وغرر الشعر

أبو إسحق الصابي

درر النثر و غرر الشعر

وزارة الثقافة و الشباب
المديرية العامة للصحافة والطباعة والنشر



- اسم الكتاب: أبو اسحق الصابي: دررالنثر وغرر الشعر
- اسم المؤلف: قيس مغشغش السعدي
- تصميم الغلاف: لوحة تصورية لأبي اسحق الصابي
- تصميم: المؤلف
- الناشر: drabsha@yahoo.com
- الطبعة الاولى (٢٠٠٩)
- مطبعة الثقافة- اربيل
- رقم الايداع في المديرية العامة للمكتبات (٢٥٢٢) لسنة ٢٠٠٩
- عدد النسخ: (٥٠٠) عدد
- السعر: (٣٠٠٠) دينار

Drabsha

- Abŭ isħāq Al- s̱ābi
- Qais Al- Saȧdi
- First Edition 2009
- Publisher: Drabsha *drabsha@yahoo.com*

اقرا هذا الكتاب وكتب وزارة الثقافة على موقعنا

www.kurdchap.com

أبو إسحق الصابي
درر النثـــر و غرر الشعـــر

جمع وتحقيق وتعليق

أ . د . قيس مغشغش السعدي

الطبعة الأولى

ألمانيا 2009



الإهــداء

إلى سناء زوجتي محبة وطيبة

وإلى اسامة وسالي ونورا

شكر وتقدير

أتقدم بوافــر شكري وجزيل تقديــري لوزارة الثقافــة في إقليم كردستان العــراق لتبنيها تعضيد وطبع هــذا الكتاب وحرصها على إنجازه دعمــا للثقافة والحفاظ على إرث العراق على تنوع أعراق من ساهم في حضارته

محتويات الكتاب

كلمة محبة وتقديم

يا أبا إسحق، بعد ما يزيد عن ألف عام من وفاتكَ، أخاطبكَ وأكتب عنك، لأنني أحببتكَ، ولأنني وجـدت في نفسي الكثير مما يشابهكَ، فحرصت أن أقتفي أثـركَ، وأتشرب أدبكَ، وحسن سيرتك، وإخـلاصكَ لدينـك ونسبك، ومحبة كل من عايشك وقرأ لكَ، مخلِداً فوق ما هـو خالد لك حقك في أن تبقى في أذهان الأدب والكتابة بين أهلك وطلابكَ ، فأنت لاتزال معلّماً للجميع.

شرعتُ بجمع تراثك فازددت محبة بكل ما قدمتَ، في نسبكَ الممتد في عمق العلوم والتميز في الخدمة الراقيـة، وفي إصـرار معرفتكَ وتمرسكَ بهذه العلوم، وإقدامكَ على التفـرد في ميدان الأدب وصنعته، وتحويلك مسـار حياتكَ وصنعـة آبائكَ وأجدادكَ تأسيساً على مـا فضّلته في الأدب على الطب، وفي جهدك على شحذ الموهبة وصقلها بكل ما تتطلبه صناعةُ الكلام والكتابـة من أدب وبلاغـة، وحفظ ما جاء في كتب الأديان خصوصا في القرآن والحديث والسنـة، وخاصةُ أهلك، وأخبار الأولين وتأريخ كل الدول، مع عين خاصـة على تأريخ الدولـة الإسلامية مستقر الحكم، ومعرفة خصائص ومتطلبات كل المهن ومفرداتها ومصطلحاتها، وحفظتَ من الأشعار ما كان غرساً وطرساً في كتاباتك واستشهاداتك، ثم عرفت ورسمت الرُّسم في ديوان الخلافة والإمارة والوزارة، وكنت بارعاً في كل هذا.

أحببتُ إصرارك على أن تكون، فاغتنمتَ الفرصة بالكفاءة وبنيتَ سلمك الخاص وارتقيتَ صاعداً حتى تربعتَ على عرش الكتابـة، وأنت الصابئي الذي لم يـدن بالإسلام، مـع أنك حفظتَ الدِّين في ديمومة إسلام وجهك وسريرتك للواحد الفرد الماجد. وقد فاضت أخلاقكَ وسجايك في ميـدان عملكَ وعلاقاتكَ مع رؤسائكَ ومرؤوسيك حتى صـرت فيها المثـال، فحفظ لكَ الجميع حسن العِشرة وقـوة الشَّعرة، ولم يُدخل لك مدخلَ نيل من باب دينٍ ولا شباك دَين، بل عزَّ لدى الجميع حفظكَ لخصوصيتك في أنك كنتَ مُسلمَ الطباع والصدق والإيمان، وربما لو كنت مُلسم الدِّين لكنت فقط كاتباً من بين الكتاب، لكنك، وأنت الصابئ، قد إندفعت لإثبات جدارة تتجاوز في قبولها موضوعة الدِّين واخترق سهمك ميـدانا لم يعرف غير المسلمين عملا فيه في دولةٍ إسلامية تُعـد الديانة شرطاً لترؤس ديـوان يخص كل خصوصيات الكتابة باسم الخليفة والأمير والوزير، ديوان الإنشاء.

وأعجبني فيكَ أنك لم تقتنع بأن تكون مجرد كاتب بعد أن دخلت الدولة من أوسع باب فيهـا، بل دخلتَ معترك السياســة أيضا. كيف لا وقد كنت الأقــرب في ميدانهـا إلى الاستشارة في القرار وصناعة القرار وكتابة القرار، وكان لك رأيك وتوجيهك وإشعارك وعملكَ وانحيازكَ إلى الحق وإلى العراق وإلى الذين هــم أحق في الخلافة والولاية، وقــد تحملتَ من ذلك ما تحملت. كدتَ أن تــوضع تحت أرجل الفيلة لولا كل ما لك من أهلية وخدمة وعلاقات، وسُجنت وهُتك حالك، وكنت الصابر العنيد الذي ظل يكتب وهــو في السجن كتبا ورسائلَ كانت مطلوبــة حتى من سجّانيك. تداولتْ دررُ بلاغتكَ مجالس الخلافة والإمــارة، وتسابق عليكَ الخلفاء والأمراء والــوزراء، وإحتفتْ مجالس الأدب بك وبقراءة رسائلكَ والوقوف على أدبك وصنعتك حتى حفظته الألسن معنى وصياغة وبلاغة. صرتَ أوحدَ الدنيا في الرسائــل والاشتمال على الفضائل، وأبــرز من يُستشهد بهم حينما تُذكر صنعة الكتابة ودواوينها، بل وعلى رأس الجميع وفي مقدمة من يُذكرون. فحق أن يُكتب عنكَ وتُدرس طرائقكَ وتُصنف رسائلكَ وتأليفاتك وإلى اليوم في المدارس والجامعات وأن توضع عنكَ المؤلفات ورسائل الدراسات العليا.

ومن أجل أن نوفيك بعض حقكَ إنصافا ومحبةً، نحن أبناء الصابئة المندائيين، حيث نشتركُ وإياك في الاسم واللقب والنسب والإعتبارات الدينية وبروز الهمة ووضعهــا موضع الخدمة الشريفــة التي هي ديــدن الجميع مثلما عرفها شعب العراق ومجتمع العراق، فظل يذكر للصابئة عامة منذ وجودهم غير المحدد في أرض الرافدين وحتى بروز طاقاتهم وكفاءاتهم على يــد ثابت بن قرة وأحفاده، وآل زهــرون وأنت منهم وأحفادهم، وإلى يومنا هذا ذكرا طيبا جزاءَ وجــود مؤسس وعلم ثابت ومعرفة واسعة وخدمة أمينة مخلصة.

لقد جَهدتُ في متابعة كل أثر لك في بطون الكتب بسبب ضياع أغلب ما كتبتَ من أخبار أهلك وديوان شعركَ والكثير من رسائلك التي لم يصلنا منها كل ما كتبتْ ونسختْ. ولولا قيمتك لمــا تناقلت أمهات الكتب أخبارك وآثــارك وحفظتْ لنا صفحات من أدبكَ وشعرك، استطعنــا من خلالها جمع هذه المادة عنكَ، والتي أتشرف بأن أضعها بــين أيدي القراء الكرام عساني أفيك بعض حقكَ علينا فيما كتبتْ وناضلتْ وأسهمتْ في إبراز دور الصابئين والتوصية بشأنهم لدى الخلفاء والوزراء حتى صرنا نذكرك ونُخلدكَ أحفادا.

وإذ أشكرك كلما أذكرك، فــإني حريص على شكر أسرتــي التي تحملتْ مآزرتي في عملي هذا شهوراً طويلة، والتي كانت تستمتع بما أعرض عليهــا مما جمعت، فتتباهى حين أتباهى بك، وتفرح وتتذوق درر نثرك وغرر شعرك، وتحزن معي لمحنة تمر بها وسجن تودع به، حتى صاروا يتابعون بلهفة متى تخرج منه، بل وأشكر دموعهــم التي شاركت دموعي حين أبلغتهم بأنك قد توفيت. وليتني كنتُ يوم انتهيت من كتابك هــذا في العراق لتابعتُ آثار قبرك وزرتـه بعد أن تابعت مكانه وعرفت أنه يقع في منطقة الشونيزي ببغــداد حيث مقبرة معروف الكرخي اليوم بجانب الكرخ، وسأحــرص.

كما أشكر كل من آزرني وأخص منهــم الأخ الأستاذ مديح صادق لقراءته اللغوية والأخ حمــودي مطشر الهلالي لوقوفه معي دعمــا وإسنادا والأخ المهندس سلمان سعيد عبد السادة لمتابعته شأن الإصــدار والطباعة والإرسال. وأتمنى أن أكون قد وفقت في هذا الجهد الذي آمل أن يحظى بالقبول.

والله الحي العزيز من وراء القصد.

أ. د. قيس مغشغش السعدي
شتوتكارت/ ألمانيا
2009/10/5

الباب الأول

أبو إسحق الصابي الإنسان والمكانة

الفصل الأول: ترجمة الصابي وسيرة حياته
الفصل الثاني: ديانة الصابي
الفصل الثالث: العصر الذي خدم فيه الصابي
الفصل الرابع: مسيرة حياة الصابي العملية
الفصل الخامس: محنة الصابي ونكبته الكبرى

الفصل الأول

أبو إسحق الصابي: ترجمته وسيرة حياته

أسرتان صابئيتان برزتا واشتهرتا في ميادين العلوم والأداب إبان الخلافة العباسية ببغداد هما أسرة آل قرة وعميدها ثابت بن قرة، وأسرة آل زهرون وعميدها أبو إسحق ابراهيم بن هلال الصابي. وقد إقترنت شهرة الأسرتين بترابطهما في القربى والتزاوج والنسب، إضافة إلى الانتماء لعقيدة ديانة واحدة.

أما أشهر، وربما أقدم، من تلقب بلقب الصابي[1]، فهو أبو إسحق ابراهيم بن هلال بن زهرون بن حبون[2] الحراني. وقد تفرّد وأفراد أسرته بهذا اللقب، الذي يعبّر النسب إليه عن الاعتزاز بالانتماء إلى ديانة الصابئة. فقد نشأ ابراهيم لأسرة صابئية تعود جذورها إلى مدينة حران. ولا يعرف تأريخ قدومها واستقرارها ببغداد. ويحتمل أن يكون ذلك في الفترة التي قدم فيها ثابت بن قرة إلى بغداد. وبما أن تأريخ قدوم ثابت بن قرة يحدد بحوالي 259 هـ، فإن هذا التأريخ يمكن أن يكون أيضا تأريخا لقدوم أسرة آل زهرون التي ينتسب إليها ابراهيم بن هلال، بحكم العلاقة بينهما التي أوجبت القدوم المشترك. ولا يذكر شيء بخصوص تلقب الصابي بهذا اللقب خاصة وأنه لا يعود إلى مدينة أو بلد أو أسرة معروفة، بل هو لقب لأتباع ديانة عرفوا بهذا الإسم وتناول ذكرهم العرب المسلمون بشكل كبير خاصة بعد ورود هذا الاسم في ثلاث آيات ضمن ثلاث سور عددت وأشارت إلى الديانات في القرآن الكريم[3].

وما يثير أن ابراهيم بن هلال قد إختار هذا اللقب وتلقب به رغم معرفته أنه يعيش في محيط إسلامي، بل وفي عاصمة الخلافة الإسلامية العباسية بغداد. وهو غير بعيد عن مقر السلطة ونفوذها ذلك أن والده من العاملين في خدمة البلاط في مقر الخلافة كما سنرى. كما أن هذا اللقب لم يأت بنعت من الآخرين عليه تمييزا له أو تخصيصا مستندا على الجانب الديني، بل إنه إختيارٌ محظٌ من أبي إسحق نفسه، أو

---

[1] يرد ذكر عمران الصابي أنه كان حجة في العلم والكلام وأنه من حاور الأمام محمد الرضا في حضرة المأمون. ومعلوم أن عصر المأمون سابق للعصر الذي ولد فيه أبو إسحق الصابي بزهاء قرن من الزمن، لكننا لم نقف على أي ذكر آخر لعمران الصابي غير ما يشار إليه في هذه المناظرة التي نظن بأنها سيقت لبيان قدرة الإمام الرضا في المحاجة.

[2] يرد في بعض المصادر على حيون أيضا

[3] الآية 62 من سورة البقرة والآية 69 من سورة المائدة والآية 17 من سورة الحج

ربما أطلق عليه وارتضاه هو. وما يهمنا أن هذه الموافقة وهذا الإعتماد إنما يبنى على القبول المؤسس على إنتماء صحيح للديانة، ذلك أن أبا إسحق قد عُرضت عليه الوزارة إن أسلم، فلم يقدم على ذلك وبقي على دينه. بل أنه قد عانى ما عانى بحكم هذا الإنتماء الديني الذي على الرغم من أنه يقدم لنا دليلا على التسامح الديني في قبول الآخر المبني على القدرة والكفاءة إبان الفترة التي عاشها الصابي، إلا أنه لا يعفي أن الأزمات التي عانى منها أبو إسحق يعود جانب منها إلى إختلاف ديانته وسعي البعض للنيل منه دخولا منها واستغلالا لاختلافها، وهذا ما كان وراء الجهود التي بذلها أبو إسحق للدفع بحسن العبارة وطيب الخلق وقوة الحجة والتدبير، وأحيانا بالإغارة والتحالف مع ذوي النفوذ، وأخرى بالقنوط والنكوص. وفي كل ذلك فقد صار محط إهتمام وإعتبار المنصفين وبخاصة أبناء دينه وملته الذين وجدوا فيه فوق قدراته وإمكانياته التي صار بها أوحد العراق في البلاغة، أنه ظل منتسبا لديانته حافظا لها ودافعا عنها وكاسبا العون لأبناء هذه الملة، ودافعا عنهم ما قد ينالهم بهذا السبب. بل أن الصابئة المندائيين مازالوا إلى اليوم يعدون هذا الرجل واحدا من العظام الذين يخلدون ذكرهم ويفخرون بأسمائهم وبنسبه إليهم. ويعد جهدنا هذا في وضع كتاب خاص عن أبي إسحق الصابي عرفانا من الصابئة المندائيين لهذا الرجل الفذ بكل ما أنتج وما قدم وخدم وما خلف من أدب صار محط دراسة ومدرسة للإتباع وذكر طيب لم يبغضه فيه أحد. وما ذاك إلا لما لمس فيه من مكارم الأخلاق وحسن المعشر حتى في المحن التي أصابته بها تقلبات أهواء الملوك والرؤوساء والقواد الذين عمل في خدمتهم.

ونعتقد أنه لو كان يرى في نسبه الديني إنتقاصا أو عدم جدارة أو أهلية أو حداثة تأسيس ووجود، لما أقدم على التلقب باسمه ولا أصر عليه وعلى عدم تغييره أو تغيير الديانة برغم كل المغريات التي قدمت له. بل أن هذا الإصرار من رجل اختار وارتضى هذا الاسم لقبا له وهو على كبر واكتمال ذكاء ومعرفة، دليل دفع بالضد ممن أشاع قصة تسمّي الصابئة من قبل بعض الحرانيين بهذا الاسم على أثر مرور المأمون بمدينة حران.

ترجمة الصابي

هو ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون بن حبون وكنيته أبو إسحق ولقبه الصابي. وأقدم توثيق لأسرته، أسرة آل زهرون، هو ابراهيم بن زهرون جد أبي

إسحق ابراهيم الكاتب. لقد كان جده هذا طبيبا مشهورا وقد ترجم له القفطي بكتابه تاريخ الحكماء. كما أن حفيد أبي إسحق هلال بن المحسن ثبّت في كتابه " رسوم دار الخلافة" ما يشير إلى جد أبي إسحق وتقدمه في صنعة الطب حيث يذكر:
" وحدثني ابراهيم بن هلال جدي، قال: حدثني هلال أبي، قال: حدثني ابراهيم أبي، قال: كنت واقفا بين يدي المكتفي بالله، وهو يفاوضني في بعض الأمور، إذ جرى ذكر ثابت بن قرة، وسلامة طرائقه، وما كان فيه من أدب النفس..." إن هذه الرواية الموثقة من أحد أحفاد أبي إسحق الصابي وهو يسرد ما يرد من ذكر لجده تشير إلى أن جد أبي إسحق هو أيضا ممن ذاع صيته وتقدمت قدمه في المواقع والمناصب ولولا ذلك لما وقف بين يدي المكتفي وعمل في خدمته. ومثل هذا التقدم لا يكون أيضا إلا لسلالة ممتدة في مثل هذا الميدان والتقدم فيه والذي يكفل لها قربها من دور الخلافة ومواقع القيادة سواء بالنبوغ أو بالسيرة والتدبير. ومـا يؤكد ذلك أن أبا الحسن ثابت عم أبي إسحق كان طبيبا ماهرا أيضا.

ولد أبو إسحق في بغداد من أبوين صابئيين. وقد أختلف في تأريخ ولادته حيث يرد ذكران، أحدهما يحدد سنة ثلثمائة وثلاث عشرة هجرية. وهذا ما ورد في العديد من المصـادر التي وثقت لأبي إسحق ومنهم حفيده هلال بن المحسن في كتاب التأريخ. أما التأريخ الثاني فهو الذي يذكره ابن النديم في كتاب الفهرست ونقلته عنـه كتب التراجم من بعـد والذي يحدده في سنة ثلثمائة ونيف وعشرين هجرية.

أما أبوه فهو هـلال بن ابراهيم، وقد كان طبيبا حاذقا عاقـلا صالح العلاج متفننا خدم الناس بصناعته وتقدم عنـد أجلاء بغداد وخالطهم. كما وضعه تقدمه في صنعته وأخلاق مهنته في خدمة القادة والمبرزين وأهمهم القائد التركي " توزون"[4]. وقـد حرص والده على تربيته وأخوته على الأدب والعلم وسعى أن يرتقوا الصنائع الكبار. وتوفي والـده في حياته وأقام له مجلس عزاء حضره الوزير المهلبي وكبار رجال الدولة.

أما والدتـه فلم تورد المصادر عنها شيئا سوى ما أورده ياقـوت الحموي في كتابه معجم الأدباء عند ترجمته لثابت بن سنان بن ثابت بن قرة حيث يورد قصيدة لأبي إسحق الصابي قال أنه يرثي فيها خاله أبا الحسن ثابت ومنها:

---

[4] هو أبو الوفاء توزون قائد تركي في زمن الخليفة المتقي، رقاه الى رتبة أمير الأمراء في سنة 331 هـ فتحجر على الخليفة وسمل عينيه سنة 333 هـ وبايع للمستكفي بالله، وقد توفي سنة 334 هـ.

أسامعٌ أنتَ يا من ضَمَّهُ الجَدفُ | نشيجَ باكٍ حزينٍ دَمعُهُ يَكِفُ
وزفرةً من صميم القلبِ مَبعثُها | يكادُ مِنها حِجابُ الصَّدرِ يَنكشِفُ
أثابتُ بنَ سنانٍ دَعوةَ شَهَدَتْ | لِرَبِّها أنهُ ذو غِلةٍ أسِفُ
ما بالُ طِبِّك ما يشفي وكُنتَ بهِ | تَشفي العليلَ إذا ما شَفَّهُ الدَّنفُ
ثوى بمثواك في لَحدٍ سَكَنتَ بهِ | الدِّينُ والعقلُ والعلياءُ والشَّرفُ

وإذا صح هذا، فيعني أن أم أبي إسحق هي بنت سنان بن ثابت بن قرة. وليس بين أيدينا مما كتبه أبو إسحق ما يوثق لنا الكثير عن والديه سوى بيتين من الشعر يقول فيهما:

أسرةُ المرءِ والداه وفيما | بين حُظنيهما الحياةُ تطيبُ
فاذا ما طواهما الموتُ عنهُ | فهوَ في الناسِ أجنبيٌّ غريبُ

ومع أن والد أبي إسحق وأبناءه وأحفاده قد عنوا بكتابة التاريخ وتوثيق الأحداث، إلا أن جوانب كثيرة في حياتهما الداخلية والأسرية غير موثقة أو ربما أنهم وثقوها وفقدت مثلما فقد العديد من كتبهم . ولذلك لا نجد رثاء لأبي إسحق في وفاة أمه أو أبيه على ما يذكر لنا من فضل لأبيه عليه في صنعته الأولى الطب وفي تحوله إلى صنعة الأدب واشتغاله بها كما سنرى. وكذلك قيمة مجلس العزاء الذي أقامه عليه والذي وصل أن زاره فيه معزين كتاب وأدباء وقواد وكان على رأسهم الوزير المهلبي. ويبدو لنا أن مقاطع الأدب وقصائد الشعر التي وثقت لأبي إسحق قد أهملت الأمور التي تتعلق بأسرته إلا في القليل منها، ذلك أن ما وثق أعتمد على ما يروى وينقل مما يفيد وليس مما هو مدون له كديوان شعر منفرد مثلا أو ضمن رسائل خاصة من رسائله التي كتبها. ويذكر أن للصابي أخوين هما أبو العلاء كما يذكر ياقوت الحموي في معجم الأدباء وكما يثبت الصابي في إحدى رسائله لابنه البكر سنان، والأخ الآخر هو أبو الفضل جابر بن هليل بن ابرهيم، بحسب ما عثرنا عليه في رسالة [5] ضمن مخطوطة جامعة لايدن لبعض رسائل الصابي كتبها إلى أخيه هذا، ولم يرد ذكر لأخت أو أكثر من أخوات الصابي إلا أنه له ابن أخت كان منجماً على ما تشير بعض المصادر. ومع ذلك فإن أسرة الصابي كانت كبيرة من أولاد وبنات وأحفاد بحسب ما يذكر هو في بعض أشعاره:

---

[5] يمكن الرجوع الى الرسالة في الصفحة 280

ولـدٌ لهـم ولدٌ وبطـنٌ ثالثٌ هو رابعي وعشيرتي وأقاربي

وكذلك:

إناثٌ وذكرانٌ أبيتُ من أجلهـم على كَمَدٍ بين الحجابينِ مُقلق

فباكيةٌ تَرثي أبـاهـا ولَـمْ يَمُتْ وبائـنـةٌ من بَعلهـا لـمْ تُطلَّـق

نشأة أبي إسحق الصابي وتربيته

لم تورد المصادر الكثير عن طفولة أبي إسحق ونشأته الأولى، ولكننا نتلمس أن هذه النشأة إنما كانت في كنف مترف وفي أسرة موسورة الحال. فالأب طبيب حاذق قادته البراعة في صنعته إلى حد أن يدخل في خدمة الرؤوساء والقادة وهذا يعني أن مهنته تدر عليه ما يجعل العيش رغيدا وهكذا كان عمه، كما أن نسب والدته الذي يرجع إلى آل قرة وهم ممن توارث مهنة الطب أيضا وعملِ في خدمة الخلفاء والأمراء، فهي بنت جاه وغنى ومن أسـرة متعلمة، ولابد أنها قد أصابت نصيبا من هذا التعلم. ولا شك أن من أحرص ما يحرص عليه مثل هذين الأبوين هو تعليم أبنائهم وتربيتهـم بما يؤهلهم لإقتداء خطاهم كي يتفوقوا في حياتهم اللاحقة، خاصة وأنهم من ديانة غير ديانة الدولة وعامة الناس وإن أية منافسـة أو تقدم أو نجاح إنما يبنى على القدرة الذاتية للأفراد ومدى نبوغهم وتحصيلهم للعلم وتفوقهم على أقرانهم فيه وفي صنائعه بما يفتح لهم الأبواب من أجل ضمان حياة كريمـة وعيش رغيد. وهذا لاشك وراء السعي الدؤوب لتعليمهم حتى أسرار الصنعة وأسباب التعامل في ميادين الخدمة في دار الخلافة والإمارة. كما إن التربية في دار علم وأسرة متعلمة سيقود حتما إلى أن يفتح الطفل عينيه على صنعة الدار ومساعدة الأب والتواجد معه فيكون الأب معلمه والأم أيضا إضافة إلى الأعمام والأخـوال، ناهيك عن إرسالـه للتأدب على يد المؤدبين والمعلمين المتخصصين. وهذا ما نلمسه في تهيئة وتربية ابراهيم بن هلال، ذلك أن حفظه للشعر والقرآن الكريم والأحاديث النبوية إلى الحد الذي تدور فيه على لسانـه ويسلب، بإستخداماته الصحيحة لها ولقواعدها وسننهـا، ألباب جميع من يقرأون لـه فيشهدون له بالبراعة، لا يكون إلا على تنشئة مناسبة ورغبة منه مطابقة. كما أن حظه من العلوم والرياضيات ليس بالقليل ولذلك فقد إنشغل في الكثير من مسائلها وعنى حتى

بتأسيس المراصد وصناعة الإصطرلابات. أما على من درس أبو إسحق فهذا ما لم يردنا توثيقه لا من جانبه ولا من جانب من كتب عنه.

وليس لدينا الكثير مما يذكره أبو إسحق عن علاقته بوالده والحوادث الجارية وهو بمعيته سوى حادثتين نوردهما هنا كما وردا على لسان أبي إسحق لما لهما من دلالة وتأكيد على رفاهية تنشئته وتربيته.

الرواية الأولى وفيها يقول:" رأيت أبا الحسين[6] والدي في يوم من أيام خدمته لتوزون وقد خلع عليه وحمله على بغل حسن بمركب ثقيل ووصله بخمسة آلاف درهم، وهو(يقصد والده) مع ذلك مشغول القلب منقسم الفكر فقلت لهُ: ما لي أراك يا سيدي مهموماً ويجب أن تكون في مثل هذا اليوم مسروراً؟ فقال: يا بني، هذا الرجل، يعني "توزون"، جاهل يضع الأشياء في غير موضعها، ولست أفرح بما يأتيني منــه من جملة عن غير معرفة. أتدري ما سبب هذه الخلعة؟ قلت: لا. قال: سقيتــه دواءً مسهلاً فجاف عليه وسحجــه وقام عدة مجالس دماً عبيطا حتى تداركته بما أزال ذلك عنــه وكفى المحذور فيه فاعتقد بجهله أن في خروج ذلك الدم صلاحاً لهُ. ولست آمن أن يستشعر في السوء من غير استحقاق فتلحقني منه الأذية وكذلك كانت حاله معه من بعد."[7]

والرواية الثانية تؤكد ما ذهبنا إليه من حرص والده على حسن تعليمه واعتماده صنعة آبائه المتوارثة في الطب. يقول أبو إسحق:" كان والدي أبــو الحسين يلزمني في الحداثة والصبى قراءة كتب الطب، والتحلي بصناعته، وينهاني عن التعرض لغير ذلك، فقويتُ فيهــا قوة شديدة، وجعل لي برسم الخدمة في البيمارستان عشرون ديناراً في كل شهر، وكنت أتردد إلى جماعة من الرؤساء، خلافة له، ونيابة عنه، وأنا مع ذلك كاره للطب، ومائل إلى قراءة كتب الأدب، كاللغــة والشعر، والنحو والرسائل والأدب. وكان إذا أحس بهــذا مني، يعاتبني عليه، وينهاني عنه، ويقول: يا بني، لا تعـدل عن صناعة أسلافك[8]. فلما كان في بعض الأيام، ورد عليه كتاب من بعض وزراء خراسان يتضمن

---

[6] لقد تكنى أغلب البارزين من الصابئين سواء من آل قرة أو آل زهرون بكنى آل البيت ومنها أبو علي وأبو الحسن وأبو الحسين وأبو الفضل أما تقربا أو لأن هذا هو المعتمد في كنية سنان وثابت وهلال. أما إبراهيم فقد تكنى على ما معهود من كنية لاسم ابراهيم وهي " أبو إسحق".

[7] القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف. أخبار العلماء بأخبار الحكماء

[8] يتأسس فهمنا من هذه العبارة أن أسلاف الصابي كانوا أطباء وليس والده وحده فحسب ، وخشي والد ابراهيم أن يعدل إبراهيم عن قيمة هذه المهنة وفرصة العيش من خلالها في حياة كريمة.

أشياء كثيرة، كلفه إياها، ومسائل في الطب وغيره، سأله عنها، وكان الكتاب طويلاً بليغاً، قد تأنق مُنشئه وتغارب. فأجاب (والدي) عن تلك المسائل، وعمل جملاً لما يريده، وأنفذها على يدي إلى كاتب، لم يكن في ذلك العصر أبلغ منـــه، وسأله إنشاء الجواب عنـــه. قال: فمضيت، وأنشأت أنا الجواب، وأطلته وحررته، وجئت به إليه، فلما قرأه، قال: يا بني، سبحان الله، ما أفضل هذا الرجل وأبلغه! فقلت له: هذا من إنشائي، فكاد يطير فرحاً، وضمني إليه، وقبل بين عيني، وقال: قد أذنت لك الآن، فامض، فكن كاتباً." [9]

إن هذه الحادثة لها أهمية كبيرة في حياة أبي إسحق ذلك أنها تعـــد نقطة تحول من صنعة الطب التي برعت بها أسرته وتوارثتها وإستحقت بها مكانة مرموقـــة في خدمـــة الخلفاء والأمراء وخاصة القوم، ووفرت لهم أمانا وعيشا رغيدا، إلى صناعة أخرى ربما هي جديـدة المكسب لهذه الأسرة، على الرغم من أن الأسرة بأجمعها هي أسرة علم وأدب، وإلا لما تذوق والد أبي إسحق أدب الخطاب وبلاغة الإنشاء. كما أنها تؤشر أن نزعة أبي إسحق كانت أدبية على الرغم من تفوقه في ميادين العلوم وصنعة الطب وممارسته وخدمتـــه فيها. كما تشير إلى أن أبا إسحق قد أبدى لوالده هذه الرغبة وأظهر له تلك النزعة لكنه ربما لم يلق آذانا صاغية. وجاءت هذه الفرصة لتعزز الرغبة وتظهر القدرة، فما وجـــد والد أبي إسحق مناصا من ترك الأمر لولده بالمضي فيما يرغب، بل واغتنام فرص الخدمة في دار الخلافة وتوابعها من أجل دفع الإبن إليها ليكون له موقع في صنعته الجديدة، وهذا ما حصل.

ويظهر أن فراسة والد أبي إسحق ومعرفته بالرجال والأحوال قد تحققت، ذلك أن خدمـــة الكبراء والتعامل مع الأمراء يعلي تارة ويخفض أخرى، بحسب الرضا والسخط والسرور والغضب والتحقق والإخفاق، وغالبا ما تكون العقوبة شديدة. ويذكر بأن عائلة أبي إسحق قد نكبت من قبل القائد التركي " توزون". ويظهر أن هذه النكبة قد أتت على أموال العائلة. وربما كان ذلك سببا لعودة أبي إسحق في متابعة العلوم والإشتغال بـــها. ولكن نبوغه الأدبي وقدرته العالية في صنعة الكلام التي برزت قد أوصلت سمعته إلى الوزيـــر المهلبي. وفي هذا نقرأ ما ثبت بخط أبي علي المحسن بن ابراهيم بن هلال يقول:" حدثني والدي رحمه الله، قال: وصِفتُ وأنا حدث، للوزير أبي محمد المهلبي، وهو يومئذ يُخاطب بالأستاذ، فاستدعى عمي أبا الحسن، ثابت بن

---

[9] ياقوت الحموي، معجم الأدباء

ابراهيم [10]، وسأله عني والتمسني منــه، ووعده فيّ بكل جميل. فخاطبني عمي في ذلك، وأشار علي به، فامتنعت، لانقطاعي إلى النظر في العلوم، وكنت مع هذه الحال شديد الحاجة إلى التصرف، لقرب العهد بالنكبة من توزون، التي أتت على أموالنـــا، فلم يزل بي أبي، حتى حملني إليه، فلما رآني تقبلني، وأقبل علي، ورسم لي الملازمة، وبحضرته في ذلك الوقت جماعة من شيوخ الكتاب. فلما كان في بعض الأيام، وردت عليه عدة كتب من جهات مختلفة، فاستدعاني، وسلمها إلي، وذكر لي المعاني التي تتضمنها الأجوبة، وأطال القول، فمضيت، وأجبت عن جميعها، من غير أن أخل بشيء من المعاني التي ذكرها، فقرأها حتى أتى على آخرها، وتقـــدم إلي في الحال بإحضار دواتي، والجلوس بين يديه متقدماً على الجماعة، فلزم بعضهم منزله وجداً وغضباً، وأظهر بعضهم التعالل، فلم أزل أتلطف وأداري، وأغضي على قوارص تبلغني، حتى صارت الجماعة إخواني وأصدقائي."[11]

أسرة أبي إسحق الصابي

لا تذكر المراجع والترجمات شيئا عن زواج أبي إسحق ولكننا نخمن أن ذلك قد تم في بداية العشرينات من عمره قياساً بأعمار ولديه. كما لم تثبت المصادر شيئا عن زوجته، ونحن نجد في العلاقة المتداخلة بين أسرته وأسرة آل قرة و التزاوج المشترك والمعهود بينهما ما يمكن أن يكون سببا في أن يختار أبو إسحق زوجا لــه من هذه الأسرة. فهي الموازية والموافقة لهم في حسب الصابئين وجاههم. كما لم يرد فيما كتبه ابنـــه المحسن، الذي إمتهن الكتابة والتوثيق، ذكرا لأمهم. وقد ذكر البعض أن للصابي ثلاثة أولاد هم:

---

[10] ترجم له القفطي في كتابه " أخبار العلماء": هو أبو الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني، كان طبيباً فاضلاً كثير الدراية، وافر العلم بارعاً في الصناعة، موفقاً في المعالجة، مطلعا على أسرار الطب، بل إعتبره بعضهم " أوحد زمانه في الطب". وقد تنافس والأمراء على إستبقائه طبيبا لهم. وكان أشدهم تمسكا به وإكبارا له الأمير البويهي عز الدولة الذي وقف على براعة أبي الخلفاء، الحسن في الطب بحسب رواية القفطي في كتابه أخبار العلماء على ما دونه هلال بن المحسن حفيد أبي إسحق الصابي، وذلك حين هجمت على الوزير ابن بقية علة شديدة أيام وزارته لعز الدولة، فقصد منها فأمسى ذاهب العقل لا يسيغ طعاما ولا شرابا ولا يحير جوابا، فجمع له عز الدولة أطباء بغداد فعجزوا عن معالجته. ودواه ثابت بن إبراهيم فهدأت حاله وتزايد سكونه وظهر إصلاحه الى أن فاق. فأغدق عز الدولة على أبي الحســن مالا جزيلا وكذلك فعل إبن بقية. وله شواهد أخرى يمكن الوقوف عليها في مراجعها.

[11] ياقوت الحموي، معجم الأدباء

1- سنان بن إبراهيم بن هلال " أبو سعيد"

2- محسن بن إبراهيم بن هلال" أبو علي"

3- صاعد بن إبراهيم بن هلال " أبو العلاء"

ونشك في أن صاعدا هو ابن أبي أسحق ذلك أن حياة أبو إسحق وذكره لأولاده لم توثق لصاعد على أنه من أبنائه. فأبو إسحق إنما يذكر ولديه سنان ومحسن. وأن سنانا هو أسن أولاده ولكنه لم يكن ذا منزلة أدبية أو صنعة راقية، ويبدو أن والده قد عانى منه ولم يتوان من تقبيح أفعاله فيما كتب له من رسائل أو إشارة شعر يفهم منها أنه يقصده دون أخيه المحسن. وقد توفي في سنة 381 هـ في حياة والده. وفي وفاته عزاه الشريف الرضي فيمن عزاه وكانت تعزيته من أحسن ماكتب في نسخ التعازي[12]

وقد كتب أبو إسحق قصيدة في رثاء ولده جاء فيها:

هدّركني مثوى سنان وقد كا ن يهدّ الأركان من أعدائي [13]

وأما أبو علي المحسن بن ابراهيم، وكان يلقب بصاحب الشامة لوجود شامة حمراء في وجهه، فقد كان أديباً فاضلاً بارعاً، قد لقي الأدباء والعلماء وأخذ عنهم كأبي سعيد السيرافي وأبي علي الفارسي وأبي عبيد الله المرزباني. مات في ثامن محرم سنة إحدى وأربعمائة وله شعر حسن من مثله. وقد عمل في البلاط البويهي وأصابه ما أصاب والده في الكثير من الأزمات، وكان ابنا بارا وأبا صالحاً.

وقد ظهر لنا أن أبا العلا صاعد هو أخو أبي إسحق وليس ابنه وربما كان أصغر منه سنا ولذلك فقد تربى معه في البيت ولذلك ذهب الظن أنه أخوه . و يرد أن أبا إسحق هو " كبير بيته، وأهل بيته فضلاء نبلاء"[14] وإن إشراف أبو إسحق على بيته جعل الظن بأن صاعدا ابنه. وما يؤيد ذلك ما يثبته المحسن بن أبي إسحق بخطه من قصيدة يقول: " أن أبا الحسن بن سكرة الهاشمي كتبها إلى والدي وعمي أبي العلاء مشيدا بآل هلال" [15] جاء فيها:

آمنوا يا بني هلالَ جميعاً نوبَ الدهرِ والزمانِ المعاندِ

وارتقوا كيف شئتم في المعالي وأذلوا وأهبطوا كل حاسدِ

---

[12] سترد التعزية في بابها

[13] سترد القصيدة ضمن شعر أبي إسحق في الرثاء

[14] الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات

[15] ياقوت الحموي، معجم الأدباء

لكـم فـي أبي العـلاء علـو	وصعـودٌ ببدره التم صـاعد
زاد في عزكم ومازال منكم	كل يوم يزيد في الصيد واحد

و كان صاعد ذا حظ متقدم أيضا في العلوم والآداب. ولأبي إسحق أخ ثان اسمه جابر وكنيته أبو الفضل وقد خاطبه الصابي برسالة أوردناها في باب الرسائل.
ويذكر من المبرزين في أسرته أيضا عمه أبو الخطاب الصابي، وهو أديب فاضل أيضا وكان من خواص الوزير المهلبي. ومن المبرزين أيضا ابن عمه صاعد بن ثابت وكان قد عمل بمعية عضد الدولة أيضا وهو من أتراب أبي إسحق ومناهزيه عمرا. كان أديبا فاضلا ذكره أبو إسحق في الكثير من رسائله وحزن على وفاته ذلك أنه توفى قبله فكتب إلى عمه معزيا يقول فيه: "هو بضعة مني لا تتميز، وكاللحمة التي لا تنفصل". ومما يشير إلى تقدم قدم صاعد في دار الإمارة ما يذكر القاضي التنوخي في كتابه نشوار المحاضرة قال[16]:
حدثني أبو العلاء صاعد بن ثابت، قال: لما كثر دخولي إلى الملك عضد الدولة، ببغداد، سنة أربع وستين وثلثمائة، وكان إذا رآني، يقول لي سائلاً: يا أبا العلاء، ما أنحل جسمك؟ فلما كثر ذلك علي، عملت أبياتاً، وأنشدته إياها، وهي:

يقـولُ مليكُ الأرض جسمـك ناحلٌ	على ذاك عرضي والثناءُ جميلُ
وأحسـنُ مـا في الهنـدواني أنـه	نحيفٌ رقيـقُ الشفرتين صقيلُ
فإن أكُ معـروقَ العظامِ فإننـي	نهـوضٌ بأعباء الأمور حَمـول
أقوّم أغصـانَ الخطوب إذا التوت	برفـقي ومثلي في الكفاةِ قليل
أرى الملك المنصور أنكر مضربي	وأي حسـام ليس فيـه فلـول
وكم لك عنـدي من بر وصنيعة	أقصّر عن شكري لها فتطول
ومن لفظـةٍ تسـري إلي ونظـرة	عليهـا من الرأي الجميلِ دليل
إذا صحَ لي من حسن رأيكَ لمحـة	فليـس لمقـدورٍ إلـيَّ سبيـلُ

---

[16] القاضي التنوخي، نشوار المحاضرة

ويظهر أن للصابي بنات أيضا لكن لم يرد ذكرهن صريحاً لكننا نلتمس ذلك فيما كتبه الصابي من قصيدة لعضد الدولة يسترحمه فيها بناء على مناجاة أبنائه وأحفاده يقول:

إناثٌ وذكرانٌ أبيتُ من أجلهم على كَمدٍ بين الحجابين مُقلقِ

رسائِلهم تأتي بما يَلدغُ الحَشا ويصدَعُ قلبَ النازعِ المتشوقِ

فباكيةٌ تَرثي أباها ولَمْ يَمُتْ وبائنةٌ من بَعلها لَمْ تُطلَّق

زغبٌ مِنَ الأطفالِ أبناءُ مَنزلٍ شواردٌ عَنهُ كالقِطا المُتمزق

ومن أحفاد أبي إسحق الذين يذكرون بشكل مبرز هلال بن المحسن 359- 448 هـ الذي يكنى بأبي الحسين. درس على كبار علماء عصره مثل أبي علي الفارسي وعلي بن عيسى الرماني وغيرهما من علماء القرن الرابع الهجري. ويعد جده أبو إسحق الصابي أكبر أساتذته وأبعدهم تأثيرا في نفسه. فهو من اهتم بتربيته وتثقيفه أملا في أن يخلفه في رئاسة ديوان الإنشاء. وقد بث فيه حب اللغة والأدب ودربه على أساليب البلاغة وزج به مبكرا في ديوان الإنشاء. وكان بارعا تدرج في هذا الديوان حتى أصبح رئيسا له في عهد الوزير أبي غالب فخر الملك الذي وزر لبهاء الدولة ثم لابنه سلطان الدولة. كما اشتغل هلال مؤرخا أيضا وكان له كتاب في التأريخ أبتدأه موصولا بكتاب التأريخ الذي وضعه خاله ثابت بن سنان، وتأريخ ثابت له صلة بتأريخ الطبري. ولهلال عدة كتب ذكرت ولكنها ضائعة منها: كتاب أخبار بغداد، وكتاب الأمثال والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان، وكتاب الرسائل وقد جمع فيه رسائله الديوانية، وكتاب السياسة، وكتاب الكتاب، وكتاب مآثر أهله. أما كتبه التي بقيت وحققت وطبعت فهي كتاب: تحفة الأمراء في تأريخ الوزراء، وقد بقي منه جزء واحد هو الجزء الأول الذي يحتوي على ترجمة لثلاثة من وزراء الخليفة المقتدر. وكتاب رسوم الخلافة ويعالج المراسم المتبعة في دار الخلافة ومنها جاءت كلمة مرسوم ملكي أو أميري أو جمهوري. وكتاب غرر البلاغة.

ومن المبرزين بين أحفاد أبي إسحق الصابي ابن حفيده هلال والمعروف بغرس النعمة. ونرى أن هذا اللقب مهم جدا في ربط هذه الأسرة بالصابئة المندائيين ذلك أن هذه التسمية ليست من الكنى المعروف التكني بها في الأسماء لهلال أو ابراهيم، بل هي غريبة عن ذلك. فإذا علمنا بأن تسمية نبي الله شيت في الأدب المندائي هي " شيتل

طابا" والتي تعني الغرس الطيب، ذلك أن كلمة شيتل من الفعل شتل أي غرس، وأن كلمة " طابا" تتطابق في اللغة الآرامية معنى ولفظا مع اللغة العربية لتعني الطيب، فيكون في كنية " غـرس النعمـــة" تطابق مع المصطلح المعتمد في الأدب المندائي كوصف للنبي شيت من أنه " شيتل طابـا". وهذا يدلل من جانب عن أن هنالك إرتباط لآل الصابي بالمندائيين، وقد حرص هلال بن المحسن بن ابراهيم بن هلال بن زهرون على إحيـاء ذلك والإشارة إليه فإعتمد كنيتـــه ترجمة عربية لـ" شيتل طابا"

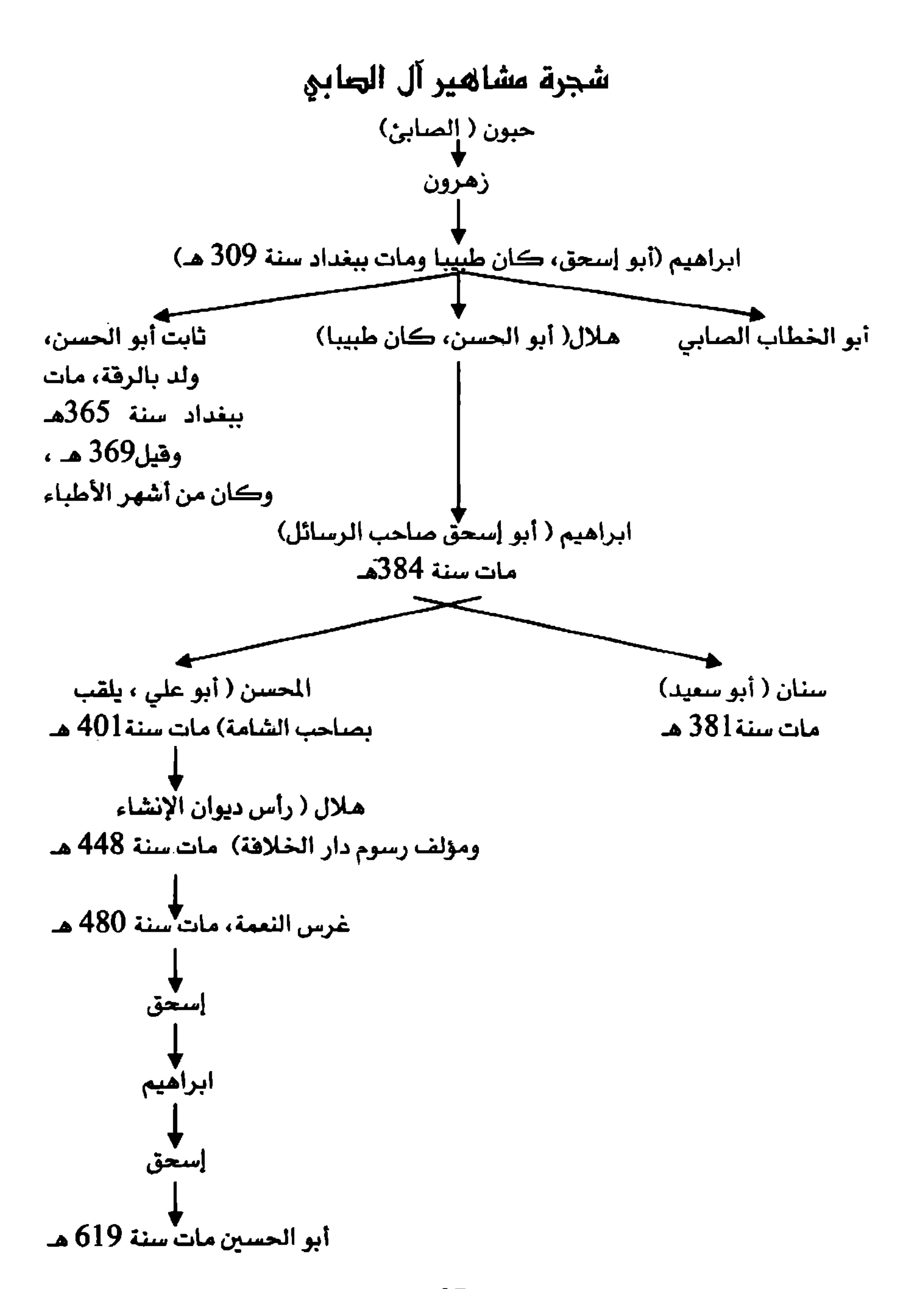
لقد كان غـرس النعمة 416- 448 هـ شديد الذكاء وقد أحسن والده تربيته وتكوين شخصيته الأدبية وكان معلمه الأول، ويظهر ذلك في الإعجاب الكبير والتقديـــر العالي الذي كان يكنه غرس النعمة لوالده فيما كتب ووثق. وقـــد ذكر الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات أن غرس النعمة إستطاع بفضل ثقافته وحسن تربيته وتدريبه أن يتولى ديوان الإنشاء أيام الخليفة القائم بأمر الله. ورغم أن الفترة ربما تكون قصيرة بحكم أن الترجمات التي ذكرها المؤرخون عن غرس النعمة لا تشير إلى هذه التولية، إلا أن تقدم غرس النعمة بصنعة الأدب وصيت الرياسة المتوارثة في أسرته وأخلاقه العالية مكنته من ذلك مع أنه كان أميل إلى كتابة التأريخ.

لقد ترك والد غرس النعمة لابنه ثروة كبيرة وخلف له أملاكا نفيسة، وقد تمكن بهذه الثروة أن يعيش في بحبوحة هانئة بعيدة عن الويلات التي شمل بها والده وجده أبو إسحق أثر النكبات التي تعرضوا لها بحكم قربهم من دار الخلافة وبيوت الإمارة. ولـــذا فلم يتزلف غرس النعمة للأمراء والوزراء ولم يكن عرضة لأهوائهم وتقلباتهم أو تقلبات الأيام عليهم، بل إن علمه وأدبه مكتملا بماله جعله محط إهتمام ورعاية ونفوذ عند الجميع. كما أنـه وبفضل الثروة التي ورثها إنقطع إلى البحث والتأليف. ويشار إلى أنه حافظ على الثروة التي ورثها وزادها حتى وصلت عند وفاته إلى " سبعين ألف دينار" وهو مبلغ ضخم يشكل ثروة طائلة في ذلك الوقت.

ومما خلف غـرس النعمة على المستوى الثقافي ثلاثة كتب هي: كتاب التأريخ، كتاب الربيع، وكتاب الهفوات النادرة. أما كتاب التاريخ فقـــد كان تتمة لما إنتهى إليه كتاب والده وقد وضعه بناء على رغبة أبيه. ويعتبر هذا الكتاب من أهم مؤلفاته بشهادة المؤرخين الذين أعقبوه. وأما كتابه الهفوات النادرة فهو يعالج الهفوات الجارية على ألسن المتحرزين وكذلك أخبار المغفلين وهو كتاب متداول بين أيدي الكثيرين.

وظل الفضل في آل الصابي، على ما تذكره وتوثقه المصادر، متوارثا علما وأدبا إلى القرن السابع الهجري.

شجرة مشاهير آل الصابي



تربية أبي إسحق لأبنائه وأحفاده

لقد تميز أبو إسحق بحبه لابنيه سنـــان والمحسن، وقد كان يراعيهما حتى وهـــم في سن مكتملة، ثم امتد حبه وحنانه إلى أحفاده وبشكل متميز أيضا. ويشير ذلك إلى طيب أصل هذا الرجل وحسن تربيته وحرصه على أسرتـــه وما تحض عليه ديانته في الحنو والتماسك الأسري الذي كان وراء جانب من تغير مسيرة حياة الصابي. يؤكد هذا رفض أبي إسحق العرض الذي عرَضه عليه عضد الدولة البويهي بمرافقته والذهاب معه إلى خراسان ليكون كاتبه ومستشاره، كما سيمر علينا، وآثر عدم الذهاب على الرغم مما كانت تحيط به الظروف في بغداد من مصيـر صعب ومخاطر هو في غنى عنهـا. وتؤكد أغلب المراجع أن اعتذار الصابي لعضد الدولة كان بأسباب خوفه على أسرتـــه وأبناء ملته من أن يغيروا ديانتهم بعده إذا ما تركهم، ذلك أن أفراداً نابغين مثل آل الصابي وآل قرة هم مصدر فخر إن أسلموا، وعلى هذا لم تبطل المحاولات في هذا الأمر ترغيبا وترهيبا.

ونستدل على هذا الحب الذي حبى به أبناءه من جملة كتابات شعرية ونثرية، فقد كتب لبعض أولاده: " قـد أوحشتني، جعلني الله فداك، إيحاشاً شديدا، ونزلت من الأولى بك منزلاً بعيدا، وكان جفاؤك إذا جفوت قولاً لا فعـــلاً، فقـــد جمعتهما الآن جمعاً يخالف الحقوق ويساوي العقوق، وأنا في ذلك صابر عليك لا عنك، ولولا العلة التي تراءت من بعدك وتضاعفت لبُعـدك، لكنت مكان هذه الرقعـــة، مستعيداً لك إلى المسرة ومستعفياً من الجفوة"

وقال معاتباً أحد أبنائه:

أرضى على ابني إذا ما عَقني حَذراً — عليه أن يغضبَ الرحمنُ من غضبي
ولستُ أرى بما استحققت من ولدي — إقـذاءَ عيني وقـد أقررتُ عينَ أبـي

وتظهر في هذين البيتين محبة الصابي وخوفـه حتى مجرد أن يغضب على ابنـــه، لأن ذلك سيُغضب الله لإيمان الصابي بالله الرحمن، وبأن رضا الله من رضا الوالدين، وعلى هـــذا فقد أقر هو عين أبيه ولم يغضبه.

وحين سُجن ولدا أبي إسحق معه في السجن، وأفُرج عن المحسن وبقي سنان في السجن، نراه يكتب إلى أبي القاسم المطهر وزير عضد الدولة ملتمساً إياه أن يفرج عن سنان أسوة بأخيه فيقول:

ابناي عيناي كَفَّ الحبس لحظهما وعـز حسهمـا عـن منظـر النـورِ
أطلقت لي منهمــا عينــا وقد بقيت عينٌ فصرتُ من الابنين كالعَور
فسـوِّ بينـهمــا في فـك أســرهمــا مستوفراً منهما من أجر مـأجور
يفديـك بالأنـفسَ التي منـنـت بهــا أبوهمـا وهمـا من كل محذور

وكتب من الحبس إلى إبنه المحسن بما يشير إلى عميق المحبة لأبنائه يقول:

دع المُحســن يـَحيـا فـهـو جوهــرة جواهر الأرض طُرا عندها عرضُ
اتركــه لــي وأخيّاهُ ثُـم خـُـذ سبلي ومهجتي فهمـا مغـزاي والغـرضُ

وكم يفرح ويرق لرؤية حفيده ابن المحسن فيقول:

أبــو علي مُحســن كبــدي وقد نشا من فتـاه لي خلبُ
كأن هـــذا وذاك إذ نسبــا مني ســوادٌ يضمــه قــلـبُ
لازلتُ ألقى الخطـوبَ دونهما حتى كأني عليهمـا حجبُ

وقد حرص أبو إسحق على أبنائه وأحفاده وأوصى لهم من رَبَطَته بهم الصداقة والإيثار من أهل الشأن فكتب إليهم موصيا بهم في الوصل وإيفاء الذمة، ومن ذاك يكتب إلى بعض الرؤوساء في إستيفاء الرزق لهم فيقول:

ومــا أنا إلاّ دوحـة قــد غرستـهـا وسقيتها حتى تراخى بهـا المدى
فلما اقشعر الجلد منها وصوّحت أتتك بأغصان لهـا تطلب الندى

كما كتب إلى بعضهم قصيدة في إنفاذ ابنه إليه ليستخدمه يقول فيها:

بعثـتُ إليـك ابــني وبــالله إنــهُ لأحلى من النفسِ المُقيمـةِ في جنـبي
وهــل أنــا إلا نسخـة هي أصلــهُ وهل هـو إلا كالمحررِ في الكتـب
وشتــانَ بين العودِ أيبس وانحنــى وبينَ النباتِ الغض والغُصن الرطب

ومن حنوه أنه أوصى صديقه الصاحب بن عباد الاستمــرار في إجراء المساعدة التي كان يحظى بها منه على أبنائه بعد وفاته. كما جاء في جملة المخاطبات الشعرية التي كتبها الصابي لصديقه الشريف الرضي ما يشير إلى ما ذهبنا إليه، فهو يخاطبه بالقول:

وكُنْ لي في الأولادِ والأهل حافظـاً إذا ما اطمأنَ الجنبُ في مضجع النقا

وقال له أيضا:

هناك فاحفظْ في بنيَ أذمتي وذدْ عنهُم روعاتِ كلِّ زمــانِ
فـإني أعتـدُ المودّةَ مِنكَ لـي حُساماً به يَقضـونَ في الحَدثان

دار أبي إسحق الصابي ببغداد

كانت منطقة باب البستان تقع في الجانب الشرقي من مدينة بغداد، وكانت الـدور على الشط من هذا الموضع عامرة مزدهرة، أبرز ما عرف فيها دار الوزير علي بن عيسى[17]، وهي دار مشهورة كثيرا، ودار أخرى لأحمد بن بدر وهو عم السيدة أم الخليفة المقتدر بالله. قال هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي: " وكان أبو إسحق ابراهيم إبتاع دار عبيد الله بـــن القاسم من أبي الحسن بن أبي عمرو الشرابي حاجب الخلافة، بخمسة آلاف دينار وكانت مسناتها طاعنة في دجلة لا يفارقها الماء في سائر أوقات السنة"[18] وتقع الدار ببباب البستان، وسميت بالشاطئـــة، ويعرف هذا البستان بالزاهر، ويشير البعض إلى أنه كان متصلا بالموضع المعروف اليوم بمنطقة (المجيدية) من بغداد. وظل أبو إسحق وأسرته يسكن هذه الدار وهي ملك صرف له، لكن مثل هذه الدور ولمثل عمال الخلفاء والأمراء والوزراء يكون أمرها محفوفا بالخطر في أي نزاع أو تبدل حال. وتكون مثل هذه الدور الثمينـة والفارهة والمطلة على دجلة وفي أكثر شطآنها عمراناً وجمالاً محط أنظـــار وأطماع ذوي السلطة. وهذا ما حصل لدار أبي إسحق فقد ورد ذكر ها في حوادث سنة 372 هـ بحسب ما أورده أبو شجاع محمد بن الحسين بن عبد الله في كتابه ذيل تجارب الأمم قـــال: " حدّث أبو إسحاق ابراهيم بن هلال الصابئ، قال: لما ورد عضد الدولة في الدفعـة الثانية[19]، خرجت لاستقبالـه إلى المدائن وخدمته، وخفت أن يتطرق على داري الشاطئة، التُرك في ســورة الدخـــول، لأنني من حواشي البختيارية[20]، وسألتـــه (أي سأل عضد الدولة) إنفاذ من يحرسها، فأنفذ معي أحد النقباء الأصاغر، وتقدمت عائداً والنقيب معي. فكان يمضي أكثر النهار في أشغاله. فاتفق أن هجم على الدار أحد القواد الأكابر وطرح أصحابـه أحمالهم وفرشوا فرشهم وربطوا دوابهم، وتقدموا إلينا بالإنتقال، فأيسنا من دورنا

---

[17] كان وزيرا أيام المقتدر

[18] هلال الصابي، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء

[19] المقصود المرة الثانية التي طرد فيها بختيار عز الدولة وقتله وجلس على عرش بغداد مثلما أراد في المرة الأولى و لم يفلح بسبب غضب أبيه عليه.

[20] يقصد انه كان من حاشية بختيار عز الدولة وكاتبه، فما يصيب بختيار ينسحب على عُماله، لولا الخدمة الجليلة التي كان يقدمها الصابي لعضد الدولة قبل دخوله بغداد.

ومضى غلماني يطلبون النقيب[21]، فلما حضر سلّمَ على القائد وقبّل يده ووقف بين يديه وأخذ يحادثه، ثم قال له الديلمي: فيم جئت؟ قال: أنفذني الملكُ (يعني عضد الدولة) لأحفظ هذه الدور ممن يتعرض لها. فقال له: هذا (يقصد الصابي) كاتب من أصحاب بختيـار فأي شيء بينه وبين الملك؟ قال: كان يخدمه وله مواضع عنده. قال أبو إسحاق: فوالله ما استتم النقيب كلامه حتى نهض القائد الديلمي ورمى بكرسي كان جالسا عليه، وقال لغلمانه: ارفعـوا. وركب في الحال وخرجـوا بعده، فما رأيت هيبـة أعظم من هيبتـه"[22] ولا تورد المصادر مآل هذه الدار بعد النكبة التي تعرض لها الصابي على يد عضد الدولة نفسه. فنحن نعرف أنه استصفى أمواله وقطاعه، وقد كتب في أحد رسائله[23] إلى الوزير راجيا إعادة داره له، ولا نعرف إن كانت هذه هي الدار المقصودة أم غيرها من أملاكه ودوره وقطاعه في بغداد.

ويبدو أن الصابي، وكعادة المحتفيين بشـراء دار جديدة، يقيـم الإحتفال بها ويدعـو الأصدقاء ليقول فيها الشعراء وصفا وإطراءً. وقد عرف هذا لدى علية القوم بيانا واحتفالا وتباهيا. وقد حفظت لنا قصائد الشعراء صورا وأوصافا لدور الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة. ومما حفظ لنا بعض وصف دار الصابي القصيدة التي كتبها الشاعـر السري الرفاء والتي يهنئ بها الصابي ويدعو له بالعيش الرغيد فيها والهناء وتظهـر حجم الدار وبساتينها وأشجارها وأسوارها وتماثيلها وغير ذلك مما يشير إليه الرفاء حين يقول:

عِشْ مدَى الدَّهْرِ يا أبا إسحـاقِ ... ووَقـاكَ الخطوبَ ما عشـتَ واقِ

فلقَـد أطلقَتْ يَمينُـك جُـوداً ... كانَ من قبـلَ مُوثَـقاً بوِثاقِ

إنَّ داراً تَضمُّ أخلاقَـك الغُـرَّ ... لَدارُ الجِنـانِ غيرَ اختـلاقِ

مَنـزِلٌ كالرَّبيعِ حَلَّتْ عليـه ... حالياتُ السَّحابِ عِقْـدَ النِّطاقِ

يُمْتِعُ الطَّرْفَ من طَرائِفِ حُسْـنٍ ... يَتَجـافى بهـا عن الإطـراقِ

---

[21] يظهر النص كم أن الدار كبيرة بحيث يطمع بها قائد ديلمي كبير لما يرى أنها مناسبة له ومن معه ولجند حمايته، كما يظهر أن الغلبة ليس لجانب حق بمقدار ما هي للسلطة بعد أن غُلب الأمير عز الدولة، ويظهر أيضا عدد من يسكن مع الصابي من أهل وغلمان.

[22] أبو شجاع محمد بن الحسين بن عبد الله، ذيل تجارب الأمم.

[23] أوردنا الرسالة المتضمنة لإحدى قصائده في الصفحة 299 من هذا الكتاب.

بـــينَ ساجٍ كأنَّـــه ذائبُ التِّبْـ ... ــرِ على مِثْـلِ ذائـــبِ الأوراقِ
و عَذارَى كأنَّهُــنَّ مِــنَ الحُسـ ... ــنِ عَــذارَى سَفَــرْنَ للعُشَّــاقِ
تَتَــلاقى رؤوسُهـــا لِتَـــدانٍ ... و تَنـــاءَى جُســومُها لافتــراقِ
حَلِيَتْ مِـــن ثِمـارِها فتَــراءَتْ ... حالِيــاتِ النُّحـــورِ والأعْنـــاقِ
تَخْرُقُ المُزْنَ والتُّــرابَ إلى المـــا ... ءِ بتـــلكَ الفُـــروعِ والأعــراقِ
فَلِماءِ البُحــورِ إذ رَسَخَـــتْ فيـ ... ــهِ و ماءِ الغَمـــامِ فيــه تَلاقِي
كيفَ قابَلْتَهـــا أرَتْكَ رِياضـــاً ... وسَمـــاءً مُخْضَــرَّةَ الآفـــاقِ
يَنثُــرُ الــرِّيحُ حَلْيَهـــا فَتَــراه ... نَهْبَ أيــدي العُفـاةِ والطُّـــرَّاقِ
بِــدَعٌ لـــو تحقَّقَـــتْ ببَقـــاءٍ ... كُنَّ أَولى من الحِلَى بالحِقـــاقِ
و إذا كانَـــتِ الجواهِـــرُ للزِّيـ ... ــنَــةِ كانَتْ جَــواهِرَ الأرزاقِ
فكأنَّ الطَّلْـــعَ النَّضيــدَ جُفونٌ ... يَتَصَــدَّعْنَ عن سُيـــوفٍ رِقاقِ
صَنَعَتْ فوقَهــا التمـــاثيلَ أيـــدٍ ... عاجِزاتٌ عن صَنعَـــةِ الخَـــلَّاقِ
مِنْ وَجــوهٍ مثلِ البــدورِ صِبـــاحٍ ... وقُــدودٍ مثــلِ الغُصونِ رِشـــاقِ
ألْبَسَتْها مَحــاسِنَ الخَلْـقِ لَمَّـــا ... عَجِزَتْ عن مَحـاسِنِ الخــلاقِ
فإذا ما الرِّيـــاحُ حرَّكْنَ منهـــا ... خَيَّــلَتْ أنَّ خَيْلَهـــا في استبــاقِ
و تَـــراءَتْ أُسـودُها واثِبـــاتٍ ... مُبْـــدِياتٍ خَنــاجِرَ الأشـــداقِ
يَغتَدي بينَها الفُهــودُ على الغِــز ... لانِ خُـــزْرَ العُيونِ سُـــودَ المآقي
حَيَــوانٌ بـــلا حَيـــاةٍ فمنــه ... حائِـــدٌ عن مَنيَّـــةٍ ومُـــلاقي
وقِيـــانٌ مَتَعْنَ أسمـــاعَنــا الحظْـ ... ـظَ وَوَفَّرْنَـــه على الأحْـــداقِ
و رِياضٌ لـم يُنْشِ زَهرَتَهـــا الشُّــر ... بُ ولم يَسقِها منَ الغَيْثِ سَاقِي
فتَمَلَّ السُّــرورَ ما عِشْتَ فيـــه ... باصطباحٍ من لَــذَّةٍ واغتبـــاقِ
و تَنـــاءَ زُفَّتْ إليـــكَ عَـــذارا ... هُ فليسَـــت مَرُوعَـــةً بِطَـــلاقِ

بدايات الصابي وصعود نجمه

بعــد أن أجاز والد الصابي لأبي إسحق العمل في الأدب والكتابــة، خدمت الصابي بعض العوامل التي دفعت به إلى دخول الميدان الذي أحب وكأنه قد قرأ طالعــه فيما سيكون عليه ويرقى إليه. وقد أفاد أبو إسحق من تقدمه في مهنة الطب وخدمته للرؤوساء والأمراء، كما أن عمه الطبيب البارع أبو الحسن ثابت بن ابراهيم كان

متصلا في خدمـــة الوزير المهلبي وقد ذكر أبو إسحق له فطلبه منه. ويثبت الصابي أن المهلبي قد تقبله وكان وراء يترجم ابن خلكان للمهلبي في كتابـــه وفيات الأعيان فيقول:" هو أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون بن ابراهيم بن عبد الله بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي المهلبي الوزير، كان وزير معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويـه الديلمي، تولى وزارته يوم الاثنين لثلاث بقين من جمادي الأولى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة. وكان من ارتفاع القدر واتساع الصدر وعلو الهمة وفيض الكف على ما هو مشهور به، وكان غاية في الأدب والمحبة لأهله. وكان قبل اتصالـــه بمعز الدولة في شدة عظيمـــة من الضرورة والضائقة، وكان قد سافر مرة ولقي في سفره مشقة صعبة واشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال ارتجالاً:

ألا مـوتٌ يُبـاعُ فـأشـتـريـــه — فهذا العيشُ ما لا خيرَ فيــه

ألا موتٌ لـذيذُ الطعـم يأتـي — يُخلصني من العَيش الكريه

إذا أبصرتُ قبـراً من بعيـدٍ — وددتُ لــو أنـــني مما يليه

ألا رَحِـمَ المهيمن نفسُ حــرٍ — تصدّق بالوفـــاة على أخيـه

وكان معه رفيق يقال له: ابو عبد الله الصوفي، وقيل أبو الحسين العسقلاني، فلما سمع الأبيات اشترى له بدرهم لحماً وطبخه وأطعمه، وتفارقا. وتنقلت بالمهلبي الأحوال، وتولى الوزارة ببغداد لمعز الدولة المذكور، وضاقت الحال برفيقه في السفر الذي اشترى له اللحم، وبلغه وزارة المهلبي فقصده وكتب إليه:

ألا قـل للوزيــر فدتـــه نفسي — مقــالةَ مُذكرٍ ما قــد نسيه

أتذكرُ إذ تقول لضنكِ عيشٍ — " ألا مــوتٌ يبـــاعُ فأشتـريــه"

فلما وقف عليه تذكره وهزته أريحية الكرم، فأمر له في الحال بسبعمائة درهم ووقع في رقعته "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء" ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملاً يرتفق به.

ويظهر لنا من هذا أن المهلبي كان فقيرا وإنما إرتقى بكفايته وأدبه وجده وإجتهاده، وعلى هذا فإنه يحب من شاكله في الهمة والكفاية وماثله في الجد والسعاية، كما يظهر أيضا أنه يحفظ لذي الفضل فضله وزيادة. وإن إيمانه أن يأتي الحسنة بأضعافها، فكان مدخل أبا إسحق معه مدخلا مبنيا على هذا.

كانت ولادة المهلبي ليلة الثلاثاء لأربع بقين من المحرم سنة إحدى وتسعين ومائتين بالبصرة. وتوفي يوم السبت لثلاث بقين من شعبان سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة.

أما عن مجلس المهلبي فيقول أبو حيان التوحيدي في كتابه الإمتـاع والمؤانسة: " وآخر من شاهدنا مَن عَرفَ الاصطناع، واستحلى الصنائع، وارتاح للذكر الطيب، واهتـز للمديح، وطرب على نغمة السائل، واغتم خلة المحتاج، وانتهب الكرم انتهابا، والتهب في عشق الثناء التهابا، أبو محمد المهلبي، فإنه قدّم قوما ونوه بهم، ونبه على فضلهم وأحـوج الناظرين في أمر الملك إليهم وإلى كفايتهم، منهم أبو الفضل العباس بن الحسين، ومنهـم ابن معروف القاضي، ومنهم أبو إسحق الصابي...." [24]

ويرجح أن تأريخ إتصال الصابي بالمهلبي يقع بحدود سنة 339 هـ. ومنذ الفترة الأولى لدخول الصابي في خدمة المهلبي أثبت جدارة في صناعة الكتابة وقدرة بلاغية متميزة وذكاء متوقدا مما جعل المهلبي يرفعـه على جملة كتابه. ولم يكن ذلك دون كفاية أو قـدرة ، بل أن الصابي يثبت " فلما كان في بعض الأيام، وردت عليـه (المهلبي) عـدة كتب من جهات مختلفة، فاستدعاني وسلمها لي، وذكر لي المعاني التي تتضمنها الأجوبة، وأطال القـول، فمضيت وأجبت عن جميعها، من غير أن أخل بشيء من المعاني التي ذكرها، فقرأها حتى أتى على آخرها، وتقـدم إلي في الحال باحضار دواتي، والجلوس بين يديـه متقدما على الجماعة، فلزم بعضهم منزلـه وجدا وغضبا، وأظهـر بعضهم التعالل، فلم أزل أتلطف وأداري، وأغضي على قوارص تبلغني، حتى صارت الجماعة أخواني وأصدقائي". [25]

هكذا تقدم أبو إسحق بين كتاب الوزير المهلبي وقـد أظهر هذا التقدم قدرات الصابي ونباهته وحسن إلتزامه ذلك أنه غريب بسبب الدين بين القوم إلا أن صنعته يمكن أن تكسر حاجز هـذه الغربة، كما أن أخلاقه يمكن أن تجعل الجميع يأنس له. وهذا ما حدى بأبي إسحق أن يشحذ همته في صنعته وأن ينماز قيما وأخلاقا ومعايشة وصلت إلى ما ذكر عنه أنه كان يصوم شهر رمضان مع زملائه ورؤسائه محبة وإحتراما. لقد زادت هذه الصفات الحميدة في أخلاق الصابي من قيمته عند المهلبي وجميع من عمل معهم وأكسبه كل ذلك الود والمحبة والاحترام. وقد حالف أبو إسحق الحظ لإظهار قدرته بحسب ما يروي عنه ابنه المحسن في كتابه الوزراء قال:" حدثني والدي، قال: كنت في مجلس الوزير أبي محمـد المهلبي، في بعض أيام الحداثة، جالسا في مجلس أنسه، وبين يديـه أبو الفضل العباس بن الحسين، وأبو أحمد الفضل بن عبد

---

[24] أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة

[25] ياقوت الحموي، معجم الأدباء

الرحمن، وأبو علي الحسين بن محمد الأنباري، وأبـو الفرج بن أبي هشام، وغيرهم من خلفائه وكتابه، وقد أخذ الشراب من الجماعة، وزاد بهم على حد النشوه وكانت لي في ذلك مزية، لأنني شربت معه أرطالاً عدة، إذ حضـر رسول الأمير معز الدولة، يذكر أن معه مهما، فقال أبو محمد: يدخل، فدخل، وقال: الأمير يقول: تكتب عني الساعة كتاباً إلى محمـد بن إلياس، صاحب كرمان، تخطب فيه ابنتـه لبختيار، فقال الوزير: هذا كتاب يحتاج إلى تأمل وتثبت، وما في الكتّاب من فيه، مع السكر، فضل له، ثم التفت إلى أبي علي الأنباري، فقال له: تتمكن يا أبا علي من كتْبه؟ فقـال: أما الليلة وعلى مثل هـذه الحالة والصورة فلا، ورآني الوزير مصغياً إلى القول، متشوفاً لما يرسمه لي في ذلك، فقال: تكتبه يا أبا إسحاق؟ قلت: نعم: قال: افعل، فقمت إلى ضفة يشاهدني فيها، واستدعيت دواتي، ودرجاً منصورياً، وكتبت كتاباً اقتضبته بغيـر رويـة، ولا نسخة، والوزير والحاضرون يلاحظوني، ويعجبـون من إقدامي، ثـم اقتضابي وإطالتي، فلما فرغت منه، أصلحته، وعنونته، وحملته إليه، فوقف عليه ووجهه متهلل، في أثناء القراءة والتأمل، ورمى بـه إلى أبي علي بن الأنباري، ثم قال للجماعة: هـذا كتابٌ حسنٌ، دال على الكفاية المبرزة، ولو كتبه صاحياً مروياً، لكان عجباً، فكيف إذ يكتبه منتشياً مقتضباً، ولكنه كاتبي وصنيعتي، قم يا أبا إسحـاق من موضعك، واجلس ههنا، حيث أجلستك الكفاية، وأومأ إلى جانب أبي الغنائم ابنـه. فقبلت يده ورجله، وشكرته، ودعوت له، وجلست بحيث أجلسني، وشرب لي ساراً، ثم استدعى حاجبه، وقال: تُقدم دابته إلى حيث تقدم دواب خلفائي، ويوفى من الإكبار والإكرام ما يوفونه، فحسدني على ذلك كل من كان حاضراً، ووفوني من الغد حكم المساواة، في المخاطبة والمعاملة، واستشعروا عندها أسباب العداوة والمنافسة، ثـم قلدني دواوين الرسائل، والمظالم، والمعاون تقليـداً سلطانياً، كتب به: عن المطيع لله إلى أصحاب الأطراف."[26]

وينقل لنا القلقشندي في كتابه صبح الأعشى في صناعة الإنشا رواية مماثلة يرد فيها أن المهلبي طلب من كتابـه وبينهم الصابي إنشاء كتاب عن المطيـع لله بنقل سنة خمسين الخراجية إلى إحدى وخمسين، وعندما عرضت النسخ التي كتبها الكُتاب على الوزيـر إختار كتاب أبي إسحق مما أثار حسد الكتاب أيضا[27]

---

[26] هلال الصابي، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء

[27] سترد الرسالة في الصفحة 339 من الكتاب

وبملازمة الصابي للمهلبي زاد إعجاب الأخير به ، ويشير الثعالبي " وكان المهلبي لا يرى إلا به الدنيا، ويحن إلى براعته، وتقدم قدمه، ويصطنعه لنفسه، ويستدعيه في أوقات أنسه" [28] كما أن شهادة المهلبي بأبي إسحق بليغة حين يقول:" هو والله في هـذا الفن أكتب أهل زمانه" [29]

ومع تقدم أبي إسحق في صنعته إلا أن المهلبي لم يقدمه في ديوان الإنشاء مـرة واحدة ، بل تشير المراجع إلى أن مدة خدمة الصابي في ديوان وزارة المهلبي دامت قرابة عشر سنوات حتى أخذ هذا الموقع فقد رأس ديوان الإنشاء سنة 349 هـ وهو في السادسة والثلاثين من عمره.

وكان الصابي أمينا لمن قدّره وقدمه وعرف فضل صنعته وأخلاقه ومَنَّ عليه بالمرتبة العليا وهذا ما تظهره أشعار الصابي التي قالها في مدح المهلبي ومنها:

قُل للـوزيـر أبي محمـد الـذي	قد أعجزت كل الورى أوصافه
لك في المحافل منطقٌ يشفي الجوى	ويسـوغ في أذن الأديب سلافـه
فكأن لفـظـكَ لـؤلـؤٌ متنـخـلٌ	وكأنمـا آذانـنـا أصـدافـه

وقد تجاوزت العلاقة بين أبي إسحق الصابي والوزير أبي محمد المهلبي حدود وزير وكاتبه إلى حدود الصداقة، ويدعم ذلك الزيارة التي قام بها المهلبي إلى دار أبي إسحق معزيا بوفاة والده حيث يثبت أبو إسحق هذه الزيارة بقوله:" لما توفي أبو الحسين هلال أبي، جاءني أبو محمد المهلبي معزيا به، فحين عرفت خبره، بادرت لتلقيه وإستعفيته من الصعود[30] ، فامتنع من الإجابة لذلك، وصعد، وجلس ساعة يخاطبني فيها بكل ما يقوي النفس، ويشرح الصدر، ويصف والدي ويقرظه لي بقوله:" ما مات من كنت له خلفا، ولا فقد من كنت منه معوضا، ولقد قررت عين أبيك بك في حياته، وسكنت مضاجعه إلى مكانك بعد وفاته. فقبلت يده ورجله، وأكثرت من الثناء عليه والدعاء له. وحضرتني في الحال ثلاثة أبيات أنشدته إياها، وهي:

لـو وثقنـا بأن عمـرك يمتـ	ـد بأعمارنا قتلنـا النفوسا

---

[28] الثعالبي، يتيمة الدهر

[29] صبح الأعشى، مصدر سابق

* يمكن الوقوف على بقية أشعاره ضمن باب ما قاله أبو إسحق في المدح

[30] يقصد بالصعود هنا إرتقاء كفة النهر صعودا الى الدار فقد كان القدوم عن طريق نهر دجلة والوصول الى الدار يتطلب صعود كفة النهر.

قد تركتَ الموت الزؤام مغيظا   يتلظى لجرحه كيف يوسا
فغــدت المصيبــةُ عندنا نعمى   بأياديك وهي من قبـل بؤسا

ثم نهض، وأقسم علينا بأن لا يتبعــه أحد منا، وأنفذ إلي في بقيــة ذلك اليوم خمسة آلاف درهم، فقال: استعن بهذا على أمرك. ولم يبق أحد من أهل الدولة إلا جاءني بعده معزيا، ثم جاز بي من الغد في طيارة [31] ووقف واستدعاني وامرني بالنزول معه، فبعد جهد ماتركني بقية اليوم". [32]

وظلت العلاقة التي ربطت بين المهلبي وأبي إسحق دون أن تشوبها شائبة، بل تركزت بين الاثنين على مدى الأيام والتجارب التي إمتحنتها حتى وصلت حــد أن يستخلف المهلبي أبا إسحق على ديوان وزارته حينما يذهب بمهمــة أو يمضي إلى فتح مدينة كما حصل حين أوكل إليه أمر الوزارة وغادر لفتح عمان حيث توفي المهلبي هناك.

كانت هذه بداية الصابي وصعود نجمه وتقدم قدمه في صنعة الإنشاء والرسائل، وبعدها تقلبت الأحوال به رفعا وحطا كما سيمر بنا.

---

[31] نوع من السفن الصغيرة التي كانت تستخدم في نهر دجلة وسميت بالطيارة لخفتها وسرعة سيرها

[32] هلال الصابي، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء

الفصل الثاني
ديانة الصّابي و لقبه

أولا: صابئة حران وعلاقتهم بالصابئة المندائيين

حرّان، بفتح الحاء وتشديد الراء المهملتين وفي آخرها نون بعد الألف، مدينة قديمة جدا من ديار مضر تقع في أرض الجزيرة، قرب منابع نهر البليخ بين الرها ورأس العين. وقد هيأ لها موقعها الجغرافي على مفترق الطرق التجارية في العالم القديم أن تكون مدينة ذات شأن في الحضارة والثقافة والأديان. فيذكر الهمداني: " إنها قصبة بلاد آشور وملتقى النهرين والجزيرة والشام وأهلها أصحاب أدب وحكمة وعلم بالنجوم وخبرة بالعلوم التعليمية وأصحاب رصد وقياس للكواكب ولهم ذكاء وفطنة"[33] ولقدمها وقيمتها فقد اختلط ذكرها في المراجع العربية بين التأريخ والأسطورة، فهذا الطبري يشير إلى" إن نوحا خطها عند إنقضاء الطوفان وخط سورها بنفسه"[34]، وقيل أيضا: " إن هاران هو الذي بنى مدينة حران وإليه نسبت" وذكر ياقوت الحموي إن هاران هو أخو ابراهيم الخليل (ع) وإن حران كانت منازل الصابئة" [35] إلا أن ابن العبري يذكر" إن الذي بناها هو قينان على اسم هاران ابنه" [36] وقد أطلقت عليها أسماء عديدة عبر التأريخ ، فهي على أثر فتوحات الإسكندر عرفت عند اليونان باسم "كاران" وعند الرومان "كاريا" ويرد اسمها في الكتابات المسمارية باسم "حرانو" ومعناها الطريق، كما إن كلمة (أوهرا) في اللغة المندائية الآرامية ترد بمعنى الطريق أيضا وهي في لغتهم ترد باسم "هَران". وورد ذكرها في التوراة باسم فدان ارام أي حقل آرام، وسمّاها العرب حران. وقد كشفت التنقيبات الآثارية من خلال ما عثر فيها أن الملك شلمانصر الثالث إحتل مدينة حران سنة 857 قبل الميلاد وأسكن فيها جالية أشورية وقد بنى فيها قصرا ومعبدا لإله القمر (سين)، وعلت قيمتها كونها تقع على طريق تجاري هام يصل بين آسيا الوسطى وبلاد الشام، ولأنها مركز هام وذو شهرة لعبادة

---

[33] الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن عبد الله بن بلهيد النجدي

[34] ابن شداد، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة

[35] ياقوت الحموي، معجم البلدان

[36] ابن العبري، مختصر تاريخ الدول

.نه القمر(سين) الذي كان الآشوريون يظهرون لـه كل الإحترام وخاصة بعـد سقوط نينوى عام 612 ق.م حيث هرب قسم من الآشوريين إليهـا واستقروا فيها. إلا أن الملك البابلي نابوبلاصر اتجه نحوها وكان على رأس جيش مؤلف من بابليين وميديين ، فهرب أهلها قبيل وصوله، فاحتلها وأقام فيهـا. ثم دخل اليونانيون حران بدخول الإسكندر المقدوني لها وصارت مركزا للثقافة الهيلينية وازدهرت النحلة الفيثاغورية فيها وكثر فلاسفتها وأثروا في الفكر الديني والإنساني وأشاعوه.

دخل العرب المسلمون حران في عهـد الخليفـة عمر بن الخطاب بقيـادة عياض بن غنم الأشعري سنة 18 هـ وهي يوم ذاك حاضرة ديار مضر. وأصبحت مقرا للحكم العربي واستقر بها عياض حتى ولي عليها فيما بعد عمير بن سعيد الأنصاري. ويشـار إلى أن الأخير عامل غير المسلمين معاملة حسنة حتى أنه حينما فتح الجانب الشرقي من الثغرات سأله أهلها بأن يأذن لهم في الجلاء واللحاق بأرض الروم فصالحهم، على أن لا يصبغوا(يعمدوا) صبيا ولا يكروهونه على دينهم فقالوا: ندفع الجزية كي نحفظ ديننا.[37]

ظلت حران خلال العصر الأموي تمارس أعمالها التجاريـة وتتابع معتقـداتها الدينية التي كانت مزيجاً من الديانة البابلية القديمـة واليونانية والأفلاطونية الحديثة. وقـد عمل الخليفة عمر بن عبد العزيز على نقل معاهـد الطب من الاسكندرية حيث ازدهر الطب اليوناني إلى أنطاكية وحران. وفي أواخر العصر الأموي جعلها مروان الثاني بن محمد مقراً لإقامته ونقل إليها دواوين الدولة وإداراتها، ومنها خرج على رأس جيش قوامه اثنا عشر ألفا لقتال جيش العباسيين. وقد انهزم مروان بن محمد في هذا اللقاء مما زاد في قوة العباسيين فأخذوا يتابعـون تقدمهم للقضاء على الدولة الأموية. وعندمـا آلت الخلافة لبني العباس، استمرت حـران على معتقداتها الروحية. وفي الدور الثاني للدولـة العباسية استطاع وثاب النميري أن يقيم حكمه فيها. ثم انتقلت حران بعد ذلك إلى سلطة عماد الدين زنكي فألحقها بإمارتـه في الموصل. ثم انتقلت زمن الأيوبيين لتصبح تحت حكم الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي.

كانت اللغة السريانية هي السائدة في حران وهي لغة سكانها الأصليين. وكان علماؤها، إلى جانب لغتهم، يتقنون اللغة اليونانية ويتمثلون الحضارة الإغريقية، هـذا بالإضافة إلى إتقانهم للغـة العربية، لغة الدولة الرسمية، لذا كان من السهل على

---

[37] البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع

علمائها ومثقفيها أن ينقلوا إلى اللغة العربية الكتب العلمية والثقافية سواء ما كتب منها باليونانية أو السريانية وبخاصـــة يوم أقدمت الخلافـــة العباسية على نقل العلوم والمعارف إلى العربيـــة، فصار الحرانيون هم المبرزون في هـــذا الميدان ومنـــه إلى ميدان التأليف، فكانت لهم تآليفهـم ومساهماتهم المبرزة في صنع الحضارة العربية/ الإسلامية.

أصيبت حران بزلزالين الأول عام 508 هـ/1114 م، والثاني 552 هـ/1157 م فتهدمت معظم مبانيها، وعلى إثر ذلك هجرها الكثير من أهلها وأخذت أهميتها بالتراجع، ثم احتلها المغول بقيادة هولاكو وشتتوا ما تبقى من سكانها فنفوهم إلى الموصل وماردين، ودمروا مبانيها ودور العبادة فيها، وأشاعوا الخراب، حتى استخلصها المماليك من يد المغول، وكانت قد فقدت أهميتها تماما. أما اليوم فقد أصبحت حران قرية ريفية مهملة يسودها الفقر ضمن المناطق التي ألحقت بتركيا.



وحيث يشار إلى أن هذه المدينة هي أول مدينة خطت بعد الطوفان، فإن أهميتها ترتبط بهذا العمر. كما إن خطها كأول مدينة يعني أنها خطت لتكون ذات شأن وقيمة. وحتى لو أنها من بناء هاران أخو النبي ابراهيم الخليل فهذا يعني أنها في القـدم بما تأتي بعد أور مدينة ابراهيم وعشيرته. ولا يكون وجود مثل هذه المدينـة إعتباطا، ولا دينها وعقيدتها اجحافاً واجحاداً وكفرا، بل إن أقدميته ومن ثم استمراره هو دليل تأكيد لهذه القيمة. وحيث لا تسعف المؤشرات التاريخية بشكل قاطع إيراد تفاصيل هذه الديانة والاتفاق عليها بأسباب عدم وجود علامات التوثيق ودلائلها، إلا أن المتحقق أن هذه المدينة ارتبطت باسم الصابئة. ولا غرابة في ذلك فإن الجامع الأموي المعروف اليوم في دمشق هو في الأصل من بناء الصابئة وكان معبدا لهم قبل إحتلاله من قبل المسيحيين وإعتماده كنيسة ثم إحتلال المسلمين لـه وإعتماده مسجدا وإلى اليوم. ومثل هذا فعل أول قائـد مسلم دخل مدينة حران (عياض بن غنم الأشعري) حين أخذ الهيكل العظيم للصابئة واعتمده جامعا وقام بتعويضهم عنـه موضعا آخر عمروه

ليكون هيكلا جديدا. وما هذا الاستحواذ إلا لقيمة هـذا البناء من حيث نوعه وموقعه. وهـذا يؤكد أن الصابئـة بتسميتهم كانوا معروفين في حران في بداية الفتح الإسلامي أي قبل مرور الخليفة المأمون بحران واختلاق قصة انتحال بعض أهل حران التسمي بإسم الصابئة على أثر إنكار المأمون لهيأتهم بحسب ما يزعم أيشع القطيعي[38] ولا يشك بأن سكان مدينة حران ليسوا جميعهم من الصابئة، بل كان فيها أيضا أقوام وثنيون ومارقون وآخرون فارون من إضطهاد الكنيسة المسيحية وقد تسموا بالصابئين لاكتساب التسامح الديني والابتعاد عن الملاحقة أو لمحاولة تبرير مروقاتهم الفلسفية غيـر المقرة والمقبولة والتي كثرت حالات التفلسف فيهـا في محاولة للظهور والبروز في مدينة كحران التي تحتمل كل التباينات بأسباب الحريـة الدينية والمذهبية فيها، وبأسباب تنوع الأقوام الذين يقدمون إليها بحكم موقعها التجاري. ويجب التمييز بين الحرانيين والصابئين، فليس كل الحرانيين صابئين مثلما ليس كل الصابئين حرانيين. فإن أحتملت أديان فئات من الحرانيين عبادة النجوم والكواكب وطقوس غريبة فهذا لا يعني سحبها على الصابئين بالضرورة.

[38] أشيعت رواية ذكرت على لسان أيشع القطيعي أن المأمون اجتاز في آخر أيامه بديار مضر ، فتلقاه الناس ومنهم جماعة الحرانية ، فالمأمون أنكر زيهم (لبس الأقبية ، والشعور الطويلة)، وعندما علم أنهم ليسوا من النصارى أو اليهود أو المجوس ، وأنهم من الحرانية، قال لهم: أفلكم كتاب أو نبي ؟ فمجمجوا في القول، فقال لهم: فأنتم إذاً من الزنادقة ، عبدة الأوثان ، وأصحاب الراس في أيام الرشيد والدي. وخيّرهم بين أمرين : إما انتحال دين الإسلام أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه ، وإلا قتلهم عن آخرهم . ورحل المأمون يريد بلاد الروم ، فتنصر كثير منهم ، وأسلم منهم طائفة ، وبقي شرذمة بحالهم . وجاءهم شيخ من أهل حرّان ، فقيه . فقال لهم إذا رجع المأمون من سفره ، فقولوا له نحن (الصابئة)، فهذا اسم دين قد ذكره الله في القرآن. وعندما اتصل بهم وفاة المأمون في سفرته ارتد أكثر من تنصر منهم ، ورجع إلى الحرانية. ومع أن العديد ممن له غرض إعتمد هذه القصة، إلا أننا نرى أنها رواية واهية لأسباب عديدة تتمثل في أن قائلها نصراني متعصب أراد الإساءة للصابئين فربط زيهم بزي قرة جد سنان بن ثابت وهذا متأخر عن عصر المأمون بأكثر من قرن، كما أن القطيعي هذا شخص غير معروف ولا موثق أنه من الرواة والثقاة، وهو يدعي على المأمون الذي يعد الخليفة العالم بين خلفاء بني العباس ولا يفوته معرفة حال أقوام حران وأديانها، وأن الحادثة ذكرت بعد وفاة المأمون حتى لا يستطيع أن ينكرها أحد. ثم إذا مات المأمون فما فائدة أن يحتفظوا بالإسم الذي تسموا به إن لم يكونوا حقا هم صابئون. والقصة تتناقض مع ما معروف بأن حران مدينة الصابئة منذ أقدم العصور. وما تناقل هذه الرواية إلا الجهل في تسمية الصابئة ومحاولة النيل من قيمتهم بأسباب التنافس وبخاصة من المسيحية في أيام محاولاتها القضاء على الآخر بشتى الإتهامات. الرواية أوردها إبن النديم في كتابه الفهرست.

الثابت أن كلمة صابئ وجمعها (صابئون و صابئة) معروفة منذ القدم. أما أساسها فليس من السهل القطع فيه. فبعض يـــراها من صابئ بن متشولح بن خنوخ (إدريس) بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم. ولذا فحين يشار إلى الأقدمية فلأن هذا الاسم قد عرف منذ بداية البشرية، فهل يمكن أن يتسمى قوم أو ديانة على اسم فرد؟ نقول: نعم، فالابراهيمية نسبة إلى ابراهيم، وهكذا الزرادشتية، والمانوية، والبوذية، ومن الطوائف الكثير. ولم نجد بين الأديان ما ينسب إلى مدينة فالدين لا يأتي لمدينة. لذا فكيف تكون الحرانية ديانـــة؟ وبعض آخر ذكر أنهم من ولد صاب بن طاط بن خنوخ، كان من أهل الحكمة والفلسفة والعلم بالنجوم وهو أول من نزل بابل واتخذ بها هيكلاً، وكان فيها كاهن يسمى (كرمن) ومعناه بلسانهـم العالم الكبير، ووضع لأهل العصر نواميس يعملون بها وأحكاماً ينتهون إليها، وكان قد أحكم في الصقع الذي كان نازلاً بــه من أرض بابل بناءً بطالع قد ارتصـــده ووقت قد اختاره، وأثبت فيه من غوامض العلوم ما بقي أثره للصابئة.[39] ولذلك يشير بعض المؤرخين المسلمين إلى أن بابل كانت حاضنة المعتقدات الصابئية. وإلى ذاك يذهب عالـــم الآثار البريطاني هنري لايارد إلى أن ديانـــة الآشوريين مرتبطة بديانة البابليين التي هي ذات منحى صابئي، وإلى مثل هذا يذهب راولنسون.[40] وبعض ثالث يـرى أنها من صابىء بن ماري، وكان في عصر الخليل عليه السلام. وبعض رابع يرى أنها من (الصابغين) وقد أسقطت الغين بسبب عدم لفظها لعدم وجودها أصلا في اللغات السامية القديمة لغلبة الاصطباغ بالماء على القوم التابعين. وبعض خامس ذهب إلى تخريج لغوي في اللغة العربية يتأسس على معنى الفعـل صبأ في اللغة العربية بمعنى خرج وطلع وتثبيت أن الصابئ هو من خرج من دين إلى دين ولذلك أطلقت على النبي محمد! وبعض سادس يرى أنها تتأسس على الفعل الآرامي (صبا) بمعنى تَعَمَّدَ ومنه (مصبوتا) بمعنى تعميد وارتماس في الماء.

والغالب أن سكان مدينة حران قدماء الأصول عاليها، وقد غلبت عليهم المعرفة والفطنة، ومن هذين العاملين يكون الدين والحكمة وهذا ماشاع فيها. فإذا ما أريد التنافس معها فإن ذلك يبرز في محاولات النيل من هذا الدين وتلك الحكمة، ولذلك نرى أن من يضد أهلها يوجه لهم الاتهامات بالفسلفة والوثنية والعبادة الباطلة. ومن يقرها

---

[39] محمد عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس

[40] عزيز سباهي، أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية

يقول فيهم ما قاله ثابت بن قرة: " لمْ تُدنس مدينة حران، . فنحن الوارثون والموروثون للصابئة المنتشرة في الدنيا، فالذي يحتمل برجاء وثيق أثقال الصابئة، يعد ذا حظ سعيد. ليت شعري من عمّر المسكونة وابتنى المدن، اليس خيرة الصابئة وملوكهم؟ من أسس المرافىء والانهار والقنوات، ومن شرح العلوم الغامضة؟ لمن تجلت الالوهية الملقنة للكهانة والمعلمة للمستقبلات، الا لمشاهير الصابئة..؟ فهم الذين اوضحوا ذلك كله وكتبوا عن طب النفوس وخلاصها، ولقنوا طب الاجساد وملؤوا الدنيا أعمالا صالحة وحكيمة، هي دعامة الفضيلة، فلولا علوم الصابئة لامست الدنيا قفراء فارغة متقلبة في العوز"[41]. ولو تم التوثق مما وصفت بـــه هذه المدينة بأنها مدينة ابراهيم ومدينة أخيه حاران ومدينة التنافس الآشوري والبابلي ومن ثم المسيحي والإسلامي لما تم رميها بباطل. فليس من الصحيح أن تكون مدينة بهذه القيمة وهي على ضلالة وبطلان، ذلك أن قيمتها الجغرافية ليست بالكبيرة من حيث صلاح أرضها وطبيعتها ولا هي وفيرة المياه ولا دائمة الخضرة والزرع ولا عليلة الهواء تماما لكي يكون التنافس إقداما على ما يتوافر فيها طبيعيا، بل أن قيمتها فيما أسس أوائل القاطنون هــو ما كان وراء هذا الإعتبار الذي جعل من يحظى به كأنه قد ملك زمام الدين والحكمة.

والمعروف أيضا أن محاولات المد المسيحي في فكره وسعيه للسيطرة قد اصطدم بأسـوار فكر هذه المدينة وما كانت تشع به على المنطقة عامة حتى أدرك المبشرون المسيحيون أن طريق انتشار المسيحية إنما يمر عبرها. وبما أن المرور عبرها أمر يكاد يكون مستحيلا لذلك صار مسعى النيل منها يدور بشكل حلقات حول المدينة وتراثها الديني والفكري. فصار الإتهام بالهرطقة[42] وسيلة للنيل من المقابل، كما اشيعت وبقصد خرافات وأباطيل بشأن طقوس وعبادات أبناء شعبها على تعدد مللهم وبخاصة الصابئين، وما ذاك إلا للتشويه والتأثير السلبي على المعتقين أو القادمين والمحيطين، بل وللتأريخ أيضا. وربما تم تحقيق بعض النجاح في ذلك من خلال استغلال وقائع وتزييفها ونسجها بسرد تاريخي، وإلا كيف يعقـــل أن أوائل البشر الذين قطنوا هذه المدينـــة والذين فطنوا على العهــود الصحيحة والإنسانيـــة الخالصة وفطموا على معارف الأنبياء والأولين تكون لهــم عبادات وطقوس وشعائر غريبة تصل حد تمجيد الثور

---

[41] محمد عبد الحميد الحمد، التأثير الآرامي في الفكر العربي

[42] الهرطقة كلمة يونانية تعني المغايرة أو المخالفة في المبدأ المعتمد وبخاصة في العقيدة الدينية. وهي ليست وصفا ثابتا على موضوعة معينة بل تعتمد على من يستخدمها في وصف الآخرين الذي يغايرون ما هو معتمد من قبله وثابت في عقيدته.

وتقديم الأطفال مذبوحين ومقطعي الأجزاء قرابين! وحيث يسجل التاريخ أسماء ونتاجات عباقرة الفلاسفة والحكماء والأطباء والفلكيين والرياضيين والمهندسين البارعين الذين أمدوا الحضارة الإنسانية بنتاجاتهم وأسهموا أخيرا في الحضارة العربية بإعتراف الجميع، فكيف يستهان بعقول وفكر هؤلاء بأنه كان يقبل الإلحاد والسذاجة في العبادة وهم الذين حسبوا مدارات الفلك بكل الدقة؟ بل كيف لا تدخل دين الإسلام شخصية مثل شخصية المفكر والأديب أبي إسحق الصابي، وهو الذي حفظ القرآن حتى صار يدور على لسانه معرفة واستشهادا، وعرف السُنّة بتفاصيل شريعتها فكان يدونها ويحكم بها كما لو أنه القاضي الموكل، وحفظ الأحاديث النبوية بما كان يسشتهد بها في موقعها المناسب؟ ومع ذلك فقد آثر الصابي أن يبقى على ديانته في الوقت الذي كان يمكن أن يرفعه إسلامه درجة متقدمة في السلم الوظيفي باستلام الوزارة حسبما عُرض عليه تقديرا مصحوبا بمساومة بحكم أن الوزير يجب أن يكون مسلما. فهل أن مثل هذه الشخصية العبقرية المتقدمة في العلم والمعرفة والحكمة والفلسفة ومعرفة معنى الدين كانت ستتأخر عن التحول إلى دين مثل دين الإسلام لو كانت ترى أن في دين الصابئين قصورا أو إلحادا أو إجحادا أو قلة قيمة؟ وهل لمثل الصابي أن يتبع شعائر هزيلة يراها غير منطقية؟ وأكثر من ذلك ما كان من العالم الموسوعي ثابت بن قرة الذي ترجع العديد من المصادر رئاسة الصابئة له وبخاصة في فكرها المتنور، والذي نقل وترجم علوم الأولين وشرحها وألف فيها وكان فيلسوف عصره وطبيبه وعالم الفلك والمترجم والرياضي صاحب التفاضل والتكامل والذي نقل عنه أخوان الصفا الكثير من رسائلهم وتأثروا بالآخر، والذي كان جليس الخليفة المعتضد ونديمه. ترى هل يمكن أن يكون مثل هذا العالم على ضلالة وكفر وعدم إيمان وهو الذي قدم أجل التفسيرات للخالق والخلق والكينونة؟ وإذا نقلنا الأمر إلى الآن عندنا نحن الذين مازلنا نتبع الديانة المندائية على ما امتلكنا من معرفة تمييزية في جميع الأديان وعايشنا أغلبها وبخاصة تواجدنا ضمن المجتمع الإسلامي، أترانا لو وجدنا في معتقدنا ذرة شائبة تشوب التوحيد الخالص للخالق الحق بحسب ما يرد في كتب الصابئة المندائيين، وأن التعميد بالماء الجاري شعيرة غير نقية للنفس والبدن وغير منطقية أو في الوصايا الجلية والتعاليم الكثيرة ما لا يحض على الإنسانية وأصول التعبد أو فيها ما يخل أو يلحد، أترانا نتبع مثل هذا الدين ونتسمى به ونكون حريصين على بقائه والدفاع عنه؟

يقول فيهم ما قاله ثابت بن قرة:" لمْ تُدنس مدينة حران، . فنحن الوارثون والموروثون للصابئة المنتشرة في الدنيا، فالذي يحتمل برجاء وثيق أثقال الصابئة، يعد ذا حظ سعيد. ليت شعري من عمّر المسكونة وابتنى المدن، اليس خيرة الصابئة وملوكهم؟ من أسس المرافىء والانهار والقنوات، ومن شرح العلوم الغامضة؟ لمن تجلت الالوهية الملقنة للكهانة والمعلمة للمستقبلات، الا لمشاهير الصابئة..؟ فهم الذين اوضحوا ذلك كله وكتبوا عن طب النفوس وخلاصها، ولقنوا طب الاجساد وملؤوا الدنيا أعمالا صالحة وحكيمة، هي دعامة الفضيلة، فلولا علوم الصابئة لامست الدنيا قفراء فارغة متقلبة في العوز"[41] . ولو تم التوثق مما وصفت بــه هذه المدينة بأنها مدينة ابراهيم ومدينة أخيه حاران ومدينة التنافس الآشوري والبابلي ومن ثم المسيحي والإسلامي لما تم رميها بباطل. فليس من الصحيح أن تكون مدينة بهذه القيمة وهي على ضلالة وبطلان، ذلك أن قيمتها الجغرافية ليست بالكبيرة من حيث صلاح أرضها وطبيعتها ولا هي وفيرة المياه ولا دائمة الخضرة والزرع ولا عليلة الهواء تماما لكي يكون التنافس إقداما على ما يتوافر فيها طبيعيا، بل أن قيمتها فيما أسس أوائل القاطنون هــو ما كان وراء هذا الإعتبار الذي جعل من يحظى به كأنه قد ملك زمام الدين والحكمة.

والمعروف أيضا أن محاولات المد المسيحي في فكره وسعيه للسيطرة قد اصطدم بأسوار فكر هذه المدينة وما كانت تشع به على المنطقة عامة حتى أدرك المبشرون المسيحيون أن طريق انتشار المسيحية إنما يمر عبرها. وبما أن المرور عبرها أمر يكاد يكون مستحيلا لذلك صار مسعى النيل منها يدور بشكل حلقات حول المدينة وتراثها الديني والفكري. فصار الإتهام بالهرطقة[42] وسيلة للنيل من المقابل، كما اشيعت وبقصد خرافات وأباطيل بشأن طقوس وعبادات أبناء شعبها على تعدد مللهم وبخاصة الصابئين، وما ذاك إلا للتشويه والتأثير السلبي على المعتقين أو القادمين والمحيطين، بل وللتأريخ أيضا. وربما تم تحقيق بعض النجاح في ذلك من خلال استغلال وقائع وتزييفها ونسجها بسرد تاريخي، وإلا كيف يعقــل أن أوائل البشر الذين قطنوا هذه المدينــة والذين فطنوا على العهــود الصحيحة والإنسانيــة الخالصة وفطموا على معارف الأنبياء والأولين تكون لهــم عبادات وطقوس وشعائر غريبة تصل حد تمجيد الثور

---

[41] محمد عبد الحميد الحمد، التأثير الآرامي في الفكر العربي

[42] الهرطقة كلمة يونانية تعني المغايرة أو المخالفة في المبدأ المعتمد وبخاصة في العقيدة الدينية. وهي ليست وصفا ثابتا على موضوعة معينة بل تعتمد على من يستخدمها في وصف الآخرين الذي يغايرون ما هو معتمد من قبله وثابت في عقيدته.

ثمَّ. لو كان أبو إسحق يرى أن صابئيته غيـر مقبولة وليس لها ما يقرها في المجتمع الذي يعيش فيه لكان قد تلقب بلقب آخر غير الصابي على أقل ما يوجبه الأمر عليه. إذ يكفي إسمه وكنيته بأبي إسحق مؤهلا كما فعل الكثير غيره وأبرزهم ثابت بن قرة ونسله. فإن يعتمد ابراهيم بن هلال لفظة " الصابي" لقبا له فهو إنما إرتضى أن يدخل نفسه في موضع نيل إن أريد منه نيلا ومثل هذا أمر وارد بل وجرى له. كما أنه سيكون مضطرا للدفاع عنه في حال التخاطب والتواضح المطلوب خاصة وأنه ليس لقب قبيلة أو أسرة أو مدينة كما هو الشائع. وقد قبل الصابي الأمر بل أنه هو من إختار اللقب عن عمد خاصـــة وأن والده وأعمامه لم يتلقبوا به قبله. فأية قيمة وجد أبو إسحق في هذا اللقب حتى إعتمده وصار به علامة مميزة أقرت لهم وأحيت إسمهم وصار مثار سؤال وإستفسار وربط مع ما ورد من تسمية للدين والمنتسبين إليه في القرآن؟ ولو لم يكن هذا الاسم قديما وذا إعتبار فيما أسس وما إستمر ذكره على الألسن حتى أكده القرآن الكريم، بكل ما له من قيمة في الدين الإسلامي ولدى الأديان الآخرى، لما أصر الصابي على التلقب به. كما أن الصابي لو كان يرى أن هنالك من تسمى باسم الصابئين في مدينة حران خشية من تهديد الخليفة المأمون حين مر بهذه المدينة في طريقه إلى الشام على زعم المغرض أيشع القطيعي وأنه من المنحدرين من هؤلاء لما تسمى به أصلاً، ذلك أن أمر التهديد قد إنتهى بوفاة المأمون فلِمَ يبق المنتحلون على هذا الإنتحال وقد جاء إكراها بسبب التهديد على ما يزعمون لا اختيارا؟ ولو لم يجد آخرون أن لا قيمة في الإسم ولا مدلول له لما سمى البتاني (أبرز علماء الفلك) زيجه باسم (الزيج الصابئ) نسبة إلى الصابئين وكونه صابئيا أيضا.

وفي المجمل فإن قسما من الصابئة جاءوا مع ابراهيم الخليل (ع) حين قدم حران وأقام فيها ثم غادرها إلى كنعان ومنها إلى مصر، ومنذ ذلك اليوم سكنوا حران وما جاورها وأشتهرت على ذاك أنها مدينة الصابئة، وبقوا كذلك من حيث أتوا في بدء تأسيسها، ثم ممن تواجد فيها بوجود الملك البابلي نابونيد الذي عمر حران ونقل لها من البابليين الصابئين من سكن فيها أيضا يوم حصنها، وكذلك من خلال قدوم الإغريقيين مع الإسكندر المقدوني فيما يشار إلى Homo sapiens والتي تعني الإنســـان العاقل التسمية في المصطلح المعتمــد والعارف فيما عرف من وصف عرفاني (إغنوصي) لديانة الصابئين وغيرهم من المجموعات والفرق. ولاستمرار العبادة والفكر والعمارة في حران استحقت ديانتهم وقيمتهم أن يصدر بهم الخليفــة العباسي الطائع لله رسم أميــر المؤمنين باقرارهم على دينهــم وأرواحهم وممتلكاتهم وطقوس عبادتهم ويلزم الجميع

أن يـروا فيهم ما يراه أمير المؤمنين وأن من يخالف ذلك يعرض نفسه للمحاسبة. [43]
وهكذا ظل امتدادهم قائما حتى عصر ما بعـد الصابي، وظلت مدينة حران بهم متنافسة مع بغداد حاضرة الدنيا أيام الخلافة العباسية، وحتى أغري أغلب علمائها على القدوم إلى بغداد، بل حتى خربت المدينة أثر الزلازل التي تعرضت لها والغزو المغولي فصارت أثرا بعد عين.

والسؤال: هل إنتهى الصابئون الذين قدموا من مدينة حران إلى بغداد؟ وما علاقة هؤلاء القادمين بالصابئة المندائيين المعروفين وإلى اليوم في العراق وإيران؟

وقبل تناول هذا الأمر لابـد من الإشارة إلى وثيقـة لدى الصابئة المندائيين تسمى (هران كويثا) أي حران السفلى وهي الوثيقـة التاريخية الوحيـدة التي يحتفظون بها، ذلك أن إيمانهم بالروحانيات يجعلهم بعيدين عن التوثيقات التاريخية المادية. والذي يلفت الإنتباه في هـذه الوثيقـة اسمها الذي يرتبط بحران والإشارة إلى مدينـة حران كمدينـة نزح إليها المندائيون من مدينة أورشليم في فلسطين أثر الصراع مع اليهود. تبدأ المخطوطة[44] بذكر: " وإستقبلهم أخوان لهم" بمعنى أن المندائيين المهاجرين حينما قدموا إلى حران إستقبلهم فيها أخوان لهم في الدين، ذلك لأنه لا يمكن أن يكون هنالك أي نوع من الأخوّة بين المندائيين الذين نزحوا من أورشليم وبين القاطنيين في مدينة حران. وتشير المخطوطة إلى أن المندائيين أقاموا في مدينة حران فترة غير محددة حيث لا يمكن أن تطالهم متابعـة اليهود بأسباب حصانة المدينة بسلسلة جبال ميديا. وشيدوا هناك مجموعة من بيوت المعرفة(بيت مندي)[45] وسكنوا وآمنوا بنداء الحي والحياة، وتستمر المخطوطة في ذكر أحداث ربما يقع بعضها ضمن الأسطورة لعـدم إمكان التوثق منها وآخر ضمن التنبؤات. ويشار إلى أن المندائيين نزحوا بعد ذلك عبر جبال ميديا إلى (بصرى – حوران) عاصمة الانباط وديإلى ومنهـا إلى واسط وميسان إما تأسيسا أو إلتحاقا حسبما نظن بأصول لهم في بلاد بابل وجنوبهـا السهلي المنبسط حيث مزيد الأمان بأسباب عدم متابعة السلطات، وعدم وجود طموحات سياسية

---

[43] يمكن الإطلاع على نص رسالة الخليفة الطائع لله في الصفحة 320 من هذا الكتاب

[44] يشار الى أن الصفحات الأولى من المخطوطة مفقودة

[45] إن إسم بيت العبادة لدى المندائيين هو بيت مندا، وكلمة مندا تتأسس على الفعل الآرامي (يدا) بمعنى يعرف، وبهذا فإن بيت مندا تعني بيت المعرفة، ومن الفعل ذاته يشتق إسم المندائيين بمعنى العرفانيين ومنها طورت الى الكلمة الإغريقية الأغنوصيين التي تعني المعرفة أيضا.

لمندائيين، ووفرة المياه الجاريـة سيحا وهي عماد الديانة المندائية وأساس كل طقس وشعيرة فيها. وتذكر المخطوطة أيضا كيف أن المُقدَّم فيهم (أنش بر دنقا) قابل القائد العربي الذي فتح بلاد ما بين النهرين وعرض عليه مبادئ ديانة المندائيين وما يرد في كتبهم من توحيد وإيمان بالخالق واليوم الآخر والعمل الصالح وهي مبادئ الدين التي نصت عليها آيات القرآن الكريم، فأقرهم على ديانتهم وعدم التعرض لهم. وهكذا عوملوا معاملة أهل الذمة في دفع الجزية.

المندائيون المهاجرون من أورشليم إذاً عايشوا إخوانهم الصابئين في حران، وهذه المعايشة ما كانت لو لم يكن بين المجموعتين من الاتفاق والاشتراك ما يلتقي في التوحيد والإيمان والطقس والإلتزامات، ولما ظل المندائيون في العراق متمسكين بها وإلى اليوم في تسميتهم. فإن كانوا يرون فيها ما يحرج أو يعيب أو يأثم بإلحاد أو وثنية لأنتقلوا منها إلى الإكتفاء بالمندائية التي لا تنعتها مصادر المغرضين بشيء من الكفر والإلحاد.

وما هذا الإرتباط بين الصابئة والمندائية إلا لأن الكيان متفق فهو صابئي في أقدميته غير المحددة بزمن، وهو مندائي، بحسب الاسم الذي يرد في نصوصهم، معززا بجوانب باقية في نصوص التوحيد والتشريع ورسوم الطقوس والشعائر التي ترتبط بفكر العقيدة وتخدمها إيمانا باليوم الآخر وتوصية بفاعلية الحياة الدنيا المبنية على العمل الصالح الذي هو الزوادة للآخرة أيضا.

ولأن حـران صارت مدينة كبيرة فقد تزاحمت وتعاقبت الأقوام والأحداث فيها وتعددت الديانات والمذاهب بروح تسامح لا يلزم الدين فيها حياة هذه الأقوام، بل أنها وحتى القرن الثامن الميلادي كانت مدينة تعدد الأعراق والديانات مع أنها تحت السيطرة الإسلامية. ولم يكن دخول المسيحية ميسورا إلى هذه المدينة بل أن المسيحية قد تحددت بحدود مدينة الرها لأنها أرادت القضاء على كل ما يغايرها ويخالفها.

ولقوة ديانة الصابئة في حران ولأن المسيحية كانت على نقيض معهم، فقد عمل أهل الرها على تشويه سمعة أهل حران واتهامهم بأنهم عبدة أوثان وأشاعوا عنهم الأباطيل في العبادات، وصار وصف الصابئة مرة مرة بأنهم أول الموحدين ومرة بذوي العبادات الباطلة. وعلى الوصف الأول وجدوا الترحيب في عصر الخلافة العباسية ولم ينبذوا، بل أُشرِكوا بفاعلية وقبول في الخدمة في المواقع المتقدمة من البلاط. ولو كانوا بغير ذلك لما كانت أهليتهم العلمية وحسب كافية لمثل هذه الخدمة، وكان بالإمكان الاستعاضة عنهم بالمسيحيين واليهود مثلا.

والغريب أن كل ما كتبه من نبغ من الصابئين في العصر العباسي والذي يخص البحث في عقيدة الصابئة وذكر تاريخهم وطقوسهم قد ضاع أو ضُيع بحيث لا نستطيع أن نقف على ما ذكره هؤلاء المبرزون على الرغم من أنهــم حفظوا لنا توثيقاتهم في كتب التأريخ التي كتبوها والتي ظلت ثقة أهل عصرهم ومــا زالت إلى اليوم في إستقراء الحقبة التي كتبوا عنها. وليس كثيرا على من ساهم في توثيق حقب التأريخ عصره أن يكتب في تأريخ ملتـــه وأجداده وواقعه. وهكذا ظلت الحيرة تلف هذا الأمر من حيث الإستناد إلى مصادر أوليــة يركن لها وتكون الفيصل في الكلام. ومع ذلك فإن جوانب الاستهداء للعلاقة بين الصابئة في حران، وأبرزهم من قدم من هذه المدينة إلى مدينة بغداد حاضرة الخلافة العباسية، وبين المندائيين المقيمين في واسط وجنوب بابل يمكن تلمسها في أمور عديدة تتمثل في الاسم الذي لا يمكن أن يكون الإتفاق فيه إعتباطا، وفي طبيعة المعتقد من حيث الإيمان بالخالق الواحد الفرد وهذا ما ثبّته أبو إسحق الصابي في قصيدة كتبها جاء فيها:

والصابئــون يرون أنــك مفــردٌ	في الحُســن إقراراً لفرد ماجــدِ
كالزهـرةِ الزهراء أنت لديهم	مسعــودة بالمــشتري وعطــاردِ

وتتأكد في هذين البيتين من القصيدة نظرة الديانة الصابئية إلى الخالق بأنه فرد مفرد (نخرايي)[46] وهو إقرار المندائيين أيضا[47]. كما يظهر فيهما إكبار الصابئة للكواكب

---

[46] يرد في الأدب المندائي باللغة المندائية وضمن صفات الخالق تعبير " قدمايي نخرايي" بمعنى الأول المتفرد.

[47] يثبت السيدان نعيم بدوي وغضبان رومي في تقديم كتاب الليدي دراور الذي ترجماه الى اللغة العربية أن أبرز معتقدات الدين الصابئي تتحدد بصورة عامة في

أ- الإعتقاد بكينونة عليا سامية لا هيأة لها يكون التعبير عنها عادة في خلق العوالم الروحية والأثيرية والمادية ، وإن خلق مثل تلك العوالم أنيط بمخلوقات نجمت عن الخالق وبإرادة منه.

ب- الإعتقاد بثنائية الكون وإزدواج الشيء وضده وتلازمهما كالنور والظلام والخير والشر ووجود كون منظور وآخر غير منظور

ج- إعتبار الروح " تسمى عندهم نيشمثا: بمعنى النسمة أو النفس" أسيرة في الجسم وأن موطنها وأصل تكوينها هو الكينونة العليا، وهي تعود إليها بعد إنقضاء مدتها بتحررها من الجسد.

د- الإعتقاد بأن النجوم والكواكب (وهي من مخلوقات الخالق) مدبرات فاعلة في الكون ولها تأثير في جميع مظاهر الحياة ومن جملتها البشر. كما أنها أماكن للمطهرات بعد الموت.

هـ- الإعتقاد بوجود العالم الآخر الذي يسمونه عالم الأنوار، وأن هنالك أرواحا غير مرئية منقذة تساعد الروح البشرية في رحلة عودتها الى العالم الآخر. والإيمان بقيمة العمل الصالح في الدنيا الذي هو زوادة النفس في رحلة عبورها الى العالم الآخر.

(الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، الكتاب الأول. ترجمة نعيم بدوي و غضبان رومي)

وتعظيمهم لها ليس بمعنى العبادة بل بمنزلة تعظيم المسلمين للكعبة. والمندائيون يؤمنون بإله واحد فرد خالق وباليوم الآخر الذي فيه يكون الحساب، ويرون أيضا في الكواكب مدبرات في الكون وهبها الله فعله وتأثيره وهي مقر ملائكة موكلين، ولذلك فهـم إنما يعظمون هؤلاء الملائكة وليس الكواكب منازلهم. والروحانية متغلبة لديهم على المادية كون الأولى مخلوقة من كلام الله دعاها بأسمائها فوجدت، وأن كلام الله إلى الناس لا يصل إلا بوساطة مخلوق بين النور والتراب. ولغة الصابئة والمندائيين هي اللغة الآرامية، وكلاهما لهما ثلاث صلوات، ولا تكون صلاتهما إلا بعد وضوء" رشامة"، ويغتسلون من الجنابة ومن مس الميت ويعتزلون المرأة النفساء وأثناء فترة الطمث، ولهم صيام في أيـام متفرقة على السنة يمتنعون فيها عن أكل اللحوم، ويذبحون كل ما حلل لهم من الطيـر والأغنام بعد ذكر اسم الله عليه ، وصيروا قبلتهم نحو الشمال وكذا يوجهون المتوفي عند دفنه بهذا الإتجاه، وهم يحرمون البكاء واللطم على الميت، ولا يزوجون إلا بولي وشهود، ولا يقرون تعدد الزوجات ولا الطلاق إلا فراقا بعد البينة الشديدة وليس من فرق بين المرأة والرجل في الميراث. وهم لا يعملون شيئا يخالف الطبيعة أو ما خلقه الله في خلقـه ولذلك نراهم يحرمون الختان تحريما قاطعا ويعدونه اعتداء على كمال خلـق الخالق للإنسان، وكلاهما يعمل على غسل المحتضر قبل وفاته إذا ما أدركوا أن منيته قد حانت إيمانا بأن النفس يجب أن تخرج طاهرة ومن جسد نظيف، ويحمل النعش بالضرورة من قبل أربعـة أشخاص، وكلاهما يؤمن باليوم الآخر وبخلود النفس وأن هذه الأنفس لها صلة بأسلافها ويقدمون الوجبات الطقسية على راحة المتوفي ولمدة 45 يوما.

ومع كثرة جوانب الإتفاق هذه فإن هنالك فـوارق يجب عدم إغفالها بين صائبـة حران والمندائيين تتمثل في الغالب بإكبار صابئة حران للكواكب وما قد يراه البعض من وصف عبادتهم القائمة على عبادة الإله سين " إله القمر"، في حين أن المندائيين ينبذون أي عبادة غير عبادة الخالق الحي الأول المتفرد. كما أن قيام ديانة الصابئـة في حران على تعاليم هرمس لا يقابله مثل ذلك لدى المندائيين ويرون أن نصوصهم إنما هي من الحي العظيم. أما في الطقسيات فلا نرى تأكيدا لدى صابئة حران على طقس التعميد وشعائـره كما لدى المندائيين المشهورين به والذي يعد سمة مميزة لديانتهم

لأنهم يعتمدونه في مناسبات عديدة وليس لمرة واحدة كما لـــدى المسيحيين[48]. كما لا يـــرد ذكر لإجراءات المسقتا[49] لدى صابئة حران في حين أنها طقس أساسي لدى المندائيين.

أما في العلاقـــة الشخصية من حيث سرد أحداث وإرتباطات بين أبناء من صابئـــة حران والمندائيين فإن قلة التوثيقات ومن ثم ضياعها قد حرمنا من الوقوف على هـــذه العلاقات وجَعلَ خيوطها منقطعة إلا من تلمسات محدودة لكنها مؤكدة. وللوقوف عليها نقول: لو لم تكن مثل هذه العلاقة موجودة أصلا ومنقولة شفاها لما أكد الصابئة المندائيون اليوم وجودها وإمتدادها والدفاع عنها، بل وقيام العديد من الصابئة المندائيين المتقدمين في العلم اليوم بتسميـــة أبنائهم بأسماء من إشتهر من الصابئين أيام الخلافـــة العباسية كما في ابراهيم وسنان وثابت وحيان وصاعد ونصر. كما أن اسم زهرون الذي يرد كاسم لجد ابراهيم بن هلال الصابئ هو من الأسماء المندائية المقدسة المعروفة ويـــرد في العديد من النصوص الدينية المندائية، وهو اسم أحد ملائكة النور لدى المندائيين الذي يستقبل مع الشمس(شامش) فلك الشمس عبر السماء. و يتأسس الاسم على الفعل الآرامي المندائي (زهر) والذي يرد بمعنيين الأول: يعتني ويحذر، والآخر بمعنى يلمع ويزهي ويشرق ويتألق. فالزهرون هو المشرق المتألق. وهذا الاسم مشهور ومتعارف عليه ومازال المندائيون يطلقونه اسما على أبنائهم. بل أن إحدى أكبر العوائل المندائية القائمة اليوم كنيتها(آل بو زهرون). ويثبت البعض أن عددا من أحفاد أبي إسحق الصابي ظلوا يتسمون بهذا الاسم أيضا. بل ونذهب أكثر من ذلك في تسمية ابن حفيد الصابي وهو غرس النعمة بن هلال بن المحسن بن ابراهيم أبو إسحق الصابي. فغرس النعمة هذا هو ابن هلال الذي كان الحفيد المدلل لدى الصابي والذي رعاه وعلّمه وهذبه وصحبه معـــه في أيام خدمته في دواوين الخلافـــة

---

[48] تلزم الديانة المندائية أتباعها إجراء التعميد بعد ثلاثين يوما من الولادة حيث ينتسب الوليد للمندائية، وحين يصير عمر الطفل ستة سنوات، ثم إنه إجراء ملزم ضمن طقوس الزواج وبعد الأسبوع الأول منه، ومتى شاء الصابئي المندائي إجراءه تكفيرا عن حوالي خطأ قابل للتكفير كما في قيام الفرد بتكفين المتوفي، وكذلك لأغراض الراحة النفسية. وعلى هذا نرى المندائيين يتعمّدون في أغلب مناسباتهم الدينية، بل ولديهم عيدا خاصا يرتبط إسمه بالتعميد المقدس يسمونه " دهبا إد دايمانا"

[49] مثلما طقس التعميد مهم وأساسي للنفس وهي في الحياة، فإن طقس المسقتا (وهي كلمة آرامية مندائية تعني الصعود والإرتقاء) مهم أيضا للنفس بعد خروجها من الجسم عند الوفاة، حيث يساعد هذا الطقس، بقراءاته وشعائره، النفس في مسيرة عروجها وإرتقائها الى عالمها الذي تستقر فيه عالم الأنوار وخلال مرورها بالمطهرات التي تحاسب فيها عن أعمالها في الدنيا، بحسب المعتقد المندائي.

وبخاصة في ديوان الإنشاء، فنشأ أديبا فاضلا وترأس ديوان الإنشاء أيضا ومؤرخا موثوقا به وكان يحب جده الصابي أيما حب. ولذا فقد تشرب الحفيد الكثير من قيم ومعارف جده الصابي. ونرى أن في تسميته لابنه (غرس النعمة) سواء كانت اسما أم كنية هي إقرار من هلال حفيد الصابي بمعاني ودلالات من اللغة الآرامية وبخاصة مما يتواتر في أدب المندائيين ذلك أن تسمية غرس النعمة غير معروفة وغير مستخدمة في عصره ولا قبله بل ولا بعده، وهـــذا يظهر تفرده بها. ولو تابعنا هذه التسمية نراها ترجمـــة دقيقة وحرفية لما يرد في نصوص الديانة المندائية لكلمة (شيتل طابا)، وهي التسمية والكنية المعتمدة لنبي الله شيت أحد أبناء آدم (ع) هيبل وشيتل وأُنش. وكلمة شيتل متأتية من الفعل الآرامي المندائي (شتل) بمعنى غرس وهي مستخدمـــة في اللغة العربية أيضا باللفظ والمعنى ذاتـــه. ولأن المندائيين يقدرون (شيتل/ شيت) تقديـــرا عاليا فيربطون اسمه دائما بصفته (الطيب: طابا)، لذا فإن اسمه يرد دائما على (شيتل طابا). وعلى هذا فإن أصل تسميـة (غرس النعمة) هو ورودها في النصوص المندائية شيتل طابا) وهذا يدلل على معرفة آل الصابي وبالتالي صابئة حران بالنصوص الآرامية الواردة في كتب المندائيين بل وإيمانهم بها وصولا إلى إطلاق التسميات والكنى على أبنائهم من موروث المندائيين.

ومن جوانب استقراء العلاقة هو هذا النفس الثنائي الذي طبع بعض كتابات الصابي في رسائله وبخاصة الفلسفية والتي يظهـــر فيها تأثره بالثنائية الجدليـــة المعروفة في الفكر المندائي بشكل بارز كما في عالم النور والظلام والخير والشر مثلا. كما أن العديد من الفقرات المتميزة التي أوردها الصابي ضمن رسائله وبخاصة في التحميدات ووصف الخالق بسلب الصفات ونعته برفع النعوت إنما نجد لها ما يقابلها، إن لم يطابقها تماما، في كتاب الصابئة المندائيين المقدس(الكنزا ربا: الكنز العظيم).

وقد نوهنا إلى ذلك عند عرض تلك التحميدات في أبوابها في متن الكتاب وإليها يرجع القارئ. ويتطابق إيمان الصابئين الذي يظهره الصابي في إحدى رسائله التي يكتبها إلى صديق منجم له يسأله فيها استطلاع تحول سنته مع ما موجود لدى الصابئة المندائيين ومعتمد في كتاب لديهم اسمـــه (أسفر ملواشي) ويمكن أن يترجم إلى سفر أو كتاب دخول الساعة. وقد صار معلوما أن التنجيم علم أخذت به شعوب وحضارات قديمة عديدة لعل أبرزها ما كان مشهـــورا ومشهودا في بابل، حتى تم الارتقاء به حين أيده العلم الحديث اليوم بقراءة واستطلاع الأنواء التي صارت تعتمد في الكثير من قراءات الأحوال والأوضاع ما كان منها جويا أو غير ذلك. وعلى هذا نجد الصابي،

كما سيمر بنا، يحزن ويغتم لسقوط بغل له من على جسر في مدينة واسط ليس لقيمة البغل بل لأن الحادثة وافقت يوم تحول سنتــه (ذكرى يوم ولادته)، فكانت بالنسبة له فألاً نحساً تبتدئ به سنته لإيمانه، مثل إيمان المندائيين، بقراءة الطالع، الذي لا يغير من واقع أومشيئة نازلة بأمر الخالق حسبما يقــر ويثبت. ونرى أن الصابي، وبأسباب ملاحقة الأمير البويهي عز الدولة بختيار له في فترة من الفترات احتجب فيها لتأمين نفسه، ونرجح أن احتجابه كان خارج بغداد حتى لا يطاله ملاحقوه، ونعتقــده بعيدا في ضواحي مدينة واسط حيث يوجد عدد كبير من الصابئة المندائيين هناك. وهي بلا شك ملاذ آمن له، وهكذا ظلت حتى حصل على الأمان فظهر. ويؤكد ذلك أيضا أن الصابي كان قد عاش مكلفا من قبل الأمير عز الدولة أيضا فترة طويلة في واسط حتى أنه ملك الأملاك والقطاع، وهذا ما كان لو لم يكن له سند في أقارب ومعارف.

ومن أبرز جوانب ذكر العلاقة بين الصابئة المنحدرين من حران والصابئة المندائيين تلك التي حصلنا عليها مما يرد من سرد لبعض الوقائع التي ذكرها غرس النعمة (شيتل طابا) المؤرخ والأديب المعروف في كتاب لــه[50] والتي يوثقها إعتمادا على شخصيــة يثبتها غرس النعمة باسم (أبو سعد الماندائي). وهــذه الإشارة هي الإشارة الوحيدة التي تشير إلى اسم المندائيين[51] بإعتماده لقبا لبعض المبرزين من الذين كانت لهم علاقة مع آل الصابي، ذلك أن أبا سعــد المندائي كان من ملازمي القاضي والأديب التنوخي وهــو القاضي ببغداد وصاحب كتاب نشوار المحاضــرة وكتاب الفرج بعد الشدة وكتاب المستجاد من فعلات الأجواد. وبالمقابل فإن (الماندائي) تربطه مثل هذه العلاقة والمجالسة مع غرس النعمة والثقة به حد أن يوثّق عنه في بعض ما ذكر من حوادث ونوادر وطرائف[52]

---

[50] إحسان عباس، شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، دار الغرب الإسلامي، وياقوت الحموي ، معجم الأدباء

[51] وأشهر من تلقب بلقب المندائي هو القاضي أبو الفتح المندائي الذي ولد في البطيحة من حواضر واسط سنة سبع وخمسمائة وتوفي بها في الثامن من شعبان سنة خمس وستمائة هجرية (وفيات الأعيان لابن خلكان)

مما أورده غرس النعمة قال حدثني أبو سعد الماندائي قال: جاء للقاضي التنوخي غلام قد تزوج وكتب كتاباً بمهر ليشهد له القاضي فيه، واستحيا الغلام من ذلك فجذب طاقةً من حصير القاضي وجعل يقطعها لشدة حيائه وخجله. ولحظه القاضي فقال يا هذا: أنا أشهد لك في كتاب يقتضي أن يحمل به إليك القماش والجهاز اللذان يعمران بيتك ويجملان أمرك، وأنت مشغول بقطع حصيري وتخريب بيتي. وشق الكتاب قطعاً و لم يشهد فيه ورمى به إليه، فأخذه وانصرف متعجباً. (ياقوت الحموي، معجم الأدباء).

وضمن متابعة العلاقة بين الصابئين الذين جاءوا من حران وقطنوا بغداد وذاع فيها صيتهم بما قدمــوه من أعمال جليلة وخدمة أمينة وأصيلة في مجالات الطب والفلسفة والرياضيات وهندسة البناء وتنظيم قنوات الري وعلوم الفلك والإرصاد والترجمة والأدب والشعر، وبين الصابئة المندائيين الذين عرف عنهم أنهم أكملوا مسيــرة خروجهم من فلسطين إلى حران ومنها إلى واسط وميسان جنوبي العراق وخوزستان عبر جبال الميديا التحاقا بامتداد مؤسس لهم في جنوب أرض ما بين النهرين، فإننا نجــد أن هنالك عائلــة مندائية وهي من العوائل العريقة والكبيرة تحتفظ اليوم بشجرة أنسابها منتقاة من تثبيتات الأنساب المعتمدة في نسخ الكتب الدينية المندائية[53] وتسمى هذه العائلة بالعائلة المندوية[54]، وأبناء فخذ من هذه العائلــة مازالوا يتلقبون بلقب (الهلالي) ومنهم أطبـاء بارعون وأدباء مشهورون وصاغــة متميزون ومعروفون كما هو المعهود والمعروف بين الصابئة المندائيين عامة. ولغرض التوثيق وبيان إمتداد النسب الذي يصل إلى آل زهرون مرورا بأبي إسحق الصابي فقد أوردنا شجرة الأنساب هذه في ملحق خاص في هذا الكتاب. وهذه هي المرة الأولى التي يتم فيها مثل هذا التوثيق تأسيسا على مراجع الصابئة المندائيين ذاتهم وليس على المراجع العربية التي وثقت لآل الصابي، ذلك أن توثيقات المراجع العربية كانت قــد إهتمت بتراث المبرزين منهم دون تفاصيل الأسـر وأنسابها، كما أن كل ما دونـه الصابئون أنفسهم من جوانب تأريخية وأنساب وشروحات عن معتقدهم ضاع ولم يصلنا. إن محافظة الصابئة المندائيين على هذه الأنساب إستنادا إلى ما ورد في نسخ كتبهم الدينية يمكن الإطمئنان إليه بدرجة عالية من الثقة والدقــة، فالمعروف أن عملية نسخ الكتب الدينيــة لدى المندائيين هي من

---

[53] درج الناسخون المندائيون على إختتام عملية نسخ الكتب التي يقومون بها بتقديم قائمة بأسماء من نسخوا عنهم وذكر الحوادث التي حدثت خلال المرحلة التي عاشها الناسخ بما يوفر معرفة مصدرية دقيقة بالأنساب تأسيسا على الناسخين من جهة ، ومتابعة بعض الوقائع والأحداث للإستفادة منها في متابعة تاريخ وجود المندائيين وأبرز ما حصل لهم خلال مرحلة نسخ كل كتاب من جهة ثانية. وفي تجميع هذه التذييلات يمكن إعتمادها مصدرا موثقا لبعض الأحداث التاريخية.

[54] يراعى أن الصابئة المندائيين أتباع ديانة واحدة وهم لا يتوزعون بحسب مذاهب فلا وجود لمذهبية في ديانتهم ، كما أن كيانهم لا يقوم على أي أساس عشائري على الرغم من أنهم عايشوا مجتمعا عشائريا في جنوب العراق خلال مراحل طويلة من حياتهم. وما يعرف بين أبناء الصابئة المندائيين هو النسب العائلي الذي ربما صار لقبا أو كنية تأسيسا على إسم مبرز لجد أقدم . وهكذا نجد اليوم تسميات أنسابهم في: الخميسية نسبة الى خميس والسيفية نسبة الى سيف، والزهرونية والمندوية والكحيلية والصابورية والبريجية والسودنية والبكانية والمهناوية والذهبية والستاوية والعزازية والعثمانية والجيزانية والفريجية والكيلانية.

الأعمال المقدسة ويقوم بها عادة رجال الدين والمتبحرون الثقاة، وإن الحرص على النسخ إقتضى أن يُلزم الناسخ بأقوى وأشد المواثيق في أمانة نقله ودقة عمله، ذلك أن ما ينسخه سيكون عهدة نقل العقيدة والمعرفة للآخرين، وعليـــه فإن عملية الشطب محرمـــة وأي خطأ يحصل يتم تداركه بالكتابة فوقه. ونحن نرى أن ليس هنالك من حاجة لهذا الامتداد في النسب الأسري التاريخي وصولا إلى آل زهرون من قبل هذه العائلة لو لم يكن له حقا مثل هذا الامتداد ذلك أنها تنتسب ضمنا إلى العائلة المندوية أيضا تأسيسا على اسم (مندو) وهو الجد الأكبر، وأن عـــدد رجال الدين المندائيين في هذه العائلة كثير ودورهم كبير سواء في المعرفة الدينية أو في رئاســـة وقيادة المندائيين. ويكفي أن نشير إلى أن آخر رئيسين روحانيين أسبقين لكيان الصابئة المندائيين كانا من أبناء هذه العائلة وهما الكنزي برا[55] الشيخ دخيل الشيخ عيدان 1881- 1964 م، والكنزي بـرا الشيخ عبد الله الشيخ سام 1880- 1981 م، وهو والد العالـم المندائي المعاصر عبد الجبار عبد الله 1913- 1969 م الذي كان أول رئيس لجامعة بغداد. وقـد سألت أحد المتابعين والمهتمين في هذه العائلة[56] عن أي هلال من الذين وردوا في شجرة نسب العائلة ينتسب الهلاليون اليوم لـه؟ فأخبرني بأنه هلال بن محراث حفيد مندو الذي تلقبت بـــه العائلة المندوية.

إن هذه الدلائل التي قدمناها عن علاقة صابئة حران بالصابئة المندائيين تتأكد أيضا من خلال ما أورده بعض الباحثين والأكاديميين وعلى رأسهم الباحثة المشهورة الليدي دراور التي وثقت في كتابها (الصابئة المندائيون) أن " في جملـــة ما أورده المؤلفون العرب مـــن روايات يوجد قدر لا بأس به يشير إلى أن لـــدى الحرانيين ما يشتركون به مع الصابئين الحقيقيين،.... وكانت المجوسية لا تزال حية وكريهة، فكان يجب تجنب أي تشابه أو أية علاقة مع المعتقدات الفارسية"[57]

---

[55] (الكنـــزي برا) درجة دينية متقدمة في سلم الدرجات الدينية المندائية، يرتقي إليها المنتسب للسلك الديني المندائي بعد تبحره في ديانته وتقديم الطقوس الدينية للمندائيين لفترات طويلة، وتتم في ضوء مواصفات وطقوس وإلتزامات دينية محددة.

[56] هو الصائغ المعروف والناشط المندائي السيد حمودي مطشر تقي الهلالي.

[57] الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، الكتاب الأول. ترجمة نعيم بدوي و غضبان رومي

ثانيا: خلفية عامة عن الصابئين في التراث العربي وقراءة موضوعية لورود اسمهم في القرآن الكريم

كل من يقدم على تناول الصابئين يشير إلى أنهم أتباع دين قديم ينسب البعض اسمه ى صابئ بن متشولح بن إدريس، وقيل إلى صابي بن ماري، وهو من عصر ابراهيم لخليل عليه السلام. وقد دانت بهذا الدين أقوام عديدة حتى صار في كل بلد صابئون، فصار صابئة فارس، وصابئة الهند، وصابئة الإغريق، وصابئة الصين، وصابئة مصر، وصابئة حران، وصابئة العراق. وقد كثر ذكر هذه الملة في التراث العربي وخاصة بعد ورد ذكرها في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع من القرآن ، فأولها في قول الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) البقرة/62 ، والثاني في قوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوس وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) الحج/17 ، والثالث في قول الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) المائدة/69 . وأما مذهبهم ، فقال ابن القيم: (وقد اختلف الناس فيهم اختلافا كثيرا ، وأشكل أمرهم على الأئمة لعدم الإحاطة بمذهبهم ودينهم وهم أمة كبيرة ، فيهم السعيد والشقي ، وهي إحدى الأمم المنقسمة إلى مؤمن وكافر، فإن الأمم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، نوعان: نوع كفار أشقياء كلهم، ليس فيهم سعيد، كعبدة الأوثان والمجوس، ونوع منقسمون إلى سعيد وشقي، وهم اليهود والنصارى والصابئة).[58]

ويشير الدكتور جواد علي في كتابه المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام إلى أنه يرد (في القرآن الكريم اشارة إلى الصابئين، وقد ذكروا بعد اليهود والنصارى في موضع من سورة البقرة، وذكروا وسطاً بين اليهود والنصارى في موضع من سورة المائدة وفي سورة الحج. ويظهر أن معارف أهل الأخبار عنهم نزرة، فليس لديهم شيء مهم مفيد يفيدنا عن عقائد أولئك الصابئة وآرائهم).[59]

---

[58] إبن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة

[59] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام

وقد ربط أهل الأخبار بين هؤلاء الصابئة المذكورين في القرآن وبين صابئة حرّان وصابئة العراق، وجعلوهم طائفتين في الأصل: طائفة هم صابئة حنفاء وهم في نظرهم أصحاب ابراهيم ممن كان بحرّان وممن كان على دعوته، وصابئة مشركين وهم من فسدوا من الصابئة فأشركوا واعتقدوا بالكواكب. ولكن الذي يفهم من القرآن الكريم أن الصابئة جماعة كانت على دين خاص، وانها طائفة مثل اليهود والنصارى، أي أن الكلمة مصطلح ولها مدلول معين مفهوم. فما ذهب اليه المفسرون من هذا التعريف للصابئة ومن هذا التقسيم، إنما تكوّن عندهم في الإسلام، بعد وقوفهم على أحوال الصابئة واتصالهم بهم. ويفهم من المواضع التي ورد فيها ذكرهم في القرآن الكريم، ومن ورود اسمهم مع اليهود والنصارى فيه، أنهم كانوا يعبدون إلهاً، ويتوجهون في دينهم اليه. ولا يستبعد أن يكون من بين سكان مكة أناس كانوا من الصابئة، جاءوا اليها تجاراً من العراق، أو جاء بهم الحظ اليها، حيث أوقعهم في سوق النخاسة، فاشتراهم تجار مكة وجاءوا معهم إلى مدينتهم، وعرفوا منهم أنهم صابئة.

ونحن إذا ما تتبعنا ما ورَد عن لفظة صبأ و صابئ في الموارد الاسلامية نرى أن هذه الموارد تفسر لفظة صبأ بمعنى خرج من شيء إلى شيء، وخرج من دين إلى دين غيره. وتذكر أن قريشاً كانت تسمي النبي صابئاً، والصحابة الصباة، أي الخارجين على دين قومهم. وهي تستعمل لفظة الصابئة في كثير منّ الأحوال في معنى حنفاء، كالذي نراه في ربطهم ابراهيم بهاتين الدينين، وعدّهم قدماء الصابئة في جملة الحنفاء، فإن هذا يدل على أن المراد من الصابئة بين العرب عند ظهور الإسلام هم المنشقون الخارجون على ديانة قومهم، أي على عبادة الأوثان والمنادون بالتوحيد. وأما ما نراه من إطلاق التسمية على الصابئة المعروفين في الإسلام، فإنما حدث في الإسلام.

واطلاق قريش لفظة الصابئ والصباة على المسلمين بدلاً من تسميتهم بمسلمين قضية مهمة جداً، يجب الاهتمام بها، وفي الأخبار أمثلة كثيرة على ذلك. فقد ذكرت كتب الحديث والسير واللغة أن قريشاً دعت النبي صابئاً، وفي جملة من دعي بذلك عمر قبل إسلامه، ثم رميُ عمر بها بعد إسلامه أيضاً. ولما أسلم أبو ذر الغفاري، انهال عليه أهل مكة بالضرب، لأنه صبأ وفتن وخرج عن دينهم. ولما أرادت زوج مطعم بن عديّ خطبة ابنة أبي بكر إلى ابنها، ذكرت له أنها تخشى أن يؤثر على ولدها، فيكون من الصباة. وقد كانت لفظة الصباة والصُّباء بمعنى مسلمين عند المشركين، ففي معركة حنين نجد "دريد بن الصمّة" يخاطب أحد رؤوس القوم ويقول

نه في جملة ما قاله: " ثم ألق الصُباء على متون الخيل". ولما أرسل بنو عامر لبيداً إلى النبي ليرى خبره وعلمه، أسلم، وأصابـــه وجع هناك شديد من حمّى، فرجع إلى قومه بسبب تلك الحمّى، وجاءهم بذكر البعث والجنّة والنار، فقال صرافة بن عوف بن الأحوص:

لَعمـــرُ لـبـيـد إنـــه لأبـن أمـــه	ولـكـن أبوه مسـه قـدم الـعـهـد
دفعناك في أرض الحجاز كـأنـمـ	دفعناك فحلاً فوقـه قرع اللـبـد
فعالجت حـمـــاه وداء ضـلـوعـــ	وترنيق عيش مسه طرف الجهد
وجئت بديـن الصـابـئين تـشـوبـه	بألواح نجد بعد عهدك من عـهـد
وإن لنـــا داراً زعـمـت ومـرجعـاً	وثـم إيـاب القارضـين وذي البـرد

فكان عمر يقول: "وأيم الله إياب القارضين وذي البرد"[60]. فقصد الشاعر بجملة "دين الصابئين " الإسلام، فالصابئون في نظر المشركين هم المسلمون. ولما ذهب سعد بن معاذ إلى مكة، أنبه أبو جهل على قدومه اليها بعد إن دخل في دين الصابئين. ولما قدم خالد بن الوليد على بني جذيمة، نادوه بأنهم صبأوا، أي دخلوا في الإسلام. ويلاحظ ان الوثنيين أطلقوا هذه التسمية على كل من أسلم، وعلى كل من شكّوا فيه ورأوا انه ميال اليهم.

وقد قادنا البحث في شأن الصابئين أن تناولناه بدراستنا الموسومة " الصابئون في القرآن: قراءة موضوعية"[61] أوضحنا فيها تحليل ما فهمناه من ورود هذه اللفظة ومعناها وتدويلها وقلنا:

إن رأس ما يشير إلى الصابئة ورود ذكرهم في القرآن الكريم، ذكرا صريحا وبالتسمية التي لا لبس فيها، خاصة وأن هذا الذكر جاء في آيات كريمة قصد فيها الفصل في أتباع الديانات والوعد عند إتباع مايراه الله سبحانه قواعد الدين القويم التي حددها في هــذه الآيات. ومع أن الذكر بيّن مبين الا أن غياب واقع المنصوص عليهم (الصابئين) لم يوفر فرصة للاطلاع الفعلي على ما لديهم فيمــا خصهم الله سبحانــه به، فكان أن ذُهب بتفسيرهم مذاهب شتى وحين يُقيّض لصابئي مندائي أن يقرأ

---

[60] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني

[61] د. قيس مغشغش السعدي، الصابئون في القرآن، قراءة موضوعية. دراسة نشرت في العديد من مواقع الإنترنيت

ويتابع هذا الذكر ويطابقه مع ما يعرفه في ديانته فأنه يغدو مسرورا أن يشاركه الآخرون قراء ته الموضوعية. وقـــد قرأت، فأقول:

أولا:- لا إختلاف في أن القرآن الكريم هو آخر كتب الأديان السماوية ، وهو الكتاب المحدد المعلوم نزولاً مكاناً وزماناً وقـــد كُتب له أن يحُفظ بما لا يمسه تغيير أو تأويل، مما جعل نصه يُعتمد، دونما شك في اختلاف هـــذا النص، لأغراض التوثيق. وإذ تعددت شروحاته وتفسيراته فإنما هي قدرات البشـــر للنظر في الآيات والسور واستلهام النصوص عملا وأحكاماً وشريعةً . ومثلما هنالك وضوح تام ونصوص محددة لجوانب تشريعية ، فإن هنالك ذكرا لإستيعابات الكون والحيـــاة بما يجعل المجال مفتوحاً لتفسيــــر المعطيات المستجدة في الحياة بكل سبل تطورهـــا المقدّرة بقدرة الخالق وحسب معطيـــات الأزمان وتقدمها بحيث لا تأتي الأديان بتفسير محدد لما هو كائن وحسب، بل تضمين ما سيكون. وهنا تتجلى القدرة الإلهية في الإيحـــاء والإلهام في كل تنزيل لا يتحـــدد بمكان أو زمان، حينها يمكن إقران المستجـــدات بالثوابت المذكورة هكذا فسرت آية (.. والأرض بعد ذلك دحاها)/ "النازعات"، أي جعلها كرة بل وأكثـــر من ذلك بيضوية الشكل وهو ما ثبت علمياً لاحقا بكثير .
وآية (.. أن تنفـذوا من أقطار السموات والأرض لا تنفذون الا ّ بسلطان)/ "الرحمن" ، حيث فسرت راهنا بأنه إرتياد الفضاء بسلطان المركبات الفضائية التي لم تكن معروفة الا ّ في منتصف القرن العشـــرين. كما أن هناك من الآيات ما أغلق الله سبحانه فيها باب التفسير لينهي كل جـــدل دائر أو يدور كما كان في (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي)/ "إبراهيم"
إذن ، إن أي تفسير إنما ينطلق من معارف ومـــدارك المفسرين وكذلك من معطيات أوانات العصـــور ، ولذلك ظهرت الإختلافات التي تباينت من السطحية إلى التضاد ، وبعض ذاك كان وراء ظهور المذاهب الإسلامية أيضا

ثانيا:- ومن بين الآيات التي تعـــددت تفاسيرها وتباينت آراء المفسرين فيهـــا هي الآيات الثلاث التي ورد فيها ذكر الأديان والتي أصبحت معروفة للصابئـــة المندائيين لأنها عنتهم بالذكر فيها. ولإغراض هذا المقام نوردها للحاجة في الرجوع إلى نصوصها، وهي

الآية 62 من سورة البقرة (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ).

الآية 17 من سورة الحج (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

الآية 69 من سورة المائدة (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ).

إن هذه الآيات وردت في سور مدنية، أي أن نزولها كان بعد هجرة النبي محمد (ص) إلى المدينة، ممــا يعني أنه لم يحصل نسخ للآيات، كما يعني أن الأديان المشار اليها مازالت موجودة وباقية في زمن النبي بما إقتضى الذكر والتنويه تحسباً لما سيشرّع و يُسن بشأن أتباع هذه الديانات، ومن ذاك أخذ الجزية من أهل الكتاب جميعاً الذين لم يــدخلوا في الديانة التي دعا اليها النبي محمد(ص) " الإسلام " كحل لعدم إلزامهـــم بذلك. وكان الصابئون ممن أخذت منهم الجزية كما تشير إلى ذلك كل المراجع وكتب الخراج.

ثالثا:- تحُدد الآيتين في سورتي البقرة والمائدة الأسس المقرة والمعتمدة في النظرة إلى الدين وأتباعه . ومع التباين في تحديد معنى كلمة الدين الاّ أنه ، لغة ، يعني : الملك، الخدمــة، الإكراه، الإحسان، الطاعة.. وكل ما يشير إلى لزوم الإنقيـــاد . وأما الدين إصطلاحاً، فنشير إلى ما يراه الإمام محمد عبده ، بأنه " خلوص السريرة للحق وقيام النفس بصالح العمل " واستنادا إلى ما جاء بنص الآيتين المذكورتين فإن المطلوب في الدين الحق يتحدد بـ : الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والقيام بالعمل الصالح.

رابعا:- لم يميز الله سبحانه في سورتي البقرة والمائدة بين ديانة وأخرى بل أن كل الذين أشار لهم إن هم آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحا فلهم أجرهم .. وهو وعد يقطعه الله لهم في الآخرة ليعملوا على وفقـــه في الدنيا . أما في ســـورة الحج حيث يرد ذكر المجوس والذين أشركوا بشكل منفصل وبتسميـــة محددة مغايـــرة للذين ذكروا في السورتين السابقتين فإن ذاك تحديد لأمر شاء الله سبحانه تثبيته بأنه هو وحـــده الذي يفصل بين هؤلاء جميعا يوم القيامة.

خامسا:- إن النظر في هذه الآيات يجعلنا نستقرئ نقطتين أساسيتين:

1- أن القرآن الكريم قد حسم نصاً، شأن العديد من الأمور التي تدّخل لحسمها ، في الخلافات التي ظهرت في حياة النبي محمد (ص) فيما يتعلق بالأديان وعباداتها وأتباعها والموقف من كل هؤلاء وبخاصة من كانوا في بيئة النبي ومن الذين يتواجدون ويعيشون بمجتمع واحد بما يتطلب البت بأمرهم تجاوزاً لكل الخلافات والآراء والأهـــواء ووجهات النظر المحدودة والمحددة بتوجهات بشرية، فكان أن يحسم الله سبحانه في هذا الخلاف تنزيلاً وبآيات بينات وضعت تشخيصات محددة حسب تبعيتهم تسمية وصف وليس تسمية دين فالدين عند الله الإسلام بالمعنى الذي سنشير إليه لاحقاً. وفي حسم هـــذا الخلاف، يحدد الله سبحانه حدوده للموحدين الذين ذكرهم في سورتي البقرة والمائـدة، وأنهم بديانتهم لا يكون لهم وعده إلاّ متى آمنوا به وبيومه الآخر وعملوا صالحاً. كما يقرر سبحانه بأن أي خلاف بشأنهم وشأن الذين أشركوا هو الذي يفصل به وليس غيره وذلك يوم القيامة (سورة الحج).

2- أن القــرآن الكريم يذكر ويحدد ويشخص الأديان الكبيرة والسائدة والتي مــع السعي لأن تؤمن بدعوة النبي محمد (ص) فـإن ذلك لم يكن إلزاماً بل ترغيباً (لا إكراه في الدين) / البقرة. وقد نوّه القرآن الكريم في غير آية إلى ذلك، ومن ذاك يخاطب الله سبحانه النبي محمد(ص) بقوله: (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء)/ البقرة ، وقوله: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) / يونس، أي مؤمنين بما جاء بدعوة النبي محمد (ص) وليس بمعنى الإيمان بالله، لأن الإيمان بالله قائم منذ القدم، بل أن السائد منذ خلق آدم (ع) هـــو الإيمان بالله وما الشرك الاّ نشوز. وفي كل الأحوال فــإن الله سبحانه لم يفوض سلطته للحكم بعبـاده وخلقه لأحد، بل أنه هـو المولى المتولي في الحكم، ولذا يقول (وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم تختلفون) / الحج . ومع كل ما كان قائما من خلافات فإن الله سبحانه يأمر بالعدل في التعامل مع الجميع بقوله (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب إلى التقوى) / المائدة. بل أنـــه سبحانه ينهي ويأمر صريحاً باحترام أهل الكتاب بقوله : (ولا تجادلـــوا أهل الكتاب الاّ بالتي هي أحسن الاّ الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا واليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون)/ آل عمران .

سادسا:- إذن، إلهنا واحد، رب السموات والأرض، ونحن جميعاً، وإن تعددت دياناتنا، له مسلمون أي "عابدون" بخالص السريرة . فإسلامنا يعني إســلام الوجه لله لا لغيره ، وإن إسلام الوجه لله هو التوحيد ، ولأن التوحيد قديم فهذا يعني أن الإسلام قديم أيضاً وهو (أي الإسلام) ليس محددا بكل من آمن بدعوة النبي محمد (ص) في عهده أو من بعده فحسب ، بل إنه وصف وتسمية أطلقها الله من قبل على كل من آمن برسوله الذي بعث في زمنه ، وبكل من وحّد ربه وأسلم وجهه وقلبه وأمره كله لرب العالمين. فالدين منذ القدم هو دين الإسلام بالمعنى الذي ذكرناه (هو سماكم المسلمين من قبل) / الحج. (قال نوح وأمرت أن أكون من المسلمين) / يونس. و (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) / آل عمران .

سابعا:- وبالنهج نفسه يرد في كتاب الصابئين (الكنزا ربا) أن الله (اسمه ملء أفواه المسلمين والمؤمنين بالحق وشوما لكُلهُن شلمانيا كُشطا ومهيمينيا) وكذلك (طوبى للمسلمين المؤمنين الذين تأملوك وعرفوك). وفي كل نواهي الرب عن فعل الباطل وأوامره بفعل الخير تتقدم الوصايا عبارة: (يا مسلمون ومؤمنون، يا مؤمنون ومسلمون..). ويذكر أيضا:(كلكم يا مؤمنون ومسلمون، يا من تصطبغون، باركوا الخبز وكلوه وباركوا الماء واشربوه تغفر خطاياكم وحوباؤكم) وتعني المباركة هنا ذكر اسم الله. وأيضا(أيهــا المختارون المسلمون ، كونوا لطفاء وليرحم أحدكم الآخر بالحق وستصعد رحمتكم إلى باريكم).

إن هذه الإشارات لذكر كلمة " الإسلام والمسلمون" نصا في ديانة الصابئة تعد أقدم إشارة إلى ورود الكلمة بلفظها، حيث لم تأتِ هذه التسمية صريحة في نصوص الديانتين اليهودية والمسيحية، بل إن الظن كان سائـداً بأن ورود هذه الكلمــة اصطلاحا إنما جاء أولا في القرآن الكريم. إلاّ أن ورودها في كتاب الصابئة، بما له من قدم ثابت وبلغته المندائيــة القديمة التي تعد مؤشرا أساسيا في خصوصية ديانة الصابئة وكبر حجم أمتها الذي أوجب أن تكون لها لغة خاصة، يقدم لنا دليلاً على ما أشار لــه القرآن الكريم من أنه (هو سماكم المسلمين من قبل)/ الحج . وعلى هذا فإن من آمن بالديانة التي جاءت بدعوة النبي محمد (ص) إنما يكون مسلما ملتحقا بكل المسلمين الذين آمنوا بالله وبالرسول الخاص الذي بُعث لهم في زمانه. وبهذا أيضاً يكون تفسير الآية (إن الدين عند الله الإسلام) / آل عمران، أن الإسلام ليس دين الدعوة التي جاء

بها النبي محمد (ص) وحسب، بل كل من أسلم وجهه وسريرته وعمله الصالح لله فكان مسلماً. حينئذ يكون الصابئي الحق مسلما واليهودي الحق مسلما والنصراني الحق مسلما. كما أن آية (ومن يبتغي غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو يومئذ من الخاسرين)/آل عمران، تعني المعنى نفسه بل وتؤكده، حتى يختتم القرآن الكريم بآخر آية نزلت (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا) / المائدة، نصاً صريحا بأن الدين الذي أكمله الله سبحانه هو ما أملاه على محمد النبي فدعا إليه. ثم يردف في الآية نفسها بأن الله إرتضى لهؤلاء الذين آمنوا والذين سيآمنون" الإسلام" الذي عهده إلى الجميع منذ خلق آدم (ع).

ثامنا:- وبالعودة إلى الآيات الثلاث التي جاء فيها تحديد الأديان ، نجد أن أكثر الإختلافات التي حصلت بين المفسرين كانت فيما يتعلق بالصابئين ، بل أن الصعوبة في بحث أمر الصابئين ما تزال قائمة من يوم ورودهم في القرآن الكريم وما كُتب عنهم في أمهات الكتب العربية: مروج الذهب للمسعودي، الفهرست لإبن النديم، الملل والنحل للشهرستاني، والجواب الصحيح لإبن تيمية والذين لم يقطعوا بكلمة أخيرة بخصوصهم بل ولم يقتربوا منها، والحال نفسه مع المستشرقين والباحثين الذين نظروا إلى المندائية على أنها عقيدة إغنوصية (معرفية) وحسب، لحاجتهم إلى تحديد تاريخ لبدء ظهور المندائية. وبما أن (الإغنوصية) كحركات وعقائد سادت بحدود معلومة ما قبل وبعد ميلاد السيد المسيح، فقد كان من الأسهل لهم تحديدها بهذا التاريخ.

تاسعا:- إن الاختلاف ينبثق أصلاً من تسمية الصابئين عندما أرجع عموم المفسرين هذه التسمية إلى اللغة العربية، وما يراه العرب في أصل الجذر المهموز لكلمة (صبأ) بمعنى الخروج من حال إلى حال آخر ، وهو الأسهل والبائن لأنه يعتمد على اللغة مع أن كل الأديان التي ذُكرت تسمياتها في الآيات المشار اليها لم يعتمد القرآن تسميتهم فيها على أساس الفعل لغويا، بل بمدلولهم المعتمد أي بالتسمية المعروفين بها انتساباً أو صفةً وقياساً تكون (الصابئون) تسمية لقوم معروفين بهذه التسمية أصلاً. وإن كانت التسمية لغوية فهي إنما تنطبق على(الذين آمنوا، والذين هادوا، والذين أشركوا) بسبب إستخدام كلمة " الذين" وإردافها بالفعل المعتمد لبيان الحال. والفعل لا يشكل ديانة بل أنه يشير إلى عمليّة، والعملية تنتهي بإنتهاء فعلها. فإن صبأ

الصابئون، كما فسرت لغة، أي تحولوا، فإلى ماذا تحولوا ؟ وما هي تسميتهم بعد التحول؟ أم أنهم جمدوا على حال الصبوءة! ولو سلمنا جدلاً بأن الصابئين من الفعل صبأ بمعنى تحول فأن السؤال يكون من ماذا وإلى ماذا هذا التحول؟ ولو سلمنا مرة أخرى بأن كل من يتحول في ديانته إلى ديانة أخرى يكون قد صبأ فهو صابئ وهو إذاً من الصابئين لأصبح من تحول ودخل الديانة اليهودية صابئيا، والذين غيروا ديانتهم اليهودية ودخلوا المسيحية صابئين والذين دخلوا في ديـانة الدعوة المحمدية صابئين ! وليس صحيح أن إطلاق قريش على النبي محمد (ص) لفظة صابئ بمعنى آنه خرج عن دينهـــم، فذلك الخروج يمكن أن يفسر على أنه نحو الحالة الأصح وبالتالي لا تريد قريش أن تتهم نفسها. بل الصحيح أن قريشا وجدت في ما ينادي به النبي محمد وصيحته بـ(لا إله الاّ اللّه) إنما هي نفس ما عهدوه وسمعـــوه يتردد في ديانة الصابئين فقالوا عن النبي محمد (ص): هذا الصابئ، و لقد جاءنا بدين الصابئين. إذن هو دين في كتابه وشرائعه وطقوسه وأنبيائه وأتباعه التي يمكن أن ينظر فيها جميعا لإستنباط الحكم الشرعي. فكيف يترك كل هذا لينصب الأمر على تعريف واشتقـــاق لغوي ينظر له البعض من زاويـــة ما يعرف ويترك- لأنه يجهل- زاوية الأصل الآرامي للكلمة(صبا) والذي يعني اصطبغ أو تعمد أو إغتسل وهي من التسميات التي عرفوا بها الصابة المغتسلة. ثم أن المعنى اللغوي للفعل(صبأ) بمعنى خرج ومال وحاد هو نفس المـعنى اللغوي لكلمة حنيف ومنهـــا (الأحناف) والتي مصدرها (حنف) بمعنى مال وحاد وهي مستخدمة في اللغة بهذا المعنى أكثر من كلمة صبأ، ومع ذلك فأن الكلمتين تعطيـان المعنى نفسه، فلماذا يُدخل اليهمـــا من مدخلين مختلفين؟

عاشرا:- وبالنظر في التفسيـــرات المعتمدة للآيات المذكورة نجـــد أنها ، فيمـــا يتعلق بالصابئين، ظلت أسيرة عدم التحديد الدقيق بسبب عدم مثول أتباع هذه الديانة في منظور أغلب المفسرين وعدم المعرفة بحالهم وحقيقة دينهم وإعتقادهم فكان أن لجأوا إلى الظن والاعتماد على السمع ومن ثم النقل. وليس أدل على ذلك مما جاء بكتاب " تفسير القرآن العظيم " للإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير المتوفى سنة 774 هـ في تفسيره الآية(62) من سورة البقرة التي يرد فيها ذكر الصابئين حيث يبدأ: " أما الصابئون فقد اُختلف فيهم .." ويبقى هذا الاختلاف والتناقض قائما في كل ما أورده عنهم. ويظهر عدم إتفاق المفسرين بشأن الصابئين من خلال تعدد وصفهم، ومن ذاك:"طائفة من المجوس، عبدة الملائكة، عبدة الكواكب، يعبدون

الشمس ويصلون اليها خمس مرات في اليوم، بين اليهود والنصارى يقرون بالله ويقرآون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون إلى الكعبة، قد أخذوا من كل دين شيئا، إن أصل دينهم هو دين نوح ، إنهم الذين لا دين لهم، إنهم من أهل الكتاب فقد أخذت منهم الجزية التي لا يجوز أخذها الاّ من أهل الكتاب، إنهم موحدون توحيدا صريحا بدليل ما ذكروا به في القرآن الكريم " فهل اختلف في أي من الديانات الأخرى مثل هذا الاختلاف؟

حادي عشر:- واختلاف المفسرين يقـــع أيضاً بشأن الذين آمنوا في الآيات المذكورة أصلاً ، إن كان المقصود بهم من آمن بدعـــوة ابراهيم (ع) وبقوا موحدين، أم خصوص الذين صدقوا وآمنوا بدعوة النبي محمد (ص) تمييزا لهم عن الذين لم يؤمنوا، وهكذا بقي وصفهم بالقرآن دائماً " يا أيها الذين آمنوا.. ، فإن كانوا هؤلاء فهم معلومون. كما أن "الذين هادوا " وهم اليهود فأن معرفتهم وتعريفهم لا يتطلب جهدا واختلافا ذلك أنهـــم قائمون في بيئة نزول القرآن. "والنصارى" قائمون أيضا بكثرتهم في بلاد العالم وما جاور الجزيرة العربية وتخومها. و المجوس" محددون بأمتهم ووجودهم القائم في بلاد فارس بما لا يقبل التأويل وعدم المعرفة. و الذين أشركوا " وهؤلاء من لا يقع ضمـــن من ذكروا وكان اشراكهم بالله ماثلا بالأوثان والأصنام نقول أن كل من ذكر بالآيات الثلاث معروف بشكل محدد تماما، أما الصابئون فإن بيئتهم الثابتة تأريخيا هي جنوب العراق، وإن كان لهم وجود في فلسطين فإن ذلك الوجود كان قد هاجر، حسبما يروى، إلى العراق أيضا قبل ما يزيد عن 500 عام من دعوة النبي محمد (ص). ومع ذلك فإن شمولية القرآن الكريم وتشخيصه وتحديده للديانات القائمة والمعتمدة قد أشارت اليهم إشارة صريحة وبدلالة محددة، وإن ورود ذكرهم في آيات مدنية إشارة إلى أنهم باقون في عهـــد النبي محمد (ص) وإلى ما بعد هجرته من مكة. فماذا نفهم من هذه الإشارة المحددة ؟

1- أن للصابئين ديانة، بل هي واحدة من الديانات المعروفة والمُعلَّمَة ، ولذلك يورد الله سبحانه ذكرها في الآيتين من سورتي البقرة والمائدة مع الأديان الثلاثة الأخرى المعروفة، وفي آية ثالثة مع الأمم الخمس بإضافة أمة المجوس، والذين أشركوا. وشمولية معرفـــة الخالق تفوق معرفة البشر في تفسيراتهم وتأويلاتهم.

2- إن الصابئين أمة ذات شأن استوجب أن يذكرها الله ويشير إليها جنبا إلى جنب مع الأمم الكبيرة المعروفة. ولو لم تكن كذلك لما استحقت هذا الذكر وبالتسمية المحددة

3- إبتعاد ديانة الصابئين عن المجوسية ذلك أن الله قد أفرد ذكر المجوس بشكل منفصل في سورة الحج ، كما أن استخدام " واو العطف " بين كل فئة وأخرى يفيد، لغةً، للمغايرة قطعاً.

4- إبتعاد ديانة الصابئين عن الشرك أيضا، ذلك أن الله سبحانه أفرد ذكر " الذين أشركوا " بشكل منفصل أيضا في سورة الحج ، ومعلوم أن عبادة الأصنام والأجرام والملائكة وكل ما هو غير الله سبحانه هي من الشرك الذي أبعد الله الصابئين عنه في هذه السورة

5- إن ذكر الصابئين في سورتي البقرة والمائدة مع الديانات الثلاث وهي المعروفة بتوحيدها يدلل بما لا يقبل الشك بأن للصابئين ديانة موحدة أيضا، ولذلك فإن الله يَعِدُ في هذين الآيتين الجميع بوعده ويُلزم قيام الجميع بما حدده والذي أعتبر ، تأسيسا على ما جاء بهذين الآيتين، أنه مقومات الدين القويم.

6- كرر الله سبحانه الوعد في آيتين وخص بهما الديانات الأربعة بما فيها ديانة الصابئين، أما في الآية التي أورد ذكر الجميع فيها أي "المجوس" بما معروف من إشراك في المجوسية، " والذين أشركوا " وعبدوا ما هو غير الله ، فلم يذكر فيها سبحانه وعداً، بل أشار إلى أنه يفصل بينهم. وبالتالي فقد سمى البعض الآيتين بآيتي الوعد، أما الآية الأخرى فأسماها آية الفصل. والفرق بيّن ومعلوم بين الوعد والفصل.

7- لم يذكر القرآن الكريم هذه الأديان إلاّ لأنها قائمة وموجودة وليست منقرضة، ذلك أن الكثير من الأحداث والأقوام وعباداتها ومسمياتها كانت قائمة قبل الحالة الموجودة والباقية للأديان المذكورة ولكن لم يتم ذكرها أو الإشارة اليها، وحجب الله فيها أي تفصيل وأشار بأنه هو وحده الذي يعلم أمر ذلك. أما من ذكر ففي ذكرهم إشارة ومعنى لقيمة وجود ودلالة عبادة مقابل شرك وكفر حُدد في الآيات.

8- لا يجامل الله في آيتي الوعد من سورتي البقرة والمائدة، ولا يعد المذكورين فيهما أنهم سيحوزون الأجر الاّ بشروطه المنطبقة على الجميع بقوله" من آمن منهم.... " أي من هؤلاء المذكورين جميعا. وآمن بماذا ؟ بـ: أن الله واحد أحد، وأن توحيده يجب أن يكون خالصا، وكذلك باليوم الآخر الذي لا بد منه والذي يكون فيه قضاء الله، إضافة إلى القيام بصالح الأعمال، على أن تكون هذه الشروط والمواصفات الثلاثة منجدلة وليست منفصلة، حينذاك يستحقون وعد الله بأن يكون لهم أجرهم والوعد بالجنة وهو أعظم الثواب ذلك أن الله حينما يعد فإن وعده لا يكون الاّ

عظيما. فمن صفـــات الله الكرم والرحمة وسعة العطاء، وبالتالي فإن الجميع لا خوف عليهم فيما سيأتي ولا هم يحزنون على ما فات وحصل .

ثاني عشر:- فلتنظر الديانات الأربع إذاً بمدى مطابقة ما لديها نصوصاً وشريعة والتزاما استناداً إلى ما جاء ذكره من مواصفات الدين في الآيتين الكريمتين المشـــار اليهما وهما مرجع التحديد

وبقدر معنيتنا بما وُعد الصابئون بـــه فإن الرجوع إلى مقومات ديانتهـــم يُظهر كل جوانب الانطباق مع ما منصوص للفوز بوعد الله وأجره ، ولا يتعب الفرد نفســـه في تتبع ذلك بل سيجده فيضاً في الكتب الدينية وبخاصة كتابهم الأساس" الكنزا ربا الكنز العظيم" وفي اقتباساتنا الآتية إشارات للتدليل لأن الاسهاب يطول ، ويمكن الرجوع إلى مصـــادره للاستزادة .

أما الإيمان بالله سبحانه ، فالمذكور والمعروف عن الصابئين أنهم ينزهون الله غاية التنزيه ويصفونه بسلب الصفات فهو الذي: لا شريك له بملكه، ولا كفء له بسلطانه، ولا وجود بدونه، ليس له بداية وليس له نهاية، لا حدود لقدرته، لا يُرى، لا يُحد .. كما يُنعت برفع النعوت فهو الملك، النور السامي، الرؤوف، التـواب، العليم، البصير، العارف، ذو الوقار والجلال، الحي، الأزلي، الأبدي، الذي على كل شئ قديـر.. "[62]

وتحذّر النصوص الدينية الصابئين من أي شـــرك بالله وتذكر صريحاً: " لا تسجدوا للشيطان الرجيم فمن يسجد له يكن مصيره النار "، " لا تسبحوا للكواكب والأبراج ولا تسجدوا للشمس والقمر المنورين هذا العالم فإنه هو، الله، الذي وهبهما النور "، " تسبح ملائكة النور لملك النور بالنور الذي وهبه إياها "، " تباركت سبحانك مولانا ملك الأنوار العلي هذا اليوم وإلى أبد الآبدين، بكلمتك خُلق ونُودي وأرسل أثيري إسمه جبريل حامـــل رسالة النور.. "

وأما إيمان الصابئين باليوم الآخر فإنما تأكيـد ذلك بالإيمان المعلوم لديهـــم بالعالم الآخر الذي يسمونه "عالم الأنوار: " آلما إد نهورا " وإشارات ذلك تظهر في نصوص مثل ".. ولا تشتروا الدنيا إذ هي دار نفاذ " " كل من ارتسم برسم الرب وذُكر عليه اســـم الله وثبت وتقوّم بصباغته وعمل أعمالاً طيبة لا يؤخره أحد يوم الحساب "، وتراحموا وبروا ببعضكم البعض إلى اليوم الآخر العظيم.. " ، " يا مصطفون إعملوا أعمالاً صالحة

---

[62] جميع النصوص المعتمدة مقتبسة من كتاب الصابئة المندائيين " الكنزا ربا"

وتزودوا بزوادة لآخرتكم "، " لمثلكم سنهب زاداً للدنيا وزوادة للآخرة ونسمو بكم إلى الأماكن العليا"، " حين أكملت النفس قدرها جاء من يحررها، ولحقت النفس بمحررها إلى عالم الخلود الذي لا تغرب شمسه ولا يداخل نوره ظلام ". والمعروف لدى الصابئين أن النفس حين تفارق الجسد، والذي تعتبره سجنا لها، تذهب في مسيرة لرتقائها إلى باريها مارة بما يسمونه " المطهرات: المطراثي " وهي موقفات النفس المحاسبة ووزن أعمالها بنفس نبي الله (شيت بن آدم "ع") كأطهر الأنفس الآدمية .
ولما ذكر العمل الصالح فإن نصوصاً عديدة تشير إليه وضرورة التزام الصابئي به ومنها :
" آمنوا بقلوبكم واعملوا صالحا بأيديكم وقدموا الصدقات والطيبات"، " طوبى لمن عمل طيّباً وويل لمن عمل خبثاً "، " يوهب كل إنسان بقدر ما عملت يداه ". أما مقومات العمل الصالح فقد وردت متنوعة في الصدقة والتراحم والبر والتعاون واحترام الوالدين والابتعاد عن كل ما هو شر وظلم.

ثالث عشر: – إذن، يكون ذكر الصابئين في القرآن الكريم مرجع إعتماد وتخصيص إفراد وإظهار وجود وإسناد ما يزال ماثلاً، بقدرة الله، في وجودهم طائفة حية في العراق وإيران تأريخا، وبقية بلدان العالم اليوم امتدادا.

وبعد، فإن ما ذُكر ذكراً بيناً إن فُهم فهماً هيناً لا حاجة فيه لِمُحاجة. فالصابئون، شأن جميع من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، " لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون " هذا أمر الله سبحانه فيهم ولا شك أن من خالف أو يخالف ذلك إنما هو أمام معصية الله في تشريعه و حكمه.

الفصل الثالث

العصر الذي خدم فيه أبو إسحق الصابي

لا يمكن النظر إلى نتاج أبي إسحق الصابي دون معرفة العصر الذي عاش فيه، ذلك أن ما يدور خلاله لا بد وأن يلقي بظلاله على حركة الأديب ونتاجه بشكل عــام، فكيف إذا كان هذا الأديب يعتمد أدبه صنعة ووظيفة في البلاط. ولم يكن هذا البلاط بلاطا عباسيا من حيث الخلافة وحسب، بل وصلت إمارة القيادة والجيش حدود المَلكية، فكان أن علت سلطة القواد ومادت سلطة الخليفة وصار على أصحاب الخدمة والمبدعين علمـــاء وأدباء معرفة كيفية التعامل بين الاثنين وكيفية الحفاظ على كيانهم وقيمتـــه وحياتهم في ظل تناقضات وصلت حد سمل عيون الخلفاء وقتلهم من قبل من تولى الحكم الفعلي والتنفيذي.

عاش أبو إسحق الصابي ضمن فترة خلافة المطيع لله وابنه الطائع لله. وكانت السيطرة الفعلية في عصره لدولة آل بويه، فمن هم آل بويه؟ وكم دام حكمهم؟ ومـــا هي نتاجات دولتهم؟ وكيف عاملوا أهل العلم والأدب؟ وما كان حظ أبي إسحق منهم خلال فتـــرة حياته؟ وكيف أثرت علاقته بهم في عمله ونتاجه الأدبي؟

تعرضت الخلافة العباسية في القرنين الهجريين الرابع والخامس لأحداث سياسية خطيرة، وقد انعكست نتائج هذه الأحداث على الحياة العامة للمجتمع وبخاصة في عاصمة الخلافة العباسية بغداد. وكان أبرز هذه الأحداث التدخل الكبير لأجناس غيـــر عربية في سلطة الخليفة والتحكم بمصير الحكم. وقد كانت بادرة ذلك إغتيال الأتراك للخليفة المتوكل سنة 247 هـ التي وجهت طعنـــة لهيبة الخلافة وعـــزتها، حيث سيطر الأتراك على مقاليد الحكم الفعلية وتدخلوا في شؤون الخلافـــة إلى الحد الذي أصبحوا يقررون فيه من يولى الخلافة ومن يعزل. فحينما توفي المكتفي سنة 295 هـ إعترض الأتراك على تولية عبد الله بن المعتز لكونه وقورا ومثقفا وبالغا من العمر ما يزيد على الخمسين عاما وله تجربته في الحياة لما توجسوا من ذلك سيطرة ومنعة، مما جعلهم يولون مكانه جعفر بن المعتضد وهو ابن ثلاث عشر سنة ولقبوه بالمقتـــدر بالله. وكان ضعيفا وعرضة لأهواء القواد الأتراك. وهذا ما جعل القائد التركي مؤنس" ، وكان غلاما تركيا للمقتدر، علا نجمه وعظم أمره وصار أبرز قائد عسكري في الربع الأول من القرن الخامس الهجري، يقدم على قتل المقتدر سنة 320 هـ. ولم يكن حال من جاء بعد المقتدر بأحسن، فقد خلع الضباط الأتراك القاهر بالله 320- 322 هـ

والمتقي لله 322- 333 هـ وسملوا[63] عيونهما. وصار الخليفة الطائع لله يتودد إليهم كما يثبت ذلك أبو إسحق الصابي نفســـه في كتب المخاطبة التي كان يخاطبهم بها والتي كان يكتبها الصابي عنه حيث يخاطبهم بـ: " إخواننا السادة أيدهم الله" وأثنى على " أصولهم الطيبة، وأعراقهم النجيبة، وفضائلهم الظاهرة ومناقبهم الباهرة " وكل ذلك تحببا لهم وتقربا من أجل المساعدة في دحر أعداء آخرين.

وقد كان من نتيجة ضعف الخلافة العباسية أن خرجت الكثير من الأقاليم والولايات التي كانت تابعة للحكم العباسي وسلطته في بغداد وأستقلت بنفسها علنا أو ضمنا، فظهر آل طاهر ثم الصفاريون في خراسان بفارس، والأخشيديون ثم الفاطميون في مصر والحمدانيون في الشام. كما تأججت الفتن والثورات وكان من أشدها ثورة القرامطة التي دامت طويلا وهزت كيان الخلافة وكلفت الكثير من المال والدماء والأرواح.[64] لقد ألقت هذه الأحداث غير المستقرة بظلالها الشديدة على الحياة العامة ومعلوم أن التقدم والرقي إنما يتطلب الاستقرار والاطمئنان فيكثر الفكر والإبداع. ومع ذلك فقد كان ذلك هو حال الخلافة والبلاد، التي مع إنشغالها بهذه الأحداث ونتائجها الشديدة، إلا أن نشاطها وحركتها لم تتوقف وكان نتاجها الأدبي والعلمي ملموسا ومسجلاً.

ومع تقوض دولة القرامطة بموت قادتها ومحاربة مقر الخلافة لها، ظهرت الدولة البويهية. أما البويهيون الذين شكلوا هذه الدولة فهم الأخوة الثلاثة: علي (عماد الدولة)، والحسن (ركن الدولة)، وأحمد(معز الدولة) أولاد أبي شجاع بويه الحطاب. وهــذه الألقاب قد لقبهم بها الخليفة العباسي بعد أن ملكوا البلاد والإمارة. ولا

---

[63] سَمْلُ العَيْنِ: فَقْؤُها، يقال: سُمِلَتْ عينُه تُسْمَل إذا فُقِئَتْ بحديدة مُحْماةٍ، وفي المحكم: سَمَل عينَه يَسْمُلُها سَمْلاً واسْتَمَلَها فَقَأَها.

[64] القرامطة مجموعة كبيرة من الثوار نشأت فيما بين النهرين في أواخر القرن الثالث الهجري، مؤسس مذهبهم حمدان بن الأشعث يلقب بقرمط قدم من الأهواز الى الكوفة سنة 278 هـــ وأقام فيها وأنشأ حركة سرعان ما كسبت لها أنصارا من قبائل بنو معقل وبنو كلب وفزارة وأشجع وغيرهم. إنتشرت الفرقة القرمطية في الكوفة وواسط والبصرة في العراق، ومن ثم في البحرين والقطيف. ثم اشتد خطر هذه الحركة بعد ظهور زعيمها في البحرين "أبي سعيد الجنَّابي" سنة (286 هـــ = 899م)، واستطاع أن يبسط نفوذه على البحرين وهجر، وكسب أنصارًا كثيرين، وتحول إقليم البحرين إلى مركز للقرامطة ومعقلاً لنشاطهم، وخرجت منه حملاتهم الحربية لنشر أفكارهم.

وانتشروا في الأحساء والطائف حتى اليمن. ثم ساروا إلى بعلبك وسلمية. استولوا على دمشق في عام 873 م، ثم توجهوا إلى مصر ثم المغرب وعُمان. ومن ثورتهم على الإسلام أنهم كانوا يعترضون طريق الحجاج ويقتلونهم حتى في المسجد الحرام. وكانوا يلقون جثثهم في بئر زمزم. وقد نزعوا الحجر الأسود في العام 217 هـــ من الكعبة وأخذوه معهم الى البحرين وبقي عندهم قرابة 22 عاما قبل أن يعيدوه الى موقعه مع الضرر الذي أصابه.

يعـرف عن نسبهم الشيء المحقق، فقد رفع الصابي، في كتابه التاجي الذي سيرد ذكره، نسبهم فأوصلهم إلى بهرام جور بن يزدجر بن سابور الملك الساساني، ويرى ابن الأثير نسبتهم إلى الديلم. والخلاصة أنهم على الأرجح ينتسبون إلى الديلم، وقد دخلوا الإسلام كشيعة زيديين. إلتحقوا بقيادات الجيوش التابعة للديلم، وقد ساعدت قساوة حياتهم السابقة لكسبهم العيش على تحمل الصعاب والشجاعة وأظهــروا من الإقدام مــا جعلهم يتقدمون الصفوف ويجنـــون ثمار الإنتصارات التي حققوها حد أن شكلوا وأحفادهم دولة على مدى قرن وربع من الزمن صارت تمثل مرحلة الانتقال الإيرانية بين السيطرة العربية منذ بداية الإسلام وحتى الغزو التركي في القرن الخامس الهجري. كان تشكل دولة آل بويه قد بدأ بسيطرة علي بن بويه على بلاد فارس، أما الحسن البويهي فقد سيطر على منطقــة الري وإقليم الجبال همدان وإصفهان. وعلى إثر مـــوت القائد التركي " توزون" المعتمد من قبل الخليفة العباسي المستكفي سنحت الفرصة الكاملة لأن يزحف أحمد بن بويه بجيوشه إلى بغداد بعد أن تعاهد مع والي واسط ودخلها دون مقاومة سنة 334 هـ، حيث تخفى الخليفة المستكفي وانسحب الجند الأتراك إلى الموصل. وبعد أن إطمأن المستكفي تبايع مع أحمد البويهي ولقبّه بمعز الدولة، ولقب أخاه الأكبر علي بعماد الدولة، وأخاه الثاني الحسن بركن الدولة، وهي الألقاب التي عرفوا واشتهروا بها. وبهذا التأريخ وقعت الخلافة العباسية تحت سيطرة الأسرة البويهيـة حتى دخول السلاجقـــة وسيطرتهم على الخلافة العباسية سنة 447 هـ.

بدأت الدولة البويهية المنتصرة قوية وقد كان من عوامل ثبات قوتها أن كانت لها الغلبة في بلاد فارس والري والجبل وبلاد العراق، فلم يعد ما يهدد هذه الدولة إلا جهة الأتراك. وفي الغالب كان الخوف أن تدب الخلافات بين الأخوة أو أبنائهم.
وأثر وفاة عماد الدولة سنة 337 هـ، ولأنه لم يكن له ولد يخلفه ، فقـــد عهد بولاية فارس من بعده لابن أخيه فناخسرو بن ركن الدولة، وقد تلقب فيما بعد بعضد الدولة، وهو الذي قبض على أبي إسحق وسجنه كما سيمر بنا لاحقا.
وفي سنة 356 هـ توفي أحمد معز الدولة أمير الدولة البويهية في بغداد، فخلفه ابنه بختيـار الذي لقب بعز الدولة. وبعد وفاة ركن الدولة سنة 366 هـ شبت نار الخلاف بين أبناء العم ووريثي الدولة البويهية بأسباب أن ركن الدولة قد قسم مملكة الحكم بين أبنائه الثلاثة: مؤيد الدولة الذي توفي سنة 373 هـ وفخر الدولة الذي توفي سنة 387 هـ

وعضد الدولة الذي سبق أخوته في وراثة الملك من عمه قبل أن يرثه من أبيه وقد توفي سنة 372 هـ.

لقد كان عضد الدولة أرجح أخويه وأبناء عمه عقلا وأقواهم شخصية وأكثرهم تمرسا بشؤون السياسة والحكم، فقد سبقهم بذلك، وقد مكنه ذلك أن يكون أقدرهم سلطة. كما شجعه ذلك على الاستيلاء على ملك أخويه وابن عمه بختيار الذي إبتدأ الحرب عليه أولا. ويوثق أبو إسحق الصابي ذلك في أحد رسائله بالقول: " فلم يلبث (بختيار) أن دارت عليه الدائرة، وصلي بالنائرة...، هزيما كليما، مغلوبا مسلوبا محروبا، مقتول الأصحاب، مفلول الأحزاب، هاربا من أطلال عضد الدولة أيده الله عليه، وإحاطته به، ناجيا من ذياب سيفه، وسرعان خيله...". ثم قصد أخاه فخر الدولة فعزله وسلبه ملكه وطرده وأقصاه متهما إياه بالتآمر عليه مع ابن عمه بختيار. ولكنه أبقى على أخيه مؤيد الدولة لأنه كان مطيعا له وغير مخالف لأوامره.

استتب الحكم كاملا لعضد الدولة فقد وحّد المملكة تحت سلطانه وهو أول من لقب بالملك في الخلافة العباسية، وبلغت الدولة البويهية في عهده شأنًا كبيرًا ، وشهدت على يديه إنجازات حضارية راقية، إلى جانب نجاحه في توحيد مناطق الدولـة وجمعها تحت نفوذه. فبعد دخوله بغداد بدأ في عمارتها وإعادة ما تهدم من مساجدها وأسواقها، وأقام الميادين، والمتنزهات، وأصلح الطريق بين مكة والعراق، وأقام سد السهيلة بالقرب من مدينة النهروان بالعراق، وأعاد حفر الأنهار التي اندثرت وهو ما أسهم في ازدهار الزراعة، وشيد مشهدًا عظيمًا على قبر الإمام علي (رض). ويذكر له أنه أمر بإخراج أمـــوال الصدقات وتسليمها للقضاة والأعيان، لإعانة من يستحق من الفقـــراء وذوي الحاجات، وإعانة العاطلين الذين لا يجدون أعمالاً يقتاتون منها.

وشهدت الحياة العلمية في عهده ازدهارًا واسعًا، حيث قرب إليه العلماء، وأكرم وفادتهم، وأغدق عليهم العطاء وأحاطهم بكل مظاهر التكريم والتبجيل، وكان مجلســه منتدى يجتمع فيه الفقهاء والمحدثون والنحاة، والأدباء والشعراء، والأطباء والمهندسون، تدور فيه المناقشات العلمية، وتطرح القضايا على مائدة البحث، يدلي كل منهم بما عنده، وغالبا ما كان عضد الدولة يشترك معهم في هـــذه المناقشات. ومن أبـــرز من اتصلوا به : أبو علي الفارسي وهو واحد من أكبر علماء العربية، ألّف لـــه كتاب "الإيضاح" و"التكملة" في النحو، وكان عضد الدولة يقول: أنا غلام أبي علي في النحـو، ومنهم أيضا أبو إسحاق الصابي الذي ألف له كتاب "التاجي في أخبار بني بويه"، وعلي بن العباسي المجوسي الذي صنف "الكناش العضدي" في الطب، وأبو

الحسن ابن عمر الرازي، وكان فلكيًا كبيرًا صنع لعضد الدولة كرة كبيرة تمثل السماء بما فيها من نجوم وكواكب.

وكان عضد الدولة يحب الشعر ويتذوقه ويقوله أيضا، وهذا ما جعله يغمر الشعراء بكريم عطاياه، فقصدوا بلاطه. ويأتي في مقدمتهم أبو الطيب المتنبي الذي خصه بمدائح عظيمة، وأبو الحسن السلامي أبرز شعراء العراق في ذلك الوقت، وكان عضد الدولة يقول عنه: "إذا رأيت السلامي في مجلسي ظننت أن عطارد قد نزل من الفلك إليّ ووقف بين يدي"[65]

مات عضد الدولة في سنة 372 هـ وهو في الثامنة والأربعين من عمره ، ومع ذلك فقد كان ذا أثر كبير في بناء الدولة البويهية وحكمها التي إنتهت بقيام دولة السلاجقة سنة 447 هـ من سلالة تركية حكمت أفغانستان وإيران وأجزاء من الأناضول وسورية والعراق والجزيرة العربية بين 1038- 1157 ميلادية.

ومع تصارع الأحداث السياسية خلال الفترة البويهية وما جرّت إليه الحروب وعدم إستقرار المنطقة وعلاقة الدولة العباسية مع غيرها من الروم والأتراك، إلا أن الحركة الأدبية والفكرية ظلت نشطة، وساعد في تغذية نشاطها تشجيع البويهيين للعلم والعلماء والأدب والأدباء. وقد برز خلال هذه الفترة من الأعلام والتأليفات والنتاجات ما سجل إنجازا متميزا للحضارة العربية في القرن الرابع الهجري.

ففي ميدان الفقه برز أبو الحسن الأشعري وتلميذه محمد بن الطيب الباقلاني، وأبو بكر الجصاص صاحب " أحكام القرآن" وأحمد بن عمر بن سريج قاضي بغداد الذي ألف نحو أربعمائة كتاب، والمحدّث الشهير أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني، وكذلك أبو عبد الله الحاكم النيسابوري. كما عرف العراق خلال هذه الفترة نشاطا فلسفيا ضخما تمثل في رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، وتآليف بشر بن متي والفارابي، وفي ميدان الشعر نبغ الكثيرون وأبرزهم في الوجود أبو الطيب المتنبي الذي عاصر عضد الدولة، وابن سكرة وابن الحجاج وابن نباتة السعدي، والشريف الرضي، كما بلغت صناعة الكتابة أوج رقيها على يد أبي إسحق الصابي وابنه المحسن وحفيده غرس النعمة، وأبي القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبي حيان التوحيدي. كما نشط التأليف اللغوي على يد أبي بكر محمد بن دريد وتلميذه أبي علي القالي وأبي سعيد السيرافي. وقد بلغ التأليف في الأدب ذروته، ومن دلالات ذلك كتاب الأغاني لأبي فرج

---

[65] الثعالبي، يتيمة الدهر

الأصفهاني، وما قدمه الشريف المرتضى في كتابه الأمالي، وابن النديم صاحب الفهرست.[66] ومازالت هذه التأليفات، في جميع الميادين، محط دراسة وتقدير وإفادة، ينهل منها الناهلون ويستشهد بها المؤرخون.

ضمن هذه البيئة وأحداثها وصراعاتها ونتاجاتها المتنوعة يبرز نجم أبي إسحق ابراهيم بن هلال الصابي ليعتلي ناصية الكتابة ويمتلك زمام الكلمة ويترأس ديوان الإنشاء بتقليد سلطاني ويرتقي إلى مقام الرؤوساء وحاشية الخلافة والدولة ويذيع صيته على مدى سعة الخلافة والمملكة. تتناول الدواوين أدبه ورسائله ويصير حديث الناس ومجال استشهادهم كلماً وشعرا.

بدأ إتصال اللصابي بدولة آل بويه من خلال عمله في ديوان الإنشاء الذي ربطه به الوزير المهلبي الذي وزر لمعز الدولة سنة 339، وقد تفوق الصابي على جميع زملائه مما مكنه من أن يرتقي سلم ديوان الإنشاء حتى ترأسه سنة 349 فأصبح كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة المطيع لله والخليفة الطائع لله والأمير البويهي معز الدولة 334- 356 هـ ومن ثم لابنــه بختيار عز الدولة وللوزير المهلبي. وقد تركزت علاقة الصابي ببختيار عز الدولة حــد أنه عرض عليه الوزارة إن غيّر ديانته إلى الإسلام. وقد تأرجحت أحوال الصابي خلال عهد عز الدولة 356- 367 هـ بأسباب التكالبات والأطماع في حكم بغداد، وبأسباب اللهو وعدم الحزم من الأمير البويهي، فانعكست الأحداث عل عموم البلاد وخاصة إدارتها ومنهم الصابي[67]. وحين آلت الأمور بيد عضد الدولة 367- 372 هـ، ظل الصابي في بداية الأمر صاحب ديوان الإنشاء، حتى تغير عليه الأمير البويهي باسباب الكتابات التي صدرت عنه أيام كان كاتب الأمير السابق عز الدولة. زُج في السجن وخرج منها في أواخر أيام عضــد الدولة منكوبا مهتوك الحال والمال. ثم خدم الصابي زمن صمصام الدولة بن عضد الدولة 372- 376 هـ الذي قربه وأعاده إلى وظيفته في رئاسة ديوان الإنشاء وقد عادت إليه قيمته وسرور نفسه وهذا ما تظهره بعض مقطوعات المدح والشكر والثناء التي كتبها لصمصام الدولة فيما وصلنا. كما يشار إلى أن الصابي صحح في بعض الرسوم التي سارت إبان عهد عضد الدولة بما يتفق

---

[66] د. محمد الديباجي، الأدباء الصابئة في العصر العباسي، منشورات جامعة الحسن الثاني

[67] يمكن متابعة ذلك من خلال ما يرد من أحداث أثناء إستعراضها في فصول الكتاب.

مع قيمها ومنها أن تولية القضاء في عقده وفصله لا يكون إلا مـن خلال الخليفة. كما خدم الصابي أيضا في عهـد شرف الدولة 376- 379 هـ وهو ابن عضد الدولة أيضا، وقد تنازل له أخوه صمصام الدولة. ويذكر أن أبا إسحق كان قـد كتب عهد الإتفاق بينهما ويشار إلى أنه كتاب طويل وأنيق وبليغ يشير إلى البراعة المعهودة لأبي إسحق في ميدان الكتابة، كما ساهم في أعمال الرصد وبناء المراصد. ويذكر البعض أن الصابي ظل متصلا بالدولة البويهية حتى عهد بهاء الدولة بن عضد الدولة 379-403 هـ الذي ملك الحكم بعد وفاة أخيه شرف الدولة. فقد كتب الصابي سنة 380 هـ عهدا بنقابة الطالبيين عن الخليفة الطائع لله إلى الشريف الرضي. وكان الصابي في هذه السن قد أنهكته الأمراض وبخاصة في مفاصله فلم يعد قادرا على الكتابة أو الحركة، وفي هذا يقول:

خانت عهودي يدي ورجلـي فليس خطـوٌ وليـس خـطُ

ظل الصابي هكذا حتى وفاته في شهر شوال سنة 384 هـ. فكيف تسنى له كل ذلك؟ وما كان وراء هذا الإرتقاء ؟

أخلاق الصابي و قدراته

إن الحال الميسورة لأسرة أبي إسحق الصابي قد مكنته من أن يتربى تربية مناسبة وأن ينال حظوة في الدراسة والتعليم زرعت فيه العلم والأدب في آن. وقد كان لملازمته والده في ميدان الطب والتطبيب ما وفر له فرص الخدمة والتعلم والصبر وحسن التعامل. وقـد زاده حبه للأدب وحرصه على أن يتفوق فيه رغبة في الإقدام عليه وحفظ أصوله لغـة ونحوا وشعرا وبلاغة. وكان من علامات ذلك أنه يحفظ القرآن حفظا جعله يـدور على لسانه بشهادة معاصريه. كما أن استشهاداته بالأحاديث النبوية الشريفة في مواضعها ومواقعها تبـرز قدرته في الحفظ ومعرفة الحقوق على وفق الشريعة الإسلامية التي هي شريعة الحكم. وقد عايش الناس واختلط بهم ولذلك تجد أن له في كل ميدان مقولة، وأنه لا يتهيب من موضوع يكتب فيه أو يصف حالته بما يجعل القارئ يتأمل بشكل كبير أوصافة ودقة تعابيره بل وذهاب كلماته مذهب الحكم والأمثال حد الحفظ لما تحمله من ندرة وطرافة ودقة. كما أن معلوماته العلمية في الرياضيات والهندسة قد أهلته لمجالسة أصحابها، بل والمساهمة بنتاجات فيها، ومن ذاك

والاشتراك في عمليات الرصد وبناء المراصد أيضا.

وكان من قيمة أبي إسحق أن يترأس ديوان الإنشاء بأمر من ديوان الخليفة. وما كان ذلك ليكون لولا توفر السمات والصفات والخصائص والقدرات المطلوبة فيه بأقصاها، ذلك أنه لم يعهد برئاسة هذا الديوان لشخص غير مسلم على مدى تأسيس هذا الديوان في العصور الإسلامية. أما الخصائص التي يجب أن تتوفر في شخص لكي يتصدر ديوان الإنشاء فهي عديدة ومتشعبة ومتداخلة، ولكي نقف على ذلك فقد آثرنا أن نعرض ما تناوله القلقشندي في كتابه صبح الأعشى فيما يخص ديوان الإنشـــاء، فهو يثبت أن هـــذه التسمية مركبة كما هو واضح من كلمة ديوان وتجمع على دواوين. وقد أختلف في أصل الكلمة إن كانت عربية أم فارسيـــة. فمن رأى أنها عربيـــة بمعنى الأصل الذي يرجع إليه ويعمل بما فيه، ويستندون إلى قول ابن عباس: إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب. ويقال دونته أي أثبته وإليه يميل كلام سيبويه. وهنالك من يذهب إلى الأصل الفارسي للكلمة. وقد حكى الماوردي في الأحكام السلطانية في سببِ تسميته بذلك وجهين:

أحدهما: أن كسرى ذات يوم اطلع على كُتاب ديوانـــه في مكان لهم وهم يحسبون مع أنفسهم فقال "ديوانه" أي مجانين، فسمي موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقيل ديوان.

والثاني: أن الديوان بالفارسيـــة اسم للشياطين، وسمي الكُتاب بذلك لحذقهـــم بالأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي.

وأما الإنشاء فإنه مصدر أنشأ الشيء ينشئه إذا ابتدأه واخترعه.

ويشـــار أن هذا الديوان هو أول ما وضع في الإسلام بحكم أن النبي محمد كان يكاتب أمراءه، وأصحاب سراياه من الصحابة، وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وبعث إليهم رسله بكتبه. ولذلك تولدت الحاجة للمكاتبة وحفظها وصارت شأنا اعتمده الخلفاء الراشدون بكتّاب معروفين. وفي زمن الدولة الأموية تكلف كاتب مخصص للانشاء وأنيطت به هذه المهمة المتقدمة. ومن أبرز كتاب الدولة الأموية ذائع الصيت عبد الحميد بن يحيى. وحين قامت الدولة العباسية فإن من بين ما أقدمت عليه لأول مرة إنشاء الوزارة وإناطتها بشخص محدد غير الخليفة وهو الكاتب. وصار الوزير يتولى الكتابة عن نفسه بنفسه أو بمن يثق ويرغب من ذوي الكفاية. ومن الوزارة تكون رئاســـة الدواوين، وأبرزها ديوان الإنشاء. وأما مكانة وأهمية هذا الديوان فهي أرفع محل وأشرف قدر، ذلك أن طبيعة عملـــه تقتضي

ملازمة الملوك والخلفاء والأمراء، ولذلك فإنـــه يكون ملازما لمجالستهم يلقون إليه أسرارهم، ويخصونه بخفايا أمورهم، ويطلعونه على ما لا يطلع عليه أخص الأخصـــاء من الوزراء والأهل والولـــد. ولذلك أسهب البعض في ذكر الخصائص والمميزات التي تميز صاحب ديوان الإنشاء ومن يليق أن يقوم بمقامه. فـذكر أبو فضل الصوري في وصفه أنه يجب أن يكون: صبيح الوجه، فصيح الألفاظ، طلق اللسان، أصيلاً في قومه، رفيعاً في حيه، وقوراً، حليماً مؤثراً للجد على الهزل، كثير الأنـاة والفق[68]، قليل العجلة والخرق، نزر الضحك، مهيب المجلس، ساكن الظل، وقور النادي، شديد الذكاء، متوقد الفهم، حسن الكلام إذا حَدّث، حسن الإصغـــاء إذا حُدث، سريع الرضا، بطيء الغضب، رؤوفاً بأهل الدين، ساعياً في مصالحهم، محباً لأهل العلم والأدب، راغباً في نفعهم. وأن يكون محباً للشغل أكثر من محبته للفراغ.. وكتمان السر حتى عن نفسه، وكما يجب عليه الاحتياط حالة تلقي السر عن الملك فكذلك يجب عليه الاحتياط حالة إلقائـه إلى كاتب يكتبه. وفنـــون العلوم التي يجب أن يحيط بها كثيرة ومتعـــددة، أما في مادة الإنشاء فإن عليه أن يكون متقدما في المعرفة باللغة العربية ذلك أن اللغـــة هي رأس مال الكاتب، وأس كلامه، وكنز إنفاقـــه، من حيث إن الألفاظ قوالب للمعاني التي يقـــع التصرف فيها بالكتابة. وحينئـــذ يحتاج إلى طول الباع فيهـــا، وسعة الخطو، ومعرفـــة بسائطها: من الأسماء والأفعال والحروف، والتصرف في وجوه دلالتها الظاهرة والخفية وفي ذلك من الفنون الكثيرة التي يجب أن تمتلكها ذاكرة الكاتب وتكون متوافرة في ذهنه حاضرة على طرف لسانه.

والكاتب يحتاج إلى معرفة اللغات الأخرى التي يمكن أن يخاطب الملك أو الخليفة بها من غير حاجة إلى ترجمان لأن ذلك أحرص على كتمان السر، كما أن لســـان بعض الأمراء والقادة في العصر العباسي مثلا كان تركيا أو فارسيا، ولذا يتوجب على الكاتب المعرفة والإلمام بهذه اللغات. وهو فيها يحتاج إلى النحو الصحيح دون أن يلحن في المخاطبة لأن من خصائص الكتابة المهمة سلامة كتابة نحوها والإلتزام بقواعدها لئلا يكون الكتاب في كتابته مثار سخرية من هذه الناحية وتضيع لغته ومادته وفحواه بأسباب أخطاء نحوه. ولا يكن الحال كحال الرجل الذي دخل على زياد بن أبيه فقال له: " إن أبونا مات وإن أخينا وثب على مال أبانا فأكله. فقال زياد: لَلّذي

---

[68] الفق والإنفقاق: الإنفراج

أضعته من كلامك أضر مما أضعتــــه من مالك". وعليه أن يكون ضليعا في صرف الكلام وعلوم المعاني والبيان والبديع. وحفظ القرآن مـن أوجب ما أكد المعنيـون على الكاتب وصاحب ديـوان الإنشاء حفظه، ذلك لأن أحكامه شريعة للبلاد وأن الاستشهاد بآياته مما يعزز النص ويثبت المعنى، وعليه أن يأتي بالاستشهاد الذي لا يحاد عنه، كما أن الاستخدام إنما يعزز الثقة بالنص المكتوب ويفحم القارئ. ثم أن في ذلك هيبة للكاتب في قدرة الحفظ والاستشهاد الصحيح والاستغناء عن الإطالة في الشرح والفخامة والجزالة والرونق. فإن الآيــة الواحــدة تقوم في بلوغ الغرض، وتوفية المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطولة والأدلة القاطعة في كثير من الأحيان. ومثل هذا يكون في الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية وكلام الأولين ومن الشعر قديمه وبليغه والحكم والأمثال والحوادث ومواضع الاعتبار فيها. وحاجة الكاتب كبيرة إلى معرفة خطب الأولين من أصحاب البلاغة والفصاحة والأغراض التي أصابوا فيها وحققوا المرامي حتى عرفت في خطبهم وسارت مسار المثل.

أما بخصوص مكانة صاحب ديوان الإنشاء فيبرزها القلقشندي بالقول: أنه الأرفع محلا والأشرف قدرا، يكاد أن لا يكون عنـــد الملك أخص منه ولا ألـــزم لمجالسته. ولم يزل صاحب هذا الديوان معظماً عند الملوك في كل زمن، مقدماً لديهم على من عداه، يلقون إليه أسرارهم، ويخصونه بخفايا أمورهم، ويطلعونه على ما لم يطلع عليه أخص الأخصاء من الوزراء والأهل والولد، وناهيك برتبة هذا محلها. فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه، والإفضاء إليه بمهماته، وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته، وإطلاعه على حوادث دولتــه ومهمات مملكته، فهــو لذلك لا يثق بأحد من خاصتــه ثقته به، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب ركونه إليه. وما هذا القدر والمكانة إلا لقيمة صنعة الكتابة وعلو شأنها والحاجة إليها في تدبير أمور الدولة وشؤون الملك حتى صارت أشرف الصنائع رتبة وأعلاها درجة وأرقاها مرتبة.

ويشار إلى أن شرف هذه الصناعة قد إرتقى بصاحبها ووفاه المرتبة المتقدمة، ويثبت ابن عبد ربه في " العقد الفريد" أمثلــة عديدة لأصحاب الأقلام الذين تنبهــوا بعد الخمول، واحتلوا بالكتابة الرتب العلية، مثل سرجون بن منصور الرومي الذي كان روميا خاملا فرفعتــه الكتابة، وكتب لمعاوية ويزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وعبدالملك بن

مروان، ومثل حسان النبطي كاتب الحجاج، وسالم مولى هشام بن عبــدالملك، والربيع، والفضـل بن الربيع، ويعقوب بن داود، ويحيى بن خالد، وابن المقفـع، والفضل بن سهل، وأحمد بن يوسف، ومحمد ابن عبدالملك الزيات، والحسن بن وهب، وإبراهيم بن العباس الصولي. وقد أضاف القلقشندي إلى هذه الأسماء آخرين ممن شرفته الكتابة، فهذا الوزير المهلبي كان في أول أمره في شدة عظيمة من الفقر والضائقة، ثم ترقى بالكتابة حتى وزر لمعز الدولة ابن بويه الديلمي في جلالة قدره. وهذا القاضي الفاضل أصله من بيسان من غير بيت الوزارة، رفعته الكتابة حتى وزر للسلطان صلاح الدين الأيوبي، وعلت رتبته عنده، حتى بلغ من رتبته أن كان يكتب في كتب السلطان صلاح الدين عن نفسه بما أحب. وأبلغ من ذلك أبو إسحاق الصابي صاحب الرسائل المشهورة، كان على دين الصابئة متشددا في دينه، وبلغت به الكتابة إلى أن تولى ديوان الرسائل عن المطيع والطائع وعز الدولة ابن بويه.[69]

ويذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى جوانب الإلمام التخصصي والمعرفي الذي يجب أن يكون عليه صاحب ديوان الإنشاء في مختلف العلوم والميادين فيقول: " وأعلم أن كاتب الإنشاء وإن كان يحتاج إلى التعلق بجميع العلوم والخوض في سائر الفنون فليس احتياجه إلى ذلك على حد واحد بل منها ما يحتاج إليه بطريقة الذات وهي مواد الإنشاء التي يستمد منها ويقتبس من مقاصدها: كاللغة التي منها استمداد الألفاظ، والنحو الذي به استقامة الكلام، وعلوم البلاغة: من المعاني والبيان والبديع التي هي مناط التحقيق والتحسين والتقبيح ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى. وعلى هذا اقتصر الوزير ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر وتبعه على ذلك الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في كتابه حسن الترسل. ومنها ما يحتاج إليه بطريق العرض كالطب والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم، فإنه يحتاج إلى معرفة الألفاظ الدائرة بين أهل كل علم، وإلى معرفة المشهورين من أهله ومشاهير الكتب المصنفة فيه لينظم ذلك في خلال كلامه فيما يكتب به من متعلقات كل فن من هذه الفنون كالألفاظ الدائرة بين أهل الطب ومشاهير أهلــه وكتبه فيما يكتب به لرئيس الطب، ونحو ذلك من الهيئة فيما يكتب به لمنجم، ونحـــوه من الهندسة فيما يكتب به لمهندس.

---

[69] وكان المتولي على ديوان الرسائل حتى ذلك الوقت آل ثوابة، وهم يتوارثون هذا المنصب، وكان آخر من تولاه منهم أحمد بن محمد. وحين مات تولاه أبو إسحق الصابي. أنظر معجم الأدباء .

وربما احتاج إلى معرفة ما هو دون ذلك في الرتبة كمعرفة مصطلح رماة البندق فيما يكتب به في قدمات البندق، ومعرفة مصطلح الفتيان فيما يكتب به في دسكره فتوة ونحو ذلك، بل ربما احتاج إلى معرفة مصطلح سفل الناس لكتابة أمــور هزلية: كمعرفة أحوال الطفيلية فيما يكتب بــه لطفيلي اقتراحاً أو امتحاناً للخاطر أو ترويحاً للنفس، والشجعان، والجـواري والغلمان، والخيل والإبل، وجليل الوحش وسائـر أصنافه، وجوارح الوحش والطير، وطيـر الواجب، والحمام الهدي، وسائر أنواع الطيــر، والسلاح بأنواعه، وآلات الحصار، والآلات الملوكية، وآلات السفر، وآلات الصيد، وآلات المعاملة، وآلات اللهو والطرب، وآلات اللعب، وآلات الشربة، والمجدن، والحصون، والمساجد، وبيوت العبادات، والرياض، والأشجار، والأزهار، والثمار، والبــراري، والقفــار والمفاوز، والجبال، والرمال، والأودية، والبحــار، والأنهار، وسائر الميــاه، والسفن، والكواكب، والعناصر، والأزمنة، والأنواء، والرياح، والمطر، والحر، والبرد، والثلج، وما يتعلــق بكل واحد من هذه الأشياء أو ينخرط في سلكه، ونحو ذلك مما تدعو الحاجة إلى وصفــه في حالة من حالات الكتابة " [70]

كما يثبت القلقشندي أن صاحب ديوان الإنشاء يجب أن يكون مسلما ليؤمن فيما يكتبه ويمليه، ويوثق به فيما يذره ويأتيه، إذ هو لســان المملكة، والمرهب للعدو بوقع كلامــه، والجاذب للقلوب بلطف خطابــه فلا يجــوز أن يولى أحد من أهل الكفــر، إذ يكون عيناً للكفار على المسلمين، ومطلعاً لهم على خفاياهم فيصلون به إلى ما لا يمكن استدراكه. ويستشهد بما يذكر أبو الفضل الصوري حيث يقول: ولا شك أن كاتب الإنشاء من أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعإلى في أثنـــاء محاوراته وفصول مكاتباته، والتمثــل بنواهيه وأوامره، و التدبر لقوارعه وزواجره، وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات، وهو الذي يشد قوى الكلام، ويثبت صحته في الإفهام، فمتى خلت منه كانت عاطلة مــن المحاسن، عارية من الفضائل، لأنه الحجة التي لا تدحض، والحقيقــة التي لا تــرفض، فإذا كان الكاتب غير مسلم لم يكن لديــه من ذلك شيء، وكانت كتابتـــه معسولة من أفضل الكلام، وخالية مما يتبرك به أهل الإيمان والإسلام، ومقصرة عن رتبة الكمال، ومنسوبة إلى العجز والإخلال. فقد صح أنه لا يجوز أن يرقى إلى هذه الرتبة إلا مسلم. ثــم إستثنى بالقول : ولا يحتج بالصابئ

[70] القلقشندي، صبح الأعشى

(أبو إسحق الصابي) وأنه كتب للمطيع والطائع من خلفاء بني العباس، ومعز الدولة، وعز الدولة من ملوك الديلم، وهما يومئذ عمدة الإسلام وعضـــد الخلافة، وهو على دين الصابئة. فإن الصابئ كان من أهل ملة ليس منهم محارب لأهل الإسلام، ولا لهم دولة قائمة فتخشى غائلته وتخاف عاقبته.[71]

إن إعتماد الصابي في هذا المنصب يسحبنا إلى أمـــرين أساسيين: الأول، ما أشير إلى أن الصابئة أهل ملة لا يخشى منهم ليس فقط من حيث العـــدد وعدم قيام دولة لهم، ولكن طبيعتهم المسالمة واحترامهم للعهد والخدمة الشريفة جعل الاطمئنان إلى وجودهم في مرافق الدولة، وإن علت مراتبهم فيه، هو أمر موافق للحرص والكتمان والإنجاز قياسا بالقدرات المطلوبة للعمل والمتوافرة فيهم. والأمر الثاني، هو أن القدرة والكفاية التي تأهل بها أبي إسحق الصابي وأعد نفسه لمتطلباتها قد فاقت المناضرين في زمانه، بل وفي أزمنة الكتابة المثبتة تأريخيا، فكان أن تقدمت هذه المنزلة لأبي إسحق أكثر مما تقدم لها ونالته أكثر مما نالها، وهو الذي زاد في صنعتها بما خلّف من درر الكتابة وفصول البلاغة. وقد أضافت أخلاق الصابي وطبيعة تربيته وتنشئته المبنية على خصال الأخلاق الحميدة وحسن المعاشرة أسبابا أخرى لأن يتقدم المتقدمين في هذه الصنعة ويحتل رياستها. وإذا علمنا بأن أهل هذه الصناعة من المسلمين كانوا كثر في زمن الصابي وفي بغداد عاصمة الخلافة العباسية وأن منافستهم ورغبتهم في أن يكون لهم مكانة أبي إسحق، عرفنا بأن ما قدّم إبو إسحق إليها إنما قدمه الثابتة في صناعتها وأخلاقه التي أوقفت سبل التنافس خاصة وأن هذه الصنعة ليست صنعة ميدانية مرتبطة بنتاج مادي ملموس كما هي صنعة الطب أو الهندسة والبناء وغيرها من التي يكون الإنجاز المادي فيها وسيلة الحكم على حذق صاحبها وتقدمـــه وفرض وجوده، كما فرض الكثير من الأطباء والمهندسين وجودهم في البلاط الإسلامي على الرغم من أنهم كانوا غير مسلمين. إن صنعة الكتابة يمكن أن يتنافس فيها النظراء ويمكن أن يقدم البعض نفسه تأسيسا على القرابة أو التوصية أو المحاباة لأولي الأمـــر خلفاء أم أمراء أم وزراء، لذا فإن ترؤسها من قبل فرد صابئي وفي مجتمع إسلامي يقدم لنا المقدرة العالية لشخصية أبي إسحق الصابي بكل أبعادها التي سوف يتم تناولها خـلال فصول هذا الكتاب، كما يقدم لنا فسحة من قبول الآخر والتعايش المبني على التسامح الديني على تعدد المذهبية إبان المرحلة التي عاش فيها الصابي.

---

[71] المصدر السابق

وفوق بروز الصابي وتميزه في ميدان الكتابة فقد كانت له قدرات ومعارف ومساهمات في ميادين المعرفة الأخرى نذكر منها:

معرفته في الطب:

نشأ أبو إسحق في بيت علم وكان التميز في ميدان الطب توارثا ومهنة في أسرته. فجده يعد من أبرع الأطباء وكذلك أبوه وعمه. وكان حرص والده أن يستمر ابنه في هذا الميدان ولا يضيع تأريخ الصنعة في هذه المهنة. وفعلا فقد درس الصابي وتتلمذ على يد والده ومارس الطب حد أنه تكسب منه، فقد ذكر هو أن والده منحه مرتبا بلغ 20 دينارا. ثم قادته ميوله وتفوقه في الأدب إلى صنعة الكتابة. وهذا يعني أن الصابي ظل يحفظ ويمارس الطب على قدرِ ما تعلمِ ويتلاقى به مع المتقدمين فيه من أفراد أسرته.

2- معرفته بالفلك:

أشتهر الصابئة بعلم الفلك والتنجيم وقد برز ثابت بن قرة والبتاني في هذا العلم، وهــذا الإهتمام مرتبط بخلفية معتقدهم الذي يرى في الأفلاك مدبرات لهذا الكون وهي مقدرة فيه بقدرة الخالق. ولا مناص من أن أبا إسحق كان قريبـــا من هذا العلم وعاملا فيـــه ويستشهد على ذلك بالإسطرلابات التي صنعها والتي حرص على تقديمها هدايا إلى عضد الدولة وبعض الوزراء. ومما يشير إلى هذا الإهتمام أيضا حضوره وتوقيعه ضمن من حضر في إفتتاح مرصدين مهمين في بغداد. وقد أبرز هذا الإهتمام أيضا في بعض قطع أشعاره التي ضمنها الإشارة إلى الكواكب في الوصف والمعنى.

3- معرفته بعلم الرياضة والهندسة:

أشار التوحيدي إلى أن الصابي كانت لـــه يد طويلة في العلم الرياضي[72]، كمـــا يذكر القفطي في كتابه أخبار العلماء بإخيار الحكماء أن " لَهُ يـــد طولى فِي علم الرياضـــة وخصوصاً الهندسة والهيئة ولما عزم شرف الدولة بن عضد الدولة عَلَى رصد الكواكب ببغداد واعتمد فِي ذَلِك عَلَى وَيجن بن رستم القوهي كَانَ فِي جملة من يحضـروه من العلماء بهذا الشأن ابراهيم بن هلال، وكتب بخطه فِي المحضر الَّذي كتب بصورة الرصد وإدراك موضع الشمس من نزولها فِي الأبراج وَلَهُ مصنف رأيته بخطه فِي المثلثات وَلَهُ عدة رسائل فِي أجوبة مخاطبات لأهل العلم بهذا النوع "[73]. كما

---

[72] أبو حيان التوحيدي، مثالب الوزيرين

[73] القفطي، أخبار العلماء بأخيار الحكماء

أن له رسالة إلى أبي سهل الكوهي في موضوعة الهندسة تعد من أفضل الشواهد على طول باعه في هذا العلم وميدانه.[74] وقد إطلعنا على فلم لها في مكتبة الأسد بدمشق، وآثرنا أن ننقل هنا رسالته إلى القوهي، أما ما كتاب الصابي من تفصيل في رسالته الهندسية فيمكن الإطلاع عليه في مواقعه لأنه موضوع هندسي متخصص ويستغرق صفحات عديدة.

كتب الصابي إلى القوهي:" كتابي، أطال الله بقاء سيدي الشيخ الفاضل، يوم الأحـــد الثامن من صفر، عن سلامة أحمد الله عليها وأسأله له مثلها، وكان سيدي الشيخ وصل إلي منذ مدة بعيده بالتفقد المشكور والبر الذي جرت به عادته وأجبت عنه جوابا سألت فيه أشياء مازلت متوقعا لها، فلم يكن منه في ذلك شيء إإلى هذه الغاية، وأخشى بُعد العهد بالمكاتبة وانقطاع تلك المادة المشكورة، فكتبت هذا الكتاب متعرفا خبره أطابه الله، ومنتجزا تلك الأشياء، فمنها أنه، أيده الله، ذكر لي في الكتاب الوارد منه استخراجه مركز ثقل قطعة من دائرة وأنه وجـــد البرهان على أن نسبة القطر إلى المحيط كنسبة عدد إلى عدد، وغير ذلك مما خرج له، ورغبت إليه، لا أخلى الله العلم وأهله منه، في إتحافي بجميع ما استخرجه خاصة أن نسبة القطر إلى المحيط كنسبة عدد إلى عدد فإنـــه شيء يتطلع نفسي جدا إلى معرفته واستفادته، وأذكر به ما كان عقده لي على نفسه النفيســـة من إتمام كتابه في مراكز الأثقال وإهداء نسخة منه إلي ، والأشكال الباقية من المقالة الثانية من كتاب أبلونيوس في قطع النسبة المحدودة، وأنا أعيد وأكرر السؤال في جميع ذلك، وأن يتفضل أيده الله علي به أما مجتمعا وأما متفرقا على ما ننشط له مع ذكر أخباره وأحواله ومجاري أموره وعارض حاجاته، وهل له رأي في العود إلى مدينة السلام ليتقوت الأمل ويتعلل بالمنى، فقد علم الله شوقي إلى رؤيته واستيحاشي لمفارقته، وسيدي ولي ما رآه ويتفضل به في ذلك إن شاء الله."[75]

4- معرفته بالفلسفة:

لقد شاعت الفلسفة في حران حتى صارت مدينة الفلاسفة، وقد تلاقحت الفلسفات فيها حتى صار حديث الناس عامة بلغة ومادة الفلسفة. وأبو إسحق من سلالة الأسر المتقدمة في حران، وعلى هذا فإن خلفيته فلسفية. كما أن تأريخ أسرته فيها العديد ممن برز في

---

[74] الرسالة مازالت مخطوطة في دار الكتب المصرية برقم 4768 و لم تنشر بعد ويذكر أن عدد صفحاتها يصل الى 39 صفحة، وقد إطلعنا على نسخة فلم عنها في مكتبة الأسد بدمشق.

[75] نقلا عن مخطوطة فلم في مكتبة الأسد بدمشق

هذا الميدان، وأكثرهم بروزا العالم الموسوعي ثابت بن قرة الذي من كثرة تأثر الصابي بـــه ذكر بأنه كان يطوف به في منامه وقد تعلم آراءه منه. ولا تخلو كتابات الصابي النثرية والشعرية من النفس الفلسفي وإن لم يتم العثور على رسالة له بهذا الخصوص

5- معرفته بالتأريخ:

ليست كتابة التأريخ عملية سرد للوقائع التأريخية، بل أنه علم كما أوضح وثبت ذلك ابن خلدون. وقد عنى العديد من أفراد أسرة الصابي بموضوع التأريخ ومنهم خالـــه ثابت بن سنان وابنه المحسن وحفيده هلال وابن حفيده غرس النعمة. ونرى أن معرفته بالأمر قـــد ظهرت وبرزت بحيث يعتمده عضد الدولة، على دقة معرفته وحرصه وشدتـــــه، في تدوين أخبار الدولة الديلمية، ويرتضي تكليفه بوضع كتاب فيها مقابل العفو عنه فيما أخذه عليه في كتاباته التي نقمها بسبب ما وجد فيها من محاباة لبختيار عز الدولة. فشخصية عارفة ومحققة مثل شخصية عضد الدولة ليس من السهل أن تركن أمـــــر وضع كتاب بتأريخ أسلافه وأجداده إلى شخص لولا أنها تعرف قيمة المعرفة والمهنية والتمكن. فهو من هذه الناحية تشريف لقدرات الصابي ولمنزلته. وهكذا شرع في وضع الكتاب الذي أطلق عليه التاجي نسبة إلى لقب عضد الدولة تاج الملة، والذي مدحه العديد ممن قـــرأه وإطلع عليه.

الفصل الرابع

مسيرة حياة أبي إسحق العملية

عرف أبو إسحق بصاحب ديوان الإنشاء، والكاتب المترسل البليغ الذي ملك ناصية البلاغة، ومع الاشارة المتقدمة إلى الكيفية التي تحوّل فيها الصابي من متابعة مهنة الطب كما أراد له والده إلى الكتابة والتقدم إلى مجلس المهلبي، الذي كان يومها يلقب بالأستاذ ثم توليه الوزارة، وبين هذه البداية ووفاته مسيرة حياة استمرت لما يقرب من الخمسين عاما. وقـــد تأثرت هذه الحياة في مجالات عطائها وتفوقها ونكوصها وعلتها بالوظيفة والمنصب الذي عمل فيه. ولأن الأحداث خلال هذه الفترة كثيرة بين صعود ونزول وبروز وأفول، فـــإن من المهم تناول هذه الأحداث وكيفية تأثيرها بخط سير حياة هذا الرجل.

ولا بد من الاشارة إلى أن قدرات الصابي في البلاغة والكتابة وحسن أخلاقه هي التي قادت قدمه إلى ما إبتدأ فيه، إذ لا قِدم لأسرته في ديوان الخلافة أو سلطة الأمراء والوزراء، بل أن طبيعة عملهم كانت ترتبط بالمهن الخدمية وإن كانت أرقاها كما هي مهنة الطب التي عمل والده بها وكذلك جل أسرته وأسرة أصهارهم آل قرة. هذا يعني أنهم بعيدو الصلـــة عن اتخاذ القرار بشأن سياسي مما يجنبهم الوقوع في مشاكل الرؤساء. ولا الحظ ساقـــه أيضا فوجد نفسه في ديوان الخلافة والإمارة، بل بحكم طبيعة عمل أبي إسحق منذ إعتمده المهلبي ضمن كتبته وبقية الكتبة يحيقون به ما يحيقون، وكان هو يدفع ذلك عنه بحسن العشرة وطيب العلاقة. ومع بروز روح التسامح الديني في المجتمع البغدادي خلال تلك الفترة وهو مؤشر إيجابي على قبول الآخر، إلا أن هذا الأمر يمكن أن يقع في الإطار العام. أما إذا أخذ التنافس مأخذه في موقع أو مجلس، فإن الآثار لاشك ظاهرة والتنابز سيبنى بدرجة أو بأخرى عليه وقد يدخل إلى الشخص من هذا المدخل أو يتم النيل منـــه من هذا الباب. إن حساسية الموقع وطبيعة العمل تقودنا إلى هذا الإفتراض، بل أننا نسجل فيها أنه لو لم تكن للصابي من قدرات التفوق حتى في استحضار آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية بما يدور على طرف لسانه بحسب جميع من كتب عنه، وحسن عشرته للمسلمين التي وصلت به حد أن يصوم مع المسلمين شهر رمضان معاشرة وتمازجا وتقديرا لفترات الصوم أثناء العمل كسائر من عمل معهم، لما طالت به فترة في رئاسته لديوان الإنشاء والاستخلاف في الوزارة، بل وعرض منصب الوزارة عليه إن هو أسلم. وهـــو الذي قيل فيه أنه لم ينقصه

شيء سوى الإسلام. ومع أن جميع كتابات وأشعار أبي إسحق لا تذكر إشارة إلى النيل منه من هذه الناحية، إلا إننا لا نستبعدها سببا في سعي المنافسين وبخاصة حين يتعلق الأمر بمنصب رئيس ديوان الإنشاء. وهذا ما سنقف عليه خلال إستعراضنا هذا.

يشار إلى أن بداية العمل الرسمي لأبي إسحق في مجال الكتابة ضمن كتبة المهلبي بحدود 330 هـ، ومنـــذ إعتمد رئيسا لديوان الإنشاء صـــار الصابي صاحب القدح المعلى والشأن الأرقى والشخص الأولى بالكتابة والرياســـة والمجالسة، ليس للوزير المهلبي وحسب، بل للخليفة المطيـع لله والخليفة الطائع لله، ولأمراء وملوك آل بويـــه ولوزراء آخرين. كما كتب للقضاة والشعراء وعلية القوم. إستمـــر في عمله ورياسته وكان عملـــه مع الوزير المهلبي العصر الذهبي لأبي إسحق وفيه يقول:

عجبــاً لحظي إذ أراه مصـالـحـي … عصر الشباب، وفي المشيب مغاضبي

أمـــن الغواني كان حتى ملّنـي … شيخاً وكان على صباي مصاحبي؟

أمع التضعضـع ملّني متجنّبــاً … ومـــع الترعرع كان غير مجـانبي

يا ليـــت صبوتـــه إلي تـأخـرت … حتى تـــكون ذخيـــرة لعواقبـــي

وقد برزت قدرات أبي إسحق خلال عمله في جملة ميادين تمثلت في إدارة ديـــوان الرسائل على تنوع المهام التي يقوم بها هذا الديوان التي تتمثل في جميع المخاطبات التي تصدر عن دار الخلافة ومقر الوزارة وكأني أرى في الموقع اليوم مسؤولية ديوان رئاسة الدولة. كما برزت في الحكمة والمشورة التي يبديها إلى الوزير في تدبير شؤون الوزارة المعنية بإدارة حكم الدولة، وبلغ من قيمة هذه المشورة والرأي السديد أن المهلبي يستخلفـه في الوزارة حين لا يكون في مقر الخلافة.

إن المخاطبات والمكاتبات التي كانت تصدر عن الخليفة أو الوزير هي توجهياتهم التي تكتب وتضبط بترجمة الكتبة وخطهم بما يقتضي الحال، وما الكاتب إلا منفذ مؤتمر في الشأن الذي يوكل إليه، وبالتالي فليس له من دور سوى أن يكون بالمستوى الذي يترجم فيه رغبة من يستكتبه وأن يصيغ الأمر بما يوافق المضمون وبالعبارة البليغة والصياغة الأنيقـــة التي تنفذ إلى المقابل فتبلغ المرمى. وهـــذا يعني أن مسؤولية المخاطبة تقع على من صدر عنه الخطاب أو المكاتبة لا على الكاتب. إلا أن الأمر لا يجري بهذه الصورة في أغلب الأحيان وبخاصة في الفصول التي ترتقي بها البلاغة بما يحفظها العام والخاص أنها بلاغة الكاتب، وكذلك في الرسائل التي تغيظ حاكما،

فإذا ملك الزمام شملت عقوبته الكاتب بعد أن يقضى على صاحب الكاتب. وهذا ما حصل لأبي إسحق الصابي، بل وكان السبب الأساس في النكبات التي تعرض لها.

ومع أن الصابي كان كاتب الوزارة للمهلبي وهي في زمن الخليفة المطيع لله، فإنه كان الكاتب أيضا لمعز الدولة البويهي، وهو أمير العراق الذي جاءها بجيوشه الجرارة من بلاد فارس ودخلها عام 332 ، واستمر المهلبي في وزارته واستمر الصابي في رياسته حتى بدأ القدر يرسم نهاية للصابي. فقد حدث في سنة 352 هـ أن ألح معز الدولة على المهلبي أن يذهب لإحتلال عمان ويسيطر عليها، وكان المهلبي قد صد هجوما قام به صاحب عمان يوسف بن وجيه الذي حاول ضم البصرة إلى ملكه مستعينا بالقرامطة وتمكن من أسر جماعة من أصحابه سنة 341 هـ ، وقد ألح معز الدولة على المهلبي بأن يذهب إلى احتلال عمان. ويبدو أن معز الدولة كان يبطن أمرا للمهلبي، ولذلك كان يصر عليها والمهلبي يباعد ويؤخر فيها. وحين صار أمرها فقد عين المهلبي أبا إسحق خليفة له على ديوان الوزارة إضافة إلى توليه ديوان الإنشاء. وحدث أن وقعت العلة على المهلبي أثناء حملته وأودت بحياته[76] وحين ورد خبر مرضه إلى معز الدولة، بعث إلى أحد ثقاته من المرافقين للحملة ليستطلع خبره، وطلب منه إن مات أن يقبض على أمواله وعماله وكتّابه، ويحمل جميع ذلك إلى بغداد. وهذا ما حصل فعلا، فقد تم القبض على عيال المهلبي وأولاده، وتمت مصادرة جميع ما بحوزته حتى من المكارين والملاحين الذين كانوا يخدمون حاشيته. وقد أجرى فيه ما لا يجرى مثله إلا على عدو مكاشف. وقد استفظع الناس ذلك لمعز الدولة واستقبحوه.[77]

ولما كان الصابي كاتب المهلبي وخليفته في الوزارة، فقد كان نصيبه الاعتقال في جملة من اعتقل. ولكنه كان يعرف أن قيمته ووجوده وخدمته يجب أن تبعده عما ليس هو سببا فيه، ولذلك فقد أطلق الصابي صرخة قوية من معتقله لرؤسائه وأولي الأمر مبينا فيها دوره وقيمته وماكان له في رسائله وإدارته. وبهذا الخصوص ترددت أصداء قصيدته التي كتبها محتجا في كل محفل، حيث يقول:[78]

يا أيها الرؤساء دعوة خادم   أوفت رسائله على التعديد
قلّدت ديوان الرسائل فانظروا   أعدلت في لفظي عن التسديد؟

---

[76] هنالك إشارات الى أنه مات مسموما من قبل أحد الطهاة

[77] إبن مسكويه، تجارب الأمم، وانظر كذلك معجم الأدباء

[78] سنورد ما جاء فيها في باب سجن أبي إسحق

أعليّ رفــعُ حســام ما أنشـأتـه   فأقيــم فيــه أدلتي وشـهـودي؟

وتنتهي فترة إعتقال أبي إسحق ويعود لمزاولة عمله فيكتب للوزير أبي الفرج محمد بن العباس معتذرا ومصالحا وهو ما سنورده في باب سجن أبي إسحق. ويستمر حاله مع الوزير أبي الفرج على نعمة ورضا تبرز ذلك الرسائل الخاصة التي كان يكتبها له وهي ليس مما يحتاجه تدبير الدولة والوزارة ، بل بما يشير إلى الصحبة الخاصة والرفقة في رحلات الصيد وما شابه. وتدليلا على ذلك تورد المصادر ما اشتهر من كتابات للصابي بهذا الخصوص ومنها الرسالة المشهورة التي كتبها الصابي إلى الوزير أبي الفرج في وصف آلات الصيد وطريقته، وسيتم تثبيتها ضمن الرسائل في باب " الصابي الكاتب"

توفي معز الدولة سنة 356 هـ وخلف على ولاية العراق ابنه عز الدولة بختيار، واعتمد أبو طاهر محمد بن محمد بن بقية وزيرا له، وكان ابن بقية أول الأمر صاحب المطبخ في عهد معز الدولة ثم تقدم حتى استوزر في زمن الخليفة المطيع لله والأمير عز الدولة بختيار، وقد تندر الناس في ذلك وقالوا: " من الغضارة إلى الوزارة" [79] ويذكر أن عز الدولة كان قد عرض الوزارة على أبي إسحق إن هو أسلم ولكن الصابي آثر البقاء على ديانتــه. وربما يكون هذا واحدا من الأسباب التي جعلته يتقلب في الحال، فحينا يكون في أعلى مرتقى وآخر في السجن يلقى.

ويستمر أبو إسحق بمزاولة مهنته وعمله كصاحب ديوان الإنشـــاء والرسائل، ولا تذكر الأحداث أخبارا أكثر من الرسائل التي كان يكتبها عن الخليفة أو عن عز الدولة ووزيره ابن بقية.

وتقوى شوكة عضد الدولة البويهي المتولي الحكم في بلاد فارس وتنازعه الرغبة في امتلاك العراق وابعاد ابن عمه عز الدولة عن الإمارة. ويظهر أن أبا إسحق كان يرى في قوة عضد الدولة مقابل ضعف عز الدولة ولهوه أن الأمر سيؤول إلى عضد الدولـــة في حكم العراق، وربما إنه نقم على وزارة ابن بقية فكان يتمنى أن يخلص من ذلك بسيطــرة أخرى غيـــر سيطرة عز الدولة. ونرى أن عضد الدولة ربما وجد في أبي إسحـــق الشخص المناسب الذي يمكن أن يعتمد عليه في حال آل مآل العراق إليه، فهو الكاتب ذائع الصيت ومتولي الوزارة خلافة للمهلبي، وقد خبر إدارة الوزارة ودار الخلافة وتمرس في شؤونها وعرف الناس. ثم إنه ليس له أطماع في الحكم أو التآمر لعشيرة أو

---

[79] الغضارة وعاء من الفخار يوضع فيه الطعام

قبيلة أو فئة معينة أو مذهب. وعلى هذا صار الصابي قريبا منه وقائما على خدمته مخاطبا بالشعر والمكاتبة وصار عضد الدولة يتعهده بالمنح والنفقة في أكثر نكباته ويوصله بما يؤمله في غد آمن.

ومن مخاطبات الصابي لعضد الدولة رسالة كتبها له يهنئه فيها بفتح جبال القفص والبلوص[80] ويشكره على مال أنفذه إلى أبي إسحق وصلة وصلت منه سنة 360 هـ. والرسالة فوق أنها دليل المخاطبة، فإنها تحمل من البلاغة وحسن السبك والتفرد بالسجع، نثبتها هنا كاملة:" كتابي أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل عضد الدولة من واسط، يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شهر ربيع الآخر، والأمور التي يراعيها مستقيمة منتظمة، والنعمة في ذلك تامة عامة، وأنا لابس من جميل رأيه، وتصريف إصطناعه، شعارا ضامنا للصيانة، كافيا بالوقاية، حائلا بين النوائب وبيني، دافعا لاحداثها عني، آسيا لما من كلومها، جابرا لما سبق من ثلومها، واعدا بخلاف ما أخذت، واضعاف ما سلبت، والحمد لله كما هو أهله، وشخصت إلى هذا الموضع أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل عضد الدولة، متوجها إلى أعمال الأهواز للخدمة فيما رسم لي والتسكع[81] في بقية بقيت من مغارم محنتي، ولله في أثناء ذلك مواهب متظاهرة منشورة، وآلاء محمودة مشكورة، أفخمها شأنا، وأرفعها مكانا، قرب الشقة بيني وبين حضرته الجليلة التي هي مقر عزي ومراد أملي، وأن أخطو اليها بقدمي، وإن لم أستطع الإتمام بمُقدمي، وتلك سعادة أغتنمها من الأيام، وأسرقها من الزمان، وقد إستنجحت بما تلقاني من الخبر السار المبهج، والنبأ المؤنس المغبط، فيما ولى الله مولانا الأمير الجليل عضد الدولة به من الظفر بطوائف القفص والبلوص، والاستباحة لهم، والإتيان عليهم، والإدالة من مضارهم، والاقتصاص من سالف معارهم، والاشتمال عليهم بالبأس الشديد، والنصر العزيز، والقتل الذريع، والأسر المنيف، بعد تقديم الإعذار والإنذار، واستعمال الإبقاء والإنظار، آخذا منه أدام الله عزه عليهم بالحجة، وخروجا فيما أحله من الشبهة، ووقعت مني هذه النعمة أجل موقعها من الخدم المخلصين، والعبيد المتخصصين، لما فيها من تمكين للدولة وتأييدها وتثبيتها وتوطيدها، والدلالة على أن اقبالها يزيده جدة وعنفوانا على الأيام المهرمة، وغضارة

---

[80] البلوص ، البلوش (الاصليون) : انهم من ذرية الامير سليمه بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدثان الازدي ملك كرمان ومكران وتوابعهما. وحمل ابناؤه من بعده سكان البلوص والقفص لقب البلوص او البلوش حسب النطق الحالي.

[81] تسكع في أمره: لم يهتد لوجهته

وريعانا على العصور المخلقة، وان الله قد حتم لها بخذلان من عاداها وحاربها، وتجبين من ناوأها وناصبها، وجعل ذلك شرعا لا ينسخـــه، وعقدا لا يفسخه، وعهـــدا لا ينقضه، وذماما لا يخفره، فما ينجم لها ناجم يريدها، ولا يرصد لها مرصد يكيدها، إلا جزاه الله جزاءه، وردّاه رداءه، وقدر له من مهابط افكه مصرعا، وخط له من مساقط هلكه مضجعا، ووصل وباله في الدار الأولى بنكاله في الدار الأخرى، عاماً بذلك لمن جل منهم ودق، وشاملاً لمن قرب منهم وشط، حتى استووا في الأدبار، وإن اختلفوا في الأوطار، واجتمعوا في البوار، وان افترقوا في الأطوار، فالحمد لله على وافر أنعامه، وغامر أقسامه، وسني عطائه، وهني حبائه، حمدا يكون لمواهبه قضاءً وجزاء، ولمنايحه[82] كفاءً وأداء، وإياه (أسأل) أن يجعل مولانا الأمير عضد الدولة منصور الحزب والغاية، ميمون الرأي والعزيمة، معقوداً له لواء العز والقهر، مضروبا عليه رواق الظفر والنصر، وأن لا يخليه من ثغر يسده، وملك يربه، وأثـــر جميل يوثره، وفتح مبين يفتحه، لتكون حضرته بعين الله الراعي لها ملحوظة، واطرافها واكنافها بالأولياء والصنائع محفوظة، مستوفيا شرائط اليمن في ملكه، والتحيز في قدره، والإنفراد في نبله، والإشتطاط في محله، بجوده ومجده، ووالله أيد مولانا الأمير مـــا تقدمني أحد في السرور بما يؤتيه الله إياه من نعمة زائدة، ومملكة مستأنفة، وإني لأفخر بآثاره النبيهـــة، ومواقفه الحميـدة، فخر الناهض المبلي مـــع حاضريها، والرائح الغادي مع خدمـــه فيها، إعتلاقا بحبله، واختصاصا بجانبه، واعتزاءً إلى كنفه، وانقطاعا إلى فنائـــه، بلغني الله الأماني فيه وله، والآمال منه وبه.

ووصل كتاب مولانا الأمير الجليل عضد الدولة أطال الله بقاءه جوابا وفهمته، وما اقترن به ثوابا وقبضته، ووقع مني موقع الماء من ذي الغلة، والشفاء من أخي العلة، واعظمت قدر ما اختصني به أيده الله من عنياته، وأبانه من رعايته، وجعلت ذلك جنة بيني وبين الزمان وأَثرةً لي على الأضراب والأقران، وشكرت انعامه مجتهدا محتفلا، وادرّعتـــه مفتخرا متجملا، وتضاعف أغتباطي بقوة الحرمة به، ووثاقة العصمة لديـــه، وجرى ذلك عندي مجرى الغرس الذي إستقر أصله، وإستطال فرعه، وثبت عرقه، وقويت شعبه، وأراني نفسي بصورة من إستحكم في الجملة نسبه، وصار إليها منتسبه، وحصل فيها رهنه، وتوفر منها حظه، وأمضاني أن أنبسط مكاتبا مواصلا، وقضى لي أن أبسط مأمورا متهيئا، وإلى الله رغبتي في إطالة بقاء مولانا عمادا لملكه،

---

[82] المنيحة: العطية

وجمالاً لدهره، وملاذا لوليه، ونكالاً لعدوه، وألا يزيل عني ظله، ولا سلبني طوله، ولا يفجعني بالموهوب من رأيه، الذي هو عوض، عن كل مسلوب، وذريعتي إلى كل مطلوب، بقدرته، ومولانا الأمير الجليل عضد الدولة، أطال الله بقاءه، ولي ما يراه ويأمر به، لا زال صائب الرأي، نافذ الأمر، من تشريفي بالمكاتبة، وتصريفي في عوارض الخدمة إن شاء الله.[83]

يفاد من هذه الرسالة فوق استمالة عضد الدولة والسعي لخدمته، رغم أنه ما زال أميــر فارس، أن الصابي قد مل النكبات التي حلت عليه خلال حكم عز الدولة ووزيره ابن بقية ومنها سجنه على يديهما. وقد كانت هذه الاستمالة وهذه المخاطبات مع عضد الدولة سببا في نقمتهما عليه.

ثم تركزت هذه العلاقة خلال وجود عضد الدولة ببغداد، إذ يسجل التأريخ أنه لماحدثت في زمن عز الدولة فتنة الأتراك سنة 364 والتي ترأسها سبكتكين[84]، وهي أن بختيار كان قد سار إلى الأهواز، وتخلف سبكتكين التركي عنه ببغداد، فأوقع بختيار بمن معه من الأتراك، واحتاط على اقطاع سبكتكين، فخرج عليه سبكتكين ببغداد فيمن بقي معه من الأتراك، ونهب دار بختيار ببغداد، ولما حكم سبكتكين، رأى المطيع عاجزاً من المرض، وقد ثقل لسانه، وتعذرت الحركة عليه، وكان المطيــع يستر ذلك، فلما انكشف لسبكتكين، دعاه إلى أن يخلع نفسه من الخلافة، ويسلمها إلى ولــده الطايع، فأجاب إلى ذلك. انحدر سبكتكين بالأتراك إلى واسط، وأخذوا معهم الخليفة الطايع، والمطيع وهو مخلوع، فمات المطيع بدير العاقول، ومرض سبكتكين ومات أيضاً. وحملا إلى بغداد، وقَدّم الأتراك عليهم أفتكين وهو من أكابر قوادهم، وساروا إلى واسط، وبها بختيار، فنزلوا قريباً منه، ووقع القتال بين الأتراك وبختيار قريب خمسين يوماً، والظفر للأتراك ورُسُل بختيار متتابعة إلى ابن عمه عضد الدولة، بالحث والإسراع، فكتب إليه:

فإن كنتُ مأكولاً فكن أنت آكلي وإلا فــأدركنــي ولمّــا أمــــزقِ

فسار عضــد الدولة إليه بعــد أن عرف أنــه سيقضي على الأتراك فيتوطد الأمــر له

---

[83] شكيب أرسلان، المختار من رسائل أبي إسحق الصابي. دار النهضة الحديثة

[84] كان سبكتكين من مماليك الأتراك لدى عز الدولة وكان حاجبه الرأس، وقد قويت شوكته خاصة بعد أن خلع عليه الخليفة الطائع لله الإمارة عوضا عن عز الدولة ذلك أنه أخذ الخلافة له من أبيه المطيع لله. وقد خرج على عز الدولة بختيار.

في السيطرة على العــراق.[85] وتم القضاء على حــركة سبكتكين ومن آزره من الأتراك واستتب الأمر للبويهيين بدعم وإسناد من عضد الدولة الذي جاء بنفسه على رأس جيوش جرارة كان يستهدف بها أن يدخل بغداد، ودخلها فعلا واستطاب أمرها لـه. وظل أبو إسحق قائما على خدمة عضد الدولة وأخذ المواثيق له عن الخليفة الطائع، حتى أنه أراد التلقب بتاج الدولة.

ويذكر حفيــد الصابي هلال بن المحسن أن عضد الدولــة زاد قــرب أبو إسحق منــه، وخصوصه به، وتأكد حالــه عنــده، وكان يتوقع أنــه سيقيم ببغــداد حتى تمادى في الإختصاص به مع علمه بما بينه وبين عز الدولة من أحقاد. ولسوء حظ الصابي أن عضد الدولة لم يبق ببغداد ذلك أن والده أصر عليه أن لا يستأثر بملك أخيه وابن أخيه في العراق. خاف الصابي من غضبة عز الدولة في حال بقائه في بغداد فسعى للخروج مع عضد الدولة إلى فارس بناء على طلبه، ثم علم أنه متى فعل ذلك فسيترك أهله وولده وربما يهدده عز الدولة بهم فيذلهم ويسعى أن يتحولون في ديانتهم ويسلمون، فيكون قد تسبب لهم بما أراد لنفسه النجاة منه[86]. فاعتذر لعضد الدولة الذي استظهر له ولم ينسه إيفاء بخدمته له، بأن ذكره في الاتفاق الذي كُتب بينه وبين عز الدولة، وعهد به إليه، واليمين التي حلفا بها، وشرط عليهما حراسة أبي إسحق في نفسه وماله، وترك تتبعه في شيء مــن أحواله. وانحدر عضد الدولة، فلم يأمن أبو إسحق على نفسه من عز الدولة، ومن أبي طاهر بن بقية وزيره، واستتر، وأقام على الاستتار مدة وكانت حاله على أصعب ما يكون خوفا من فتك عز الدولة به. وهو يصور حاله في قصيدة مؤثرة حيث يقول منها:

ليس لي منجد على ما أقاسي	من كروبي سوى العليم السميع
دفتري مؤنسي وفكري سميري	ويدي خادمي وحلمي ضجيعي
ولساني سيفي وبطني فريضي	ودواتي عيني ودرجي ربيعي
أتعاطى شجاعة أدّعيها	في القوافي لقلبي المصدوع
بمقالٍ أعزَّ من ليثِ غابٍ	وفعالٍ أذلّ من يربوع
كلما هرَّ في جواريَ هرٌّ	كاد يفضي إلى فؤادي المروع

[85] أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر

[86] دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية ج 14 ص 83-85

وإذا اجتاز في السطوح فمن قبـ ـل قبوع الجرذان منه قبوعي

ثم توسط قاضي القضاة أبو محمد بن معروف أمره معهما، وأخذ له العهد عليهما، والأمان منهما، واستوثق بغاية ما يستوثق به من مثلهما. وظهر أبو إسحق، فتركاه مديدة، ثم قبضا عليه، وذلك بإغراء من ابن السراج لهما به، وتجدد منه في العداوة له أمور تجنى فيها عليه، وجرت له في هذه النكبة خطوب أشفى فيها على ذهاب النفس، ثم كفاه الله بأن فسـد أمر ابن السراج مع ابن بقية بما عامله بالعلة التي عرضت له فقبض عليه، ونقل القيد من رجل أبي إسحق إلى رجله. وعاد إلى خدمة عز الدولة، وصار يكتب عنه الكتب الشديدة بحسب ما يطلبه منه وفيها من التعرض لعضد الدولة ومنها مخاطبات عز الدولة مع أبي تغلب المتولي على شأن الموصل. وكتب عنه في أيام المباينة بينه وبين عضد الدولة الكتب التي تضمنت الوقيعة والاستهتار عليه، ومنها الكتاب عن الطائع لله بتقديم عـز الدولة وإنزاله منزلة ركن الدولة، وهو أعظم ما نقمه عليه كما سنرى لاحقا.

ويظهر أن أبا إسحق كان ممن شملهم تصفية الأموال، وهو الأسلوب الذي لجأ إليه الوزير ابن عباس ترضية للأمير عز الدولة حينما ثار عليـه الديلم والأتراك مطالبين بالأموال والمناصب، حيث أضطر عز الدولة بختيار أن يضمن لهم ما طلبوا بإلزام وزرائه على جمع الأموال كيفما اتفق. وقد ضمن أبو الفضل العباس الوزارة بإرضائه الجند والعمل على مصادرة أموال الحاشية وتمكن بذلك من إنهاء تمرد الترك والديلم[87]. ويبدو أن أبا إسحق أحد الذين شملهم هذا الإجراء، ولذلك صار يشكو الزمن والحظ والأيام التي تمر عبثا دون تحقيق ما يصبو إليه. ونلمس ذلك في قوله[88]:

وأيـامٍ تعـدّ عليّ عـدّا	وحظيّ من رغائبها يفـوتُ
يظـنّ الناس لي فيها ثراء	وحسبي من ظنون الناس قوت
كأنّي من تخاصمهم مكينٌ	وحالي من خصـاصتها تموت
ولم آل اجتهـاداً واحتفـالاً	ولكنْ أعيت الحيل البخوت
إذا رام الكريم شكاة بثٍّ	فغايتـه التحمّل والسكوت

وتظهر هذه القصيدة معرفة الصابي بقدراته وتفوقه في الجهد الذي يبذله، ولكن الأمر

---

[87] إبن مسكويه، تجارب الأمم

[88] الثعالبي، يتيمة الدهر

لا يتناسب وذلك، فالحظ، حسبما يرى، دور كبير في تصريف الأمور، ولذلك سار مثلا كلامه: " ولكن أعيت الحيل البخوت". وأفضل للكريم من التشكي التحمل والسكوت، إذ إن أبا إسحق، كما يذكر، قد جرب كل الأمور اجتهادا ووجد ذلك لا ينفع وعلى المرء أن يكتفي بالمقدر ويقنع.

ويبدو من الجو العام المسيطر على الرسالة أن الصابي عانى من أكثر من نكبة وهذا ما يقرره بنفسه حين يقول في قصيدة:

أخرج من نكبة وأدخل في أخرى وأخرى بهن تتصلُ

كأنها سنة مؤكدة لا بد من أن تقيمها الدولُ

وعلى هذا يثبت الثعالبي في يتيمة الدهر أنه لما خلي عنه بعد نكبته مع عمال الوزير المهلبي فإنه لم يزل يطير ويقع وينخفض ويرتفع إلى أن دفع في أيام عضد الدولة إلى النكبة العظمى والطامة الكبرى.

مكانة الصابي بين كتاب وشعراء عصره

قدّم الوزير المهلبي أبا إسحق الصابي إلى ساحة الأدب والوظيفة المتقدمة، وقد حفظ لنا بهذا التقديم أنه كشف ونمّى أديبا لامعا وكاتبا مبرزا وشخصية ظل التأريخ يذكرها على قدر ما سجل لها من عطاء خلاق في ميدان عملها والحياة العامة. كما أنه شكل نهجا في أدب الترسل ظل يدرس من قبل الدارسين إلى يومنا هذا وظل أسلوبه وطريقته مما يستشهد بها في المحافل الأدبية ويتبع نهجها من رام الكتابة على أسس البلاغة والترسل. وقد تمكن الصابي بما ملك من مقدرة أدبية متقدمة وفن بصياغة الكلام ومعرفة واسعة بالعلوم الأخرى وشخصية محببة تم تربيتها على فضائل الأخلاق ومحاسن العشرة أن يجمع حوله العديد من المحبين وأن يكثر معارفه وتستطاب مجالسته ويستحب مجلسه، وأن يكون جلهم من أهل الأدب والسياسة والأمراء والقواد والكتاب والقضاة. فهو يصوم شهر رمضان مع المسلمين مسايرة وحرصا على أن يكون قريبا إلى خصائص الدين في أبرز الشعائر دون أن يجعل من هذه النواحي حالات للتمييز، بل للإلفة والعِشرة والخدمة الصحيحة. كما كان

يتناصر مع النصراني بأدق ما يعرفه عنه، ويتهـــادى مع اليهودي، ويجالس من برز من المجوس وظل يخدم في البلاط البويهي بفارس. أما على أبناء ملته فكان الصابي حانيـا حانيا صابيا لهم، غير صابئ عنهم، كيف لا وهو شيخ الصابئة في زمانه.
ويفيد هنا أن نعرض كتابات من تناول الصابي وكتب عنه أو أشار إلى الكُتّاب وصناعة الكتابة فهي جميعا لا تخلو من ذكر للصابي كأحد المبرزين فيها.
فهذا الصاحب بن عباد وهو وزير آل بويه في خراسان والكاتب المبرز الذي عاصر فتـرة الصابي، نجده، على ما يذكر الثعالبي، يقول: " كُتّاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة: الأستاذ ابن العميد، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو إسحق الصابي، ولو شئت لذكرت الرابع، يعني نفسه. وكانت بين الصاحب والصابي صداقة سيتم تناولها لاحقا. وهذا أبو منصور الثعالبي يقدم للصابي في كتابه يتيمة الدهر ما يغني في التعرف على مكانة الصابي فيقول:" هو ابراهيم بن هلال بن زهرون الصابي الحراني، أوحد العراق في البلاغة، ومن به تثنى الخناصر في الكتابة، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية، من البراعة والصناعة، وكان قد خنق التسعين[89] في خدمة الخلفاء، وخلافة الوزراء، وتقلد الأعمال الجلائل، مع ديوان الرسائل، وحلب الدهر أشطره، وذاق حلوه ومره، ولابس خيره، ومارس شره، ورُئِس ورأس، وخَدم وخُدم، ومدحه شعراء العراق في جملة الرؤساء وسار ذكره في الآفاق، ودوّن له من الكلام البهي النقي ما تتناثر درره، وتتكاثر غرره." وحين يكتب ابن خلدون في الجزء السادس من مقدمته عن صنعة الكلام والبديع فيها يثبت " وعلى نسبة الكلام المنظوم هو الكلام المنثور في الجاهلية و الإسلام. كان أولا مرسلا معتبر الموازنة بين جمله و تراكيبه، شاهدة موازنته بفواصله من غير التزام سجع و لا اكتراث بصنعة. حتى نبغ ابراهيم بن هلال الصابي كاتب بني بويه، فتعاطى الصنعة و التقفيه و أتى بذلك بالعجب. و عاب الناس عليه كلفه بذلك في المخاطبات السلطانية. وإنما حمله عليـــه ما كان في ملوكه من العجمة و البعد عن صولة الخلافة المتفقة لسوق البلاغة. ثم انتشرت الصناعة بعده في منثور المتأخرين ونُسي عهد الترسيل و تشابهت السلطانيات والإخوانيات والعربيات بالسوقيات. واختلط المرعى بالهمل. وهذا كله يدلك على أن الكلام المصنوع بالمعاناة والتكليف، قاصر عن الكلام المطبـوع، لقلة الإكتراث فيه بأصل البلاغـــة، والحاكم في ذلك الذوق" وقال عنه القفطي حين ترجم له في كتابه أخبار العلماء

---

[89] اختلف في عمر الصابي بين السبعين والتسعين عاما

بـخيار الحكماء: " وَكَانَ بليغاً في صناعتي النظم والنثر وَلَهُ يد طولى فِي علم الرياضة وخصوصاً الهندسة والهيئة... وتقدم بالرسائل والبلاغة " ويثبت أبن الأثير في كتابــه مثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، على ما عرف عن إبن الأثير من توجه نقدي وغرور وإعتداد بالنفس قلما يسمح بإنصاف الآخرين، رأيه بأبي إسحق فيقول إن:" علم الكتابة قد رفعه وهو إمام هذا الفن والواحد فيه. ولقد اعتبرتُ مكاتباته فوجدته قد جاد في السلطانيات كل الإجادة وأحسن كل الإحسان، ولو لم يكن له سوى كتابه الذي كتبه عن عز الدولة بختيار بن بويه إلى سبكتكين عند خروجه عليه ومجاهرته إياه بالعصيان لاستحق به فضيلة التقدم، كيف وله من السلطانيات ما أتى فيه بكل عجيبة" وقال عنه ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء" هو أوحد الدنيا في إنشاء الرسائـــل، والإشتمال على جهات الفضائل.. تقلد أعمالا جليلة، ومدحه الشعراء، وكان حسن العشرة للمسلمين، عفيفا في مذهبه... فأما بلاغته، وحسن ألفاظه، فقد أغنتنا شهرتها عن صفتها." ويصف أبو حيان التوحيـــدي في الليلة الخامسة من كتابه الإمتاع والمؤانسة ما كان لأبي إسحق بين المبرزين من كتاب العصر بالقول": فأما أبو إسحاق فإنه أحب الناس للطريقة المستقيمة، وأمضــاهم على المحجة الوسطى، وإنما ينقم عليه قلة نصيبه من النحو، وليس ابن عباد في النحو بذاك، ولا كان أيضاً ابن العميد إلا ضعيفاً، وكان يذهب عنه الشيء اليسير. وأبو إسحاق معانيـــه فلسفية، وطباعه عراقية، وعادته محمودة، لا يثب ولا يـرسب، ولا يكل ولا يكهم، ولا يلتفت وهو متوجه، ولا يتوجه وهو ملتفت. وقال لنا: إمام ابن عبد كان، وهـــو قد أوفى عليه، وإن كان احتذى على مثاله، وفنونه أكثر، ومأخذه أخفى، وخاطره أوقد، وناظره أنقد، وروضه أنضر، وسراجه أزهر، ويزيد على كل من تقدم بالكتاب التاجي، فإنه أبان عن أمـــور وكنى في مواضع، وشـــن الغارة في الصبح المنير مـــع الرعيل الأول، ودل على التفلسف، وعلى الاطلاع على حقائق السياسة، ولو لم يكن له غيره لكان به أعرق الناس في الخطابة، وأعرق الكتاب في الكتابة، هذا ونظمه منثوره، ومنثوره منظومه. إنما هــو ذهبٌ إبريزٌ كيفما سبك فهو واحد، وإنما يختلف بما يصاغ منه ويشكل عليه، هذا مع الظرف الناصع والتواضع الحسن، واللهجة اللطيفة، والخلق الدمث، والمعرفة بالزمـــان، والخبرة بأصناف الناس، وله فنونٌ من الكلام ما سبقه إليها أحد، وما ماثله فيها إنسان. وإني لأرحم من لا يسلم له هذا الوصف، لأنه إما أن يكون جاهلاً، وإما عالماً فـــإن كان جاهلاً فهو معذور، وإن كان عالماً فهو ملوم، لأنه يدل من نفسه، بدافع ما يعلمـــه، على حسده، والحاسد مهـــين ". ويذكر أبو حيـــان

التوحيدي في كتابه أخلاق الوزيـرين:" وحضرت المجلس يوماً آخر مع أبي سعيد السيرافي[90] وقد غصّ بأعلام الدنيا، وبُنُـــود الآفاق، فجرى حديث أبي إسحاق الصّابي، فقال ذو الكفايتين[91]: ذاك رجل له في كل طِراز نسجٌ، وفي كل فضاء رهج، وفي كل فلاةٍ ركبٌ، وفي كل غمامـــة سَكْب. الكتابة تدّعيـــه بأكثر مما يدّعيها، والبلاغة تتحلّى به بأكثر مما يتحلّى هو بها "[92]. ومـــا أحلى قوله:

حمراءُ مُصنفَرَّةُ الأَحشاءِ باعثةٌ   طيباً تخالُ به في البيت عَطّاراً

كأن في وسْطها تِبْراً يُخلّصِهُ   قَيْـــنٌ يُضَرِّم في أوراقِـــهِ النـارَا

وقوله:

ما زلتُ في سُكْري أَلمع كفَّها   وذِراعَهَـــا بالقَرْصِ والإِثــآر

حتى تركت أَديمها وكأنّمـا   غُـــرِزَ البَنَفْسَجُ في الجُمّـــارِ

وبلغ المجلس أبا إسحاق فحضر وشكر، وطوى ونشــــر، وأورد وأصـــدر، وكان كاتب زمانه لساناً وقلماً وشمائل، وكان له مع ذلك يدٌ طويلة في العلم الرياضي.

وقد سار ذكر أبي إسحق الصابي في أشعار الشعراء وتمثلوا اسمه في وصف المحاسن بما كان له في كتاباته من حسن البديع وجميل الصنيع. ونذكر هنا بعضا من الأشعار التي أوردت اسمه للوقوف على الأغراض التي إستخدمت من أجلها. وقد جمعنا ما كتب عن الصابي من أشعار وما ذكره الثعالبي في يتيمـة الدهر مما قاله أهل عصره والتي نقلها عنه الكثير ممـــن كتب عن أبي إسحق:

---

[90] السيرافي، أبو سعيد 368هـ - 978م هو الحسن بن عبدالله بن المرزبان قال عنه أبو حيان التوحيدي: أبو سعيد السيرافي شيخ الشيوخ، وإمام الأئمة معرفة بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافي والقرآن والفرائض والحديث و الكلام والحساب والهندسة، وله عدة تصانيف في اللغة والنحو.

[91] ذو الكفايتين هو الشاعر علي بن محمد بن الحسين بن العميد القمي، كان وزير ركن الدولة الديلمي بعد ابيه ابي الفضل بن العميد، وكان يضرب به المثل في البلاغة وكان يقال له ذو الكفايتين لجمعه تدبير السيف والقلم.

[92] ولا غرو أن تترجم مثل هذه النصوص التي عدت من قبل المستشرقين شواهد تقييم للصابي في أدبه عامة نثرا وشعرا. وقـــد ترجم كلاوس هاحماير هذا النص بالإلمانية فقال:

„ Jener (Al- Sabi`) ist ein Mensch, der für jedes Gewand Stoff, in jeder Gegend Boden, in jeder Wüste Reiter und in jeder Wolke Regen hat; die Schreibkunst beansprucht ihn mehr als er sie, und die Redegewandheit schmückt sich mit ihm mehr als er sich mit ihr“

أصبحتُ مشتـاقاً حليفَ صَبابـةٍ   بـرسائلَ الصـابي أبي إسـحاقِ

صوبَ البلاغة والحلاوةِ والحجى   ذَوبُ البـراعةِ سلـوةَ العشـاقِ

طـوراً كما رقَّ النسيـمُ وتـارة   يحكي لنا الأطواقَ في الأعنـاقِ

لا يبلـغُ البلغـاء شـأوَ مُبـرزٍ   كُتبتْ بدائعـهُ على الأحداقِ

وقال آخر:

يا بؤس مَن يُمنى بدمعٍ ساجم   يهمي على حُجب الفـؤاد الواجـمِ

لو لا تعلّلـهُ بـكأس مـدامـة   ورسائلَ الصابي وشعر كشاجم[93]

ولأبي سعيد بن دوست[94]:

الصبـرُ في أول مراتـه   مرٌّ كطعم الصبر والصابر

وغبـهُ أعذب للمـرء من   رسائـل الصاحب والصابي

وقول بعضهم في وصف كتاب:

كتابٌ كوشي الروضِ خَطت سطورهُ   يـدُ ابن هلالٍ عن فمِ ابـن هـلالِ

أراد بابن هلال الأول: أبا الحسن علي بن هلال، المعروف بابن البواب الخطاط المشهـور، قال ابن خلكان: لم يوجد في المتقدمين ولا المتأخرين من كتب مثله، ولا قاربه. وابن هلال الثاني: أبو إسحاق ابراهيم بن هـلال الصابي، صاحب الرسائل المشهورة والنظم البديـع. وعلى ذلك بنى فحول أرباب البديعيات أبياتهم.

وكانت بين جعفر بن ورقاء الشيباني[95] وبين أبي إسحق الصابي مودة وتزاور فانقطع عنه أبو إسحق لعوائق الزمان وذكر أنه يعول على صفاء الطوية في المودة، فكتب إليه جعفر:

---

[93] أبو الفتح محمود بن الحسين الرملي، المعروف بكشاجم (بضم الكاف) شاعر وأديب، من كُتاب الإنشاء وهو من أصل فارسي. بين دمشق وحلب والقدس وبغداد وحمص وإستقر أخيرا في حلب بسورية، له ديوان شعر ومصنفات أخرى. وقد اشتهر تنقل كشاجم في حلب وبين شعرائها وفي بلاط سيف الدولة ، ولفظة ولقب كشاجم منحوتة، وتعني من علوم كان يتقنها: الكاف للكتابة، والشين للشعر، والألف للإنشاء، والجيم للجدل، والميم للمنطق.

[94] الثعالبي، خاص الخواص

يا ذا الذي جعل القطيعة دأبـــه   إن القطيعـــةَ موضـــعٌ للـريب
إن كان ودك في الطوية كامنا   فاطلب صديقــاً عالماً بالغيب

وعلى أثر قصيدة طويلة كتبها الصابي له أجابه بقصيدة أيضا جاء منها:

أفي الحق أن قايســت غير محققٍ   فظاظة جندي إلى ظرف كاتب
ولا سيمــا أنت الذي نشــرت لـه   محاسنٌ كالأعلام فوق المراقب
وما زلتَ بين الناس صَدر محافل   وعين مقامــات وقلب مواكـب

وفي قصيدة "همٌ سرى في أضلعي" للشاعر ابن الزقاق البلنسي استخدام تشبيـه ظريف للألفاظ الصابي حين يقول:

قسماً لهاتيك المحاســن أفصحت   بــمثــالب الشعــراء والكتــاب
تركت حلاوةُ لفظها إذ نوزعتْ   أَكوابُها كالصَّابِ لفظَ الصابي

وفي قصيدة الثعالبي   يامن كساه الله أردية العلى" يورد ذكر الصابي مستشهدا بقيمة ترسله يقول:

لك في المحاسنِ معجزاتٌ جَمّـــةٌ   أبداً لغيــرك في الورى لـــم تُجمَعِ
بحران: بحرٌ في البلاغةِ شابَـــهُ   شعرِ الوليد وحسن لفظ الأصمعي
وترســـلُ الصابي يـزيّنُ علـــوَّه   خطُ ابنِ مقلــةَ ذي المحلِّ الأرفـعِ

واعتذر أحدهم عن زيارة أبي إسحق الصابي بهذه الأبيات الرقيقة، قال:

عراني عنــك يا مـولا   يِ عـــذر أيمــا عـــذرِ
عصوف الريح مع مـدّ   عظيــم زاخــر يجـــري
فلم أقـدم على المــاء   ولم أجسر على الجسرِ
ولـم أسمــع إلى الآن   على مــا مدّ من عمري
بريـح حجبــت روحــاً   وبحـــر صــدّ عن بحـرِ

---

[95] هو جعفر ن محمّد بن وَرْقاء بن صِلَة بن عمير ، يكنّى أبا محمّد ، أمير بني شيبان بالعراق ووجههم ، وكان عظيماً عند السلطان، صحيح المذهب، وله كتاب في امامة أمير المؤمنين.

وقال ابن سكرة[96] في الصابي مبرزاً قيمته

خرجتُ أطلب شيئاً لا وجودَ لهُ ومن غدا يطلب المفقود لم يجد

شبه الكريم أبي اسحاق في كرم ما ليس في الظن هل يسطاع في بلد؟

وكتب له بشر بن هارون النصراني وكان شاعرا هجاء خبيث اللسان:

حضرتُ بالجسم وقد كنتُ لو بالنفسِ لما ترني حاضرا

أنطقني بالشعر حُبي لكم ولم أكن من قبلها شاعرا

فكتب إليه الصابي تحت خطه: (ولا بعدها).

وكتب إليه أحمد النهرجوري وهو بالبصرة قصيدة يمدحه فيها أولها[97]

لا يذهبن عليك في العواد ضعف القوى وتفتت الأكباد

لا تسألي عني سواك فإنما ذكراك أنفاسي وحبك زادي

وقد ورد ذكر الصابي في شعر لأبي القاسم الرحوي وهو من شعراء تونس قال مادحا[98]

سالك ففي النظام دراً وطوراً ناثر دره بنشر وطي

بِدعٌ للبديع ترمي بحصر ولصابي بني بويه بعي

ويرى أخرس العراق لديه إنه بالشام كالأعجمي

وقد درج الأدباء بالتعبير عن الصاحب بن عباد[99] وأبي إسحق الصابي بالصادين وكتب حدهم:

فلو كنت للفتح بن خاقان صاحباً لما خانه المقدور في ليلة الخان

ولو كنت للصابي صديقاً ملاطفاً لما قبلت فيه مقالة بهتان

ولو كنت من عبد الحميد مقرباً لما هزم السفاح أشياع مروان

---

[96] الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء

[97] ياقوت الحموي، معجم الأدباء

[98] ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون

[99] سترد ترجمة الصاحب بن عباد لاحقا في الكتاب

ونقرأ هذا في قول الشيخ أحمد البربير المتوفى سنة 1226 في كتابه (الشرح الجلي) يمدح كاتبا:

للّه كاتبنـــا الذي أنــا رقـه   وهو الذي لا زال قـــرة عينـي

فـي ميم مبسمـه ولام عذاره   ما بات ينسخ بهجــة الصادين

أما جعفر بن مطهر بن محمّد الجرموزي: الرئيس الكاتب الشاعر، فقد كان متشبهاً بالصاحب بن عباد وأبي إسحاق الصابي مكثراً من ذكرهما حتى في شعره وما أحسن قوله في ذلك[100]:

تعانقت أغصــــان بان النـقـا   فشابهت أعطاف أحبــابي

ومذ صبا قلبي صبا صاحبي   آهٍ على الصاحب والصـابي

وقال السري الرفاء في وصف القلم من قصيدة في أبي إسحق[101]

وفتىً إذا هـــز اليـــراع حسبتــه   لمضاء عزمتـــه يهز مناصـلا

من كل ضافي البرد ينطق راكباً   بلسان حامله ويصمت راجـلا

وكتب له أبو أحمد عبد الله ابن ورقاء الشيباني قصيدة منها[102]:

يا هـــلالاً يُدعى أبوه هـــلالا   جَلَّ باريك في الورى وتعالى

أنت بدرٌ حسناً، وشمسٌ علواً،   وحسامٌ عزماً، وبحرٌ نـوالا

وقال أحدهم:

ما الصاحب الكافي أو الصــ   ـابي فكلٌ عنه قاصــر

أما ما قاله عنه صديقه المبرز الشريف الرضي في نثره وشعره فيعد الشهادة البالغة التقدير والتثمين حتى جعله في المنزلة العالية من الأدب وأرقاه حتى حطه على قمة جبل البلاغة، فكان ذلك مجدا للصابي موسوما بمنزلة الرضي الأدبية والسياسية والدينية. وما أوردناه من شعر بهذا الخصوص لا يحتاج إلى مزيد قول وبرهان.

---

[100] الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع

[101] الثعالبي، يتيمة الدهر

[102] المصدر السابق

وقد تناول الشعراء والأدباء الفرس أيضا أبا إسحق الصابي منفردا أو بالعلاقة بينه وبين الصاحب بن عباد، ومما يرد شعرا[103]:

ادب صاحب پيش ادب توهذر است　　نامه صابي با نامه تو خوار و سئيم

وكذلك:

اي بر به هنرمندي از صاحب و از صابي　　وي به به جوانمردي از حاتم و از افشين

وأيضا:

جان و روان صاحب و صابي به پيش تست　　اين تيره از بنانت و آن عاجز از بيان

وكذلك:

نيست پيش قلمش طبع سخنگوي فصيح　　هست وقت سخنش صابي و عتبي مفحم

المخاطبة بين أبي إسحق الصابي والمتنبي

لقد عاصر أبو إسحق الصابي الشاعر المبرز أبو الطيب المتنبي الذي ذاع صيته عصرذاك حتى غدا يطلبه الخلفاء والأمراء. كيف لا وهو الذي ملك ناصية الشعر وأصاب الشهرة وصارت كل كلمة منه ترفع وتحط من شأن من يقول فيهم شعرا. ومع ذلك فلم يكن المتنبي ممن يقول شعره دون أن يكون له رأي في قائله، وهو وإن سعى للكسب، لكن المال لم يبذل شعره وكان يحق الحق خاصة وأنه مدح مبرزين عصره كسيف الدولة وكافور الإخشيدي وقصد عضد الدولة ببغداد. وقد تودد إليه الصاحب بن عباد ليقول فيه شعرا ولكنه لم يجبه كما حاول الوزير المهلبي ذلك فاكتفى المتنبي بزيارة مجلس المهلبي يوما كان وزير آل بويه، ولما لم يمدحه حرّض بعض الشعراء المهلبي للنيل من المتنبي كما فعل الصاحب بن عباد. في هذا العصر الأدبي العارم والذي كان يحتضن المبرزين من الأمراء والكتاب والشعراء كان يحتضن أيضا كاتبنا أبو إسحق الصابي الذي ملك أيضا ناصية الإنشاء والترسل. ومن خط المحسن بن أبي إسحق قال: "حدثني والدي أبو إسحاق قال: راسلت أبا الطيب المتنبي، رحمه الله، في أن يمدحني بقصيدتين، وأعطيه خمسة آلاف درهم، ووسطت بيني وبينه رجلاً من وجوه التجار، فقال له: قل له: والله ما رأيت بالعراق من

---

[103] كمال بخاري، لباب الالباب ج 1 ص 89

يستحق المدح غيرك، ولا أوجب علي في هذه البلاد أحد من الحق مـــا أوجبت، وإن أنا مدحتك، تنكر لك الوزير، يعني، أبا محمد المهلبي، وتغير عليك، لأنني لم أمدحه. فإن كنت لا تبالي هذه الحال، فأنا أجيبك إلى ما التمست، وما أريد منك مالاً، ولا عن شعري عوضاً. قال والدي: فتنبهت على موضع الغلط، وعلمت أنه قد نصح، فلم أعاوده" [104]

وتظهر لنا هذه المخاطبة تقدير الصابي لقيمة المتنبي من جهة، كما تظهر أيضا المكانة التي وصل إليها الصابي والشهرة التي صار يحظى بها حتى أن المتنبي فضله على رؤسائه وآخرين غيره، بل وخاف عليه إن هو مدحه فإن الآخرين وعلى رأسهم ولي النعمة الوزيـــر المهلبي سيتنكر له وربما يغضب عليه وتكون بينهم الفجوة والجفوة بسبب المدح، ذلك أن المتنبي قد رفض مدح المهلبي كما مر بنا. وعلى هذا فقد تدارك الصابي النصيحة التي وصلته من صاحبه وإكتفى بذلك. وفي كل الأحوال فإن هذه المخاطبة إنما هي شهادة إستحقاق للصابي من أوحد الشعراء أبي الطيب المتنبي.

الصداقات المبرزة في حيا ة أبي إسحق الصابي

لقد ذكر أبو إسحق أنه منذ اليوم الأول الذي قدّمه فيه الوزير المهلبي بين الكتاب العاملين لديه وهو يداري الجميع ويحرص على إقامة العلاقات الودية بينه وبين العاملين معـــه من جهة، وبينه وبين رؤسائه من أولي الأمر وعلية القوم. ولا شك أن الصابي على ما وهب من ذكاء وفطنة ومعرفة وحسن تربية وأدب وشخصية محببة ولطيفة وعِشرة لينة مع الجميع مع حرص على عادات وشعائر الآخرين وحفظ للقيم والدين وغير ذلك جعله يحظى بحسن القبول من الآخرين. ولذلك نجد أن علاقات عديدة وطيبة ربطته مع الكثير من مشاهير العصر الذي عاشه. هذا فوق أنه كان الرئيس الذي تولى ديوان الإنشاء وكان ينوب عن الوزير المهلبي في الوزارة حين غيابه، وكان ينال، على وفق مراسم دار الخلافة والإمارة، ما يناله الرؤساء والقواد والقضاة وعلية القوم. وتحددا بالصداقات المميزة، فإننا آثرنا الاشارة والاشادة ببعضها فيما نعرض.

---

[104] ياقوت الحموي، معجم الأدباء

1- الصداقة بينه وبين الشريف الرضي[105]

الصداقة والمصادقة لغة تعني المخالة، والخليل صديق. والصداقة تدخل في بـــاب الصدق ترتبط به بل ومنه تشتق. ولا شك أن الصدق ضد الكذب فيكون منشأ الصداقـة تأسيسها على الصدق والتصديق قولاً وفعلاً، سـراً وجهراً، حقاً وإحقاقاً. ومن الصداقة التصدق والصداق وكل ما يحمل إيجاب المعاني من صفات حسنة يرجى منها وبها إقامة العلائق على المودّة والرعاية والإيثار وحمل الأوزار والتلذذ بالمشاركة في الطيبات، والمواساة في تحمّل النازلات، ومبعثاً للسلوى وعوناً على البلوى. فعدّت هذه الصفة من أفضل الصفات الحميدة المرغوبة والمطلوبة، بل ومعياراً من معايير الحكم على الأفراد والشعوب والأمم. كُتبت حولها القصص ونظمت فيها الأشعار وضربت لهـــا وبها الأمثال. ومع أن مآثـــر الصداقات موجودة عبر الزمن، فإن الصداقات التي وثقها التأريخ بكثرة أحداثها وعبـــر مآثرها معدودة. ومن الصداقات التي تُذكر في التراث العربي تلك التي قامت بين الإمام أبي الحسن الموسوي الشريف الرضي وأبو إسحق أبراهيم بن هلال الصابي. وقد إستوقفتنا هذه الصداقة في معانيها وقيمها ومآثرها، تلك أن وقائعها قد وّثقت في العديد من جوانبها شعراً ونثراً لأديبين متقدمين ومبرزين في صناعتهما وعلو شأنهما. كما أنهـــا إستوقفت الكثيرين إعتباراً وعبراً، ذوقاً وتذوقاً، شهادةً وإستشهاداً. أعلى شأنها بل وإقتدى بها من سَمت نفسه إلى القيم الفضلى، وغَمط حقها البعض مدخلاً للنيل من قيمة الصديقين.

بُنيت صداقة الشريف الرضي وأبو إسحق الصابي على روح المحبة والإيثار والسماحة والفضل الذي ناسب بين الصديقين والذي كتب لصداقتهما أن تعيش بعمرهما ويبقى ذكرها مقرونا بإسميهما، فإستحقت الوقوف عندها إستجلاء لما كان أثناءها وبعدها فيما تميزت به من خصال وما جعلها تذكرعند المثال. ومن ذاك :

1- أنها لم تقم على تقارب في السن بين الشريف الرضي وأبـو إسحق، فالأول شاب في مقتبل العمر والثاني كبير السن. فما جمع إذاً هو هذا التقدير المتبادل لما يملكه الاثنان من طباع مشتركة ولغة متناسبـــة وعلو شأن وأهليّة لم يساعد الزمـــان على أن تأخذ موقعها. ولذا يخاطب الشريف الرضي صديقه بقوله: "... أني، ومثلك معوز الميلاد". ولقد تفوقت علاقة الصداقة بين الاثنين على موجبات فـــارق السن فترى أبا

---

[105] سبق ونشرت هذه المقالة للمؤلف في أكثر من مجلة وموقع إلكتروني.

إسحق، وهــو في شيخوخته، يعتذر للشريف الرضي حين لا يستطيع زيارته المعتادة والمتبادلة فيقول :

أقعدتــنا زمانــةٌ وزمـــــانٌ جائرٌ عـــن قـضــاء حـــق الشــريفِ
والفتى ذو الشباب يبسط في التقــ ـصير عُذر الشيخ العليل الضعيف

ويأتي رد الشريف الرضي مبرزاً قيمة صداقتهما وعمقها، بل وطيب أصل ومنبع الرضي وتربيته التي إنسحبت للصابي والتي يرى في ملزماتها ما يراه الفتى الصالح لأبيه، فيقول مجيباً الصابي مرةً:

ولو أنّ لي يومــاً على الدهــر إمــرةً وكان ليّ العدوى على الحدثان
خلعتُ على عطفيك بُرد شبيبتــي جَواداً بعمري وإقتبــال زمـــاني
وحَمّلتُ ثقل الشيب عنك مفــارقي وإن فَلّ من غربي وغضّ عنــاني
ونابَ طويلاً عنك في كُل عــارضٍ بخطٍ وخطــوٍ أخمـصي وبنــاني

أيُ محبةٍ إذن وأي فادٍ وأي صداقة تفتدى. إنها ـ لا شك ـ توامق الروحين .

2- إختلاف ديانة الصديقين. فالشريف الرضي هو أبو الحسن محمد بن الحسين النقيب الموسوي الممتد نسبه إلى الرسول محمد(ص). وأبو إسحق هو ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون بن حبون من الصابئين الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في سورة البقرة والحج والمائدة بإعتبارهم من الموحدين وذوي الكتاب. ومقابل نسب الشــريف الرضي كان التزام الصابي بديانته حسبما يُذكر، فقد عرض عليه عز الدولة بختيار البويهي الوزارة إن أسلم، لكنــه بقي على ديانتــه. لم تجمع بين الصديقين إذاً عُصبـــة الدين، وبالمقابل فإنهما قدّما الدرس الطيب في الإحتـــرام المتبادل كلّ لعقيدة الآخر طالما أن الجامع هو الإيمان بالله وتوحيده. وكان وعي الصديقين لهذا الأمر عالياً وتحملا كل ما يمكن أن يكون سهماً للنيل من هذه الصداقة من هذا المدخل. بل أن هذا الأمر كان درساً في التسامح والتواد والدليل على أن السمات المشتركة التي يبنى عليها التقــارب والتواد يمكن أن تتخطى عصبة الدين على أن لا تخالفه. وتقدير الصديقين لهذا الأمر كان بارزاً. تأمل ما يقوله الصابي عارفاً ومقيّماً نسب الشريف الرضي، بل وأحقيته في الخلافة:

ألا أبلغا فرعــاً نمَتــهُ عُروقــهُ إلى كل ســامٍ للمفــاخـر بــانِ
محمّداً المحمـود من آل أحمــد أبا كل بكـر في العُلى وعوان

وقوله:

أبا حسن لي في الرجالِ فراسـةٌ تعودتُ منها أن تقولَ فتصدقـا
وقد خبرتني عنك أنّك مــاجدٌ سترقى من العليا أبعد مرتقى
فوفيتك التعظيم قبل أوانــــه وقلت أطال الله للسيد البقـا

ويرى الشريف الرضي في الفضل الذي ناسب بين الصديقين أساس الأسس وهو بذلك يرد على من قلل من قيمة تلك الصداقة، فيقول في مرثيته العصماء للصابي:

الفضـل ناسب بيننـا إن لم يكـن شرفي مـناسبه ولا ميـلادي
إلا تـكن من أُسـرتي وعشـائري فلأنت أعلقهم يـداً بـودادي
أو لا تكن عالي الأصول فقد وفى عِظـمُ الجدود بسؤدد الأجـداد

وقوله:

مَن مبلغ لي أبـا إسحاق مألـكـةً عن حنو قلبٍ سليم السـرِ والعلـن
جرى الوداد له مني وإن بعُـدت منّا العلآئــقُ مجرى الماء في الغُصن
لقـــد توامــقَ قلبانـا كأنهمـا تراضعا بـدم الأحشـاء لا اللّبــنِ

3- كانت صداقة بين رأسين في صنعة واحدة، تلك هي صناعة الأدب شعراً ونثراً. وغالبا ما يجر التقدم في الصنعة صاحبها إلى التنافس مع من هو رأس فيها. والأمثلة في هذا المجال كثيرة أوضحها ما كان بين الشاعرين جرير والفرزدق. إلاّ أننا نجد أن ما جمع بين الشريف الرضي وأبي إسحق كان كبيرا في جملة أمور، بل إن علو شأنهما في الأدب كان يصب في بحر صداقتهما ليزيدها عمقاً وإتساعاً وديمومة. وكان من قيمة الصداقة أن يسعى كل منهما لدى الآخر في صنعته كي يقتني قينةً منه. فهذا الشريف الرضي ينفذُ رُقعاً لأبي إسحق يسأله فيها إنشاء عهد له يقدمه للخليفة العباسي الطائع لله في أمر نقابة الطالبيين يوضح أغراض العهد بكلام بهي. ويتعهد الصابي أن يُنشئ عن الشريف الرضي وبلسانه. وإذ يُنفّذ الصابي ما يطلبه الرضي يقدمه متواضعا وهو يقول له في أمر ما طلب: " والله يا سيدي، لو كتبت أنت ما استكتبتنيه، وكفيت نفسك ما استكفيتنيه، لكنت أجرأ مني يداً ولساناً، وأطول شأواً وميدانا وأكثر إصابــة وإحساناً..". ويكتب الصابي مرة أخرى مجيباً الرضي بعد أن استجاب لطلب آخر في إنشاء رقعة أخرى للخليفة الطائع لله ".. ولولا تخوفي من مخالفة مراسمه وتحرجي من الوقوف عن أوامره لما أجبت إلى هذه الحال علماً مني

بأنه، أدام الله تأييده، إذا تولاها بنفسه ورماها بالعفو من هاجسه كان أفرس مني على حصانها، وأحذق بتصريف عنانها

لقد قدم لنا الشريف الرضي الدرس في تذوق صنعته بيد غيره والانشاء عنه بلسان غير لسانه وهو المتصرف باللغة ومعانيها وبلاغتها، بل إنه غـدا يتفاعل بكتابة الصابي في ما كان يطلب أن يصيب عند الخليفة وفي ذلك يقول للصابي .." :وقد كان، أدام الله تأييده، تفضل بإنشاء العهد الذي سألته إنشاءه بتقليد النقابة وتجديد الولاية، وكان عهداً ميمون النقيبة مبارك الشيمة، لأن الأمر الذي أُلتمس له إنتجز سريعاً، وإنقاد مطيعاً.." وبالمقابل فإن أبا إسحق حين يكتب مقطوعات من الشعر في السر وحفظه، فإنه يرسل ما كتب إلى الشريف الرضي يسأله أن يحكم فيها. وحين يأتيه جواب الرضي يفرح به كثيراً فيكتب له فلو استطعت أن إسعى إلى أناملــه (أي أنامل الشريف الرضي) التي سطّرت تلك البدائع، ورصفت تلك الجواهر لفعلت مسارعا حتى أودعهن عن كل حرف قبلة.. إذ كنّ للفضائل معادن وللمحاسن مكامن".

4- إنها صداقة غيــر مبنية على مصالح ذاتيـــة. فالشريف الرضي سيد قومــه، نقيب الطالبين والناظر في مصالح المساجـــد والتسيير بالحجيج في أيـــام المواسم. وأبو إسحق الصابي صاحب ديوان الإنشاء وصانع الكلام الذي ذاع صيته وأصبح نادرة زمانه في البلاغة وعلو مكانته إلى الحد الذي طُلب إلى الوزارة لولا تمنعه. وهو القائل :

ولي فِقرٌ تضحى الملوك فقيــرة	اليها لدى إحداثها حين تطـرقُ
أردُّ بهـا رأس الجمــوح فينثنـي	وأجعلها سوط الحـرون فيُعتـق

ويؤيده الشريف الرضي بذلك تماما حين يرثيه بإعتماد معنى هذين البيتين حين يقول:

فِقرٌ بها تُمسي الملــوك فقيـــرةً	أبــداً إلى مبـداً لهـــا ومعـادِ
وتكون سوطـا للحرون إذا ونى	وعنـانَ عُنق الجامح المتمادي

إذن، ما جمع بين الصديقين كان أسمى من أية مصلحة سائلة، وأرقى من ذاتيات زائلة قد تهدد كيان هذه الصداقة في حال قلتها أو عدم تحققها، بل يمكن أن تكون مدخلاً للنيل منها بالرغبة أو الغلبة.. وكان ذاك وراء أن تدوم هذه الصداقة رغم تقلب الأحوال وبخاصة بعد النكبة التي تعرض لها الصابي في عهد عضد الدولة، وما ذاك الاّ لأن بنـــاءها كان على أُسس روحية متينة وغير طمعية المقصد. تأمل مخاطبة الشريف الرضي للصابي لتقف على ما ذهبنا اليه في إخائهما :

إخاء تســاوى فيه أنساً وإلفـــةً	رضيعُ صفـاء أو رضيــع لبـــان
تمـــازج قلبـانا مـــزاج أخـوة	وكلُ طلـوبي غايـــةً أخـــوان

وغيرك ينبو عنه طرفي مجانبا | وآن كان مني الأقربَ المتداني
وربَّ قريبٌ بالعداوة شاحط | وربَّ بعيدٌ بالمودة داني

ثم أنظر كيف يرى الشريف بصديقه السلو عن آخرين لما وجده من إجحاف أو مصلحيّة، فيقول:

فلولا أبو أسحاق قلَّ تشبثي | بخلٍ وضربي عنده بجران
هو اللافتي عن ذا الزمان وأهله | بشيمة لا وانٍ ولا متواني

وهو الذي يجيب الصابي رداً على تهنئة الأخير له بعيد الفطر".. وتهنأت به دون التهاني كلها ووعدته أمام المسار بأجمعها، علماً أنّ دعاءهُ، أدام عزه، لي وتهنئته إياي يصدران عن قلب غير متقلب وود غير متشعب.... وإلى الله أرغب في إيناسي ببقائه، وصلة جناحي أبداً بإخائه... والشوق يجذبني إليه كما يجذبه إليّ، والنزاع يهفو بي نحوه كما يهفو به نحوي ولم لا وقد وضعنا قدمينا في قبال واحد، واستهمنا في طارف من الأدب تالد، ووالله إنني لأتمنى أن ينفرج له صدري إنفراجةً فيرى فيه مكانه المكين ووده المصون، اللذين لا يشاركه فيهما مشارك ولا يملك موضعه منهما مالك"

5- إنها صداقة دامت ردحها على مدى حياة الصديقين دون أن تشوبها شائبة أو تعيبها عائبة، وهي قد إمتدت طويلاً حتى وافى الصابي الأجل قبل صديقه. ولم يفسح رجحان عقلَي الصديقين المجال أمام أية محاولة للنيل من هذه الصداقة أو تعطيلها، فقد إمتدت متبادلة بروح سماحة وتبادل مجالسة ومخاطبة. فمع إنشغال الشريف الرضي تجده يتوق لمجالسة صديقه. وإن تأخر فما أجمل إعتذاره حين يقول: " إذا كانت القلوب، أطال الله بقاء سيدي الشيخ وأدام عزه وتأييده وسعادته ونعمته، تتناجى بالمِقة، والعيون تتلاحظ عن محض المودة والثقة، والباطن في الصفاء يُصدّق العالن، والخافي في الوفاء يحقق الظاهر، أُلغيت المعاذير بالعوائق التي تعوق عن المزاورة، والحواجز التي تحجز عن المواصلة، وأُعتمد على صفاء النيّات، وصحيح أديم الطويات. وكان الواحد منا في الزورة التي ينتهز فرصتها ويهتبل غرتها غير مشكور ولا محمود.. وهذه جملةٌ تنوب عن التفصيل، وقليل يكفي مؤونة التكثير، في العذر لتأخري عن حضرته، وقضاء ما يجب عليّ من حقه".

وتتناغم إجابة الصابي لرسالة صديقه بمشاعر يفيض ماء رونقها وتتعطر الأجواء بعبيق رحيقها، وتحفظ لهما البلاغة حسن الصنعة بما يحق علينا أن نشيد في كل ما نقول ونعيد. يكتب الصابي:" وصلت رقعة سيدنا الشريف النقيب، بادئة بالفضل

والتفضل، وسابقة إلى الكرم والتطول، ولولا العلة التي قد أخذت بمخنقي وجثمت على مدارج نفسي، لما أخللت بقصد حضرته والمواظبة على خدمته، فالله سبحانه يعلم أن عيني ما تكتحل بغرة هي أعز عليّ من غرته، ولقد أهدى إليّ يوم تجشمه العناء إلى داره التي أنا ساكنه فيها بمشاهدة ضياء وجهه ومناسمة شريف خلقه، تحفةً لا يكاد الزمان يسمح لي بمثلها، ولا يمكنني من اهتبال غرتها"

6- عمق هذه الصداقة وتعدد أبعادها وشموليتها إدراكا بأنها مؤسسة على قيم الأصالة وشيم الصدق والعدالة وكانت دعائمها عديدة حتى في هموم الدنيا وجـور الزمان فـلا يتحرج الصابي من شكواه لصديقه ما فعل الزمان به حين يقول :

قد كنت أخطو فصرت أمطو	وزاد ضعفي فصرت أُعطــو
خانت عهــودي يــدي ورجلــي	فليس خطــوٌ وليس خـــطُ
هاتيــك حــالي فهــل لعــذري	إذا تـأخـرت عنــك بســـط

ويظل الصابي يتوق لرؤية صديقه حتى أيامه الأخيرة، إذ يذكر الثعالبي في يتيمة الدهر أن قصيدة أبي إسحق للشريف الرضي التي مطلعها " أبا كل شيء قيل في وصفه حسن.." بينها وبين وفاة الصابي اثنا عشر يوماً، ولعلها آخر أشعاره. وبهذا فإنه يختم بلاغته بمناجاة صديقه وفيها يقول:

أقيك الردئ ليس القِلى عنك مُقعـدي	ولــكن دهانــي بالزمانــة ذا الـزمن
فإن تنأ عنك الدار فالذكر مـا نــاى	وإن بان مني الشخص فالشوق لم يبن
وإن طـــال عهـــد الإلتقــاء فـدونـه	عهــود عليهــا مــن رعــايتـنــا جُنــن

وبحقوق تلك الصداقة وإخائها، فإن أبا اسحق لا يتوانى، بعد أن أدرك قرب منيته، في أن يوصي الشريف الرضي بأهله وبنيه، وما ذاك إلاّ إدراكا لإيفاء الرضي وصيانته لحقوق الصداقة وطيب العلاقة وأن يجد الصابي في صديقه أفضل الذخر الذي يذخره لخلفه فيوصيــه :

هو الأجل المحــتوم لي جَـد جِدهُ	وكــان يــسُريني غفلـة المتـواني
هنالك فلحفظ في بنــيّ أذمتــي	وذد عنهُـم روعـات كــل زمـان
فإني أعتـــدّ المـودّة منــك لـــي	حُساما به يقضون فـي الحدثان
ذخرت لهم منك السجـايا وإنها	لأنفـــع مــــمّا يـذخر الأ بــوان

وتجد الوصية كل القبول والإمتثال من قبل الشريف الرضي فيتعهد لصديقـــه الصابي ويقول :

وإنك ما إسترعيت مني سوى فتىً ضمـــوم على رعي الأمـانة حـان
حفيــظٍ إذا ما ضيّـع المـرء قومــه وفـيهٍ إذا مـا خــوّن العضــدان

7- إنها صداقة وإن انقطعت بين الاثنين بوفاة الصابي، فإن وصلها قد دام على حياة الشريف الرضي في عهده وتعهده لها. وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه من أنها قائمة على خلوص السريرة وسمو الروح بالطباع الأميرة والحاجة للصديق الصدوق بديلاً عن عشيرة. ولا يبالي الشريف الرضي حين يرثي صديقه نثراً و يقول: ".. وإلى الله أشكو دهراً حال دونه وقطّع ما بيني وبينه، وأفردني عنه إفراد الأُم عن جنينها والشمال عن يمينها.... إن فقده أعرى ظهري على كثرة حُماتي وأنصاري، وأوحدني على أقاربي وعشائري...". وإذ نجد أن لا حاجة للشريف الرضي بأبي إسحق في صنعته أو بمركزه أو بنسبه أو بكثرة أتباعه، إلاّ أن حاجة النفس إلى الصفاء والنقاء وإقرار القدرات والامكانات وتذوق الأصالة والابتكار بل وإدراك أن الاثنين خانتهما الدنيا في أن يحتلا موقعهما المطلوب كل في سمو مكانته، كان كل ذلك وراء تقارب مبني على أسس مشتركة غير مادية. وخير ما يصف ذلك قول الشريف الرضي :" وبعد، فبيننا، يقصد هو والصابي، من مناسبة الخلائق ومشاكلة الطبائع، ثم من المودّة التي ألّفت بين شخصينا وضربت برواقها علينا، وما كنا نتهاداه من ألطاف الفضائل ونتشاراه من أعلاق المناقب ما يعذرني أن أفرط جزعي لفقده وإنكشف بالي من بعده ."

وحمداً لله إن وفاة الصابي كانت قبل وفاة صديقه ليُرزق الأدب بمرثية للشريف الرضي في صديقه يصفها الثعالبي بأنها " قصيدة فريدة أفصح بها بُعد شأوه في الشعر وعلو محله في كرم العهد، وقد تميزت بحسن ديباجتها وكثرة رونقها وجودة ألفاظها ومعانيها". وقد تّوج الشريف الرضي بهذه القصيدة الصداقة التي ربطته بأبي إسحق فكانت بحق مأثرة تُغنّى بقيمها ومعانيها وألفاظها الكثيرون، ولا شك أن الجميع يذكر إستهلالها :

أعلمتَ مَن حمـلوا على الأعــــواد؟ أرأيت كيف خبا ضياء النـادي؟
جبــلٌ هـوى لو خـرَّ في البـر إغتدى مــــن وقعـه متــتـابــع الأزيـــاد
هــذا أبو إسحـــق يغلـــق رهنـــه هــل ذائــد أو مـانــع أو فــادي
إن الدمـوع عليـك غيــــر بخيلـــةٍ والقلــب بالسلــوان غيـرُ جــواد
ياليـت أني ما إقتنيـتـك صــاحبـــاً كـم قنيـةٍ جلبت أسـىً لفـؤادي

بل ويؤكد الشريف الرضي لمن عتب عليه بمبالغة الرثاء بأن أبا إسحق" الأحق من كل أحد بقولي فيه في المرثية التي رثيته بها وهي من المراثي الأعيان والأشعارالأعلام :

ولقد كبا طيفُ الرقاد بناظري | أسفاً عليك فلا لَعا لرُقادي
ثكلتك أرضٌ لم تلد لك ثانياً | أنى ومثلك معوز الميلاد
ضاقت عليّ الأرضُ بعدك كلها | وتركتَ أضيقها عليّ بلادي

ولم تكن صداقة الشريف الرضي وأبو إسحق لتقف عند حد مرثية الأول الفاخرة، بل إن قيم الصداقة والعلاقة القائمة في القلب ظلت تحرك المشاعر فتفيض إرتجالاً. فها هو الشريف ينشد حين مر وإجتاز بقبر الصابي بمنطقة الجنينة من أرض كرخايا:

أيعلم قبٌر بالجنينة أننا | أقمنا به ننعى النَدى والمعاليا
عطِفنا فحيينا مساعيه إنها | عِظام المساعي لا العظام البواليا
نزلنا إليه عن ظهور جيادنا | نكفكف بالأيدي الدموع الجواريا
أقول لركب رائحين تعرجوا | أُريكم فيه فرعاً من المجد ذاويا
ألا أيها القبرُ الذي ضم لحده | قضيباً على هام النوائب ماضيا
هل إبن هلالٍ منذ أودى كعهدنا | هلالاً على ضوء المطالع باقيا؟

ويبقى الشريف الرضي يذكر صديقه بأحق الذكر، ويدلل على عمق الرابطة بالمشاعر النابضة. وحين يمر بعد عشر سنوات على قبر صديقه، ولا شك أنه دارس، فتثير فيه عهود الصداقة العواطف التي تفيض بداهة، وما أحلى ما ينشد:

لولا يذم الركبُ عندك موقفي | حييتُ قبرك يا أبا أسحق
كيف إشتياقك مُذ نأيت إلى أخٍ | قلق الضمير إليك بالأشواق
أمضي وتعطفني اليك نوازع | بتنفسٍ كتنفس العشاق
إن تمضِ فالمجد المُرجب خالدٌ | أو تَفنَ فالكلمُ العِظام بواقي

وقد كانت هذه العلاقة والصداقة محط إهتمام ودراسة المعنيين والنقاد الذين تناولوها من وجوه عديدة ومنها الوجهة السياسية التي إنصبت على ما يمكن أن تحققه حنكة الصابي ودرايته ومعايشته للبلاط وتوليه الوزارة نيابة عن المهلبي وتمرسه بميدان معرفة أحوال البلاد والمُلك، وبين الأصول والأحقية وعنفوان الشباب والقدرات الوقادة لدى الشاب الشريف الرضي، وأن كلا منهما كان يعرف قيمة الآخر وإمكانياته وربما وجدا أن فيما لهما يمكن أن يتكامل في حال أن آل مآل الخلافة والسلطة للشريف الرضي. وأنهما كلاهما قد وجدا في نفسيهما حقا مظلوما تأسيسا على القدرات والمؤهلات التي يملكانها بسبب من نقمة الزمن. ومع ذلك فإننا نرى أن هنالك جوانب وملتقيات عديدة بين الاثنين كانت الأسس لهذه الصداقة التي مازالت

تذكر في محافل الصداقات، ويشاد بها وبعبرها في المناظرات ويحتذى بها في قيمة التسامح وروح التصافح ، ويتطلب الأمر في إيفائها حقها أن تفرد لها دراسة خاصة لتقديمها بجميع شواهدها وتفاصيلها مع التحليل.[106]

لله درهما، فحلان من فحول الأدب، تلاقحت أصلاب قلميهما بالمودّة والصفاء، فضربا لنا أطيب المثل في معنى الصداقة والوفـــاء. تعلمنا منها دروس السماحـــة وكرم الود وذكر الفضل بما أوجب علينا، أحفاداً، أن نذكر العهد بكل ما يُعتبر من حقوق تلك الصداقة بين الشريف الصديق والصديق الشريف، بمنحها ما تستحق من الإشادة قـــدر ما تمنحنا من أحاسيس الحب والفخر والسعادة.

2- الصداقة مع الصاحب بن عباد

هو أبو القاسم اسماعيل بن عبـــاد بن عباس بن عبـــاد بن أحمـــد بن ادريس القزويني الأصفهاني المعروف بالصاحب. ولد باصطخر، وقيل بالطالقان في السادس عشر من ذي القعدة سنة 326 هـ ، وقيل سنة 324 هـ استكتبه ابن العميد، ثم استوزره الملك مؤيد الدولة بن بويه، ثم فخر الدولة البويهي. ويذكر أبو إسحق الصابي في (كتابه التاجي): إنما قيل له الصاحب لأنه صحب (أبو منصور مؤيد الدولة بن بويه) منذ الصبا وسمّـــاه (الصاحب) فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به ثم سمي به كل من ولي الوزارة بعـــده.

وكان الصاحب في بدء أمره من صغار الكتاب، يخدم أبا الفضل بن العميد عليا خاصة، فترقت به الحال، إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه، أخي عضد الدولة، بن ركن الدولة الديلمي. ومؤيد الدولة حينئذ أمير، وأحسن فى خدمته، وحصل له عنده بقدم الخدمة قدم، وأنس منه مؤيد الدولة كفاية وشهامة، وولى مؤيد الدولة بلاده بالرى وأصبهان، وتلك النواحي. خلع على أبي الفتح بن العميد وزير أبيه خلع الوزارة، وأجراه على ما كان فى أيام أبيه، إلى أن قتل، واستوزر الصاحب، واستولى على أموره، وحكمه في أمواله، ولم يزل على ذلك إلى أن مات مؤيد الدولة، وكان فخر

---

[106] ومن بدائع ما وجدنا في تتبع أصول ومثبتات هذه الصداقة أن الصابي هو من أنشأ العهد الذي أصدره الخليفة المطيع لله الى والد الشريف الرضي بتقليد الحج بعد نقابة الطالبيين، ويتضمن العهد من كلم الإشادة وعبارات الإفادة بما يجيش بالسعادة على الموصوف فوق المهمة التي أوكلت له، كما كتب نسخة عقد صلح بين الوزير أبي نصر سابور بن أزدشير، والشريفين: أبي أحمد الحسين بن موسى، وأبي الحسن محمد ابنه الرضي، بما انعقد من الصلح والصهر بين الوزير المذكور، وبين النقيب أبي أحمد الحسين وولده محمد، حين تزوج ابنه محمد بنت سابور. ونص الرسالة مما سيرد في المكاتبات.

الدولة أخو مؤيد الدولة، قد هرب من أخيه عضد الدولـــة، والتجأ بخراسان إلى السامانية، فنفذ الصاحب إليـــه وأحضره، وملكه البلاد، فأقر الصاحب على أمره، فأراد الصاحب اختباره، هل في نفسه عليه شيء، مما كان في أيام مؤيد الدولة؟ الذي أوجب هــــرب فخر الدولة، فاستعفاه من الخدمة والوزارة، فقال له فخر الدولة: لك في هذه الدولة من إرث الوزارة، كما لنا من إرث الإمارة، فسبيل كل واحد منا أن يحتفظ بحقه ولم يعفه، ولم يزل على أمره معه، إلى أن مات الصاحب، والأمور تصدر عن أمره، والملك يتدبر برأيه، وكان إذا قال فخــــر الدولة قولا، وقال الصاحب قولا، امتثل قول الصاحب، وترك قول فخر الدولة.

تصدر الصاحب للوزارة بعد ابن العميد سنة 367 هـ. وكان محدثاً ثقة، شاعراً مــبدعا، وأحد أعيان العصر البويهي. كان وزيــراً، ومن نوادر الوزراء الذين غلب عليهـــم العلم والأدب. له ديوان رسائل وديوان شعر ومؤلفات أخرى عديدة. توفي سنة 385 هـ.

وقد ربطت الصابي والصاحب بن عباد علاقة وصداقة طيبة إمتـدت طويلا ولم تشوبها خلافات الخلافة والإمارة في العصر ولم يكن في إختلاف الدين ما يقلل من شأنها أو ينال من قيمتها. ولم تقم هذه الصداقة على جانب وجداني كما غلب على صداقـــة الشريف الرضي والصابي، بل كانت علاقة أدبية ومهنية وتقدير مشترك ومتبادل لما بين الاثنين من كفاءات أدبية ومهنية. ويظهر أن تأريخ هذه العلاقة بين الاثنين قديم ويعود إلى الزيارة التي قام بها الصاحب رفقة الأمير مؤيد الدولة البويهي إلى بغداد حيث كان كاتبا له سنة 347 هـ، وقـد إستدعى الوزير المهلبي ابن عباد وجمعـــه مع ندماء مجلسه وبينهم أبـــو إسحق الصابي الذي كان رئيس ديـوان الإنشاء. وعلى هذا فقد تعارف الاثنان وجمعتهما أولا صنعة واحدة هي صنعة الكتابـة في ملك واحد هو الملك البويهي تحت خيمة الخلافـــة العباسية. ومع ترقي الصاحب إلى منزلة الوزارة وإمتلاكه إدارة الشأن بما جعلــه يخدم ويعلو في المرتبة على النظراء وبقائه في وزارته ردحا طويلا حتى وفاته، إلا أنه كان شديد الإعجاب بالصابي ويحفظ له مكانـــة خاصة لا ينالها سواه من الكتاب. وقد وصف أبو إسحق العلاقة بينه وبين الصاحب موضحا قيمتها وعمقها فهو يقول: " وما يزال بين رغبة مولانا الصلحب الجليل كافي الكفاة، أدام الله علوه وكبت عدوه، ورغبة عبده إليه سر مكنون في الصدور، ومستور تحت الضلوع، فهما يتناجيان به على بعد الدار، ويلتقيان عليه بالأفكار، فإن

ـطع من حجاب القلوب، وشـذ من ظهور الغيوب، فإن ظهـوره يكون من جهته في ـفحات الإنعام، ومن جهتي في ثمرات الكلام".[107]

ويثبت الثعالبي في يتيمة الدهر:" بلغني أن الصاحب كان يتمنى انحيازه (أي الصابي) إلى جنبته، وقدومه إلى حضرته، ويضمن له الرغائب على ذلك إما تشوقاً أو تفوقاً، وكان أبو إسحاق يحتمل ثقل الخلة، وسوء أثر العطلـة، ولا يتواضع للاتصال بجملة الصاحب بعـد كونه من نظرائه وتحليه بالرياسة في أيامه. وأخبرني ثقات منهم أبو القاسم علي بن محمد الكرخي، وكان شديد الاختصاص بالصاحب، أنه كثيراً ما كان يقول: كتاب الدنيا، وبلغاء العصر أربعة: الأستاذ إبن العميد، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو إسحاق الصابي، ولو شئت لذكرت الرابع، يعني نفسه".[108] ومن تفاخر الصاحب بنفسه ورغبته بأن يمتلك قدرات الصابي أن روي عنه قوله: " ما بقي من أوطاري إلا أن أملك العراق وأتصدر ببغداد وأستكتب أبا إسحق الصابي ويكتب عني وأغيّر عليه" . ومن رغائب هذه العلاقة أن الصاحب كاتبَ الصابي بعد خروجه من السجن ووفاة عضد الدولة طالبا منه القدوم اليه في بلاد فارس، وقد ضمّن رسالته له من الرغائب ما يشجع القدوم خاصة وأن الصابي قد خرج من سجنه منهوك القوى مسلوب الأموال والأملاك، وقد تهتك حاله بعد نكبة عضد الدولة له. ومع أن مثل دعوة الصاحب له يجب أن تحظى بقبول سريع من جانبه، خاصة وقد ضمنها تقديمه المكانة " وبذل له النفقة الواسعة، والمعونة الشاسعة عند شخوصه والارغاب والاكثار عند حضوره"[109] ، إلا أن الصابي إعتذر عن تلبية هذه الدعوة بقصيدة طويلة على ما يثبت ياقوت الحموي في معجم الأدباء منها:

نكصت على أعقابهن مطالبي	وتقاعست عن شأوهن مآربي
وتبلدت مني القريحة بعد ما	كانت نفاذا كالشهاب الثاقب
وبكيت شرخ شبيبتي فدفنتها	دفن الأعزة في العذار الشائب

ومنها:

فلو أن لي ذاك الجناح لطار بي	حتى أقبل ظهر كف الصاحب

[107] القلقشندي، صبح الأعشى

[108] الثعالبي، يتيمة الدهر

[109] ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ج 6

وأعيش في سقيا سحائبه التي ضمنت سعادة كل جد خائب
وأراجع العادات حول قبابه حتى السواد من الشباب الذاهب
وأعد من جلساء حضرته التي شحنت بكل مسائل ومجارب
فيقول: من ذا سائل عني له متثبت فيقول هذا كاتبي؟
أتــرى أروم بهمتي ما فــوق ذا أنــى، وخدمتــه أجل مــراتبي

ومنها يعتذر:

كثُرت عوائقي التى تعتاقني من غيث راحته الملث الساكب
ولدٌ لهم ولد وبطن ثالث هو رابعي وعشيرتي وأقاربي
والسن تسع بعدها خمسون قد شامت بوارق يومها المتقارب
فالجسم يضعف عن تجشم راجل والحال يقصر عن ترفه راكب
وعليَّ للسلطان طاعة مالك كانت على المملوك ضربة لازب
وتعطلي مع شهرتي كتصرفي كل سواء في الحساب الحاسب

ويظهر إعتذار الصابي لباقة فائقة مقرونة بإكبار للصاحب وتقدير منزلته ورغبته، كما أنها تقدم لنا من ناحية أخرى الآثار التي تركتها نكبة الصابي وظروف حياته التي صار يهم بها. على أننا نرى بأن هذا الاعتذار يفسر بجوانب عديدة لصالح الصابي منها:

1- أن الصابي يرى في الصاحب الكاتب الذي يماثله في الصنعة والمستوى، وهو وإن استوزر وملك، لكن نفس الصابي لم تر في الصاحب غير مستوى النظير، ولذلك ليس من السهل الخدمة تحت إمرته. ويذكر الصابي موقف الصاحب، على ما يذكر حفيده هــلال بن المحسن، قال: " وحدثني أبو إسحق جدي قال: حضر الصاحب أبو القاسم بن عباد دار الوزير المهلبي، عند وروده إلى بغداد، مع مؤيد الدولة، فحجب عنه لشغل كان فيه، وجلس طويلا، فلما تأخر الإذن، كتب إلي رقعة لطيفة فيها:

وأترك محجوبا على الباب كالخصي ويــدخل غيــري كالأيور ويخرجُ

فأقرأتها الوزير المهلبي، فأمر بإدخاله."

2- يرى الصابي أنه المتقدم على الصاحب في صنعــة الكتابة وأن يخدمــه وهو الوزير والكاتب أيضا فإن ذلك سيوضعه موضع الإمتحان المستمر، وسوف لن يكتب أبو إسحق بما تفيض به قريحة الكتابة ولا يأخذ الترسل طريقه إليها طالما يكون

هنالك من يعد النقاط والفواصل فيها. فصيت الصابي ذائع مشهور، وصنعته لها مقام الحضور، في مجالس الأدب وفيما يتناقله الخاص والعام من الناس. وقد اقترن ذلك ببعض الحوادث التي لمسها الصابي، ومن ذاك ما يذكر هلال بن المحسن، عن أبي طاهر بن الحمامي، عن الأنباري الكاتب، قال: ورد إلى الصاحب رجل من أهل الشام، فكان فيما استخبره عنه: رسائل من تُقرأ عندكم؟ فقال: رسائل بن عبد كان. قال: ومن؟ قال: رسائل الصابيء. وغمزه أحد جلسائه ليقول: رسائل الصاحب، فلم يفطن، ورآه الصاحب فقال: تغمز حماراً لا يحس" [110]

3- لقد عُرف عن الصاحب غروره وحبه لنفسه ولأدبه وشعره وكتابته، وعرف الصابي أن طلب الصاحب باستقدامه إنما لكي يشبع جانبا من غروره في امتلاك أقـــلام الآخرين وإرادة توجهاتهم في خدمته، فيضيف بذلك جاها إلى جوانب الجاه التي سعى إليها وتملكها حتى صار يلقب بكافي الكفاة. وعلى هذا فإن وجود الصابي في خدمة الصاحب الفعليـــة سيميت قدرات الصابي ويمسح وجودها. وربما أن الصاحب قد أراد ذلك حتى بغير شعور منه إنما تقوده في ذلك إرادة رغباته المكنونة فيما جبل عليه من طباع الغرور.

4- الصاحب وزير والصابي رئيس ديوان الإنشاء، وهذا يعني أن الصاحب يملي رسائله أو يكتب رسائله كما يريد بينما الصابي يكتب رسائله كما يطلب منه. وقد وقف المعنيون عند هذا الأمر في التمييز بين الصادين الصاحب والصابي، ووجدا أن للصابي ميزة في هذه الناحية من حيث القـــدرة على ترجمة أفكار وتوجهات الآخرين بأفضـــل ما يكون، ولو كانت الكلمة كلمته لكان الإبداع أكثر. وقد ظهر إمتلاك ذلك لدى الصاحب في أنـــه كان يقرر القرار ربما بناء على سجعة في الكلام، وأشهر ما يسجل في هذا الخصوص أنه قال مرة:" يا قاضيا بقم، قـــد عزلناك فقم" فقال القاضي: والله ما عزلتني إلا هـــذه السجعة. ذلك إن جمالية السجعة كانت سببا وراء أن يخسر القاضي موقعه لأن الصاحب كان يومها الوزير الآمر الناهي وقد أعجبته هذه السجعة فقالها ولم يتردد في أن ينفذها. وربما خشي أبو إسحق سجعة مثل هذه في حاله!

4- ربما أن حال الصابي، كونه عميـــد أسرته وجامع شمل أتباع ملتـــه، لا يحتمل أن يتركهم ويغادر إلى بلاد فارس ليقعون فريسة التمزق والتفرق. فالصابي لم يلتحق

---

[110] ياقوت الحموي، معجم الأدباء

ببــلاد فارس يوم دعاه عضد الدولة وكان في ريعان شبابه، فكيف وقد تقدمت به السن وصارت حاجته في الحياة هي دفع سوءاتها لا إمتلاك خزائنها.

5- وقد يكون للعلاقة مع الشريف الرضي والتي كان الصابي يرغب بنتائجها وربمـا ما توفره من جاه ومنصب وبما يرد له كرامته التي أهدرها عضد الدولة، كانت سببا في أن يؤثر الصابي المؤجَل على المُقدم.

6- ويبدو أن الصابي إكتفى بما كان يصله من الصاحب الذي كان يتفقـــده بحسب عادته في رعاية من ببغداد والحرمين من الكتاب والشعراء والزهاد، فيبعث إليهم الصلات سنويا، وكان، بحسب ما يقرر حفيد أبي إسحق، أنه يرسل خمسمائة دينار إلى أبي إسحق وألف درهم إلى حفيـــده هلال. كما أن أبا إسحق كان لايتجشم في طلب المعونـــة من الصاحب بحكم المودة التي تربطهما والتقدير الذي يحظى به لديه. وقد أثبت الصابي ذلك فيذكر ورود اثنين من الحجاج عليه مرسلين من الصاحب، يقــول: " ورد، أطال الله بقاء سيدنا، أبو العباس أحمـــد بن الحسن، وأبو محمد جعفر بن شعيب، حاجين، فعرجـــا إلي ملمين، وعاجا إلي مسلمين، فحين عرفتهما، وقبل أن أرد السلام عليهما، مددت اليد إلى ما معهما، كما مدها حسان بن ثابت إلى رسول جبلة بن الأيهم[111]، ثقة مني بصلته، وتشوقاً إلى تكرمته، واعتياداً لإحسانه، وإلفاً لموارد إنعامه، وتيقناً أن الخطرة مني على باله، مقرونة بالنصيب من ماله، وأن ذكراه لي، مشفوعة بجدواه علي، وقمت عند ذلك قائماً، وقبلت الأرض ساجداً، وكررت الدعاء والثناء مجتهداً، وسألت الله أن يطيل لـــه البقاء، كطول يده بالعطاء، ويمـد له في العمر، كامتداد ظله على الحر، وأن يحرس هذا المـدد، القليل العدد، من مشيخة الكتاب، ومنتحلي الآداب، ما كنفهم به من ذراه، وأفاءه عليهم من نداه، وأسامهم فيه من مراتعه، وأعذبه لهم من شرائعه، التي هم محلئون إلا منها، ومحرومون إلا عنها" [112]

---

[111] يذكر أبو الفج الأصفهاني في كتاب الأغاني أن معاوية بن أبي سفيان وجه رسولا الى ملك الروم فلقي جبلة بن الأيهم وكان قد تنصر بعد إسلامه ولجأ الى ملك الروم وكانت تربطه صداقة مع حسان بن ثابت، فدفع جبلة الى الرسول بألف دينار ليوصلها إليه. فلما عاد الرسول الى المدينة لقي حساناً في المسجد فقال له: " يا أبا الوليد، صديقك جبلة يقرأ عليك السلام. فقال له حسان: هات ما معك. قال: وما علمك أن معي شيئا؟ قال: ما أرسل إلي السلام قط إلا ومعه شيء. قال: فدفعت إليه المال.

[112] الثعالبي، يتيمة الدهر. ونص الرسالة الكامل يمكن قراءته ضمن مخاطبات الصابي

هكذا يكون الصاحب مصدر نعمة للصابي وما ذاك إلا لأنه كان شـديد الإعجاب به ومالت نفسه له بتوامق أدبي طيب ظلت ترعاه روح الصابي السمحة غير المتكلفة والشاكرة دائما للمعروف والمرتسمة بالخدمة ولذلك ترى الصابي يقول:" إنما خِدمَته أيام كانت سرا في ضمير الزمان، ودينا في ضمان الأيام، فكيف لو رأيته آمرا ناهيا بين وسادتيــه، ورآني خادما ماثلا بين يديه" والصابي كان يعرف مقدار نفسه ومكانتــه عند الصاحب الذي كان يتابع ما يكتبه الصابي ويبعث بطلبه للاطلاع على طريقته وليستطرف ببديع مـا تخطه يداه، وهذا على خلاف عادة الصاحب في ازدراء نتاج الآخرين على ما عرف منه من كبرياء وعجب، إذ يذكر الثعالبي أن الصاحب حين بلغت سنوه الستين اعترته آفة الكمال. ومع ذلك فقد ذكر للصابي أن الصاحب قد تحدث عنه في مجالسه بما قدمه وأعلى من شأنه. فكتب الصابي له يشكره قائلا:

" وإذا تأملت صنع الله في أن ثنى وجه النعم إلي، وعطب بها علي، وجدت أوكد دواعيــه وأقوى الأسباب فيه ما حفظ على مولانا الصاحب الجليل كافي الكفاة وروى عنه وتردد في أنديته ومحافله، من إعلاء قدري بتقريظه، ونعتي بما لا يثبت إلا بشهادته وتقليده، فإذا شكرت فإليه ينتهي شكري، وإذا فخرت فعليه يقف فخري، وما أنا ملجأ مع بُعد الدار إليه عرض بضائعي نظما ونثرا عليه، وتعرض أطمارها لأنها تعرض ووتصفح بين يديه، مع العلم بأنها ضعيفة الأثمان، خفيفة الأوزان، مضمحلة على الإمتحان، فإن رزقت قبولا منه فبحسن رأيه، وإن نفقت على غيره فيما يتضمن من طيب ثنائه، وإذا ثبت قول القائلين أن لكل مجتهد نصيب، فقد إجتهدت وما فرطت، وأعذرت وما عذرت" [113]

وكان الصابي يسعى أيضا لارسال درر بلاغته إلى الصاحب لكي يديم إطلاعه على ما تجود به الكفاءة ويضمن ديمومة إعجاب الصاحب به وربما ليبين لـــه المقدرة التي قد لا يأتي الصاحب بمثلها وإن تواضع الصابي بمخاطبته وأسلوب كتابتــه في تقديم مادتــه للصاحب وعرض بضاعته عليه. ونجده حين يرسل نتاجه إلى الصاحب يقرنـــه بالرسائل ومنها: " وليس مولاي، أيده الله في حمل هذا الجزء إلى تلك الحضرة الأدبيـــة، والنفس الأبية، والفضائل السيارة، والخصائص التي تقصر عن وصفها العبارة، إلا كمن جلب إلى هجر تمرا بل حشفا. وحقا أقول أنه كوز ماء أجاج تجهز

[113] إبن المعمر، لقاح الخواطر وجلاء البصائر. مخطوطة بجامعة كامبرج برقم 139 Q9

إلى بحر فرات عجاج، فلينعم غير مأمون، وليقدم أمامه اعتذارا أو تمهيدا، وليعلمه، ثبت الله وطأته وأدام دولته، أنني عبده في الخدمة، وتلميذه وتخريجه في الصناعة، وأن الحسنة مني وأن ظهرت فهي له محسوبة وإليه منسوبة..... ويسأله مسؤولا أن ينبه على ما لا يرضاه ولا يخفيه، ويستر على ما يأباه ولا يبديه، إن شاء الله تعالى"[114]

وتظهر هذه الرسالة قدرة الصابي في إستمالة حتى من هم في ميدان صنعته على ما عرف أن الالتقاء بين أصحاب الصنعة وخاصة في المستوى المتقـدم يكون لإبراز القدرات والمباهـــاة بالتفوق، وهذا ما لم يسع له أبو إسحق. وهكذا لم يتوان الصابي في مخاطباته مع الصاحب حتى فيما كان يشكو فيه أحوال من صنعتهم الكتابة لما صار من جهل من أصحاب النفوذ بما أصاب هذه الصنعة من النحس ما جعلها في حال غير مرضية بعدما كانت في المرتبــة العلية. وعن مشكلته في هذا الأمر ومشكلة من شاكل الصابي فيها يكتب إلى الصاحب فيقول: " أما بعد، أيد الله سيدي الصاحب، فإن نوب الدهر تتردد مذ سنون (كذا وردت) عليَّ وعلى أهل صناعتنا المنحوسة بالعراق، منيفة بنوازله، ملقية بكلاكلها، كالحـــة بوجوهها، كاشرة عن أنيابها، لتعاقب الأيــدي الوالية علينـــا، وتدرجها في الإساة إلينا، وتزايدها في الفظاظة بناء، وتجاوزها المنزلة إلى المنزلة في الإستئصال لأحوالنا، وقـــد توفر قسطي في تأثيرها بحسب ضني بعرضي وصوني نفسي، وبذلي دونها مالي، ووقايتي إياها بما ملكت يدي، حيث لم أسأل المعونة أحدا، ولا سمحت أن أستميح مسودا ولا سيـــدا، راجعا إلى شيء مما يرجع إليه الناس من موروث تالد، ومكتسب طارف...."[115]

وكتب أيضا: " قد كنت، أطال الله بقاء مولانا الصاحب الجليل كافي الكفاة، منـــذ ثماني سنين تحت كلل من كلاكل المحن، ثقل علي بَرِكُهُ وبلغ مني عَرِكُهُ، وتقلبي بين عطلة شديدة ونبوة مديـــدة، ثم رفعت عني بفضل الله ومـــا إستدار من دوائل الأقـــدار، وحوادث الليل والنهار، التي إذا أظلت اللئام قنطوا وإذا أنفرجت عنهم غمطوا، كما أنهـا إذا ساورت الكرام صبروا وإذا هادنتهم رأفوا "، إلى أن يقول: " قد صرت بتطاول الأذى وتباري المدى وركود الخطرات وفتور الثروات بمنزلة الريض المذلول، القانع من الليالي بإقلاع بوسهـــا وإنحراف نحوسها، المستكثر القليل من

---

[114] المصدر السابق

[115] ندى أبو رسلان، أبو إسحاق الصابي الكاتب والشاعر. رسالة ماجستير مقدمة الى الجامعة الأمريكية في بيروت. بيروت لبنان1987

بسعادها والزهيــد من إدخارها، فلذلك إقتصرت وتركت بيني وبين الغاية التي دعيت إلى الخدمة فيها منزلة أتفرغ بتركها لخير أكتسبه ومعاد أصلحه وولد أوديه وصديق أذاكره، وغير ذلك مما الظفر به مغنم وعصر الشيخوخة له موسم".[116]

ويلخص الصابي في رسالته هذه للصاحب مدى ما تجشم بأسباب النكبة التي نكبه بها عضد الدولة والنتائج التي خرج بها منها، وأسباب القناعة والانشغال الذي ربما يحتج به الصابي على مصائب مهنة الكتابة للخلفاء والملوك والأمراء. والرسالة كبدائع الصابي تظهر قدراته البلاغية وتفرد السبك والصياغة بما يمكن دراستها من هذه الناحية إذا ما تجاوزنا بث اللوعة والشكوى فيها. ولولا العلاقة التي تربط بين الاثنين لما بث الصابي بمثل ما جاء في الرسالة لصاحبه. وليس مخاطبة الصابي مجانبة لقيمة العلاقـــة والوصل بينهما حين يخاطبه قائلا:

اللّه حسبي فيك من كلّ ما ... تعــوّد العبــدُ على المولى

فلا تــزَل ترفُــلُ في نعمــةٍ ... أنْتَ بها مـن غيْرِك الأوْلَى

ويلاحظ أن ما حفظ لنا في العلاقة التي جمعت بين الصادين والتي ذهبت بهما وبمنزلتهما بعيداً في صناعة الكتابة والأدب بين الأقطار وتجاذبتها أطراف المجالس والأندية أنها كانت رسائل ومخاطبات في مراحلـــة أخيرة من حياة الاثنين. ولأن الصابي وقــع وظل الصاحب صاحب الوزارة والتعهد، ولعهد الصابي بأن صاحبه سيحفظ لــه الود الذي كان بينهما، نراه لا يتوانى في الكتابة لصديقه بعد أن أدرك قرب منيته، بأن يستمر في أن يتعهد أبناءه من بعده بمثل ما كان يتعهده وأن يجري الرسم المعهود لذريته. ويلاحظ في هذا أن الصابي كان يشغله أمر الحفاظ على أسرته وذريته وهذا ما لمسناه في وصيته للشريف الرضي ثم فيما كتب للصاحب على ما يذكر حفيده هلال بن المحسن وقد قرن رسالته بقصيــدة طويلة جاء في أولها:

نحــذرُ منــك النائبــات فتحــذر ... وتُذكر للخطب الجسيم فيصغر

وتكسي بك الدنيا ثيابَ جمالها ... فيرجوك معروفٌ ويخشاك منكرُ

ويقول فيها:

أسيــدنا إن المنيــة أعــذرت ... إلي بآيــات تــروع وتذعــر

[116] لقاح الخواطر، مصدر سابق

لها نـــذر قد آذنتـنـي بـهـجـمـــة	على مورد ما عنه للمرء مصدر
وإنى لأستحلي مـــرارة طعمـــه	إذا كنتَ بالتقـديم لي تتـأخـر
وحق لنفس كان منك معاشها	إذا غمضت عينا وعينك تنظـر
ومن ورث الأولاد بعـــد وفـاتــه	حضانك طابت نفسه حين يقبـر
تمـــرد منك الجود حتى تمـردت	مطالبنـا والماجـد الحر يصبـر
أأطلب منك الرفد عمرى كله	وأطلبـــه والجنب منى معفـــر؟
وليست بأولى بدعة لك في الندى	لها موقف فيه لك الحمد ينشر

وقد طلب أبو إسحق من حفيده أن ينفذ ذلك، فأنفذه، ووصل إلى الصاحب ونفذ من يحمل منه الرسم على العادة، ثم اتفق أن توفي الصاحب في أول سنة خمس وثمانـــين وثلاثمائة، فوقف، وكانت بين وفاته ووفاة الصابي شهور.

هكذا طويت العلاقة والصداقة التي جمعت بين رأسين في صنعة واحدة لكنها قدمت لنا إنموذجا طيبا في التواصل والتواد وحفظ فضل الواحد للآخر بما متن أواصر هذه العلاقة فالاعجاب والاحترام الذي كان يكنه ويعلنه الصاحب قابله الصابي بالشكر والتواضع وحسن التصرف، فصـــارا الصادين ترابطا صاحبا وصابيا. وما أجمـــل ما يثبت الثعالبي بقوله: " وكيف جرى الأمر، فهما هما وقد وقف فلك البلاغة بعدهما" وكثيرا ما قرن الأدباء والشعراء اسمَي الصاحب والصابي في أدبهم تمثلا وبيان البديع والسجع والتلاقي في الزمن وفي الصحبة، وقد قرب اللفظ وجملّه أن كنية كل منهما تبدأ بحرف الصاد. ومن جميل ما قيل:

تعانقَتْ أغْصانُ بانٍ بالحِمَى	فأشبهتْ أعْطافَ أحْبابِي
ومُذ صَبا قلبي صَبا صاحِبِي	آهٍ على الصَّاحِبِ والصَّابِي

وقال أحدهم متندرا على أحد الكتاب:

أيها العالـم الـذي زيّـــن العصـ	ـر بمـــا حـــازه مـن الآداب
والذي أعجز الأفاضل كـالجا	حظ بمـا أتى بـــه والصّابي
أنت تدري بـــأن سمعــك، والـلـ	ـه المعافي، في غاية الإضطرابِ

ومن قصيدة لأبي المعالي الطّالُوي يرد فيها التشبيه:

فكيف ترى عينٌ يتيمةَ دهْرِهـا ... وأمٌّ سجايَـاهُ وَلُـودُ الغـرائبِ
فاللّهِ مولى قد شهدْنا بمـا وَشى ... مُكاتبةَ الصَّادَيْن صابٍ وصاحبِ
وحَكّم في نْظمِ القريضِ خواطراً ... أبتْ غيرَ نظمِ النَّيراتِ الثَّواقـبِ

3- **علاقته بالوزير المهلبي**، الذي وإن كان أبو إسحق صنيعته وأنه ولي النعمة والرياسة عليه، إلا أن المهلبي لم يكن يرى الدنيا إلا بأبي إسحق، ويحن إلى براعته، ويقدم قدمه، ويصطنعه لنفسه وكان من خاصة مجلسه وأنسه وأمينه حتى في استخلافه للوزارة حينما كان يسافر أو يذهب في فتوحات أو في دحض فتنة. وكان الصابي خادمه المطيع الأمين ونديم مجلسه. وقد مدح الصابي المهلبي في الكثير من شعره حسبما سنورده في باب الصابي الشاعر، ونذكر من ذلك ما يوجز وصف الصابي للمهلبي بهذه الأبيات الذي ذاع صيتها وصارت، وبخاصة التشبيه البليغ والحسن والمستحدث في البيت الثالث، مثلاً يضرب، حيث يقول:

قـل للوزيـرِ مُحَمَّدٍ يـا ذا الـذي ... قـد أعجزتْ كلَّ الورى أوصافُـهُ
لك في المجالسِ منطقٌ يَشفي الجوى ... ويسـوغُ في أُذُنِ الأديـب سلافُـهُ
فكأن لفظـك لـؤلؤ متنخَّـل ... وكـأنمـا آذانـنـا أصـدافـه

ومن مؤشرات هذه العلاقة التي تبرز قيمة الصابي لدى المهلبي وتظهره بأنه أكثر من كاتبه ورئيس ديوان الإنشاء الذي أقامه، زيارة المهلبي بنفسه لمجلس التعزية الذي أقامه الصابي عند وفاة والده.

ويذكر حفيد الصابي هلال بن المحسن في أخبار الوزراء، قال:"حدثني أبو إسحاق جدي، قال: لما توفي أبو الحسين هلال أبي، جاءني أبو محمد المهلبي معزياً به، فحين عرفت خبره في تقديمه مشرعة داري الشاطية بالزاهر، بادرت لتلقيه، واستعفيته من الصعود، فامتنع من الإجابة إلى ذلك، وصعد، وجلس ساعة يخاطبني فيها بكل ما يقوي النفس، ويشرح الصدر، ويصف والدي، ويقرظـه لي بقوله: ما مات من كنت له خلفاً، ولا فقد من كنت منه عوضاً، ولقد قررت عين أبيك بك في حياته، وسكنت مضاجعه

إلى مكانك بعد وفاتـــه، فقبلت يده ورجله، وأكثرت من الثناء عليه، والدعاء له، وحضرتني في الحال ثلاثة أبيات، أنشدته إياها، وهي:

لو وثقنـــا بأن عمـــرك يمـتـ	ـدُ بأعمارنا قتلنـا النفوسا
قد تركتَ الموت الزؤام مغيظاً	يتلظى لجُرحهِ، كيف يوسا
فغدتْ عنـــدنا المصيبـــة نعمى	بأياديك وهي من قبـلُ بوسا

ثم نهض، وأقسم علينا ألا يتبعه أحد منا، وأنفذ إلي في بقية ذلك اليوم خمسة آلاف درهم، فقال: استعن بهذا على أمرك. ولم يبق أحد من أهل الدولة إلا جاءني بعده معزياً، ثم اجتاز بي من الغد في طيارة ووقف واستدعاني، وأمرني بالنزول معه، فبعد جهد ما تركني بقية اليوم."[117]

ويصف الصابي المهلبي بمجلسه بالقول: " كان المهلبي يناصف العشرة أوقات خلواته ويبسطنا المزح إلى أبعد غاية، فإذا جلس للعمل كان آمرا وقورا ومهيبا ومحذورا، آخذا في الجد الذي لا يتخونه نقص ولا يتداخله ضعف" ومع ذلك فلم يمنع الصابي من مشاكسة المهلبي على ما يذكر بالقول:

وأجلسني معز الدولة لأكتب بين يديه وأبو محمدٍ المهلبي قائم فحجبني عن الشمس، فقال: كيف ترى هذا الظل؟ فقلت: ثخين. فقال: واعجباً! أحسن وتسئ. وضحك!"[118]

وقد لازم أبو إسحق المهلبي مذ يوم استكتبه في وزارتـــه وظل معه متوليا ديوان الإنشاء والرسائل والخلافة على الوزارة حتى مات المهلبي بعمان، وكان قد مضى لفتحها والصابي مستخلف على ديوان الوزارة ، فاعتقل وسجن في جملة عمال المهلبي. وهـــذا يظهر أن من تولى الإدارة والوزارة بعد المهلبي قد نقم على أبي إسحق تلك المكانة والصحبـــة، كون الصابي من خاصة المهلبي الذين يجب أن يعاقبوا بعقابه.

ويظهر أبو إسحق تعلقه بالمهلبي بقصيدة تكشف ما بينهما جاء منها:

وتعلقـت بالرئيس الذي صـر	ت رئيســاً مذ عدّني في العبيدِ
والوزير الذي غـدا وزرا ء الـ	ـملك ركنـا لعزّه المـــوطـــود
أريحـيٌّ مهلبـــي سعيد الـــ	ـجد صافي الجدوى كريم الجدود
وإذا استنطق الأنـــامل جادت	بـبيـــان كالجـوهر المنضـــود

---

[117] هلال الصابي، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء

[118] المصدر السابق

في سطور كأنما نشرت يمـ ـناه منها عصائباً من برود
فقر لم يزل فقيراً إليها كل مبتدي بلاغة ومعيد
يغتدي البارع المفيد لديها لاحقاً بالمقصر المستفيد
ببيان شافٍ ولفظٍ مصيبٍ واختصارٍ كافٍ ومعنى سديد

وكان المهلبي يباديله الشعر أحيانا، ومن ذاك ما كتب له:

برِّد مصيفك وافرشه بميثرة فإنني لمقام الخل أرتحلُ
الذاكري وإن أضحى ويعجبني أن تستريح وأن تكتنكَ الظلل

4- علاقته بأبي القاسم عبد العزيز بن يوسف

يترجم الثعالبي في يتيمة الدهر لابن يوسف بالقول: "...أحد صدور الشرق، وفرسان المنطق، وأفراد الكرم الكبار، الحسان الآثار والأخبار، وأعيان الممتحين المقدمين في الآداب والكتابة، والبراعة والكفاية، وجميع أدوات الرياسة. وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدوداً في وزرائه، وخواص ندمائه، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده" وقد عده الصاحب بن عباد واحدا من بلغاء العصر وعمداء الكتابة الأربعة، كما مر ذكره.

وقد جمعت بين أبي إسحق وبين ابن يوسف صناعة الكتابة والأدب والشعر، والعراقية الضميمة التي حافظ عليها الصابي بأخلاق عالية فحفظ بها سلامة الحضور عند النظراء حتى في الصنعة الواحدة التي غالبا ما يغلب التنافس فيها حفظ الود، ويقود مسك زمام التقدم فيها إلى البغض والكره. ولكننا لا نجد هذا كثيرا في حالة أبي إسحق سوى من الملوك والأمراء، وما ذاك إلا لأنهم ينقمون على الكاتب كتابته الموجهة إليهم من غيرهم رغم أنهم كتبة لأولي الأمر، و يظمرون ذلك ويضعون له حد العقوبة في حال ملكوا هم زمام الأمر بدلا من خصومهم. ولذا نجد أن عضد الدولة حينما تنكر لأبي إسحق وأراد أن يرميه تحت أرجل الفيلة لتدوسه، كما سيمر بنا لاحقا في باب نكبة أبي إسحق، فإن من بين الذين تقدموا ليقبلوا الأرض بين قدمي عضد الدولة شفاعة لأبي إسحق كان أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف. وقد حقق الغرض بأن كسب له الشفاعة والاكتفاء بالسجن. لم يكن مثل هذا الأمر ليحدث، مقابل جبروت عضد الدولة وسلطته، لولا أن هنالك علاقة طيبة ترقى

بأواصرها إلى الصداقة بينه وبين أبي إسحق، فلولا ود محفوظ له في نفسه ومواقف تذكر له من أمسه وتقدير كبير عاشه يوم كان أبو إسحق رئيس ديوان الإنشاء ومتولي الوزارة للمهلبي لما أقدم على ما أقدم عليه. فهو ينظر للصابي في شعره ورسائله نظرة المتقدم المتمكن البليغ. وفي هذا يشير ابن يوسف مخاطبا الصابي:

سواك أبا إسحاق إنك والندى لأوفاهم عهدا وأصفاهم عقدا

وأبعدهم في كل مكرمة مدى وأنظمهم في جيد مأثرة عقدا

تلاقت بنا الآداب في خير منسب عليه تساقينا على ظمأ بردا

ولم يكتف ابن يوسف بذلك، بل أنه ظل يواصل الصابي في محبسه ويتفقده رغم أنه الموكل بعملية الحبس، كما ظل يراعي أسرته وإن على بعد، وكان يتحين الفرص لأن يعرض حال الصابي على عضد الدولة عساه يرى في محنته مخرجا. وقد حفظت كتب من تناول هذا الأمر وكذلك من تصدى لبلاغة البليغين بنقل فصول من المخاطبات والأشعار بين الاثنين. ونحن إذ ننقل هنا بعضها إنما للتدليل على هذا التواد والعلاقة، على أن بعضها سيأتي ضمن بابي الشعر والرسائل، وهي في الوقت ذاته من عيون البلاغة وحسن الكتابة إذ إن كل واحد أراد أن يخاطب الآخر بأجود ما ملك كونه من نفس أرباب صناعته.

يقول أبو إسحق واصفاً قيمة ابن يوسف لديه:

كفاني علاء حين أفخر أنني أضاف إلى عبد العزيز وأنسبُ

حنته عليَّ الحانيات فصرتُ في كفالته كالابن وهو له أبُ

فها أنا كالأولاد والفرع أشمط وها هو كالآباء والفرع غيهب

وله في استماحته:

أبو القاسم العزيز بن يوسف عليه من العلياء عينٌ تراقبه

روى ورعى لما روى قول قائل "وشبع الفتى لؤمٌ إذا جاع صاحبه"

ومن المخاطبات يكتب الصابي إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف: " أطال الله بقاء مولاي الأستاذ، وأسعده بفيروزه الوارد عليه، وأعاده ألف عام إليه، وجعله فيه وفي أيامه كلها معافى سالماً، فائزاً غانماً، مسروراً محبوراً، محروساً موفوراً، مختوماً له ببلوغ الآمال، مطروفاً عليه عين الكمال، محظور الافنية عن النوائب،

ـصي الشرائع عن الشوائب، مبلغاً غاية ما تسمو همته العالية المشتطة، وأمانيه المتفسحة المنبسطة بقدرته.."

يمكن الوقوف على رأي ابن يوسف بأبي إسحق الصابي من نسخ الكتب التي أرسلها إليه جوابا. فمن كتاب لــه إلى أبي إسحاق الصابي يقول: " علمت كيف تنتظــم فرق البلاغة، وتلتقــي طرق الخطابة، وتتــراءى أشخاص البيان، وتتمايــل أعطاف الحسن والإحسان. وقرأت لفظاً جليا، حوى معنى خفيا، وكلاما قريبا، رمى غرضا بعيداً فصولاً متباينة، كساها الائتلاف صور المشاكلة، ومنحها الامتزاج صيغة المضارعة، منحــة الموافقة فصارت لدلالة الأول منها على الثاني، وتعلق العجز بالهادي، فيهــا ولد أرحام مبرورة، وذوات قربى موصولة، تتعاطف عيونها، وتتناصف أبكارها وعونها"[119]

ومن كتاب آخر من أبي يوسف لأبي إسحق: وصل كتاب سيدي بكلام شرف في نفسه، وكرم في جنسه، فهو جوهر الفضل والألفاظ أعراض، وعنصر الأدب والمعاني أغراض. وفهمته فهم من قعدت به الاستطالة عن موقف الشكر فاستسلم، واكتنفه العجز فسلم وسلم، وأعيته العبارة عن موجب البر فلاذ بأكناف العجز، واعترف بالقصور عن مفترض الحق.

كتب ابن يوسف إلى الصابي :" وصل كتاب مولاي بما قرب إلى جناه، وبعد على سواه من محاسن لفظه ونظمــه، ومباره التي ما زال يؤثرني فيهـــا بالرغائب، ويصفيني منها بالعقائل. فوقفت منه بين اعتبار واقتباس، واعتذار اغتباط. واستبصار في موضع الفضيلة. وشكر لماجمع الله لي في وده من المنح الجزيلة، ووجدت خطابــه مفتتحاً بشكوى الأيام في انحرافها ومكاره أحداثها، فاستوحشت منها لاستيحاشه، واستعديت عليها لاستعدائــه، وشايعت المهجنين لآثارها، والزارين على أحكامها، لإعراضها دون آماله، وقدحها في أحواله. ولم يستبق الجمال لنفسه والفضل لأهله دهر أناخ على مولاي بصرفه، واختزله دون واجب حقه، وقد أجبت عن القصيدة وإن كنت حملت فيها خاطراً قدمته السفر، وكده الحل والرحل، وعلى مولاي المعول في ضم نشره، وتسديد مختله، وحفظ غيبي فيه[120] :

وقيت أبــا إسحاق من حافظٍ عهداً   وراعٍ لمــن يــمنى بفـــرقتــه وداً

---

[119] الثعالبي، يتيمة الدهر

[120] المصدر السابق

ومنفــــرد بالمكـرمـــات تـألقــت   عليـــه المعالي فاستقـل بها مجـدا
بلــوت أخــلاّء الزمـــان وكـلّهـم   ســواءٌ فلا ذمًّــا منحت ولا حمـدا
ومن يبغ صفو الودّ من كل صاحب   يكــن صبحــه ليلاً ومسعاته كـدّا
سواك أبــا إسحاق إنــك والـنـدى   لأوفاهم عهــدا وأصفاهــم عقـدا
وأبعــدهم في كل مـكـرمة مــدى   وأنظمهـــم في جيـــد مأثرة عقـدا
تلاقت بنـــا الآداب في خيـر منسب   عليـــه تساقينــــا على ظمإ بــردا
وألفــن أرواح الصنــاعـــة بيننــــا   فنـــحن معــاً والدار نـازحــة جدا
ضلالـــة لدهــر أنت من حسنــاتـــه   ولما تكن في نيــل إحسانـه الفـردا
لعاً إنــــه الدهــــر العثــــور وإنـــه   لسيّان من أجدى عليه ومن أكـدى
يميــل على ذي الفضل للجهل ضلّة   يجرّعـــــه سماً ويبـــدي لـه شـهـدا
على أنـــه سلمٌ لمـــن حــلّ بالحمـى   حمى الملك المدعـو للدولة العضـدا

5- علاقته بقاضي القضاة أبي محمد بن معروف[121]

لا تورد المصادر تفاصيل في العلاقة التي تربط بين ابن معروف والصابي، إلا أن فلسفة ابن معروف كونه شيخ المعتزلة يمكن أن تلتقي وبعض الجوانب من فلسفة عقيدة أبي إسحق. ومن هنا يمكن أن يكون بينهما تقارب أكثر يضاف إلى طبيعة الشخصية الفذة لقاضي القضاة وحرص الصابي على تقييم مثل هذه الشخصية. وعند البحث عن انسحاب القاضي ابن معروف للصابي وجدنا أن الصابي كان قد أنشأ كتاب العهد الذي أصدره الخليفة الطائع لله للقاضي ابن معروف، وقـــد أشاد به أيّما إشادة وكذلك بأبيـــه عبيد الله بن أحمد، وقد اشتمل العهد على التوصيات الجليلة والاعتبار بالفضيلة وصيغ بأجزل الألفاظ وأجمل المعاني حتى ليجد فيه القارئ قطعة أدبية ثمينة متضمنة للعهد المكتوب المتفوق بقيمة الصياغة. ولا شك أنه صار مدار حفظ وتناول في

[121] قاضي القضاة، شيخ المعتزلة أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن معروف البغدادي. هو أبو محمد بن عبد الله بن أحمد بن معروف، شجرة عودها أدب، وأغصانها علم، وثمرها عقل، وعروقها شرف، تستقيها سماء الحرية، وتغذيها أرض المروءة، وقد ورد ذكره في فضل منادمة المهلبي وغيره من الوزراء، وجمعه بين حد العلم وهزل الظرف، وخشونة الحكم، ولين قشرة العشرة.

مجالس القضاء والأدب. وبمثله يمكن أن تكون البداية الطيبة لعلاقة الصابي بابن معروف على ما يتوقع أن تكون هذه العلاقـــة موصولة مع والده قاضي القضاة أيضا حيث ورثها عنه. يُنشئ أبو إسحق بالقول[122]: " هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين إلى محمد بن قاضي القضاة عبيد الله بن أحمد بن معروف، حين عرفت الفضيلة فيه، وتقيل مذاهب أبيــه، ونشأ من حضنه في المنشأ الأمين، وتبوأ من سببه ونسبه المتبوأ المصون، ووجده أمير المؤمنين مستحقا لأن يوسم بالصنيعة، والمنزلة الرفيعة، على الحداثة من سنه، والغضاضة من عـوده، ساميا بذلك إلى مراتب أعيان الرجال، التي لا تدرك إلا مع الكمال والإكتهال، لما آنس من رشده ونجابته، واستوضح من عقله ولبابته، واسترجح من وقاره وحلمه، واستغرر من درايتـــه وعلمه،..... ومن دلائل هذه العلاقة أن ابن معروف كان قد توسط أبي إسحق بعد وفاة المهلبي وطلب عز الدولة ووزيره ابن بقيه له على أثر خدمته لعضد الدولة وهو بفارس وقبل استيلائه على بغداد. ولما لم يلتحق أبو إسحق بعضد الدولة وآثر البقاء في بغداد خافه أن يفتك به عز الدولة وابن بقيـــة على الرغم من العهد الذي أخذه له عضد الدولة من عـــز الدولة، فإضطر للاستتار[123]، وأقام على ذلك مدة، ثم توسط القاضي أبو محمد بن معروف أمره معهما، وأخذ له العهد عليهما، والأمان منهما، واستوثق بغاية ما يستوثق به من مثلهما، وظهر، فتركاه مُديدة، ثم قبضا عليه. ثم لما حطت النكبـة بأبي إسحق الصابي على يد عضد الدولة وطلب تصفية أمواله، فقد أوكلت مهمة تصفية هــذه الأموال والممتلكات بالقاضي بن معروف. وحيث أن هنـــالك علاقة طيبـــة تجمع بين الاثنين، وبما أن قاضي القضاة يجب أن يقوم بعملـــه بحسب ما أوكل إليـــه على الرغم مما يعرفه في نفسه من اجحاف في القرار وأن أبا إسحق لا يستحق مثل هذا الحال وسوء المآل، ولأنه لا يقدر على مخالفة، فقد أظهر رأفة في تصفية أموال الصابي وحنانا قد لمسه الصابي وقدر له ذلك في ما أُجبر عليـه. ويمكن الوقوف على ذلك من القصيدة التي كتبها أبو إسحق بهذا الخصوص فخلدت أثر قيمة العهود والصداقة في باب على الرغم من ضرورات الالتزام بقرارات أولي الأمر، جاء فيها:

---

[122] شكيب أرسلان، المختار من رسائل أبراهيم بن هلال الصابي. نسخة العهد طويلة ، ويمكن الوقوف عليها في باب الرسائل

[123] يبدو لنا أنه إستتر في مناطق البطائح حيث الأهوار وحيث ملتقى من الصابئة المندائيين كما أشرنا فهو يورد في إحدى القصائد التي كتبها قوله: وعوضني من ذلك الظل والجني على الرغم من أنفي بسكنى البطائح

للــه در أبــي محمــد الــذي	ضمنــتْ إساءتــه بنا إحسانا
طويتْ جوانحــه على خيريّــة	مكتومــةٍ تبـدو لنـا أحيـانا
حــرٌ تكلفَ غيــر ما في طبعه	من قسوةٍ تكسو العزيز هوانا
عكسَ النفاقَ لنا فأخفى باطناً	حُسنــاً وأظهر ضـدّه إعـلانا
ولــه خِلالَ العســفِ رفقٌ ربمـا	يغشى الضعيف الرازح الحيرانا
مستخرجٌ للمـال مضطر إلى اسـ	ـتعمال مـا يرضي بـه السلطانا
متلطـفٌ في فَقــرنا ولــو أنــه	وجـد السبيلَ إلى الغنى أغنـانا
يتطــرق الأستـارُ لا عــن نيــةٍ	ولو استطاع لها الصيانـة صانا
متوعرُ الجنبــات في استخراجه	وإذا تعـطـف للفتــوة لانــا
فتــراهُ في ديوانــه مستأسـداً	ليثـاً وفي خلواتــه إنســانـاً
رجلٌ يــؤدّبنا ونحن مشــايـخٌ	مثــل المعلم يضرب الصبيــانا
عُدنا وقد شبنا إلى حـال الصّبا	في مكتب يستشهـد الولـدانا
نهــواهُ علماً أنــــه خير لنــا	من غيــره أن قلّـــد الديوانا
عَجبـــاً لــــه إذ هـــذه آثاره	فينــا وهذا شُكرنا وثنــانا
فالله يحفظــهُ علينــا راضيـاً	ويعيــذنا من بأســه غضبـانا

ولله در أبا إسحق في الصورة التي يقدمها لنا في هذه القصيدة، فهــو وإن كان في أبأس الأحوال، إلا أنه لم يغفل عما كان يراعيـــه فيه من أوكلت إليه مهمــة تصفية أمواله، واضطرار القاضي التكلف بما هو ليس من طبعه. وتظهر القصيدة معرفة الصابي بالقاضي فهو في ديوانه كالأسد وفي خلوته الإنسان، وهو المعلم غزير العلم الذي يعلّم حتى المشايخ. وللصابي شعر كثير فيه ومكاتبات صادرة عنه وأخرى كتبها صادرة عن غيـــره في ابن معروف. ومن أشعاره مطلع قصيدة ينقله الثعالبي في يتيمة الدهر يقول فيه:

أقسمــت بالله ما يُرجى لمـــعروفٍ   في الحادثات سوى القاضي ابن معروفِ

كما تذكر المراجع أن قاضي القضاة قد زار أبا إسحق في سجنه وأمر بالرأفة بحاله، وكتب أبو إسحق قصيدة بخصوص هذه الزيارة سنوردها في باب آخر، منها:

دخلتَ حاكمَ حُكام الزَّمان إلى   صَنيعةٍ لكَ رهْنِ الحبس ممتَحَنِ

6- علاقته بالقاضي أبو بكر محمد بن عبد الرحمن

وهو المعروف بابن قريعة البغدادي، كان قاضي السندية وغيرها من أعمال بغداد، ولاه أبو السائب عتبة بن عبيد الله القاضي قضاء السندية وغيرها من أعمال الفرات، وكان كثير النوادر، حسن الخاطر، عجيب الكلام، يسرع بالجواب المسجوع المطبوع، من غير تعمل ولا تعمق فيه، وكان عجيبا في سرعة البديهة بالجواب عن جميع ما يُسأل عنه في أفصح لفظ وأملح سجع، وكان مختصا بحضرة الوزير أبي محمد المهلبي، وله مسائل وأجوبة مدونة في كتاب مشهور بأيدي الناس، وكان رؤوساء ذلك العصر وفضلاؤه يداعبونه ويكتبون إليه المسائل الغريبة المضحكة، فيكتب الجواب من غير توقف ولا تلبث مطابقا لما سألوه، وكان المهلبي يغري به جماعة يضعون له من الأسئلة الهزلية على معان شتى من النـــوادر الطنزية ليجيب عنها بتلك الأجوبة.[124] ولأنه من جلاس المهلبي فقد جمعته مع أبي إسحق لقاءات عامة وخاصة الّفت بينهما ضمن المجالس وقاربت بين شخصيهما في مواقف. ونحن نورد ذكر هذه العلاقة إنما بيانا لبعض الطرف والموالح التي سادتها روح المداعبـــة بين الاثنين ضمن مجالس لقائهما. ومن ذاك: كان القاضي أبو بكر بن محمد بن عبد الرحمن بن قريعة من أهل الأدب والفضل والعلم، وكان حلو المداعبة وله نوادر مدونة. وكان في دار المهلبي وقد نزع

---

[124] ومما يستطرف بأجوبته الواقعة الآتية: عهد الوزير أبو محمد المهلبي إلى القاضي محمد بن عبد الرحمن أبو بكر المعروف بابن قريعة، المتوفى سنة 367، أن يشرف على البناء في داره، وأمر بأن لا يُطلق شيء من النفقة إلا بتوقيع القاضي، فحضر رجل من العامة فوقف بين يدي القاضي يوماً ودعا له وادعى أن له ثمن ثلاثين بيضة أخذها منه الوكيل لترويق السقوف و لم يعطه ثمنها. فقال له: بيّن عافاك الله دعواك، وأفصح عن نجواك، فمن البيض نعاميٌ وبطّي، وهندي ونبطي، وحمامي وعصافيري، حتى أن السمك بيض والدود يبيض، فمن أي أجناسه لك؟ فقال الرجل: أنا لا أبيع بيض النعام لترويق السقوف! لي ثمن ثلاثين بيضة من بيض الدجاج النبطي. فقال: الآن حصحص الحق. ما كُنيتك؟ فقال: أنا عمر أبو حفص، فقال لكاتب البناء: اكتب بورك فيك إلى الوكيل محمد بن عاصم: حضرنا تولاك الله أبو حفص عمر البيضي، فذكر أنه له ثمن ثلاثين بيضة دجاجياً، لا بطياً ولا هندياً، أخذت على شرط الإنصاف منه، ثم أخذ ثمنُها عنه، فارجع أكرمك الله إلى موجب كتابك، وما أثبته باسم عمر هذا حسابُك، فإن كان صادقاً، فله ما للصادقين من البر والإكرام، وإعطاء الثمن على الوفاء والتمام، وإن كان كاذباً فعليه ما على الكاذبين من اللعن والزجر، وقل له موبخاً: باعدك الله من جرمه، ما أقل وقارك لشيبك وحَسَبك، وصل على نبيك. إدفع التوقيعَ إليه. فلما أخذه الرجل وضعه في جيبه، وقال: ثمن البيض على أربعة دوانيق، وأنا والله لا أبيع هذه الرقعة بدرهمين، ومضى. " يذكر أن قيمة الدانق تساوي سدس 6/1 الدرهم"

القاضي دنيته[125] وتركها إلى جنبه. فجاء أبو إسحاق الصابي وجلس إلى جانبه وأخذ المروحة ليتروح وضرب الدنية بالمروحة دفعات كأنه ينفضها من التراب، والقاضي في الصلاة، فخفف ثم قال له: يا أبا إسحاق أما إنها لو كانت في مقر عزها لعز عليك ما هان من أمرها. ثم عاد إلى صلاته.

وقال أبو إسحاق الصابي: كنا ليلةً بحضرة الوزير أبي محمد المهلبي نتذاكر والقاضي أبو بكر بن قريعة حاضر، فأنشدت قطعةً من أراجيز المعاني أو غيرها، فاستحسنها المهلبي ومن حضر، وأعجبت القاضي، فقال: يا أبا إسحاق من قائل هذه؟ فقلت له عبثاً به: أبــو العباس درستويه، فقال: أبو العباس صاحب أبي سهل درستويه؟ قلت: نعم، قال: وهو بهذه المنزلـــة من الأدب والعلم؟ فقلت: وأكثر. وكان هـــذا الرجل طغامًا(أحمق)، قال أبو إسحاق، فقال القاضي: ما علمنا أن أبـــا العباس بهذه المنزلة من العلم، فيجب أن نقصده ونأخذ عنه فوائده، ونستدعي ديوانه، ونكتب عنه. فقلت قصر القاضي حيث لم يفعل هذا إلى الآن. قال وانقطع المجلس وبكّر القاضي وقصد دار درستويه، واستأذن عليه، وبـــدأه بالسلام ومعرفة خبره والاعتذار إليه من تقصيره في حقه، وذاك يجيبه بما يقتضيه لفظه، ثم قال له القاضي: كنا البارحة بحضرة الوزير، أطال الله بقاءه، نسمر، فأنشد صديق للشيخ أرجوزةً من أراجيزك استحسنها الوزير أعزه الله وجميع من حضر، فقلت ما يجب على مثلي من أصدقاء الشيخ وأودائه من يستتبعها بالوصف لها والطرب عليهـــا، وموفيها الحق من استحسانها بذلك المجلس، وحضرت الآن لآخذ هذه الأرجـــوزة من فيك، وأضيف إليها من المحاسن ما تقــر عين مواليك، واسألك إحضار ديوانك لأطالعـــه وأستزيد منه. فشخص درستويه لا يعلم ما يسمع، ولا يدري بماذا يجيب، وكان له ابنان يزيدان عليه في التخلف، فاستدعى الأصغر منهما وكان يكنى أبا نصر، وقال له: اسمع قول القاضي وانظر مـــا حاجته، فسأل الصبي القاضي عن حاجته، واستشعر القاضي السخرية في القصة، وأعـــاد ذكر الأرجوزة وما جرى، واختصر اللفظ وقلل العبارة، فلم يعلم الآخر مراده فأحضر أخاه الأكبر، وقال: القاضي يعيد على أخي ويذكر حاجته. فاختصر القاضي اللفظ جميعه، وذكر الأرجوزة، فقطع عليه الكلام وقال: حسبك، قد عرفت ما أراد القاضي، والتفت إلى أبيه فقال له بالفارسية: "ولو يكلاه جورد"، وتفسيره يطلب خرقة يعملها قلنسوةً، فقال الشيخ: وكرامةً وعزازة. ثم استدعى خازنه وتقدم إليه بأن يحمل

---

[125] لم أقف على وصف دقيق للدنية وقد تكون شكلا من أشكال العمامة التي تلبس على الرأس وربما يختص بها القضاة.

ما عنده من الخرق إلى بين يدي القاضي ليختار ما يريده. وكان درستويه هذا حسن التجمل ظاهر المروءة. فحمل الخازن رزمتين كبيرتين فيهمـــا خرق من أصنـــاف الديباج والسقلاطون والحلل. ففتح القاضي واختار منها عشرين خرقة تساوي عشرين ديناراً، ووضعها في كمه وقال: الله يطيل عمر الشيخ، فإنه وولده بقية الفضل في بلدنا. ونهض ودرستويه يشكره.

قال أبو إسحاق: وراح القاضي إلى دار المهلبي على رسمه واجتمعنا، فقـــال: يا عيّار، عملت علي مكيدةً لم تضرني، وأعاد الحديث على سرحـــه، وأخرج الخرق من كمه. فضحك المهلبي حتى فحص برجليه الأرض وضحك الحاضرون، ورد الخرق إلى كمه.

ومما يشير إلى تلازم الصابي في مجلس المهلبي وقرب الجمع في تواصل دائم بضمنه صفوة الجلاس وعلية القوم ما كان يجمعه أيضا مع القاضي ابن قريعة، ومثل هذا الجمع يكون للعمل بحسب إختصاص كل منهما وبالاشتراك في مناقشة أمور الدولة من خلال مجلس الوزارة الذي يمكن الإشارة إلى أنه يضم الوزير وكاتب الإنشاء والقاضي والقادة، كما يكون في لقاءات الأنس والترفيه والرحلات وغير ذلك من ضروب الحياة الإجتماعية التي يمكن أن يختص بها الخاصة في المجلس. ومن خاصة مجلس المهلبي الصابي والقاضي ابن قريعة، ولذلك نرى أن حوادثا عديدة قد سجلت ودونت لبعض الوقائع فيها ومنها هذه الواقعة التي تشير إلى دلالات إيمانية أساسية في حياة الصابي وهو على ديانته والتزامه بها وبين متطلبات الحضور ضمن أوقات صلاة من يعمل معهم وبمعيتهم من المسلمين. نقرأ ذلك فيما وثق لأبي إسحاق الصابئ حيث يقول: "كنت يوماً جالساً في دار المهلبي والقاضي أبو بكر بن قريعة على قرب مني يصلي. فلما فرغ من صلاته نهض وبسط يديه يدعو، ورفعهما حتى كشف إبطيه، ثم سجد سجدةً طويلةً وهو يشد بجبهته الأرض ويمحي وأنا أتأمله، فلما فرغ من صلاته ودعائه قال لي: لم كنت تحد النظر إلي وتوفر فكرك علي وأنـــا أصلي؟ أصبوت يا شيخ الصابئة إلى شريعة الملة الصافية؟ فقلت: لا، بعـــد، ولكن كنت أعجب من القاضي وهو يرفع يديه حتى يعلو رأسه ثم يحط جبهته الأرض حتى كأنه يحفر بها، فاستشعرت أنه بمثابة من يبتغي طلبته من موضعين متنافيين، وكان عندي أني قـــد قطعته. فقال: وما ذاك يا شيخ الصابئة بعجيب، وإن له من الصواب لأوفر نصيب. فقلت: وكيف ذاك؟ فقال: لأنا نشير بأيدينا إلى مطالع رغبتنا رافعين، قال الله تعالى: وفي السماء رزقكم وما توعدون. ونخفض جباهنا إلى مصارع أجسامنا خاضعين، قال الله وهو أصدق القائلين: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى

فنحن نستنزل بالأولى لطيف الأرزاق، ونستدفع بالأخرى عنيف الإزهاق، والله كريم. ودمعت عيناه فأبكاني، وعظم في عيني. فدخلت على الوزير وأعدت عليه ذلك، فعجب منه وقال: هو واحد زمانه". [126]

ومن أجمل ما قرأت للقاضي أبو بكر بن قريعة خطبة قد خطبها في دار أبي إسحق أثر دعوة ومأدبة لجمع من الأصدقاء والجلاس، وفيها من الظرف والمداعبة والقدرة على ذكر ما تتصف به مواد الطعام وموائدها بما يمكن أن يفاد من معانيها أو مما اشتهرت به خلال عصرهم وربما إلى الآن في بغداد. جاء فيها: " الحمد لله الذي تيّن فوزّر [127]، وعنّب فرزّق، ورطّب فسكّر، وخوّخ فشطّب، وكمثّر فخثّر، ومَشمش فصفّر، وبطّخ فعسّل، وتفّحَ فعطر، وموّز فأنضج، ودَقّق فجوز، وجَردق فسمّذ، وبَورد فكثّر، وسَكرج فلوّز، وملّح فطيب، وخلل فسقنّج، وخردل فحرف، وبقّل فخضّر، وقثّا فدقق، وبورن فنعم، ومصص فحمض، وطجّن فجفف، وسنبَس فثلث، وسكبج فزعفر، وهَرس فصولج، وبصّل فعقد، وسبذج فصعد، وسمّق فمزز، وطبهج فحرف، وبيّض فعجج، وجدا فرضع، وبطط فسمن، ودججّ فصدر، وفرّخ فشام، وحبّب فبرز، وجوذب فخشخش، ورززّ فألبن، وخبص فلوّز، وفلذج فحمّر، وقطف فعرف، ولوزج فسكر. أحمدهُ على الضرس الطحون، والفم الجروش، والحلق البلوع، والمعدة الهضوم، والسفل النثور، والذكر القؤوم، والغداء والعشاء، والفطور والسحور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خالق السموات ومحلل الطيبات، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، مبيح المحللات، وحاظر المحرمات وإن أبا إسحاق إبراهيم بن هلال، أرشده الله، أطعمنا فصدرنا، وماهنا فأثلجنا، وسقانا فروانا، ومد ستارته فأسمعنا وأطربنا، واستنشدناه فأنشدنا، واستحدثناه فحدثنا، فارفعوا أيديكم إلى الله عباد الله، فالدعاء

---

[126] ابن حمدون، التذكرة الحمدونية

[127] ما زال يقال في بغداد لأجود أنواع التين وأحلاها " التين الوزيري" وهو الذي يأتي من بساتين منطقة الوزيرية. ونورد معاني بعض المفردات التي وردت في الخطبة لأنها غير معروفة اليوم. جردق: الرغيف، يقال للرغيف جردق/ فارسية معربة. جوذب: الجذب: الشحمة تكون في رأس النخلة يكشط عنها الليف، والجذاب جمار النخل. القطف: نبات رخص عريض الورق يطبخ. السمذ: سميد الطعام. سكرج: إناء صغير يؤكل فيه . بورن: البرن ضرب من التمر أصفر مدور وهو أجود التمر، وقيل البراني بلغة العراق الديكة الصغار حين تدرك واحدها برنية. مصص فحمص: وضع ما يمص وهو حامض. الطاجن: المقلي وهو يجفف دون زيت. صولج: يصفى تماما. المز: الفضل وهو مزيز إذا كثر، المز من الرمان ماكان بين الحموضة والحلاوة، والمز لذيذ الطعم. الطبهج: ضرب من قلي اللحم فارسي معرب. العصة: دقيق يعجن بسمن ثم يشوى وهو ضرب من الطعام يتخذ من البيض.

له بما يرد الله لي ولكم ثواب فعله إليه ، ويسهل الدعوة الثانية عليه، إنه قريب مجيب..." [128]

7- علاقته بالحسين بن الحجاج:

هو شاعر فحل ومن كتاب العصر البويهي وقد عد رائدا لشعر الفحش والمجون ووصف بخفة الروح والهزل. وتقدم في الشعر حتى عد مبرزا مثل أمرؤ القيس في الإبتكار والتجديد، وله ديوان شعر معروف. وقد ربطت الصابي وابن الحجاج صداقة مـــذ كان الأول كاتبا بين يدي الصابي قبل أن تتفتح قريحته في النظم. ودامت هذه الصداقة بحياتهما فيما كان من التواصل وجوانب حاجة ابن الحجاج في عسره وما كان ييسره له الصابي خلال زمن الوزير المهلبي، ونقرأ ذلك فيما يخاطب به الصابي فيقول:

يا من أياديه باصلاح مــا   يفســـده دهـــري معنيــة

ومن له بين هضاب العلا   أرومـــة قعســـاء عاديـــة

إسمع حديثي إم لي قصة   على شروط السخف مبنية

وقصيدته طويلة ظل فيها يقذع ويفحش ومنها:

فامنن بتعجيل رسولي كما   يأتي ولا تحبســـه في الجيّة

وحاجـــتي تلك فمـــا بالهـــا   بجفـــوة عنـــدك منسيـــة

ألنت قصـــرت أم أستـــاذنا   لـــم يك في شكري له نيـــة

ياقوم مالي بينكم ضائعـــا   دنيـــاكم عنـــيَ مطويـــة

لم ليس فيكم رجل واحـــد   فيـــه حيـــا مني وحريـــة

---

[128] ومما يستطرف أن القاضي ابن قريعة لما مات ثور له قعد في عزاله فأنشأ أبو إسحق كتابا في ذلك العزاء بناء على طلب الوزير بن بقية والنسخة سترد في ص 350 من هذا الكتاب. (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية).

وكثيرا ما كان يمدح الصابي برسائله التي يقدم لها بأبيات من شعره ومن ذاك يتشكى له طمعا في مساعدته لأنه يدرك أنه لن يخيب طلبا من أبي إسحق:

فداك الله بي وبكـل حيٍ   من الدنيـا دنيٍ أو شـريفِ

يحل لك التغافل عن أنـاسٍ   تولوا ضلم خادمك الضعيف

ولست بكافر فيحل مالي   ولا الحجاج جدي من ثقيف

فمـر بدراهمي ضـربا وإلاّ   جعلت سبال قوفا في الكنيف[129]

وعلى شدة الهجاء والمجنون الذي عرف به ابن الحجاج إلا أنه كان يخاطب الصابي بكل الأدب حتى في معاتباته، ومن ذلك يقول:

يـا أبا إسحـاق إنـي   لسـت من أهل التجنـي

إنمـا أشكـو إذا خـا   لفـت في ودك ظنـي

كنت دون الخطب سيفي   وسنـاني ومِجـني

فلمـاذا صـار خصمـي   بـك يستعـصـم منـي

ومما يؤسف أنه لم يصل من كتابات الصابي في ابن الحجاج ما يوقفنا على رأيه فيه مع أن مثل هذه المخاطبات تنم عن علاقة طيبة وود بين الاثنين خاصة أن ابن الحجاج كان قـد كتب بين يدي الصابي.

8- علاقته بأبي الفرج الببغاء

وهو شاعر وكاتب برز في بلاط سيف الدولة الحمداني بحلب، ثم أعتمد كاتبا في مجلس أبي تغلب بن ناصـر الحمداني في الموصل. وقـد استظرف كل منهما الآخر من خـلال المراسلات، ولم تجمع الأيام بينهما إلا والصابي رهين الحبس حيث زاره الببغاء فيه. ودارت بين الاثنين مخاطبات وأشعار ونوادر حفظها العامة كما حفظها الخاصة في الأدب. وقـد وصلت أخبار أشعارهما إلى عضد الدولة وإستظرف ما بينهما. ويمكن

---

[129] قوفا إسم الشخص المتنازع معه

الرجوع إلى ما دار بينهما من خلال القصائد والمقطوعات التي وردت في أبواب الشعر من هذا الكتاب.

9- علاقته بالسري الرفاء

الرفاء: بفتح الراء وتشديد الفاء، هو لمن يرفو الثياب، وأشتهر باللقب أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي الرفاء الموصلي، كان في صباه يعمل في الخياطة رفو الملابس. شاعر مجود حسن المعاني رقيق الطبع، لــه مدائح في سيف الدولة وغيــره من أمراء بني حمدان وكان بينه وبين أبي بكر وأبي عثمان محمد وسعيد ابني هاشم الخالديين حالة غير جميلة ولبعضهم في بعض أهاج كثيرة، فآذاه الخالديان أذى شديداً وقطعاً رسمــه من سيف الدولة وغيره، فانحدر إلى بغداد ومدح بها الوزير أبا محمد المهلبي، وهناك تعرف إلى أبي إسحق الصابي الذي يبدو أنه رعاه وحاول أن يصلح بينه وبين الخالديين وأن يتحقق له فيما كان بينهما وبينه من إدعاء سرقات الشعر والتظلمات. وكان شاعرا مطبوعا عذب الألفاظ مليح المأخذ كثير الافتنــان في التشبيهات والأوصاف، وله ديوان شعــر مطبوع. ويبدو أن الصابي أكرمه خاصة وأن حال معيشته كان صعبا. وقد ذكر السري فضل الصابي عليه فكتب أكثر من قصيدة يمدحه ويقول في إحداها:

يا أبــا إسْحَــاقَ زادَ الـ	لهُ في حُسْــنِ حُبــورِكْ
و غَــدا شانيك ذا هَمْـ	ـمٍ طويــلٍ بِسُــرورِكْ
عمَّـــرَ اللهُ بِــطُـــلاَ	بِ النَّــدى أبوابَ دُورِكْ
أَشـرَقَ الدَّهرُ وما إشـ	راقُـــه إلاَّ بِـنُـــورِكْ
وأرى الأيــــامَ لا تُـبْـ	ـخَـلُ إلاَّ بنَـظيـــرِكْ
قلــتُ للحاسِـدِ صبراً	إذ نَـوى نَيــلَ صَبيرِكْ
أنــتَ غَيْــثٌ لمواليــ	ـكَ و لَيْـــثٌ لمُثيــرِكْ
فالوَرَى في بَــرْدِ آصــا	لِكَ أو حَــرِّ هَجيــرِكْ
لا تَنَبِّي عـن مَعــاليــ	كَ الــورى مثْلُ خبيـرِكْ
شِــدْتَ عَليــاكَ بتَغليـ	سِكَ فيهــا ويُكــورِكْ
ظاهــراً للحمــدِ تُتبيــ	ـهِ على بُعْـــدِ ظَهيــرِكْ
كَيْفَمَـــا جرَّدْتَ أقلا	مَكَ أغنَتْ عـن ذُكورِكْ

فكأنَّ الدَّهرَ قد سَطْ طَرَ مـا بينَ سُطـورِكْ
بِبدَعٍ ترتَـعُ منهـا الـ ـعينُ في وَشْيِ حَبيـرِكْ
حسبُنا من جُودِكَ العَمْـ ـرِ ومن فيضِ بُحـورِكْ
قـد أتانا منـه مـا زا دَ على شُكرِ شُكورِكْ
بينَ صُفـرٍ من دنـانيـ ـرِكَ أو صُفـرِ خُمـورِكْ
فاشفعِ العُـرْفَ بعَرْفٍ تَرتضيه مـن بَخُـورِكْ
وَيْقَ لا أقصرَ صوبُ الـ مُزْنِ عن فيحِ قُصورِكْ

وكتب له محذرا من قدوم الشاعرين الخالديين وهو الذي كانت بينـه وبينهما بغضاء فاراد التأليب عليها فكتب لأبي إسحق ولعمه أبي الخطاب بصيفـة التحذي التي تظهر الحقد عليهما فيقول:

قد أظَلَّتْـكَ يـا أبـا إسحـاقِ غـارَةُ اللَّفظِ والمعـاني الدِّقاقِ
و أتاكَ الهُمـامُ ذو النَّظَـرِ الشَّزْ رِ إليهـا والصِّلُّ ذو الإطـراقِ
قَطرَةٌ لـو يجِفُّ من قُطـرُ بيٍّ دَرَسَتْ بعدَها رُسـومُ الشِّقـاقِ
فاتَّخِذْ مَعْقِلاً لشِعْـرِكَ تَحْميـ ـه مُـروقَ الخـوارجِ المُـرّاقِ
قبلَ رَقْرَاقَـةِ الحديدِ يُريـقُ السُّمَّ في صَفْـوِ مائـهِ الرَّقراقِ
كنتُ مِنْ ثَرْوَةِ القَريضِ مُحلًّى فتخلَّيْـتُ منـه بالإمـلاقِ
أيُّها الجفْنُ غيرَ دَمْعِـكَ هـدا إنَّ ثُكلَ الحبيبِ غيـرُ الفراقِ
أغـداةُ الكِلابِ أوْدَتْ بشِعْري فمَضَى أو عشيَّـةُ التَّحـلاقِ
غـارَةٌ لم تَكُنْ بسُمْـرِ العَوالي حينَ شُنَّتْ ولا السُّيوفِ الرِّقـاقِ
جـالَ فُرسانُهـا عَليَّ جلوسـاً لا أقَلَّتْهُـمُ ظُهـورُ العِتـاقِ
فُجِعَتْ أنفسُ الملوكِ أبـا الهَيْـ ـجاءِ حَربـاً بأنفسِ الأعْـلاقِ
بقَوافٍ مثلِ الرِّيـاضِ تَمَـشَّتْ بينَ أنـوارِها ميـاهُ السَّـواقي
و مَعـانٍ فتَّقْـتَهُـنَّ فأصبحْـ ـنَ لمِسكِ الكَلامِ مثلَ الفِتـاقِ
بِدَعٌ كالسُّيوفِ أُرْهِفْنَ حُسْنـاً و سقَـاهُنَّ رَوْنَقَ الطَّبْـعِ ساقي
مُشرِقـاتٌ تُريكَ لَفظـاً ومَعْنىً حُمرةَ الحَلْيِ في بياضِ التَّراقـي
يا لَهـا غـارةً تُفَـرِّقُ في الحو مَـةِ بين الحَمـامِ والأطـواقِ

تَسِمُ الفارِسَ المُقَدَّمَ بالعا ... رِ وبعضُ الإقدامِ عارٌ باقي

لو رَأَيْتَ القَريضَ يَرعُدُ منها ... بينَ ذاكَ الإرْعادِ والإبراقِ

و قلوبَ الكلامِ تَخفِقُ رُعْباً ... تَحتَ ثُنْيَيْ لِوائِها الخَفّاقِ

و سُيوفَ الضَلالِ تُفتُكُ فيها ... بِعَذارى الطُروسِ والأوراقِ

و الوجوهُ الرِّقاقَ داميةً الأبْـ ... ـشارِ في مَعْرَكِ الوُجوهِ الصِفاقِ

لَتَنَفَّسْتَ رَحْمَةً الخُدُودِ الحمـ ... ـرِ منهنَّ والقُدودِ الرِّشاقِ

و الرِّياضِ التي ألحَّ عليها ... كاذبُ الوَبْلِ صادقُ الإحْراقِ

و النُّجومَ التي تَظَلُّ نجومُ الـ ... ـجَوِّ حُسَّادَها على الإشراقِ

بعدَما لُحْنَ في سَماءِ المعالي ... طُلَّعاً وانتَشَرْنَ في الآفاقِ

و تَخَيَّرْتَ حَلْيَهُنَّ فلم تعـ ... ـدُ خيارَ النُّحورِ والأعناقِ

و قطَعْتَ الشَّبابَ فيه إلى أن ... هَمَّ بُرْدُ الشَّبابِ بالإخلاقِ

فهيَ مِثلَ المُدامِ بينَ صَفاءٍ ... وبهاءٍ ونَفْحَةٍ ومَذاقِ

مَنْطِقٌ يُخجِلُ الرَّبيعَ إذا حَلْـ ... ـلَ عليه السَّحابُ عِقْدَ النِّطاقِ

عربيٌّ روائحَ الشِّيحِ والقَيْـ ... ـصومِ منه والشَّثُّ والطُبَّاقِ

سائلٌ من شِعابِ وَجْرَةَ ثاوٍ ... بينَ أجراعِها وبين البُراقِ

فهوَ ما شئتَ من هَديرِ قُرومٍ ... وهو ما شئتَ من حَنينِ نِياقِ

يا هِلالَ الآدابِ يا ابْنَ هلالٍ ... صَرَفَ اللهُ عنكَ صَرْفَ المَحاقِ

أنتَ مَنْ تَسهُلُ المعالي عليه ... و هي في مَعْشَرٍ صِعابِ المَراقي

سِلْعَةً ما لِمَنْ يحاولُ حِرْزٌ ... حَيَّةً ما لِمَنْ يُساوِرُ راقي

سَوْفَ أُهْدي إليك من خَدَمِ المَجْـ ... ـدِ إماءً تُعافُ قُبحَ الإباقِ

كلُّ مَطبوعَةٍ على اسمِ كِبادٍ ... وَسْمُها في الجِباهِ والآماقِ

صادقاتِ الوَدادِ تُصدُقُ فيها ... ألسُنُ الحَمْدِ وافياتِ الصَّداقِ

إننيو العِدا على الدَّهْرِ شَرْبٌ ... نَتَساقَى الرَّدَى بكأسٍ دِهاقِ

لو تَلاقَتْ دِماؤُنا في مَقامٍ ... لَتَفَرَّقْنَ عنه بعدَ التَّلاقي

و هي أوتارُنا القديمةُ لا تُخـ ... ـرِجُ أوتارَنا من الأفْواقِ

ليسَ فيها إلا ضِـرابُ الهَوادي	وطِعانُ النُّحـورِ والأحـداقِ
أو تَـرى غيرَ مـا رَأيتَ فإنـي	صافِحٌ عن مُمَـوِّهٍ مِخـراقِ
زَوَّرَ الشَّعْـرَ والشَّبابَ فأضْحى	خَلَقَ الوَجْـهِ مُظْلِمَ الأَخْـلاقِ
كادَني مُغْـرِقٍ أو رُبَّ غريقٍ	خاضَ للكَيْدِ لُجَّةَ الإغْـراقِ
و إذا كاشَفَ العدوُّ فأبدَى الـ	ـغِمْرَ أو دَبَّ في ظَـلامِ النِّفـاقِ
فأنـا الغَيْظُ في صُدورِ الأعادي	وشَجاهـا المُقيـمُ في الأحـلاقِ

10- علاقات الصابي الحميمة الأخرى

ولا شك أن مَن حال الصابي حاله في التقدم في المنزلة والرياسة فيها وفي صناعة النثر والشعر وفي الإمامة بين أهله وعشيرته، فإن له من الصداقات التي نسجلها نحن إستقراءً من المواقف التي جمعته مع الآخرين ، ومن الرغبة المتوافرة لديه في المعاشرة والحرص على خدمة الجميع بروح الحب والمسامحة.

ومن هذه العلاقات علاقته مع الشاعرين الخالديين والسري الرفاء والاحتكام إلى الصابي في أمرهما والتناحر بينهما وبين السري الرفاء وما كتبه الصابي مشيدا ومبرزا قيمتيهما وأشعارهما. وكذلك مع جعفر بن ورقاء الشيباني، وابن سكرة الهاشمي، وكذلك مع سيف الدولة الحمداني فيما كتب له الصابي بناء على طلبه وظل الأخير يتعهده بالمنح، وفي مخاطبة الصابي للمتنبي ما نمت عن قرب بينهما خاصة بعد إعتذار الأخير من مدح الصابي بمقولة صارت هي المدح. وعلاقته بأبي الفتح عثمان بن جني وغيرهم من علية القوم منزلة وأدبا وعلما. وجميع مادة هذه العلاقات مما سيرد في أبوابه في هذا الكتاب.

ومثلما يُذكر الكثير من مثل هذه الشواهد على العلاقات الحميمة والطيبة التي جمعت أبو إسحق الصابي مع العديد من الوزراء والأمراء والعلماء والشعراء والكتاب والأدباء في عصره أيام صفوه بالحالة وتقدمه بالرياسة، ومع أن أهمها قد استمر حتى خلال نكبته وبعد تخلصه منها، إلا أن أبا إسحق حين يعصره ضيق الزمن واشتداد المحنة يجد صعوبة في أن يذكر ممن أحسن إليهم، ولذلك تجده معاتبا في العديد من أشعاره وكتاباته. ومما كتب بهذا الخصوص معاتبا:

صديق لكم يشكو إليكم جفاكم	وفي قلبه داء من الشوق قاتـل

تناسيتـموه وهو للعهـد ذاكـر   وللغيب مأمون وللحبل واصـل

يقول لكم والوجد بين ضلوعـه   مقيم وقد جمت عليه البلابل

أكابرنا عطفـاً علينـا فإننـا   بنـا ظمأ بـرح وأنتم مناهـل

وكتب إلى بعض أصدقائه: ولو حملت نفسي على الاستشفاع والسؤال، لضاق علي فيــه المرتكض والمجال، لأن الناس عندنا، ما خلا الأعيان الشواذ الذين أنت بحمد الله أولهم، طائفتان: مجاملة، ترى أنها قد وفتك خيرها، إذا كفتك شرها، وأجزلت لك رفــدها، إذا أجنبتك كيدها، ومكاشفة، تنزو إلى القبيح، نزو الجنادب، أو تدب دبيب العقارب، فإن عوتبوا، حسروا قناع الشقاق، وإن غولظوا، تلثموا بلثام النفاق. والفريقان في ذاك كما قلت منذ أيام:

أيارب، كل النــاس أبناء علة   أمـا تعثر الدنيا لنا بصـديق

وجوه بها من مضمر الغل شاهد   ذوات أديم في النفاق صفيـق

إذا اعترضوا عند اللقــاء فإنهم   قــذىً لعيون أو شجاً لحلوق

وإن أظهـــروا برد الودود وظلـه   أسرّوا من الشحناء حر حريق

أخـو وحدة قد آنستني كـأنـنـي   بهـا نازل في معشـر ورفيـق

فذلك خيـر للفتـى مـن ثوائــه   بمسبعة من صاحب وصـديـق

كُتب أبي إسحق الصابي وآثاره

إن قدرات الصابي المتنوعة أثمرت نتاجات متعددة في الميادين التي برع فيها. ومع ان براعته الغالبة وسمعتــه الذاهبة كانت في ميدان الأدب وكتابة الرسائل والشعر والتأريخ، فقــد عرف عنه أنه بدأ ممارسا في ميدان الطب على يدي والده، وكذلك كان مبرزا في ميدان العلوم الرياضيــة والمراصد، لكن آثاره في هذه الميادين ليست كثيرة. وتتبعا لما ثبت لأبي إسحق من مؤلفات نجد ذكرها ولكن لا نقف على أغلبها. ومن مؤلفاته كتاب في المثلثات ورسائل عديدة ذكرت بشكل أجوبة لمسائل فيها على ما يذكر القفطي. أما في ميدان الأدب فيذكر المدونون أن له :

1- ديوان شعر ، ويعد هذا الديوان في حكم المفقود، ذلك أنه لم يتم العثور عليه لحد الآن على الرغم من المتابعات التي جرت في المكتبات والتي سعى الكثير من

متابعي آثار الصابي للعثور عليه بحكم ما أن الصابي وابنه المحسن وأحفادهما فوق أنهم كانوا أدباء فقـد عملوا في ميدان التوثيـق وكتابـة التأريخ، ويكون من الأولى أن يوثقـوا لأنفسهم ويكتبوا في بعض الجوانب التأريخية التي تخصهم. والشعر هو في جانب منه راوية الأحداث والمعبر عنها في تأريخها ووقائعها وأحداثها وتعبيراتها. ولذلك فأن ما فاضت بـه قريحة الصابي على مدى عمره الممتد طويلا لابد وقد أثمر ديوان شعر ضخما، ذلك أن المبثوث من شعره في الكتب كثير. وعلى هذا فنحن متيقنون من أن الشعر الذي ضـاع كان كثيرا بما يشكل ديوانـا متكاملا. ويؤيد ذلك أن الكثير من قصائده وردت بشكل مقطوعات وأغلبها بدون مصراع.

2- كتاب إختيار شعر المهلبي: كان الوزير المهلبي أديبا وشاعرا، وبحكم العلاقة التي ربطت بين الصابي والمهلبي وكونه صاحب ديـوان الإنشاء والمستخلـف في وزارته وجليسه المفضل في مجالسه، ولتأثر الصابي وتعلقه به، ولطول الفترة التي تصاحبا بهـا ونقائها وصفائها مما يقذيها ويكدر أماليها، فقد سعى الصابي من باب المحبة والتحبب والقربى والتقرب إلى تدوين أشعار المهلبي وتنقيتها ووضعها في كتاب، خاصة وقد توفرت للصابي أوقات خلوة سواء في سجنه أو في أواخر أيام حياته ليقوم بعملية التوثيق. وهـذا الكتاب، الذي أشار له العديد من الذين دونوا للصابي والمهلبي، مفقود ولم يقف عليه أحد.

3- كتاب الرسائل: يشـار إلى أنه مؤلف ضخم يقع في نحـو ألف صفحة، ويضم الكتاب أهم آثار الصابي وأشهر الرسائل التي كتبها عن نفسه وعن الآخرين بحكم طبيعة عمله. وقد ذادت نفاسـة الكتاب وإقبال مجالس الأدب على تناول رسائل الصابي عن ضياعه وحفظتـه بما وفر الفرصة للأدباء والمترسلين من الاطلاع عليه والتعلم مما جادت به قدرات الصابي. ويذكر بأن الكتاب يتوفر منـه جـزءان أحدهما محفوظ في الخزانـة الوطنيـة بباريس[130]، والأخرى بجامعـة لايدن[131]. كما أن هنـالك نسخ عن المراسلات حفظتها مكاتب عديدة في تركيا ومصر وبريطانيا وإيران والعراق.

[130] النسخة محفوظة برقم 3314 كما أشار الى ذلك بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي

[131] لقد تسنى للمؤلف الإطلاع على هذا الجزء في جامعة لايدن وتم تصويره ونقل العديد من رسائل الصابي ووضعها في هذا الكتاب.

4- كتاب أخبار أهله: وهذا الكتاب مفقود ولم يتم الوقوف عليه ولا النقل عنه. وعلى الرغم من إشارة العديد من المراجع نسبة الكتاب إلى الصابي، فإن البعض يرى أن نسبته إلى سنان بن ثابت. وفي كل الأحوال فإن فقد هذا الكتاب يعد حقا خسارة كبيرة، ذلك أن من خلاله كان يمكن الوقوف ربما بشكل تفصيلي على العقيدة الخاصة بالصابئين وأخبارهم في آبائهم وأبنائهم ومهنهم وعلاقاتهم سواء من جاءوا منهم من حران أو ممن موجود أصلا في العراق في منطقة الطيب من أرض واسط وميسان وباقي مناطق جنوب العراق.

5- كتاب التاجي في أخبار الدولة الديلمية: وهذا الكتاب من الكتب التي اشتهر اسمها وعرف وذكر في ميدان التأريخ لجملة أسباب منها أن الذي كلف بوضعه هو ملك آل بويه عضد الدولة، وأنه جاء مساومة مع أبي إسحق في العفو عنه، وأنه يعد من وضع أكبر أدباء القرن الرابع الهجري على كثرة ما ضم منهم، ثم أن منه صدرت القولة الشهيرة التي قالها أبو إسحق أو ربما قولت عن لسانه: " أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها" فأدت به إلى أن يكون تحت أرجل الفيلة لولا إرادة الله التي وفرت للصابي من يستحيّي عضد الدولة في ذلك، كما أنها اللفظة ذاتها التي صارت دلالة على جوانب التزوير والتزويق التي تحيط بكتابة التأريخ خاصة إذا أراد أن يكتبه من يريد وهو منتصر وآمر. ويعد هذا الكتاب في حكم المفقود أيضا إذ لم يصل منه الا قطعة صغيرة في نحو خمسين صفحة من الحجم الصغير بعنوان" المنتزع من كتاب التاجي"[132]. ولأهمية هذا الكتاب بحسب ما أشرنا فقد آثرنا تناوله ببعض التفصيل لنوفر للقارئ تصورا عنه.

عنوان الكتاب: " التاجي" أو " التاجي في أخبار الدولة الديلمية " وقد وضع الكتاب أبو إسحق الصابي بناء على تكليف من عضد الدولة وتاج الملة الملك البويهي. وكان لقب تاج الملة قد اختاره له أبو إسحق الصابي على ما مر بنا، ولذلك فنحن نعتقد أن تسمية الكتاب جاءت باقتراح من الصابي أيضا. أما سبب تأليفه فيعود إلى أن عضد الدولة كان من أشجع حكام بني بويه وأكثرهم علما ومحبة في الأدب وتتبعا للتأريخ، وقد بلغت فتوحاته أقاليم ومدنا عديدة وامتدت لمساحات شاسعة. ولتعلقه بتثبيت ذلك حيث أن به الملك استتب، فقد نازعته فكرة هذا التدوين أو ربما كانت مقترحا من الصابي في أيام التصافي التي كانت تجمع بين عضد الدولة والصابي، فإذا

---

[132] محمّد حسين الزبيدي، المنتزع من كتاب التاجي لأبي إسحق الصابي

غضب عليه وتخل المقربون في الشفاعة فكان أن وردت لعضد الدولة الفكرة في أن لا يكون إطلاق سراح الصابي دون مقابل يقوم به وهو صاغر ومنفذ ومقبل بدون تردد وصانع بحذق بسبب كونه مسجونــا غير أن يضع هذا الكتاب، لذلك شرع وهو في محبسه بوضعه.

وقد تناول المؤلف في الكتاب مواضيع متعددة بدأها بأصل آل بويه ونسبهم وذكر خصالهم وأخبارهم ووصفهم بالكرم والشجاعة فهم قوم محاربون، وتطــرق المؤلف في الكتاب إلى خصائص وصفات عضد الدولة التي إقتطعت وثبتت في مصادر أخرى يتلمس المتابعون أنها إنما اقتطعت أو نسخت من كتاب التاجي. وقد نهج المؤلف في الكتاب نهج من سبقــه من المؤرخين في الاعتماد على ما سمعه من الأخبار وما كان يسأل عنـه، ثم أنه كان يعرض ما يكمله على عضد الدولة فيقوم هــذا بالإضافــة أو التعديل، وربما من هنــا جاءت مقولة الصابي بــه بسبب كثرة التدخلات والتغييرات التي قــد لا يقرها هو في داخله ولكن لا مناص من ذكرها لأنها ترد من صاحب الأمر. وقد شكلت قولة الصابي ترددا من الإقبال على الكتاب واعتباره كتــابا تأريخيا بالمعنى الذي درج عليه المؤرخون والنــواميس التي كانوا يضعونها للتقيد بحدود مطلوبة في تدوين وقائع وأحداث التأريخ وما يتطلبه ذلك من أمانة، حتى أن الثقة في الأمر تلعب الدور الأكبر في النقل عن كتاب معين ووصف الكاتب والمؤرخ بمن يؤخذ عنهم أم لا.. ومن ذاك مثلا أن البيروني في كتابه الآثار الباقية أنكر أن يكون جــد البويهيين بهرام بن يزدجر الملك الساساني كما جاء في كتاب التــاجي الذي وضعه الصابي، وعلق البيروني على ذلك بقوله:" فقد ذكر أبو إسحاق ابراهيم بن هلال في كتابه الذي سمــاه التاجي أن بويه هو فناخسرو بن .... بهرام جــور الملك... وليست تلك الأمم معروفة بحفظ الأنساب ولا مذكورة بتخليد ذلك، ولا بأنها كانت تعرف ذلك منهم قبل انتقال الدولة إليهم. وقّل مــا تحفظ الأنساب بالتوالي إذا طــال الزمان وامتــدت الأيام"[133] كما أشار ابن خلــدون بأن الذين نسبوا البويهيين إلى الملوك الساسانيين فإن ذلك " النسب مصنوع، تقرب إليهم به من لا يعرف طبائع الأنساب في الوجود"[134] أو نقول إن من ألــزم بذلك كان مــأمورا. لذلك ربما لا يعول على كتاب التاجي من الناحيــة التأريخية كثيرا ولا يعد خسارة كبيرة إلا في الوقوف

---

[133] البيروني، الآثار الباقية

[134] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون

على مواضـــع إضطرار المؤلف إلى التنميق والتلفيق إن كتب تحت سلطة الملك وبشأن يخصه. كما أن خسارته تكون في الوقوف على الأسلوب الذي صاغ به الصابي مواضيعه وأحداثه فيما عرف عنه من قدرة بلاغية وسلاسة في الاستطراد والربط والإحكام في ذكر الحوادث. ومع أن المنتزع من الكتاب الذي وصل قـد لا يظهر قمة البلاغة والبديع الذي عرف به أبو إسحق، إلا أن الإشادات بالأسلوب من قبل من إطلـع على الكتاب في حينه وأشار إليه تغني وتفيد في الإشارة إلى ذلك. هذا ما نلمسه في كتابة التوحيدي عنه في كتابه الإمتاع والمؤانسة حيث يقول:" ... ويزيد على كل من تقدم بالكتاب التـاجي، فإنه أبان عـن أمور وكنى في مواضع، وشن الغارة في الصبح المنير مع الرعيل الأول، ودل على التفلسف، وعلى الاطلاع على حقائق السياسة ولو لم يكن له غيره لكان به أعـرق الناس في الخطابة، وأعرق الكتّاب في الكتابة، هذا ونظمه منثوره، ومنثوره منظومه، إنما هو ذهبٌ إبريزٌ كيفما سبك فهو واحد، وإنما يختلف بما يصاغ منه ويشكل عليه.."[135]

[135] أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة

الفصل الخامس

محنة أبي إسحق الصابي ونكبته الكبرى

تذكر الحوادث عبر التاريخ خطورة عمل الكتاب وأصحاب ديوان الرسائل من حيث ارتباطهم المباشر بسياسة الخلافة أو الإمارة أو الوزارة، ذلك أنه على كاتب الديوان الاستجابة لمن يخدمه بحكم عمله والغاية في نيل رضاه ببليغ ما يكتب وبعيد ما يصيب من أغراض الكتابة، ولذلك يصف الصابي فقرات كلامه بأنها: " فِقَر بها تمسي الملوك فقيرةً ". وهو على هذا يمكن أن يرقى أبعد مرتقى بكتاب ويمكن أن يوضع تحت أرجل الفيلة قتلا بآخر ، وإن رُحم بحاله فالمآل إلى السجن والعذاب. وغالبا ما خدم الكُتاب خلفاء عدة تبدلوا وملوك عدة تغيروا وأمراء ووزراء عدة قضوا، وكثير من هذا التغيير لم يأت بتتابع وتسلم أحد بديلا عن أحد بل بالحروب والغلبة، فيكون نصيب الكاتب أن يشمل بما يشمل المخدوم الذي تم قتله أو إزاحته رغم أن عمله كان مدنيا وخدميا. وأبو إسحق الصابي يعد أحد الأمثلة في هذا الخصوص فهو الأستاذ الرئيس صاحب البديع في الرسائل وأوحد الدنيا في البلاغه الذي خدم الدولة على مدى خليفتين وأربعة أمراء بويهيين والعديد من الوزارات، ولكنه لم يسلم من السجن بعد أن تخلص بشفاعة كبيرة من القتل تحت أرجل الفيلة. وللوقوف على ذلك فيما شكل مسير حياة الصابي وأثر في نتاجه الأدبي كتابة وشعرا لابد من إستعراض جوانب تاريخية ووقائع متعلقة بحاله خلالها.

مرض ركن الدولة [136] في سنة 365 هـ، فخاف ابنه عضد الدولة، وقد كانت بينه وبين أبيه وحشة بسبب عدم رضا ركن الدولة على قيام ابنه عضد الدولة بمحاولة الإستيلاء على بغداد وانتزاعها من ابن عمه عز الدولة سنة 364، خاف أن يتوزع ملك والده بعد موته ويضيع. فقام بتوسيط ابن العميد [137] لكي يزيل الوحشة بينهما وأن يعهد إليه بأن يكون ولي العهد بحكم انه أكبر أولاده وأقدرهم وأنجبهم. قبل ركن

---

[136] هو أبو الحسن بن بويه بن فنا خسرو الديلمي ركن الدولة 284- 366 هـ مؤسس الدولة البويهية في أصفهان والري. وهو والد عضد الدولة بن بويه ، ومؤيد الدولة أبي منصور، وفخر الدولة أبي الحسن علي. كان جليل القدر عالي الهمة، ملك أربعا وأربعين سنة، وقبل أن يموت قسّم ملكه بين أولاده الثلاثة.

[137] هو علي بن محمد بن الحسين، أبو الفتح بن العميد الملقب بذي الكفايتين. وزر لركن الدولة ثم لابنه مؤيد الدولة. كان أديبا فاضلا وله مدح بليغ لأبي إسحق الصابي مما يستشهد به. قبض عليه سنة 366 فسملت عينيه(أعميت) وعذب ثم قتل. ترجمة حياته في العديد من المراجع منها تجارب الأمم، ومعجم الأدباء، ويتيمة الدهر.

الدولة وساطة ابن العميد وأقر ما أراده ابنه الكبير وأجري احتفال كبير في أصفهان حضره الملك وأولاده الثلاثة وأعلن ركن الدولة فيه عضد الدولة وليا للعهد، وخليفته على ممالكه وأخوته خلفاؤه في الأعمال التي رتبهم فيها. وأقر أخوته له ذلك. وكان عز الدولة المتولي على بغداد قد رتب أمره مع عمه ركن الدولة بأن يستمر في حكمه العراق، وفي ضوء ذلك عمل على إصلاح أمره مع ابن عمه عضد الدولة، إلا أنه كان يعمل سرا على تجميع القوى للنيل من عضد الدولة والإستقلال عنه. وكان ذلك بتأليب ومساعدة من وزيره ابن بقية.

وبعد وفاة الأب ركن الدولة أعلن عز الدولة بختيار الحرب على عضد الدولة[138]، إلا أن أعوانه الذين وعدوه بالنصرة إنفضوا من حوله، فهزم، وخيّر بين الطاعة لعضد الدولة مقرونة بالسلامة، أو الحرب. إختار عز الدولة السلامة، وعلى ذلك فقد رضا عنه عضد الدولة وخلع عليه وزوده بالنفقة. وفي عام 367 هـ نكث عز الدولة بعهده وانقلب على عضد الدولة فكان بينهما موقعة قصر الجص التي أسر فيها بختيار وأقتيد ثم قتل. إن الحاجة للسرد في هذه الوقائع التاريخية ليوقفنا على اختلاف الأمور بين المتولين ولكون الصابي كان على مسرح الأحداث المعقدة والمتوكل على الكتابة فيها، ورغم أن الكتابة تكون عن لسانهم، إلا أنهم لا يخفون حقدهم حين يتأثرون منها من أن يصبوا الغضب على الكاتب، وعلى ذلك فلم يسلم أبو إسحق من شرر الأحداث بل وحريقه.

وأخيرا آل مآل بغداد إلى عضد الدولة وصارت عاصمة حكمه. ومع أن أبا إسحق كان كاتبا لعز الدولة بختيار، إلا أنه كان بينه وبين عضد الدولة علاقة طيبة، وكان بختيار قد حقدها عليه وغالبا ما كان يطالبه بالإطلاع عليها وعلى الرسل الذين يصلون أبي إسحق من عضد الدولة. ولأن الإتمان أمر نسبي لدى الملوك والأمراء، فقد ظل الصابي خائفا من بطش عضد الدولة على الرغم من خدمته له، ربما بسبب

---

[138] يبدو أن عز الدولة بختيار كان لعوبا متحينا للفرص، فتراه حين يحس بالقوة متغالبا ومهددا وحين يكون ضعيفا متوددا ومتوسلا.ومن ذلك توسله بإبن عمه عضد الدولة يوم إنشق عليه قالده سبكستين في واسط وحاربه، ولولا نجدة عضد الدولة له وموت سبكستين لما تمكن عز الدولة بختيار من القضاء عليه. علما بأن عضد الدولة كان يريد لعز الدولة الضعف والمهانة لكي تكون سيطرته على بغداد مبررة. وهنالك مخاطبات عديدة بإنشاء أبي إسحق في هذا الخصوص سواء ما كان بين عز الدولة يطلب فيها نجدة إبن عمه عضد الدولة أو في المخاطبات التي كتبت لسبكستين، ثم وصف النصر الذي حققه بختيار عليه، وهي من عيون الرسائل في القدرة على الوصف وقوة السبك والبلاغة. سنعرض لفصول منها في باب " أبو إسحق الصابي الكاتب".

المكاتبات التي كان ينشؤها عن الخليفة وعن بختيـار والتي بعضها يمس عضد الدولة. ويذكر حفيـد أبي إسحق هلال بن المحسن " فلما ورد عضـد الدولة إلى بغداد في الدفعة الثانيـة، وحصل بواسط، استظهر بأن خرج (أبو إسحـق) إلى أبي سعد بهـرام بن أردشير، وهو يتردد في الرسائل بما يتخوفه من تشعب رأي عضد الدولة (فيه)، وسأله إجراء ذكره، وإقامـة عذره، والاحتياط له بأمان تسكن إليه نفسه. وكتب على يـده كتاباً، عاد جوابه من عضد الدولة بما نسخته: "كتابنا، أيدك الله. من المعسكر بجيل يوم الجمعـة لست ليال بقين من شهر ربيع الأول عن سلامة ونعمة. والحمد لله رب العالمين، ووصل كتابك، أيدك الله، وفهمنا وعرفنا ما يحمل، واستمعنا من أبي سعد بهرام بن أزدشير، أعزه الله، ما أورده عنك، ومن كانت به حاجة إلى إقامة معذرة، واستقالة من عثرة، أو الاستظهار في مثل هذه الأحوال بوثيقة، فأنت مستغن عن ذلك، بسابقتك في الخدمة، ومنزلتك من الثقة، وموقعك لدينا من الخصوص والزلفة. وذكر أبو سعد، أعزه الله، إلتماسك أماناً، فقـد بذلناه لك على غناك عنه، وأنت آمن علىٰ نفسك، ودمك، وشعرك، وبشرك، وأهلك، وولدك، وسائر ما تحويه يدك، حال في كل حال بكنف الأثـرة والخصوص والاحسان والقبول عنـدنا محروس في جاهك، وموقفك، وحالك. فاسكن إلى ذلك، واعتمده، ولك علينا الوفاء به عهد الله وميثاقه، وقد حملنا أبا سعد- أعزه الله- في هذا الباب ما يذكره لك، والله نستعين على النية فيك، وهو حسبنا.

والتوقيع بخط عضد الدولة: إعتمد ذلك واسكن إليه، وثق به، إن شاء الله تعالى.
تظهر هذه الرسالة مكانة أبي إسحق في نفس عضد الدولة من حيث تقدمـه في صنعته والخدمة الجليلة التي قدمها له والتي حازلت له موقعا ومنزلة من الخصوص، فاستعفاه وأمّنه.

هكذا عاد أبو إسحق إلى رئاسة ديوان الانشاء وعمل في خدمة عضد الدولة وتقديم المشورة وحضور مجلسه في الأدب والأنس. ويروى في ذلك وقائع كثيرة مما تظهر إنسجام الاثنين على قدر طبيعة عمل الصابي مع عضد الدولة حيث يذكر أن الصابي هو من اختار لــه لقب تاج الملة إضافة إلى لقبه عضد الدولة. وأصل ذلك، حسبما يروي هلال بن المحسن عن جده أبي إسحق قوله: لما ورد عضد الدولة في سنة 364 هـ للمعاونة على الأتراك/ قال لي في بعض ما تجاذبنيه، قد عرفت يا أبا إسحاق ما كان من العم معز الدولة في منعنـا من اللقب بتاج الدولة، ورَدنا عنه، ولو جئنا نتلقب الآن به لقبح أن يقال عضد الدولة وتاج الدولة، فقلت ولم لا يقال: وتاج الملة، فيجمع في اللقبين

بين الدولة والملـــة. قال: صدقت، فاكتم هذا الأمر إلى أن يحضر وقته، فلما عاد سنة 367 تلقب به"[139]

وإني لأعجب من خطأ الصابي وذهابه في الإيلام بكتب الإنشاء عن عز الدولة الموجهة إلى عضد الدولة وهو كان يرى أن عضد الدولة لابد وعائد إلى عاصمة الخلافة العباسية بغداد، اللهم إلا أن عز الدولة قد وعى ذلك وألزم أبا إسحق بقوة السلطان.

ومن مؤشرات عودة العلاقة الطيبـة بين عضد الدولـة والصابي ما يروى أن أبا إسحاق الصابي قال: كنت واقفاً بين يدي عضد الدولة، وبين يديه كتب قد وردت عليه من ابن سمجور، صاحب خراسان، وعلى رأسه غلام تركي، حسن الوجه، جميل الخلقة، وكان مائلاً إليه، ورأيت الشمس إذا وجبت عليه حجبه عنها، إلى أن استتم قراءة ما كان في يده، ثم التفت إلي، فقال له: هل قلت شيئاً يا ابراهيم؟ فقال:

وقفتْ لتحجبني عن الشمسِ ... نفسٌ أعـزُّ عليَّ مـن نفسي

ظلـت تظللني ومـن عجـبٍ ... شمس تُقنّعني عن الشمس

فسر عضد الدولة بذلك، وطوى الكتب، وجعل اليوم مجلساً للقرب، وألقي على الجواري الستائر، فغنوا به في ذلك اليوم.

ثم أن عضد الدولة مضى إلى الموصل لمحاربة أبي تغلب بن حمدان وهـــو حليف بختيار في حربه ضد عضد الدولة وكتب من هناك إلى أبي إسحق يخبره بإنتصـــاره في المعركة، وتظهر إجابات الصابي أنه كتب رسالتين بهذا الخصوص ، بل أنه سبق وودع عضد الدولة بحملته التي خرج بها إلى الموصل وذلك ما تشير إليـــه القصيدة المرتجلة التي قالها بهـــذه المناسبة. ونورد الرسالتين لأن فيهما من العبارات التي كان يسعى بهـا الصابي إلى تمتين العلاقة وإزاحة ما يمكن أن بقي في نفس عضد الدولة عليه، فوق أنها من درر البلاغة التي سار تردد عباراتها بين منتديات الآداب، فيقول:" كتابي أطال الله بقاء مولانا الملك السيد الأجل المنصور ولي النعم عضد الدولة وتاج الملة والأمور التي يراعيها، جارية أفضل مجاريها، بظله الممدود عليها، ونظره الشامل لها، وعدله المحيط بها، وسياسة الأستاذ، أدام الله عزه، التي حذا فيها مثاله، وتقيل[140] خلاله، والخاصة والعامة من عبيد مولانا، أطال الله بقاءه، ساكنون في حماه، مطمئنون في ذراه، قارون بفنائه، راتعون في كلائه، داعون إلى الله بما هو سبحانه

---

[139] هلال الصابي، رسوم دار الخلافة

[140] تقيل فلان أباه وتقيضه: نزع اليه في الشبه، الخلة: الخاصية والصفة

يسمع مرفوعه، ويجيب مسموعه، والحمد لله حمدا عائدا بمغابط الأولياء، ومغايظ الأعداء، والمزيد من مترادف العطاء، ومضاعف الخباء، ووصـل كتاب مولانا الملك السيد ولي النعم عضد الدولة، وتاج الملة، أدام الله علو أمره، وعز نصره، في معسكره بظاهر الموصل، مبشرا بالفتح الذي أملأت له آفاق السماء نورا، وأرجاء الأرض سرورا، فتلقيته ساعيا على قدمي وقبلته بكلتا يدي، وسجدت شكرا لله على مستودعه، ولمولانا كبت الله أعداءه، على تأهيلي للمطالعة بـــه، وتصرفت في تأمل معنـــاه الجزل، ومنطقه الفصل، تصرف المعجب به، لا المتعجب منه، وأقول في ذلك ما قاله أرسطو طاليس للإسكندر في مفتتح بعض رسائله اليه، أما التعجب من مناقبك فقـــد أسقطه تواترها، فصارت كالشيء المألوف قد أنس به، لا كالغريب يتعجب منه، فأما مـــا شرحه مولانا الملك السيد، أدام الله علاءه، وتمم نعمائه، من تقسيم أعدائه، بين قتيل صـــار إلى النار، وهزيم تقنع بالعار، فأيديهم أوكت، وأفواههم نفخت[141]، ولولا الشقاء المكتوب عليهم، والخزي المعصوب بهم، لاتعظوا بغيرهم ممن مضى قبلهم، وسلّموا الأمر لمستحقه دونهم، فقد قيل إنه لا ضيعة على من عرف قدره، وكذلك لا نجاة لمن عدا طوره، ولكن الحين يصم ويعمي، ويوبق ويردي.

وقد عظم الله شأن مولانا، أطال الله بقاءه، عن أن يفخر له بالظهـور على من ينحط خطره[142] عن خطره، وينقص وزنه عن وزنه، وإنما المفخر بالتفضيل الذي لم يدع له في الأرض نظيراً يدانيه، ولا قرينا يناديه، حتى صارت فتوحه لا تعاب إلا لانتزاعها ممن ليس بضريب ولا قريب، وإذا هنئ الإنسان بالوصول إلى ما لم يكن له، فمولانا الملك السيد، أطال الله بقاءه، يهنأ باستدراك ما هو له، إذ قد ملكه الله أقطار بلاده، ونواصي عباده، فكل حاصل من ذلك له فمستقر عند مستحقه، وكل شاذ عنه فغلول[143] في يد متطرقه، بارك الله له فيما أعطى وأجزل، وسوغه ما منح وخول، وأما ما إرتاه وأمضاه مولانا أطال الله بقاءه، وتمم علاءه، من إتمام المسير إلى تلك الديار للزيادة في الإستظهار، فقد كان أغناه عن كل شيء يأثره، البيت الذي هو أحق به ممن قيل فيه:

---

[141] هذا من المثل القائل: يداك أوكتا وفوك نفخ، ويقال لمن جنى على نفسه بنفسه

[142] الخطر: قدر الرجل

[143] الغلول هو السرقة من الغنيمة أو الخيانة في المغنم، جاءت من الغل لأن الأيدي فيها مغلولة أي ممنوعة، مجعول فيها الغل وهو التي تجمع يد الأسير الى عنقه. الحديدة

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت لـــك المهـــابة مـــا لا تصنـــع البهـــمُ

وأرى أن ذلك سعادة سيقت اليها بأن حلتها قدمه، وهطلت فيها ديمه، وغسلت أدرانهـــا طهارته، وأماطت دناستها نزاهته، وبقية بقيت من منحسة بلادنا هذه شغلته أن يطول بها لبثه، وأن يدوم فيها مكثه، والله يحرســـه دانيا مقتربا، ونازحا مغتربا، وحالاً قاطنـــا، ومرتحلا ظاعنا، ويسهل له الأوبة إلى مركز عزه، ومقر ملكـــه، الذي ينبغي أن يكون مقامه فيه، وانبعاث شعاعه إلى الأطراف منه بقدرته، وأما خضوع الخاضع له، ونزوعه عن الأمر الذي أورده، وما يصدره ويبذله في افتداء حشاشة النفس، وثميلة[144] الحال، فبالتذلل لمولانا يعز العزيز، وبالتعزز عليه يذل الذليل، وإن صحت منه البصيرة، وخلصت السريرة، فستكسوه المراجعة شعاراً من الطاعة، تتلافاه من السقطة، وتنقذه من الورطة، ومولانا الملك السيد، أدام الله دولته، وبسط قدرته، أعلم بالمخايل، وأهدى إلى الدخائل، وليس بمدلـــول على قبول الإنابة من النادم المقر، ولا على إبائهـــا من المداهن المصـــر، وله أيده الله عادة جارية بالعفو عن الهفوة الأولى[145]، التي تسبقها قرينة، ولا تقدمتها نظيرة، فإن عفـــا فعلى سنتـــه الماضية، وبعد قدرته القاهرة، وبالرأي الموضوع موضعه، والإختيار الذي لا إضطهاد معه، وإن سطا فبالله ما تحل سطوته إلا بمن لا مطمع في إنتياشه، ولا سبيل إلى إنتعاشه، ولن يعدمه الله صواب العزم وصريمة الحزم، أي المذهبين ذهب، وأي الغرضين طلب، وقد شرف مولانا السيد الأجل المنصور عضد الدولة وتاج الملة، أطال الله بقاءه، خادمه بالمكاتبة تشريفاً باقيا على الأحقاب، ساريا في الأعقاب، مشاركاً لما أسدي اليه من الأيدي الجمّة، والعوارف الفخمة، التي جميعها نصب ناظره، وشغـــل خاطره، فما من لفظـــةٍ ولا لحظـــةٍ كرّمه، أدام الله عزه بها، ورآه أهلاً لها، في قديم العهد، ولا حديث إلا وهي في سويداء قلبه مسطورة، وبلسان شكره منشورة، فإن رأى مولانا الملك السيد الأجل المنصور ولي النعم عضد الدولة وتاج الملة، أطال الله بقاءه، أن يميز عقد هذه المفاخر والمآثر، ساقيا مغرسها بسجله، راعيا لها بعينه، ويحفظها على خادمه المغتذي بثمرتها، المرتوي من درتها، حفظا يحصلها في ضمانه، ويحصنها في ذمامه، ويأمر بتضمين ما أكاتب به من

---

[144] الثميلة: البقية

[145] يدخل أبو إسحق من هنا في التعرض لحاله والتأكيد على غفران الزلة بما يصف عضد الدولة به ويوكده في شخصيته ونظرته وخلقه.

إبتداء وجواب، طرفا من الإستخدام، لائقا بما غمرني من الإنعام، في صغير يوازي قدري أو كبيرٍ يجذب اليه بضبعي، فعل إن شاء الله.[146]

أما في الرسالة الثانية والتي نوردها أيضا فيظهر فيها تغير أسلوب الصابي ونبرته في المخاطبة بما ينبو عن إطمئنان أصابه ربما بجواب إستلمه عن رسالته السابقة، ويتكل الصابي في رسالته الثانية وكأنه من ضمن حاشية الحكم في الدولة فيقول:

" كتابي أطال الله بقاء مولانا الملك السيد الأجل المنصور، ولي النعم، عضد الدولة وتاج الملة، وأدام عزه ونصرته، وتأييده، وبسطته، وعلوه ورفعته، وتمكينه وقدرته، عن نفس قد سكن الله جأشها، وآنس إستيحاشها، ونقعها من غلتها، وشفاها من علتها، بالفتح العظيم خطره، الجليل قدره، الشاملة فائدته، العامة عائدته، فلله على ذلك شكر يوازي نعمته، ويجازي منحته، ويمتري[147] زيادته، ويستدرُّ مادته، وهنأ الله مولانا الملك السيد ما وهب الله له ولخدمه من الظفر بالنواصي الطاغية الباغية العادية طورها، العادلة عن رشدها، المركوسة في غوايتها، المنكوسة في ضلالتها، فلقد جذَّ الله منها على يده أصول الفساد المنبقة[148]، وغوَّر عيونه المنبعة، وحسم الأدواء بكيّه وإنضاجه، وأدمل الجروح بطبه وعلاجه، وأصبحت الدنيا متحلية منه بأفضل حليتها، ومتجلية له في أفخر حللها، وضاربةً من آثاره وأفعاله بمعلّى قداحها، ومفضية من تدبيره وسياسته إلى نهاية صلاحها، فلا أعدمه الله السعي الرشيد، والمقام الحميد، والطائر السنيح[149]، والمتجر الربيح، ولا أخلاه من عز الراية، وإدراك الغاية، وإعلاء الولي، وإذلال العدو، بفضله وطوله، وقوته وحوله، وكان المعهود أطال الله بقاء مولانا ممن مكن الله له في الأرض أن يكون هو الجاهد في مطالبه، الكادح في مآربه، حتى ينال الجميع أو البعض، ويصل إلى الغاية أو الطرف، وقد جعل الله مولانا الملك السيد بحيث تطلبه الفتوح، وتأتي له الحظوظ غير جاهد فيها، ولا ساعٍ لها، ولقد كان أعداؤه هؤلاء الأشقياء في فسحة من أمرهم، ونجوةٍ من النكال النازل بهم، فمن

---

[146] شكيب أرسلان، المختار من رسائل أبي إسحق الصابي

[147] المتر: المد، متر زيادته: مد زيادته

[148] المنبقة: المصطفة المستوية

[149] السانحُ: ما أتاكَ عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك، والبارح: ما أتاك من ذلك عن يسارك؛ والسُّنْحُ اليُمْنُ والبَرَكَةُ؛ وكان المراد به أن يحل عليه طير السعد.

هارب قد نفس من خناقه، وأمن من لحاقـه، وأبقي عليه، وأحسن إليه، ومن وادعٍ قد حيط ودعي، وصين وحمي، وصار من جميل الرأي فيـــه، وصالح الاعتقاد له، في الجانب الأعز، والحصن الحرز، فلم يرض الله فيهم ما رضيناه، ولم يمض لهم ما أردناه[150] للسابق من جرائمهم، والسالف من جرائرهم، والمستتر لنا في قضائه جل وعز، من تخويلنا نعمهم وأموالهم، وتمليكنا ديارهم وأعصارهم[151]، فكانوا الفاتحين دوننا أبوابها، والمسببين لها أسبابها، بالفائل[152]، والخائب من تأميلهم، وعبد مولانا الملك السيد الأجل المنصور عضـــد الدولة وتاج الملة أطال بقاءه يقول مرتجلاً ومذكراً:

قــل للهمــام المستطيـل	بقدره السامي الجليـل
يــذكـر أبيــاتي الـتي	أنشدته قبـل الرحيـل
فقـد ضمنـت لـه الـذي	قد نال من راع كفيـل
لــولا إتقــاء البغي قـد	بشرتـه يـردي القتيـل
وكذاك يمضي من نجا	من سيفـه عمـا قليـل
مـــازال ذلــك بينـــاً	للعين متضـح الدليـــل
فالحمــد للــه الـــذي	نقع الصدور من الغليل

والحمد لله حمدا بادياً عائداً، ناميا زائداً، يتضاعف على الأوقات، ويترادف على الساعات، حتى يبلغ منه ما يرضيه، ويؤدي إليه الحق فيه، ولا قطع الله عن مولانا عادة المزيد إذا ظن أن قد إنتهى، والإيفاء إذا خيل أن قد إستوفى، وجعل خير هذه الدنيا الفانية أقل ما يحبوه به، وينقله إياه، وخير تلك الباقية أفضل مـــا يعده له، ويرقيه إليه، آمين رب العالمين. وأنا أطال الله بقاء مولانا الملك السيد ولي النعم عضــد الدولة وتاج الملة، ملازم للخدمة في الدار المعمورة، ومواظب على مجلس الأستاذ أدام الله عزه، تصرفـــا من الأمر العالي على ما سبق، وإنتظاراً منه لما يرد، ومن الله أستمد التوفيق لما زادني عنـــد مولانا حظوةً وزلفى، وكسبني لديه أثرةً وقربى، وهو حسبي ونعم الوكيل" [153]

---

[150] يظهر من إستخدام ضمير الـ (نا) وكأن الصابي مشارك ضمن ما أقدمت عليه دولة عضد الدولة في مصير من ضدهم

[151] جمع عصر بمعنى ملجأ

[152] الفائل من الرأي المخطئ الضعيف

[153] شكيب أرسلان، المختار من رسائل أبي إسحق الصابي

ويبدو أن هنالك أكثر من سبب أدى إلى نقمة عضد الدولة على أبي إسحق، ولكن جميعها تتعلق بالمكاتبات التي كان يكتبها عن عز الدولة والخليفة بحكم توليه ديوان الإنشاء، وهو في هذا إنما يكتب بما يؤمر، ومع ذلك فإن طبيعة الكلمات والألفاظ مما يمكن أن يحاسب عليه. وفي هذا الخصوص يشار إلى أن هنالك أمران أنكرهما عضد الدولة على الصابي أشد الإنكار. أما الأول فهو، كما يشير القفطي، فهو نسخة كتاب الصلح الذي عقد بين عضد الدولة وعز الدولة حيث تقدم عز الدولة إلى أبي إسحق لينشئ نسخة يمين بينهما، فأنشأها وأحكمها إلى الحد الذي لم يجد فيها عضد الدولة مجالا لنكثها والإلتزام بها والحلف عليها، وهكذا فإنه لما أخذ العراق سجن أبا إسحق[154] والسبب الآخر الأكثر خطورة حسبما تشير أكثر المصادر هو الكتابات الفجة التي كانت تصدر عن عز الدولة والتي يلزم أبا إسحق بكتابتها وكانت الرسالة التي نقمها عليه عضد الدولة، كتاباً أنشأه عن الخليفة، في شأن عز الدولة بختيار، وهو: " وقد جدد له أمير المؤمنين، مع هذه المساعي السوابق، والمعالي السوامق، التي يلزم كل دان وقاص، وعام وخاص، أن يعرف له حق ما كرم به منها، ويتزحزح له عن رتبة المماثلة فيها "، فإن عضد الدولة أنكر هذه اللفظة أشد الإنكار، وأسرها في نفسه، إلى أن ملك العراق، فحبسه[155]. كما أن الوزير ابن بقية حينما أقنع عز الدولة على إخراج الصابي من السجن في المرة الأولى كان قد اشترط عليه أن يسلم رسائل عضد الدولة إليه وكذلك الرسل الذين يرسلهم، وقد اضطر الصابي في أحد المرات إلى تسليم رسول عضد الدولة إلى ابن بقية، وقد عرف بذلك عضد الدولة، وكان المحسن بن أبي إسحق قد توسط لدى أبيه بعدم تسليمه، فحفظ عضد الدولة، بعد أن أخبره رسوله، للمحسن حسنة بفعلته هذه كما سنرى، وسيئة لأبي إسحق.

وكان القبض على الصابي وحبسه كما يروي حفيده هلال بن المحسن وتناقلته المراجع في يوم السبت لأربع بقين من ذي القعدة سنة سبع وستين وثلاثمائة. وكان ذلك بأمر من عضد الدولة وهو في الموصل. وتشير رواية ذلك نقلا عن الهلال بن المحسن على لسان جده الصابي حيث يقول:

---

[154] القفطي، تاريخ الحكماء

[155] الحموي، معجم الأدباء

" وحدثني جدي قال: كنت جالساً بحضرة أبي القاسم المطهـــر بن عبد الله، وزير عضد الدولة، في يوم القبض علي، إذ وردت النوبة، ففضت بين يديه، وبـــدأ منها بقراءة كتاب عضد الدولة، فلما انتهى إلى فصل منـــه، وجم وجوماً بان في وجهـــه، فقال لي أبو العلاء صاعد بن ثابت: أظن في هذا الكتاب ما ضاق صدراً به، وقمت من مجلسه لأنصرف، فتبعني بعض حجابه، وعدل بي إلى بيت من داره، ووكل بي، وأرسل يقول لي: لعلك قد عرفت مني الانزعاج عند الوقوف على الكتاب الوارد من الحضرة اليوم، وكان ذلك لما تضمن مـــن القبض عليك، وأخذ مائة ألف درهم منك، وينبغي أن تكتب خطك بهذا المال، ولا تراجع فيه، فوالله لا تركت ممكناً في معونتك وتخليصك إلا بذلته. وقد جعلت اعتقالك في داري، ومقامك في ضيافتي، فطب نفساً بقولي، وثق بمـــا يتبعه من فعلي. وقبض على ولديه أبي علي المحسن، والدي، وأبي سعيد سنان، عمي. فلما تقدم عضد الدولة إلى أبي القـاسم المطهر بالانحدار لقتال صاحب البطيحة، سأل عضـــد الدولة إطلاقه[156] والإذن لـــه في استخلافه، بحضرته، فقال له: أما العفو، فقد شفعناك فيه، وينبغي أن تعرفه ذلك، وتقول له، إننا قد غفرنا لك عن ذنب، لم نعف عما دونه لأهلنا[157]، يعني: عـــز الدولة والديلم، ولأولاد بيتنا، يعني: أبا الحسن محمد بن عمر وأبا أحمد الموسوي[158]، ولكنا وهبنا إساءتك لخدمتك، وعلينا المحافظة فيك على الحفيظة منك، وأما استخلافك إياه بحضرتنا، فكيف يجوز أن ننقله من السخط والنكبة إلى النظر في الوزارة، ولنا في أمره تدبيـــر. وبالعاجل، فتحمل إليه من عندك ثياباً ونفقة، وتطلق ولديه، وتقدم إليه عنا يعمل كتاب في مفاخرنا، فحمل إليه المطهر ثياباً ونفقة وأطلق ولديه، والدي وعمي، ورسم له تأليف الكتاب في الدولة الديلمية، وانحدر المطهر، وبقي أبو إسحاق في محبسه وعمل الكتاب، فكان إذا ارتفع جزء منه، حمل إلى الحضرة العضدية، حتى يقرأه ويتصفحه، ويزيد فيه، وينقص منه،

---

[156] فقد عُرف عضد الدولة بفضل أبي إسحق وقيل له: مثل مولانا لا ينقم على مثله ما كان منه، فإنه كان في خدمة قوم لا يمكنه إلا المبالغة في نصحهم، ولو أمره مولانا بمثل ذلك إذا استخدمه في أيه، ما أمكنه المخالفة.

[157] يعني بأهله عز الدولة الذي قتله وهو إبن عمه

[158] أبو الحسن هو محمد بن يحيى بن الحسين بن أحمد بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب، ولد سنة 315هـ، وكان مقدما على الطالبيين وكان عضد الدولة يبغضه لكثرة ماله ونفوذ أمره فقبض عليه واستصفى ماله. وأبو أحمد الموسوي هوموسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق والد الشريفين الرضي والمرتضى، كان سيدا عظيما ومطاعا.

فلما تكامل على ما أراده، حرر وحمل كلاماً محرراً، فيقال: إنه قرئ عليه في أسبوع، وتركه في الحبس بعد ذلك سنة"[159]

ويُستغرب من إقدام عضد الدولة على سجن الصابي بعد أن طابت نفسه إليه وأخذ الأمان منه ثم خاطبه بالصفح وهو في الموصل، بل وكما تشير القصيدة السابقة أن الصابي كان قد خاطبه قبل خروجه إلى الموصل وألقى عليه هذه القصيدة مودعا وداعيا بالنصر، والتي يظهر من خلالها أنه عاود إلى الخدمة ولكن ليس بدرجته السابقة بمقدار ما ضمن مجلس الكتاب. ثم ما خصه عضد الدولة بالمكاتبات التي سبق وأشرنا إليها، وفرح أبو إسحق بعودة الأمور إلى مجاريها بحسبما يكتب في الرسالة الثانية التي تشير إلى عودته إلى منزلته في إدارة شأن الدولة. ولكن الأمر لا يسلم من غضبة الأمراء وبخاصة من مثل عضد الدولة الذي يشير بنفسه أنه فتك بأبناء أهله وأولاد بيته كما في أعلاه فكيف بمن هم من عماله. ويشار أن غضب عضد الدولة عليه بسبب ما دار في الموصل، ذلك أن عضد الدولة لما ملك الموصل أخرج له كاتب أميرها السابق أبو تغلب الحسابات والمكاتبات التي كانت بين عز الدولة وأبي تغلب لينظر فيها، ويبدو أن فيها الشيء الكثير من كتب عز الدولة إلى أبي تغلب بإنشاء أبي إسحاق وخطه فكان الكاتب يذّكر عضد الدولة بذلك، لعداوة كانت بينه وبين أبي إسحق، ويظن أنه أوقد الحقد وحرك ما كان في نفس عضد الدولة، حتى كتب من هناك بالقبض عليه.

لقد كان للشفاعات قيمتها ولكن الأمر لم ينته بالإفراج الكامل، بل كان مقرونا بأن يصنع أبا إسحق كتابا في آل بويه وأخبارهم وتاريخ الدولة الديلمية ويشتمل على ذكر قديمه وحديثه، وشرح سيره وحروبه وفتوحه. فامتثل الصابي أمر عضد الدولة وافتتح كتابه المترجم بالتاجي، فاشتغل في منزله به، وأخذ يتأنق في تصنيفه وترصيفه، وينفق من روحه على تقريظه وتشنيفه، فرفع إلى عضد الدولة أن صديقاً للصابي دخل عليه يوماً فرآه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبديل والتبيض، فسأله عما يعمله من ذلك فقال: أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها، وقد نقل ذلك إلى عضد الدولة فانضاف تأثيــر هذه الكلمة إلى ما كان في قلبه من أبي إسحاق. وحرك من ضغنه

---

[159] هلال الصابي، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء

الساكن، وأثار من سخطه الكامن، فأمر بأن يلقى تحت أرجل الفيلة[160] ليقتل. فأكب نصر بن هـرون ومطهر بن عبد الله وعبـد العزيز بن يوسف[161] على الأرض يقبلونهـا بين يديـه، ويستشفعون إليـه في أمره، ويتلطفون في استيهاب دمه، إلى أن أمر باستيحائه مع القبض عليه وعلى أشيائه واستئصال أمواله، فبقي في ذلك الاعتقـال بضع سنين إلى أن تخلص في آخر أيام عضـد الدولة، وقـد رزحت حاله وتهتك ستره.[162]

والغريب أن أبا إسحق لم يذكر هذه اللفظة حتى بعد خروجه من السجن ولم يذكرها عنه حفيده هلال بن المحسن على كثرة ما روى عن جده. وليس الأمر سهلا في أن يغلط أبو إسحق مثل هذه الغلطة وهو الذي عرف بطش عضـد الدولة ثم العقوبات التي نالها منـه وسعيـه الدائم في محاولات استرضائه التي بذل فيهـا أبو إسحق ما بذل من ماء الوجـه والمخاطبة والسعي للخدمة المخلصة. وإن سجنه بحسب الرواية جاء بأسباب المكاتبات التي كتبها هو عن عز الدولة لا بأسباب مواقف له أو تصريحات منه بخصوصه. فكيف يمكن أن يطلق مثل هذه اللفظة وهو السياسي الذي خبر الناس وذاق من الويـلات ما ينبغي أن يقوي نزعته إلى الحذر والتستر، بالإضافة إلى ما يعلمه من وجود حساد حوله يكيدون له. كما أن التعامل مع الكبراء فن أتقنه أبو إسحق، لكن يبدو أن حظه السيء كان غالبا ما يخونه وهذا ما يثبته في الكثير من كتاباته وأشعاره. وإن صدق ذكرها على ما أصبحت شائعة بحكم سجعتها أيضا وذلك ما عرف به أبو إسحق، فإن تحليل الأمر يوقفنا على أنها ربما كانت لسببين: الأول، أن الصابي كان يثـق بالشخص الذي قالها له ثقة تامة ولـم يدر بخلده أنه سينقلها عنه، والثاني، أنـه شعر بالاشمئزاز مما كان يدونه لعدم ثقتـه بمصداقيته خصوصا أنه كان كلما أنهى جزءا من الكتاب حُمل إلى عضد الدولة فيقرأه ويزيد فيه

---

[160] إن أسلوب الإلقاء تحت أرجل الفيلة هو من أساليب القتل المعتمدة وقد فعل ذلك عضد الدولة بالوزير بن بقية وكان وزيرا عمه عز الدولة في بغداد، حيث كان يبغضه، فلما ملك بغداد أمر بإحضار إبن بقية وألقي به تحت أرجل الفيلة فقتلته، ثم علق لإبن جثه على عمود في رأس الجسر ببغداد وبقي معلقا حتى مات عضد الدولة.

[161] نصر بن هارون هو وزير عضد الدولة ثم إشترك في الوزارة بينه وبين المطهر بن عبد الله، ولما توفي المطهر سنة 369 إنفرد هو بالوزارة وهو نصراني. أما عبد العزيز بن يوسف فكان كاتب عضد الدولة وصاحب ديوانه ويعد من وزرائه، كما وزر لأولاد عضد الدولة بعد وفاته.

[162] الثعالبي، يتيمة الدهر

وينقص[163] وربما وقف الصابي على الأكاذيب التي طلب منه ذكرها ووضعها بطريقة تبدو وكأنها حقيقية وصحيحة، فقد قال قولته التي صارت مثلا على التزوير في التأريخ خاصة ذلك الذي يدونه المنتصرون الذين يريدون تمجيد شأنهم وحالهم ويرغبون بأن يخلدهم التأريخ. وإلا فإن مجرد تكليف الصابي من قبل عضد الدولة بكتابة كتاب تأريخي عن الدولة الديلمية وآل بويه يعد شرفا للمُكلف وغاية ربما يحسده عليها غيره من الكتاب الذين كانوا سينالوا شرفا بمثله، إلا أن معرفة عضد الدولة بقدرة الصابي من جهة وبقيمته المبرزة في ميدان عمله كان وراء ذلك التكليف الذي كانت ستؤول نتائجه بخير عميم وتقدم مبرز. إلا أن حظ الصابي، كما ظل يلومه دائما، كان وراء تلك القولة ووصولها لعضد الدولة فكان منها ما كان من هتك حال الصابي، بعد أن كان الرئيس والوزير في ميدانه. ومع ذلك فإن زلة أبي إسحق إنما كانت في ميدان السياسة والكرسي والحال، أما موقعه في ميدان الأدب فظل في المستوى الأعلى، بل أن ما كتبه نثرا وشعرا وهو في سجنه ومحنته قد أضاف الكثير إلى بلاغته والصور التي قدمها ذلك أنه كان يكتب بأرقى ما يكون أملا في أن تشفع له كتاباته وتحظى بالقبول من عضد الدولة فيعفو عنه.

أبو إسحق الصابي في السجن

لقد تم حبس الصابي مرتين، الأولى كانت على يد عز الدولة ووزيره ابن بقية بسعاية من ابن السراج كما مر بنا في سنة 364. والثانية بحسب ما يثبت حفيده هلال بن المحسن يوم السبت لأربع بقين من ذي القعدة سنة سبع وستين وثلاثمائة كما قبض على ولديه سنان والمحسن وسجنا معه. ويهمنا أن نثبت أن أمر عضد الدولة قد نفذ بهتك أسرة الصابي وإلا لماذا أمر بالقبض على سنان والمحسن أيضا؟ ومع شدة وصرامة الأمر الذي سجن فيه أبو إسحق إلا أن قيمته لدى الوزير أبي القاسم المطهر بن عبد الله قد ساعدت على تخفيف الحبس بما يجعل الأمر دون مهانة في بادئ الأمر على الأقل. ولأن السجن لا على ذنب جناه الصابي ولا على قصور في الخدمة ولا في تآمر أو تأليب أو مطمع في حكم، لذا نرى أن أبا إسحق لم يترك أسلوبا إلا واستخدمه في السعي للتخلص والإنعتاق من السجن، ومن ذاك إسترضاء ولي الأمر والمتحكم في المصير من خلال المخاطبة المباشرة وغير المباشرة ما كان منها نثرا أدبيا بليغا أو شعرا معبرا.

---

[163] أبو شجاع محمد بن الحسين بن عبد الله، ذيل تجارب الأمم ، و ياقوت الحموي، معجم الأدباء

وإعتمد لذلك أيضا مناجاة مساهمة الأصدقاء ومن لهم قدرة السعي له أمام عضد الدولة بالاستمالة والتذكير بالمواقف التي كانت منه أحيانا وبالعتب أحيانا أخرى، كما لجأ إلى وصف الحال بما يرق له القلب. ولأن الفترة التي سجن بها الصابي دامت طويلا، فقد صدرت عنه مخاطبات عديدة بما يمكن إجمالها في هذا الباب لما لها من قيمة أدبية من جهة ولأن هنالك وقائع وجوانب للاعتبار دارت خلالها. فمثلما كان للصابي أصدقاء كثيرون تدخلوا للحفاظ على حياته واستحياء أسرته وماله والرأفة به كما وجدنا ذلك في الطريقة التي عامله بها قاضي القضاة أبو محمد بن معروف، فإننا نجد أن هنالك عددا من الذين أفرحهم مآل الصابي نقمة وحسدا لقدراته وللمكانة التي يحتلها ككاتب في دار الخلافة والإمارة. ولذلك نجد الصابي يقول في إحدى قصائده التي تظهر أبياتها الكثير من الحكمة[164]:

يعيرني بالحبس من لو يحله   حلولي لطالت واشمخرت مراكبهُ

وربّ طليقٍ أطلق الذلّ رقّه   ومعتقل عانٍ وقد عزَّ جانبه

ومَن مد نحو النجم كيما يناله   يداً كيدي لاقته أيدٍ تجاذبه

ولا بدّ للساعي إلى نيل غايةٍ   من المجد من ساع تدبُّ عقاربه

على أن الصابي عانى كثيرا في محبسه ولم يكتم ذلك بل أنه وصفه لابنه المحسن في إحدى رسائله إليه بالقول:

كتبتُ أقيك السوء من محبس ضنك   وعين عدوي رحمة منه لي تبكي

وقد ملكتني كفُّ قطٍّ مسلّطٍ   قليل التقى ضار على الفتك والإفك

صليت بنار الهّم فازددت صفوة   كذا الذهب الإبريز يصفو على السبك

وأكثر من راعى الصابي في سجنه ومحنته هو الوزير المطهر بن عبد الله، فمن بين ما ساعد في ذلك أنه مكن من إطلاق ولدي الصابي. ويبدو أن ذلك لم يتم دفعة واحدة، بل أن عضد الدولة أمر المطهر بالإفراج عن المحسن بن أبي إسحق صاحب الشامة، اكراما لقديم خدمة قام بها. ويروي المحسن أن الخدمة التي رعاها له عضد الدولة وتسببت في إطلاق سراحه هي أنه ساعد رسول عضد الدولة الذي سلمه والده أبو إسحق إلى ابن بقية بعد أن شرط عليه ذلك ضمن شروط إخراج الصابي من سجنه الذي

---

[164] سنورد ما وصل منها في باب شعره

سجنه فيه عز الدولة. ويبدو أن المحسن جهد بوالده أن لا يفعل ذلك ومع ذلك فقد سلمه لابن بقية. وقد أخبر الرسول فيما بعد عضد الدولة بجهد المحسن في تخلية سبيله فحفظها مزية له.[165] وقد أثار إطلاق سراح المحسن تذمر أخيه سنان، وشكواه، ودمدمته على والده الذي قال له:" أي أمر لنا يا بني في نفوسنـا؟ أم أي ذنب لي فيما لطف بـه لأخيك وحرمته؟"[166] وإزاء إلحاح سنان على أبيه فقـد فاتح ابنه المحسن بأن يتم التناوب بينه وبين أخيه في الخروج من السجن، فامتنع المحسن أول الأمر فأصرّ عليه والده حتى إستحياه فاستجاب[167] لأن يحبس أسبوعا ويخرج آخر وهكذا بالنسبة لأخيه سنان. فكتب أبو إسحق إلى الوزير المطهر قائلا:

ابناي عياني كَفَّ الحبس لحظهما	وعـز حسهمـا عـن منظر النـور
أطلقت لي منهمـا عينـا وقد بقيت	عينٌ فصرت من الابنين كالعور
فسـوِّ بينـهمـا في فـك أسـرهمـا	مستوفراً منهما من أجر مـأجور
يفديـك بالأنـفس التي منـنـت بهـا	أبوهمـا وهمـا من كل محذور

فأجابه المطهر:" أن الأمر للملك فهو الذي رسم لي إطلاق ولدك صاحب الشامة (وهذه كنية أخرى للمحسن). ولو كنت مستطيعا للجمع بينهما لفعلت، بل لم أقنع حتى تكون أنت المطلق. فعاوده وقال: إذا كان قد أخذ في تخلية واحد فيجوز أن يتناوبا في الخروج. وفسح المطهر في ذلك"[168]

ومن علامات حفظ الود لأبي إسحق من قبل الوزير المطهر أنه كان يتفقد حاله وهـو في الحبس. واتفق أن المطهر تفقد حال أبي إسحاق في مطعمه ومشربه، فأنكر خلـلاً رآه، وضرب الطباخ ومنع المستخرج من مطالبته ببقية كانت عليه، وحال بينه وبين مخاطبته، وكان ذلك في نوبة خروج ابنه الأصغر أبي علي المحسن، فكتب أبو إسحق إلى ابنه[169]:

---

[165] ياقوت الحموي، معجم الأدباء

[166] ياقوت الحموي، معجم الأدباء

[167] المصدر السابق

[168] المصدر السابق

[169] ابن حمدون. التذكرة الحمدونية

" يا أبا علي، جعلني الله فداك، عشنا بعدك ما شينا، وشبعنا وروينـــا، وأرخت السماء عزاليها[170]، واثعنجرت بما فيها، فغمر الماء الزبى، ونقع من الصدى، ولبست الأرض قناعها الأخضر، ونضت شعارها الأغبر، وعاضنا الغض العميم من المصوح الهشيم، وجزأنا الرطب المخضوم من اليابس المقضوم، فعاشت العاملة والماشية، وهاجت الآبية الغاشية، وارتجعت روايا المطايا، ما أخذت منها المخارم والثنايا، مستردة بمشافرها ما جذب البري بمناخرها، سائمةً بين الكثيف الكث، من الطباق والشث، وسارحة في المناخ الفسيح، من القيصوم والشيح، فنحن في سوابغ من النعم، نرتع فيها رتعة النعم، قد عز عندنا أن يستضاف لدينا ضيف كريم، واستغنى أن يرتضع لئيـــم، وأترعت الجفان وذمـــاً، واستحال القرم بشماً وحالت البطنة دون الفطنة، ومنع الطعام دون تراجع الكلام، فلو أن قساً بيننا لخرس، أو دغفلاً لأبلس، وكأن الشاعر إنما أراد أحدنا بقوله: من الطويل

أتانـــا ولم يعدلــه سحبان وائل　　　بيـــاناً وعلماً بالذي هو قائل

فما زال عنه اللقم حتى كأنه　　　مـــن العي لما أن تكلم باقـــل

فهزيلنا بحمد الله سامن، وضئيلنا بإذن الله بادن، وأخلافنا دارة، وغلاتنا مترعة، ورياضنا مخصية، وعرصاتنا معشبة، ومشاربنا متأقة، وأنهارنا متدفقة، وأشجارنا مورقة مرجحنة، وأطيارنا مغـــردة، وريحنا رخاء، وعيشنا ســـراء، وزماننا ربيع كله، وليلنا معر من أولـــه، ونهارنا ضحى إلى آخره. وقد أخرجنا الله من شدة إلى بلهنية، ومن

---

[170] يرد في رسالة الصابي الكثير من الكلمات التي تتطلب التوضيح ونحن نثبت معانيها بحسب ما ورد في لسان العرب.أرخت عزاليها: كثر مطرها. إثعنجرت: هطلت دونما شيء يحبسها. نضت: تجردت من. المصوح: اليابس. المخضوم: الخَضْمُ أَكلُ الشيء والرَّطْب خاصة كالقِثّاء ونحوه، وكلُّ أَكل في سَعَة ورَغَد خَضْمٌ. مشافرها: شفتها. الشّث: الكثير من كل شيء. القيصوم: ما طال من العشب. الوذم: الفضل والزيادة. القرم: شديد الشهوة. البشم: التخمة. والبِطْنَةُ: الأَشَرُ. وفي المَثَل: البِطْنَةُ تُذْهِبُ الفِطْنَةَ. قسا، القس: النمام. دغفلا: غصبا ومتعا بالنعمة عرصاتنا/ العرصة: هي كل موضع واسع لا بناء فيه. التأق: شدة الإمتلاء. مرجحن: ثقيلة الثمار. معر: ظافر. البلهنية: سعة العيش. المستوبأ: السيء. الماء آجن: المتغير طعمه ولونه. أطت: صاحت وصوتت من ثقل ما عليها. الإدالة/ الدأل: الختل. الأحوص: الشاعر الأموي عبد الله بن محمد بن عبيد الله فيما قد يكون من أشهر من نفي عن وطنه من الأولين هو الأحوص، الذينفاه إلى دهلك، الخليفة الأموي الأتقى عمر بن عبدالعزيز، بعد أن تفاقمت شكاوى الناس من خليع شعره، وتعرضه لأعراض المسلمين، فلم ينج من لسانه، من جميلات نساء المدينة المنورة، حتى أشرف القرشيات، من مثيلات عاتكة بنت يزيد بن معاوية، التي تعرض لها بأبيات تقول: يابيت عاتكة الذي أتعزل حَذرَ العدا وبه الفؤاد موكلُ أصبحتُ أمنحك الصدود وإنني قسماً إليك مع الصدود لأميلُ نمه: تحير. باش/ البش: اللطف في الأمر. الهاش: الرخو. القسر: القهر على كره. التغشمر: لغة في الهزل والإستهجان. الطلح والطلاحة: الإعياء والسقوط

ضغطة إلى رفاهية، ومن شقوة إلى سعادة، نأكل الطيب المستمرأ بعد الخبيث المستوبأ، ونشرب البارد العذب، بعد الآجن الملح. وأدركتنا هزة الرعاية، وأطت بنا عند سلاطيننا - اطال الله بقاءهم - رحم الولاية، وأبدلنا من الإطراح محافظة وعناية، ومن الإدالة صوناً ووقاية، وحصلنا في ضيافة سيدنا الأستاذ الكريمة، واستنقذنا من مُلكة المستخرج السيئة اللئيمة، فها هو ذا يكذب دوننا إذا حمل، ويغني عنا إذا نظر، ويتعزل بيتنا تعزل الأحوص بيت عاتكة، يرانا نمه بنجوة، وكنا له بالأمس طعمة، ويصرف أنيابه حسرة، وكنا له قبل اليوم مضغة، ويهر على غيرنا مع الأحرار هريراً، ويملأ أسماعنا فيهم زئيراً، قد ذلت لنا من بينهم صعبته، ولانت في أيدينا صعدته، وجار على عجمنا عوده، ومال على غمرنا عموده، فطرفه مغضوض، وإبهامه معضوض، ومنار عظمته مخفوض، ومبرم هيبته منقوض. قد شكل عنا بشكال، ونشطنا على رغمه من عقال، فهو بالصغر باش بنا بعد اكفهرار، وهاش لنا بعد اقشعرار، ومتبسم في وجوهنا بعد تجهم، ومقيد ألفاظه عنا بعد تهجم، ومتثعلب في مخاطبتنا بعد تقسور، ومصانع بعد تغمشر، وذلك ألبسناه الله من عز الرضى وصلاح المنقلب والمفضى. والحمد لله رب العالمين، وإياه نسأل أن يبلغنا منتهى آمالنا، والغاية من اقتراحنا في هذه الدولة التي تقادمت فيها علائقنا، واستحكمت وثائقنا، ولم تزل نعمها متوقعة مضمونة، ونقمها مصلحة مأمونة، ونحن الآن طلائح نكبة، وطرائح محنة، قد أوجب الله لنا فيها الثواب بعد العقاب، والجنة بعد الحساب، والتعويض بعد التمحيص، والتأنيب بعد التخصيص، وبالله التوفيق"

فأجابه إبنه أبو علي: " وصلت معه سيدي - أطال الله بقاءه - مبشرة بالغيث الذي غمر الورى، وروى الثرى، وبلغ الزبى، ونقع الصدى، وحرش الضباب، وأهاج الذئاب، وأسال التلاع، وملأ البقاع: من البسيط

فن بمخلفِه كمَن بنجوَتِهِ والمستكنُّ كمَنْ يمشي بقرواحِ

قد لبست الأرض أفخر حللها، وتحلت بعد عطلها، وابتسمت عن نوارها، وضحكت عن زوارها، وثقلت بعد خفها، وتضوعت عن نسيم عرفها، بالكلأ الذي طبق البلاد، وعلا الوهاد، وعم السهوب، وشفى القلوب، فالحاطب بطيء الأوبة، والقابس قرين الخيبة، قد جن ذبابه، ونعب غرابه، وسمنت حواشيه، وغرزت مواشيه، فكأن الثلج في مواطنها، والقطن المندوف بين معاطنها، يتطرف ولا يتنحى، ويتتبع ولا يستقصى. قد أكثبها السعدان، وأحسبها المكر والضيمران، فما تبرح عن مأوى ولا تنزح عن طلب

مرعى، قد ألقت رعاتها عصيها، واستوقفت مضاجعهـــا، وجعلت حبالها على غواربهـــا، وأهملتها في مسارجهـــا، فانداحت بطونها، وانبسطت غضونها، واستحشت أكرعها، واستحنت أضلعهـــا، فكأن القائل لها وصف، وإياها عنى، في قوله: من الخفيف

إبلي الإبـــل لا يحوزهـــا الـــرا عون مج الندى عليها الغمـــام

سمنت فاستحش أكرعها لا النـ ـي نـــي ولا السنـــام سنـــام

وما ألبسه، أدام الله تأييده، من سوابغ النعم، ومنحه من مطايب الطعم، وأترع له من الجفان الرذم، وشمله من أريحيات الكرم، حتى كظ البشم، وذهب القرم، وأودت الفطن، وعييت اللسن، وصار قس في خطابته كباقل، إذ عي عن حسابه ودعفل كبعض الأعراب وقد سئل عن النضناض ففتح عن فيه، وأدار لسانه فيه، أو كأحمد بن هشام الذي استطرد القائل عليه بقوله: من الطويل

وصافيـــةٍ تُغْشي العيونَ رقيقـةٍ رَهينـــةِ عَـــامٍ في الدِّنـــانِ وعَـــامِ

أَدَرْنَا بها الكأسَ الرَّوِيَّةَ بَيينـا من الليلِ حتى انجابَ كُلُّ ظلامِ

فما ذَرَّ قَرْنُ الَمسِ حتَّى كأنَّنا من العيِّ نحكي أحمدَ بنَ هشامِ

أو كأنا في إجابته التي بعد منها المرام، وتقاصرت دونها الأفهام، فهي كالسماك في علوه، والعيوق في سموه، تحرن في يد مقتادها، وتعز على مرتادها، محاولها مقهور، والسالك إليها حسير. وضربت معه - أدام الله تأييده - بالسهم الفائز، وأخذت بالنصيب الوافر، في كل ما عدد ووصف، وأبـــان وعرف، من إطلال السعود، وكبت الحســـود، وانحسار النوائب، وإسعاف المطالب، وعود السلطان، أطال الله بقاءه، إلى ما يوجبه علاه، ويقتضيه إياه، من قديم الحرمة، وســـالف الموالاة والخدمة، له من المحافظـــة على الولي المخلص، والعبد المتحقق، بعـــد التهذيب والتأديب، اللذين لـــم يعدوا الإصـــلاح ولم يتجاوزوا الإرشـاد، والحصول في كنف سيدنا ومولانا الأستاذ الجليل، أطال الله بقاءه، الذي من تبـــوأه سلم ونجا، ومن تنكبه هلك وهوى. وضيافته التي وضحت سبلها، واشتهرت طرقها، وجواره العزيز الذي لا تستطيعه النوائب، ولا تتخونـه الحوادث، والإنقاذ من ملكة المستخرج، القصير النسب، الدقيق الحسب، الذي لا يراقب، ولا يخاف العواقب، ولا تدركه هزة، ولا تعطفه أريحية، والخروج عن يده الكزة الأصابع، القليلة المنافع، اللئيمة الظفر، الكثيرة الضر، التي لا مخلص لمن وقع بين أناملها، ولا منتزع لمن نشب في مخالبها.

فالحمد لله الذي كفها عنا بعد الانبساط، وقصرها بعد الاشتطاط، وجعل مقلها يكدمها دوننا عضاً، ويبدلها بالبسط علينا قبضاً، قد ذللته الهيبة، وقيدتـه الطاعـة، فأنس بعد نفاره، وعدل عن ازوراره، حمداً يقضى له الحق، ويؤدي الفرض، ويمتري المزيد من النعم، ويؤمن نوازل النقم، وإياه أسأل أن يجعل سيدي في حماه الذي لا يرام، ويلحظه بعينه التي لا تنام، ويجريه على العادة، ولا يقطع عنه المادة، بمنه وقدرته" [171]

إن هاتين الرسالتين اللتين كتب أحدهما أبو إسحق والأخرى جوابا من ابنه المحسن الذي كان أديبا فاضلا أيضا، تظهران عميق الإحساس ودقة التصوير وبلاغة التعبير ، وتكشفان عن الصعوبات التي كان يعاني منها الثلاثة في السجن، وأثر التوصية التي قام بها الوزير المطهر وما آلت إليه من نتائج. ذهب طعمها وتحسين حالها على المسجونين في ذاك الزمان، وبقي عبق أدبها وحسن سبكها وتخير ألفاظها إلى اليوم فيما يدار في مجالس الأدب تصويرا لبديع الكلام.

في سنة 369 هـ تم إطلاق سراح ولدي الصابي، وظل هو رازحاً في السجن. وقد تميزت الفترة التي قضاها أبو إسحق في السجن بالخصوبة الأدبية من خلال ما كان مطلوبا منه في وضع الكتاب الذي كلف به من عضـد الدولة والذي سمي فيما بعد بـ" التاجي" ويظهـر أن التسمية جاءت باقتراح من أبي إسحق تيمنـا باللقب الذي سبق وأقترحه على عضد الدولة وهو " تاج الملة" وقد عاش في السجن حالة الغربة والفقر والمهانـة التي لا يرتضيها لنفسه ولكن الخوف من بطش عضد الدولة الذي أوشك أن يضعه تحت أرجل الفيلة لتقتله قد وجه أبا إسحق وجهة الاستعطاف والصفح طالما يعلم بأن لا أمل له في غيره. ولذلك فقـد أكثر الصابي في رسائله وأشعاره من مـدح عضد الدولة وطلب الكرم والاستماحـة وقد إستغل مختلف السبل في ذلك سواء المناسبات الدينية أو الفتوحات أو السفر والزيارات وكان يقرن رسائله مـع بعض الهدايا التي قيمتها في التذكيـر وليس في التكثير. فله من كتاب:" أنا أعتصم بالله الذي يسلم من إسترجع إليه تائبا، ولا يخذل من إستنصر بـه منيبا، وبمولانا الملك المنصور عضد الدولة وتاج الملة، أطال الله بقاءه، الذي لاتبور عنده حرمة، ولا يحقن في فنائه ذمة، ولا تكون بلية مثلي من الخدم المخلصين، والعبيد المطيعين، في أيامه المشرقة إلا إصلاحا

---

[171] ابن حمدون، التذكرة الحمدونية

لا إطراحا، وتهذيبا لا إجتياحا، ومجـازا إلى نعم سابغـة يوليها، وعوارف صادقة يسديها" [172]

ونلاحظ عبارات الاستماجة في قصيدة طويلة كتبها أبو إسحق سنـوردها في بـاب شعــره نقتطع منها قوله:

شهدت لئن أنكرت أنــك صنتــني ولم أرع ما أوليتني من ترفق

لقد ضيّع المعروف عندي واصبحت ودائعه مودوعـة عنـد أحمق

خدمتك مـذ عشرون عـامـا موفقـا فهب لي يوماً واحداً لم أوفق

وكتب إليه من الحبس وقد علم أنه متوجه لزيارة مرقد الإمام علي بن أبي طالب في الكوفة وهي قصيدة طويلة وتنم عن قدرة وبلاغة ورقة في تصوير الحال شعرا، وهو يعرف أن عضد الدولة ممن حسن أدبه وتذوقه للشعر، يقول:

توجهت نحو المشهــد العلم الفــردِ على اليمن والتوفيق والطائر السعد

تـــزور أميــر المــؤمنين فيالـــه ويالك من مجــد مسيخ على مجـد

فلــم ير فــوق الأرض مثلك زائــراً ولا تحتهـــا مثل المــزور إلى اللحــد

فذكراك جهري حين يطرق زائري ونجواك سري حين أخلو بها وحــدي

فلا تبعدني عنــك من أجل عثــرةٍ فإن جيـاد الخيل تعثر إذ تـخدي[173]

ومن قصيدة أخرى يستقرئ له النصر حينما أوشكت جيوش عضد الدولة على إحتلال جرجان[174] وينبأه بنصر ربما تكون فيه له البشرى، فيقول:

تصبّــح بعزٍ واعتـــلاءَ جدودِ وابشر بخير واطــراد سعودِ

وقد نـــزلتْ منـه إليك هـديةً بجرجان ما محصولها ببعيد

وما بيننا إلا المسافةَ فانتظر ورودَ بشير فوق ظهـــر بـريدِ

ويكثر أبو إسحق من ذكر صفات عضد الدولة في إشارات منه للوصف وبيان التوصيف الذي ربما ينوله منه نائلة، وتطوله طائلة فجاء هذا الذكر بما يوثق لعضد الدولة خصائص لا نعرف مدى دقة توافر بعضها وبخاصة الذاتي، ذلك أن للرجل

---

[172] إبن المعمر، لقاح الخواطر وجلاء البصائر. مخطوطة بجامعة كامبرج برقم 139 Q9

[173] الخيل تخدي: تسرع في السير وتزج بقوالمها

[174] تم إحتلال جرجان سنة 371 هـ بواسطة مويد الدولة بعد أن جهزه والده عضد الدولة بجيش قوي لهذه المهمة: ذيل التجارب

خصائص وصفات في الشجاعـة والعلم والأدب وتشجيع البنـاء والإصلاح وغير ذلك مما ترويـه كتب التأريخ والإنجازات التي حققها على مدى حكمه. و نقتطع من بعض مايصفه به أبو إسحق لقيمة البلاغة وجمال الكلمة وحذق السبك، يقول:

".. هو لطيف الحس، صدوق الحدس، ذكي الألحاظ، مسدد الألفاظ، عفيف الجوارح، نظيف (الجوانح)، قابض يده على مفارقة الأمام، مقيد لسانه عن هجر الكلام، ناظر إلى العواقب من بعد، متناول للغايات عـن قرب، غليظ على أهل العناد، متعطف لأهل الوداد، حليم إذا غضب، (رصين) إذا طرب، متعاص على التعنف، منقاد مع التلطف، له من مروءته عين على خلوته، ومن دينه رقيب على نفسه..."، ومنها " بعقله المسلط المطلق، وغصبـه الأسير الموثق، ربما نازعته النفس إلى وطر يقضيه، أو غيظ يشفيه، فيمتنع عليها حتى يكرر عليهما فكره، ويشاور فيهما غيره، طلبا لأغراض الصواب، وتطبيقا لمفاضل السداد، وذهابا إلى الأمر الأحزم ، والحديث الأجمل...."، ومنها " ونقماته مختلفة باختلاف المجرمين والجرائم، فإذا كانت في الأولياء والأداني، فيقابلها العقاب والتوقيف، فـإن أغنت، وإلا فالإغلاظ في التعنيف، فإن كفيا، وإلا فالإعذار والإنذار، فإن كفيا، وإلا فإبعاد إلى حد الصلاح لا إلى حد الإطراح، فليس يفضي إلى الغايات إلا مترقيا في درجات، هو في جميعها مائل مع العفو وكاظم على جرة الغيظ... وأما عطاياه فعلى المراتب في الأقدار، وبحسب الأعمال والآثار، فليس فيها محاباة مقصر ولا بخس لمجتهد، ولا يرى على بساطه ولا في أطرافـه مبرز محروم ولا عاجز محظوط، فالميـزان عادل والجزاف زائـل، والواصل إلى (حضرته) شاكر، والمبعد عنها عاذر... [175] قلت: ولست ارى أبا إسحق في هذا الوصف إلا مجاملا متزلفـا أملا في أن تتحول الصفات التي وصف بهـا عضد الدولة إلى سلوك في إتخاذ قرار بشأنه، ذلك أن عضدالدولة نفسه حين خاطب الوزير المطهر يوم أراد إستعفائه من السجن قال لوزيره:

" وينبغي أن تعرفه (أي يعرّف أبا إسحق) ذلك، وتقول له، إننا قد غفرنا لك عن ذنب، لم نعف عما دونه لأهلنا، يعني: عز الدولة والديلم، ولأولاد بيتنا يعني: أبا الحسن محمد بن عمر وأبا أحمد الموسوي. كما مر ذكره.

وفي عدد من كتابات الصابي صنفت على أنها من أبواب الحكمة والنصح للملك وأسلوب تعامله مع الرعية من قرب منهم ومن بعد. ويستقرئ من هذه الكتابات، على

---

[175] إبن المعمر، لقاح الخواطر وجلاء البصائر. مخطوطة بجامعة كامبرج برقم 139 Q9

حكمتها، أنها كتبت لتراعي حاله حينما تصل إلى أغراضها وبخاصة إلى عضد الدولة حيث إنه أول من تلقب بالملك من الأمراء في عصر الخلافة العباسية وإن أبا إسحق قد قصد منها أن تكون شفيعة بالتذكير بالمآثر والإكبار والسمو للملك عن أغلاط من هو أدنى. ومن هذه الكتابات نقتطع البعض وسيرد أغلبها في باب " أبو إسحق الكاتب":

"الملك بمن غلط من أتباعه فاتعظ أشد انتفاعاً منه بمن لم يغلط ولم يتعظ، فإنَّ الأول كالقارح الذي أدبته العثرة وصلحته الندامة، والثاني هو راكب للغرة وراكن إلى السلامة، والعرب تزعم أن العظم إذا جبر من كسره، عاد صاحبه أشد بطشاً وأقوى يداً. الملك القادر أولى بالتأني في حكوماته، والتثبت في عزماته، لأنه إن أخذها على شبهة وأمضاها على غير بينة لم يكن له دافع عنها، ولم يخل أيضاً من مساعد عليها. الملك المنعم إذا أفاض المكارم واغتفر الجرائم، ارتبط بذلك خلوص نية من قرب منه وهم الأقل، وانفساح الأمل ممن بعد عنه وهم الأكثر، فيستخلص حينئذ ضمائر الكل من حيث لم يصل معروفه إلا إلى البعض. الملك أحق باصطفاء رجاله منه باصطفاء أمواله؟ لأنه مع اتساع الأمر، وجلالة القدر لا يكتفي بالوحدة، ولا يستغني عن الكثرة" [176] وحيث لا نعرف كم أفادت هذه الحكم المنتقاة التي صاغها أبو إسحق في توجيه وإمالة بصر الملك عضد الدولة إلى حالته والعفو عنه لكنها وبأسباب محنة أبي إسحق قد صيغت فتوفرت مادة أدبية ذات شأن مبنية على دراية ورجاحة للنصيحة في ميدان الحكم وتسيس شأن الملك والمملكة.

كما لجأ أبو إسحق إلى أصدقائه في تحفيزهم للشفاعة أو إسناده ماديا لتسديد الغرائم التي فرضت عليه. وقد حفظت لنا المخاطبات والأشعار قيم الاستماحة والتعلق وربما العتب في ضرورات الآزرة في المحن. ومن ذاك ماكتب مستنهضا ومعاتبا الوزير عبد العزيز بن يوسف حيث قال:

كفاني علاء حين أفخر أنني أضاف إلى عبد العزيز وأنسبُ

حنته عليَّ الحانيات فصرت في كفالته كالابن وهو له أب

حتى يقول:

ومالك يا عيني البصيرة غمضت جفونك عني حين أبكي وأندب

---

[176] إبن حمدون. التذكرة الحمدونية

وكيف استطبت العيش في ظل نعمة غلامك عنها بالعراء يعذّب

ويعاتب آخرين بالقول:

صديق لكم يشكو إليكم جفاكم وفي قلبه داء من الشوق قاتل

تناسيتموه وهو للعهد ذاكر وللغيب مأمون وللحبل واصل

وكتب إلى قاضي القضاة أبي محمد بن معروف، وقد كان زاره في معتقله، رقعة هذه نسختها: لقد قوى دخول سيدنا قاضي القضاة إلي نفسي، وجدد أنسي، وأعزب نحسي، ووسع حبسي. فدعوت الله تعالى بما قد ارتفع إليه، وسمعه له. فإن لم أكن أهلاً لأن يستجاب مني، فهو أيده الله أهل لأن يستجاب فيه، وأقول مع ذلك[177]:

دخلت حاكم حكام الزمان على صنيعة لك رهن الحبس ممتحن

أخنت عليه خطوب جار جائرها حتى توفاه طول الهمّ والحزن

فعاش من كلمات منك كنّ له كالروح عائدة منه إلى البدن

والعتاب الأكثر شدة كان لابن عمه صاعد بن ثابت الذي يبدو قد أوقف متابعة ورعاية كانت مفروضة منه وقد أحسن أبو إسحق في الوصف بالنسرين حين قال:

أيها السيد قد كنـ ـت إلى الوصل تسارعُ

وتراعينا ببرٍ متوالٍ متتابع

فلماذا قد تسربلـ ـت لنا سربال قاطع

نحن كالنسرين في الصـ ـحبة لكنّي واقع

وعلى الطائر أن يغـ ـشى أخاه ويطالع

ويُذكر أن لأبي إسحق فضلا كبيرا على صاعد بن ثابت، فهو الذي كتب له عن الوزير ابن بقية مخاطبا فيها الأمير من أجل إفراغها وإرجاعها له، سترد ضمن باب مكاتبات الصابي. وكان صاعد حاضرا يوم قبض على أبي إسحق لأنه من خاصته، وقد لاحظ كيف أن الوزير المطهر قد تأثر لقرار عضد الدولة، فكيف يتخلف عن أن يقوم هو بمثل هذه الرعاية وهو الذي يربطه النسب والأدب وخدمة الصابي السابقة له. ولذلك نجد الصابي يعاتبه في رسالة تظهر درجة تأثره منه إلى حد التقريع ربما

---

[177] الثعالبي. يتيمة الدهر

عذر قد تقدم به صاعد إلى أبي إسحق لم يقره عليه، فيقول:" .. فإن كان هذا شيئا يقدم إلى سلوة عني، وجفوة مني، فما أستحقه منك، ولا أتيت ما يقتضي وجـوده، وإن كان عن توان تذهب فيه على سجية وخليقة، فما أحوج محاسنك إلى تهذيبهـا، وتزحزح هذه القـذاة عن جوهرها، وأنا أترك الإغراق في هذا القول، لجهات منها كراهية الغلطة في إستعابتك، أما تراني، جعلت فداك، وأملاكي مأخـوذة، وطعمي مأكولة، ومنافـعي محسومـة، ومضاري معتمـدة، والألسن بما أكره منطلقة، وعما حب معتقلة، وزادي غيـر مبلّغ، ومسكتي غير لائثـة، وأعلام الصواب علي دارسة، وأبوابه دوني مغلقة،.... والمحسن المجمل مـن كان مثلك لا يقول جهرا، ولا يتعهد قبيحا، ولا يسعف برأي يرشد، ولا بسعي يعضد، ولا يكون منه إلا الجواب الواحد، بعد الأيام المتطاولة، عن الرقاع الكثيرة، ولا يتعلق عليه ولا منه سفيه من يأس صريح، ولا إجتهـاد صحيح، فإن كان أحنى الناس على هـذا نعته، وأغلظهم ذاك وصفه، هل جـد بينهما من أتخـذه معولا وأسميه معقلا، وهل ههنـا إلا رفع الطمع من المخلوقين قاطبة وصرف الأمل إلى من لا تحجب عنه الظلامة ويتأخر منه الإدالة."[178]

ومن جميل مـا حصل لأبي إسحق الصابي وهو في الحبس الزيـارة التي قام بها صديقـه الشاعر الملقب بالببغاء[179] وما دار بينهمـا من أشعار كان يتم تناقلها لحلاوتها ورقتهـا وتجاذب أطراف الود فيها بما يصل إلى الرغبة في تقاسم المحنة. وقد تناهت هذه الأشعار إلى عضد الدولة فَرقّ لها، ويقال أنها كانت من أسباب إطلاق سراح الصابي من سجنه. وكان كل منهما يتمنى لقاء صاحبه ويكاتبه ويراسله فاتفق أن أبا الفرج الببغاء قدم مرة بغداد وأبو إسحاق معتقل منذ مدة بعيدة فلم يصبر عنه فزاره في محبسه ثم انصرف عنه ولم يعاوده فكتب إليه أبو إسحاق[180] :

---

[176] إبن المعمر، لقاح الخواطر وجلاء البصائر. مخطوطة بجامعة كامبرج برقم 139 Q9

[177] البغاء هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي، كان شاعرا بليغا وله ديوان شعر، كان كاتبا لسيف الدولة الحمداني، ولما تنقل في بلاد كثيرة. لقب باللغاء لفصاحته، وقيل للثغة في لسانه. وكان بين الصابي والبغاء مخاطبات قديمة، ذلك أن كل منهما توفي كاتبا لأمير ووزير، وقد كلف الوزير أبو تغلب في الموصل كاتبه البغاء بإجابة الكتب التي كانت ترد إليه من عز الدولة وهي من إنشاء الصابي. وكان البغاء كثير الإعجاب ببلاغة الصابي وبما يصله منه حتى في بعض الطقطوقات الشعرية كما كان في طقطوقة وصف القبج والخطاطيف وكذلك في صفة البغاء، وهي مما سنورده في أشعار الصابي.

[178] الثعالبي، يتيمة الدهر

[179] المصدر السابق

[180] المصدر السابق

أبـا الفرج اسلم وابـق وانعــم ولا تـزل   يـزيدك صرف الدهـر حظاً إذا نقص
مضـت مـدة أستــام ودك غـــاليـــاً   فأرخصتــه والبيــع غـــال ومرتـخص
وآنستنـــي مـــن محبسـي بـــزيـــارة   شفت قـرماً من صاحب لـه قد خلص
ولكنهـــا كانت كشجو لطـائـــر   فواقاً كما يستفرص الفارص الفرص
فأحسبك استوحشت من ضيق موضعي   وأوحشت خوفـاً من تذكرك القفص
كذا الكرز اللمـــاح ينجو بنفســه   إذا عـــاين الاشـــراك تنصب للقنـــص
فحوشيت يـــا قس الطيـــور فصاحة   إذا أنشـــد المنظـوم أو درس القصـص
من المنشـــر الأشغى ومـــن حزة الهدى   ومن بنـــدق الرامي ومن قصـــة المقص
ومن صعــدة فيهـــا من الدهـر لهذم[181]   لفرسانكم عند الطـــراش بها قعص
فهـــذي دواهي الطيـر وقيت شرهـــا   إذا الدهـــر من أحداثـه جرع الغصص

فكتب إليه الببغاء جوابه:

أبا حـــامد مـــذ يمم المجد ما نكص   وبـــدرُ تمام مـــذ تكامل مـــا نقص
ستخلص مـــن هـــذا السرار وإنمـــا   هـــلال توارى بالســرار فمـــا خلص
بـرأفـــة تـــاج الملـــة الملك الـــذي   بســؤدده في خطـه المشتري خصص
تقنصت بالإنصاف شكري ولم أكن   علمت بـــأن الحُر بالبـــر يقتنـــص
وصادفت أسنى فرصـــة فانتهـــزتها   بلقيـــاك إذ بالحزم تنتهـــز الفرص
أتتني القـــوافي الباهرات بحمـــل البـ   ـدائع من مستحسن الجـد والرخص
فقابلت زهـــر الروض منها ولم يجـد   وأخرزت در البحـــر فيها ولم أغص
وإن كنت بالببغـــاء قدمـــاً ملقبـــاً   فكم لقب بالجور لا العدل مخترص
وبعـــد فمـــا أخشى تقنص جـــارح   وقلبك لي وكر وصـــدرك لي قفص

على أن كل ذلك لم يفرج عن أبي إسحق كربه وألمه وندمه على خدمة الخلفاء والأمراء والوزراء، فالبلية في أن لا تغتفر زلة حتى وإن كانت الخدمة بحجم دولة، كما إن ضريبة البروز والشهرة لها حسادها والموقعين بها مرة بعد مرة، وليس سهلا على من

[181] اللهذم: الحاد والقاطع

يقع أن يبقى وفير المرتع، إذ أن العلاقات تتأثر بالجاه الطلق لا بالحبس الرتق. ولا يبقى ممن يسهم في الأزر إلا الصديق الصدوق الأغر، الذي يتفقد في النائبات ويحن إلى الفائتات ويؤمل في القادمات، وهم قليل. ولذلك نجد أن نكبة الصابي قد كشفت له الكثير مما فض عنه وبعد منه، فصار يلجأ إلى بث الشكوى في نفسه واليأس والقنوط أحيانا كثيرة تظهر ذلك كتاباته وأشعاره. فيقول في إحدى رسائله: " لأن الناس عندنا

ما خلا الأعيان الشواذ الذين أنت بحمد الله أولهم- طائفتان: مجاملة، ترى أنها قد وفتك خيرها، إذا كفتك شرها، وأجزلت لك رفدها، إذا أجنبتك كيدها. ومكاشفة، تنزو إلى القبيح، نزو الجنادب، أو تدب، دبيب العقارب، فإن عوتبوا، حسروا قناع الشقاق، وإن غولظوا، تلثموا بلثام النفاق"

ومن أشعاره التي تظهر الجزع من الدنيا وهو في الحبس:

نفسي فداؤك غير معتد بها إذ قد مللت حياتها وبقاءها

ولو أن لي مالاً سواها لم أكن أرضى لنفسك أن تكون إزاءها

ومن أخرى:

أما ترين الخطوب استوعبت نفسي وأوثقتني رهيناً بين أشراك

ولم تدع لي سوى نفس معذبة موقوفة بين إرسال وإمساك

ومن أخرى:

فطوراً يسليني التعلل بالمنى وطوراً يكون الموت مني على ذكر

ومن أخرى:

إذا لم يكن بدٌّ من الموت للفتى فأروحه الأوحى الذي هو أسرع

ومن أخرى:

إذا لم يكن للمرء بد من الردى فأسهله ما جاء والعيش أنكدُ

على أن الصابي لم يُترك في محنته لوحده، فقد ظل من يحفظ الود له يتحين الفرص سعيا لخلاصه كما ظلت مخاطباته ومكاتباته وأشعاره لعضد الدولة مما يسهم في تليين الحنق، ورتق الشق، ووصل الحال بما كان منه في بداية الوصال، واستنفاذ حق العقوبة في ما أوجبته التوبة، وتحلحلت العقدة، وقاربت أن تنفرج الشدة، على أيدي من يديم له ذكر مصيبته بالحضرة، ويذكر بالعفو عند المقدرة.

وقد اختلفت الـــروايات في سبب إطلاق سراح الصابي من محبسه، إلا إننا نرجح أن عدة أسباب تظافرت على ذلك بما فيها طول مدة الحبس التي قاربت أربع سنوات، إذ يذكر هلال بن المحسن أنه قبض على جده يوم السبت لأربع بقين من ذي القعدة سنة سبع وستين وثلاثمائة، وأفرج عنـــه يوم الأربعاء لعشر بقين من جمـــادي الأولى سنـــة إحدى وسبعين وثلاثمائة، فكانت مدة حبسه ثلاث سنين وسبعة أشهر وأربعة عشر يوما.[182] في حين يرد في كتاب رسوم دار الخلافة أن مدة حبس الصابي كانت أربع سنين وشهورا.[183]

ويروي ياقوت الحموي عن هلال بن المحسن قوله وسمعت أبا الريان، حامد بن محمد[184]، الوزير، يقول لجدي، وهما في مجلس أنس، وأنا حاضر معهما:لما أنفذت القصيدة اللامية[185] بالتهنئة، عن قدوم عضد الدولة من الزيارة، عرضتها عليه في وقت كان عبد العزيز بن يوسف غيرحاضر فيه[186]، فقرأها، ثم رفع رأسه إلي وإلى عبد الله بن سعدان[187]، وكنت آمنه عليك، وأعلم أن اعتقاده يوافق اعتقادي فيك، فقال: قد

---

[182] ياقوت الحموي، معجم الأدباء

[183] هلال الصابئ. رسوم دار الخلافة

[184] هو حامد بن محمد الأصبهاني، إستخلف على الوزارة وتدبير شؤون الأعمال وجمع الأموال بعد أن كلف عضد الدولة الوزير المطهر بن عبد الله بالمضي الى البطيحة لاحتلالها سنة 369، ولما مات هناك، ظلت الوزارة تناوبا بينه وبين عبد العزيز بن يوسف. تجارب الأمم.

[185] قصيدة أبو إسحق اللامية من روائع قصائده التي أظهر فيها قدرته في تصوير الحال والشكر والثناء والعتب الخجل والإستماحة اللينة ومداعبة الخاطر والتذكير بالماضي والأمل بالخدمة القادمة بما يرق لها القلب، وقد كانت بمناسبة عودة عضد الدولة من زيارة الى مرقد الإمام علي بن أبي طالب.سنوردها في باب شعر الصابي. ومطلعها:

أهلاً بأشرف أوبة وأجلها لأجل ذي قدم يلاذ بنعلها

[186] يبدو أن عبد العزيز بن يوسف ممن لا يؤمن جانبه، ففي الوقت الذي تذكر فيه الروايات أنه أكب على الأرض يقبلها بين يدي عضد الدولة حينما أمر بأن يلقى بالصابي تحت أرجل الفيلة رأفة به وإستحياء بنفسه وأسرته، كما أن الصابي كان يكاتبه من السجن ويحاول إستمالته للتوسط له، وبينهما كتابات وأشعار سبق وأشرنا لها وسيرد بعضها في أبوابه، إلا أن المنافسة في ميدان علو شأن الصابي في الكتابة والبلاغة وكون إبن يوسف من الكتاب اللامعين والذي ربما تغلبه أنانيته في الإستحواذ على الوزارة والتفرد في الكتابة قد جعله يواري في المواقف ما بين راغب وعازب عن أن يصفح عضد الدولة على أبي إسحق إن لم يكن له في خلواته معه ما يقسي الحال أو عدم الذكر لكي لا يخطر ببال. ويظهر ذلك فيما حاكه بخصوص الوزير عبد الله بن سعدان. أنظر الهامش اللاحق.

[187] عبد الله بن سعدان كان حاضرا في المقربين من عضد الدولة، ولما مات وملك بعده إبنه صمصام الدولة وزر بن سعدان له سنة 373 وتذكر أخباره متفرقة في كتاب ذيل التجارب ومن ذاك مقتله بمكيدة دبرها له عبد العزيز بن يوسف الذي تولى الوزارة بعده. وقد كتب له الصابي عددا من القصائد سترد في بابها.

طال حبس هذا المسكين ومحنته، فقبلت أنا وهو الأرض عند ذلك، فقال لنا: كأنكما تؤثران إطلاقه، قلنا: إن من أعظم حقوقه علينا، وذرائعه عندنا، أن عرفناه في خدمتك، وخالطناه في أيامك، قال: فإذا كان رأيكما فيه، فأنفذا وأفرجا عنه، وتقدما إليه عنا بملازمة منزله، إلى أن يرسم له ما يليق بمثله: قال أبو الريان، فخرجت مبادراً، وأنفذت لشكرستان صاحبي، وأنفذ بن سعدان محمدا لأواتيه، وانتظرت عودهمـا بما فعلاه من صرفك إلى دارك، فأبطآ عليّ، وكنت أعرف من عادة عضد الدولة، أنه يتقدم بالأمر، ثم يسأل عنه، فإن كان قد فُعل أمضاه، ولم يرجع، وإن تأخر، فربما بدا له رأي مستأنف في التوقف عنه، فدخلت إلى عضد الدولة في غرض ما، أطالعه به، فقلت له: سمع الله في مولانا ما دعي له، فقال: ما تجدد؟ قلت: شاهد الناس أبا إسحاق الصابئ، وقد أُخرج من محبسه، ومضى إلى داره، فأكثروا من الدعاء والشكر، فسكت. وشغلت عضد الدولة علته، وما أفضى إليه من منيته عن النظر في أمره، إلا أنه وصل إلى حضرته، فيما بين الإطلاق واشتداد العلة، في ايام متفرقة، فتفقده بثياب ونفقات عدة دفعات."[188]

ونجد أبا إسحق الصابي يؤكد ضمنا هذا الدور لعبد الله بن سعدان حين يكتب شاكراً وآملاً فيقول:

ثنـائي لو طولتـه لك قاصـر	وطـولك لو قصـرته لي بـاهـرُ
فكيف نهوضي حين لا أبلغ المدى	بجهدي وعفو الجود لي منك غامر
وما زلت مـن قبل الوزارة جابـري	فكن رائـشي إذ أنت نـاه وآمـر
أمنت بك المحذور إذ كنت شافعاً	فبلغـني المـأمـول إذ أنت قـادر
لعمري لقـد نلت المنى بك كلّها	وطـرفي إلى نيـل المنى بك ناظـر

كما أن الصاحب بن عباد، صديق الصابي، لم يتركه في محنته، بل نراه يتحين الفرص أيضا ليعرض أمر خلاصه على عضد الدولة. ويروى أن الصاحب دخل على عضد الدولة بهمذان، وهو مكب على دفتر يقرؤه، فقال له عضد الدولة: يا أبا القاسم، هذه رسالة لك في بعض فتوحنا، نحن نأخذها بأسيافنا، وأنت تجملها بأقلامك، فقال: المعنى مستفاد من مولانا وإن كانت الألفاظ لخادمه ثم أنشد:

---

[188] ياقوت الحموي، معجم الأدباء

وأنت أكتب مني في الفتوح وما تجري مجيباً إلى شأوي ولا أمدي[189]

فقال: لمن البيت؟ فقال: لعبده أبي إسحاق الصابي. فأمر بالإفراج عنه والخلعة عليه. فكان ذلك سبب خلاصه من نكبته.[190]

خرج أبو إسحق من السجن وحاله قد رزح، وماله قد نزح، وأمره هتك، وشأوه همك، وعليه أن يبدأ من جديد مع أن حاله لم يعد بسعيد. ولذلك نرى أن شكواه قد كثرت وحالته قد هزلت، وعليه أن يفكر من جديد في إعادة ترتيب أوضاعه ما كان منها يتعلق بأسرته التي هو عميدها، وما كان أيضا في أوضاع معيشته وعمله وهو الذي طُبع بالكتابة وجُبل على الخدمة في دار الخلافة والإمارة وليس من السهل أن يكون عمله بغير ذلك بعد أن ذاع اسمه في هذه الميادين وشاع خبره بين المتبارين. خاصة وأنه يذكر ما كان له في عهد أن كان الزمان مصالحا له وكانت أطيابه عليه تترى. فكيف به يعاف ذلك إلى ما هو أدنى. ويحاول ابنه المحسن أن يخفف عنه ذلك وبخاصة فيما يتعلق بالحسرة على فقد المال فيقول له مخاطبا:

لا تـأس للمال إن غالتـه غائلـة ففي حياتك من فقد اللهى عوض

إذ أنت جوهرنا الأعلى وما جمعت يـداك من طارف أو تـالد عرض

فأجابه والده الصابي قائلا:

يـا درة أنا من دون الـورى صدف لهـا أقيهـا المنايا حين تعتـرض

قد قلت للدهر، قولاً كان مصدره عن نية لم يشب إخلاصها مرض:

دع المحسن يحيـا، فهـو جوهـرة جواهير الأرض طرا عندها عرض

والنفس لي عـوض عما أصبت بـه وإن أصبت بنفسي فهـو لي عوض

أتركـه لي وأخاه، ثـم خذ سلبي ومهجتي، فهمـا مغزاي والغـرض

ويروى أن هلال بن المحسن حدّث فقال: " قلت لجدي أبي إسحاق، تجاوز الله عنه، وهو يشكو زمانه: يا سيدي، ما نحن بحمد الله تعالى إلا في خير وعافية، ونعمة كافية، فما معنى هذه الشكوى التي تواصلها، ويضيق صدرك بها، وينتغص عيشك معها؟ فضحك

---

[189] كان هذا البيت ضمن قصيدة كتبها الصابي الى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف يوم كان كاتب عضد الدولة في الفتوحات التي يحققها عضد الدولة وهو بهمدان.

[190] الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء

وقال: يا بُني نحن كدود العسل، قد نقلنا منه إلى الخل، فهو ذا نحس بحموضته، ونأسى ونحزن على ما كنا فيه من العسل ولذته، وأنتم كدود الخل، ما ذقتم حلاوة غيره، ولا رأيتم طلاوة[191] ضده."[192]

وبعد وفاة عضد الدولة سنة 373 عرض الصاحب بن عباد على صديقه أبي إسحق الصابي القدوم إلى فارس والعمل معه وقد استماله بكل السبل، ولكن الصابي آثر البقاء في بغداد بعد أن إعتذر للصاحب كما مر بنا في باب صداقتهما. ومما كتب في قصيدة الإعتذار قوله:

فلو كان لي ذاك الجناح لطار بي   حتى أقبّل ظهر كفِ الصاحبِ

وتذكر بعض المراجع أن الصابي عاد فتولى ديوان الإنشاء أيام صمصام الدولة بن عضد الدولة بعد أن خلفه في الحكم. ومما يظهر ذلك نسخة الجواب الذي كتبه الوزير أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة وهو من إنشاء أبي إسحق الصابي، ونرى فيه أن الصابي يعود إلى سابق عهده في الكتابة الجلية والعبارة البهية والصياغة المتقنة والبلاغة المتفننة، ولذلك حفظتها المراسلات وتنادمتها المنتديات. ومنها " وأما ما خصني الله به من تفويضه إلي وتعويله علي، وإنفاذه أمري في البسط عنه والقبض، والإعلاء والخفض، فلساني يقصر عن ذكره موجزاً مجملاً، فكيف به مشروحاً مفصلاً. والحمد لله على ذلك حمداً ينتهي باتصاله وترادفه، وتوافيه وتضاعفه، إلى مجازاة هذه المنن كلها، وإن كانت استطاعتنا متخلفة عنها وواقفة دونها، وناقصة عن الوفاء بحقها، حتى يتممه عفوه وفضله، وإحسانه وطوله... ولما انتقل إلى جوار ربه (يقصد عضد الدولة) وانقلب إلى كرامته وعفوه، ثنيت وجهي إلى احتذاء مراسمه، وامتثال أوامره، فيما عقده من العهد للملك القائم بعده، الساد ثلمة مكانه، الوارث شرف منزلته، المستقر في علياء رتبته، مولانا صمصام الدولة وشمس الملة، مستملياً فيما أخذت وتركت، وأوردت وأصدرت، من سديد آرائه، ومستضيئاً بوميض لئلائه، وضارباً وجوه النوائب بيمن طائره، وسعادة طالعه، إلى أن تجلت غماؤها، وأسمحَ إباؤها، وتذللت صعابها، وتفللت أنيابها، وضربت الدولة بجرانها، واستعلت بأركانها، واطمأنت على مهادها، وطرف الله

---

[191] الطلاوة: الحسن والقبول

[192] ياقوت الحموي، معجم الأدباء

عين شنائها وحسادها، هــذا على شوائب كانت تعترض ثم تقلــع، وتطل ثم لا تقشع. لا تخلو الدول المتجددة من اعتنـــان أمثالها وأشكالها، وأحسن بها مع حسن عقباها ومآلها."[193]

كما نجد لأبي إسحق شعرا في صمصام الدولة نقتطع منه ما يبين الخدمة في حضرته بما أوجب على الصابي مدحه. ومن ذاك يقول:

يا سنـــة البدر في الدياجي　　وغرة الشمس في الصبــاح

صمصامُ حرب وغيثُ سلم　　ناهيك في البأس والسماح

وقوله:

دامت لمولانـــا سـعـادتـه　　موصـــولة دائمــة تترى

ونال ما أمـــل مـن ربــه　　في هذه الدار وفي الأخرى

وكتب إليه وقد أهداه إسطرلابا:

يعزّ على أن أهدي نحاســاً　　إلى من فيضٌ راحته نضارُ

ولكنّ الزمان اجتاح حالـي　　وأنت عليه لي إذ جار جار

كما أن أبا إسحق لم يتحدد بالكتابات والمخاطبات، بل أن أساسه المبني على علوم الطب والبراعة في الرياضيات قد أهلته لأن يكون له دور في أعمال أخرى، ومن ذاك ما يثبت أنه في زمن شرف الدولة، الذي أخرج أخاه صمصام الدولة من العراق وجلس هو على عرشه، كان قد أمر باستكمال ما قام به عالم بني العباس الخليفة المأمون برصد الكواكب حيث قام ببناء مرصد وثبتت إرصادات ببيان من المحضرين وكان بين الحاضرين بحسب ما كتب خطه بذلك.[194]

ويرجح لنا بأن أبا إسحق لم يستمر طـويلا في خدمــة دار الخلافة والإمارة مـع إن البعض يذكر بأنــه بقي هكذا حتى مات[195] وما يدعم رأينا كتابات الصابي التي يصف بها حالته وبخاصة بعد أن توفى ولده الكبير سنان أبو سعيد، والذي تأثر عليه كثيرا ورثاه شعرا كما مر بنا في ذكر أبنائه وكان ذاك في عام 380 هـ. كمــا أن له من الشعر مـــا يوصف حالته المرضية وأنه أصبح غير قادر على المشي حيث يقول من

---

[193] إبن حمدون، التذكرة الحمدونية

[194] القفطي، تاريخ الحكماء

[195] القفطي، تاريخ الحكماء

قصيدة رائعة:" كنت أخطو فأصبحت أمطو" أي السير على أربع بأسباب علة المفاصل. كما أن الشريف الرضي لما طلب منه إنشاء كتاب عنه إلى الخليفة بتقليده نقابة الطالبيين محل والده وذلك سنة 380 هـ نجد أن الصابي يجيب الشريف الرضي الذي لا يستطيع أن يتأخر له عن خدمة يقوم بها فيقول: على أن عهدي بالعمل بعيد، وذهني بعد المضاء كليل، وخاطري بعد الصحة عليل، وقلبي بعد الفراغ مشغول..."[196]
وقد أثرت الظروف التي مر بها الصابي بما شكلت لديه علات بدنية ونفسية بثها في أكثر من مكان وخاصة في مراسلاته مع الشريف الرضي، ونقتطع هنا بعضا مما كتب للتدليل على ما ذهبنا إليه. ففي إعتذار يقدمه الصابي للشريف الرضي يقول فيه:

أقعدتنا زمانةٌ[197] وزمان عائق من قضاء حق الشريف

ويروى أنه أراد يوما أن يبرهن للحاضرين في مجلسه، وهم كثر، أنه يستطيع الكتابة، فشخصت الأبصار إليه لما فتح الدواة ليكتب، لكنه وضع القلم وقال:[198]

وجع المفاصل وهو أيـ ـسر ما لقيت من الأذى
جعل الذي استحسنته واليأس من حظي كذا
والعمر مثل الكأس ير سب في أواخره القذى

ويستمر الحال بالصابي والمرض يشتد به، ويبقى في حال معيشته يعتمد على ما يصله من الأصدقاء الأوفياء وعلى رأسهم الصاحب بن عباد الذي ظل يصله كعادته التي أجراها له بخمسة آلاف دينار سنويا، ولا نستبعد ما يصله به الشريف الرضي وهو الذي تربطه به صداقة عزيزة وتيمن ومباركة بنيله نقابة الطالبيين على أثر الكتاب الذي أنشأه له، وغيرهم من حافظي العهد والمودّة. ويلوح شبح الموت للصابي ونلمس ذلك من إحدى القصائد التي كتبها للشريف الرضي والتي يقول فيها:[199]

هو الأجل المحتوم لي جدّ جده وكان يُريني غفلة المتواني

---

[196] محمد يوسف نجم، رسائل الصابي و الشريف الرضي

[197] الزمانة: المرض

[198] العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص

[199] الثعالبي يتيمة الدهر

لـــه نذر قـــد آذنتـــني بهجمة لـه لست منهـا آخذا بأمـان

ومع ذلك فإنه يظل يتفاخر في القصيدة، كما سترد في موقعها، بما كان منه وما قدمه في سالف عصره. وما أصـــدق الصورة التي يقدمها لنا واصفا حاله بمنتهى البلاغة في رسالة كتبها لصديقه الشاب الشريف الرضي فيقـــول منها: " أصبحت،.. محمولا حمل الرديف على ظهر الزمان، إن حث إلى مصلحة جنح أو ثني عن مضرة جمح، الأمر كله إليه، والعنان والسوط في يديه، فأنا الراكب وهو الضـــارب، وأنا المملوك وهـــو المالك..."[200]

أما رزء حالته النفسية فيصوره الصابي بقوله:

عجبـاً لحظـي إذ أراه مـصـــالـحـــي	عصر الشباب وفي المشيب مغاضبـي؟
أمـــن الغواني كان حتـى خانـــني	شيخاً، وكان على صباي مصاحبي؟
أمـــع التضعـضـــع ملني متجنبـــاً	ومـــع الترعرع كان غيـــر مجانبـي؟
يـــا ليـت صبوتـــه إلـــي تـــأخرت	حتـــى تكون ذخيـــرة لعـــــواقبـــي

ومع كل ظروف الحالة الصحية السيئة للصابي والحالة النفسية المتأثرة، إلا أنه ظل متوقد الذاكرة بليغ العبارة حاضر الصورة والتصوير، متحكم في الأسرة والمصيـــر، مقتدر على التدبير، حافظ الـــود لمن ود، ومديـــم الوصل على ما تعـــود، ولم يغب عن باله حفظ أهله وصيانـــة حقوقهم، فصار يحظ على رعايـــة شؤونهم كل من خصه بعلاقـــة، وربطته بـــه صداقة. ولذلك كتب إلى الصاحب بن عباد يلتمس أن يديم الصلة التي كان يصله بها إلى أولاده وأحفاده كعادة جارية كما مر بنا، ويوصي الشريف الرضي بالرعاية والحنـــو في قصائد غاية في الروعة والتأثير. وكانت آخر قصيدة كتبها الصابي للشريف الرضي في رجب من عام 384 هـ ويستقرئ من تأريخها أن بين كتابتها وإنفاذها ووفاة الصابي أشهرا قليلة ذلك أن المنيـــة، كما تجمع جميع المصادر، قد وافت ابراهيـــم بن هلال الصابي في شوال سنة 384هـ.

---

[200] شكيب إرسلان، المختار من رسائل الصابي. سترد الرسالة في باب أبي إسحق الكاتب

وفاة إبي إسحق الصابي

ومقبرته ورثاؤه

أجمعت المراجع[201] أن وفاة أبي إسحق كانت يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة من شوال سنة 384 هـ، وقد شذ عنها ابن النديم حيث يثبت في كتابه" الفهرست" أن وفاة الصابي كانت قبل سنة 380 هـ [202]. ولا يمكن الركون إلى هـذا الذكر بأسباب موثقة أبرزها أنه هو الوحيد الـذي ثبت ذلك، كما أن هنالك مخاطبـات دارت بين الصابي والشـريف الرضي يثبت تاريخها بشكل قاطع في الأعوام 380- 384 هـ. وربما يكون الاختـلاف في عمـره تأسيسا على عدم تحديد زمن ولادته بشكل دقيق. فقد أوردت بعض المراجع أن عمر أبي إسحق عند وفاته كان واحدا وسبعين عاما، في حين يرى البعض أنه واحد وتسعون عاما. وقد يكون الترجيح أميل إلى سن الحادية والسبعين منه إلى الحادية والتسعين بأسباب ذكر الصابي لعمره حين خاطب الصاحب بن عباد يوم طلبه للقدوم والعمل بمعيته في بلاد فارس فأجابه بقصيدة اعتذار ورد فيها:

والسّنُ تسعٌ بعدها خمسون قد   شامتْ بَوارق يومها المُتقارب[203]

ولكن ما الذي يمنع أن يكون هنالك خطأ في النقل لتكون:" والسن تسع بعدها سبعون"؟ ذلك أن الفرق هو عشرون سنة، فما يذكر بالسبعين يمكن أن يكون تسعين. وقد أكد الثعالبي في يتيمة الدهر ذلك بقوله:" وكانت سنوه إحدى وتسعين سنة قمرية" كما يذكر في مكان آخر من اليتيمـة " وكان قد خنق التسعين في خدمة الخلفاء، وخلافة الوزراء"، ويثبت أيضـا في إحدى القصائـد التي يوثقها من مخاطبـات الصابي في قولـه للشريف الرضي[204]:

فقد حملت منّي ابن تسعين سالكاً   سبيلاً عليها يسلك الثقلان[205]

---

[201] أبرز المراجع التي ثبتت ذلك هي: يتيمة الدهر، معجم الأدباء، الكامل في التاريخ، تاريخ الحكماء، وفيات الأعيان، المختصر في أخبار البشر، العبر في خبر من غبر، البداية والنهاية، رسائل الصابي والرضي، الوافي بالوفيات، النجوم الزاهرة، هبة العارفين، شذرات الذهب، أعلام النبلاء.

[202] إبن النديم، الفهرست.

[203] شامت: ظهرت ، وشامَ السَّحابَ والبرقَ شَيْماً: نظر إليه أين يَقْصِدُ وأين يُمْطِر، وقيل: هو النظر إليهما من بعيد

[204] الثعالبي ، يتيمة الدهر

[205] ترد في كتاب رسائل الصابي والرضي " فقد حملت مني ابن سبعين سالكا"

كما نقرأ في رسالة الشريف الرضي التي كتبها معزيا الصابي بوفاة ابنه سنان ما نصه "لا سيما ومفقودك هذا فرط بعد أن حلب الدهر أشطره، وعرف خيره وشره، وقارب سنك العالية أو كاد، وبلغ أقصى العمر الكامل أو زاد،..."[206] فإذا كان الأمر كما وصف الشريف الرضي من أن سن سنان كانت عالية وهو بأقصى العمر، فهل يكون ذلك بحدود الخمسين إذا إعتمدنا أن الفرق بين عمر أبي إسحق وعمر إبنه عشرون عاما على أقل تقدير؟ وكيف يوصف من هـو في الخمسين من العمـر أنه بلغ أقصى العمـر بحسب وصف الشريف الرضي؟

ومهما يكن من أمر عمر الصابي إن كان قد جاوز السبعين أو التسعين فإنه عمر متقدم بالقياس النسبي إلى متوسط الأعمار في ذلك الزمان. كما أنه عمر متقدم أيضـا مقارنة بأعمار من راح من بسبب حرب أو مكيدة أو قتل أو سم كما حصل للعديد من الخلفاء والأمراء والوزراء والكتاب الذين عاصرهم الصابي بسبب تغيـر الأحوال وحساسيـة المسؤولية والمنصب.

ويذكر أن الصابي أصابته علة المفاصل في أواخر عمره، وصار يشكو الزمن والزمانة[207]، خاصة وأنه قد فقد بريق وجوده في الدولة بعد أن تهتكت حاله من شدة رزوحه في السجن وإستلاب أمواله وأملاكه، وتحمله مسؤولية ما أصاب أسرته جزاءه وبنتيجة ما أصابه هو.

وقد دفن أبو إسحق في مقبرة في منطقة الجنينة من أرض كرخايا كما يوثق ذلك الشريف الرضي في قصدية كتبها حين مر مرة بقبره حيث يقول[208]

أيعلـم قـبـرٌ بالجُنَيـنـة أننـا أقمنا بـه ننعى النـدى والمعاليـا؟

وتتبعا للمقبرة التي دفن فيها الصابي ، فإن صاحب النجوم الزاهرة[209] يذكر أنه دفن في " الشونيزية"[210] من أرض كرخايا، وإن البحث يوصلنا إلى أن كرخايا ".نهر قرب

---

[206] سنورد نص الرسالة كاملا في باب المخاطبات والرسائل

[207] الزمانة: المرض

[208] الثعالبي، يتيمة الدهر، ومحمد يوسف نجم، رسائل الصابي والرضي

[209] يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

[210] الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد. الشونيزية موقع يقع في الجانب الغربي لبغداد ويعرف الان بجانب(الكرخ)وفيه قسمان الشونيزية الكبرى وفيها مقابر قريش وتضم رفاة عدد من أبناء الخلفاء واقاربهم من القرشيين واشهر من يرقد فيها موسى بن جعفر المعروف بالامام الكاظم المتوفى عام(183 هجرية) وحفيده محمد الجواد المتوفى عام(220 هجرية). وأول من دفن فيها هو جعفر الاكبر بن←

بغداد، وكرخايا نهر يشق من المحول الكبير ويمرُ على العباسية ويشق الكرخ ويصب في دجلة، وكان قديماً عامراً وكان الماءُ فيه جارياً ثم انقطعت جريته بالبثـوق التي انفتحت في الفرات... وفيه يقول الحسين بن الضحاك[211]:

سَقياً ورَعياً لكرخايا وساكنه بين الجُنينة والروحاء من كانا

ومنطقة الشونيزي تسمى اليوم بمنطقة الشيخ معروف في جانب الكرخ من مدينة بغداد[212]، حيث فيها مقبرة كبيرة مازالت قائمة إلى اليوم تسمى مقبرة الشيخ معروف. وقد أخذت إسمها من وجود قبر الشيخ معروف الكرخي فيها.

ولم يصلنا من المراثي التي رُثي بها الصابي غير مراثي الشريف الرضي ومرثية الشريف المرتضى. ونثبت هذه المراثي هنا على أننا سنتاولها بالتحليل في آخر الكتاب فيما متبنا من رثاء أبي إسحق الصابي. أمّا المرثية ذائعة الصيت فهي مرثية الشريف الرضي التي أظهر فيها من المعاني ما يجعلنا نقف عندها مشيرين إلى أنها:

1- كانت من الطول ما فاقت مراثي كثيرة، فقد بلغ عدد أبياتها 82 بيتا.

2- كان مستهلهــا إستفساريا إستفزازيا مثيــرا للدهشة والانبهار بمــا يسهل الترديد والتكرار، ولذلك صار مثار إستهلال من قبل غيره من الشعراء إقتداءً.

3- تمثلت فيها صور البلاغة وجودة التصوير وحسن سبك العبارة والاسترسال والشمول، ما جعل الثعالبي يصفها بأنها فريدة في حسن ديباجها ورونقها، وجودة ألفاظها ومعانيها، وقد أفصح فيها الشريف الرضي عن بعد شأوه في الشعر، وعلو محله في كرم العهد.

4- تضمنت إشارة إلى مفردات سبق وإستخدمها الصابي في رسائله أو شعره ، مما يشيــر إلى متـابعة الشريف الرضـي التفصيلية لما كان يصـدر عـن صديقـه الصـابي

ابي جعفر المنصور المتوفى سنة(150 هجرية) بعد تشييد بغداد، ثم دفن فيها بعد ذلك الامين بن هارون الرشيد. أما الشونيزية الصغرى ففيها مقبرة أيضا تضم رفاة ومقامات واضرحة لعدد من اعلام ومشاهير بغداد منهم الشاعر أبو نواس والشيخ الجنيد البغدادي والسري السقطي وذنون المصري وعلى مسافة غير بعيدة مرقد الشيخ معروف الكرخي. وعلى هذا فالمقبرة في طريق زيارة الشريف الرضي لجده الإمام الكاظم، لذلك فهو يمر به ويذكره.

[210] ياقوت الحموي، معجم البلدان.

[211] المصدر السابق

[212] وتعد من المعالم الأثرية والتاريخية لمدينة بغداد، وتقع على أرض واسعة تحيط بمسجد يعرف بجامع الشيخ معروف الكرخي، وهو من صلحاء بغداد المعروفين بالتصوف والزهد والمتوفى سنة 200 هجرية.

واستحسان ألفاظه فعمل على استخدامها بشكل أو بآخر في قصيدة الرثاء.

5- أظهرت إلتزام الشريف الرضي بقيمة العلاقة وحنو الصداقة على الرغم من اختلاف دين الصابي عن دين الرضي، فلم يمنع ذلك رؤية الرضي لقربى بينهما تفوق البناء على تطابق الدين.

6- بينت جوانب المشابهة والمماثلة بينه وبين الصابي في جوانب نقص الحظ وغفلة الزمن من استحقاق ما يجب أن يكون لو بنيت الأمور على القدرات.

7- أظهرت اللوعة والحسرة على ما سيأتي، وكأن الرضي لا يرثي وحسب، بل يتحسب لفقد الصابي في قادمات الأيام، ولا يرى له خلا بعده، بل وقد تنبأ له في القصيدة أن ذكره سيكون خالدا بالقول: ما مات من جعل الزمان لسانه...

8- رثت الفصاحة والأخلاق والتفرد وأبرزت من الخصائص ما لا يترك مجالا لأن يبخسه باخس بحق الصابي.

ونحن نوردها هنا مع القصيدتين الأخريين اللتين كتبهما الرضي أيضا استذكارا لصديقه الصابي.

أعلمتَ مَن حملُوا على الأعوادِ　　أرأيتَ كيفَ خبا ضياءُ النّادي؟

جبلٌ هوى لوْ خَرَّ في البحر إغتدى　　مِن وَقعِهِ مُتَتابعَ الإزبادِ

ما كنتُ أعلمُ قَبلَ حَطِّك في الثرى　　أنّ الثّرى يَعلو على الأطوادِ

بُعداً ليومِك في الزّمان فإنهُ　　أقذى العيونَ وفَتّ في الأعضادِ

لا يَنفدُ الدّمعُ الذي تُبكى بهِ　　إنّ القلوبَ لهُ مِنَ الأمدادِ

كيفَ انمَحى ذاكَ الجَنابُ وَعُطِّلتْ　　تلكَ الفِجاجُ وضَلّ ذاكَ الهادي[213]

طاحَتْ بتلكَ المَكرُماتِ طَوائحٌ　　وَعدتْ على ذاكَ الجَلالِ عَوادي[214]

قالوا أطاعَ وَقِيدَ في شَطَنِ الرّدى　　أيدي المَنونِ مَلَكتِ أيَّ قيادِ

مِنْ مُصعَبٍ لَو لَم يَقُدْهُ إلهُهُ　　لِقَضائهِ ما كانَ بالمُنقادِ[215]

---

[213] في رسائل الصابي و الرضي، أمحى مكان انمحى

[214] في ديوان الشريف الرضي، الجواد مكان الجلال

[215] في رسائل الصابي و الشريف الرضي، بقضائه مكان لقضائه

هــذا أبــو إسحاقَ يَغْــلِقُ رَهنُــهُ   هــلْ ذائـــدٌ أو مانــعٌ أو فــادِ؟
لَـو كُنتَ تُفدى لافتَدَتـك فَوارِسٌ   مَطـروا بعــارضِ كُـلِّ يَومِ طِـرادِ
وإذا تــألَّــق بــارِقٌ لِــوَقــيــعــةٍ   والخَيـلُ تُفحصُ بالرِّجالِ بَـدادِ[216]
سَلُّــوا الدّرُوعَ مِـنَ العيــابِ وأقبلُوا   يَتحَــدبونَ على القَــنا المَيّــادِ[217]
لكِنْ رَمــاك مُجَبِّـنُ الشُّجعانِ عَنْ   إقــدَامِهِـم وَمُضَعِــضِعُ الأنــجادِ
كالليثِ يُهْـونُ بالتــرابِ وَيمتلي   غَيظـاً على الأضغانِ والأحقادِ[218]
والدَّهـرُ تَدخُـلُ نافِـذاتُ سِهامِـهِ   مَـأوى الضّـلالِ وَمرِبَـضَ الآســادِ
ألقَى الجِـرانَ عَلى عَنطنـطٍ حِمْيَرٍ   فَمـضى وَمـدَّ يَـداً لأحـمـرِ عَــادِ
أعــزِزْ عَليّ بــأنْ أراك وَقَـد خَلَـتْ   مِـنْ جانبَيـكَ مَجـالِسُ العُـوادِ[219]
أعــزِزْ عَليّ بـــأنْ يُفــارقَ ناظـري   لَمـعــانُ ذاكَ الكوكبِ الـوَّقـــادِ
أعــزِزْ عليّ بــأنْ نَــزَلـتَ بِمَنـزلٍ   مُـتَشابِـهِ الأمجــادِ والأوغـادِ[220]
في عُصبَـةٍ جُنبــوُا إلى آجــالِهِــمْ   والدَّهـرُ يُـعجِلُهُـمْ عَــنِ الإروادِ[221]
ضَــرِبُوا بمَـدرَجَةِ الفَنــاءِ قِبابَهُـمْ   مِـنْ غَيــرِ أطنــابٍ ولا أعْمــادِ[222]
رَكْبٌ أنــاخُــوا لا يُـرَجّى مِنهُـمُ   قَصـــدٌ لإتْــهــامٍ ولا إنــجــادِ
كَرِهــوا النُّــزُولَ فأنزلَتهُـمْ وَقعَةٌ   للدَّهـــرِ نــازِلَــةٌ بِـكُـلِ مَـقــادِ[223]
فَتهــافَتــوا عَن رَحــلِ كُلِّ مُذَلَّــلٍ   وتطــاوَحوا عَنْ سَرجِ كُلِّ جَوادِ[224]
بــادُونَ في صُــورِ الجَميــعِ وإنَّهُــمْ   مُــتَــفَرِدُونَ تَــفَـــرُّدَ الآحـــادِ

---

[216] البداد: الدعوة للمبارزة

[217] في رسائل الصابي و ديوان الرضي، المآد مكان المياد

[218] في رسائل الصابي و ديوان الرضي، نوما مكان غيظا

[219] في رسائل الصابي و ديوان الرضي،مقاعد مكان مجالس

[220] في اليتيمة أراك مكان نزلت

[221] في رسائل الصابي و ديوان الرضي، الأوراد مكان الإرواد

[222] في الديون أوتاد مكان أعماد

[223] في رسائل الصابي و ديوان الرضي، باركة مكان نازلة

[224] في اليتيمة، تطارحوا مكان تطاوحوا

مِمّا يُطيلُ الهَمَّ أنَّ أمامَنا ... طُولَ الطَّريقِ وقِلَّةَ الأزوادِ

عُمري لَقد أغمَدتُ منك مُهَنَّداً ... في التُّربِ كانَ مُمزِّقَ الأغمادِ

قد كُنتُ أهوى أنْ أُشاطِرَكَ الرَّدى ... لكِنْ أرادَ اللهُ غيرَ مُرادي

ولَقد كَبا طَيفُ الرُّقادِ بناظري ... أسَفاً عليك فلا لَعاً لِرُقادي[225]

ثَكِلَتكَ أرضٌ لَمْ تَلِدْ لَكَ ثانياً ... أنّى ومِثلُك مُعوِزُ الميلادِ

مَنْ لِلبَلاغَةِ والفَصاحَةِ إنْ هَمَى ... ذاكَ الغَمامُ وَعَبَّ ذاكَ الوادي

مَنْ لِلمُلوكِ يَحِزُّ في أعدائِها ... بِظُبىً مِنَ القَولِ البَليغِ حِدادِ[226]

مَنْ لِلمَمالِكِ لا يَزالُ يَلُمُّها ... بِسَدادِ ثَغرٍ ضائِعٍ وَسَدادِ[227]

مَنْ لِلجَحافِلِ يَستَزِلُّ رِماحَها ... ويَرُدُّ رِعلَتَها بغيرِ جِلادِ

مَنْ لِلمَهارِقِ تَستَرِقُّ قُلوبَها ... بِزَلازِلِ الإبراقِ والإرعادِ[228]

تَدمَى طَوابِعُها إذا استَعرَضتَها ... مِنْ شِدَّةِ التَّحذيرِ والإبعادِ

حُمرٌ على نَظَرِ العَدُوِّ كأنَّما ... بِدَمٍ يُخَطُّ بِهِنَّ لا بِمِدادِ[229]

يُقْدِمنَ إقدامَ الجُيوشِ وباطِلٌ ... أنْ يَنهَزِمنَ هَزائِمَ الأجنادِ

فِقَرٌ بِها تُمسي المُلوكُ فَقيرَةً ... أبَداً إلى مَبدأٍ لَها وَمَعادِ

وَتَكونُ سَوطاً لِلحَرونِ إذا وَنَى ... وَعِنانَ عُنقِ الجامِحِ المُتَمادي

تَرقى وَتَلدَغُ في القُلوبِ وإنْ يَشا ... حَطَّ النُّجومَ بِها مِنَ الإبعادِ[230]

أمّا الدُّموعُ عَليكَ غَيرُ بَخيلَةٍ ... وَالقلبُ بِالسُّلوانِ غَيرُ جَوادِ

سَوَّدتَ ما بَينَ الفَضاءِ وناظري ... وَغَسَلتَ مِن عَينَيَّ كُلَّ سَوادِ

رَيُّ الخُدودِ مِنَ المَدامِعِ شاهِدٌ ... أنَّ القُلوبَ مِنَ الغَليلِ صَوادي

---

[225] في اليتيمة، طرف مكان طيف، منذ أنتقدت مكان أسفا عليك

[226] في اليتيمة، اعناقها مكان أعدائها

[227] في اليتيمة، تزال مكان يزال، تلمها مكان يلمها، وفي رسائل الصابي والرضي أمر مكان ثغر

[228] في رسائل الصابي وديوان الرضي، للموارق مكان للمهارق، يسترد مكان تسترق

[229] في اليتيمة، كأنها مكان كأنما، تخط مكان يخط

[230] في اليتيمة، تشا مكان يشا

ما كُنتُ أخشى أنْ تَضَنّ بِلَفظَةٍ ... لِتَقومَ بَعدَكَ لي مَقامَ الزّادِ

ماذا الذّي مَنَعَ الفَنيقَ هَديرَهُ ... مِنْ بَعدِ صَولَتِهِ على الأذوادِ

ماذا الذّي حَبَسَ الجوادَ عَنِ المَدى ... مِنْ بَعدِ سَبْقَتِهِ إلى الآمادِ

ماذا الذّي فَجَعَ الهُمامَ بِوثبَةٍ ... وَعَدا على دَمِهِ وكانَ العادي[231]

قُلْ لِلنَوادِبِ عدّدي أيامَهُ ... تُغني عَنِ التَعديدِ بالتعدادِ[232]

حَمّالُ ألوِيَةِ العَلاءِ بِنَجدةٍ ... كالسيفِ يُغني عَن مَناطِ نِجادِ

قَلَصتْ أظِلّةُ كُلِّ فَضلٍ بَعدَهُ ... وَأمَرَّ مَشرَبُها عَلى الورّادِ

لَقَضى لِسانُكَ إذ ذَوَت ثَمراتُهُ ... أنَّ لا دَوامَ لِنُضرَةِ الأعوادِ

وَقَضى جَنانُكَ مُذ خَبتْ وَقَداتُهُ ... أنْ لا بَقاءَ لِقَدحِ كُلِّ زِنادِ

بَقيت أعيجازٌ يَضِلُّ تَبيعُها ... وَمَضَت هَوادٍ للرِّجالِ هَوادي

يا لَيتَ أني ما اقتَنيتُك صاحِباً ... كَمْ قُنيةٍ جَلبتْ أسىً لِفؤادِ

مَنْ لَمْ تُسِفَّ إلى التَّناسُلِ نَفسُهُ ... كُفِيَ الأسى بتَفاقُدِ الأولادِ

بَردُ القُلوبِ بِمَن تُحِبُّ بَقاءَهُ ... مِمّا يَجُرُّ حَرارةَ الأكبادِ

ليسَ الفَجائِعُ بالذخائرِ مِثلَها ... بِأماجِدِ الأعيانِ والأفرادِ

ويقولُ مَن لم يَدرِ كُنهَكَ إنّهُم ... نَقصوا بِهِ عَدَداً مِنَ الأعدادِ

هيهاتَ أدرجَ بينَ بُرديكَ الرّدى ... رَجُلَ الرّجالِ وأوحدَ الآحادِ

لا تطلُبي يا نَفسُ خِلاً بَعدَهُ ... فَلَمِثلُهُ أعيا على المُرتادِ

فُقِدتْ مُلاءَمَةُ الشُّكولِ بِفقدِهِ ... وَبَقيتُ بَينَ تبايُنِ الأضدادِ

ما مَطعَمُ الدنيا بحُلوٍ بَعدَهُ ... أبداً ولا ماءُ الحيا بِبُرادِ

الفَضلُ ناسَبَ بَيننا إن لَم يَكُنْ ... شَرَفي مُناسِبَهُ ولا ميلادي

إنْ لا تَكُنْ من أُسرَتي وعَشيرتي ... فَلأنتَ أعلَقُهُم يَداً بوِدادي[233]

---

[231] في اليتيمة، منع مكان فجع

[232] في اليتيمة، للنواب مكان للنوادب ، يغني مكان تغني

[233] في رسائل الصابي و ديوان الرضي، إلا مكان إن لا، عشائري مكان عشيرتي

أو لا تَكُنْ عالي الأصولِ فقد وَفى عِظَمُ الجُدود بسُؤددِ الأجدادِ

لا درَّ دَرِيّ إنْ مَطَلْتُك ذِمَّةً في باطنٍ مُتَغيبٍ أو بادِ

إنَّ الوفاءَ كما اقترحتَ فَلو تَكُن حياً إذاً ما كُنتَ بالمُزدادِ

ليسَ التنافُثُ بَيننا بمعاودٍ أبداً وليسَ زمانُنا بمُعادِ[234]

ضاقَتْ عليّ الأرضُ بَعدك كلُّها وتَركتَ أضيقَها عَليَّ بلادي

لكَ في الحشا قَبرٌ وَإن لَم تأوهِ ومِنَ الدّموعِ روائحٌ وغوادي

سَلّوا مِنَ الأبرادِ جِسمَكَ فانثنى جِسمي يُسلُّ عَليك في الأبرادِ

كَم مِن طويلِ العُمرِ بَعدَ وفاتِهِ بالذِكرِ يَصحبُ حاضِراً أو بادي

ما ماتَ مَن جَعَلَ الزَمانَ لِسانَهُ يَتلو مَناقِبَ عُوَّدا وَبَوادي

فاذهَبْ كَما ذَهبَ الرَبيعُ وإثرُهُ باقٍ بكُلِّ مَهابِطٍ ونِجادِ

لا تَبعُدَنَّ وأينَ قُربُك بَعدها إنّ المَنايا غايةُ الأبعادِ

صَفحَ الثَرى عَن حُرِّ وجهِكَ إنّهُ مُغرىً بطيِّ مَحاسنِ الأمجادِ

وتماسَكَتْ تلكَ البنانُ فطالما عَبثَ الرَّدى بأنامِلِ الأجوادِ

وَسقاك فَضلُكَ إنَّهُ أروى حياً مِن رائحٍ مُتَعرِّضٍ أو غادِ

جَدثٌ على أن لا نباتَ بأرضِهِ وَقفَتْ عليهِ مَطالِبُ الرُوّادِ

وبمقدار ما جاءت هذه القصيدة معبرة عن قيمة تقديرية لما جاد به الصابي في أدبه وخلقه ورسائله وللتواد والموامقة بينه وبين الشريف الرضي، بمقدار ما أثارت الحسد والحقد في نفوس المبغضين لما كان لها من كشف وتعبير عن قيمة هذه العلاقة من جهة ومن بلاغة وجمال لفظ وقدرة تعبير وشدة تماسك جعلها من عيون شعر الرثاء بين الأصدقاء، التي مع حنق البعض لم يتوان في الإشارة إليها من جهة ثانية. وهكذا سعى من أراد التقليل من أثرها وتأثيرها أن لا يدخل مدخل بلاغة الشريف الرضي فذاك ما أعلنت شأوه القصيدة ذاتها، فذهب مذهب التجني على موضوعها بالنيل من الراثي والمرثي بعد وفاتهما.

---

[234] في اليتيمة، التنافس مكان التنافث

أما المرثية الثانية للشريف الرضي فكانت قصيدته اليائية التي كتبها بعد شهر من وفاة الصابي حين مر بقبره، وهي تفيض حنينا ومجدا وذكرا مبرزا بما يدحض المتقولين فيقول:

أيعلم قبرٌ بالجنينة أننا ... أقمنا به ننعى النبي والمعاليا؟[235]

عطفنا فحيينا مساعيه إنها ... عظامُ المساعي لا العظامُ البواليا

مررنا به فاستوقفتنا رسومه ... كما استوقف الروض الظباء الجوازيا

وما لاح ذاك الترب حتى تحلبت ... من الدمع أوشالٌ ملأن المآقيا

نزلنا إليه عن ظهور جيادنا ... نكفكف بالأيادي الدموع الجواريا

ولما تجاهشنا البكاء ولم نطق ... عن الوجد إقلاعاً عَذرنا البواكيا

أقول لركبٍ رائحين تعرجوا ... أُريكم به فرعاً من المجد ذاويا

ألِمّوا عليه عاقرين فإننا ... إذا لم نجد عقراً عقرنا القوافيا

وحُطوا به رَحْلَ المكارم والعُلا ... وكبّوا الجفان عنده والمقاريا

فلو أنصفوا شقوا عليه ضمائراً ... وجزوا رقاباً بالظبا لا نواصيا

وقفنا فأرخصنا الدموعَ وربما ... تكونُ على سَوم الغرام غواليا

ألا أيها القبرُ الذي ضمَّ لَحدهُ ... قضيباً على هام النوائب ماضيا

هل ابن هلال منذُ أودى كعهدنا ... هلالاً على ضوء المطالع باقيا

وتلك البَنان المورقاتُ من الندى ... نواضبُ ماءٍ بواقٍ كما هيا؟

فإن يبلَ من ذاكَ اللسان مَضاؤهُ ... فإنَّ به عضواً من المجد باقيا

مجيبُ الدواعي جائداً أو مدافعاً ... هُناكَ مُرِمٌّ لا يجيبُ الدواعيا[236]

وما كنتُ آبى طولَ لبثٍ بقبره ... لو أني إذا استغديته كان غاديا[237]

صفائحُ تُستسقى الدموعُ روائحاً ... على جانبيها والغمام غواديا

ترى الكَلِمَ الغُرّان من بعدِ يومهِ ... نوافِرَ عمّن رامهنَّ نوابيا[238]

---

[235] في اليتيمة، نبغي

[236] مرم: مقيم

[237] في اليتيمة، استعديته مكان استغديته. عاديا مكان غاديا

هو الخاضِبُ الأقلامَ نال بها عُلاً	تقاصَر عنها الخاضبون العواليا
مُعيدُ ضِرابٍ باللسانِ لو أنهُ	بيومٍ وَغىً فَلَّ الجُرازَ اليمانيا
مريرُ القوى نالَ المعالي واثباً	إذا غيرُهُ نالَ المعالي حابيا
مضى لم يُمانع عنهُ قلبُ مشيعٍ	إذا هَمَّ لم يَرجع عن الهمِّ نائيا
ولا المُسندُوهُ بالأكفِ إلى الحشا	على جَزعٍ والمُفرِشُوهُ التراقيا
ولا ردَّ في صدرِ المَنونِ براحةٍ	يَرُدُ بها صَدر القَنا والمواضيا[239]
خَلا بعدك الوادي الذي كُنتَ أنسهُ	وأصبحَ تعروهُ النوائبُ واديا
أرحتَ علينا ثُلةَ الوجدِ تَرتعي	ضَمائِرنا أيامها والليالِيا
ولولاكَ كانَ الصبرُ مِنكَ سَجِيّةً	تُراثاً ورثناهُ الجدودَ الأوالِيا
رَضيتُ بِحُكم الدَّهرِ فيك ضرورةً	ومَن ذا الذي يغدو بما ساء راضيا
وطاوعتُ من رامَ انتزاعك من يدي	ولو أجدُ الأعوانَ أصبحتُ عاصيا
تطامنتُ كيما يعبُرَ الخطبُ جانبي	فألقى على ظهري وجرَّ زماميا
مَلأتَ بمحياكَ البلادَ مساعياً	ويَملأُ مثواكَ البلادَ مناعيا
كما عمَّ عالي ذكركَ الخلقَ كلَّهُ	كذاكَ أقمتَ العالمين نواعيا
رَثيتُكَ كي أسلوكَ فازددتُ لوعةً	لأنَّ المَراثي لا تسدُّ المَرازيا
وأعلمُ أنْ ليسَ البُكاءُ بنافعٍ	عليكَ ولكنّي أُمنّي الأمانيا

ولم يغب الصابئ عن بال الشريف الرضي ولم يتوقف شعره فيه، لذا نراه يقول بديهاً حين يمر بمنطقة قبره وبعد عشر سنين من وفاته قصيدته الثالثة التي ظل فيها الرضي على عهد محبته للصابئ، بل وله فيه نوازع يصف التنفس بها كتنفس العشاق. كيف إذن الفضل وحده هو الذي ناسب بينهما فرثاه الرضي فيه. وإن كان الفضل وحده فلكفاه الرضي بالقصيدة العتيدة الأولى. فما القصيدتان الأخريتان إلا تأكيد للود الذي جمع بينهما والذي حقده البعض. ولنتأمل بليغ الرثاء في قصيدته القافية:

لولا يذم الركب عندك موقفي	حَيّيْتُ قَبْرَك، يا أبَا إسحَقِ
كيفَ اشتياقُكَ مُذْ نأيتَ إلى أخٍ	قَلِقِ الضّميرِ إليكَ بالأشْوَاقِ

---

[238] في اليتيمة، مونه مكان يومه ، و نوائيا مكان نواليا

[239] في اليتيمة، سمر مكان صدر

هل تذكر الزمنَ الأنيقَ وعيشنا يحلو على متيأملٍ ومذاقِ

وليالِيَ الصبوات وهي قصائرٌ خطفَ الوميض بعارضٍ مبراقِ

لا بُدَّ للقُرباء أن يتزايلوا يوماً بعُذرِ قِلًى وَعُذرِ فِرَاقِ

أمضي وتعطفني إليك نوازعٌ بتنفُّسٍ كتنفُّس العشاقِ

وأذودُ عن عيني الدّموعَ ولو خلت لجَرَتْ عليك بوابلٍ غيداقِ

وَلَوَ أنّ في طَرْفي قَذاةً مِنْ ثَرًى وَأرَاكَ مَا قَذّيتُهَا مِنْ مَاقي

إنْ تمضِ فالمجدُ المرجبُ خالدٌ أو تفنَ فالكَلِمُ العظامُ بواقي

مَشحُوذةٌ تَدْمَى بِغَيرِ مَضَارِبٍ كالسيف أُطلِقَ في طُلى الأعناقِ

يقبلن كالجيش المُغير يَؤُمّهُ كُمشُ الإزَارِ مُقَلِّصٌ عَنْ سَاقِ

قُرطاتُ أذانِ الملوكِ حليقةٌ بمواضع التيجانِ وَالأطواقِ

عقدوا بها المجدَ الشرُود وأثّلوا دَرَجاً إلى شَرَفِ العُلَى وَمَرَاقي

أوْتَرْتَهَا أيّامَ بَاعُكَ صُلّبٌ وَكَدَدْتَهَا بالنّزْعِ وَالإغْرَاقِ

حَتّى إذا مَرِجَت قُوَاك شَدَدْتَهَا باسْمٍ على عقبِ الليالي باقي

كَنَجَائِبٍ قَعَدَتْ بِهَا أزْمَاقُهَا محسُورَةً، فَمَشَينَ بالأعْرَاقِ

ما الشريف المرتضى (355 - 436 هـ)، فقد رثى الضابي بقصيدة طويلة عدد بياتها 54 بيتا، تظهر عمق إتصال المرتضى بالضابي أيضا وبفضل العلاقة معه بما لا يدع مجالا للشك في إنسحاب المرتضى في المودة والتقدير أيضا نحو الضابي. والقصيدة مثبتة في ديوان الشريف المرتضى[240] وهي:

ما كان يومُك يا أبا إسحاقِ إلاّ وداعي للمنى وفراقي

وأشدُّ ماكانَ الفراقُ على الفتى ماكانَ موصولاً بغيرِ تلاقِ

ولقد أتاني من مُصابك طارقٌ لكنَّهُ ما كانَ كالطرّاقِ

فالنّارُ يوقدُها الأسَى في أضلُعي لا للصّلَى والماءُ من آماقي

ما كان للعينين قبلك بالبكا عهدٌ ولا الجَنْبين بالإقلاقِ

---

[240] ديوان الشريف المرتضى

وأطقتُ حملَ النّائباتِ ولم يكنْ ثِقْلُ برزئِك بيننا بمطاق
لولا حِمامك ما اهتدى همٌّ إلى قلبي ولا نارٌ إلى إحراقي
وسُلبتُ منك أجلَّ شطري عيشتي وفجعتُ منك بأنفسِ الأعلاقِ
وقذيتُ في قلبي بفقدك والقذى في القلبِ ينسينا قذاة الماقِ
لمّا رأيتُك فوقَ صهوةِ شرْجَعٍ بيدِ المنايا أظلمتْ آفاقي
وكأنّني من بعدِ ثُكلك ذُو يَدٍ جذّاءَ أو غصنٌ بلا أوراقِ
أو راكبٌ في القفرِ دفّي جسرةٍ غرثى بلا شثٍّ ولا طبّاقِ
إنّي عليك لما ذهبتَ لموجَعٌ وإليك لمّا غبتَ بالأشواقِ
يا نافعي والجلدُ منّي ضيّقٌ برزيّتي ألاّ يَضيقَ نِطاقي
كم من ليالٍ لي قصارٍ بعدهُ طُولْنَ بالإيجاعِ والإيراقِ
ولو افتُديتَ فداك بادرةَ الرّدى الـ أقوامُ بالمهجاتِ والأحداقِ
وبكلّ مُمتلىء الضّلوعِ بسالةً هادٍ إلى طُرقِ الهدى سبّاقِ
تهمي دماً من كفّه سحبُ الوغى من غيرِ إرعادٍ ولا إبراقِ
وتراه يهوى في التّراب إلى ظبىً مسلولةٍ وإلى ظهورِ عتاقِ
وإلى سنانٍ فوقَ هامةِ ذابلٍ هتّاكِ كلّ تريبةٍ خرّاقِ
أينَ الرّجالُ المالكو ربَقِ الورَى والمُرتقون إلى أعزّ مراقِ؟
والطّاردون بجودهمْ وعطائهمْ في المُلقين عواديَ الإملاقِ
ولهمْ أكفٌّ ما تولّتْ وحدها في النّاسِ إلاّ قسمةَ الأرزاقِ
وإذا همُ لبسوا المحاسنَ أهونوا بملابس التيجان والأطواق
سيقوا إلى حُفَرِ القواءِ كأنّهمْ ذَوْدٌ تُصرّفُه يداً سَوّاقِ
وتطارحوا في قعر مظلمةِ الهُوَى محجوبةِ الإصباحِ والإشراقِ
واستنزلوا عن كلّ شاهقةِ البنا من حيث لا ترقى أخامصُ راقِ
فهمُ وقد كان الفضاءَ محلّهمْ ما بين أطباقٍ وفي أعماقِ
ماذا الغرورُ من الزّمان بكاذبٍ نَغْلِ المودّةِ في الهوى مَلاّقِ؟
في كلّ يومٍ ينثني عنه الّذي يرجوه مملوءًا من الإخفاقِ

وإذا مددتُ إلى الزَّمانِ أناملي وشَددتُ في أسْرِ الطماعِ وَثاقي

فالأمرُ موكولٌ إلى متجرِّمٍ والعظمُ مرميٌّ إلى عرّاقِ

ما إنْ وَنَتْ سكَناتُ قلبك بُرهةً فيه بساعةِ جاشِك الخفّاقِ

ومنَ البليةِ أنّنا كَلِفون من هذي الحياةِ بمِنْكحٍ مِطْلاقِ

في كلِّ يومٍ نرتوي من شرِّها مائين من حَذَرٍ ومن إشفاقِ

وأنا الأسيرُ لها فمن هذا الذي يسعى إلى الأيّامِ في إطلاقي؟

إن لم تكن من عنصري فلأنت بالـ ـآداب من أهلي وبالأخلاقِ

ومودّةٌ بينَ الرّجالِ تضمُّهمْ وتلفُّهمْ خيرٌ منَ الأعراقِ

مَن ذا نَضا عنّا شعارَ جمالنا ورمى هلالَ سمائنا بمِحاقِ ؟

من ذا لوانا والصّدا علقٌ بنا عن وردِ ذاك المنهلِ الرّقراقِ ؟

فلئنْ خرِستَ عن البيانِ فطالما حكّمتَ أنّى شئتَ بالإنطاقِ

ولئنْ منعتَ عن البراحِ فبعدما جوّلتَ أو طوّفتَ في الآفاقِ

ولئنْ كبوتَ عن المدى بعد الرّدى فيما سبقت غداةَ يومِ سِباقِ

ولئنْ تحمَّلْتَ التّرابَ فطالما قد كنتَ محمولاً على الأعناقِ

فليمضِ بعدك من أحبُّ فقد مضى منك الحِمامُ ببغيتي ووفاقي

مالي انتفاعٌ بعدَ فقدك صاحباً حلوَ المذاقةِ في الورى بمذاقِ

نسجتْ عليك رياضُ كلِّ بلاغةٍ وسقاك منها ما تَشاءُ الساقي

وعصتْ على كلِّ الرِّجالِ فقُدْتَها لرضاكَ بالأرسانِ والأرباقِ

وملكتَها طولَ الزّمانِ وإنّما فازتْ وقد ووريتَ بالإعتاقِ

طلبوا مداك ففتَّهمْ وسبقتَهمْ رَكْضاً ولم تَسمحْ لهمْ بلِحاقِ

فالآن بعد اليأسِ منها أيقنوا أنّ البلاغةَ في يَدِ الرزّاقِ

ولْيسقِ قبرَك كلُّ مُنخرِقِ الكُلَى مرعادُ كلّ عشيّةٍ مِبراقِ

فإذا جفا التّربَ السحابُ فعنده ما اخترتَ من سحٍّ ومن إطباقِ

لم يفنِ دهرٌ من نأى وله بنا كَلِمٌ على مرِّ الزّمانِ بواقِ

وإذا مضيتَ وفيك فضلٌ باهرٌ فبمَنْ نسلتَ أنتَ حيٌّ باقِ

والغريب أن المراجع لم تحفظ لنا غير هذه القصائد في رثاء الصابي على كثرة ما لـه من صداقات وعلاقات، بل أنها لم توثق لنـا أي مرثية من أسرتـه ونحن نعرف أن ابنـه المحسن كان أديبا وقد نظم الشعر. كما أن حفيده هلال بن المحسن أديب أيضا وكان متعلقا بجده والحق عليه أن يرثيه أيضا. و يبـدو لنا أن ما كتب قد ضاع ضمن ما ضـاع من كتب قيمة سواء للصابي أو لغيـره فيما تعرضت له مكاتب بغـداد من حرائق وتدميـر وإتلاف على مر العصور.

الباب الثاني

أبو إسحق الصابي الكاتب

الفصل الأول: كتابات الصابي وتصنيف رسائله
الفصل الثاني: درر النثر

الفصل الأول

كتابات الصابي وتصنيف رسائله

كانت الخطوة التي خطاها أبو إسحق في ميدان الكتابة هي الأولى، فقد مر بنا أن والده كلفه بإرسال أجوبة إلى أحد الكتاب لينشئ بها جوابا عنه فتبنى أبو إسحق عنه الإجابة وقدمها لوالده، وحين عرف أنه هو الذي قام بذلك أقر له مزاولة صنعة الكتابة اعترافا منه بما وقف عليه من براعة وتقدم وما توقعه له من تفوق في هذه الصناعة مستقبلا. وصـــدق ظن والد الصابي به فقد صار أبو إسحق كاتبا وأي كاتب، فهو الذي قال فيه الشريف الرضي منصفا:

ثكلتك أرض لم تلد لك ثانياً أنّــى، ومثــلــك معــوَز الميـــلادِ

ووصفه من وصفـــه بأجل الوصف، وأنصفه المحب بحق ما أنصف، والحـــاسد لم يباريه فتوقف، وقد وقفنا على ذلك فيما مر بنا في هذا الكتاب. ولأن أبا إسحق نشأ وتميز وذاع صيته كاتبا، فقد آثرنا أن نتاوله كاتبا قبل تناوله شاعرا. وقبل هذا التناول يكون من المفيد أن نرى الصابي بعيون وأقلام من عاصره وجاء بعده من الأدباء والمؤرخين المبرزين. فقد قال عنه الثعالبي في يتمية الدهر:" أوحد العراق في البلاغة، ومن به تثنى الخناصر في الكتابة، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية، من البراعة والصناعة، وكان قد خنق التسعين في خدمة الخلفاء، وخلافة الوزراء، وتقلد الأعمال الجلائل، مع ديوان الرسائل، وحلب الدهر أشطره، وذاق حلوه ومره. ولابس خيره، ومارس شره، ورُئس ورأس، وخَدم وخُدم، ومدحـــه شعراء العراق في جملة الرؤساء وسار ذكره في الآفاق، ودوّن له من الكلام البهي النقي ما تتناثر درره، وتتكاثر غرره"[241]. وعن الثعالبي أخذ غير واحد في الإشارة إلى هذه الصفات والخصائص. أما أبو حيان التوحيدي فقد خصه بالكثير من الوصف ومن ذاك قوله: " وأبو إسحاق معانيه فلسفية، وطباعه عراقية، وعادته محمودة. لا يثب ولا يرسب، ولا يكل ولا يكهم، ولا يلتفت وهو متوجه، ولا يتوجه وهو ملتفت. وقال لنا: إمام ابن عبد كان، وهو قد أوفى عليه، وإن كان احتذى على مثاله. وفنونه أكثر، ومأخذه أخفى، وخاطره أوقد، وناظره أنقد، وروضه أنضر، وسراجه أزهر، ويزيد على كل من تقدم بالكتاب التاجي، فإنه أبان عن أمور وكنى في مواضع، وشن الغارة في الصبح المنير مع الرعيل

---

[241] الثعالبي، يتيمة الدهر

الأول، ودل على التفلسف، وعلى الاطلاع على حقائق السياسة ولو لم يكن له غير؛
لكان به أعرق الناس في الخطابة، وأعرق الكتاب في الكتابة، هذا ونظمه منثور؛
ومنثوره منظومه، إنما هو ذهبٌ إبريزٌ كيفما سبك فهو واحد، وإنما يختلف بما يصنع
منه ويشكل عليه، هذا مع الظرف الناصع والتواضع الحسن، واللهجة اللطيفة.
والخلق الدمث، والمعرفة بالزمان، والخبرة بأصناف الناس، وله فنونٌ من الكلام م
سبقه إليها أحد، وما ماثله فيها إنسان. وإني لأرحم من لا يسلم له هذا الوصف، لأنه
إما أن يكون جاهلاً، وإما عالماً فإن كان جاهلاً فهو معذور، وإن كان عالماً فهو
ملوم، لأنه يدل من نفسه، بدافع ما يعلمه، على حسده، والحاسد مهين." [242] أما ابن
خلدون فيقول ...حتى نبغ إبراهيم بن هلال الصابي كاتب بني بويه، فتعاطى
الصنعة والتقفية وأتى بذلك بالعجب. وعاب الناس عليه كلفه بذلك في المخاطبات
السلطانية. وإنما حمله عليه ما كان في ملوكه من العجمة والبعد عن صولة
الخلافة المنفقة لسوق البلاغة. ثم انتشرت الصناعة بعده في منثور المتأخرين " [243]
وما أصدق كلام الشريف الرضي فيه حين يقول:" فياليت شعري على ما آسى من أبي
إسحق بعد خلو مكانه وتهافت بنيانه: على رياسته القديمة وقدمه المتقدمة، وتقلبه في
الدول يستمدها من التجارب وتستمده من المناقب، وتكسوه ملابس العز والفخر.
ويكسوها ملابس الصيت والذكر. أم على انقطاعه من المجارين وانفراده عن
المبارين، وحصوله في البلاغة لمعة ساطعة الشعاع وغرةً سائلة القناع، وسابقا قد أعجز
الطالبين وأمن اللاحقين. وتخليده لهذه الدولة، حرسها الله، مجداً لا تزول رواسيه ولا
تنهدم مبانيه، فلقد جعل كلامه سلكاً نظم عليه المناقب وأجمع فيه المفاخر، وقيد
قيد به المآثر ووسما وسم به البواقي والغوابر. أم على سجاحة أخلاقه وسماحة ألفاظه
وتواضعه مع تأخر الأكفاء وتسليم النظراء، ووثاقة معاقد عهده وتأكد علائق وده.
وتكافؤ خلاله الكرام وتغايرها على التمام. فلعمري لو طلب فيه عائبه خلة تحتاج
إلى أن تتهم ونقيصة يجب أن تُتمّم، من الفضائل الدنياوية والمناقب الاكتسابية.
لأعجزه ما طلب وأعياه ما أراغ والتمس."[244]

---

[242] أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة

[243] إبن خلدون، تاريخ ابن خلدون

[244] رسائل الصابي والرضي، مصدر سابق

ومع إعتداد ابن الأثير الكاتب بنفسه وانتقاده الكثير من الكتاب والأدباء إلا أننا نسجل له ما جاء في كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر قوله:" وكيف أضع من الصابي وعلم الكتابة قد رفعه وهو إمام هذا الفن والواحد فيه؟ ولقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد أجاد في السلطانيات كل الإجادة وأحسن كل الإحسان، ولو لم يكن له سوى كتابه الذي كتبه عن عز الدولة بختيار بن بويه إلى سبكتكين عند خروجه عليه ومجاهرته إياه بالعصيان لاستحق به فضيلة التقدم، كيف وله من السلطانيات ما أتى فيه بكل عجيبة"[245] أما ذو الكفايتين فتكفي شهادته قيمة ومعنى وبلاغة حين يقول عن الصابي:" ذاك رجل له في كل طِراز نسجٌ، وفي كل فضاء رهج، وفي كل فلاةٍ ركبٌ، وفي كل غمامة سَكْب، الكتابة تدّعيه بأكثر مما يدّعيها، والبلاغة تتحلّى به بأكثر مما يتحلّى هو بها"[246]

أما من المحدثين فمن أحلى وأجزل وأشمل الكلام ما قدّم به شكيب أرسلان الصابي في كتابه " المختار من رسائل أبي إسحق ابراهيم بن هلال بن زهرون الصابي" تقديما بليغا وقع في نفسنا أن ننقله لحسن عبارته وجميل إشادته وطريقة إنشائه المتأثرة بطريقة الصابي والمستخدمة لبعض مفرداته وفقر من كلماته، يقول:" فإن من أطرف ما تطرف به أندية الأدب، وينثل من كنائن البلاغة في خزائن العرب، وينشر من بين صفائح الصحائف بعد أن طال ما طوى واحتجب، المختار من رسائل الصابي المشهور المكنى بأبي إسحاق رئيس كتاب الديوان ببغداد، والذاهب صيته إلى برك الغماد في الآفاق، إذ كان كلامه من أجل ما ألقحته أصلاب الأقلام وحملت به بطون الأوراق، وإن كل من أصاب من الأدب ذروا وعرف للقلم بريا وللمداد جريا، ليصبو إلى بيان الصابي، وينتشي بإنشائه العالي، فهو ينظر فيه من خطط البلاغة ومراسمها، ويشهد من محافل الفصاحة ومواسمها، ما يعز الإتيان بمثل بدائعه على رائمها، وتخفر عذارى خطبه دون خاطب كرائمها، ويتلو من آيات كتاب الدواوين وخطباء النوادي، ما تنسخ به جمل حداة المهاري ورعاة البوادي، فإن هذه عيال في حسنها على جزالة المباني وفحولة الألفاظ، وإن أعلى ما فيها ما ورد من المفاخرة والمماتنة في سوق عكاظ، وما ندَّ عن ذلك فيكاد لا يخرج عن أوصاف الأحداج والأكوار، ولا يتعدى مرامي الصعاليك في الموامي والقفار، وما ماثل ذلك مما لم يكن سواه بين أعاريض

---

[245] ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر

[246] أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين

المضارب عند سكان الأوبار، وإنّ تلك جامعة بين متانة التعبير ورصانة الكلام، وبين نبالة الموضوع وفخامـــة المقام، مما تلتف على قرائتـــه الجحافل والفيالق، ويصات بـــه في أبهاء القصور والشواهق، ما بين العمد والأساطين في حضرة الخلائف والسلاطين، ويـــدور عليه ترتيب الولايات والممالك، وترتبط به مرابطة الثغور وسيطرة المسالك، بذّ في الإنشاء خوارزميه وبديعـــه، فما زالت الكتاب تضرب ببراعته الأمثال، وتحتذي من براعته على مثال" [247]

وقد دُرس أدب أبو إسحق في جملة المحافل الأدبية وتم تناول ذكره في جميع المنتديات حين يكون مدار الكلام على الترسل والبلاغة وفنون الكتابة، وكان الاستشهاد به حاضرا في حفظ الكثير من كلامه وعباراته واستخدام أسلوبـه الذي خضع للدراسة والتحليـل وصارت قطـع من رسائله تدرس في المـدارس والجامعات. ومازالت البحـوث والـدراسات الأدبية تشير وتشيد به ضمن من يشار ويشاد بهم، بل خصته دراسات عليا ومتقدمة بالبحث والمتابعة.

وأبرزَ ما تم تناوله في أدب الصابي هو رسائله ذائعة الصيت مع أن الكثير منها مازال على شكل مخطوطات في المكتبات والجامعات دون تحقيق، فما الذي جعلها ذائعة الصيت ومدار التداول وبهذا القدر من الأهمية؟

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضي تناول الرسائل ذاتها وبيان الصابي ككاتب ومُنشئ. فأهمية هذه الرسائل تأتى من أنها تعالج موضوعات في ميادين السياسة والإدارة والقضاء مع التنوع ضمن كل ميدان بما تشكل فيه وثائق يستند إليها في إستقراء أحداث وسياسة الخلافة العباسية إبان مرحلة الرسائل. كما أنها تكشف عن القدرة البلاغية التي تميز بها الصابي وبديع الكلام وطرائق الصياغة والسبك، بالإضافة إلى أنها تقدم دليلا حيا على تطور صنعة الكتابة وأساليبها في القرن الرابع الهجري ورسائل الصابي خير مثال لها بشهادة جميع من كتب. ومن قيمة هذه الرسائل أنها جمعت في حياته إما لأن أغلبها رسائل ديوانية تخص ديوان الخلافـــة والإمارة والوزارة وهي بالتالي محفوظـــة بأكثر من نسخـــة أحيانا بحسب ما يقتضيه التوثيق في رسوم دار الخلافة، أو لأن الصابي عرف قيمتها بحكم أنها ندى نفسه الذي صار مطلوبا في حياته من قبل الكثيرين فصار يجمع في كل مرة نسخها حتى تكاملت لديه

---

[247] شكيب ارسلان، المختار من رسائل أبي إسحق الصابي

في مجلد ذكر ابن النديم أنه كان موجودا في عصره وقد ضم نحو ألف ورقة[248] وهكذا ذكر ياقوت الحموي أيضا[249]

وقد فصل بعض الباحثين في أمر رسائل الصابي، وكان من أفضل من أسهب في هذا الألماني كلاوس هاخماير في بحثه" رسائل أبي إسحق الصابي" [250]، فقد تابع المواقع التي تتوافر فيها نسخ من هذه الرسائل وأعدادها وتصنيفاتها وأحصى منها 12 موقعا موزعة في المدن الآتية: باريس، لايدن بهولندا، دبلن بانكلترا، القاهرة، إسطنبول، طهران، وبغداد.[251]

والرسائل المشار إليها إنما هي النسخ الكاملة والتي تم حفظها كما نسخت، وهنالك العديد من الرسائل التي كتبت ولكنها لم تصل بشكل مباشر بل وردت مبثوثة في الكتب التي كتبت في مرحلة الصابي وبعده مما تناولها الكتاب والأدباء في ترجمة الصابي وتدليلا على ما صدر منه، أما لبيان الغرض أو للتأثر بدرجة البلاغة بما أوجب النقل والاستشهاد. ويمكن إجمال ما بقي محفوظا وتم العثور عليه لحد الآن من الرسائل الكاملة بـ 432[252] رسالة يتباين حجمها، فقد يصل في بعضها إلى ما يزيد على عشرين صفحة. أما المواضيع والأغراض التي كتبت فيها هذه الرسائل فهي متعددة وتشمل: رسائل ومناشير وأمثالها، رسائل الفتوح، رسائل العهود، رسائل التهاني، رسائل التعازي، رسائل المعاتبات، رسائل الشفاعات، رسائل المخاطبة والمناشدة، رقاع ومكاتيب من غير ديوان الخلافة، رسائل متنوعة الأغراض. وهنالك العديد من المقاطع والاقتباسات والمختارات من الرسائل التي لم تصل كاملة بل أن المقتبسين قد إقتبسوا ما رأوه مناسبا لأغراضهم أو للتدليل على موضوع معين. وهذه مبثوثة في كتب عديدة وربما أن هنالك فصولا لم يتم التعرف عليها بسبب عدم ذكر كاتبها أو أنها ما زالت ضمن بعض المخطوطات التي لم يتم تحقيقها لحد الآن.

---

[248] ابن النديم، الفهرست

[249] ياقوت الحموي، معجم الأدباء

[250] Klaus U. Hachmeier. Die Briefe Abu Ishaq Ibrahim al-Sabi. Georg Olms Verlag 2002

[251] سيرد تصنيف هذه الرسائل من حيث أغراضها وأسماء من كتبت لهم قدر توفرها في ملاحق هذا الكتاب.

[252] Klaus U. Hachmeier. Die Briefe Abu Ishaq Ibrahim al-Sabi. Georg Olms Verlag 2002

ما أخرج من كلام أبي إسحاق الصابي من الذي يرقى إلى مواقع الحكمة

❖ يقول أبو إسحاق الصابي: مارست الكتابة ستين سنــة، فلم يحضرني في الدعاء أحسن وأوجز وأجمع من قولي: جعل الله أيامك مطاياك إلى آمالك.

❖ لو أمكن في الدنيا البقاء لارتفع الحدث ولساوى المفعول فاعله، والمجبول جابله.

❖ موقع الشكر من النعمة، موقع القري من الضيف. إن وجده لم يرم، وإن فقده لم يقم.

❖ إن النفس لأمارة بالسو، صبة إلى العتو. لا تدفع عن مضارها إلا بالشكائم، ولا تقاد إلى منافعها إلا بالعزائم، فمن كبحها وثناها نجاها، ومن أطلقها وأهرجها أرداها.

❖ إن الشيطان يكسو الخدع والشبهات، سرابيل الحجج والبينات. ليستفز بها الأحلام ويستزل الأقدام.

❖ احذر أن تأمر بما تجانب فعله، وتنهى عما يأتي مثله.

❖ لا حمد لمن شرُف حسبه وسخُف أدبه.

❖ الشورى لقاح العقول والمباحثة رائد الصواب، واستظهار المرء على رأيه من عزم الأمور، واستنارته بعقل أخيه من حزم التدبير.

❖ إذا استفحل الداء فالكي والانضاج أنجع ما استعمل فيه من العلاج.

❖ أعرف الناس بقدر العافية من وجدها بعد فقدها، وبفضل الثروة من لبسها بعد التعري منها.

❖ لسان العمل أنطق من لسان القول، وجميل الفعل أزجر من حسن الوعظ.

❖ إذا أتت الجفوة من معدن البــر تضاعف إيلامها، وتزايد إيجاعها، كما أن المبـــرة إذا جاءت شاذة من معدن العقوق حسن موقعها، وأعجب أمرها.

❖ رُبَّ بعيد يُقرِّبه نقاء جيبه، وقريب يُبعده اتهام غيبه.

❖ رُبَّ حاضر لم تحضر نيته، وغائب لم تغب مشاركته.

❖ للكلام مذاهب وملاحن، وربما سلك القائل مسلكاً فسلك السامع ضده، وأراد شيئاً فظن به غيره.

❖ بئس من نزع به شيطانه وامتدت في الغيّ أشطانه[253]

❖ الكريم إذا هَززته استطارك، وإذا أيقضته أسهرك.

❖ لا بد من مصابرة الغمرة حتى تنجلي، وملاطفة الشدة حتى تنتهي.

❖ السيئة إذا حصلت بين حسنتين لم تكن إلا مغمورة مغفورة.

---

[253] الأشطان جمع شطن وهو الحبل الطويل

- ..ن الله تعالى دعا إلى النهوض والنهود، ونهى عن الفتور والقعود.
- ..شكول أقارب، وإن تباعدت بهم المناسب.
- ..ن انتشار النظام إذا بـدا يدب دبيب النـار في الهشيم، ويسري كما يسـري النعل في الأديم، وكثيراً ما يعدي الصحاح مبارك الجرب، ويتخطى الأذى إلى المركب ..صعب.
- وقعت الخلافة في الخلاف، وبرز الشر من الغلاف.
- فإن شرف الأعراق، محتاج إلى شرف الأخلاق.
- والعود ليس بأصله لكنه بنباته، والماءُ يفسدُ إن خلطت أجاجَه بفراته.
- كأن ذلك يعتصم منه بالخالق، وكأن هذا يستطعمه من الرازق.
- ..ولولا فضل الرعاة على الرعايا في بعد مطرح النظرة، واستشفاف غيب العاقبة، لأستوت الأقدام وتقاربت الأفهام، واستغنى المأموم عن الإمام.
- ربما استظهر العريض المبطل بفعل بيانه على الفاجر المحق لعي لسانه.
- ليس بالطاهر عند الله من أفاض الماء على أطرافه، وجعل النجاسة حشو شغافه.

..قد صاغ أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الصابي من كلام الحكماء فِقراً صارت ..حكم الوصايا التي يمكن أن يتأملهـا الملك والحاكم فيرعـوي بالحكمة والمشورة. ..يظهر أن الصابي قد تناول هذه الأمور بالكتابة بعد النكبة التي تعرض لها على يد عضد الدولة لما عانى منه شخصيا من تعسف وإجحاف من جهة، ولبيان أن الملك يجب .. يرتقي بفعله عن عامة الناس مهما إرتقوا في المنزلة ويكون إلى المسامحـة والحلم ..قرب ممـا هو إلى النقمة والظلم. ويظهر من خص التسمية بالملك أن المقصود هو عضد ..دولة ذلك أنه أول من تلقب بلقب ملك في العصر الإسلامي، يقول الصابي:

- الملك القـادر أولى بالتأني في حكوماتـه، والتثبت في عزماته، لأنـه إن أخذها على شبهة وأمضاها على غير بينـة لم يكن له دافع عنها، ولم يخل أيضاً من مساعـد عليها. الملك المنعم إذا أفاض المكارم واغتفر الجرائم، ارتبط بذلك خلوص نية من قرب عنه وهم الأقل، وانفساح الأمل ممن بعد عنه وهم الأكثر، فيستخلص حينئذ ضمائر الكل من حيث لم يصل معروفه إلا إلى البعض.
- الملك تلزمه الحقوق بأيسر سعي الساعي لهـا، وأقصر أمد الجاري إليها، لأنه إن ..انتظر بهم أن يعقـدوا عليه المنن الجمة، وان يسبغوا عليه النعمة الضخمة، لم يكن

لهم بذلك طاقة، ولم يكن به إليهم فاقة، لكن المحل الذي حله، والمكان الذي تبوأه يوجبان عليه أن يكون على القليل من الذمام محافظاً، وبعين الرعاية لهم ملاحظاً.

❖ الملك إذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا.

❖ الملك إذا استكفى أحد ثقاته أمراً تشكل عواقبـه، وتشتبه أعجازه، فانتشر ذلك الأمر عليه من حيث لم يأل جهداً في طلب نظامه والسعي لالتئامه، فواجب أن يحمده أو أن يذمه، فإنه إن ذمـه قبضه وقبض نظراءه عن الدأب في المصالح والطلب للمنـاجح. ولحقهم من قصـور الهمم ما يعود وهنه عليـه وتتعلق شكايته بـه، لأنهم يشغلون عن التوصل إلى مـا يرومـه، بالتحرز عما يضرهم.

❖ الملك يتوصل إليه كل من تنكر له وتعتب عليـه، وهم طبقات ثلاث: فمنهم من ذنبـه مقرون بعذره قد أماطه عنه وأخرجه سليماً منـه، ويقال أقر بالذنب طاعـة، وأمسك عن العذر هيبة، ولا يحسن أن يقتصر بمن هذه حاله على أن تسقط اللائمة عنـه دون أن تجب المحمدة له، ومنهم من ذنبه واضح وعذره معوز، ولكنه فرد لا أخ له وفذ لا تؤام معه، والأولى به أن يقال إذا اعترف بالحوبة وأخلص في التوبة، ومنهم المتردد في هفواته والمتكرر في عثراته، الجارية عادته أن يكسر التوبة إذا تاب، ويفسخ عقد الإنابة إذا أناب، فذلك الذي يعاقب بالإطراح ولا يطمع منه بالفلاح.

❖ الملك بمن غلط من أتباعـه فاتعظ أشد انتفاعاً منـه بمن لم يغلط ولم يتعظ، فـإن الأول كالقارح الذي أدبته العثرة وصلحته الندامة والثاني هو راكب للغرة وراكن إلى السلامة، والعرب تزعم أن العظم إذا جُبر مِن كسره، عاد صاحبه أشد بطشاً وأقوى يداً"[254].

تصنيفات رسائل الصابي

يمكن النظر إلى رسائل الصابي من ميدانين متنوعين هما ميدان المضمون وميدان الشكل والأسلوب.

الرسائل من حيث المضمون

أما من حيث مضمون الرسائل فيمكن تصنيفها إلى ثلاثة أصناف أساسية هي: الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية والرسائل متنوعة الأغراض.

---

[254] ابن حمدون، التذكرة الحمدونية

أولا: الرسائل الديوانية

وقد سميت كذلك لاختصاصها بديوان الخلافة ومقرهـا وما يصدر عنـه من مخاطبات تكون بأمر الخليفة ولسانه وتوجيهه وإمضائه. كما تصدر أيضا عن ديوان الأمير البويهي والملك البويهي[255]، وكذلك عن مقـر الوزارة فيمـا يتعلق بتوجهات الديوانين في الخلافـة والإمارة. أما الأغراض التي تكتب فيها هذه الرسائل فمتعددة ويمكن إجمالها فيما كتب الصابي في:

كتب الفتوحات، كتب العهود والتقليدات، كتب الخراج وما يتعلق بالإقطاعات، عقود الصلح والهدنة، عهود الاتفاق والأمان، العلاقة بالولاة والدول المجاورة، مخاطبات مفتوحة للرعية، والتهاني والتعازي، والشفاعات.[256] إن تنوع الأغراض في هذه الرسائل يمنح فرصة للاطلاع على ما كان يدور وكيفية تنظيم الأمور في الكيان الرسمي للخلافة والإمارة، ذلك أن المخاطبة تشتمل على التوجيه والقرار الذي بموجبه تنظم العلاقات مع المخاطبين على تنوع تخصصاتهم ومستوياتهم. وهي تقدم لنا فوائد جمة في النواحي الآتية:

1- الناحية السياسية: فقد كشفت الرسائل، من طبيعـة مخاطباتها والجهات التي يتـم مخاطبتها، عن ضعف بالـغ في مقـر الخلافة العباسية، وليس أدل على ذلك من سيطـرة الأتراك وتحكمهم حد عزل الخليفة وتولية من يريدون، ثم تولي البويهيين ذلك. وإذا كانت كتب التأريخ قد أشارت إلى ذلك بشكل عام وبأحداثه المسجلة، فإن رسائل الصابي تحفظ لنا وتكشف بالعبارة والمفردة وطريقة الصياغة هذا الضعف الذي يصل إلى حد التودد إلى الأمراء ومن تسمـوا بالملك، بل وفرضهم على الخليفـة تسميتهم بالألقاب التي يريـدون والتوقيع والإقرار بمـا يرغبون. ويمكن التدليل على ذلك في بعض ما نقتطع من الرسائل التي أنشأها الصابي عن الخليفة الطائع لله مثلا حين يخاطب عضد الدولة فيرد في أحدها: "وقد علمت، كلأك الله[257]، أن المطيع لله[258] صلوات الله عليه، منذ أفضى الله بالخلافة إليه، قلد أزمة أمـوره عماد الدولة أبا

---

[255] يذكر أن عضد الدولة البويهي هو أول من تلقب بلقب ملك في العصور الإسلامية بدءاً من تأسس الدولة الإسلامية.

[256] لقد فصل الباحث الألماني كلاوس هاخماير في كتابه " رسائل أبو إسحق ابراهيم الصابي" فيه هذه الأبواب وقدم أمثلة على ما تضمنه كل نوع من أنواع هذه المكاتبات يمكن الرجوع اليه في:

Klaus U. Hachmeier, Die Briefe Abu Ishaq Ibrahim al- Sabi's. Georg OlmsVerlag 2002

[257] كلأَكَ اللّه: كِلاءَةً أي حَفِظَك وحرسك

[258] هو والد الخليفة الطائع لله

الحسن مولى أميـر المؤمنين، وأقــره من التشريف والتنويه، والإعلاء والتنبيه، بالمقر الذي قصرت دونه خطى المجارين، وغضت عنه لواحظ المبارين، وأنزل أخويه، ركن الدولة أبا علي، ومعز الدولة أبا الحسين، موليي أمير المؤمنين بعده، المنازل السنية التي أوجبها لهما النسب إليه، واقتضاهما السبب منه..." ومنها" أن يُبينه عن سائر من كُنى ولُقّب وشُرّف وقُدّم، بميسم من مياسم التفخيم، تتأخر الغايات عنه، وتنزل لهم دونه،... ونودي وأعلن فيه بشعار المسلمين من بَر الأرض وبحرها، وسهلها وجبلها، وبدوها وحضرها، وقاصيها ودانيها.." [259] ويظهر من خلال النصوص الموقعة من قبله في مثل هــذه الرسائل ضعف موقف الخليفة، كما يظهر ذلك في نص رسالة أنشأها الصابي عن الخليفة الطائع وكان قــد بعث بها إلى أهل البصــرة بضرورة طاعــة الأمير البويهي عز الدولة لأن في ذلك طاعة له يقول فيها:"... وأمير المؤمنين يعلمكم أن عز الدولة يده التي يبطش بها، وعدته التي يعول عليها، ويأمركم بالجهاد معه والنصر له، والكون على كل مخالف عليه، ومنازع له، وقد قرن أمير المؤمنين العهد في ذلك عليكم.بعهد البيعة الحاصلة في أعناقكم، وجعلكم في أضيق حرج من التقصير أو التعذير، أو المراقبة أو المختلة، وليس لكم صلاة ولا زكاة، ولا عقد ولا مناكحة، ولا معاملة، إلا مع طاعته، والإخلاص له سرا وجهرا، قولا وفعلا.."[260]

وفي مقابل هذا الضعف في موقف الخليفة وسلطانه الذي أظهرته الرسائل مؤكدة ما ذكر في التوثيـق التأريخي، فإنهــا أظهرت فضائل الأمراء والملوك البويهيين وقوتهـم وبطشهــم وبخاصة الملك عضد الدولة الذي فرض بقوته وسيطرته التلقب بتاج الملة. وقد صار مصدر قلق الخليفة الذي لم يتوان من وصفه بحسب ما يكتب الصابي عنه: " سيف الله الفاصل، وسنانه العامل، والذخيرة في الملمات، والعدة للحادثات، ومن ليس له إذا شهد عديل، ولا إذا غاب بديل، ولا يقاربه في مناقبه مقارب، ولا يجاذبه مجاذب" [261]

2- **الناحية الإدارية:** يفاد من قراءة رسائل الصابي كيف كانت تسيس الأمور الإدارية من قبل دار الخلافة والإمارة والوزارة وذلك من خلال المخاطبات إلى الولاة الموكلين بالأمور في الأقاليم والنواحي، ومن ذاك أن ولاة الأقاليم كانوا يسمون

---

[259] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي ص 260-278

[260] المصدر السابق ص 304

[261] المصدر السابق ص271

بالأمراء أيضا وأن إختيارهم يتم بالمعرفة والتزكية من قبل من يتعهدهم من الثقاة الذين يثق بهم الخليفة والأمير . كما تظهر الرسائل دقة الوصايا التي يوصون بها في تطبيق مهام ولايتهم وعملهم. وهي من جانب آخر تظهر معرفة الصابي الدقيقة بهذه المهام فتراه يسطرها ويلزم بها الولاة أيما إلزام ثم يأتي دور من يقــر الصابي على ما كتب بالإمضــاء والتوقيع. وتذهب الرسائل بعيــدا في توصيف المهــام وبخاصة ما كان عنهــا يتعلق بحفظ الأمن ومحاربــة الفتن الداخلية التي يمكن أن تؤدي إلى البلبلة وإشغال مركز الحكم وزعزعة القوة، وهو ما لجأ البويهيون إلى إحكامه سلطة وتوصية في الرسائل التي أنشأها الصابي والتي أوصى بها كل والي بأن يوكل بالطرقات من الخيل والرجال من يتقصاها ليلا، ويستقريها سهــلا وجبلا، ويسير في برها وبحرها، ... ويوعز إلى من يوليه بأن يتتبعوا مظان أهل الريب فيشردونهم عنها، ومكامن أهل العبث فيبعدونهم منها، وأن يقضوا على من يجدونه من ذوي التهم، ومن تعلق بهم الظنن، ويستقصي أحوالهم بحثا، ويستنبطها علما، فمن صح عليه ما نسب إليه، أمضى فيه حكم الله العدل، وأجرى عليه قضاءه الفصل، ومن كان بريئا مما ظن به (فما على المحسنين من سبيل). وأن يسيروا مع السابلة، ويصحبوا من يسلك الطرق من المارة، ويحمــوا النفوس والأموال، ويحوطوا الدراري والتجارات، ويقفــوا على من تخلف، ويسيروا بمسير من ضعف، حتى لا يلحق أحدا من السالكين عيب، ولا يغوله دون مقصده غول، وتكون الطرق مضبوطة، والآمال محوطة..."، ومنها:" أن يولي الأحداث أهل العقل والدعــة، والضبط والعفة، وأن يوعز إليهــم بترك المحاباة والمراقبة، والإعراض عن المسألة والشفاعة، والتشدد على أهل الريب، حتى لا يظهر منهم منكر، ولا يوقف لهم على فاحشة.." [262] كما تظهر رسائل الصابي توصيات البويهيين بصياغته للولاة بشأن أمور عديدة وبخاصة في حماية الملك بأن "يوكل بالثغور مراعاته، ويصرف إليها عنياته، وينوطها من إنجاد الولاة، وبسلاء الكفاءة، بمن يضطلع بتدبير الحروب، ويعرف وجوه الإحتراس، ويهتــدي لنصب المكائــد، ويتحرز من اتجاه الحيل، وأن يطرقها بنفسه، ويشرف عليها بنظره، ويشحنها بالخيل والرجال،

---

[262] شكيب أرسيلان ، المختار من رسائل الصابي. من نسخة عهد عن الخليفة المطيع لله الى أبي تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة أبي الحسن بن عبد الله بن حمدان، كان المتوكل على الموصل وأعمالها، والرسالة من إنشاء أبي إسحق. أما الآية فهي 91 من سورة التوبة

ويستظهر لها بالآلة والسلاح... وأن يوصي ولاته بالتثبت والتيقظ، والتحزم والتحفظ، والحذر من ركوب غرة، وابداء عورة، ولا يمنحوا عدوهم ظهرا، ولا يولوه دبرا... وأن يزيح العلة في جميع ما يحتاج اليه لنفقات هذه الثغور راتبها وحادثها وقليلها وكثيرها وبناء حصونها ومناظرها، وابتياع كراعها واسلحتها، واصلاح طرقها ومسالكها، واقامة أنزالها وعلوفاتها، وأرزاق رجالها وولاتها، واتخاذ عددها وآلاتها، حتى يستقيم أمرها وينتظم، ويتم ضبطها ويلتئم، من غير إعتلال في ذلك ولا مدافعة، ولا احتجاز عنه ولا مراوغة، حسب ما شرطه عز الدولة أبو منصور مولى أمير المؤمنين رعاه الله عليه، وضمنه أمير المؤمنين عنه" [263]

وهكذا يسير الأمر في العهود والوصايا التي تقر على الولاة والقضاة ويُلزِمون أنفسهم أولا مثلما يَلزِمون الذين يعملون بمعيتهم بها في أعمال القضاء والخراج والجند والأيتام والذمم والتطبيب، وبما يشكل نظام الدولة ويرعى حياة الرعية. وفي الاطلاع على رسائل الصابي التي تناولت مختلف الجوانب في جميع هذه الميادين تتكشف الأمور التي خصت بالرعاية وكيف أن الصابي صاغها بمعرفة متقنة في كل أغراضها وأحكامها الشرعية وأسانيدها الدينية والفقهية وتفاصيلها التنفيذية التي كثيرا ما ألزمت الموكل غاية الإلزام. كما أنها كشفت قدرة العبارة على تحديد المراد مع بقاء صفة البديع في الكلام ملازمة للنص، وكأنك تقرأ قطعة أدبية مع أن غايتها العهد والوصاية. وقد مر بنا في العهود التي كان يكتبها الصابي بشأن تولية القضاء لقاضي القضاة[264] وجملة الأوامر التي يتلقاها في القيام بمهامه وكيفية إختيار من يعمل بمعيته وبخاصة الكاتب والحاجب. أما الكاتب فيجب أن يكون " دَرِبا بالمحاضر والسجلات، ماهرا في القضايا والحكومات، عالما بالشروط والحدود، عارفا بما يجوز وما لا يجوز، غير مقصر عن القضاة المستورين والشهود المقبولين في طهارة ذيله، ونقاء جيبه، وتصونّه عن خبث المآكل والمطعم، ومقارفة الريب والتهم. فإن الكاتب زمام الحاكم الذي إليه مرجعه، وعليه معوله، وبه يحترس من دواهي الحيل، وكوامن الغيل"... وأما الحاجب، فيجب أن يكون " سديدا رشيدا، أديبا لبيبا، لا يسف إلى دنيئة، ولا يلم بمنكرة، ولا يقبل رشوة، ولا يلتمس جُعلاً، ولا يحجب عنه

---

[263] المصدر نفسه ص193-194

[264] يمكن الرجوع الى نسخة تولية قاضي القضاة بن معروف في ص268

أحداً يحاول لقاءه في وقته، والوصول إليـــه في حينه" [265] أما بشأن الأيتـــام فالتوصيات كثيرة بحسن المعاملة والتزام الرعاية بحيث يجب على الملتزم بهم والمتوكل عليهم أن" يخرجهم في أبواب معايشهم، وأسباب مصالحهم، والانفاق عليهم من عرض أموالهم بالمعروف الذي لا شطط فيه ولا تبذير، ولا تضييق ولا تقتيــر، فاذا بلغوا مبالغ كمالهم، وأونس منهم الرشد في متصرفاتهم، أطلق لهم أموالهم، وأشهد بذلك عليهم، فقد جعله الله بما يتقلده من الحكم خلفا من الآباء لذوي اليتم، وصار بهذه الولاية عليهم مسؤولا عنهم مجزيا عما سار به فيهم، وواصله من خير أو شر إليهم" [266] ولكي تسد حاجـة العاملين بما يجعل سراطهم مستقيما فلا ينظرون إلى غني طمعـا ولا يصدون عن فقيــر جزعــا فعلى القاضي أن:" يجعل لكل من هذه الطوائف رزقا يكفه ويكفيه، وقوتا يحجزه ويغنيه، فليس تلزمهم الحجة إلا بعد إعطائهم الحاجة، ولا يؤخذ عليهم بالوثيقة إلا مع إزاحة العلة" [267]

3- الناحية التاريخية: لقد شهدت الفترة التي عاشهــا الصابي كاتبا ومؤرخا الكثير من الحروب والمعارك والغزوات والفتن وذلك بسبب سعي البويهيين لتوسيع دولتهم وإخضاع من يخالفهم والقضاء على من يسعى للبروز عليهم. ويظهر ذلك من خلال الانتصار الذي حققوه حينما كانوا قادة جنـــد، فتعززت هــذه القيادة حتى صارت سمتهــم التحدي والتباري في الحروب والمعارك التي أزهقت الكثير من الأرواح وأسالت الكثير من الدماء. وما يهمنا هنا أن خطابات التهديـــد والوعيد وعهود الصلح والصفح ومواثيــق الاتفاقات كانت كثيرة، وكان على كاتب الإمارة أن يكون على قدرة عالية في كل أغراض هــذه الخطابات، بل وحتى في وصف المعارك ذاتها وتقديم صورة عن سيرها وما آلت إليه. وعمل الكاتب هنا غير عمل المؤرخ، ذلك أن عليه أن يدون على العدو الأسباب التي أدت إلى قيام المعركة والعوامل التي أدت إلى الانتصار، والنتائج التي آلت إليها المعركة في جانب العدو وجانب من يكتب له بالنصر.

ومن أجل الوقوف على كثرة وتنوع الحروب التي خاضها البويهيون والتي كان على أبي إسحق الكاتب أن يكتب فيها نذكر أن هذه الحروب تصنف كما يلي:

---

[265] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي ص 354 -355

[266] المصدر السابق ص 179- 180

[267] المصدر السابق ص 177

❖ حروب البويهيين مع الروم

❖ حروب البويهيين مع الخارجين عليهم من الولاة والرعايا

❖ الحروب التي قامت فيما بينهم

ومما كتب الصابي عن عـز الدولة في الحرب التي قامت ضد الروم سنة 362 هـ. فقد هجمت جيوش الروم في هذه السنة بقيادة الدمستق (قائد الجيوش) على منطقة الرها وهي الواقعة بين الموصل والشام، وتوغلوا إلى نصيبين. ويصف الصابي بشكل دقيق وبليغ كيف توغل الروم وكيف صُدوا ثم الوقع بهم وأسر الدمستق قائـدهم ويقول:" وأجلت بعد تنازل الأبطال وتعارك الرجال، واضطرام الحرب، واشتجـار الطعن والضرب، عن ظفر الأوليـاء البررة، وهزيمة الأعداء الفجرة، وعلو راية المسلمين. وتنكس راية الكافرين... وقد اشتمل عليهم الأسر ، وأحاطت بهم ربقة القسر، وأمكن الله أصحابنا من نواحيهم، وأنالهم أقصى الأماني فيهم، واستمراهم بعد ذلك فيما أحلوه بالباقين، من قتل عظيم ذريع، وعذاب أليم وجيع.."[268]

أما في الحروب التي قامت بين البويهيين ومن خرج عليهم من ولاتهم فقد كتب الصابي في أغلبها، ومن ذاك ما وقع بين معـز الدولة و روزبهان بن ونـداد سنة 345 هـ. وقد كان روزبنهان هذا غلاما لمعز الدولة لكنه، بحسب وصف الصابي على لسان معز الدولة، صار" الغامط لأنعامنا، الجاحد لإحساننا، المتردي (= المتهور) من ذروة طاعتنا. الهاوي في هوة معصيتنا، الخالع ربقة ذمتنا، النازع جُنّة معايشتنا.. تصنّع عندنا في قديم أمره بالـولاية، وتنفّق بالكفاية، وأظهر لنا غرورا من سعيه في الخدمة وكدحه، وسرابا لامعا من وفائه ونصحه، وهو يدب الضراء، ويسر حسوا في إرتغاء[269]، ويوكي(= يشد على الغش عيابه، ويحنو على النكث ضلوعه وحجابه، ولا يبدي لنا بادية وفاق، إلا عن خافية نفاق..." ويصف جوانب من المعركة معه بالقول:" وعبرنا القنطرة اليه في خواص غلماننا الأتراك، ونخب من الديلم والجيل الفتاك، وذوي صدور منه ومن أصحابه الخونة حامية، وقلوبٍ عليهم ملتظية، وأيدٍ في جهادهم متفقة، وأقدام إلى لقائهم مستبقة، فلم تزل الخيل تطرقهم، والكر يرهقهم، والجراح تثخنهـم، والقتل يمحقهـم. والحرب تذيقهـم حرَّ حديدهـا، وجـلاد صناديدهـا، وترميهم بكماتها وأبطالها. وتعركهم عرك الرحى بثقالها.. أنزل الله نصره على أوليائه، وشفع لهم وعده بوفائه.

---

[268] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي ص 80

[269] الضراء: شجر كثيف إشارة الى التواري في الشجر، ويسر حسوا في ارتغاء، مثل يضرب فيمن يظهر أمرا وهو يريد غيره.

فانهزم الخائن هزيمة قوّض الله بها عروشه، وفضّ جيوشه، وضلل وساوسه، وأبطل هواجسه، واستلحمت رجاله السيوف، وحرقتهم نار الحتوف، واقتسمتهم المكاره شعاعا أيدي سبا بين قتيل مرمل، وأسير مكبل، وهارب مفلول، ومستأمن ذليل.." [270] فمن يقرأ كل هذه الرسالة يجد فيها توثيقا لكيفية بروز شخص مثل روزبهان وترقيه للمناصب العليا ثم خيانته لولي نعمته واتفاقه مع عدوه والمحاربة معه ضده، وقد صاغ الصابي كل ذلك بلغة بليغة منسابة، فإن أراد بها القارئ استجلاء الأمر وقف عليه تفصيلا، وإن أراد التمعن بالإنشاء وجد نثرا فنيا مسجوعا ببليغ العبارة وجمال الكلمة ودقة التعبير بطباق وجناس واستشهاد دقيق من آي القرآن والأمثال المقترنة بتسلسل الحدث.

وأما الحروب التي قامت بين أبناء بني بويه فأشدها ما. قام بين بختيار عز الدولة الدولة وأبي شجاع فنا خسرو عضد الدولة. فقد اشتدت التهديدات بين الاثنين واستعرت حتى أن الخليفة الطائع لله قد فزع منها وخشي عواقبها على حياة الناس وحياته وعلى مركز الخلافة. ويبين لنا الصابي في رسالة أنشأها عن الخليفة الطائع لله كيف تدخل الخليفة راجيا عضد الدولة الكف عن الحرب والحد منها فيخاطبه بالقول: " ولم يزل أمير المؤمنين منذ نزغ الشيطان بينك وبين عز الدولة أبي منصور، أيدكما الله، مغموض الجفون على قذى، منطوي الجوانح على أذى، وقيذا(= متوجعا) من أن تنقص نعم الله عنده فيكما، بتنافس يقدح في نفاستكما، وتقاطع يعترض ذات بينكما. وما ترك الاهتمام بذلك والارتماض له، والقلق من أجله، والفكر فيه، إلى أن انتهى إلى مهاجرة داره، ومفارقة استقراره" [271]

ويمضي عضد الدولة بشن الحرب غير مستجيب لنداء الخليفة، فتدور معارك بينه وبين إبن عمه عز الدولة ينتصر فيها آخر الأمر عضد الدولة، ويلتزم أبو إسحق بالكتابة عن المنتصر ويصف حال المغلوب بأنه " دارت عليه الدائرة، وصلي بالنائرة، التي يداه أوكتاها، وفوه نفخ لها، واجفل عن متوجهه لبذي قال فيه رأيه، وموقفه الذي ضل فيه سعيه، هزيما كليما، مغلوبا مسلوبا محروبا، مقتول الأصحاب، مفلول الأحزاب، هاربا من عضد الدولة أيده الله عليه واحاطته به، ناجيا من ذباب سيفه، وسرعان خيله،

---

[270] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي ص 49-61

[271] المصدر السابق ص 327-328

فلولا ابقاؤه عليه، وحبسه الأعنة عنه، وتذممه من أن يقنص نفسه بيده، فتكون عليه غميزة[272] قد باعده الله عنها، ونزهه عن السعي لها، لكان ذلك المصرع منقضي أجله، ومنقطع أمله.." [273]

وبقدر ما تقدمه هذه الرسائل من وقائع تاريخية تصفها وصفا دقيقا من حيث تأريخ ومكان وقوعها، ومن دارت بينهم والنتائج التي آلت إليها، إلا أنها تصاغ لصالح الجانب الغالب والأمير الذي حقق النصر وإستقر له الأمر. وهي في الغالب تأخذ منحى المحاباة في الصياغة وبيان الغلبة بعد حصولها. والتحصيل من ذلك بأنها لا يمكن أن يعتد بها إعتدادا كاملا من حيث موضوعية تصوير الحدث، وهذا ما أظهرته بعض الاختلافات بين مضامين الرسائل وتثبيتات المؤرخين إزاء حوادث ومعارك حصلت. بل أن أكبر شاهد على عدم دقة مثل هذه التوثيقات هو ما جاء على لسان الصابي أو ما ذكر عنه في القولة المشهورة التي كادت أن تقضي على حياته" أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها" حينما كان يكتب في كتاب " التاجي" ويثبت فيه تاريخ الدولة الديلمية. على أنه يشار أنها تضمنت أحيانا وقائع لم يشر لها المؤرخون. وفي الإجمال، فأن هذه الرسائل يمكن أن تشكل توثيقات تاريخية على قدر تطابقها مع الوقائع التاريخية المدونة، فإن كان هنالك إختلاف فيراجع من حيث درجة إرتباط الأمر بمن كتب عنه.

أما موقف الصابي في هذا فلا يؤخذ عليه هو ككاتب، ذلك أنه يكتب عن السلطة الموجهة والتي أوكلت له أمر الكتابة وبتوجيه منها في الإطار العام الذي يجب الكتابة على وفقه، أو قراءة المكتوب والحكم على الكاتب، بل وعلى بقائه في وظيفته، من خلال ما كتب. وعلى هذا فإنه ربما يلجأ إلى تمويه الحقائق أو إغفالها أو التلاعب بها بما يظهرها متفقة والتوجهات التي تحكم الجهة الغالبة والمسيطرة. وفي هذا أمثلة كثيرة، لعل أبرزها ما كان في وصف الحرب التي دارت ضد الروم والتي تم فيها أسر الدمستق كما أشرنا لها سابقا، وكذلك في رسالة التكرمة التي كتبها عن الخليفة سنة 366 هـ والتي أعلى فيها من شأن عز الدولة ووزيره ابن بقية، حيث كتب بتوجيه من الخليفة بذلك بما وضع عز الدولة بالمرتبة العليا حيث يقول:" فجدد أمير المؤمنين هذه المساعي السوابق، والمعالي السوامق، التي يلزم بها كل دان وقاص، وعام

---

[272] الغميزة: العيب

[273] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي ص 275-276

وخاص، أن يعرف حق ما كرم له منها، ويتزحزح عن سرير المماثلة له فيها.."[274]، لكنه يعود فيكتب لما غلب عضد الدولة على الأمور في سنة 367 هـ فيصف المغلوب عز الدولة بالقول: " فما زال بختيار يسيء الإختيار، ويتنكب الصواب، ويتجنب الصلاح، ويمزق الأموال، ويعرض الدولة للزوال، ويهرج الأولياء أشد الإهراج، ويحملهم على أعوج المنهاج، ويخرب الأوطان، ويشتت الأقران، ويقتل الكفاة، ويستكفي الغواة..."[275]

ومع كل ما يؤخذ على الرسائل التي كتبها الصابي في عدم دقتها من حيث ذكر بعض الوقائع التاريخية ومحاباة من يكتب له وتدوير الأمور نحو جهة الغلبة أو تبرير الفشل، إلا أن الجميع يتفق على أن هذه الرسائل تبقى وثائق تاريخية على غاية من الأهمية لكونها قريبة من مصدر الحدث وساعته. كما وجد فيها الباحثون أحداثا لم يتم تناولها من قبل المؤرخين، ولذلك فقد تتبعها البعض وخصها بالدراسة والمقابلة بينها وبين ما دونه المؤرخون، وكذلك في الوقوف على جوانب تفصيلية في المؤامرات والدسائس والرشاوى وخيفة الجند وسيطرة أجناس الترك أو الفرس، ومعرفة طبيعة نظام الحكم السائد والعلاقة بين الخليفة والأمير المولى، والنظم والرسوم الشائعة من التلقيب والتكنية والخلع والتولية وغير ذلك مما يرد في الرسائل تشخيصا. وصار على كل من يريد أن ينظر إلى تلك المرحلة من عمر الخلافة العباسية ضرورة الرجوع إلى رسائل الصابي فيها.

ويبقى الوجه الآخر من الرسائل الذي لاتخرقه خروقات التوثيق ولا تناله وسائل التحقيق ولا تغلبه فرص مجاراة أمر الأمير، للحدو به فيما يسير، ذلك هو لغة الرسائل في طريقتها ومحتواها بمفرداتها وصياغتها بالأساليب التي درست على أنها القيمة العليا في الصنعة والسمة الرفيعة في البضاعة. وهذا ما سنتناوله في باب شكل الرسالة عند الصابي.

ثانيا: الرسائل الإخوانية

وحيث سُجلت البراعة للصابي في الرسائل الديوانية، مع أنه يكتب فيها كما يؤتمر لا كما يحب ويريد، فإن البعض يرى أنه في الرسائل الإخوانية أقل شأوا. وربما يكون

---

[274] شكيب أرسلان المختار من رسائل الصابي ص 322 ، وقد مر بنا أن هذه اللفظة كانت إحدى أسباب نقمة عضد الدولة على الصابي فقد قرأ فيها أنه هو المقصود.

[275] المصدر السابق ص 270

ذلك في قلة ما وصل منها في هذا الميدان، مع أننا نرى أن البراعة يمكن أن تتمثل في الرسائل الإخوانية بشكل أكبر، ذلك أنها غالبا ما تكتب بحسب رغبة الكاتب لأنها تصل في أغراض لا ترتبط بشؤون الخلافة أو بسياسة الدولة. والرسائل الإخوانية هي الرسائل التي تكتب بين من تربطهم علائق ويراد التعبير عنها بحسب أغراض معينة فتكون معبرة عن هذه الأغراض ولكن بإنشاء المخاطب وبعيدا عن الأغراض الرسمية. وقد كتب الصابي في هذا الرسائل ما كان يخصه هو أو نيابة عن آخرين بطلب منهم. ومع ذلك فإن الرسائل الإخوانية التي كتبها الصابي لمن هم رؤساءه تختلف عن تلك التي يكتبها إلى الأصدقاء والنظراء.

وفي مقدمة الشخصيات السياسية التي كتب لها الصابي هو عضد الدولة حينما كان أميرا بفارس. فقد سعى الصابي في رسائله إلى إستمالة عضد الدولة لما عرف فيه من قدرة ومنعة. كما كتب إليه بمناسبة فتح جبال القفص والبلوص كما مر بنا. وقد إستغل الصابي حتى المناسبات الخاصة فكاتب عضد الدولة مثلا مهنئا بمولود رزق به، وعبر في ذلك عن بهجته بهذا " المولود العالي جَده، السامي محله، فالتاج بهيٌّ بجبينه، والركاب تزهي بقدمه، والأمر والنهي يرشحانه، والحل والعقد يرجبانه، والخاصة والعامة تعتده، سماء جود يحيون بحياها، ويأوون إلى ذراها... والحمد لله الذي تابع لمولانا المنايح طلقاً، وواصلها له نسقاً.."[276]

ومن أبرز الشخصيات التي كتب لها الصابي الوزير الأديب الصاحب بن عباد، وقد مر بنا ذكر صداقتهما وما كان منهما في باب أصدقاء الصابي. وحين خرج الصابي من سجنه بعد النكبة التي نكبه بها عضد الدولة بحاله وماله منهوك القوى ضعيف الحال، لم يجد أمامه من يسانده ويساعده فكتب إلى الصاحب مبينا ما أنزلت به صنعة الكتابة في ذهاب المال ومستنجدا بالوصال فقال: حيث لم أسأل المعونة أحدا ولا سمحت أن أستميح مسوّدا ولا سيدا راجعا إلى شيء مما يرجع اليه الناس من موروث تالد، ومكتسب طارف، حتى انتهت مغارمي إلى نحو خمسمائة ألف درهم، لم يبق لي بعدها ضيعة ولا منزلة، ولا باطن ولا ظاهر، فلما صارت صروف الدهر تتوغل بعد التطرف، وتجحف بعد التحيف، وصادف ما تجدد عليّ منها في الوقت أشلاءً منهوكة وأعظماً مبرية، وحشاشة مشفية، وبقية مودية، فارقت الإيثار، وأطعت دواعي الاضطرار، وجعلت أختار الجهات ، واعتام الجنبات، لأنحو منها ما لا يعاب سائله إذا

---

[276] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي ص93

سأل، ولا يخيب آمله إذا أمّل، فكان سيدي أدام الله عزه أولها إذا عددت، وأولاها إذا اعتمدت". [277]

ومما كتب الصابي فصلا عن الوزير بن بقية إلى قاضي القضاة ابن معروف جاء فيه:
" وصل كتاب قاضي القضـــاة، بالألفاظ التي لو مازجت البحر لأعذبته، والمعاني التي لـــو واجهت دجى الليل لأزاحته وأذهبته، ولم أدر بأي مذاهبه فيها أعجب، ولا من أيها أتعجب، أمن قريض عقوده منظومةً؟ أم من ألفاظ لآلئها منثورةً؟ أم من ولوجها الأسماع سائغةً؟ أم من شفائها العلة نافعةً؟ وأما الأبيات التي رسم التقدم بتلحينها، وقال بمذهب أهل الحجاز فيها، فما أعرف كفؤاً لمثلها ملحناً، ولو كان إسحاق الموصلي، ولا مجيباً ولو كان امرأ القيس الكندي، ولا أرضى لها مهراً إلى حبات القلوب، ولا مجالاً إلا أرجاء الصدور، وقد جعل الله فيهـــا من الفضل ما يشغلنا عن تعاطي الإجابـــة عنه، وقرن بها من الأطراب ما يكفينا تأمله عن صياغة الألحان له" [278] وكتب عن نفسه إلى القاضي ابن معروف حينما زاره في السجن نسخة جـــاء منها: " قوى دخول قاضي القضـــاة إلى نفسي، وجـــدد أنسي، وأغرب نحسي، ووسع حبسي، فدعوت الله له بما قد ارتفع إليه وسمعه، فإن لم أكن أهلاً لأن يستجاب مني فهو أيده الله تعالى أهلٌ لأن يستجاب فيه" [279]

ومن أبـــرز الرسائل الإخوانية التي أنشأها الصابي ما كتب لصديقه الشريف الرضي في المراسلات التي جرت بينهما. وإذا يسجل أن ما كان بين الصابي وبين شخصيات عصره كان يقوم أساسا على تأدية الأعمال والمنفعة الخاصة والذاتية، فإن الرسائل مع الشريف الرضي كانت تظهر الجانب الروحي وتمازج النفسين وتوامقها على خالص المودة وطيب الآصرة التي جمعت بين الاثنين فانسحب كل منهما تجاه الآخر. وسيـــرد بعض من هـــذه المخاطبات عند عرض نماذج من كتابات الصابي.

ثالثا: رسائل متنوعة الأغراض

وهذا النوع من الرسائل يتعلق بمخاطبات مختلفة ومتفرقة ورد بعضها وتم تناوله، بل وسجل لأبي إسحق كيفيـــة التناول والطريقة التي كتبها بها بما تتطلبـــه من معرفة

---

[277] المصدر السابق ص409-410

[278] ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب

[279] العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص

ودرايـــة في مواضيعها، وأكثر ما يستظرف في هذا الميدان ما كتبه أبو إسحق في موضوع التطفل بناء على تكليف من الأمير عز الدولة البويهي، وهي غاية في الظرف والتندر والشمول بضمنها الأمثلة والوقائع. ومنها أيضا في وصف الصيد الذي كتبه عن الوزير محمـــد بن العباس، ومنها رسالة تعزية عن الوزير بن بقية في وفاة ثور للقاضي بن قريعة جلس في عزائه. وفي هذه الرسائل يستمتـــع القارئ بفكاهة الموضوع إضافة إلى القدرة الأدبيـــة في صياغة الرسائل كدأب الصابي المعروف.[280]

الرسائل من حيث الشكل والأسلوب

أما الميدان الآخر الذي ينظـر من خلاله في رسائل الصابي فهو ميـــدان الشكل والأسلوب والصياغة. ذلك أن الأغراض التي يكتب فيها هي أغراض معروفة ومعهودة منذ أن ظهرت الحاجة للكتابـــة في ميادين التخاطب واقتضت اعتماد الكاتب وخصصت ديوان الإنشاء والرسائل. وقد صار من قيمة الكتابة تقييم طريقتها وأسلوبها، ووضعت في ذلك اعتبارات ورسوم وخصائص وصارت فيها السنن المعهودة التي يقاس عليها مستوى الكاتب وأهليته. وفي هذا تمايز الكتاب وذاع صيت من تفوق وأهلته الكفاءة في حسن ما كتب وجزالة ما سطر وبلاغة ما عبر وطريقة ما نثر. وحيث أن العرب قد اهتموا بلغتهم غاية الاهتمام، فقد عدّوا البراعـــة فيها على تنوع الميادين اللغوية معيارا للتباري، وصارت الأشعـــار تقوّم على أساسات لغوية غاية في الدقة والتميز، وهكذا في الأدب والكتابة، وفي الأمثال، والقصص، بل وحتى في الطرائف التي تحتمل مماحكات لغويـــة. ولا تعرف لغة في العالم ما عرفتـــه العربية من أغراض في الاستخدام وتمايز في ميادين الكتابة والكلام.

والصابي الذي سعى لأن يكون له موقعا بين الكتاب المتقدمين في هذا الميدان إبان عصره، بل وسعى به طموحه لأن يحقق له موقعا متقدما في دار الخلافة والإمارة والوزارة، قد بنى أحسن البناء على أسس الاستعـــداد والقدرة التي وهبت لـــه مستفيدا كل الاستفادة من التربية والتأهيل التي أمدها بيته بها كونه بيت علم وكفاية، ثم سعت به قدمه إلى التمايز بكل الوسائل ما كان منها أخلاقيا وتعليميا حتى يبرز ويتقدم القرناء. وقد عرف الصابي وهو الصابئ المختلف في الديانة عن ما هو سائد أن الكفاية هي المبرزة له ومقدمتـــه على الآخرين إن أراد لنفســـه ركوب الطموح الذي

---

[280] سترد هذه الرسائل في مواضعها عند كتابة فصول من رسائل الصابي

جاش به. وقد اشتركت عوامل التحدي مع عوامل الطموح في أن يكون الصابي بما كان منه حتى صار مدرسة في الأدب والكتابة تربع فيها على قمة جبل المترسلين والمنشئين. وهذا التربع إنما كان في خصائص الكتابة التي تتعدد على وفق معايير محددة منها ما كان يقع ضمن الصفات العامة التي نهج عليها الصابي نهج ما كان سائدا في عصره، ومنها ما تفرد به فصارت به الطريقة الصابية في الكتابة وأشيعها ما عرف في لغته من جزالة في الأسلوب وقدرة على الحبك والرصانة والمتانة في مادة الموضوع ودقة التصوير والإتيان بالمفردة البليغة في المكان الذي تبني فيه المعنى بناء رصينا بكلمات ذات جرس ووقع مما يدلل على أنه كان يصرف الكثير من الجهد في عمله، ونلمس هذا مثلا في هذه القطعة التي يقول فيها: " رعيتهم رعاع، سفلٌ سرامٌ هُمّدٌ، قد تحزبوا أحزابا وتعصبوا عصبا، يغزو دنيهم الأشرف، ويستجير قويهم الأضعف، الأعراض بينهم منهوكة والدّماء مسفوكة، والأموال مجتاحة والديار مستباحة... والسياسة مكبوبة على أُمِّ رأسها عن جهة صوابها، وليس من جميع ذلك إلا ما قد رآه قريبكم نظراً، وعلمه بعيدا خبراً، وشملت فيه البلوى، وتتابعت منه الشكوى".[281] وأمثلة ذلك كثيرة حتى في نوع الجمل التي يبتدعها ويختارها بحرفية وأدبية عاليتين. كما تميز أسلوبه بما عرف أيضا في رسائله من طول ظاهر، وتقدمات مبرزة، وتحميدات جديدة ومتميزة، والاقتباسات المناسبة من القرآن والأحاديث النبوية والأمثال والأشعار، والأسلوب المتميز في كثرة السجع والازدواج والطباق والجناس، بالإضافة إلى البناء التصويري لبعض الرسائل وبخاصة تلك التي وصفت المعارك ورحلات الصيد. ولغرض تبين مستويات توافر هذه الخصائص لابد من الوقوف عندها واستجلاء توافرها في رسائل الصابي بحسب الإشارات والاستشهادات التي وردت فيها.

1- **طول الرسالة**: لقد تميزت بعض رسائل الصابي بالطول الظاهر الذي يصل إلى ما يزيد عن عشرين صفحة، وهذه الرسائل هي التي تخص وصف المعارك التي دارت والتي كان على الصابي أن يكتب فيها من حيث الأسباب والوصف والنتائج، حتى عدت هذه الرسائل في جانب منها شكلا توثيقيا للحدث. ويظهر ذلك في رسائله التي كتبها في الحرب التي قامت ضد الروم وأسر قائد جيوشها المسمى بالدمستق، وكذلك عند دخول عز الدولة الموصل وهزيمة واليها أبي تغلب الحمداني. ومع أن طول الرسالة

---

[281] مهدي محمد صالح البدري، أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه، رسالة ماجستير ، كلية التربية جامعة بغداد 1976

يوقع الكاتب في قصور التتبع ويضعف السبك ويكون مدعاة للملل، إلا أن هذه الأمور لم تظهر في رسائل الصابي وظلت رسائله مترابطة متينة البناء. وربما جزأ الصابي سياقاته في الرسالة فصار كل جزء يخدم ناحية معينة من نواحي السـرد الذي يريد الوصول إليه. ولجمال ودقـة الألفاظ التي يوردوها فإن القارئ ربما رغب بمزيد الإطالة وكثرة الإسهاب لأنه سيتحصل من ذلك على ثروة لغويـة ونماذج وصفية لا يمكن الوقوف عليها بغير رسائل الصابي. ويشير المحللون لاسلوب الصابي أنه قد تمكن ضمنا من إثارة التشويق في الرسالة بحيث يندمج القارئ مع الأسلوب التصعيدي في سـرد المعارك مع حيوية في الوصف تجعل القارئ يعيش النص وهو يقرؤه. كما أنه ماهـر تماما في جعل الخليفة أو الأمير أو الوزيـر الذي كتبت باسمـه الرسالة صاحب الحق فيما أقدم ويصور الطرف الآخر بأنه المسبب الذي يجب أن تدور عليه الدائرة.

2- **تقدمة الرسالة وبناؤها**: تشتمل بنية الرسالة عند الصابي على ثلاثـة أركان هي التقدمة والموضوع الأساس المراد عرضه ثم الخاتمة التي يختم بها. وقـد تميزت رسائل الصابي بتقدمات مؤثـرة تجعل القارئ يقدم على القراءة، إذ إنه يرمي بسهم بلاغتـه من الوهلة الأولى فيصيب شغف القارئ الذي يتعلق بالقراءة تعلق النار بالزيت، كما أنه يديم في أغلب الأحيان هـذا البدء بالبديع من اللفظ في المتن، ويستمر بذلك حتى كأن القارئ يحسب أنـه سيقرأ ما هو أفصح وأبلغ في قادمات الجمل والتعابير إلى أن يأتي نهاية الرسالة، ويكون محصوله فوق فهم المعنى والغرض التلذذ بالقراءة، والإصابة بما يغذي البلاغـة في نفسه مهما كان قد امتلك منها وخزن. فيقدم في إحدى رسائل تعزيته مثلا بالتقدمـة التي تنم عن الحكمة المصاغة بالبلاغة الصابية فيقول: " للدنيا، أطال الله بقاء الرئيس، أقدار ترد في أوقاتها، وقضايا تجري إلى غاياتها، ولا يرد منها شيء عن مداه، ولا يصد عن مطلبه ومنحاه.."[282] ويكتب" أما بعد، فإن أحق النعم بأن يلقى ضيفها العصا، وتستقر به النوى، ويستبطن محالفا، نعمة قرنت بالشكر، وجنّبت الكفر..."[283] ويكتب:" أما بعد، فان أمير المؤمنين برعايته الحرمات، ومحافظتـه على الموات، وإيجابه حـق من تأكدت له العصمة، وارتضيت منه الخدمة، وعرفت في الطاعة آثاره، وتليت في الموالاة أخباره..."[284] ويكتب:" فقد علم فاضلكم

---

[282] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي ص 404

[283] المصدر السابق ص 43

[284] المصدر السابق ص 223

بما سمع ووعى، ونقل وروى، ومفضولكم بما بالغ فيه واجتهد، وسلم له وقلد، أن الطاعة مفروضة على الجمهور، وبها قوام الأمور..." [285]

أما البنية الداخلية للرسالة، فقد إنصبت في أغلب الرسائل السلطانية على الثنائية التي يتناولها الموضوع بين مخاطِبٍ ومخاطَب، وغالبا ما كان المخاطِب هو صاحب الكفة الأرجح الذي يريد أن يظهـره سلطته وقوته وجوانب الخضوع له، وعلى الصابي هنـا أن يفتش في كل جوانب الغلبة التي يظهرها فيه لكي يهابها المقابل ويحسب لها الحسابات على أن تكون مبنية على قدر من توافر هذه الصفات والخصائص وجوانب التهديـد والوعيد في صاحبها ومطلقها، وإلا كانت زيفا يرمى به المخاطِب والكاتب. وبالمقابل يجب أن يبحث الصـابي عن المثالب والنواقص ونقاط الضعف والمآخذ التي يأخذها على المخاطَب لكي تكون مدخلا للنيل منه وسبيلا للمضي اليه بنبال الكلمات التي تصل مواضعها فتصيبه بمكمن لا يستطيع إلا أن يسلم فيه. والصابي يعرف هذه القدرة لديه، لذا نراه يصف عباراته وفقرات ما يكتب بالقول:

ولي فقرٌ تضحي الملوك فقيرة   إليها لدى أحداثها حين تطرق

أردّ بهـا رأس الجموح فيثنـي   وأجعلها سوط الحرون فيعنق

التحميدات: وهي ذكر الله وحمده والإشـارة إلى أفضاله وأسمائه ونعوتـه وإعلاء الشأن ببيان ما يتوافق مما حباه الله والمهمة المكتوب فيها. ويذكر أن عبد الحميـد بن يحيى الكاتب والذي يعد شيخ الكتاب الأوائل كان أول من أكثر من التحميـدات في الرسائل وأطال فيها، ثم درج على منهجه الكتاب وصاروا يتبارون في ذلك بالإتيان ببديع التحميـد وحسن التمجيـد للخالق افتتاحا للكتب والرسائل التي يكتبونهـا في أغراض عديدة وأبرزها في المخاطبات السلطانية. وأبو إسحق، وهو الصابئ، قد إعتمد في رسائلـه كتابة التحميدات التي أطال فيها وأتى بما هو جديد في المفردات بما يجعل القارئ في أول قراءته يقر ويخشع ويتعظ بقدرات الخالق من خلال صفاته ونعوته. كما أن التحميدات الصابية صيغت بأعلى درجات السبك اللغوي المتضمن لجمـال الأسلوب ولتوظيف الطباق والجناس بصيغ ينفذ منها المعنى نفاذا. والصابي حينما أقدم على ذلك فهو يعرف تماما أن تحميداته ستفحص فحصا دقيقا كونه صابئا وكتاباته ستخضع للفحص وبخاصـة من جانب الثقافة الإسلاميـة في

---

[285] المصدر السابق ص 301

إيراد التحميدات والاقتباسات. لذا فإنه ما أقدم عليها إلا لأنه أدرك بأنـه يضيف عجبا جديدا يضاف إلى العجب الذي كان يكتنف رسائلـه. ونرى أن خلفية الصابي من حيث معتقده الديني الذي يقر توحيد الخالق غاية الإقرار في تفرده، مع أبعاد فلسفية متفقهة بالعلم الإلهي قد أضفى معاني جديدة على التحميـدات التي كتبها الصابي، وهذا ما سنفصله حينما نذكر هذه التحميدات في باب الرسائل. ويكفي أن نشير هنا أن العديـد من الصفات والنعوت التي إستخدمهـا الصابي تـرد في كتاب الصابئين الأساس الكنزا ربا" وقد يؤخذ على بعض تحميدات الصابي أنها لا تتناسب والموضوع الذي تكتب فيه، كما يشير إلى ذلك ابن الأثير في التحميدة التي كتبت في بداية كتاب فتح بغـداد.[286] في حين نرى أنها أبـرز وأخلص التحميدات التي كتبهـا الصابي. وكان الصابي متسلسلا في تحميداته فهو بعد أن يذكر ما للخالق الواحد الحي من تسبيح يمر تسلسلا بعده من النبي محمد وحتى الخليفة والملك أو الأمير البويهي متولي الحكم. ويصل في ذلك إلى تسليم القارئ بضرورة الطاعـة أو الاستجالة لمن يكتب عنـه بدء من طاعة الله ورسوله.

4- الاقتباسات المناسبة من القرآن والأحاديث النبوية والأمثال والأشعار

وقـد تميزت رسائل الصابي أيضا بميزة أخرى تمثلت في الاقتباسات القرآنيـة والأحاديث النبوية وغيرها مما في الأشعار والأمثال. وقد أضاف هذا الكثير إلى متانة الرسالة وأضفى عليها رونق التأثير الروحي والتأكيدي من خلال ربط ما يكتب بآية أو حديث أو بيت شعر أو مثل سائر. ومع أن هذا الأمر معروف في كتابة الرسائل في زمن الصابي، إلا أن الصابي قد أكثر وأجاد في الاقتبـاس والاستخدام. فأما التضمين القرآني، فقـد كان في أغلب رسائل الصابي، وبخاصة السلطانية، التي تخص الحروب والتولية، وعقود الصلح والعهود. ونرى أن الصابي قد لجأ إلى الإكثار من ذلك لبيان قدرته وتفقهه بالقرآن حيث أظهر أنه القادر في هذه الناحية بحيث لا يُدخل له من مدخل الديانـة فيؤخذ عليـه ضعف في إيراد الآيات القرآنية المؤيدة والمؤكدة والمرشدة للقبول أو المبرزة لجوانب الإقناع أو التحذير. وقد أجاد في ذلك أيّما إجادة بشهادة من

---

[286] أرى أن الجديد في هذه التحميدة قد أغاض ابن الأثير فجحدها عليه، وحين لم يجد لها مدخلا في الإيمان العميق والذكر المتفرد والصفات والنعوت، دخل لها من مدخل مناسبتها للكتاب، فجحد أنها غير مناسبة ونراها غاية في التوفيق وسمو المعرفة وبلاغة الإيمان.

تفحص هذا الأمر في رسائله، بل أن إكثار الصابي في الاقتباسات القرآنية ربما أُخذ عليه من باب التقرب أو التزلف أو بيان القـدرة. وأيا كان الأمر فإن ما أظهره الصابي يعد دليلا على ما يمتلك من قدرة وحفظ ومناسبة التضمين. وقد تميز الصابي أحيانا بأنه لا يورد الآية كاملة، بل يتناول منها الجانب الأكثر إرتباطا بما يكتب، وربما زاوج أحيانا بين آيتين مكونا منهما تركيبة تفيد غرض الكتابة. ومن ذاك قولـه:" إن الله لا يصلح عمل المفسدين ولا يهـدي كيد الخائنين" فقد كان ذلك من الآيتين 81 و 52 من سورة يونس، وكذلك " فلما ألقوا قال موسى ما جئتم بـه السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين". والآية " ذلك ليعلم أني لم أخنـه بالغيب وإن الله لا يهدي كيد الخائنين" وقول الصابي أيضا في رسائلة: " ذلكم الله ربكم فادعوه مخلصين له الدين" وقد جمع في هذا القول من الآيتين 64، 65 من سورة غافر " ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين"، " الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين" وفي أحيان أخرى لجأ الصابي إلى الاقتباس من القرآن الكريم ولكن بصيغة المضمون لا بصيغة النص، وهذا يظهر درجة تأثر الصابي بالقرآن وأهمية الاقتباس منه في إظهار الحجة أو إبطالها، أو بيان الإلزام أو التحلل منه. ومثل ذلك فيما يكتب: " ولا ينكصون عن يوم معركة، ولا يلقون بأيديهم في التهلكة " وهذا مقتبس مما جاء في القرآن:" أنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة"

ومثل ما اقتبس الصابي من آيات القرآن الكريم، فانه اقتبس من الأحاديث النبوية ما يعزز مضامين كتابتـه ويضفي عليها جوانب في صـدق ما يكتب وإلزام من تخصـه الرسالة بالأقوال التي قالها النبي في فحوى غرض الرسالة طالما أن المخاطب مسلم ومؤمن بديانتـه وبالنبي الذي جاء بهذه الديانة، فيكون عليه التسليم أحق من غيره.

إن التمكن الذي أظهـره الصابي في هذا الجانب من صياغة رسائله والمتانة التي أكسبها تعبيره تسحب إلى فطنـة الصابي حينما وضع في إعتباره وطموحـه بأن يكون كاتبا، بل وصاحب ديوان الإنشاء. فقد مر بنا أن من الشروط التي وضعت فيمن يسلم له هذا الديوان ويكون رئيسه وصاحبه يجب أن يكون مسلما بأسباب أن ما يكتب في الرسائل السلطانية خاصة يخص دولـة المسلمين وليس من السهل إطلاع غيرهم على ما يدور بينهـم حتى وإن كان من باب الخيانة والغدر وما ترافقهما من أعمال التصرف بالملك أو الاستحواذ عليه. فالخشية أن غير المسلم يمكن أن يكشف أسرار الدولة لغير المسلمين بما يميط اللثام أحيانا عن أن البعض قـد يتقنع بقناع

الإسلام إلا أن تصرفاته وأعماله لا تنم عن إيمان. وبما أن عمل صاحب ديوان الإنشاء من القرب إلى ديوان الخلافة والإمارة والوزارة، فإنه سيكون مطلعا على كل التفاصيل وما يدور حتى في الخبايا، ويخشى من كشف ذلك على الرغم مما يمكن أن يهدد مثل هذا الأمر حياته. ولكن إن فلت من ذلك فإن كلامه سيكون محل ثقة لدى الأعداء كونه المطلع المكين. والصابي قد فطن إلى أن تمكنه من ناصية الكلام يجب أن يكتمل بتمكن من ناحية معرفة القرآن كونه كتاب الإسلام الذي هو دين الدولة التي يخدم فيها ودستورها والشريعة فيه هي الشريعة المطبقة أحكامها في الجوانب الفقهية والقضائية، كما أن أحاديث النبي محمد هي السنة التي تتبع في حالة عدم ورود نص قرآني بذلك. وعلى هذا فقد أكب الصابي على دراسة وحفظ القرآن والتمعن بتفاسيره وأحكامه وشرائع الديانة الإسلامية ، وكذلك على الأحاديث النبوية والسيرة بما جعله مؤهلا، بل ومتفوقا في الإيراد والاستخدام بما يفوق مَن كتب من المسلمين، فسجلت للصابي هذه الناحية في غاية التقدم والبروز في الميدان على مَن سبق ومَن لحق وذكر من عاصره بأنه كان" يحفظ القرآن حفظا يدور على طرف لسانه وسن قلمه"[287] . لذا تراه إن وصف وأشاد بحاكم فإن وصفه يستند إلى ما يرد في القرآن من جوانب التعظيم والتفخيم، وإن أشار إلى عصيان خارج فقد ضمن كتابته ما يبرز هذا العصيان من آي القرآن، وإن أراد إبراز وتبرير الحرب على الغير لجأ إلى ما يظهر المقابل بالكافر الجاحد الذي يجب أن تدور عليه الدائرة ويصلى بالنار المستعرة. وهو في كل ذلك غير سطحي المعرفة، بل غائر في بطون المعاني وحاضر الاستعارة وعارف أبواب الاستعمال وصحيح الاستشهاد. بل أن معرفة الصابي ومتابعته للأحكام الشرعية الإسلامية فيما يتعلق بالمجرم سواء كانت قتلا أم إفاءة أم غير ذلك جعلته يصدر الأحكام على من كتب لهم من العاصين والخارجين على الخلافة والحكم وقد أقره من كتبت الرسائل بإسمائهم على حكمه.

وليس من السهل الوقوف على الزمن الذي بدأ فيه الصابي حفظ القرآن والوقوف على تفسيراته، إلا أننا نعتقد بأن ذلك قد بدأ مبكرا بحكم إشارة الصابي إلى أنه كان قد بدأ مبكرا في الاطلاع على كتب الأدب والتأدب بها. وبما أن أسرة الصابي أسرة علمية أدبية، فقد وجدت في القرآن من حيث لغته وآدابه وبلاغته ما يجب أن يُقدم الدارس على دراسته وحفظه إذا ما أريد له التفوق في اللغة والبلاغة. وهكذا

---

[287] الثعالبي، يتيمة الدهر

كان لأبي إسحق الصابي، وهكذا تميـــز في التأدب بالأدب القرآني الذي ظهر ـستيعاب المعاني وتمثلهـــا وإخراجها بأساليب وتضمينات جديدة جمّلت رسائله وزادتها ـصانة ومتانة حتى تصدّر جميع الكتاب في هذا الميدان.

إستخدام الشعر والأمثال الشعر الذائع والمثل الشائع هما مادة الكلام التي ـتحنها القول فأخرجهـــا ذات قيمة ومعنى، أثّر في الســامعين فاستحسنوه وعلق بعقولهم ومعرفتهم فحفظوه بحيث صارت تختزل الصفحات ويعاض عن المقالات. لذلك صار ـستخدامـــه في مواقعه من الكلم والخطابة والكتابة بحيث يقوي النص ويزيد متانته ويقدم العظة فيه على ما صـــار لهذه الأشعار والأمثال من عظة لدى الناس. ولم يغفل ـصابي هذه القيمـــة، لذلك نراه يلجأ إلى استخدام أبيات من الشعـــر في رسائله منها ـ تصـــدر الرسائل ومنها ما جاء ضمنها، وكذلك ضمّن رسائلـــه الأمثال المناسبة ـقديم منها والمستحدث في أوانه. وهـــذا يشير إلى معرفة الصابي وثقافته الواسعة والشاملة التي غدت ملمة بمادة الكلام وإستخدام ما يحدث التأثير المطلوب حتى وإن لم ـكن من كلامه، بل أن له في دقة الانتقاء والاختيار والاستخدام مزية تذكر. وهو في ـستخداماته كان يلجأ أحيانا إلى فك المثل وإستخدامه بشكل متناسب مع صيغة كتابته فيقـــول مثلا:" فلم يلبث أن دارت عليه الدائرة، وصلي بالنائرة، التي يداه أوكتاها، وفوه نفخ لها.." والأصل في المثل " يداك أوكتا وفوك نفخ " والمثل يضرب لمن يكون في فعله قد جنا على نفسه. أما في الشعر فكان أما أن يكتب هو عن نفسه أو يقتبس من شعر الشعراء المبرزين. وربما يلجأ إلى فك البيت من الشعر ويستخدمه نثرا. وهو في كل ذلك مُجيد وحميد.

6- **الأسلوب الوصفي والقصصي**: يظهر أبو إسحق براعة في تشبيهاته مما هو مألوف في المعنى لكنه يضعه أمام القارئ والسامع بما يظهر الجدة في الإستخدام. ومن ذلك تشبيهه في قوله: "وددنا لو أن النعمة تمت، والفائدة عمت، بأن تعود تلك البقية عنكم، عود الأنياب إلى نواهيها، والأظفار إلى براثنها، والنصول إلى أجفانها، والسهام إلى كنائنها" [288] كما تميـــزت الرسائل التي كتبها الصابي في وصف المعارك التي جرت وما آلت إليـــه من نتائج بحسب طلب الخليفة أو الأميـــر والملك البويهي باسلوب قصصي ملحمي أظهر فيه الصابي قدرة بارزة في دقـــة الوصف وتمثيل الحدث بحيث

[288] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي

يجعل القارئ المتتبــع يسير مع الأحداث سيرا تصعيديا لا يتوقف فيــه حتى يأتي إلى آخره. وليس الصابي بارعا في وصف ما دار في المعارك وحسب، بل أنه يصف رحلات الصيد على غاية البراعه، كما أن له وصف في جمل أهـدي لــه ما يجعل القارئ أمام صورة هزليــة ساخره لذلك الجمل متصـورا كل وصف ذكـر.[289]

اللغة والمحسنات في رسائل الصابي

مثلما تتميز رسائل الصابي بجملة أمور تخص شكلها ومضمونها، فإن هنالك أمورا أساسية في الأسلوب المعتمد من قبل الصابي في كتابة رسائله. وهذا الأسلوب هو ما خضع للكثير من الدراســة ذلك أنه هو الذي كان وراء شهرة رسائل الصابي وتلقفها من قبل المتابعين وقراءتها في الأندية والمحافل الأدبية، ودراستها في المعاهد والمدارس التي عنيت بمحسنات الكلام فيما يجعله بليغا كافيا جزلا مؤثرا. ويمكن الوقوف على النواحي التي تميز بها أسلوب الصابي من خلال الجوانب الآتية:

1- **السجع**: وهو فن من فنون الكتابة ظهر منذ أيام الجاهلية، ويصاغ بتواطئ الفاصلتين من النثر على حرف واحد. وعلى هذا فإن السجع في النثر يقابل القافية في الشعر. وقد ورد في القرآن الكريم سجعا فنيا بيّنًا كما في سورة الكوثر، وكذلك في كلام للنبي محمد والخلفـاء الراشدين وخطب الإمام علي التي وثقت في نهج البلاغــة. خف إستخدامه إبان الخلافــة الأموية ثم عاد وظهر في الخلافة العباسية وبخاصة في القرن الثالث الهجري وما بعده نتيجة ما طرأ على الدولة الإسلامية من تطور وتعقيد ودخول ثقافات أخرى وبخاصة الفارسية التي تعني بالتزويق وترف المفردات وتطريزها. ويعد السجع من أبرز ما تميزت به رسائل الصابي في الكتابة حتى أنه يعد أحد الدعائم الأساسية في كتاباته. ومع أن إستخدام السجع في الكتابة كما ذكرنا، إلا أنــه تم الابتعاد عنه لارتباطه بأسلوب الكهانــة التي سبقت الإسلام في مسعى لعدم التذكير بهذا الأسلوب. وبعد أن توقف إستخدام السجع في الكتابة لفترة طويلة حتى بعد عصر الجاحظ، إلا ما جاء عفوا، فإن القرن الرابع الهجري، وهو العصر الذي عاش فيه الصابي، قد شهد عودة لهذا الأسلوب بشكل متميز وصار محط تباهي الكتاب في تحلية الكتابة وتوكيدات ألفاظها، بل ترديدها وحفظها أحيانا كما تحفظ الأشعار. وما عزز في الأمر أن ابن العميد والصاحب بن عباد كانا مولعين

---

[289] يمكن الوقوف على هذه الأوصاف في رسائل الصابي حين نعرض نماذج منها في متن الكتاب

ـسجع. ولما كانت لهذين مكانتهما في الوزارة والكتابة، فقد صار التباري إنما يتأسس عـ القبول والاستحسان. وقد مر بنا كيف أن سجعة للصاحب بن عباد كانت سببا ـ عزل قاضي قم حين قال له:" أيها القاضي بقم، قد عزلناك فقم". وكان الصابي يعرف قدرته في إيراد السجع حتى أنه قال مخاطبا عبد العزيز بن يوسف:

قد أعجبتك فتوحٌ أنت كاتبها   تُـردد السّجعَ فيهـا غير مُتئدِ

وقد تميز الصابي في سجعه بما جعله يغاير الآخرين أمثال البديع والصاحب والخوارزمي من حيث تقصيـر السجعات وضغطها وصقلها وإنتقاء كلماتها برنة موسيقيـة تدخل النفس وتستقر فلا تنسى. كما كان السجع في كتابات الصابي يأخذ أشكالا متعددة منها في أزواج الفقر في التطابق بحرف أو حرفين، وقد تطول الفقرة أو تقصر، كما في قوله:" .. من أصل راسخ، وفرع شامخ، وحلم راجح، وقدر صالح، وأدب جزل، ومنطق فصل، وقريحة ثاقبة، ودراية صائبـة، ونفس سامية، وكف هامية.." [290] وربما تحملت الفقـرة سجعتان ومثال ذلك:" لله تعالى أقدار ترد في أوقاتها، وقضايا تجري في غاياتهـا، لا يرد شيئ منها عن شأوه ومداه، ولا يصد دون مبلغه ومنحاه، فهي كالسهام التي لا تثبت في الأغراض، ولا ترجع بالاعتراض..." وكذلك".. للنعـم شروط من الشكر لا تريم ما وجـد، ولا تقيم ما فقد، وكثيرا ما تسكر الواردين حياضها، وتغشى عيون المقتبسين إيماضها.."[291] وربما زاد إلى ثلاث سجعات كما في قوله:" وشرعه شرعا لا ينسخ، وعقده عقدا لا يفسخ، وجعله حقا لا يدحض، وأمره مرارا لا ينقض..." وقد أخذ ابن الأثير على من كتب السجع ومنهم ابن العميد والصاحب والصابي التطويل في الكتابة بأسباب تكرار الفقر من الكلام، لكن أبا هلال العسكري قد رده على ذلك في كتابه الصناعتين[292]، كما أن شكيب أرسلان قد بين" أن للإطناب مقامات في الكلام لأجل التمكين في الأذهان، وأن للإشباع ضرورات في الخطاب يرمي بها إلى زيادة الوقع في نفوس السامعين، وقد اغتفروا التكرار بل استحسنوه في خطاب الجماهير، وفيها كتب برسم القراءة على العدد

---

[290] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي

[291] الثعالبي ، يتيمة الدهر

[292] ابو هلال العسكري، الصناعتين. حيث يورد في ص 185 " لا بد للكاتب في أكثر أنواع مكاتباته من شعبة من الإكتاب اذا أراد المزاوجة بين الفصلين ولا يعاب ذلك منه، وذلك مثل أن يكتب: عظمت نعمنا عليه، وتظاهر احساننا لديه، يستعملها فيكون الفصل الأخير داخلا في معناه في الفصل الأول وهو مستحسن لا يعيبه أحد"

الكثير، ولولا هذا وأشباهــه ما قيل لكل مقام مقال، ولولا وجوب التكرار أحيانا ما وجد باب التوكيد في كلامهم، ونظن أن الصابي والصاحب وأمثالهما من أهل تلك الطبقة لا بد أن يكونوا قد أحكموا هذه الأبواب كلها."[293]

2- **دقة اختيار اللفظ**: فالكلام الجيد إنما يتميز بدقة الألفاظ وحسن إيرادها بالمعنى والضبط وجمال الكلمة وقدرتهــا على التعبير ومناسبتها للموضوع بمــا يجعلها كافية الغرض سديدة العَرض. ويشار إلى أن الصابي كان مبرزا في هذه الخاصية من خصائص الكتابة التي تعد ضرورية وبخاصة لكتاب الدواوين وفي الرسائل الديوانية بشكل أخص ذلك أن هذه الكتب صادرة عن ديوان الخلافة أو الإمارة أو الوزارة، وبالتالي فهي الصورة التي تستقر في أذهان المخاطب عن رعاية الديوان لهذا الأمر في حسن الاهتمام. وغالبا ما كان يحكم على الخلفاء والأمراء والملوك من خلال الرسائل التي يكتبونها، وهذه بلا شك من إنشاء صاحب ديوان الرسائل. كما أن الدقــة في إختيار الألفاظ ومناسبتها أمر مطلوب بأسباب الخوف من أن يؤوّل الفهم من قبل المقابل إلى ما لم يكن يقصد بالنص والتعبير وذلك يمكن أن يــؤدي إلى ما لا تحمد عقباه. وعلى هذا فاللفظة السديدة هي صيانة وحماية أكيدة للكاتب ولمن كتب عنه. ولذلك نرى أن الكُتاب يعرضون ما يكتبون على خاصتهم كما يراجعون ما يكتبون مرارا للتأكد من سلامة ما كتبوا. وهذا ما أشار إليه الجاحظ في كتابه البيان والتبيين حيث يقول:" أما أنا فلم أر أمثل طريقة في البلاغة من الكُتاب. فإنهم قد التمسوا من الألفاظ من لم يكن متوعرا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا" كما يقول:" إن الكتاب لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى المخارج السهلة، والديباجة الكريمــة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيــد، وعلى كل كلام له ماء رونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسن المعاني"[294] ويشار إلى أن ألفاظ الصابي كانت تتميــز بقوة الوقع في وصف المعارك، ومن ذاك يقول: " هو الحقيق بأن تثنى اليه الأعنــة، وتشرع نحوه الأسنة، وتنصب له الأرصاد، وتشحذ له السيوف الحداد، ليقطع الله بها دابره، ويجب غاربه،

---

[293] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي

[294] الجاحظ، البيان والتبيين

ويصرعه مصـــرع الأثيم المليم، المستحق للعذاب الأليم" [295] وما أجمل ألفاظه في وصف المعركة حين يقول:" وتلوم أصحابنا بها يريحون، والكفرة على مسافة منهم مقيمون، مرة تقدم بهم الآجال، ومرة أخرى تحجم بهم الأوجال، ثم تدانى الفريقان، والتقت حلقتا البطان[296]... فلما استعرت الملحمة، وعلت العمعمة، ودارت رحى الحرب، واستحرً الطعن والضـــرب، واشتجرت سمر الرماح، وتصافحت بيض الصفاح، تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور، وتنـــادى الكفار بالويل والثبور، فنكصوا على أقدامهم مجدين في الهزيمة، واعتدّوا الحشاشات لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة، واستلحمتهم السيوف، واحتكمت فيهـــم الحتوف، وأخذ منهـــم المسلمون الثأر، وعجل الله بأرواحهم إلى النار" [297] أما في المواقف التي تتطلب الرقة نجد الصابي رقيقا كنسيم الصبا حين يقول:" لأنك ما زلت مستودع سرنا وجهرنا، ومشتكى حزننا وبثنا، والكبير الأثير عندنا، والخصيص المكين لدينا، ومن نستضيء في ظلم الخطوب برأيه، ونستجن من سهام النوائب بإخلاصه وولائـــه، ونخرج اليـــه بخفية الصدر، وحوجاء النفس والعجر والبجر.." [298]

وقد عبّر الصابي عن دقة ألفاظه بقوله:

قُلدت ديـوان الرسائل فانظـروا أعدلتُ في لفظي عـن التسديـد؟

ويأخـــذ البعض على الصابي أنه لو كان دقيق اللفظ فلم إختار من الألفاظ مـــا أغاظ بها عضد الدولـــة إنحيازا لبختيار عز الدولة، ولِمَ لمْ يوفق في وصف حالة كتابتـــه لكتاب " التاجي" الذي كلفه به عضد الدولة حين قال: " أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها"

وقدر ما يؤخذ على أبي إسحق هذا الأمر، فإنه يسجل له، ذلك أنه لما طلب منه عز الدولة أن يكتب بما يغيظ ويثير عضد الدولة وأنه على قدر كتابته سيكون الرضا عنه، فقد كتب بما أحدث الفعل المؤثر في اللفظ وهو بذلك قد أصاب الهدف حتى أن عضد الدولة قد أسرَّ اللفظ في نفسه وحبس أبو إسحق بسببه. أما في اللفظة الثانية فإنه

---

[295] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي ص 134

[296] البطان: الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير، ويقال إلتقت حلقتا البطان إذا اشتد الأمر.

[297] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي ص 72- 73

[298] المصدر السابق ص 385 (العجر: العروق المتعقدة في الظهر، والبجر: العروق المتعقدة في البطن). يقال: أفضيت اليه بعجري وبجري ويراد بذلك أخبرته بكل شيء.

أيضا قد أجاد في إستخدام اللفظ وإن تضرر منها بالضرر الشديد، إلا أنهـا صارت اليوم دليلا على قوة التأثير في الإغاظة، وصدق التقويم في الحكم على كتابة التاريخ من قبل الحاكم المنتصر. وهو في كل الأحوال قد حقق الغرض في اللفظ.

3- **البديع في الكلام**: وهو إستخدام المحسنات اللفظية وبخاصة الجناس والطباق[299] في الكتابة بما يضفي عليهـا بلاغة وحلاوة في الوقع ويكون التأثير فيهـا أمضى وأبقى في الذاكرة. وبديع الكلام إنما يكون من الغنى الذي يمتلكه الكاتب، وربما يرتبط هذا الغنى بغنى الحال. إذ من المعلـوم أن حال الكُتّاب في منزلتهم وقـرب معيشتهـم من مقر الخلافة والمُلك يوفر لهم بحبوحـة العيش المترف. ويصف القلقشندي حالة أصحاب صنعة الكتابة في كتابه صبح الأعشى أن كسبهم وفير " من الفوائد والمعاون مع حصول الرفاهيَة والتنزه عن دَنَاءة المَكاسب، ولا ما يوصل إليه من الحظوية ورَفاهِيَة العيش ومشاركة الملوك في اقتناء المساكن الفسيحة، والملابس الرفيعـة، والمراكب النبيلة، والدوابّ النفيسة، والخَدَم المستحسَنة وغير ذلك من آلات المروءة والأدوات الملوكيـة في أقرب المُدَد وأقل الأزمنة"[300]، وإن هذا الترف يمكن أن ينعكس إيجابا على ترف اللغة التي يكتبون بها. وأبو إسحق الصابي واحد من الكتّاب الذين عاشوا عصر الترف والغنى في مراحل، ولا شك أن ذلك قد انعكس إيجابا على لغته فوق ما كان لها من حسن التربية والإعداد. والذي يتتبع خصائص البديع في الكلام يجدها كثيرة ومتنوعة وغريبة في الاستخدام فيما كتب الصابي. ومن أمثلـة ذلك:" فجدد أمير المؤمنين هـذه المساعي السوابق، والمعالي السوامق، التي يلزم بها كل دان وقاص، وعام وخاص، أن يعرف له حق ما كرم منها..." فالصابي يجانس هنا بين" السوابق والسوامق" ويطابق بين" دان و قاص، وعام وخاص". ولنتأمل في هذه القطعة كثرة الطباق الذي إستخدمه الصابي ليؤكد به المعنى ويرسخه في الذهن عند القراءة ويجعله أسلوبه في التمايز الذي يظهر التضاد في الوصف " .. ونظن غائبه مثل حاضره، وباطنه مثل عالنه.. حتى استبطناه من الحضيض الأوهد، إلى السناء الأمجد، وجذبنا بضبعه من المسقط المنحط، إلى المرفع المشتط... فلما عز بعد الذلة،

---

[299] أما الجناس فهو إتفاق الكلمتين في اللفظ واختلافهما في المعنى، وهذا الإتفاق يمكن أن يكون تاما أو جزئيا. وأما الطباق فيقصد به إستخدام كلمتين متضادتين في السياق ذاته.

[300] القلقشندي، صبح الأعشى

وكثر بعد القلة، وبعد صيته بعـد الخمول، وطلع سعده بعد الأفول..."[301]، وكذلك في قوله: " وقدرنا أن ننفع ونضر، ونسوء ونسر، وننقص ونزيد، ونرتجع ونعيد" وقولـه:

ويساوي في الحق بين خاصهـا وعامها، ويوازي في المجالس بين عزيزها وذليلها، وينصف المظلوم من ظالمه والمغصوب من غاصبه" وتصل قدرة الصابي في المطابقة إلى حد أن يطابق في كتاباته إلى ثلاث أو أربع كلمـات في فقر جمله ، ومن ذاك قوله: "

وجعل أولياءه العالين الظاهرين، وأعداءه السافلين الهابطين"، وقوله: " فالسعيد من نصبها إزاء ناظره، والشقي من نبذها وراء ظهره" [302]

4- **الطبع وعدم التكلف**: إن اللجوء إلى إستخدام السجع في الكتابة والبديع بجناسه وطباقه يلزم الكاتب بالتكلف بالكتابة والتصنع في سيرها لاحتياجـه إلى التوقف في الإتيان بما يلزم السجـع ويحقق الجناس أو الطباق المطلوب. وقلمـا يفلت الكتّاب من التكلف والمغالاة في الكتابة بما يؤدي إلى أن تكون كتابتهم متكلفة وغير مسترسلة. وتبرز قدرة الصابي في الكتابة أنه لم تظهر في رسائله وكتاباته هذه الشائبة، بل سارت رسائلـه مجبولة بطبع سلس يقرب من العفويـة في نثر الجاحظ. ويذكر النقاد أن جمع الصابي لميزتي البديع في الكلام مع الطبع المنساب البعيد عن التكلف يسجل لـه تفوقا أدى إلى علو شأن وإرتقاء منزلة حتى صار أوحد الدنيا في إنشاء الرسائل، والاشتمال على جهات الفضائل كما يقول الحموي في معجم الأدباء، و أوحد العراق في البلاغة على وصف الثعالبي في يتيمة الدهر. وما البلاغة إلا في جميع الخصائص التي عرفت وحددت في الكلام والكتابة.

5- **موسيقى الكلام**: حرص الصابي في كل كتاباته على موسيقى الكلام التي عني بها غاية العناية والتي نمت عن معرفة ودراية وحب للموسيقى عامة وعلى حسه المرهف، فكانت مفردات لغته ذات جرس موسيقي مسموع يوقع الوقع في النفس ويطرب القلب في الحس إن كان في السجع المعهود والمشهود له أو في المزواجة في الفقرات أو في الترصيع في مقابلة الكلمات المسجوعة بين جملتين كما في قوله:" واتصل حبلها بعد البتات، والتأم شملها بعـد الشتات.."، وقوله: " وسطع بمصباحـه،

[301] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي

[302] المصدر السابق

ونصع بأوضاحه.."[303]، وكذلك في تقابل المعاني كما في قوله:" وأن يخلـد في بطون الصحائف غلطنا وغلطك، في إحساننا وإساءتك، وحفظنا واضاعتك.." [304]، وفي تكرار إشتقاق الكلمات من جذر واحد للكلمة كما في: وقمْ قيامَ مثلك، وتجرّد لـه تجرُد من حل من الغناء بمحلك، وحط الحاج حياطة تامة، وذُد عنهـم ذيادة عامة. ورفّههم في المسير رفاهية معتدلة، وأرم عنهم جميعا مراماة متصلة.." [305]

والخلاصة أن أبا إسحق الصابي كان قد ملك ناصية الكلام وتحكم وتصرف به فأتى بالعجب حتى صارت فقره أمضى سلاحا يهابهـا المقابل، وأجزل الأوصاف والمعاني التي إن هادنت كانت من حسن حظ الموصوف أنه وصف بها على لسان الصابي أو وثقت له حادثـة ذكر بها. وقد تجلت عبقرية الصابي في أنه يكتب عن غيره فكان على ما كان من تقدم وتفرد، ولو كتب عن نفسه بما يتيحه له منصب المخاطِب لكان أشد شأوا وأبعد مرمى في الموضوع والكلمة.

---

[303] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي

[304] المصدر السابق

[305] المصدر السابق

الفصل الثاني

درر النثــــر

سيتم في هذا الباب عرض أشهر المقطوعات النثرية من رسائل الصابي الكاملة أو التي اقتطعناها أو وصلت كما هي مقطوعة من قبل من وثق له فيمـا كتب واستشهد على مواضيع معينة أو معان محددة أو جوانب في البلاغة وبديع الكلام بكل خصائصه. وسنعرض بعض الرسائل بشكل كامل كمـا وصلت ، فليس من السهـل تناول جميع رسائل الصابي بمؤلف واحد، كما إن مثل مؤلفنا هذا إنما قصد فيه بيان درر النثر التي سطرها الصابي في كتاباته بيانا لقوة الكلمة ودقتها وبلاغتها وجمال صياغتها وحسن إستخدامها، وليس القصد فيه كتابا توثيقيا أو تحليليا لما كتب الصابي وما يمكن أن يستشف من كتاباته كمنابع لمتابعة تاريخية وسياسية وأعراف وأحوال الخلافة والدولة العباسية خلال العصر الذي عاشــه الصابي. وسنحاول ذكر المناسبــة التي كتبت بها الرسالة وآي تعليق أو بيان ذكر من قبل من نقل أو درس وقوّم وحكم.

مما كتب في التحميدات

ذكرنا بأن الصابي قد تميز بكتابة التحميداته التي بدأ بعض الرسائل بها سواء من التي كلف بكتابتها أو في المواضيع التي تقتضي البدء بالتحميد. وقد وُجد فيها ما سجل للصابي من تفرد وإتيان بالغريب من بليغ الكلام، والوصف في الخالق بما يبرز عمق الإيمان، ذلك أن من لا يؤمن بالخالق لا يتسطيع أن يذهب بعيــدا في نحت كلمات الوصف والتفنــن في إختيارها والتمعن في سبكها بما يظهر معاني القدرة التي توجب الخشية والخشوع للسبحان. ففي التحميدة التي كتبها الصابي مفتتحا رسالته بفتح بغداد وهزيمة الأتراك عنها قال: " الحمد لله رب العالمين، الملك الحق المبين، الوحيد الفريد، العلي المجيد، الذي لا يوصف إلا بسلب الصفات، ولا ينعت إلا برفع النعوت، الأزلي بلا ابتداء الأبدي بلا انتهاء، القديم لا منذ أمد محدود، الدائم لا إلى أجل معدود، الفاعل لا من مادة استمدها ولا بآلة استعملها، الذي لا تدركه الأعين بلحاظها، ولا تحده الألسن بألفاظها، ولا تخلقه العصور بمرورها، ولا تهرمه الدهور بكرورها، ولا تضارعه الأجسام بأقطارها، ولا تجانسه الصور بأعراضها، ولا تجاريه أقدام النظراء و الأشكال، ولا تزاحمه مناكب القرناء والأمثال، بل هو الصمد الذي لا

كفء له، والفذ الذي لا توأم معه، والحي الذي لا تخرمه المنون، والقيوم الذي لا تشغله الشؤون، والقدير الذي لا تؤده المعضلات، والخبير الذي لا تعييه المشكلات"[306] ومن تحميدة وردت في نسخة كتاب إلى المطيع لله عن عز الدولة أبي منصور عند دخوله الموصل وانهزام أبي تغلب بن حمدان عنها يقول فيها الصابي: " فالحمد لله العظيم، الأزلي القديم، المتفرد بالكبرياء والملكوت، المتوحد بالعظمة والجبروت، الذي لا تحده الصفات، ولا تحوزه الجهات، ولا تحصره قرارة مكان، ولا يغيـــره مرور زمان، ولا تمثله العيون بنواظرها، ولا تتخيله القلوب بخواطرها، فاطر السموات وما تظل، وخالق الأرض وما تقل، الذي دل بلطيف صنعته، على جليل حكمته، وبيّن بجلي برهانه عن خفي وجدانه، واستغنى بالقدرة عن الأعوان، واستعلى بالعزة عن الأقران، البعيد عن كل معادل ومضارع، الممتنع عن كل مطاول ومقارع، الدائم الذي لا يزول ولا يحول، العادل الذي لا يظلم ولا يجور، الكريم الذي لا يضن ولا يبخل، الحليم الذي لا يعجل ولا يجهل، ذلكم ربكم فادعوه مخلصين له الدين،..."[307] وعند مقارنة هذه التحميدات مع مـــا يرد في كتاب الصابئة المندائيين الكنزا ربا" وبخاصة في التسبيح الأول من هذا الكتاب الذي يرد فيه توحيد الله الخالق وبيان نعوته وصفاته نجد تقاربا وتلاقيا في الكلمات ومعاني هذه الكلمات التي تتوافق مع ما يرد في الديانة الإسلامية ولكن تبقى تلك الألفاظ متقاربة مع ما يرد في كتاب " الكنزا ربا" وإن كان الصابي على اطلاع على هذا الكتاب أو فكر العقيدة ذاته بما يرد من توحيد خالص لفردية الخالق وقدراته، فإن التأثر بذلك يمكن أن ينسحب على كلمات التسبيح والتحميد التي كان قد إعتمدها الصابي في تحميدات رسائله والتي وجد فيها قيما وألفاظا متميزة. ولنتأمل ما يرد في كتاب " الكنزا ربا" ثم نقرر.

بسم الحي العظيم، مسبح ربي بقلب نقي، هو الحي العظيم، البصير القدير العليم، العزيز الحكيم، هو الأزلي القديم، المتفرد عن أكوان النور، الغني عن أكوان النور، هو القول والسمع والبصر، الشفاء والظفر، والقوة والثبات، هو الحي العظيم، مسرة القلب، وغفران الخطايا... الحنان التواب الرؤوف الرحيم،.. لا حد لبهائه، ولا مدى لضيائه، لا يرى ولا يحد، لا شريك له في سلطانه، ولا رفيق له في صولجانه، من يتكل عليه فلن يخيب، ومن يسبح باسمه فلن يستريب، ومن يسأله فهو السميع المجيب،

---

[306] ابن الأثير المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر

[307] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي ص 130-131

ما كان لولا كان، ولن يكون لولا يكون، خالد فوق الأكوان، لا موت يدنو منه ولا بطلان،.. هو الذي لاحد له ولا كيل، ولا تدنو منه عتمة ولا ليل، هـو الجلال والإتقان، هو العدل والأمـان،.. الأول منذ الأزل.. المقيم في ملكوته، العادل في جبروته، من يسبحك تسبيحك، قال الأثريون، فتسبيحك لا يحد، ومن يباركك ببركتك، فبركتك لا تعد،.. عمقك لا يسبـر، وقدرتك لا تحصر، وعظمتك لا تبصر، وعلاك من كل شيء أكبر،...الله ملك النور السامي،.. مسبح اسمه إلى أبد الآبدين"[308]

وكتب عن الخليفة المطيع لله إلى ركن الدولة أبي علي بخبر أسر الدمستق[309]

أما بعد، فالحمد لله ذي المنن والطول، والقوة والحول، والغاية والصول، المنفرد بكبريائه، المنعم على أوليائه، المنتقم من أعدائـه، رافع الحق ومعليه، وقامع الباطل ومرديـه، ومعز الدين ومديله، ومذل الكفر ومذيله، المنزل رحمته على من جاهد في طاعته، والمحل عقوبته بمن جاهر بمعصيته، المتكفل بتأييد حزبه حتى يظفر، وخذلان حربـه حتى يدحر الذي لا يفوتـه الهارب، ولا ينجو منه الموارب، ولا يعييـه المعضل، ولا يعجزه المشكل، ولا تبهظه الأشغال، الواحد الذي لا شريك لـه، الفرد الذي لا قرين له، الغني المفتقر إليه، القوي المعتمد عليه، بالغ أمره بلا مؤازر، وممضي حكمه بلا مظاهر، ذلكم الله ربكم فاعبدوه مخلصين له الدين،"[310]

ويرتبط بتوحيد الصابي وإيمانه بأن الله فرد واحد صمد، تعظيم الكواكب التي خلقها الله مدبرات الكون، ولذلك يعظم الصابئة ومنهم المندائيون الكواكب باعتبارها مخلوقات الله العليا التي تظهر قدرته فيما يفوق قدرة البشر إن ظنوا أنهم قادرون. وبما أن العصر العباسي، على ما زخر به من علم ومعرفة، قد عاد إلى ما كان لدى الأولين مـن علم في التنجيم وإستقراء الطالع بمعرفة حركة النجوم والكواكب، وبرز فيمن برز فيه ثابت بن قرة الصابي الحراني " 221- 288 هـ، الذي قدمه الخليفة العباسي المتوكل على غيره من علماء عصره، فإن عصر الصابي لم يكن ببعيد ولا مستغرب فيـه أن تبنى المراصد ويتم التنبؤ لاستقراء الأفلاك وحركتها وتأثيراتها. وأبو إسحق

---

[308] الكنزا ربا ، الكتاب المقدس للصابئة المندائيين ص 1-6

[309] الدمستق قائد جيوش الروم الذين واجههم أبي تغلب عن طريق تسيير أخاه هبة الله بن ناصر الدولة سنة ثلثمائة وإثنتين وستين هـ والذي تم أسره ثم مات وهو في الأسر.

[310] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي

الصابي شيخ الصابئة في عصره، عاصر العلماء من أبناء جلدته ممن ظلوا يعلمون في الفلك والتنجيم، ولذلك نجده يؤمن بذلك إيمانا لا يزعزع بنفسه ثقته بأن الله الخالق هو الحكيم المتحكم. وفي رسالته التي يكتبها إلى أحد أبناء ملته ليستقرئ له فيها طالع السنة يمكن نقف فيها على إيمان الصابي وتوحيده الخالق غاية التوحيد ويبعد عنه أي ظن بالشرك، بل أن إيمانه يقوده إلى أن الله قـد جعل لنـا من العلامات ما يمكن أن نستدل بها فنتدبر أمرنا في الحرص والتحرص وفي الشوق والتشوق، وما ذاك بمبعد لقضاء أو قدر، حيث يرد فيها: " فإن ثمرة هذه الصناعة هي تقدمة المعرفة بما يكون، والاستعداد له بما يمكن" ويظهر في هذه الرسالة درجة إيمـان الصابي بالخالق الفـرد الذي لا يرد قضاؤه ولا يحيد أمره، وأنـه مستجيب طائع لإرادته، لكنه يدرك أن ذلك لا يمنع من الركون إلى إمكانية إستقراء الطالع ليس باتجاه منع واقع من أن يقع بل بمقدار التحسب في الأمر ليكون الأمل أسعد وأشرف، والوقع أخف وألطف. ولله در إيمانه فيما يلزم أن الإنسان مهما علم فهـو إنما يحاول أن يصل إلى درجة في سابق قضاء الله المقدر والمحتوم. يقول:

فصل كتبه الصابي عن نفسه إلى صديق منجم يسأله عن تحويل سنته[311]

ما أحوج من حالي حاله إلى تفضل منك عائد بعد باد، وتال بعد ماض، وبالحكم على السنة المستقبلة التي تصل زايرجتها[312] درج هذا الكتاب، مستقصياً له ومدققاً فيـه ومتوفراً عليه، ومتوصلاً إلى استنباء دفينه واستثارة كمينه، والإفصاح بكلياته وجزئياته، غير مغرق في تفخيـم ما يلوح من السعـادة سهلها الله تعالى، كيلا أتوقع منها أكثر من حدهـا، ولا مقتصراً في الإنذار بالمنحسة صرفها الله تعالى، لئلا أكون

---

[311] ربما يكون المنجم هو أبو الحسن المنجم ذلك أن الصابي يكتب الى إبنه سنان رسالة يضمنها طلبه أن يسأل المنجم بقراءة طالع سنته في كتاب نسخته موجودة ضمن هذا الكتاب في ص 315

ويشار الى أن رجال الدين من الصابئة المندائين يلجأون الى إستقراء طالع السنة الجديدة في بداية كل سنة لديهم والتي يختلف تاريخها بيوم واحد كل أربع سنوات مقارنة بالتاريخ الميلادي، ذلك أن السنة المندائية تتكون من 360 يوما، وفيها خمسة أيام خاصة بعيد الخليقة الذي يسمى عندهم" البروناي وبما أن السنة عندهم ليس كبيسة، فإن ربع اليوم في كل سنة يجبر ليكون يوما كاملا تتقدم به السنة على السنة الميلادية. وهم يقيسون الطالع إستنادا الى يوم دخول السنة وبرج دخولها ويقرأون ما يرد في كتاب لديهم إسمه سفر الأفلاك سفار ملواشي .وليس بالضروة أن تكون هذه الإستقراءات دقيقة وصادقة تماما ذلك أن التغيير في ربع اليوم قد قاد الى أن يختلف يوم دخول السنة وبرجها عما وضعت به الإستقراءات الأولى للكتاب المعتمد!

[312] زايجرتها: كلمة فارسية ربما تعني طالعها

كتغافل الذاهل عنها. فإن ثمـــرة هذه الصناعة هي تقدمة المعرفة بما يكون، لاستعداد له بما يمكن. ولا أقول إن ذلك يؤدي إلى دفع مقدور نازل، ولا معارضة محتوم حاصل، ولكني أقول: ربما كان من سعادة السعيد أن يعلم هـــذا الأمر فيتصدى حيـزة ما يجب، ويتوقى حلول مـــا يكره، وربما كان من منحسة المنحوس أن يجهله فيكون كالمسلوب بصره وسمعه، الذي لا يـــرى فيتحفظ ، ولا يسمع فيتيقظ. وكلا الأمرين لسابق قضـــاء الله تعإلى موافـــق، ولمتقدم علمه مطابق. وإنما ذكرت ذلك استظهاراً لنفسي إن تعداك كتابي إلى غيرك، ممن لا يهتدى للجمع بين الأمرين، فتعلق منهما بالعروتين، فيظن أن المراعي لأحدهما مخل بالآخر، وعندي أن الفاصل بينهما لا يخلو من أن يكون ناقص الحظوظ في أدبه، أو ناقص اليقين في دينه. وأنت في ما تفضل به في ذلك معتمـــد تقديمه، وترك تأخيـــره، إذ للنفس راحة في تيسير المنتظرات، وعليها كلفة في أن تتمادى بها الأوقات، على أن ظني بك الإيثار لما آثرت، والتحرز مما حاذرت."[313]

ما نقل عن الصابي في الفلسفة والتحليل

كان أبو حيان التوحيدي من المتابعين لنتاج الصابي لقيمة ما وجده في عقل هذا الرجل من علم ومعرفة وقدرة على صياغة ذلك لغة شرح وإقناع، فكان أن حفظ ونقل عنه وثبت ذلك في كتابه المقابسات. وربما أنه ثبت أكثر مما وصل بحكم ضياع الكثير مما كُتب.

ففي المقابسة الحادية عشرة من مقابساتـــه وتحت عنوان: في أن الطبيعة تعمل في تخالف الناس على المذاهب والمقالات والآراء والنحل يقول: " سمعت أبـــا إسحق الصابي الكاتب يقول لأبي الخطاب الصابي: إعلـــم أن المذاهب والمقالات والنحل والآراء وجميع ما اختلف فيه الناس وعليه، كدائرة في العقل، فمتى فرض فيها قول وجعل مبدأ لأقوال انتهى منـــه إلى آخر ما يمكن أن يقال، فليس من قول إلا وقـــد قيل أو يقال، وليس من فعل إلا وقـــد فعل أو سيفعل، وليس من شيء إلا وقد علم أو سيعلم، وهكذا في الظن والرأي وغير ذلك، وأمثال هذا بين في كل ما أردته، وذلك أنك لا تشير إلى رأي أو نحلة إلا أمكنك أن تظن به كل ما ظن ويظن، وتقول كما قيل

---

[313] الثعالبي، يتيمة الدهر

ويقال: وإنما يضيق حجم أحدنا، وينفسح مشرب الآخر، لأن الخاطر يسنح مرة ولا يسنح مــرة، والقلب يتسع تارة ولا يتسع تارة، واللسان ينطق وقتاً ويمسك وقتاً.
قال أبو الخطاب: هل للخواطر والألفاظ والآراء والمقالات نسبة إلى المزاج والطينة والهواء، وإلى العناصر بالجملة؟
فقال: نعم، لها نسبة قوية، وعلاقة شديدة، ورباط متين، إلى هذه الأمور التي تنظر فيها، أو تطيف بها، أو تطل عليها، ولا سبيل مــع ذلك إلى اتفاق الناس في حال من الأحوال، وسبيل من السبل ولو أمكن ذلك لوجد. ألا ترى أنــه لا سبيل إلى أن يكون الناس كلهم طوال القدود أو قصورهــا، وضخام الرؤوس أو صغارها، وفصحــاء الألسنة أو لكنها، أو على مذهب واحد أو حد ومقابلة واحدة؟ كيف يكون هذا أو يظن والطبيعة إنما تعطي صورتها لكل شيء بحسب قبوله وتهيئته ومواتاته؟ فليس الزند من عطية الطبيعة، ولكن على قدر قبوله، وصلابة الحجر من عطية الطبيعة ولكن على قدره، فاختلاف الصور إنما ينشأ من اختلاف المواد، وهذا أصل لا أصل له، وعلــة لا علة لها، لأنه لم يفعلــه فاعل على ذلك، بل صورة من شأنها هذا، والمادة من شأنها ذلك، والأمر مسبب على سنن ما ترى، فعلى هــذا كل أحد ينتحل ما شاكله مزاجه، ونبض عليه عرقه، ونزع إليه شوطه، وعجن به طينه، وجرى بعد ذلك على دأبه وديدنه" [314]
وفي المقابسة السادسة والعشرون يقول أبو حيان: سمعت أبا إسحق الصابي الكاتب يقول: رأيت ثابت بن قرة الحراني في المنام قاعداً على سرير في وسط دجلتنا هذه، وحولــه ناس كثر، كأن كل واحد منهم من قطر، وهم على خلق مختلفة، وهــو يعظهم وينسبهم في خلال وعظه وكلامه، وحصلت عنه نكتة شريفة ذهبت مني في اليقظة وساءني ذلك. هذا وكنت أسرح تفكري كثيراً في الظفر بها والوقوع عليها، فلا يعود بطائل، فلما كان بعد دهر، وبعد اختلاف أحوال، ذكرت أنه قال: خذ يا إبراهيم ثمرة الفلسفة من هذه الكلمات الشافيــة التي هي خير لك من أهلك وولدك ومالك ورتبتك: اعلم أن اليقظــة التي هي لنا بالحس هي النوم، والحلم الذي لنا بالفعل هو اليقظــة، ولغلبة الحس علينا قــد اتفقنا أن الأمر بخلاف هذا، وإلا فغلب العقل مكان الحس يتصدع لك الحق في هذا الحلم، فإذا وضح هــذا فبالواجب أن

---

[314] أبو حيان التوحيدي، المقابسات

ينبغي أن ينقص من الحس، وإن ظننا أن اليقظة من ناحيته، ويلتبس بالعقل وإن ظننا أن الحلم من ناحيته.

وكان أبو اسحق يقول: وهذه النكتة مقرّ وشيها، ولكن بقي أن تفهم منتفعاً بها، وتسمع على وجه التقبل لها، لا على معنى الاعتراض لها: الفلسفة هي لطائف العقل، فكل من لطف وصل إليها، ولطف الإنسان في طلبها هو تأتيه عند التفهم، وصبره عند الطلب، وشأنه على السيرة التي ندب إليها المشفقون الناصحون، فإن النفس تزكو عند ذلك، والصدر ينشرح، والخاطر يتوالى، فلا يبقى حينئذ باب إلا انفتح، ولا مشكل إلا وضح" [315]

وفي المقابسة الثانية عشرة تحت عنوان " في أن إنشاء الكلام الجديد أيسر على الأدباء من ترقيع القديم قال التوحيدي: "سمعت الخوارزمي الكاتب يقول لأبي اسحق الصابي ابراهيم بن هلال: لم إذا قيل لمصنف أو كاتب أو خطيب أو شاعر، في كلمة من كلام، وقد اختل شيء منه، وبيت قد انحل نظمه، ولفظ قلق مكانه: هات بدل هذا اللفظ لفظاً. ومكان هذه الكلمة كلمة، وموضع هذا المعنى معنى تهافتت قوته، وصعب عليه تكلفه، وبعل بمزاولة ذلك رأيه؟ ولو رام إنشاء قصيدة مفردة، أو تحبير رسالة مقترحة، كان عسرها عليه أقل، وكان نهوضه بها أعجل. فقال: وقع ما يحتاج إلى تدبير قد فات أوله من جهة صاحبه الأول، ومن كان أولى به، وكان كالأب له، وذلك شبيه بعلم الغيب، وقل من ينفذ في حجب الغيب مع العوائق التي دونه، وليس كذلك إذا افترع هو كلاماً، وابتدأ فعلاً، واقتضب حالاً، يستقل حينئذ بنفسه ولا يحتاج فيه إلى شيء كان من غيره، أو يكون تعلقه بيقظته يعطيه تمام ما قد فتح عليه سده، وقدح عليه زنده، ولم يكن هكذا حاله في كلام معروض عليه لم يهجس قط في نفسه، ولا أعد له شيئاً من فكره، فقد يعجزه ما لم يتأهب له ولم يرض نفسه عليه. وفي الجملة: كل مبتدئ شيئاً فقوة البدء فيه تفضي به إلى غاية ذلك

[315] المصدر السابق. وتظهر هذه الإقتباسة تأثر أبو حيان التوحيدي بالنقل عن إبي إسحق الصابي لما له من قيمة متقدمة لديه ولدى الوسط الثقافي والعامة ولذلك يضمن كتابه عددا من المقابسات على لسان الصابي، كما تظهر أيضا تعلق الصابي بثابت بن قرة الذي تربطه علاقة نسب فوق علاقة الدين وكذلك علاقة التقدم في العلم والفلسفة ولذلك ترى الصابي يحتم به معتبرا بفلسفته التي تراوده قراءة وحلما.

الشيء، وكل متعقب أمراً قد بدأ به غيره فإنه بتعقيبه يفضي إلى حد ما بدأ به في تعقيبه ويصير ذلك مبدأ له، ثم تنقطع المشاكلة بن المبتدئ وبين المتعقب"[316]

وفي المقابســة السادسة والستون يـورد التوحيدي أن الصابي قال: قـال الأولون: الشكر الإقرار بالنعمة للمعبود، وإجزاؤها بالحسنى في الضمير والقول والفعل، فأما إجزاء الضمير فالنيـة والمحبة والطاعــة، وأما إجزاء القول فالثنــاء والدعاء والنشر، وأما إجــزاء الفعل فالصبر والسعي فيما يرضى المنعم.

وقال: والشكر ثلاث طبقات: لمن فوقك بالطاعة والنصيحة، ولإكفائك بالمكافأة، ولمن دونك بالتفضل عليه. والشاكر إن قصر عن ثلث لم يشكر، ويحتاج إلى معرفة وطباع وعمل، فبالمعرفة يعرف كنه النعم وقدر ما يجب عليه من الشكر، وبالعمل يبلغ كنه ما هو عليه، وبالطباع يكون الدوام على ما وجب عليه. والشكر مراتب: فشاكر قصر عن قدر النعمة ولا عذر له إلا أن يكون ذلك منتهى طاقته، وشاكر اقتصر على السوية فأتى كفاء ما أوتى إليه وليسى بمحسن إن أطاق الزيادة، وشاكر زاد تنفلاً وكرماً، فهـذه أعلى مراتب الشكر."[317]

مما كتب في الإخوانيات

من إستقراء الصابي في كتاباته الإخوانية خاصة نجد تواضعه مع علو شأنـه، وإشادته بالمقابل على كل جوانب الاعتداد لديه، وهو لا يترك سمة وخاصية في المقابل إلا ويظهرها بأعلى درجات الإشادة وأبلغ عبارات الشهادة. يظهر هذا في عدد من رسائله التي خاطب بها زملاءه وأقرانه.

فصل من رسالة كتبها ردا لما وصله من بعض إخوانه

"وصل كتابك مشحوناً بلطيف برِّك، موشَّحاً بغامِــر فَضْلِك، ناطقاً بصحَّةِ عهدك، صادقاً عن خلوص ودِّك، وفهمتُه وشكرتُ الله تعالى على سلامتك شُكر المخصوص بها، ووقَفتُ على ما وصفته من الاعتدادِ بي، وتناهَيْتَ إليــه من التقريظ لي، فما زدتَ على أن أعزتَني خِلالَك، ونحلْتَني خِصالَك، لأنَّك بالفضائل أوْلَى، وهي بكَ أحْرَى، ولو كنت في نفسي ممن يشتملُ على وصفــه حَدِّي إذا حددت، أو يحيط بكمالــه وَصْفي

[316] المصدر السابق

[317] المصدر السابق

ـصفْت، لَشَرَعْت في بلوغها والقرب منها، لكن المادحَ لك مستنْفِد لك وُسعهُ وقد ـــ. ومستغرقٌ طَوْقَه وقد نَقَصَك، فأبلغُ ما يأتي بـــه المُثني عليك، ويتوصّل إليـــه ـري لك، الوقوف في ذلك دون منتهاه، والإقرار بالعجز دون غايته ومَدَاه."[318]

ـقرأ له مثل هذا جوابا على رسالة الشريف الرضي الذي كتبها وأرسلها له معزيا بوفاة إبنه الكبير أبي سعيد سنان حيث يخاطبه فيقول:

ـصلت الرقعة، أطال الله بقـاء سيدي الشريف الجليل، وأدام عزه وتأيـيـده ـعمتـه وكفايته، وحراسته ووقايته، بالتفضل الذي زاد وأوفى، والقول الذي نفع ـشفى، والتعزية التي غمرني إحسانهـا وبهرني استحسانهـا، فصادفت مني قلبا ـيلا، وخاطرا كليلا، ونفسا قد أثخنتها الرزية، وولتها المصيبة، وأحالتها المحنة عما كانت عليه من جلد وقوة، وتماسك ومعرفـة، وميّلت بين أن أسلّم لها ولا أجاريهـا، ـين أن أطلب مـا يشاكلها ويوازيها، فوجدت التسليم أخصر وأقصر، والاعتراف ـي وأجدر. ولو جريت في ميدانها، وطالبتُ نفسي بجواب مثلها، لما شققتُ غُبارهـا، ـلا قاربت بجهدي عفوها. وأنا أعيـذ سيدي الشريف الجليل بالله من عين الكمال، ـسأله أن يحفظ على زماننا ما له فيه من جمال، وينهضني خاصة بما طوقنيه من ـنه، وولاه عندي من نعمه، وأودعنيه من ضروب بره وتطولـه. وأن يرزقني فسحة في ـدة، وزيادة في القوة والنجدة، حتى أبلغ ما يستحقـه علي من الشكر قولا، ووسعا ـسعيا، والله يفعل ذلك بجوده ومجده، وفضله وطوله. وإذا أفقتُ من السكرة ـخرجت من الغمـرة، بدأت بقصد حضرته الجليلة، ومشاهدة غرته الشريفة النبيلـة، ثم واظبت على قضاء حقه الذي قـد لزمني، وتأدية فرضه الذي قـد استرقني ـارتهنني. إن شاء الله، وهو حسبنا ونعم الوكيل"[319]

ومن دلائل تواضعه يكتب إلى صديق

كانت رقعتك يا سيدي، وصلت إلي، مشتملـة من لطيف تفضلك وبرِك، وأنيـق نظمك ونثرك، على ما شغلني الاستحسان لـه، والاسترواح إليه، وتكرير الطرف في مبانيـه، والفكرة في معانيـه، عن الشروع في الإجابة عنه، ثم تعاطيتها، فوجدتني بين حالتين، إما أوجزت إيجـازاً، يظن معه التقصيـر، أو أطلت إطالة، يظهر منها

---

[318] الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب

[319] محمد يوسف نجم ، رسائل الصابي و الشريف الرضي ص71-72

القصـور، فرأيت أولى الأمرين، بذل الممكن، واستنفاد المجهود، بعد تقديم الإقرار لك، والاعتراف بفضلك.

فسبحــان رب كريم حبــا	ك بطول اللسانِ وطـول البنان
ووفــاك من فضـل إنعامـه	كمالاً تقصـر عنـه الأمـاني
فما كنت أحسب أن الزمـا	ن يـزان بمثـلك لـولا عيـاني"[320]

ويكتب لصديق له تباعد عنه في السكن لكنه ظل قريبا في الوصل

وصل كتاب مولاي وفهمته. فاما ما شكاه من الشوق إلي، فأحلف بالله إنه صادق فيه، مستغن عندي عن إقامة شاهد بما أجده من مثله. كيف لا يكون كذلك وقـد أوحشنا الزمان من الإخوان، وأفردنا دون الأقران، فصار كل منا بضاعــة صاحبه المزجاة الواحدة، وذخيرته الشاذة للشدة الفاردة. ومنذ فرق الدهر بين دارينا، فقـد دانى بين قلبينا، وعرفنا فضل صنيعــه إلينا، بأن أبقانا مـن بين من أفنى، وأخرنا عمن مضى وأودى. وحياة مولاي، أطالها الله، ما تتعلل عيني إلا بتصوره، ولا قلبي إلا بتذكره، ولا قطعت كتبي عنه إلا بنية واصلة له، ومودة مواظبة عليه، ومخالصة لا ينقصها الإغباب، ولا يزيد فيها الإدمان. وأرجو أن يزول بنـا دوران الزمـان، وكرات الليالي والأيـام، إلى اتصال حبـل وانتظام شمـل، واستقرار دار، وتداني جوار " [321]

وكتب إلى الصاحب أبي القاسم إسمعيل بن عباد استماحةً

" أنا أعتذر إلى سيدي، أطال الله بقاءه، من تأخر كتبي عن حضرته الجليلة بعذرٍ إذا تأمله حق تأمله، وعرضه على نقده وتمييـــزه، وعرف صدق منطقه وخلوص مصـدره، علم أنني مواصل بباطن مرادي، وإن صرمت[322] بظاهر فعلي، وملازمٌ بخافي مقصدي، وإن أخللت مسلكي، وهو أني جريت مكاتبته، أيده الله، مواظبا عليها، مكباً ومراخيا بين أوقاتها، مغباً[323] لأتبع أحبَّ الأمرين إليه وأوقعهما لديه، فلما لاح لي أن الإجمام[324] أنفق، والترفيه أوفق، ووثقت بأن رأيــه عليَّ في الحالين محروس النـواحي

---

[320] ياقوت الحموي، إرشاد الأديب

[321] ابن حمدون، التذكرة الحمدونية

[322] الصَّرْمُ: القَطْعُ البائنُ، والإنصرام: الإنقطاع

[323] راخي: باعج، واغب: جاء يوماً وترك يوماً

[324] الإراحة

ـ نجوانب، محميُّ الشرائع والمشارب، إقتصرت على أن أتعـرف أخباره وأسرّ
ـستقامتها وانتظامها، وأتنسم أحواله وأسكن إلى إطرادها والتئامها، وأبتهج بما يصير،
ـد الله، من ذروة مرتبة يعتليها، وغارب مرقبة يمتطيها[325]، وأن أدل المتحدثين عنهما
ـ سامعين بهما، على أنه لم يستوفِ بعـدُ حظه، ولم يستوعب قسطه، فإن للدنيا
مواعيـد فيه لا بد من أن ينجزها بمساعيه، وما أخاف في هذا القول والحمد لله من
غلط الفراسة ولا كذب المخيلة، ولا بمعارضة المعارض ومناقضة المناقض، ولا أعدم
صحة الشهادة وقيـام الدلالة، وقبول المستمع وتشيُّع المتَّبع، وكفى بعلم الله أنني
غتبط بنعمه جل وعز عنده اغتباطي بها إذا كانت عندي، وأعتقد أنها في فنائه عمَّره
لله، مستقرة الوطن قاطنه، وفي كثير من الأفنية قلقة الركاب ظاعنه، لبعد فضلاء
لزمان عن مساواته في إستحقاقها، ومداناته في إستحيائها، واستبداده عليهم بحيازة ما
يتفرق فيهم، واستكمال ما يتقسم بينهم من أصل راسخ، وفـرع شامخ، وحلم راجح،
وقدر طامح، وأدب جزل، ومنطق فصل، وقريحة ثاقبة، ودراية صائبة، ونفس سامية،
وكف هامية، وأوصاف لا تعبر عنها بلاغة الفصحاء، ولا يحيط بها استحفاز الخطباء،
ولا تجاريه فيها أقدام النظراء، ولا تزاحمه عليها مناكب الأكفاء، بل هي مسلّمـة
إليه إذا نُوزع مُدّعوها، ومقرٌّ له بها إذا دوفع منتحلوها، فالحمد لله على أن أعطى
قـوس السيادة منه باريها، وأضافها إلى كفؤها وكافيها، وفسخ بـه شرط الدنيا
لفاسد في إهـداء حظوظها إلى أوغادها، ونقض له حكمها الجائر في العدول بها عن
نجباء أولادها، وإياه أسئل سؤال الضارع إليه، الطالب لديه، أن يطيل بقاء سيدي
الإطالة المترامية، ويوفيـه أقصى المدد المتمادية، ولا يعدمه التوقل في هضباته على
رفاغةٍ من معاشه[326]، والارتقاء إلى درجاته في سكون من جاشه، ولا يبتليه في شيء منها
بعثرة ولا هفوة، وأن يبلغه مدى همته العالية المشتطّة، وأمنيتي له المنفسحة المنبسطة،
فلا مزيد عليه، أيده الله، لمفرطٍ مسرف، ولا عليَّ في هذه لمتطلع متشوف. وأما بعد أيد
الله سيدي الصاحب، فإن نوب الدهر تتردد مذ سنون (كذا وردت) عليَّ وعلى أهل
صناعتنا المنحوسة بالعراق، منيخة بنوازلها، ملقيةً بكلاكلها، كالحة بوجوهها،
كاشرةً عن أنيابها، لتعاقب الأيدي الوالية علينا، وتدرجها في الإساءة إلينا، وتزايدهـا
في الفظاظة بنا، وتجاوزها المنزلـة إلى المنزلة في الاستئصال لأحوالنا، وقد توفر قسطي

---

[325] غارب: من الغرابة، والمَرْقَبة هي المَنظَرَةُ في رأسِ جبلٍ أو حِصْنٍ، والمعنى أنه يذهب في كل ما هو غريب ليس بمقدور الآخرين.

[326] التوقل: الصعود، والرَّفْغُ والرَّفاغةُ والرَّفاغِيةُ: سَعةُ العَيْشِ والخِصْبُ والسَّعة.

في تأثيرها بحسب ضني بعرضي وصوني نفسي، وبذلي دونهــا مالي، ووقايتي إياهم بما ملكت يدي، حيث لم أسأل المعونة أحدا، ولا سمحت أن أستميح مسودا ولا سيدا. راجعا إلى شيء مما يرجع إليه الناس من موروث تالد، ومكتسب طارف حتى إنتهت مغارمي إلى نحو خمس مائة ألف درهم، لم يبق بعدها ضيعة ولا منزلـــة، ولا باطن ولا ظاهر، فلما صارت صروف الدهر تتوغل بعد التطريف، وتجحف بي بعد التحييف وصادف ما يجدد عليّ في هذا الوقت منها أشلاءً مني منهوكة، وأعظماً مبرية. وحشاشة مشفية، وبقية مودية، فارقت الإيثار، وأطعت دواعي الاضطرار، وجعلت أختـــار الجهات، وأعتام الجنبات، لأنحو منها ما لا يعاب سائله إذا سأل، ولا يخيب آملــه إذا أمّل، فكان سيدي أدام الله عزه أولها إذا عددت، وأولاها إذا اعتمدت. وكتب كتابي هذا بيرٍ يكاد وجهي يتظلم منها إذ تخطه إشفاقا على مائه مم يهريقه[327] لولا الثقة بأنه أيده الله يحقن مياه الوجوه ويحميها، ويجمُّها ولا يقذيها[328] وخاصة من كانت له في نفسه المزية التي لي على غيري ممن شحظت داره من أوليائه وأودائه بمشاهدتي شخصه الشريف، وإعتلاقي حبله الحصيف، وكوني معه تحت ظل الدولـــة والجملة وعصمتهما، وفي ذمام الممالحة والمراضعة وحرمتهما، والأسباب التي هو لها بكرم عهده حافظ، وبعين رعايته ملاحظ، وأنفذت درجه كتابا إلى مولانا الأمير مؤيد الدولة سلكت فيه سبيل العبد اللائذ بمولاه، والخادم المحتاج إلى نداه. وأشرت إلى ما كان سيدي أيده الله قدَّمه قبل هذا الوقت من ذكري، وما تفضل ومهده من أمـــري، ورجوت استثمـــار تلك المقدمة على يده وبركته، واستنجاحهم بيمن طائره ونقيبته، وكل ما يتأتى من الجميع محسوب من جماله، ومعدود في أفضاله، وزائد في أياديه البيض الزهر، وعوارفـــه المحجلة الغر[329]. وسيـــدي الصاحب أطال الله بقاه وليّ ما يراه فيما سألت واقترحت، واشتططت واحتكمت، جامعـــا لي من ماله وجاهه، فإن تضاعف هذه المحن يقتضي مضاعفة ما يطوقنيـــه من المنن. لأكون ما عشت طليقه من حبائلها وأسارها، وعتيقه من مخالبها وأظفارها، والإيعاز

---

[327] في يتيمة الدهر و صبح الأعشى بريقه.

[328] أجم الماء: تركه يجتمع، ولايقذيها بمعنى لا يوقع فيه ما يشوبه ويعكر صفوه

[329] الحجل هو القيد والخلخال، وربما القصد أنها التي تقيد الآخرين بقيمتها الغرة

باجابتي بما أبتهج له من طيب خبره وحاله، وأمتثله من عالي أمره ونهيه، إن شاء الله" [330]

مما كتب في التهاني

وفي التهاني يكتب الصابي الكثير عن نفسه وعن غيره. فمن تهنئة للشريف الرضي بشهر رمضان يقول فيها:

" أسعد الله الشريف بهذا الشهر المناب له في شرفه، الميمون عليه في مطلعه ومنصرفه ورزقه، فيه تقبل الأعمال وبلوغ الآمال، وارتفاع الطبقة في الدنيا والآخرة، ووفور الحظ في العاجلة والأجلة، ولا أخلاه من اليمن والبركة والصون والكفاية، وأعانه على تأدية فرضه وأنهضه بحمل ثقله، وجعله فيه وفي سائر شهوره وأعوامه، ولياليه وأيامه، سعيد الجد، رغيد العيش قرين العين، رضي البال كاسباً للأجر، ساعياً للخير، فائزاً بالمثوبة من الخالق والشكر من المخلوقين وبجميع فضائل ومناقب الدنيا والدين. آمين رب العالمين" [331]

وكتب للشريف الرضي أيضا رسالة يهنئه فيها بعيد الفطر من سنة أربع وثمانين وثلثمائة ويعتذر فيها من تأخره عنه بالعلة التي به. وقرن بهذه الرسالة قصيدة يمدحه فيها. والرسالة كانت في السنة التي توفى فيها الصابي، ولذلك فإنه يبث فيها الشكوى لصديقه من الزمان. وقد تناقلت مجالس الأدب ما جاء في الشكوى في كل محفل لبلاغته:

أطال الله بقاء سيدنا الشريف النقيب، وأدام علاءَه وتمم نعماءَه، وعرّفه بركة العيد النازل، وتقبل أعماله في الشهر الراحل، وأناله من آماله غاياتها، ومن أمانيه نهاياتها، ومن مساعيه أقاصيها، ومن معاليه نواصيها، وألّف له بين تصاريف الأقدار وعوارض الأقدار، حتى يكون مما نحبه مُمُكّنا ومما نحذره مُحصّنا، وبالمواهب كلها ممتعا، ومن النوايب محميا مُمتّعا، بقدرته.

أصبحت، أطال الله بقاء سيدنا الشريف، محمولاً حمل الرديف على ظهر الزمان، إن حُث إلى مصلحة جنح، أو ثُني عن مضرة جمح، الأمر كله إليه، والعِنان والسوط في يديه، فأنا الراكب وهو الضارب، وأنا المملوك وهو المالك، وقد أنزلني منزلة الأسير،

---

[330] شكيب ارسلان، المختار من رسائل الصابي ص404

[331] المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

وتحكم عليَّ تحكم الأمير، ثم قذف بي إلى الفراش، وباعدني عن الانتعاش، وحص جناحي بعد الرياش، ونكبني في الحال والمعاش. فهو الغشوم الظلوم، والمذموم الملوم، الذي إن أطعم لم يُشبع، وإن أكل لم يَشبع، وإن أعطى خفف، وإن أخذ أجحف وأسرف. عجزتُ عن مداراة خلائقه أيام جَلدي، فكيف أثبتُ لها في أوان أودي. لكنني أحمده على تجافيه عن سماحة سيدنا الشريف، ومقر عزه المُنيف، وأرغب إلى الله في تذليله لهما، وتسخيره لحمايتهما، وصرفه عن العيث فيهما، والله يفعل ذلك بفائض رحمته، وجميل عاداته. ولولا هذا العذر الواضح لما اقتصرت في قضاء حقه على المكاتبة دون القصد والمواظبة، والزيارات المتتابعة المتقاربة وأقول في ذلك:

قد كنتُ أخطو فَصرتُ أمطو وزادَ ضَعفي فَصرتُ أعطُو

خَانتْ عُهودُ يَدي وَرجلي فليس خطوٌ وليس خطُ

كَلٌّ على كُلِّ من يَليني أُشال كالثُقلِ أو أحطُ

وسوف أفضي إلى أوان عَليَّ فيه الحِمامُ يسطو

فللمنايا إليَّ قربٌ وللأماني نوىً تشطُّ

وللذي أتَّقيهِ وَشكٌ وللذي أرتَجيه شَحطُ

مثلُ الغريمين: ذا مُلِحٌ فَظُ التقاضي، وذا مُلطُ

هاتيك حالي فهلْ لعُذري إذا تأخرتْ عنكَ بَسطُ

وقد وصلت بهذه الرقعة قصيدة استخلفتها بحضرته، واستنبتها لمذاكرته، وأودعتها طرفا من مآثره ونبذا من مفاخره، إن قَصّرا عن استحقاقه فقد أعذر فيهما أبو إسحاقه، لا أعدمه الله فيه الثناءَ المستطاب، والدعاءَ المجاب، إنه بذلك جدير وعليه قدير، وحسبنا الله ونعم الوكيل" [332]

وله فصل من كتاب إلى عضد الدولة في تهنئة بتحويل سنته يقول فيه

أسأل الله مبتهلاً لديه، ماداً يدي إليه، أن يحيل على مولانا هذه السنة، وما يتلوها من أخواتها، بالصالحات الباقيات، والزيادات الغامرات، ليكون كل دهر يستقبله، وأمد يستأنفه، موفراً على المتقدم له، قاصراً عن المتأخر عنه، ويوفيه من

---

[332] محمد يوسف نجم، رسائل الصابي والشريف الرضي

العمر أطوله وأبعده، ومن العيش أعذبه وأرغده، عزيزاً منصوراً، محمياً موفوراً، مبسطاً يده، فلا يقبضها إلا على نواصي أعداء وحساد، سامياً طرفه، فلا يغضه إلا على لذة غمض ورقاد، مستريحة ركابه، فلا يعملها إلا لاستضافة عز وملك، فائزة قداحه، فلا يجيلها إلا لحيازة مال وملك، حتى ينال أقصى ما يتوجه إليه أمنيته جامحة، وتسمو له همته طامحة.[333]

ومن تهنئة له لوزير بتقلد الوزارة يقول:

" أهنئ الوزير، أطال الله بقاءه، بالحال التي جددها الله له، كما يهنأ ناشد الضالة إذا وجدها، أو كما يهنأ طالب الغريبة إذا ظفر بها، وقديماً ألقت الوزارة إليه بالمقاليد، وتحملت به تحمل من سواه بها، وسمت إليه سمو غيره لها، بما جمع الله من الأدوات، التي ببعضها تستحق الرياسات. فالحمد لله على أن جعله لها نصاباً تستقر فيه، وملاذاً تعتصم به، وكفؤاً كريماً تؤثره ولا تفركه، وتأوي إليه ولا تنشز عنه. وعرفه الله بركة مقدمها بعد الاغتراب، واستيطانها بعد التقلب والاضطراب، ولا عدمه النهوض بأعبائها، ولا عرى مناكبه من ردائها، وأعانه فيها على اكتساب المكارم، وادخار المثاوب، مشتملاً عليها حائزاً، ومستبداً بها فائزاً، ليكون فناؤه، عمره الله، سوقاً لبضائعها، وأيامه،أطالها الله، موسماً لوفودها، فيسعد بعاجل ثمرها وجناها، ويحظى بآجل ذكرها وثناها، بمنه "[334]

وكتب إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف مهنئا

"أطال الله بقاء مولاي الأستاذ وأسعده بفيروزه الوارد عليه، وأعاده ألف عام إليه، وجعله فيه وفي أيامه كلها معافى سالماً، فائزاً غانماً، مسروراً محبوراً، محروساً موفوراً، مختوماً له ببلوغ الآمال، مطروفاً عليه عين الكمال، محظور الأفنية عن النوائب، محمي الشرائع عن الشوائب، مبلغاً غاية ما تسمو همته العالية المشتطة، وأمانيه المنفسحة المنبسطة بقدرته.[335]

وكتب عن عز الدولة إلى عضد الدولة يهنئه بمولود ولد له يقول:

"وصل كتاب سيدي الأمير عضد الدولة أطال الله بقاءه بالخبر السار للأولياء، الكابت للأعداء، في الولد الحبيب الأثير، والسيد المقيل الخطير، الذي زاد الله به في

---

[333] الثعالبي، يتيمة الدهر

[334] ابن حمدون، التذكرة الحمدونية

[335] أبو هلال العسكري، ديوان المعاني

عددنا، وجدد نعمه عندنا، وحقق في آمالنا والآمال لنا، فأخذ ذلك مني مأخذ الاغتباط
ونزل عندي أعلى منازل الابتهاج، وسألت الله تعالى أن يختصه بالبقاء الطويل
والعمر المديد، وأن يجعل مواهبه لسيدي الأمير نامية بنموه، ناشية بنشوه، ليكون
كل يوم من أيامه ممداً له من فضله عادة، وواعداً له من غده بزيادة، ومحدث
لديه منحة تتضاعف إلى ما سبق من أمثالها، ومجدداً له عازمة تتلو ما سلف من
أشكالها، وأن يريه إياه غرة في مكانه، ويهب له بعد الأكابر النجباء السابقين، أتراب
من الأخوة لاحقين، تابع منهم من مباراة المتبوع، وشافع من مجاراة المشفوع، في فائدة
تقدم بمقدمه، وعائدة ترد بمورده، ويحرس هذه السعادة من خلل يعترض اتصالها.
أو فترة يخترم زمانها، أو نائبة تشوبها أو تنغصها، أو رزية تثلمها أو تنقصها. إلا أنه
الأمد الأبعد والعمر الأطول، ثم تفضي به غضارة هذه الدار الدنيا، إلى قرارة الدار
الأخرى، مبوأ أوفى مراتبها، مبلغاً أقصى مبالغها، حالاً أرفع درجاتها، مختص
بأنعمها، مبتهجاً بها، مستثمراً ما قدمه سعيه الصالح ، ومستوفياً ما أفاءه عليه
متجره الرابح، وآثاره البادية لإنفاقه في أيام نظري التي استشعرت نوراً من سنائه.
وآنست جمالاً من بهائه، وثابت مصالحها ببركته، وتوافت خيراتها بيمنه. واعتقدت أن
السعادات طالعة علي بمطلعه، وأسبابها ناجمة إلي بمنجمه، فلو استطعت أن أكون
مكان كتابي هذا مشافهاً بالتهنئة لسيدي الأمير عضد الدولة، أطال الله بقاءه.
ومقبلاً لبساطه، لكنت أولى عبيده بالمسارعة إلى بابه، وأحقهم بالمبادرة إلى فنائه.
لأنني معوق عن تلك الخدمة بخدمة أنا فيها من قبله، ومقيم بهذه الحضرة، إقامة
المتصرفين تحت أمره، وقد وفيت نعمة الله تعالى، الواهب منه، أيده الله تعالى، ما يقر
عين الولي، ويقذي عين العدو ويطرفها، حقها من الشكر المتري للمقام والمزيد.
بدوام العز والتأييد، وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك مقبولاً عنه، ونافعاً له، وعائداً عليه
وعلينا بطول العمر وبباهي النشوء والنماء، وأن يعرف سيدي الأمير عضد الدولة.
أيده الله، بركة مولده، ويمن مورده، ويبقيه حتى يراه، والأمراء أفضل ما رشحته
له أمانيه، وأعلى ما انبسطت آماله فيه، بقدرته. وأنا أتوقع الكتاب بما يقرر عليه
اسم الأمير السيد وكنيته، أعلاها الله تعالى لأستأنف إقامة الرسم في مكاتبته.
وتأدية الفرض في خدمته، وسيدي عضد الدولة، أطال الله بقاءه، أعلى عيناً فيما يراه
بمطالعتي بذلك وبكل ما يوليه الله من مستأنف نعمه، ويجدده له في حادث مواهبه

له، لآخذ بحظي منهما، فأضرب بسهمي فيهما، وتصريفي بين أمره ونهيه، وتشريفي بعوارض خدمته، إن شاء الله تعالى" [336]

وكتب إلى عضد الدولة في أسلوب إهداء العامة للملوك

"العبيد تُلاطِف ولا تكاثر الموالي في هَداياها، والموالي تَقْبَل الميسور منها قبولاً هو محسوبٌ في عطايـاها. ولما كان، أدام الله تعالى عـــزّه، مبرزاً على ملوك الأرض في الخطـر الذي قَصَروا عنه شـديداً، والسعي الذي وقفوا منـه بعيداً، والآداب التي عجزوا عن استعلامها فَضْلاً عن علْمهـا، والأدوات التي نكِلوا عن استفهامها فضـلاً عن فهْمِها، وجب أن يُعْدَلَ عن اختياراتهم ما تَحْظَى به الجسومُ البهيمية، إلى اختيارِه فيما تحظَى به النفوسُ العليَّـة، وعما يَنْفُق في سوقهم العامية، إلى ما يَنْفُق في سوقه الخاصية، إفراداً لرُتْبَتِه العُلْيا، وغايتـه القصْوى، وتمييزاً له عمن لا يجري معه في هذا المضمار، ولا يتعلقُ منه بالغُبار: وقد حملت إلى خِزانته، عمرها الله، شيئاً من الدفاتر وآلة النجوم، فإنْ رآى مولانا أن يتطوّل على عبده بالإذن في عَرْضِ ذلك عليه مُشَرَفاً له وزائداً في إحسانِه إليه فَعَلَ إنْ شاء الله تعالى" [337]

مما كتب في التعازي

إن وجود أبي إسحق في مقر الدولة العباسية خلافة وإمارة ووزارة جعله مرتبطا بعلية القوم وخاصتهم. ويحتم هـذا الأمر رسوما لعلاقاتـه ما كان منها ديوانيا رسميا أو إخـوانيا والتعامل مع كل مناسبة في الحضور والإيفاء والكتابة نثرا وشعرا. ومجالس العزاء والرثاء مما برزت إقامتها في القرن الرابع الهجري، فصار لزاما على المبرزين أن يظهروا ذلك. ولما كانت علاقات الصـابي طيبة وشخصيته محبوبة فقد ربطتـه علاقات مع مرؤوسيـه وصداقات مع محبيـه أوجبت عليه الكتابة في مناسبات الفرح والحزن. ويظهـر ذلك في كثرة عدد رسائل التعازي التي كتبها فقد وصل عددها في مجموعة منهـا إلى أربعين رسالة. وقد أتى في هذه الرسائل بكل ما هو جديد ومبرز الإيمان بحتمية الموت وأحقيته على الإنسان وأنه قدره الذي يرد في وقته وأوانه.

القلقشندي، صبح الأعشى

[337] العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص

ويظهر إيمان الصابي بأن الذي يقدره الله لا راد لـــه وأنه ماض بمشيته، ويضمن ذلك في تعزية تقدم بها إلى الوزير محمد بن العباس في وفاة ولد يقول:

" الدنيا، أطال الله بقاء الرئيس، أقدارٌ تَرِدُ في أوقاتها، وقضايا تَجْرِي إلى غاياتها، ولا يُرَدُّ منها شيءٌ عن مَدَاه، ولا يصدُ عن مطلبه ومَنْحَـاه، فهي كالسهام التي تثبت في الأغراض، ولا ترجعُ بالاعتراض، ومن عرف ذلك معرفَةَ الرئيس لم يغض من الزيادة، ولم يَقْنَط مـن النقيصة، وأَمِنَ أن يستخفَّ أحدُ الطرفين حلمه، ويستنزل أحدُ الأمرين حَزْمَه، ولم يدَعْ أن يوطن نفســه على النازلة قبلَ نزولها، ويأخذ الأُهْبَة للحادثـة قبل حلولها، وأن يجاور الخير بالشـكر، ويساور المِحْنَة بالصبر، فيتخيَّر فائدةَ الأولى عاجـلاً، ويستمرئ عائدةَ الأخرى آجلاً.

وقد نفَذَ من قضـاء الله تعالى في المولى الجليل قَدْراً، الحديث سناً، مَـا أَرْمَض وأَومَض، وأَقْلَق وأقضَّ، ومسني من التألم لـــه ما يحق على مثلي ممن توافَتْ أيادي الرئيس إليـــه، ووجبت مشاركتُه في الملمّ عليه، فـ "إنّا للهِ وإنّا إليـــه راجعونَ" وعند الله نحتسبه غُصْنَاً ذوى، وشهاباً خَبَا، وفرعاً دَلّ على أَصله، وخَطياً أنبتـــه وَشيجُه، وإياه أسألُ أن يجعلَـــه للرئيس فَرَطاً صالحاً، وذُخْراً عتيـــداً، وأن ينفَعه يوم الدين، حيث لا ينفعُ إلا مثلُـــه بين البنين، بجوده ومَجْده.

ولئن كان المصابُ عظيماً، والحادثُ فيه جسيماً، لقد أحسن الله إليه، وإلى الرئيس فيه، أما إليـــه فإن الله نزّهه بالاختـــرام، عن اقترافِ الآثـــام، وصانه بالاحتضار، عن ملابسة الأوزار، فورد دنْياه رشيداً، وصـــدَر عنها سعيداً، نقي الصحيفـــة من سوادِ الذنوب، بري الساحة من دَرَن العيوب، لم تدنّسه الجرائرُ، ولم تعلَقْ به الصغائر والكبائر، قد رفع الله عنـــه دقيقَ الحساب، وأَسْهَم له الثواب مع أهل الصواب، وأَلحقه بالصدّيقين الفاضلين في المَعَاد، وبَوَّأه حيث أفضلهم من غير سَعْي ولا اجتهاد.

وأما الرئيس، فإن الله، عزَ وجل، لما اختار ذلك له قبضَه قبل رؤيتـــه إياه على الحالة التي تكون معها الرقة، ومعاينته التي تتضاعفُ معها الحُرْقة، وحَمَاه من فِتْنَة المرافقة، ليرفعَه عن جزع المفارقة، وكان هو المبقي في دنياه، وهو الواحدُ الماضي الذخيرة لأخراه، وقد قيل: إن تسلم الجِلّةُ فالسَّخْل هدر، وعزيـــز عليّ أن أقول قولَ المهون للأمر من بعـــده، وألا أوفي التوجع عليه واجبَ فَقْده، فهو له سُلاَلة، ومنـــه بَضعة، ولكن ذلك طريقُ التسلية، وسبيل التعزية، والمنهَجُ المسلوك في مخاطبة مثله، ممن يقبل منفعة الذكرى وإن أغناه الاستبصار، ولا يأبى ورودَ الموعظة، وإن كَفَاه الاعتبار، والله تعالى يقي الرئيسَ المصاب، ويعيذُه مـــن النوائب، ويرعـــاه بعينه التي لا تنامُ، ويجعلـــه

في حِمَاهُ الذي لا يُرام، ويُبْقيه موفوراً غير منتقص، ويقدِّمنا إلى السوء أمامه، وإلى المحذور قدّامه، ويبدأ بي من بينهم في هذه الدعوة، إذْ كنت أراها من أَسعد أحوالي، وأَعُدُّها من أبلغ أمانيّ وآمالي."[338]

ونقرأ للصابي جميل عبارات تعزيته في رقعة كتبها يقول فيها

كتبت، أطال الله بقاء سيدنا صاحب الجيش، والعين عبرى، والكبد حرى، والصبر مسلوب، والعزاء مغلوب والفجيعة في سيدي فلان نضر الله وجهه، وكرم منقلبه، التي هدت الجلد وفتت في العضد، وبسطت عذر الجزوع، وهجنت حلم الحليم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وإلى أمره صائرون، وعند الله نحتسبه غصناً ذوى، وشهاباً خبا، وعلق مضنة علقت به أيدي النوائب، وتخيرته سهام المصائب، وقارنت بين قلوب الأباعد والأقارب، والخواص والعوام في التألم لفقده والاستيحاش لمصرعه، والكآبة لوقوع المحذور به، وعز علي ان يجري لساني بهذا القول، ويدي بهذا الخط..."[339]

وكتب إلى أبي الفتح بن العميد يعزيه بأبيه

وفي هذه الرسالة الإخوانية التي يكتبها الصابي عن نفسه إنما يفصح عن إيمان شديد بالخالق الفرد الذي هو وراء الابتداء والانتهاء وخلق الكون بمراحله ومقدراته، وإيمانه به وطاعته له، ويبرز فيها قيمة الدين والتدين، وبهذا الدين سمو الاعتراف للخالق بأنه وراء الحياة والممات بمسببات كل منهما وهما حق، وإلزام الإيمان بالعالم الآخر فهو مكمّل الدورة ومستقر الدار وأن الإقامة فيه تتطلب العمل الصالح زوادة من الدنيا التي هي حتما دار زوال خلال الطريق إلى الآخرة التي هي المثوى والمآل. وبهذا يتحقق ما جاء في القرآن من أن الدين هو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح. ويقول:

" قد سبق في العلم، وثبت في العقل، أطال الله بقاء سيدنا الأستاذ الجليل، أن الله عز وجل جلت كبرياؤه، وتقدست أسماؤه، القديم بلا ابتداء، الباقي بلا انتهاء، لا يشركه في ذلك غيره، ولا يختص به سواه، وأنه تعالى أبدع المخلوقات على اختلاف ذواتها، وتباين موجوداتها، وأعطى كلاً منها ما أوجبت الحكمة أن يعطاه، فلا

---

[338] الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب

[339] القلقشندي، صبح الأعشى

سبيل إلى مزيد لها على حدودهـا التي وقفت عندها، ولا نقصان من غايـاتها التي انتهت إليهـا. ولهذه المخلوقات منازل في الأعمار لا تتعداها، ومواقيت في الآجال لا تتخطاها، فلو أمكن فيها البقاء لارتفع الحدث ولساوى المفعول فاعلـه، والمجبول جابلـه، وسقط التفاضـل بين الأدنى والأشرف، والأقوى والأضعف. فوجود شخص الإنسان كأن لم يزل مودٍ إلى عـدم وكأن لم يكن. ولله عـز وجل في ذلك منةٌ على البريـة لا يعرفها منهم إلا الفـذ الفريد، والشاذ الوحيـد، لأضعاف عـدد عوامهم على خواصهم، وجهالهم على علمائهم. وكلهـم مُركّب من نفسٍ تسمـو إلى الأرفع الأسنى، ومن جسد يسف إلى الأدون الأدنى، فمن غلب أخس ما فيـه أشرفه، قنط من الموت قنوط الغبي وكرهه كراهة الغر، وظن أن الله عز وجل قد قطع به عصمته، وأزال معه نعمته. ومن غلب أشرف ما فيه أخسه أيقن أن الله لا يعبث في خلقه، ولا يفكه في نطقه، ولا يخلفه ما وعد، ولا ينكل عما ضمن، وأنه عز وجل قد جبر مصاب الميت جبرين ظاهرين يشهد بأحدهما العيان عاجلاً، وبالآخر العقل آجلاً، فالعاجل النسل، والآجل النشـر. فإن أخطأه الأول على عادة الدنيا في تلون أحداثها وتفاضل أرزاقها فهـو حاصل على الثاني لا شك فيه ولا شبهـة عند كل ذي لب وديانة، ولا يعدم مزيداً، لأن حظوظه بقدر الفائت من غيره. فإذا تدبر الإنسان أمره وجده مبنياً على تدريج في الزيادة، قد لزم نطاقاً لا يقطعه، ومنهاجاً لا يزول عنه وصادف كل منزلـة من منازله فوق التي أمامها، ودون التي وراءها، إذ كان معدوماً ثم صار موجوداً على ضروبٍ يخرج فيها من واحدة إلى أخرى: قد مار في ظهور الذكور، وارتكض في أرحام الإناث، ثم برز إلى الهواء فنسمه، ووقع إلى الثدي فارتضعه، ونما على الأرض فحبـا، ونهض فسعى، ووعى وعقل ورأى، وأخذ وأعطى، واستمر به النشوء مترقياً من حالٍ إلى ما هو أعلى، ومن كل غاية إلى ما هو أوفى، وهو مع ذلك لا ينتقل إلى الرتبة الفاضلة إلا بمفارقة المفضولة، ولا يصل إلى المستأنفة إلا بالانفصال عن السالفة، حتى إذا نال الكمال أطلعه الله على ضروب مواهبه لديه، وصنوف إحسانه إليه، وأمره بأوامره، وزجره بزواجره، ووعده وأوعده، وخبره وأنذره، ووفاه ما رزقه من أجْله توفاه عند المحتوم من أجَله، ثم بعثه إلى مقر بناه على إمكان البقاء والخلود، وسقوط التكاليف والحدود، وهناك تتناهى النعمة عليه التي هو في هذا العالم مجتازٌ إليها ومتوجةٌ نحوها في طريق قد أمر بلزوم جوادها، ونهي عن التعسف في أغوارها. لكنه ينتقل في هذه المراتب مكرهاً لا طائعاً، ومجبراً لا مختاراً. فمن ذلك أنه يستقر في الرحم استقرار الموافقة، ويستوطن استيطان الملاءمة، فلو كان له هناك عقل مع الحس لكره النقلة

ـ موضعه، لظنِّه أنه أوطأ مواضِعِه ولجهله بالأمر الذي فوقه. وهذه صورته في دنياه
ـ البشرية أنها خير مواطنه فيفارقها ضنيناً بها متأسفاً عليها، وهو إذا حصل في التي
عدها حمد الله على ما صار إليه، ولم يحب العود إلى ما كان فيه، لما أزاح الله علته في
عقل الآمر بالخير، الناهي عن الشر، ولم يعول به في كل أمره عليــه، ولم يكله في
جميعه إليه، بل بعث إليه أنبياء بآيات واضحة، وبيناتٍ لائحة، فأقاموا له الدليل،
وقفـوه على سواء السبيل، وأرشدوه إلى الشرائع المنجية، وحذروه من الموارد المرديــة.
كل ذلك عناية من خالقه به، ورأفةٌ منه عليه، وإرادةٌ للأصلح فيه. ولا يصلح أن يكون
موت مبيداً له إبادةً لا رجعة فيها، ولا إنابــة منها، لأن الحكيــم يصير حينئذ مبتورَ
حكمة، مُنبتَّ العصمــة، وتعود البرية إلى العدم عنــد انقراضها، كما كانت قبل
ابتدائها، فينتقض الغرض في خلقها، وتفســد العلة في إيجادها. وهــو سبحانه أعظم
ـ ذلك شأناً، وأتــم سلطاناً، وأكمل صنعاً، وأتقن عملاً. فالمصير إذن من هذه الدار
ـ هو إلى الأخرى التي هي أرغد وأفسح، وأفضل وأصلح، وحقيقٌ على الإنسان أن
يشتاقها وينازع إليها ويستحبها ويثابر عليها، إلا من خالف المأمور به، وقارف المنهي
عنه، وخطب على نفسه، وحمل على ظهره، وأسخط خالقه، واستحق عذابه، فلا بد أن
يتقاعس عن سوء المآل، وأن يتعجل إلى النكال، ومن وراء ذلك رب يحمله على العدل،
ويقضي فيه بالفصل، من القصاص الذي يظهره، وبقدر ما احتقب من الآثام التي
تنس، فتكون عقوبته بكسب يديه، وعاقبتــه بالتفضل عليه. وقد نزه الله عن هذا
تزود من أحسن العمل، وسلك الجدد، وقدم في أُولاه لآخرته، وتزود من عاجلته لآجلتــه،
وأخذ من ممــره لمقره، واحتشد لمقدمه في سفره، وتلك حال الأستاذ الرئيس أبي
الفضل، نضــر الله وجهه، فيمــا أرجح الله من دينه، وصحح من يقينه، وأجزل من
ثوابه، وكرم من منقلبه. فإنه تعالى ذكره جعله في هذه الدنيا سيداً، علياً قدره، سامياً
خطره، بعيداً صيتــه، وافياً حلمــه، ثاقباً فهمه، غزيراً علمــه، زاخراً بحره، فائضاً
بره، وأخرجه عنها عالماً بدناءتها، عازفاً عن زخارفها، صادراً عن شرورها، صادفاً عن
غرورها، منافساً في التي بعــدها، واثقاً بجزيل حظه منهــا، مغتبطاً بتأثل محله فيها،
مشوقاً إلى ما قدم وجهز إليها. وأعطاه من سيدنا الأستاذ الجليل، أيــده الله، خلفاً
يسد مكانه، ويشيد بنيانــه، ويحفظ معاليه، ويحرس مساعيــه. وهو حري أن يجري
على تلك الشاكلة ويوفي، ويسبق فيها ويجلي. وكان انصرافــه عنه بعد أن رأى فيــه
سوله، وبلغ مأموله، وقرّت عينه باستقلالــه ووفائه، واضطلاعه وغنائه، وشاهــد فيه
المنظر السار، وسكن منه إلى الولد البار. وقضى الله عز وجل بما هو الأولى بهما من

تقدم الأصل وتأخر الفرع، ومضي السلف وبقاء الخلف، ووثقنا لذلك بالفوز العظيم
فيما صار وتأخر الفرع، ومضي السلف وبقاء الخلف، ووثقنا لذلك بالفوز العظيم
فيما صار إليه، ولهذا بالمنح الجسيم فيما حصل عليه. وتظاهرت مواهب الله في ذلك تظاهراً تكون به المحنة منحةً، والرزية عطية، وإلى الله جل اسمه الرغبة في أن يتغمد الثاوي بأتم الرحمة والغفران، وأطيب التحية والرضوان، ويخير له فيما أقدمه عليه، ويسعده بما أسرع به إليه، ويزلفه مراتب الأعيان الأخيار، ويبوئه منازل الصديقين الأبرار، ويعلي شأنه في دار القرار، كما أعلاه في هذه الدار، ويتولى السيد الباقي الذي يملأ العين قرة، والصدر مسرة، بامتداد البقاء، وترادف النعماء، ويرعاه بعينه اليقظى، ويدافع عنه بيده الطولى، ولا يخليه من الصنع والتأييد، والإناقة والمزيد، ويلهمه الصبر المؤدي إلى الأجر، والاحتساب العائد بالثواب، بجوده ومجده، وطوله وحوله.

ولم أطل هذه الإطالة، أيد الله سيدنا، إغراباً عليه بها، ولا إنه من النفر المحتاجين إليها، وكيف ذلك وعلمه يوفي عليها، وصدره يجيش بأضعافها، لكنني اتبعت الأمر في الذكرى وتوخيت من إيناسه الغاية القصوى، وسلكت طريق المجتهد في تعزيته، وذهبت مذهب المبالغ في تسليته، وكرهت أن أكون في شيء من ذلك واقعاً دون قدرتي، أو تاركاً شيئاً من استطاعتي. وسيدنا ولي ما يراه في التقدم بإجابتي بذكر خبره وحاله، وأمره ونهيه، وما وليه الله به في هذا الحادث الكارث، والملم المؤلم، من العمل بما يرضاه، والتجنب لما يأباه، إن شاء الله تعالى" [340]

أما كتب التعازي التي كتبها إلى خاصته من أقاربه وأبناء أسرته فيكتبها بحس مرهف ودونما صنعة مبالغة، بل يذهب فيها على سجيته وطبعه. وهذا يظهر في تعزيته لعمه أبي الخطاب بوفاة ولده حيث يقول:" عزيز علي يا سيدي أن مدَّ لك ولي في العمر، حتى نتكاتب بالتعزية عمَّن أملنا أن يكون وارث أعمارنا، والباقي بعدنا أبي الخطاب، نضّر الله وجهه وأحسن منقلبه، وصفح ورضى عنه. فما أعظمها من مصيبة، وأمضها من نائبة، والله الشاهد أنني منذ ثلاث لا أطعم غذاءً ولا غمضة، ولا أعرف قراراً وهداوة..." [341] وبمثل هذه الأحاسيس يكتب تعزية لابن أخيه بوفاة

---

[340] ابن حمدون محمد بن الحسن بن محمد بن علي ، التذكرة الحمدونية

[341] من رسائل الصابي المحفوظة في دار الكتب، وردت في رسالة ماجستير غير منشورة لمهدي محمد صالح البدري: أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه. كلية الآداب جامعة بغداد 1976

والدته فيقول:" بلغني من وفاة الوالدة رضى الله عنها، وورثك عمرها، ما شاركتك فيه، وأخذت معك بأوفر نصيب منه، وأحلف بالله لقد نكأت قلبي وأحرت صدري، وأقذت عيني، خاصة وقد مضت وهي منزعجة بمحنتي، ومتألمة لطول محبسي، ومعلقة القلب بأمري وأمرك المنوطة بي، وما نملك يا بني، كرمك الله، لأنفسنا خيرا ولا لآجالنا تقديما ولا تأخيرا..."[342]

مما كتب في الخطب والزواج

يعرف أن الصابي إنمـا إرتقى في منزلتـه عند الوزير المهلبي ومن ثم إرتقى سلك الكتابة وديوان الإنشاء بعـد أن ذاع له الصيت في الحادثـة التي سجلت لـه والتي يعنونها البعض " الرياسة برسالة" ذلك أنه تقدم في منزلته بين الكتاب على أثر رسالة الخطبة التي كتبها والتي ذكرها الصابي وتحدث فيها كثيرا. وقد شاعت للصابي رسائل أخرى في موضوعة الخطبة والزواج نثبت أبرزها هنا.

ومما كتب في موضوع الخطبة أيضا:

"ولو لم يكن للخاطب إلى المخطوب إليه سبب غير ابتدائه إياه بالثقة، والتماس المشابكة، ورضاه به شريكاً مفوضاً في الولد واللحمة والحال والنعمة لكفاه وأجزاه، وأغناه عن كل ما سواه، حتى أنه لو خطب إلى زاهد لوجب عليه أن يرغب أو إلى معتاص للزمـه أن ينقاد، لأن هذا المطلب إذا صدر عن الأحرار إلى الأحرار استهجن الرد عنـه، والمقابلة له بضـده، فكيف وقـد انتظمت بيننا دواعي الإجابة، وارتفعت عن المدافعـة؟ وبالله جهد القسم أن والديَّ أيدهما الله تعالى يسومانني التأهل منذ سنين كثيرة، فأحمل نفسي على التقاعس عما آثراه مع ما افترض علي من طاعتهما اشتطاطا مني في شرائط أحببت أن تجتمع لي في الخبيئة التي أواصلها، وقلما تتكامل إلا فيمن طهر الله أصله، وجمل أمره وأظهر فضله. وقد دعاني بالدعاء إلى ذلك كثير من الرؤساء الأكابر وذوي الأخطار والأفاضل، بفارس والبصرة وبغداد، فامتنعت من أجل شذوذ بعض شرائطي عليهم، حتى إذا أوجدنيها الله في جهتك الجليلة، وجمعهـا لي في منازلك المصونـة، بعثتني البواعث وحفزتني الحوافز إلى أن يتألف بيننا الشمل،

---

[342] المصدر السابق. ويبدو أن هذه التعزية كتبها الصابي وهو يرزح في السجن وفيها يظهر إلتزام الصابي بأفراد أسرته والتزامهم به، حتى ألهم أصابهم ما أصابه نتيجة نكباته. نكأت قلبي: قشرته فجعلته يندى ألما.

ويتصل بنا الحبل، فكتبت إليك هــذه الرقعــة خاطباً إليك كريمتك فلانة، على أن أكون لها كالجفن الواقي لمقلتــه، والصدر الحاوي لمهجتــه، ولك كالولد المطيع لأبيه، ولأخيها كالأخ المعاضد لأخيه، فإن رأيت يا سيدي أن تتأمل ما كتبت به من هذه الجملة، وتسمع من موصلها ما تجمله عني من تفصيلها، وتتوخى بإجابتي إلى ما سألت تحقيق ظني، وتصديق أملي، فعلت إن شاء الله" [343]

ومن رسالة من عز الدولة بن معز الدولة البويهي

حين زوج ابنته من عمدة الدولة أبى تغلب الحمداني كتب عنه أبو اسحاق الصابي إلى أبي تغلب كتابا استحسنه أهل الصناعة وتحفظوا منه هذا الفصل لاشتماله على عدة كنايات لطيفة ونسخته" وقد توجه ابو النجم بدر الحرمي، وهو الأمين على ما يلحظه، والوفي بما يحفظه، نحوك يا سيدي ومولاي بالوديعة، وإنما نقلت من وطن إلى سكنٍ، ومن مغرس إلى معرس، ومن مأوى بر وانعطاف، إلى مثوى كرامة وألطاف، ومن منبت درت لها نعماؤه، إلى منشأ تجود عليها سمـــاؤه، وهي بضعة مني انفصلت إليك، وثمـــرة من جنى قلبي حصلت لديك، وما بان عني من وصلت حبله بحبلك، وتخيرت له باهر فضلك، وبوأته المنزل الرحب من جميل خلائقك، وأسكنته الكنف الفسيح من كريم شيمتك وطرائقك، ولا ضيــاع على ما تضمنته أمانتك، ويشتمل عليه حفظك ورعايتك.

وأرجو أن يقرن الله موردها بالطائر السعيد، والأمر الرشيد، والعز الزائد والجد الصاعد، والنماء في الائتلاف، والعصمة من الفرقة والخلاف، حتى تكون عوائد البركة بأحوالها منوطة، ومن عوادي الأيام وغيرها محوطة.

ولما قرئ هذا الفصل بحضرة أبي تغلب، اعتمد للجواب عنه أبو الفرج الببغاء فأجاب عنه بما نسخته: وأما أبو النجم بدر الحرمي المستوجب للارتضاء والإحماد، الموفي بمناصحته على كل مراد، فقد أدى الأمانة إلى متحملها، وسلم الذخيرة الجليلة إلى متقبلها، فحلت من محل العـز في وطنها، وأوت من حمى السؤدد إلى مستقرها وسكنها، متنقلة عن عطف الفضل والكمال، إلى كنف السعادة والإقبال، وصادرة عن أنبل ولادة ونسب، إلى أشرف اتصال وأنبه سبب، وفي اليسير من لوازم فروضها وواجبات حقوقها، ما صان رعايتي عن الوصاية بها، ونزه وفائي عن الاستزادة لها. وكيف يوصى الناظر بنوره؟ أم كيف يحض القلب على حفظ سروره؟ وإن سبباً قرن بإحماد أمير

---

[343] الثعالبي، يتيمة الدهر

المؤمنين ذكري، ووصل بحبل السيد العم ركن الدولة حبلي، ومنح عز الدولة مكنون ودي، واختص الإخوة من ولد أبيه السعيد، رحمه الله، وأيدهم بوثيق عهدي، إلى أن صرت بفضل الجماعة قائلاً، ودونها بالنية والفعل مناضلاً، وبمحاسنها المجموعة لي ناطقاً، وبما لي عندها من المساهمة والمشاركة واثقاً، لحقيق بالتباهي في الإعظام، وخليق بالمبالغة في الإيجاب والإكرام. والله تعالى يعين على ما أعتقده من ذلك وأنويه، ويوفقني لما يوفي على المحبة والبغية فيه، بمنه وقدرته، وحوله وقوته" [344]

وكتب رقعة إلى رجل تزوجت أمه

أملى علي أبو إسحاق، إبراهيم بن هلال الكاتب، الصابىء، نسخة رقعة إلى رجل زوج أمه، كتبها إليه قال فيها: " قد جعلك الله، وله الحمد، من أهل التحصيل، والرأي الأصيل، وصحة الدين، وخلوص اليقين، كما أنك لا تتبع الشهوة في محظور تحله، فكذلك لا تطيع الأنفة في مباح تحظره، وتأدى إلينا من إيقاعك العقد، بين الوالدة، نفس الله لها في مدتك، وبين فلان، ما علمنا أنك بين طاعة للديانة توخيتها، ومشقة فيها تجشمتها، فإنك جدعت أنف الغيرة لها، وأضرعت حد الحمية فيها، وأسخطت نفسك لرضاها، وعصيت هواك لرأيها، فنحن نهنئك بعزيمة صبرك، ونعزيك عن فائت مرادك، ونسأل الله الخيرة لك، وأن يجعلها أبداً معك، فيما شئت وأبيت، وتجنبت وأتيت، والسلام" [345]

فلله در الصابي فيما كتب في هذه الرقعة وهل يفهم منها أنه هنأ الشخص أم قدَّم له التعزية؟

مما كتب في العقود والعهود والتقليدات

كتب الصابي في هذا الباب كتبا عديدة منها ما كان عن الخليفة العباسي بأغراض متنوعة ومنها ما كان عن غيره. وسنعرض لبعض هذه المكاتبات التي تدلل ليس على قدرة الصابي الأدبية وحسب، بل على ثقافته وسعة إطلاعه ومعرفته التفصيلية في الميادين التي كتب فيها فكان في كل ذلك متقدما. ونعتقد أن القيمة والأثر الذي تركته بلاغة وصيغة كل عهد كتب في نفس من كتب إليه كان لها

---

[344] ابن حمدون، التذكرة الحمدونية

[345] القاضي التنوخي، نشوار المحاضرة

بقاءها في نفوس من كُتبت إليهم. ولذلك فقد حفظ الكثير ممن كتبت لهم هذه العهود الود والعهد أيضا للصابي أيام محنته سواء في السجن أو في ضنك الحال بعده.

نسخة عقد صلح كتبها أبو إسحق بين الوزير أبي نصر سابور بن أزدشير والشريفين: أبي أحمد الحسين بن موسى، وأبي الحسن محمد ابنه الرضي

بما انعقد من الصلح والصهر بين الوزير المذكور، وبين النقيب أبي أحمد الحسين وولده محمد، حين تزوج ابنه محمد المذكور بنت سابور المذكور، وجعله على نسختين، لكل جانب نسخة، بعد البسملة ما صورته: هذا كتاب لسابور بن أزدشير، كتبه له الحسين بن موسى الموسوي، وولده محمد بن الحسين الموسوري.

"إنا وإياك، عندما وصله الله بيننا من الصهر والخلطة، ووشجه من الحال والمودة، آثرنا أن ينعقد بيننا وبينك ميثاق مؤكد، وعهد مجدد، تسكن النفوس إليهما، وتطمئن القلوب معهما، وتزداد الألفة بهما على مرّ الأيام، وتعاقب الأعوام، ويكون ذلك أصلاً مستقراً نرجع جميعاً إليه، ونعول ونعتمد عليه، وتتوارثه أعقابنا، وتتبعنا فيه أخلافنا.

فأعطيناك عهد الله وميثاقه، وما أخذه على أنبيائه المرسلين، وملائكته المقربين، صلى الله عليهم أجمعين، عن صدور منشرحة وأمال في الصلاح منفسحة، أنا نخلص لك جميعاً وكل واحد منا إخلاصاً صحيحاً يشاكل ظاهره باطنه، ويوافق خافيه عالنه، وإأنا نوالي أولياءك، ونعادي أعداءك، ونصل من وصلك، ونقطع من قطعك، ونكون معك في نوائب الزمان وشدائده، وفي فوائده وعوائده، وضَمَنا لك ضماناً شهد الله بلزومه لنا، ووجوبه علينا، وإنا نصون الكريمة علينا، الأثيرة عندنا، فلانة بنت فلان، أدام الله عزها، المنتقلة إلينا، كما تصان العيون بجفونها، والقلوب بشغافها، ونجريها مجرى كرائم حرمنا، ونفائس بناتنا، ومن تضمه منازلنا وأوطاننا، ونتناهى في إجلالها وإعظامها، والتوسعة عليها في مراغد عيشها وعوارض أوطارها، وسائر مؤنها ومؤن أسبابها، والنهوض والوفاء بالحق الذي أوجبه الله علينا لها ولك فيها، فلا نعدم شيئاً ألفته من إشبال عليها وإحسان إليها، وذب عنها، ومحاماة دونها، وتعهد لمسارها، وتوخ لمحابها، ونكون جميعاً وكل واحد منا مقيمين لك ولها على جميع ما اشتمل عليه هذا الكتاب في حياتك، أطالها الله، وبعد الوفاة إن تقدمنا، وحوشيت من السوء في أمورك كلها وأحوالك أجمعها.

ثم إنا نقول، وكل واحد منا طائعين مختارين، غير مكرهين ولا مجبرين، بعد تمام هذا العقد بيننا وبينك، ولزومه لنا ولك: والله الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب،

مدرك المهلك، الضار النافع، المطلع على السرائر، المحيط بما في الضمائر، الذي يعلم خائنه الأعين ومـــا تخفي الصدور وحق محمد النبي، وعلي الرضي، صلى الله عليهما وسلم وشرف ذكرهما، وسادتنا الأئمة الطيبين، الطاهرين، رحمة الله عليهم جمعين، وحق القرآن العظيم، وما أنزل فيــــه من تحليل وتحريم، ووعد ووعيد، وترغيب وترهيب، لنفين لك يا سابـور بن أزدشير، والكريمة الأثيرة ابنتك فلانة، أحسن الله رعايتها، بجميع ما تضمنه هذا الكتاب، وفاءً صحيحاً، ولنلتزمن لك ولها شرائطه ووثائقه، فلا نفسخها، ولا ننقضها، ولا نتبعها، ولا نتعقبها، ولا نتأول فيهـــا، ولا نزول عنها، ولا نلتمس مخرجاً ولا مخلصاً منها، حتى يجمعنا الموقف بين يدي الله، والمقـــدمُ على رحمة الله، ونحن يومئذ ثابتان عليها، ومؤديان للأمانة فيها، أداء يشهـــد الله تعالى به وملائكته يوم يقوم الإشهاد، ويحاسب العباد، فإن نحن أخللنا بذلك أو بشيء منه، أو تأولنا فيه أو في شيء منه، أو أضمرنا خلاف ما نظهر، أو أسررنا ضد ما نعلن، أو التمسنا طريقاً إلى نقضه، أو سبيلاً إلى فسخه، أو ألممنا بإخفار ذمة من ذممه، أو انتهاك حرمة من حرمه، أو حل عصمة من عصمه، أو إبطال شرط مـــن شروطه، أو تجـــاوز حد من حدوده، فالذي يفعل ذلك منا يوم يفعله أو يعتقده، وحين يدخل فيه ويستجيزه، بريء من الله جل ثناؤه، ومن نبوة رسوله محمد، ومن ولاية أميـــــر المؤمنين علي بن أبي طالب صلى الله عليهمـا وسلم، ومن القرآن الحكيم العظيـم، ومن دين الله الصحيح القويـم، ولقي الله يوم العرض عليه، والوقوف بين يديــــه، وهو به، سبحانــه، مشرك، ولرسوله صلى الله عليه وسلم مخالف، ولأهل بيته معادٍ، ولأعدائهم موالٍ، وعليه الحج إلى بيت الله الحرام العتيق الذي بمكة، راجلاً، حافياً، حاسراً، وإماؤه عواتق، ونساؤه طوالق، طلاق الحرج والسنة، لا رجعـــة فيه ولا مثنوية، وأموالـــه، على اختلاف أصنافها، محرمة عليه، وخارجة عن يديه، وحبيسة في سبيل الله، وبرأه الله من حوله وقوته، وألجأه إلى حوله وقوته. وهذه اليمين لازمة لنا، وقد أطلق كل واحد منا بها لسانه، وعقد عليها ضميره. والنية في جميعها نية فلان، لا يقبل الله من كل واحد منا إلا الوفاء بها، والثبات عليها، والالتزام بشروطها، والوقوف على حدودها، وكفى بالله شهيداً، وجازياً لعبـــاده ومثيباً. وذلك في يوم كذا، من شهر كذا، من سنة كذا" [346]

---

[346] القلقشندي، صبح الأعشى

عهد الخليفة إلى الشريف الرضي بنقابة الطالبيين

وكان الصابي قد أنشأ أصلا نسخة الطلب الذي تقدم به الشريف الرضي إلى الخليفة بطلب من الشريف الرضي، كما أنه كتب عهد الخليفة إلى الشريف الرضي الذي يقدم فيه موجبات العهد ثم التفويض به ويعقبه بالأمر بموجبات هذا العهد من المهام التي على الموكل به القيام بها، والتي تظهر سعة معرفة الكاتب الصابي بها وتضمينها نصا بما يلزم العمل بها، ونص العهد: " هذا ما عهد أمير المؤمنين إلى محمد بن الحسين بن موسى العلوي الموسوي، حين وصلته به الأنساب، وتأكدت له الأسباب، وظهرت دلائل عقله ولبابته، ووضحت مخايل فضله ونجابته، ومهد له بهاء الدولة الملك أبو نصر بن عضد الدولة تاج الملة مولى أمير المؤمنين ما مكن له عند أمير المؤمنين من المحل المكين، ووصفه به من الحلم الرزين، وأشاد به فيه من رفع المنزلة، وتقديم المرتبة، والتأهيل لولاية الأعمال، والحمل للأعباء الثقال، وحيث رغبه فيه، سابقه الحسين أبيه، في الخدمة والنصيحة والمواقف المحمودة، والمقامات المشهودة، التي طابت بها أخباره، وحسنت فيها آثاره، وكان محمد متخلقاً بخلائقه، وذاهباً في طرائقه، علما وديانة، وورعاً وصيانة، وعفة وأمانة، وشهامة وصرامة، بالحظ الجزيل، من الفضل الجميل، والأدب الجزل، والتوجه في الأهل، والإيفاء بالمناقب على لداته وأترابه، والإبرار على قرائبه وأضرابه، فقلده ما كان داخلاً في أعمال أبيه من نقابة نقباء الطالبين أجمعين بمدينة السلام وسائر الأعمال والأمصار شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، واختصه ذلك جذباً بصنعه، وإنافة بقدره، وقضاء لحق رحمه، وترفيهاً لأبيه، وإسعافاً بإيثاره فيه، إلى أمير المؤمنين واستخلافه عليه من النظر في المظالم، وتسيير الحجيج في المواسم، والله يعقب أمير المؤمنين فيما أمر ودبر حسن العاقبة فيما قضى وأمضى، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

أمره بتقوى الله التي هي شعار المؤمنين، وسنا الصالحين، وعصمة عباد الله أجمعين، وأن يعتقدها سراً وجهراً، ويعتمدها قولاً وفعلاً، فيأخذ بها ويعطي، ويسر بها وينوي، ويأتي ويذر، ويورد ويصدر، فإنها السبب المتين، والمعقل الحصين، والزاد النافع يوم الحساب، والمسلك المفضي إلى دار الثواب، وقد حض الله أولياءه عليها، وهداهم في محكم كتابه إليها، فقال عز من قائل: يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ " وأمره بتلاوة كتاب الله مواظباً، وتصفحه مدواماً ملازماً، والرجوع إلى أحكامه فيما أحل وحرم، ونقض وأبرم، وأثاب وعاقب، وباعد وقارب، فقد صحح الله

برهانه وحجته، وأوضح منهاجه ومحجته، وجعله نجماً في الظلمات طالعاً، ونوراً في المشكلات ساطعاً، فمن أخذ به نجا وسلم، ومن عدل عنه هوى وندم، قال الله تعالى: "

وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيم حَمِيدٍ

وأمره بتنزيه نفسه عما تدعو إليه الشبهات، وتتطلع إليه التبعات، وأن يضبطها ضبط الحكيم، ويكفها كف الحليم، ويجعل عقله سلطاناً عليها، وتمييزه آمراً ناهياً لها، فلا يجعل لها عذراً إلى صبوة ولا هفوة، ولا يطلق منها عناناً عند ثورة ولا فورة، فإنها أمارة بالسوء منصبة إلى الغي، فمن رفضها نجا، ومن اتبعها هوى، فالحازم يتهمها عند تحرك وطره وأربه، واهتياج غيظه وغضبه، ولا يدع أن يغضها بالشكيم، ويعركها عرك الأديم، ويقودها إلى مصالحها بالخزائم، ويعتقلها من مقارفة المآثم والمحارم، كيما يعز بتذليلها وتأديبها، ويجل برياضتها وتقويمها، والمفرط في أمر تطمح به إذا طمحت، ويجمح معها إذا جمحت، ولا يلبث أن تورده حيث لا يصدر، وتلجئه إلى أن تعتذر، وتقيمه مقام النادم الواجم، وتتنكب به سبيل الراشد السالم، وأحق من تحلى بالمحاسن، وتصدى لاكتساب المحامد، من ضرب بمثل سهمه في نسب أمير المؤمنين الشريف، ومنصبه المنيف، واجتمع معه في ذؤابة العترة الطاهرة، واستظل بأوراق الدوحة الفاخرة، فذاك الذي تتضاعف له المآثر إن آثرها، والمثالب إن أسف إليها، ولا سيما من كان مندوباً بالسياسة، ومرشحاً للتقليد على أهله، إذ ليس يفي بالصلاح لمن ولي عليه، ولا يفي بإصلاح ما بين جنبيه، وكان من أعظم الهجنة عليه أن يأمر ولا يأتمر، ويزجر ولا يزدجر، قال الله تعالى جل ذكره: " أَتَأْمُرُونَ النَّاس بالبرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكتابَ أفَلاَ تَعْقِلُونَ "

وآمره بتصفح أحوال من ولي عليهم من استقراء مذاهبهم، والبحث عن بواطنهم ودخائلهم، وأن يعرف لمن تقدمت قدمه منهم وتظاهر فضله فيهم منزلته، ويوفيه حقه ورتبته، وينتهي في إكرام جماعتهم إلى الحدود التي توجبها أنسابهم وأقدارهم، وتقتضيها مواقعهم وأخطارهم، فإن ذلك يلزمه لشيئين: أحدهما يخصه وهو النسب الذي بينه وبينهم، والآخر يعمه والمسلمين جميعاً، وهو قول الله جل ذكره " قُلْ لاَ أسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاَّ المَوَدّة في القُربى" فالمودة لهم والإعظام لأكابرهم، والاشتمال على أصاغرهم، واجب متضاعف الوجوب عليه، متأكد اللزوم له، ومن كان منهم في دون تلك الطبقة من أحداثٍ لم يحتنكوا ، وجذعان لم يقرحوا، مجرين إلى ما يزري بأنسابهم، ويغض من أحسابهم، عذلهم ونتبهم، ونهاهم ووعظهم، فإن نزعوا وأقلعوا فذاك المراد بهم، والمقصود إليه فيهم، وإن أصروا وتتابعوا، أنالهم من العقوبة بقدر ما

يكف ويردع، فإن نفع وإلا تجاوزه إلى ما يوجع ويلذع ، من غيـــر تطرق لأعراضهم، ولا امتهان لأحسابهم، فـإن الغرض منــه الصيانة لا الإهانة، والإدالــة لا الإذالة، وإذا وجبت عليهم الحقوق، أو تعلقت بهم دواعي الخصوم، قادهم إلى الإغفاء بما يصح منها ويجب، والخروج إلى سنن الحق فيما يشتبه ويلتبس، ومتى لزمتهم الحدود أقامها عليهم بحسب ما أمره الله تعإلى فيها، بعد أن تثبت الجرائم وتصح، وتبين وتتضح، وتتجرد عن الشك والشبهة، وتتجلى عن الظن والتهمة، فإن الذي يستحب في حدود الله عز وجل أن تدرأ مع نقصان اليقين والصحة، وأن تمضى عليهم مع قيام الدليل والبينة، قال الله عز وجل: " وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُون "

وأمره بحياطة أهل النسب الأطهر، والشرف الأفخر، عن أن يدعيه الأدعياء، أو يدخل فيه الدخلاء، ومن انتمى إليه كاذباً، أو انتحله باطلاً، ولم يوجد له بيت في الشجرة، ولا مصداق عند النسابين المهرة، أوقع به من العقوبه ما يستحقه، ووسمه بما يعلم بــه كذبه وفسقه، وشهره شهرةً ينكشف بها غشه ولبسه، وينزع بها غيره ممن تسول له ذلك نفسه، وأن يحصن الفروج عن مناكحــة من ليس لها كفؤاً في شرفها وفخرها، حتى لا يطمع في المرأة الحسيبة النسيبة إلا من كان مثلاً لها مساوياً، ونظيراً موازاياً، فقد قال الله تعإلى: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْس أهْل البَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً "

وأمره بمراعاة متبتلي أهله ومتهجديهم، وصلحائهم ومجاوريهم، وأراملهم وأصاغرهم، حتى يسد الخلة من أحوالهم، ويــدر الموارد عليهم، وتتعادل أقساطهم فيما يصل إليهـــم من وجوه أموالهم، وأن يــزوج الأيامى، ويربي اليتامى، ويلزمهــم المكاتب ليتلقنوا القرآن، ويعرفـوا فرائض الإسلام والإيمان، ويتأدبوا بالآداب اللائقــة بذوي الأحساب: فــإن شرف الأعراق، محتاج إلى شرف الأخلاق، ولا حمــد لمن شرف حسبه، وسخف أدبه، إذ كان لم يكسب الفخر الحاصل بفضل سعي ولا طلب، ولا اجتهاد ولا دأب، بل بصنع من الله عز وجل له، ومــزيد في المنة عليه، وبحسب ذلك لزوم ما يلزمه من شكره سبحانه على هذه العطيــة، والاعتــداد بما فيها من المزية، وإعمال النفس في حيــازة الفضائل والمناقب، والترفع عــن الرذائل والمثالب.

وأمره بإجمال النيابة عن شيخه الحسين بن موسى فيما أمره أمير المؤمنين باستخلافه عليه من النظر في المظالم، والأخذ للمظلوم من الظالم، وأن يجلس للمترافعين إليه جلوساً عاماً، ويتأمل كلامهم تأمــلاً تاماً، فما كان منها متعلقاً بالحاكم رده إليه، ليحمــل الخصوم عليه، وما كان طريقة الغشم والظلم، والتغلب والغضب قبض عنه

اليد المبطلة، وثبت فيه اليد المستحقة، وتحرى في قضاياه أن تكون موافقـة للعدل، ومجانبة للخذل، فإن غايتي الحاكم وصاحب المظالم واحدة: وهي إقامة الحق ونصرته، وإبانته وإثارته، وإنما يختلف سبيلاهما في النظر: إذ كان الحاكم يعمل بما ثبت عنده وظهر، وصاحب المظالم يفحص عما غمض واستتر، وليس له مع ذلك أن يرد للحاكم حكومة، ولا يعل له قضية، ولا يتعقب ما ينفذه ويمضيه، ولا يتتبع ما يحكم به ويقضيه، والله يهديه ويوفقه، ويسدده ويرشده.

وأمره أن يسيّر حجيج بيت الله إلى مقصدهـم، ويحميهم في بدأتهم وعودتهـم، ويرتبهم في مسيرهم ومسلكهم، ويرعاهم في ليلهم ونهارهم، حتى لا تنالهم شدة، ولا تصل إليهم مضرة، وأن يريحهم في المنازل، ويوردهم المناهل، ويناوب بينهـم في النهل والعلل، ويمكنهم مـن الارتواء والاكتفاء، مجتهداً في الصيانة لهم، ومعذراً في الذب عنهم، ومتلوماً على متأخرهم ومتخلفهم، ومنهضاً لضعيفهم ومهيضهم، فإنهم حجاج بيت الله الحرام، وزوار قبر الرسول عليه السلام، قد هجروا الأوطان، وفارقـوا الأهل والإخوان، وتجشموا المغارم الثقال، وتعسفوا السهول والجبال، يلبون دعاء الله عز اسمه، ويطيعون أمره ويؤدون فرضه ويرجون ثوابه، وحقيقٌ على المسلم المؤمن أن يحرسهم متبرعاً، ويحوطهم متطوعاً، فكيف من تولى ذلك وضمنه، وتقلده واعتنقه، قـال الله: "ولِلّهِ على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ استَطَاعَ إليـه سَبِيلاً".

وأمره أن يراعي أمور المساجد بمدينة السلام وأطرافها، وأقطارها وأكنافها، وأن يجبي أموال وقوفها، ويستقصي جميع حقوقها، وأن يلم شعثها، ويسد خللها، بما يتحصل من هذه الوجوه قبله، حتى لا يتعطل رسمٌ جرى فيها، ولا تنقض عادةٌ كانت لها، وأن يثبت اسم أمير المؤمنين على ما يعمره منها، ويذكر اسمـه بعده بأن عمرانها جرى على يديـه، وصلاحها أداه قول أمير المؤمنين إلى فعله، فقـد فسح له أمير المؤمنين بذلك تنويهاً باسمـه، وإشادةً بذكره، وأن يولي ذلك من قبله من حسنت أمانته، وظهرت عفته وصيانته، فقـد قال الله تعالى: "إنّما يَعْمُرُ مساجِـدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ واليَوْمِ الآخِرِ وأقَامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكاةَ ولَمْ يَخْشَ إلاّ الله فَعَسى أُولئِكَ أنْ يَكُونُوا من المُهْتَدين".

وأمره أن يستخلف على ما يرى الاستخلاف عليه من هـذه الأعمال: في الأمصـار الدانية، والبلاد القريبة والبعيدة، من يثق به من صلحاء الرجال، وذوي الوفاء والاستقلال، وأن يعهد اليهم مثل الذي عهد إليه، ويعتمد عليهم في مثل ما اعتمد عليه، ويستقري مع ذلك آثارهم، ويتعرف أخبارهم، فمن وجده محموداً أقره ولم يزله، ومن وجده مذموماً صرفه

ولم يمهله، واعتاض منه من ترجى الأمانة عنده، وتكون الثقة معهودةً منه، وأن يختار لكتابته وحجبته والتصرف فيما قرب منه وبعد عنه، من يزينه ولا يشينه، وينصح له ولا يغشه، ويجمله ولا يهجنه، من الطبقة المعروفة بالظلف، المتصونة عن النطف، ويجعل لهم من الأرزاق الكافية، والأجرة الوافية، ما يصدهم عن المكاسب الذميمة، والمآكل الوخيمة، فليس تجب عليهم الحجة إلا مع إعطاء الحاجة، قال الله تعالى: "وأنْ لَيْس لِلإنْسانِ إلاَّ ما سَعى وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ثُمَّ يُجْزاهُ الجَزَاءَ الأوْفى".

وأمره بأن يكتب لمن يقوم ببينته عنده وتنكشف حجته له، إلى أصحاب المعاون بالشد على يديه، وإيصال حقه إليه، وحسم الطمع الكاذب فيه، وقبض اليد الظالمة عنه، إذ هم مندوبون للتصرف بين أمره ونهيه، والوقوف عند رسمه وحده.

وهذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته لك وعليك، قد أنار فيه سبيلك وأوضح دليلك، وهداك وأرشدك وجعلك على بينة من أمرك، فاعمل به ولا تخالفه، وانتهِ إليه ولا تتجاوزه، وإن عرض لك أمرٌ يعجزك الوفاء به، ويشتبه عليك وجه الخروج منه، أنهيته إلى أمير المؤمنين مبادراً، وكنت إلى ما يأمرك به صائراً، إن شاء الله تعالى. وكتب في مستهل شعبان سنة ثمانين وثلثمائة. "[347]

تقليد أنشاه الصابي لفخر الدولة أبي الحسن بن ركن الدولة أبي علي بن بويه عن الخليفة الطائع، وفيه من الفصاحة والبلاغة فوق إلمام الصابي بالمهام التي يجب أن يقوم بها من تمت توليته

" هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين إلى فخر الدولة أبي الحسن بن ركن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين حين عرف غناءه وبلاءه، واستصح دينه ويقينه، ورعى قديمه وحديثه، واستنجب عوده ونجاره، وأثنى عز الدولة أبو منصور بن معز الدولة أبي الحسين مولى أمير المؤمنين أيده الله عليه، وأشار بالمزيد في الصنيعة إليه، وأعلم أمير المؤمنين إقتداءه به في كل مذهب فيه من الخدمة، وغرضٍ رمى إليه من النصيحة، دخولاً في زمرة الأولياء المنصورة، وخروجاً عن جماعة الأعداء المدحورة وتصرفاً على موجبات البيعة التي بعز الدولة أبي منصور منوطة، وعلى سائر من يتلوه ويتبعه مأخوذة مشروطة، فقلده الصلاة وأعمال الحرب، والمعاون، والأحداث، والخراج، والأعشار، والضياع، والجهبذة والصدقات، والجوالي، وسائر

---

[347] ثبت النص من مصدرين هما: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، و القلقشندي، صبح الأعشى

وجوه الجبايات والعرض والعطاء، والنفقة في الأولياء والمظالم وأسواق الرقيق والعيار في دور الضرب والطرز والحسبة بكور همذان، وأستراباذ والدينور، وقرميسين، والإيغارين، وأعمال أذربيجان، وأران، والسحانين، وموقان، واثقاً منه باستبقاء النعمة واستدامتها، والاستزادة بالشكر منها، والتجنب لغمطها وجحودها، والتنكب لإيحاشها وتنفيرها، والتعمد لما مكن له الحظوة والزلفى، وحرس عليه الأثرة والقربى، بما يظهره ويضمره من الوفاء الصحيح والولاء الصريح، والغيب الأمين، والصدر السليم، والمقاطعة لكل من قاطع العصبة، وفارق الجملة، والمواصلة لكل من حمى البيضة وأخلص النية، والكون تحت ظل أمير المؤمنين وذمته، ومع عز الدولة أبي منصور وفي حوزته، والله جل اسمه يعرف أمير المؤمنين حسن العقبى فيما أبرم ونقض، وسداد الرأي فيما رفع وخفض، ويجعل عزائمه مقرونة بالسلامة، محجوبةً عن موارد الندامة، وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل أمره بتقوى الله التي هي العصمة المتينة، والجنة الحصينة، والطود الأرفع، والمعاذ الأمنع والجانب الأعز، والملجأ الأحرز، وان يستشعرها سراً وجهراً، ويستعملها قولاً وفعلاً، ويتخذها ردءاً دافعاً لنوائب القدر، وكهفاً حامياً من حوادث الغير، فإنها أوجب الوسائل، وأقرب الذرائع، وأعودها على العبد بمصالحه، وادعاها إلى سبل مناجحه، وأولاها بالاستمرار على هدايته، والنجاة من غوايته، والسلامة في دنياه حين توبق موبقاتها، وتردي مردياتها، وفي آخرته حين تروع رائعتها وتخيف مخيفاتها. وأن يتأدب بآداب الله في التواضع والإخبات، والسكينة والوقار، وصدق اللهجة إذا نطق، وغض الطرف إذا رمق، وكظم الغيظ إذا أحفظ، وضبط اللسان إذا أغضب، وكف اليد عن المآثم، وصون النفس عن المحارم. وأن يذكر الموت الذي هو نازل به، والموقف الذي هو صائر إليه، ويعلم أنه مسؤول عما اكتسب، مجزيٌ بما تزمل واحتقب، ويتزود من هذا الممر، لذاك المقر، ويستكثر من أعمال الخير لتنفعه، ومن مساعي البر لتنقذه، ويأتمر بالصالحات قبل أن يأمر بها، ويزدجر عن السيئات قبل يزجر عنها، ويبتدئ بإصلاح نفسه قبل إصلاح رعيته: فلا يبعثهم على ما يأتي ضده، ولا ينهاهم عما يقترف مثله، ويجعل ربه قريباً عليه في خلواته، ومروءته مانعةً له من شهواته، فإن أحق من غلب سلطان الشهوة، وأولى من صرع أعداء الحمية، من ملك أزمة الأمور، واقتدر على سياسة الجمهور، وكان مطاعاً فيما يرى، متبعاً فيما يشاء، يلي على الناس ولا يلون عليهم، ويقتص منهم ولا يقتصون منه، فإذا اطلع الله منه على نقاء جيبه، وطهارة ذيله، وصحة سريرته، واستقامة سيرته، أعانه على حفظ ما استحفظه، وأنهضه بثقل ما حمله، وجعل له مخلصاً من الشبهة،

ومخرجاً من الحيرة، فقــد قال تعالى: " ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ". وقال عز من قال: "يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ". وقال: " اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " إلى أي كثيرة حضنا بها على أكرم الخلق، وأسلم الطرق، فالسعيــد من نصبها إزاء ناظره، والشقي من نبذها وراء ظهره، وأشقى منه من بعث عليها وهو صادف عنها، وأهاب إليها وهو بعيد منها، وله ولأمثاله يقول الله تعالى: " أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ".

وأمره أن يتخذ كتاب الله إماماً متبعاً، وطريقاً موقعاً، ويكثر من تلاوته إذا خلا بفكره، ويملأ بتأمله أرجاء صدره، فيذهب معه فيما أباح وحظر، ويقتدي به إذا نهى وأمر، ويستبين بيانه إذا استغلقت دونه المعضلات، ويستضيء بمصابيحه إذا غم عليه في المشكلات، فإنه عروة الإسلام الوثقى، ومحجته الوسطى، ودليله المقنع، وبرهانه المرشد، والكاشف لظلم الخطوب والشافي من مرض القلوب، والهادي لمن ضل، والمتلافي لمن زل، فمن لهج به فقد فاز وسلم ومن لهي عنه فقد خاب وندم، قال الله تعالى: " وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد "

وأمره أن يحافظ على الصلوات، ويدخل فيها في حقائق الأوقات، قائماً على حدودها، متبعاً لرسومها، جامعاً فيما بين نيته ولفظه، متوقياً لمطامح سهوه ولحظه، منقطعاً إليها من كل قاطع لها، مشغولاً بها عن كل شاغل عنهــا، متثبتاً في ركوعها وسجودها، مستوفياً عدد مفروضها ومسنونها، موفراً عليها ذهنه، صارفاً إليها همه، عالماً بأنه واقفٌ بين يدي خالقه ورازقه، ومحييه ومميته، ومثيبه و معاقبه، لا تستتر دونه خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فإذا قضاها على هذه السبيل منذ تكبيرة الإحرام إلى خاتمة التسليم، أتبعها بدعاء يرتفع بارتفاعها، ويستمع باستماعهــا، ولا يتعدى فيه مسائل الأبــرار، ورغائب الأخيار من استفصاح واستغفار، واستقالة واسترحام، واستدعاء لمصالح الدين والدنيا، وعوائــد الآخرة والأولى، فقد قــال تعالى: " إن الصــلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً "، وقــال تعالى: " وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ".

وأمره بالسعي في أيام الجمع إلى المساجد الجامعة، وفي الأعياد إلى المصليات الضاحية، بعد التقدم في فرشهــا وكسوتها، وجمع القوام والمؤذنين والمكبرين فيها، واستسعــاء الناس إليها، وحضهم عليها، آخذين الأهبة، متنظفين في البزة، مؤدين لفرائض الطهارة،

بالغين في ذلك أقصى الاستطاعة، معتقدين خشية الله وخيفته، مدرعين تقواه ومراقبته، مكثريــن من دعائه، عز وجل، وسؤاله، مصلين على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، بقلوب على اليقين موقوفة، وهمم إلى الدين مصروفة، وألسن بالتسبيح والتقديس فصيحة، فإن هذه المصليات والمتعبدات بيوت الله التي فضلها، ومساكنه التي شرفهــا، وفيها يتلى القرآن ومنها ترتفع الأعمال، وبها يلوذ اللائذون ويعوذ العائذون، ويتعبد المتعبدون، ويتهجد المتهجــدون، وحقيقٌ على المسلمين أجمعين: من والٍ ومــولى عليه أن يصونها ويعمروهــا، ويواصلوها ولا يهجروها. وأن يقيم الدعوة على منابرها لأمير المؤمنين ثم لنفسه على الرسم الجاري فيها، قال الله تعالى في هذه الصلاة: " يأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يــوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ". وقــال في عمارة المساجد: " إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصــلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين "

وأمره بأن يراعي أحوال من يليه، من طبقات جند أمير المؤمنين ومواليه، ويطلق لهم الأرزاق، في وقت الوجوب والاستحقاق، وأن يحسن في معاملتهم، ويجمل في استخدامهم، ويتصرف في سياستهم، بين رفق من غير ضعف، وخشونة من غير عنف، مثيباً لمحسنهم ما زاد بالإبانة في حسن الأثر، وسلم معها من دواعي الأشر، ومتغمداً لمسيئهم ما كان التغمد له نافعاً، وفيه ناجعاً، فإن تكررت زلاته، وتتابعت عثراته، تناوله من عقوبته بما يكون له مصلحاً، ولغيره واعظــاً. وأن يختص أكابرهم أماثلهم وأهــل الرأي والخطر منهــم بالمشــاورة في الملم، والإطلاع على بعض المهــم، مستخلصاً نخائل قلوبهــم بالبسط والإدنــاء، ومستشحذاً بصائرهم بالإكرام والاحتفاء: فإن في مشاورة هذه الطبقــة استدلالاً على مواقع الصواب، وتحرزاً من غلط الاستبداد، وأخذاً بمجامع الحزامة، وأمناً من مفارقة الاستقامة، وقــد حض الله على الشورى حيث قال لرسولـه عليه الصلاة والسلام: " وشاورهم في المر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين "

وأمره بأن يعمد لما يتصل بنواحيه من ثغور المسلمين، ورباطات المرابطين، ويقسم لها قسماً وافراً من عنايته، ويصرف إليها طرفاً بل شطراً من رعايته، ويختار لها أهل الجلد والشدة، وذوي البأس والنجدة: ممن عجمته الخطوب، وعركته الحروب، واكتسب دربــة بخدع المتاوين، وتجربةً بمكايد المتقارعين، وأن يستظهر بتكثيف عددهم، واختيار عددهم، وانتخاب خيلهم، وإستجادة أسلحتهم، غير مجمر بعثاً إذا بعثه،

ولامستكره إذا وجهه، بل يناوب بين رجاله مناوبةً تريحهم ولا تملهـم، وترفههم ولا تؤودهم: فإن في ذلك من فائــدةِ الإجمام، والعدل في الاستخدام، وتنافس رجال النوب فيما عاد عليهم بعز الظفر والنصر، وبعد الصيت والذكر، وإحراز النفع والجر، ما يحق على الولاة أن يكونوا به عاملين، وللناس عليه حاملين. وأن يكرر على أسماعهم، ويثبت في قلوبهم، مواعيد الله لمن صابر ورابط، وسمح بالنفس وجاهد، من حيث لا يقدمون على تورط غرة، ولا يحجمون عن انتهاز فرصة، ولا ينكصون عن تورد معركة، ولا يلقــون بأيديهم إلى التهلكة، فقد أخذ الله تعالى ذلك على خلقه، والمرامين عن دينه، وأن يزيح العلة فيما يحتاج إليه من راتب نفقات هذه الثغور وحادثها، وبناء حصونها ومعاقلهــا، واستطراق طرقها ومسالكها، وإفاضــة الأقوات والعلوفات للمتربتين فيها والمترددين إليها والحامين لها. وأن يبذل أمانه لمن طلبه، ويعرض على من لم يطلبه. ويفي بالعهد إذا عاهد، وبالعقد إذا عاقد، غير مخفرٍ ذمة، ولا جارحٍ أمانة، فقد أمر الله تعالى بالوفاء فقال جل من قال: " فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ".

وأمره أن يعرض من حبوس عمله على جرائرهم وإنعام النظر في جناياتهم وجرائمهم فمن كان إقراره واجباً أقره، ومن كان إطلاقه سائغاً أطلقه. وان ينظر في الشرطة والأحداث نظر عدل وإنصاف، ويختار لها من الولاة من يخاف الله تعالى ويتقيه، ولا يحابي ولا يراقب فيه، ويتقدم إليهم بقمع الجهال وردع الضلال، وتتبع الأشرار، وطلب الدعار، مستدلين على أماكنهم، متوغلين إلى مكامنهم، متولجين عليهم في مظانهم، متوثقين ممن يجدونه منهم، منفذين أحكام الله تعالى فيهم بحسب الذي يتبين من أمرهم، ويتضح من فعلهم، في كبيرةٍ ارتكبوها، وعظيمةٍ احتقبوها، ومهجةٍ أفاظوها واستهلكوها، وحرمةٍ أباحوها، وانتهكوها: فمن استحق حداً من حدود الله المعلومة أقاموه عليــه غير مخففين منه، وأحلوه به غيــر مقصرين عنه، بعد أن لا يكون عليهم في الذي يأتون به حجةً ولا يعترضهم في وجوبه شبه: فإن الواجب في الحدود أن تقام بالبينات، وأن تدرأ بالشبهات، فأولى ما توخاه رعاة الرعايا فيها أن لا يقدموا عليها مع نقصان، ولا يتوقفوا عنها مع قيام دليل وبرهان. ومن وجب عليه القتل احتاط عليه بما يحتاط به على مثله: من الحبس الحصين، والتوثق الشديد، وكتب إلى أمير المؤمنين بخبــره، وشرح جنايته، وثبوتها بإقرار يكون منه، أو بشهادةٍ تقع عليــه، ولينتظر من جوابه ما يكون عملــه بحسبه، فإن أمير المؤمنين لا يطلق سفك دم مسلـمٍ أو معاهد إلا ما أحاط به علماً، وأتقنــه فهماً، وكان ما يمضيــه فيه عن بصيرة لا يخالطها شك، ولا يشوبهــا ريب، ومن ألم بصغيرةٍ من الصغائــر، ويسيرةٍ من الجرائر، من حيث

لم يعرف له مثلها، ولم تتقدم منه أختها، وعظه وزجره، ونهاه وحذره، واستتابه وأقاله، ما لم يكن عليه خصم في ذلك يطالب بقصاصٍ منــه، وجزاءٍ له، فأن عاد تناوله من التقــويم والتهذيب، والتعزيز والتأديب، بما يرى أنه قد كفى فيما اجترم، ووفى بما قدم، فقد قال تعالى: " ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون "
وأمره أن يعطل ما في أعماله من الحانات والمواخير، ويطهرها من القبائح والمناكير، ويمنع من تجمع أهل الخنا فيهــا وتألف شملهم بها: فإنه شمل يصلحــه التشتيت، وجمع يحفظه التفريق ومــا زالت هذه المواطن الذميمــة والمطارح الدنيئة، داعية لمن يأوي إليها، ويعكف عليها، إلى ترك الصلوات، وإهمال المفترضات وركوب المنكرات، واقتراف المحظورات، وهي بيوت الشيطان التي في عمارتهــا الله تعالى مغضبة، وفي إخرابها للخير مجلبة، والله تعالى يقول لنا معشر المؤمنين: " كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ". ويقول عز من قال لغيرنا من المذمومين: " فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً "
وأمره أن يولي الحماية في هذه الأعمال، أهل الكفاية والغناء من الرجال، وأن يضم إليهم كل من خف ركابه، وأســرع عند الصريخ جوابه، مرتباً لهم في المسالح، وساداً بهم ثغر المسالك وأن يوصي بالتيقظ، ويأخذهم بالتحفظ، ويزيح عللهم في علوفة خيلهم، والمقرر من أزوادهم وميرهم، حتى لا تثقل لهم على البلاد وطأة، ولا تدعوهم إلى تحيفهم وثلمهم حاجة، وأن يحوطوا السابلة بادئةً وعائدة، ويتداركو القوافل صادرةً وواردة، ويحرسوا الطرق ليلاً ونهاراً وينفضوها رواحاً وإبكاراً، وينصبوا لأهل العيث الأرصاد، ويتكمنوا لهم بكل واد، ويتفرقوا عليهم حيث يكون التفرق مضيقاً لفضائهم، ومؤدياً إلى انفضاضهم، ويتجمعوا حيث يكون الاجتماع مطفئاً لجمرتهم، وصادعاً لمروتهم، وأن لا يخلو هذه السبل من حماةٍ لها وسيارة فيها، يترددون في جواديها، ويتعسفون في عواديها، حتى تكون الدمــاء محقونة، والأموال مصونة، والفتن محسومةً والغارات مأمــونة، ومن حصل في أيديهم من لصٍ خاتل، وصعلوك خارب، ومخيفٍ لسبيل، ومنتهك لحريم، امتثل فيه أمر أمير المؤمنين الموافق لقول الله تعالى: " إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعــون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو ينفضوا مــن الأرض ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم ".
وأمره بوضع الرصد على ما يجتاز في أعماله من أبــاق العبيد، والاحتياط عليهــم وعلى ما يكون معهم، والبحث عن الأماكن التي فارقــوها، والطرق التي استطرقوها،

ومواليهم الذين أبقوا منهم، ونشزوا عنهم، وأن يردوهم عليهم قهراً، ويعيدوهم إليهم صغراً، وأن ينشدوا الضالة بما أمكن أن تنشد، ويحفظوها على ربها بما جاز أن تحفظ، ويتجنبوا الامتطاء لظهورها والانتفاع بأوبارها وألبانها مما يجز و يحلب، وأن يعرفوا اللقطة ويتبعوا أثرها، ويشيعوا خبرها، فإذا حضر صاحبها وعلم أنه مستوجبها سلمت إليه، ولم يعترض فيها عليه، فإن الله عز وجل يقول: " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ". ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ضالة المؤمن حرق النار "

وأمره أن يوصي عماله بالشد على أيدي الحكام، وتنفيذ ما يصدر عنهم من الأحكام، وان يحضروا مجالسهم حضور الموقرين لها، الذابين عنها، المقيمين لرسوم الهيبة وحدود الطاعة فيها، ومن خرج عن ذلك من ذي عقل سخيف، وحلم ضعيف، نالوه بما يردعه، وأحلوا بما يزعه، ومتى تقاعس متقاعسٌ عن حضورٍ مع خصم يستدعيه، وأمرٍ يوجه الحاكم إليه فيه، أو التوى ملتوٍ بحقٍ يحصل عليه، ودين يستقر في ذمته، قادوه إلى ذلك بأزمة الصغار، وخزائم الاضطرار، وأن يحبسوا ويطلقوا بأقوالهم، ويثبتوا الأيدي في الأملاك والفروج وينزعوها بقضاياهم، فإنهم أمناء الله في فصل ما يفصلون وبت ما يبتون، وعن كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم يوردون ويصدرون وقد قال تعالى: " يا داواد إنا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديد بما نسوا يوم الحساب "

وأن يتوخى بمثل هذه المعاملة عمال الخراج في استيفاء حقوق ما استعملوا عليه، واستطاف بقاياهم فيه، والرياضة لمن تسوء طاعته من معامليهم، وإحضارهم طائعين أو كارهين بين أيديهم، فمن آداب الله تعالى للعبد التي يحق عليه أن يتخذها أدباً ويجعلها إلى الرضا عنه سبباً، قوله تعالى: " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ".

وأمره أن يجلس للرعية جلوساً عاماً، وينظر في مطالبها نظراً تاماً، ويساوي في الحق بين خاصها وعامها، ويوازي في المجالس بين عزيزها وذليلها، وينصف المظلوم من ظالمه، والمغصوب من غاصبه، بعد الفحص والتأمل والبحث والتبين، حتى لا يحكم إلا بالعدل ولا ينطق إلا بفصل، ولا يثبت يداً إلا فيما وجب تثبيتها فيه، ولا يقبضها إلا عما وجب قبضها عنه، وأن يسهل الإذن لجماعتهم، ويرفع الحجاب بينه وبينهم، ويوليهم من حصانة الكنف، ولين المنعطف، والاشتمال والعناية، والصون والرعاية، ما تتعادل فيه أقسامهم، وتتوازن منه أقساطهم، ولا يصل المكين منهم إلى استضامة من

تأخر عنه، ولا ذو السلطان إلى هضيمة من حل دونه. وأن يدعوهم إلى أحسن العادات والخلائق ويحضهم على أجمل المذاهب والطرائق، ويحمل عنهم كله، ويمد عليهم ظله، ولا يسومهم خسفاً، ولا يلحق بهم حيفاً، ولا يكلفهم شططاً، ولا يجشمهم مضلعاً، ولا يثلم لهم معيشة، ولا يداخلهم في جريمة، ولا يأخذ منهم بريئاً بسقيم، ولا حاضراً بعديم، فإن الله عز وجل نهى أن تزر وازرةٌ وزر أخرى، وجعل كل نفسٍ رهينةً بمكسبها بريئةً من مكاسب غيرها. ويرفع عن هذه الرعية ما عسى أن يكون سُنَّ من سُنة ظالمة، وسلك بها من محجة جائرة، ويستقري آثار الولاة قبله عليها، فيما أزجوه من خير أو شرٍ إليها، فيقر من ذلك ما طاب وحسن ويزيل ما خبث وقبح: فإن من يغرس الخير يحظى بمعسول ثمره، ومن يزرع الشر يصلى بمرور ريعه، والله تعالى يقول: " والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات لقومٍ يشكرون "

وأمره أن يصون أموال الخراج وأثمان الغلات، ووجوه الجبايات موفراً، ويزيد ذلك مثمراً، بما يستعمله من الإنصاف لأهلها، وإجرائهم على صحيح الرسوم فيها: فإنه مال الله الذي به قوة عباده، ودرور حلبه، واتصال مدده، وبه يحاط الحريم، ويدفع العظيم، ويحمى الذمار، وتذاد الأشرار. وأن يجعل افتتاحه إياه بحسب إدراك أصنافه، وعند حضور مواقيته وأحيانه، غير مستسلف شيئاً قبلها، ولا مؤخر لها عنها، وأن يخص أهل الطاعة بالسلامة والترفيه لهم، وأهل الاستصعاب والامتناع بالتشدد عليهم: لئلا يقع إرهاقٌ لمذعن، أو إهمالٌ لطامعٍ. وعلى المتولي لذلك أن يضع كلاً من الأمرين موضعه، ويوقعه موقعه، متجنباً إحلال الغلطة بمن لا يستحقها، وإعطاء الفسحة لمن ليس من أهلها، والله تعالى يقول: " وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى "

وأمره بأن يتخير عماله على الأعشار، والخراج، والضياع، والجهبذة، والصدقات، والجوالي، من أهل الظلف والنزاهة، والضبط والصيانة، والجزالة والشهامة، وأن يستظهر مع ذلك عليهم بوصيةٍ يوعيها أسماعهم، وعهودٍ يقلدها أعناقهم، بأن لا يضيعوا حقاً، ولا يأكلوا سحتاً، ولا يستعملوا ظلماً، ولا يقارفوا غشماً. وأن يقيموا العمارات ويحتاطوا على الغلات ويتحرزوا من ترك حقٍ لازم أو تعطيل رسم عادل، مؤدين في جميع ذلك الأمانة، مجتنبين للخيانة. وان يأخذوا جهابذتهم باستيفاء وزن المال على تمامه، واستجادة نقده على عياره، واستعمال الصحة في قبض ما يقبضون، وإطلاق ما يطلقون. وأن يوعزوا إلى سعاة الصدقات بأخذ الفرائض من سائمة مواشي

المسلمين دون عاملتها، وكذلك الواجب فيها، وأن لا يجمعوا فيها متفرقاً ولا يفرقوا مجتمعاً، ولا يدخلوا فيها خارجاً عنها، ولا يضيفوا إليها ما ليس منها: من فحل إبلٍ أو أكولة راع، أو عقيلة مال، فإذا اجتبـــوها على حقها، واستوفوها على رسمها، أخرجوهـــا في سبيلها، وقسموها على أهلها الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه، إلا المؤلفة قلوبهـــم الذين سقط سهمهـــم، فإن الله تعالى يقول: " إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغـارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضةً من الله والله عليمٌ حكيم ". وإلى جباة جماجم أهل الذمة أن يأخذوا منهم الجزية في المحرم من كل سنة بحسب منازلهم في الأحوال، وذات أيديهم في الأموال، وعلى الطبقات المطبقة فيهـا، والحدود المحدودة المعهودة لهـا، وأن لا يأخذوا من النساء، ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال ولا من ذي سنٍ عالية، ولا ذي علة بادية، ولا فقير معدم، ولا مترهب متبتل، وأن يراعي جماعـة هؤلاء العمـال مراعاةً يســرها ويظهرها، ويلاحظهم ملاحظة يخفيها ويبديها: لئلا يزولوا عن الحق الواجب، أو يعدلوا عن السنن اللاحب، فقد قال تعالى: " وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا "

وأمره أن يندب لعرض الرجال وإعطائهم، وحفظ جراياتهم وأوقات إطعامهم، من يعرفـــه بالثقة في متصرفه، والأمانة فيما يجري على يده، والبعد عن الإسفاف إلى الدنية، والاتباع إلى الدنـــاءة، وأن يبعثه على ضبط حلى الرجال وشيـــات الخيل، وتجديـد العرض بعد الاستحقاق وإيقاع الاحتياط في الإنفاق، فمن صح عرضه ولم يبق في نفسه شيء منه: من شكٍ يعرض له، أو ريبةٍ يتوهمها، أطلق أمواله موفورة، وجعلها في أيديهم غير مثلومـــة، وأن يرد على بيت المال أرزاق من سقط بالوفاة والإخلال، ناسباً ذلك إلى جهته، ومسوداً له على حقيقته. وأن يطالب الرجال بإحضار الخيل المختارة، والآلات المستكملة المستعملة على ما توجبه مبالغ أرزاقهم، وحسب منازلهم ومراتبهم، فإن أخر أحدهم شيئاً من ذلك قاصه به من رزقه وأغرمه مثل قيمته، فإن المقصر فيه خائنٌ لأمير المؤمنين، ومخالف لـــرب العالمين، إذ يقول الله سبحانه: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ". وأمره أن يعتمد في أسواق الرقيق ودور الضـرب و الحبة والطـرز، على من تجتمع فيه آلات هذه الولايات: من ثقةٍ ودراية، وعلم وكفاية، و معرفةٍ ودراية، وتجربـــة وحنكة، وحصافة ومسكة، فإنها أحوال تضارع الحكم وتناسبه، وتدانيه وتقاربه، وأن يتقدم إلى ولاة أسواق الرقيق بالتحفظ فيمن يطلقون بيعــــه، ويمضون أمره، والتحرز من وقوع تجوزٍ فيه، وإهمالٍ له، إذ كان ذلك عائداً بتحصين الفروج، وتطهيـــر الأنساب. وأن يبعدوا عن

أهل الريبة، ويقربوا أهل العفة، ولا يمضوا بيعاً على شبهة، ولا عقداً على تهمة. وإلى ولاة العيار، بتخليص عين الدرهم والدينار: ليكونا مضروبين على البراءة من الغش، والنزاهة من المش، وبحسب الإمام، المقرر بمدينة السلام، وحراسة السكك من أن تداولها الأيدي المدغلة، وتتناقلها الجهات الظنينة، وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يضرب منها ذهباً وفضة، وإجراء ذلك على الرسم والسنة. وإلى ولاة الطرز بأن يجروا الاستعمال في جميع المناسج على أتم النيقة، وأسلم الطريقة، وأحكم الصنعة، وأفضل الحصة، وأن يثبتوا اسم أمير المؤمنين على طرز الكسا، والفرش والأعلام والبنود. وإلى ولاة الحسبة بتصفح أحوال العوام في حرفهم ومتاجرهم، مجتمع أسواقهم ومعاملاتهم، وأن يعايروا الموازين والمكاييل، يفرزوها على التعديل والتكميل، ومن اطلعوا منه على حيلةٍ أو تلبيس، أو غيلةٍ أو تدليس، أو بخس فيما يوفيه، أو استفضال فيما يستوفيه، نالوه بغليظ العقوبة وعظيمها، وخصوه بوجيعها وأليمها، واقفين به في ذلك عند الحد الذي يرونه لذنبه مجازياً، وفي تأديبه كافياً، فقد قال الله تعالى: " ويلٌ للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون "

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عليك، وقد وقفك به على سواء السبيل، وأرشدك فيه إلى واضح الدليل، وأوسعك تعليماً وتحكيماً، وأقنعك تعريفاً وتفهيماً ولم يألك جهداً فيما عصمك وعصم على يديك، ولم يدخرك ممكناً فيما أصلح بك وأصلحك، ولا ترك لك عذراً في غلطٍ تغلطه، ولا طريقاً إلى متورطٍ تتورطه، بالغاً بك في الأوامر والزواجر إلى حيث يلزم الأئمة أن يندبوا الناس إليه، ويحثوهم عليه، مقيماً لك على منجيات المسالك، صارفاً بك عن مرديات المهالك، مريداً فيك ما يسلمك في دينك ودنياك، ويعود بالحظ عليك في آخرتك وأولاك، فإن اعتدلت وعدلت فقد فزت وغنمت، وان تجانفت واعوججت فقد خسرت وندمت، والأولى بك عند أمير المؤمنين مع مغرسك الزاكي، ومنبتك النامي، وعودك الأنجب، وعنصرك الأطيب، أن تكون لظنه بك محققاً، ولمخيلته فيك مصدقاً، وأن تستزيد بالأثر الجميل قرباً من رب العالمين وثواباً يوم الدين، وزلفى عند أمير المؤمنين، وثناءً حسناً من المسلمين، فخذ ما نبذ إليك أمير المؤمنين من معاذيره، وأمسك بيدك على ما أعطى من مواثيقه، واجعل عهده هذا مثلاً تحتذيه، وإماماً تقتفيه، واستعن بالله يعنك، واستهده يهدك، وأخلص إليه في طاعته، يخلص لك الحظ من معونته، ومهما أشكل عليك من الخطب، أو أعضل عليك من صعب، أو بهرك من باهر، أو بهظك من باهظ، فاكتب إلى أمير المؤمنين به منهياً،

وكن إلى ما يرد من جوابه عليك منتهياً، إن شاء الله تعالى. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. "[348].

نسخة عهد بولاية القضاء بسر من رأى كتب بها أبو إسحاق الصابي عن الخليفة الطائع لله للقاضي أبي الحسين محمد بن عبيد الله بن معروف

وقد آثرنا وضع النص الكامل لنسخة العهد تثبيتا لما كان متداولا في الأمور والمهام التي تناط بالقاضي فيما يجب الإلتزام به من جهة، ومن جهة ثانية بيان معرفة الصابي بكل الأمور التي تتعلق بالقضاء وما يجب أن يقوم به القاضين ويكتب بما عرف عنه من قدرة وصياغة بليغة وملزمة، والعهد يعدبحق دراسة قضائية وسايكولوجية في أبوابها.

" هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم، الإمام الطائع لله أمير المؤمنين، إلى محمد ابن قاضي القضاة عبيد الله بن أحمد، حين عرفت الفضيلة فيه، وتقيل مذاهب أبيه، ونشأ من حصنه في المنشأ الأمين، وتبوأ من سببه ونسبه المتبوأ المصون، ووجده أميـــر المؤمنين مستحقاً لأن يوسم بالصنيعة، والمنزلة الرفيعة، على الحداثة من سنه، والغضاضة من عوده، سامياً به في ذلك إلى مراتب أعيان الرجال، التي لا تدرك إلا مع الكمال والاكتهال: لما آنس من رشده ونجابته، واستوضح من عقله ولبابته، واسترجح من وقاره وحلمه، واستغزر من درايته وعلمه، وللذي عليه شيخه قاضي القضاة عبيد الله بن أحمد من حصافة الدين، وخلوص اليقين، والتقدم على المتحلين بحليته، والمنتحلين لصناعته، والاستبداد عليهم بالعلم الجم، والمعنى الفخم، والافتنان في المساعي الصالحة التي يسود أحدهم بأحدها، ويستحق التجاوز لهم من استوعبها بأسرها، وبالثقـة والأمانة، والعفة والنزاهة، التي صار بهـا علماً فرداً، وواحداً فذاً، حتى تكلفها من أجله من ليست من طبعه ولا سنخه، فهـو المحمود بأفعالـه التي اختص بها وبأفعال غيره ممن حذاه فيها، وبما نفق من بضائع الخير بعـد كسادها، وبالسابقة التي له في خدمة المطيع لله أولاً ثم خدمة أمير المؤمنين ثانياً، فإنها سابقة شائعٌ خبرها، وجميلٌ أثرها، قويةٌ دواعيها، متمكنة أواخيها، وللمكانة التي خص بها من أمير المؤمنين ومن عز الدولة أبي منصور مولى أمير المؤمنين أيده الله ومن نصير الدولة الناصح أبي طاهر

---

[348] القلقشندي، صبح الأعشى ، ويراعى أن النص ورد عند ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ولكن هنالك بعض الفروقات التي وجدنا أن تكاملها في صبح الأعشى أوفى مع ضرورة من يرغب في مزيد اطلاع أن يرجع الى المصدرين.

رعاه الله، ومن عظماء أهل حوزتهم، وأفاريق عوامهم ورعيتهم، فلما صدق محمد فراسة أميـر المؤمنين ومخايله، واحتذى سجايا أبيـه وشمائله، وحصل له ما حصل من الحرمات المتأثلة، والمواث المتأصلة، أحرز من الأُرة على قرب المدى، ما لا يحرزه غيره على بعد المرمى، واستغنى أميـر المؤمنين فيه عن طول التجربة والاختبار، وتكرر الامتحان والاعتبار، فقلده الحكم بين أهل سر من رأى، وتكريت، والطبرهان، والسن، والبوازيج، ودقوقا، وخانيجار، والبندنيجين، وبوحسابور، والراذانين، ومسكن وقطربل، ونهربوق، والدبين، وجميع الأعمال المضافـة إلى ذلك والمنسوبة إليـه، وشرفه بالخلع والحملان، وضروب الإنعام والإحسان، وكان فيما أعطاه من هـذا الصيت والمجد، ونحله إياه من المفخر العد، مبتغياً ما كسبه من الله الرضا والزلفى، والسلامـة في الفاتحة والعقبى، وراعياً لما يوجبه لقاضي قضاته عبيد الله بن أحمد من الحقوق التي أخفى منها أكثر مما أبدى، وأمسك عن أضعاف ما أحصى، وذاهباً على آثار الأئمة المهديين، والولاة المجتهدين، في إقرار ودائعهم عند المرشحين لحفظها، المضطلعين بحملها، من أولاد أوليائهم، وذرية نصحائهم: إذ كان لا بد للأسلاف أن تمضي، وللأخلاف أن تنمي، كالشجر الذي يغرس لدناً فيصير عظيماً، والنبات الذي ينجم رطبا فيصير هشيماً. فالمصيب من تخير الغرس من حيث استنجب الشجر، واستحلى الثمر، وتعمد بالعرف من طاب منه الخبر، وحسن منـه الأثر. وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى تسديداً تحمد عائدته، وتدر عليه مادته، ويتولاه في العزائم التي يعزمها، والأمور التي يبرمها، والعقود التي يعقدها، والأغراض التي يعتمدها، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

أمره باعتماد التقوى، فإنها شعار أهل الهدى، وأن يراقب الله مراقبة المتحرز من وعيده، والمتنجز لمواعيده، ويطهر قلبه من موبقات الوساوس، ويهذبه من مرديات الهواجس، ويأخذ نفسه بمآخذ أهل الدين، ويكلفها كلف الأبرار المؤمنين ويمنعها من أباطيل الهوى، وأضاليل المنى. فإنها أمارةٌ بالسوء، صبةٌ إلى الغي، صادةٌ عن الخيـر، صادفة عن الرشد، لا ترجع عن مضارها إلا بالشكائم، ولا تنقاد إلى منافعها إلا بالخزائم. فمن كبحها وثناها نجاها، ومن أطلقها وأمرجها أرداها. وأولى من جعل تقوى الله دأبه وديدنه، والخيفة منه منهاجه وسننه، من ارتدى رداء الحكام، وأمر ونهى في الأحكام، وتصدى لكف الظالم، ورد المظالم، وإيجاب الحدود ودرئهـا، وتحليل الفروج وحظرها، وأخذ الحقوق وإعطائها، وتنفيذ القضايا وإمضائها: إذ ليس له أن يأمر ولا يأتمر، ويزجر ولا يزدجر، ويأتي مثل ما ينهى عنه، وينهى عما يأتي مثله، بل هو محقوق بأن

يصلح ما بين جنبيه، قبل أن يصلح ما رد أمره إليه، وأن يهذب من نيته، ما يحاول أن يهذب من رعيته، قال الله تعالى: "يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُون": "فاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُها الناسُ والحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِين".

وأمره بالإكثار من تلاوة القرآن الواضح سبيلـه، الراشد دليلـه، الذي من استضاء بمصابيحه أبصر ونجا، ومن أعرض عنها زل وغوى، وأن يتخذه إماماً يهتدي بآياتـه، ويقتدي ببيناته، ومثالاً يحذوا عليه، ويرد الأصول والفروع إليه، فقد جعله الله حجته الثابتة الواجبة، ومحجته المستبينة اللاحبة، ونوره الغالب الساطع، وبرهانه الباهر الناصع، وإذا ورد عليه معضل، أو غم عليه مشكل، اعتصم به عائذاً، وعطف عليه لائذاً، فبه يكشف الخطب، ويذلل الصعب، وينال الأرب، ويدرك المطلب، وهو أحـد الثقلين الذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فينا، ونصبهما معلماً بعـده لنا، قال الله تعالى: "إنَّا أنْزَلْنَا إلَيْك الكتَابَ بالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناسِ بِمَا أراكَ اللهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً". وقال تعالى: "وإنَّه لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفه تَنْـــزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد"

وأمره بالمحافظة على الصلوات، وإقامتها في حقائق الأوقات، وأن يدخل فيها أوان حلولها بإخلاص من قلبه، وحضور من لبه، وجمع بين لفظه ونيته، ومطابقةٍ بين قوله وعمله، مرتلاً للقراءة فيها، مفصحاً بالإبانـــة لها، متثبتاً في ركوعها وسجودها، مستوفياً لحدودها وشروطها، متجنباً فيها جرائر الخطإ والسهو، وعوارض الخطل واللغو: فإنه واقف بين يدي جبار السماء والأرض، ومالك البسط والقبض، والمطلع على خائنة كل عين وخافية كل صدر، الذي لا تحتجب دونه طوية، ولا تستعجم عليه خبية، ولا يضيع أجر محسن، ولا يصلح عمل مفسد، وهو القائل عز وجل: "وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عن الفَحْشاءِ والمُنْكَر".

وأمره بالجلوس للخصوم، وفتح بابه لهم على العموم، وأن يوازي بين الفريقين إذا تقدما إليه، ويحاذي بينهما في الجلوس بين يديه، ويقسم لهما أقساماً متماثلةً من نظره، وأقساطاً متعادلةً من كلمه: فإنه مقام توازن الأقدام، وتكافؤ الخواص والعوام، لا يقبل على ذي هيئة لهيئته، ولا يعرض عن دميم لدمامته، ولا يزيد شريفاً على مشروف، ولا قوياً على مضعوف، ولا قريباً على أجنبي، ولا مسلماً على ذمي، ما جمعهما التخاصم، وضمهما التحاكم. ومن أحس منه بنقصان بيان، أو عجزٍ عن برهان، أو قصورٍ في علم، أو تأخر في فهم، صبر عليه حتى يستنبط ما عنده، ويستشق ضميـره، وينقع بالإقناع غلته، ويزيح بالإيضاح علته. ومن أحس منه بلسنٍ وعبارةٍ وفضل من بلاغة، أعمل فيما

يسمعــه منه فكره، وأحضره ذهنه، وقابله بسد خلة خصمه، والإبانة لكل منهما عن صاحبه، ثم سلط على أقوالهما ودعاويهما تأمله، وأوقع على بيناتهما وحججهما تدبره، وأنفذ حينئذ الحكومة إنفاذاً يعلمان بـــه أن الحق مستقر مقره، وأن الحكم موضوع موضعـــه، فلا يبقى للمحكوم عليه استرابة ولا للمحكوم له إستزادة، وأن يأخذ نفسه مع ذلك بأطهر الخلائق وأحمدها، وأهدى السجايا وأرشدها، وأن يقصد في مشيـــه، ويغض من صوته، ويحذف الفضول من لفظه ولحظه، ويخفف من حركاته ولفتاته، ويتوقر من سائر جنباته وجهاته، ويتجنب الخرق والحـــدة، ويتوقى الفظاظة والشدة، ويلين كنفه من غير مهانة، ويرب هيبته في غير غلظة، ويتوخى في ذلك وقوفاً بين غايتيـــه، وتوسطاً بين طرفيه، فإنه يخاطب أخلاطاً من الناس مختلفين، وضروباً غيـــر متفقين، ولا يخلو فيهم من الجاهل الأهوج، والمظلوم المحرج، والشيخ الهم، والناشئ الغر، والمرأة الركيكة، والرجل الضعيف النحيـــزة، وواجبٌ عليه أن يغمرهم بعقله، ويشملهم بعدله، ويقيمهم على الإستقامة بسياسته، ويعطف عليهم بحلمه ورياسته، وأن يجلس وقد نال من المطعم والمشرب طَرفاً يقف به عند أول الكفاية، ولا يبلغ منه إلى آخر النهاية، وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلها، وعوارض البشرية بأسرها: لئلا يلم به من ذلك ملمٌ أو يطيف به طائفٌ فيحيلانه عن جلده، ويحولان بينه وبين ســدده، وليكن همه إلى ما يقول ويقال له مصروفاً، وخاطره على ما يرد عليه ويصدر عنه موقوفاً، قـــال الله تعالى: "يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاك خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فاحْكُمْ بَيْنَ الناسِ بِالْحَقِّ ولا تَتَّبِع الْهوى فَيُضِلَّك عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَاب".

وأمره إذا ثبت عنده حقٌ من الحقوق لأحدٍ من الخصوم، أن يكتب له متى التمس ذلك صاحب المعونة في عمله بأن يمكنه منه، ويحسم المعارضات فيه عنه، ويقبض كل يدٍ تمتد إلى منازعته، أو تتعدى إلى مجاذبته، فقد ندب الله الناس إلى معاونـــة المحق على المبطل، والمظلوم على الظالم، إذ يقول عز وجل: "وتَعَاوَنُوا عَلى البِرِّ والتَّقْوى ولا تَعَاوَنُوا عَلى الإِثْمِ والعُدْوان".

وأمره أن يستصحب كاتباً دربًا بالمحاضر والسجلات، ماهراً في القضايا والحكومات، عالماً بالشروط والحدود، عارفاً بما يجوز وما لا يجوز، غير مقصر عن القضاة المستورين، والشهود المقبولين، في طهارة ذيله، ونقاء جيبه، وتصونـــه عن خبث المآكل والمطاعم، ومقارفة الريب والتهم، فإن الكاتب زمام الحاكم الذي إليه مرجعه، وعليه معوله، وبـــه يحترس من دواهي الحيل، وكوامن الغيل، وحاجباً سديداً رشيداً، أديباً

لبيباً، لا يسف إلى دنية ولا يلم بمنكرة، ولا يقبل رشوة، ولا يلتمس جعالةً، ولا يحجب عنه أحداً يحاول لقاءه في وقته، والوصول إليه في حينه، وخلفاء يرد إليهم ما بعد من العمل عن مقره، وأعجزه أن يتولى النظر فيه بنفسه، ينتخبهم من الأماثل، ويتخيرهم من الأفاضل، ويعهد إليهم في كل ما عهد فيه إليه، ويأخذهم بمثل ما أخذ به، ويجعل لكلٍ من هـذه الطوائف رزقاً يكفه ويكفيه، وقوتاً يحجزه ويغنيه، فليس تلزمهم الحجة إلا مع إعطائهم الحاجة، ولا تؤخذ عليهم الوثيقة إلا مع إزاحة العلة، فقد قال الله تعالى: "وأنْ لَيْسَ لِلإنْسانِ إلاَّ ما سَعى وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأوْفى".

وأمره بإقرار الشهود الموسومين بالعدالة على تعديلهم، وإمضاء القضاء بأقوالهم، وحملهم على ظاهر السلامة، وشعار الاستقامة، وأن يعتمد مع هذا البحث عن أديانهم، والفحص عن أماناتهم، والإصغاء إلى الأحاديث عنهم: من ثناءٍ يتكرر، أو قدح يتردد، فإذا تواتر عنده أحد الأمرين، ركن إلى المزكي الأمين، ونبا عن المتهم الظنين: فإنه إذا فعل ذلك اغتبط أهل الأمانة بأماناتهم، ونزع أهل الخيانـــة عن خياناتهم، وتقربوا إليه بما تنفق سوقـــه، ويستحق به التوجه عنده، واستمر شهوده وأمناؤه، وأتباعه وخلفاؤه، على المنهج الأوضح، والمسلك الأنجح، وتحصنت الأموال والحقوق، وصينت الحرمات والفروج، ومتى وقف لأحدٍ منهم على هفوة لا تغفر، وعثرةٍ لا تقال، أسقطه من عددهم، وأخرجه عن جملتهم، واعتاض منه من يحمد دينه، ويرتضي أمانته، قال الله تعالى: " وإمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خيانَةً فانْبِذْ إلَيْهِمْ عَلى سَوَاءٍ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الخائِنِينَ ". وقال في الشهادة: "وأقيمُوا الشَّهادَةَ للهِ".

وأمره بالضبط لما يجري في عمله من الوقوف الثابتة في ديوان حكمه، والتعويل فيها على الأمناء الثقات، والحصفاء الكفاة، المعـــروفين بالظلف والـــورع، المتنزهين عن النظف والجشع، والتقـــدم إليهم في حفظ أصولها، وتوفيـــر فروعها، وتثمير غلالها وارتفاعها، وصرفها إلى أهلها ومستحقها وفي وجوهها وسبلها، ومطالبتهم بحساب ما يجري على أيديهم، والاستقراء لآثارهم فيه وأفعالهم، وأن يحمد منهم من كفى وكف، ويذم من أضاع وأسف، وينزل كلاً منهم منزلته التي استحقها بعمله، واستوجبها بأثره، قال الله تبـــارك وتعالى: " إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا الأمَانَاتِ إلى أهْلِهَا وَإذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا بالعَدْلِ إنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إنَّ اللهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً ".

وأمره بالاحتياط على أموال الأيتام، وإسنادها إلى أعف وأوثق القوام، والتقدم إلى كل طائفة بأن يجـــريهم مجرى ولده، ويقيمهم مقام سلالته، في الشفقـة عليهم، والإصلاح

لشؤونهم، والإشراف على تأديبهم، وتلقينهم ما لا يسع المسلم جهله من الفرائض المفترضة، والسنن المؤكدة، وتخريجهم في أبواب معايشهم، وأسباب مصالحهم، والإنفاق عليهم من عرض أموالهم بالمعروف الذي لا شطط فيه ولا تبذير، ولا تضييق ولا تقتير، فإذا بلغوا مبالغ كمالهم، وأونس منهم الرشد في متصرفاتهم، أطلق لهم أموالهم، وأشهد بذلك عليهم، فقد جعله الله بما تقلده من الحكم، خلفاً من الآباء لذوي اليتم، وصار بهذه الولاية عليهم مسؤولاً عنهم، ومجزياً عما سار به فيهم، وأوصله من خير أو شـــر إليهم، قال الله تعالى: "وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّه وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُون أموالَ اليَتَامى ظُلْماً إنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وسَيَصْلَوْنَ سَعيراً"

وأمره بحفظ ما في ديوانه من الوثائق والسجلات، والحجج والبينات، والوصايا والإقرارات فإنها ودائع الرعية عنده، وواجبٌ أن يحرسها جهده، وأن يكلها إلى الخـــزان المأمونين، والحفظة المتيقظين، ويوعز إليهم بأن لا يخرجوا شيئاً منها عن موضعه ولا يضيفوا إليها ما لم يكن بعلمه، وأن يتخذ لها بيتاً يحصرها به، ويجعله بحيث يأمن عليه: ليرجع متى احتاج الرجوع إليه، فقد قال الله تعالى: "وَالَّذِينَ هُمْ لأمَانَاتِهِمْ وعَهْدِهِمْ راعُون".

وأمره إن ورد عليه أمرٌ يُعْيِيه فصلُه، ويشتبــه عليه وجه الحكم فيه، أن يرده إلى كتاب الله، ويطلب به سبيل المخلص منه، فإن وجده وإلا ففي الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن أدركه وإلا استفتى فيه من يليه من ذوي الفقه والفهم، والهدايـــة والعلم، فما زالت الأئمة والحكام من السلف الصالح، وطراق السنن الواضح، يستفتي واحدٌ منهم واحداً، ويسترشد بعضٌ بعضاً، لزوماً للاجتهاد، وطلباً للصواب، وتحرزاً من الغلط، وتوقياً من العثار، قال الله تعالى: "فإنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فرُدُّوده إلى اللهِ والرَّسُول".

وأمره أن لا ينقض حكماً حكم به من كان قبله ولا يفسخه، وأن يعمل عليه ولا يعدل عنه، ما كان داخلاً في إجماع المسلمين، وسائغاً في أوضاع الدين، فإن خرج عن الإجماع، أوضح الحال فيه لمن بحضرته من الفقهاء والعلماء حتى يصيروا مثله في إنكاره، ويجتمعوا معه على إيجاب رده، ثم ينقضه حينئذ نقضاً يشيع ويذيع، ويعـــود به الأمر إلى واجبـــه، ويستقر معه الحقفي نصابه، قال الله تعالى: "وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بمَا أنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الفاسِقُون".

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عليك، قد شرح به صدرك، وأوضح به سبلك وأقام أعلام الهداية لك، ولم يألك تبصيراً وتذكيراً، ولم يدخرك تعريفاً وتوقيفاً، ولم يجعلك في شيء من أمرك على شبهة تعترضك، ولا حيرة تعتاقك، والله شاهدٌ له بخروجه من الحق فيما وصى وعهد، وعليك بقبولك ما قبلت مما ولى وقلد. فإن عدلت واعتدلت وذلك خليقٌ بك، فقد فاز وفزت معه، وإن تجانفت وزللت، وذلك بعيدٌ منك، فقد ربح وخسرت دونـه. فلتكن التقوى زادك، والاحتراس شعارك، واستعن بالله يعنك، واستهده يهدك، واعتضد به يعضدك، واستمد من توفيقه يمددك. إن شاء الله تعالى." [349]

مما كتب في المعاتبات

في هذا الباب كتب الصابي عن نفسـه وعن أخرين بحسب ما كان يطلب منه سواء من الديوان أو من الأصدقاء، وتظهـر كتاباته قيمة المعاتبـة بين بيان ما كان من ود وبين توضيح الحال والتنبيه إلى الخطل والزلل، ومن ثم بيان الحرص على موجبات العلاقة بما لا يؤدي إلى القطيعة.

نسخة كتاب كتبه أبو إسحق ابرهيم بن هليل بن ابرهيم بن زهرون الصابي الكاتب إلى أبي القسم علي بن الحسين بن ابرهيم عامل البصرة جوابا عن كتاب ورد منه بالإستعتاب[350]

ويظهر فيه الصابي قوة الحجة ودفع الظن بأسلوب نصيحة واستمالة لا تفارق الأدب على الرغم من اللوم والعتب.

" وصل كتابك وفهمتـه وسكنت منه إلى سلامتك لازالت عليك ضافيـة ولديك راهنة، وحمدت الله على نعمه عندك حمد المستديم لها المستزيد منها، فأما إنكارك، أيدك الله، عتابي وتألمك من ألفاظ كانت في كتابي وتصرفك في ذلك بين ردٍ عليّ وتوجيه إليّ، وبين اعتبار مما اقتضاه، واحتجاج فيما استدعاه، واعتدادك بالصبر عليّ فيما عندك أني ظالم فيه، وبترك المقابلة منك على متابعته وتواليه، ودلالتك إياي على

---

[349] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي، والقلقشندي، صبح الأعشى

[350] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي الكاتب فيما كتبه في المعاتبات وما كتبه في الشفاعات وبعض ما نفذ الى المتصرفين والنواحي. مخطوطة في جامعة لايدن ((هكذا وردت كتابة الأسماء في المخطوطة)).

الطريق التي هي أحفظ للعهد وأحرس للود، والخلايق التي هي أوصل للحبل وأضم للشمل، فقد أرشدت، أدام الله تأييدك، رشاد أهل الحزم والفضل، وقلت قـــول ذي الطول والنبـــل، وجريت على شريف عادتك وكريم شاكلتك، وما جعلك الله أهلا له من المناقب الباهرة، والمحاسن الناضرة، ووجدتك، أيدك الله، افتننت في القول افتتـــان المدل بلسانه، المعول على بيانـــه، الواثق من نفسه بسبق مجاريه وفوت مباريه، الذي إذا نظم جادل مجادلـــه، وناضل مناضله، فكانت الحجة له جلاها في أحسن معارضها، وأبرزها في أفخر ملابسها، ولا يلبث أن يكون الظفر له، والفلج معه، وإن كانت الحجة عليه عدل عنها، إلى الشبهة النائبـــة عنها، في حس من ضعف حسه، القائمة مقامها في تمييز من نقص تمييزه، وظاهر عليها من سديد عبارتـــه، وبليغ خطابته، ما تكون به أحسن من الحجـــة الصحيحة جلبابـــا وأبهى شعارا، ويكون الخصم معها أقرب اختداعا وأسرع إنقطاعا. وأنت، أيدك الله، تجِلُّ عن أن تنفق بضاعتك من هذه الفضائل سرفا، إلا فيما يكون فيه مع الحق متصرفا، وتجلني عن أن تضعني في الطبقة من الناس المضعوفة، وذوي الألباب المأوفة، وهو أن أمرا ورد عليك من الوزير، أطال الله بقاه، بترك إطلاق شيء من التسبيبات إلا ما رسمـــه، وأن مالي كان مما لـــم يرسم إطلاقه أو مما نص على وقفـــه، فهذا أعذر إن كنت عولت عليـــه واستروحت اليه.... بل كنتُ عندك بمثابة من لا تجمع في معرفتـــه بين الإسم والعين، ولا تراه موضعا لقضاء حق ولا إسلاف دين. أليست هذه المعاملة خارجةً عن عادتك ومباينة لخليقتك؟ أوليس الراضي بها معدودا مـــع الأراذل ومضارعا للأداني والأسافل؟... وأشهد الله أنني لا أبدؤك بذكر لهذا الأمر، ولا أخط حرفا فيه إليك آخر الدهر، ولو عرفت هذا الرأي لفككت نفسي من رق الطمع في ممنوع أنت فيه أسوأ مني حالا، وكفيتك الالتجاء معي إلى مضيق أنا فيـــه منك أرحب مجالا. وقبل وبعد: فالأرزاق مقسومة وقد وفر الله قسطك من ميلي وموالاتي، ومأخذك من إخلاصي ومصافاتي، وخفقت قسمي من مكافأتك وجزائك، وطففت سهمي من ودك وقضائك، فما تصـــدرني الموارد في ذلك إلا محبط العمل، خائب الأمل، منحوس الحظ، مغضوض اللحظ، وما ذاك لقعود الكرم بك، ولا لقعود الاستحقاق بي، وإنما هو لغلبة المقدور، ونزوله بما ليس في التقدير. وأقول حسبي الله وكفى. وأما الحكايات عني في الطعن عليك، ووضع اللسان بحيث يظن بك، فقبح الله مني مستجيـز ذلك، والمرخص نفسه فيه، والمعتاد لركوب مراكبه، واقتعاد مطاياه، وقبح من أداه إليك كاذبا متسوقا، ودخل به عليك متوصلا متنفقا، وغفر الله لك إن كنت

قبلته منه قابلا مصدقا، ولم تكن تغنمت الاعتلال في سوء صنيعك به،... والله المطلع على استواء سري وجهري، وإتفـاق باطني وظاهري، وأنني ما رضيت قط لنفسي ولا لغيري بالمقام الذميم، والخلق اللئيم، بل أستقبح ذلك كله على العموم، وأخص منـه بفضل الاستقباح الأمر الذي جوزتـه علي، وقبلت البهت المحض من ناسبـه اليّ، ولا أمتنع مع اعترافي بالكثير من عيوب البشر أن أصف نفسي بالتنزه عنه، والتجنب له، خاصة وعهدي قريب باستعمال ما يضاده وينافيه، والتشهر في مودتك ومشاركتك بما يخالفـه ويعاديه، فلا تقبل، أيدك الله، على نبأ الفاسق، ولا تفارق في بصيـرة الواثق، ووالله ما لشيء مما أقيم في نفسك حقيقة، ولا أراد مقيمهُ فيها لك النصيحة، ولا زدت في حال العتب الشديد علي أن تركت ما كنت عليه من النيابة التي لو نفقت لما تركتها، ولو عُرف حقها لما فارقتها،... ولا ألتمس منك إلا أن تفيء اليّ بخلتك وتلم ما شعثه الواشون من معتقدك، ولا تنصرف عن الثقة بمن لم ينصرف عنها، ولا تعلق المودة بالمعاملة التي ليست منها،.. وتعود إلى تصريفي بين أمرك ونهيـك، وتكليفي ما يعرض من وطرك ومهمك، بانك تجدني في ذلك على أفضـل ما يكون عليه المتمسك بعلائقك، الضنين بوثائقك ولرأيك، أيدك الله، في ذلك فضل صوابه ورشاده إن شاء الله"

وكتب أبو علي الحسين بن محمد الأنباري وهو من الأدباء والكتاب الذين عاصروا الصابي منذ أيام وزارة المهلبي وما بعدها معاتبا أبا إسحق وكان يومها يخلف الوزير أبا الفضل العباس بن الحسين بحضرة الأمير معز الدولة:

" لو عرفت عـذرك، أطال الله بقاك، في الذهاب عني والصفح عن الذكر فيّ، إما معتقدا متطوعا أو متجملا متكلفا لخفف ما أجده من مرارة إعراضك وألـم جفائك، أو طبتُ نفسا بخروج مثلك، يا مولاي، عن يدي، وقد إتفقنا كهلا وفتىً، ثم صرنا شيخا ومجتمعا، لوطنتها على الصبر ، وانفرد هذا في الحقوق المتعاطاة ظاهرا بين الإخوان، ولم يكن مجتمعا إلى إغفالي فيما نترقى إليه من تصرف، ونكتسبه من فضل جاهٍ، ونقسمه في الناس مـن حسن منابٍ، ويحتاج إليه مثلي من مثلك مع قبضي وبسط يدي، لكان الحظ أيسر، ولكن اجتماع متفرقات من جهتك، ياسيدي، كانت تَسهُل من غيرك، حركتني لهذه المخاطبـة، وحَمَلتني على المعاتبة، وقد كانت معمورة في مواهب الله بك عندي، مغفورة في جنب قديم بِرِّكَ بي، موجودة في حسابي، داخلة في

حسناتي، فاضطرني الإفلاس وفي هذا من كل ما يرفع طرفا، أرسل قلبا إلى التفتيش عليها، وسلك طريق اليهودي في نظره دواوينه العتق حتى أنريها، وما أهون أذاها إن نضضت، وأذهبها من همي إن استأنفت آخر عهدي بك، يا مولاي، قبل شخوصك من البصرة الاجتماع بالأبلة[351] في دارك، ثم وردت واسطا هذه أخرجني الله عنها في عافية، فلم يُعرف خبري برسول ولا رقعةٍ، فقلت الشغل وأغراضه. وجئتك فدخلت الخركاء[352] وجمعت إلى تكليف الغلمان باختيارك ياسيدي بحضوري، إن عرفتُك إياه وأقمت اللقاء في المعسكر مقام التزاور، وتأخرتَ عن الركوب يوما فكان قصدي إياك في السحر إلى الدار، ثم اتبعتك منها إلى المعسكر ثم شخص سيدنا الأستاذ أطال الله بقاه واعتللتُ وانقطعتُ عنه إنقطاعا أعادُ فيه[353]. أفأعوّزك غلامٌ أم كَتبُ أحرفٍ أما للعيادة أو للتفقد إن لم تكن عرفت خبر العلة؟ والله لو تحليت بالنجوم، وكتبت بعطارد، وركبت منكب القوس، وطعنت بالسمال الرامح، ومدحك زهيرٌ مدح هرم، وأنت لعمر الله ابن سنان، ولكن عُدمَ مثلُ زهير ثم سقط عنه شكري فضلا عن أن تلحقك استزادتك. أظننت أن قلبك، عمره الله بمسرتك، لا يبرأ من تلك الفضائل مشوبة منتقصة، وتلك النعمة مثخونة متنغصة، فإن رأيت يا سيدي أن تكمل فضائلك ببري، وتصلني ولا تقطعني، ولا تكدر صفو ما بينك وبيني، وترد رقعتي هذه إلي، فإني أرفع ما مكنه الله من الحال، ومهده من الأفضال، عن أن يظهر لخاص أو عام أني إرتجعتك عن أغراض واستصلحتك عن فساد، فعلت إن شاء الله."[354]

فأجابه أبو إسحق وقد كان قلبه طافحا من سوء مودته وقلة إنصافه

ويُظهر لنا الصابي في الإجابة أسلوب الأخذ والرد في المعاتبات بما لا يخرق الاحترامات إلا بالحجة ورقي الكلمة وقوة الدليل، يقول الصابي:

---

[351] الإبلة هو الإسم القديم لمدينة البصرة قبل أن تنشأ البصرة زمن الخليفة عمر بن الخطاب. كانت من أجمل أربع مناطق في الشرق الأوسط، ثم صارت بلدة من البصرة تبعد أربعة فراسخ عن مركزها.

[352] الخركاء: الخيمة

[353] عاده: زاره. والقصد أن الأنباري مرض فصارتزيارته مستحقة من قبل أبي إسحق أو سؤاله عنه.

[354] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي الكاتب فيما كتبه في المعاتبات وما كتبه في الشفاعات وبعض ما نفذ الى المتصرفين والنواحي. مخطوطة في جامعة لايدن

وصلت رقعتك، أطال الله بقاك، وفهمتها ووجدتها مفتتحة من تفضلك بمـا يوجب الشكر ويستعبد الحر، ويشاكل قديم الأحوال التي نشهد جميعا بتأكدها وتمكّن أسبابها، وأرغب خاصة إلى الله في إعاذتها، مما يشوبها عما يقدح فيها، فوطنت نفسي على أن أسلم لك يا مولاي في جوابها، أكثر من مرادك بها، تصديقا لقولك فيما إعتددت به من البرّ بي، واعتارافا لك بما ادعيته من الجفا عليّ، ثم لـم أتوسطها حتى رأيتك قد إرتجعت مـا أعطيت، وأبتززت ما كسوت، فوددت أن الله قد منحني الفهم الثاقب في صدرها، وسلبنيه في اعجازهـا، حتى تلتبس قوارصها عليّ، وتخفى لواذعها عني، فأكون قد قبلتها قبـول العيي، وشكرتها شكر الغبي. ولو اتفق ذلك لحصل لك، أيدك الله، شفاء صدرك، وأمن من تألم قلبي فيك، وكفيت أني أقف معك موقفا أكون فيه محجوجا، بلزوم الحجة لك، وخَصوما باتجاه الخصام عليك. وأما تطولك، أدام الله عزك، فيما تمسكت به من ودي، وسلطته من العتاب المستبقى له فيما بيني وبينك، فمازلت يا سيدي، أدام الله عزك، تعتمد ذلك في أداني أوليائك وأصاغر أودائك، الذين أعد نفسي فيهم، وإن زدتني بتفضلك عليهم. وأما اجتماع المتفرقات التي إقتضت النفث، فأسأل الله أن يبقى من بثها متفرقة وعاتب عليها مجتمعة، وأن يروقني الصبر عليه، كما حرمني الإنصاف منه. وأما قولك يا مولاي أن النظر في الدواوين العتق أداك إلى الإفاضة فيما لا مدخل له في حسبانك، ولا حسابك، وتعديد ما يهون بـه إن نضضت، ويـذهب عن قلبك إن استأنفت، فـإن كنت ترى أن لهذاالقول مدخلا في الجميل الذي يعتد بـه، قبلته منك تقليدا، أو أخذتـه عنك مسلما، وأوجبت شكرك ملتزما مفترضا. وإن كان له مدخل في غيره، كلفت نفسي مرارة طعمه، وجشمتها مشقة كظمه، وأغضيت عنه مع وعورة مسلكه، وأمسكت عن الجواب مع قرب مأخذه. وأما قولك، أيدك الله، أنني لو تحليت بالنجـوم، وكتبت بعطارد، وركبت منكب القوس، وطعنت بالسماك الرامح، ومدحني زهير بمدح هرم، ولا ينقصني سقوط شكرك، فضلا عن اطراد عتبك، فإن سلم هذا الفصل من الحمز[355] وخلص من الطعن والغمز، فقد صدق قائله صدّق الله فاه، وأطال بقاه، والله ما تسلم لي فضيلة مع ذمك، ولا تتصرف عني شائنـة مع إعراضك، فمن لي بالعين التي كنت مـرة إلي بها نفسي فداك تنظر، ولكنك، ياسيدي، تحسب لنفسك ولا تحاسبها، وتجادل عنها ولا تجادلها، وتطالب لها بما هو في الحقيقة فريضـة، وتسقط عنها ما

---

[355] الحمز: اللذع

عندك أنه نافلة، وتجـد مني معاطفة في طاعتك لينة، وبصيرة في موالاتك حسنة، وقد ألفت أن تقول لي ولا أقول لك، وأن تظلمني ولا أقتص منك، وروي أن فتىً من العرب فر عليه عمه في مماظة[356] فقال له الفتى: يا عم إنّ السبب الواصلك بي هو الواصلي بك، وإن عظيم حقك علي لا يذهب بصغير حقي عليك، ولا أقول إننا سواء، ولكن قد فرطت في الغلواء، أما تراني، يا سيدي، ونظراي من معارفك وأوليائك، الذين لم أقِلّ فيهـم عن نظير منهم، ولا انفردت بانحطاط الطبقة من بينهـم، وأنا في إعظامك إمامهم، وفي إجلالك أمامهم، أوجد لك في المعاملة والمخاطبة، والمكاتبـة والمراقبة، ما لا أقدر على أكثر منه، ولا فيهم من يقرب من غايتي فيه، وأنت تزيدهم علي فلا أنقبض، وتنقصني منهم فلا أمتعض، من حيث لا ترى لنفسك، أحياها الله، شريكا في هذا الاعتماد فيّ، ولا متبعا في المقصد لي، ولا تراني ياMولاي أظن بك العتب ظنا، فضلا عن أن أسمعه يقينا، فيستهلك ذاك نومي ويقض مضجعي، فكيف تتوهم علي ما جبهتني به من ذهابي عنك، وتركي الفكر فيك، ولما نشطت، يا سيدي، بأن تسترد من ودي ما حسبت أنه ذهب، وتسترجع من إخلاصي ما تخيلت أنه عزب، ألا أمطت الشوب عن جميل قولك، وحـذفت الغلط المعترض في لطيف برّك، وكان أقل مـا في ذلك أن يخفى منشأ الجفـا المذموم بيننا، فلا يقوم الشاهـد على مستعملـه منا. وهب الوشائج ذهبت، والأواصـر سقطت، والحرم أطرحت، والعصم قطعت، من أين لك عدوٌّ وأعـوذ بالله فضلا عن ولي بحمد الله تكاتبه بمثل رقعتك، فيقيمها ويجيبك ناصراً لحقه، أو مغطياً على باطله، مثل جوابي إياك عنها. أتُرى العدد كثير فهان عليك فقدُ الواحد، أم هو في القلة يقتضيك أن تحنوا عليه حنو الوالد. والله ما ظننت أنني أطيل جوابي لمّا إبتدأته، لكن بنات صـدري جاشت، وشعاب فكري سالت، ووجدت الذريعة مجيبةً إلى ما كنتُ أطلبها إليه باديا لا مريد شفاء قلب من مرض، بل شفاء ود من عرض، وأشهد الله أنني ما إنصرفت قط عن طاعة لك، يا مولاي، وموالاةٍ ومحبةٍ ومصافاة، وإنني لأمتحن نفسي في الملمات والشدائد حوشيت منها، وفي المسار لازلت معمور الفناء بها، لأنظر كيف ثباتها على القديـم، أم كيف تغيرها من الحادث، فأجدها من آفات النقص سليمةً، وعلى أحسن العهد مقيمة، وعن كل نكر نازعةً، وإلى كل عرف منازعة، وما مدحتها رضىً عنها، ولكن استعطافا لقلبٍ سيدها عليها. هـذا، يا سيدي، قولي في الأصول، فأمـا الفروع من تفضلك علي بالحضور، وتأخري

---

[356] المماظة: المخاصمة والنازعة بشكل متقابل

عنك الذي لم يكن لتقصيــر، فيستسقطه بيننا فراغنا من مَــرمّةِ ما قبلهُ، وإنتهاؤنا إلى آخر ما شرعنا فيه، وكتبت جوابي هذا وأنا في أثره على أن لا يقع بيننا مشافهة بشيء من متضمنه، فكفانا عاراً أن نتكاتب بمثله، فضلا عن أن نتواجه بإعادته والسلام. ولو إتسعت رقعتك يا مولاي للإجابة فيها لكانت عايدةً، لكنها رهن على جوابها الذي كرهت أن ينفرد عنها، وإن كان لا حاجة بنا مع التصافي إلى تخوفٍ فيمــا نتكاتب به من بقاية ولا تحرّز باستهلاكه، والحمد لله وهو حسبنا ونعم الوكيل" [357]

وكتب إلى أخيه أبي الفضل جابر بن هليل بن ابراهيم

وتظهر كتابته حسن الوصل وتقبل العتب والحرص على لم الشمل والاحترام الكبير للأخوة ولذكرى الأب ولقيمة العم مع النصيحة والتنبيه من أجل السلامة، يقول:

"كتابي، أطال الله بقاك، يوم الفطر، نســأل الله لأنفسنا نصيبا مما أنزل فيه من خيــر وبركة وأجر ومثوبة، وحالي سلامــةٌ ولله المنة، ووصل جوابك، أيــدك الله، عن كتابي كان إليك وفهمته. فأما ما ذكرته من أنك قد كاتبتني مهنئا بمولودنا، بارك الله فيه، فما ورد عليّ كتاب في هذا المعنى، بل قرأت كتابا لك إلى أبي الحسن الراسي، أعزه الله، تذكر فيه سرورك به وأنك ستكتب إلي بالتهنئة، وليس بيننا هذا الحساب فتحتاج إلى ما أوردته خاصة ونحن نتساوى في هذا، والله يهنئك نعمةُ، ويسرك في جميع أمورك بقدرته. وأما الفصل الذي أنفذته إلى عمي أدام الله عزه، فقد وقفت على شدة حرصك على وقوفي عليه، وعلى ما شفعته به من كتابك الذي سلكت فيه سبيلك واستسرفت ما خرجت إليه، ووجدتك قدجفوت عليّ، ولحقك في سائره ظلم لنا وغل علينا، ولــو رويت وتأملت لحذفت كثيرا مما كتبت به، وليس عندي مناقضة لك، ولا احتجاج عليك، ولا مزيدٌ على أنّ القول قولك، والفضل في سائر ما بيننا لك، وأن التقصير إن كان وقع مني فبغير عمد، ولا قصد، ولا ذهاب إلى ما ظننته ونسبتني إليه، من الخلائق والطرائق التي ما أعابني فيهــا أحدٌ قبلك. وجملة الأمر أنني لست أدعي أني وفيتُ الله فروضه، ولا الوالد، على فرط طاعتي، كانت له حقوقه، ولا أبرئ نفسي من السهــو في ذلك والزلل، لكن الله، تبارك إسمه، قد أنعم في الدنيا

---

[357] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي الكاتب فيما كتبه في المعاتبات وما كتبه في الشفاعات وبعض ما نفذ الى المتصرفين والنواحي. مخطوطة في جامعة لايدن

ووعد بالصفح في الآخرة. والشيخ[358] ، نظّر الله وجهه، فقد مضى على رضىً عني ما انقطع لفظه به، ودعاؤه لي من أجله، إلى أن أمسك على لسانه، وليس ذلك إلا للمسامحة لا للاستحقاق. ولو اتبعت، أيـــدك الله، طريق الخالـــق تعإلى ذكره، والوالد، نضّر الله وجهه، في الرفق بي، وترك الجفا في استعتابي، لكان ذلك أزين لك، وأولى بك، وما تجد، أيدك الله، عندي غير ما قدمت ذكره من الاعتراف لك، والإقرار بكل ما ألزمتنيـــه من حقوقك، والاجتهاد مستأنفا في إرضائك، وتجنب إسخاطك، وبالله ما أثـــر الفصل والكتب في نفسي أثراً يحتاج إلى إزالته، ولقد كان إحتجاجي لك على نفسي أكثر من إحتجاجي لها عليك، لكنني أختار لك، وأشير عليك، أن تسلك طريق اللطف مع غيري من الناس الذين لا يحتمل ما بينك وبينهم الدالة التي يحتملها ما بيني وبينك، فقد قيل:

ولست بمستبقٍ أخا لا تلمـهُ على شعثٍ أي الرجال المهـذّبُ

وقد فاوضت عمي أدام اللّه عزه جميعَ ما يحتاج إليه في هذا الأمر ولعله، أيده اللّه، يكتب به واللّه يطيل بقاك، ولا يعدمنيك، ولا يخليني منك، وهو حسبي ونعم الوكيل" [359]

فصل من كتاب إلى إبنه أبي سعيد سنان بن ابراهيم وهو جواب

ويظهر فيه أبو إسحق فوق بلاغته المبهرة طيب العتب مع الأهل وبخاصـــة إلى ابن عمه أبي الخطاب وولده أبي سعيد سنان، وفيه من التوجيه الذي يراعي الحرمة وحقوق الأبوة مـــا يستحق أن يقف المرء عنده مستجلي العبر ومقتفي الأثر في صيانة العهد وإدامة الود: " وقفت على ما كتبت به، أنا أفديك، عن أبي الخطاب أيده الله في أمر الجُربان[360] التي دخل فيها، وطال تعجبي من مقامه على الإحالة على عمي، أدام الله عزه ونَسبهِ، إلى اللجاج ووعده إياك بأن تكاتبني، ولعن الله عينا أصابته، فما أبعد هذا

---

[358] يقصد والده

[359] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي الكاتب فيما كتبه في المعاتبات وما كتبه في الشفاعات وبعض ما نفذ الى المتصرفين والنواحي. مخطوطة في حامعة لايدن

[360] الأزهري: الجَريبُ من الأرضِ مقدار معلومُ الذّراع والمِساحةِ، وهو عَشَرةُ أَقْفِزةٍ، كل قَفِيز منها عَشَرةُ أَعْشِراء، فالعَشِيرُ جُزءٌ من جُزْءٍ من الجَرِيبِ. وقيل: الجَرِيبُ من الأرض نصف الفِنْجانِ. ويقال: أَقْطَعَ الوالي فلاناً جَرِيباً من الأرض أي مَبْزَرَ جَرِيب، وهو مائة مكيلة معروفة، وكذلك أعطاه صاعاً من حَرّةِ الوادِي أي مَبْزَرَ صاعٍ، وأعطاه قَفِيزاً أي مَبْزَرَ قَفِيزٍ. قال: والجَرِيبُ مِكْيالٌ قَدْرُ أَربعةِ أَقْفِزةٍ. والجَرِيبُ: قَدْرُ ما يُزْرَعُ فيه من الأرض. قال ابن دريد: لا أَحْسَبُه عَرَبِيّاً؛ والجمعُ: أَجْرِبةٌ وجُرْبان (لسان العرب).

القول والفعل من سائر ما عهدته وألفته منه. أما لجاج[361] عمي أدام الله عزه، فما بيني وبينه في الأمر معاملة، فاقبل الإحالة عليه، ولو كانت لما خرج معي إلى اللجاج لأنني ما ماحكته قط، ولا خالفته منـــذ أعرف نفسي، ولا ذهبت له عن طاعة، ولا دخلت له في معصية، ولا عَني في وقت من الأوقات عاقا، ولا مقصرا في إكرامه وإعظامه، وزيادته على ما كنتُ عليه لوالدي رضى الله عنه، وأنا واثق منه مع هذه الأحوال بأنه لم يكن ليدخل فيما أكره، ولا ليُردني عن السؤال إذا سألت، ولا ينزلني منزلة ابن جامع الصيدلاني وبنت الحرث ونظرائهما في الخصومة، لأن الإنسان إنما يخاصم من يماضه ويعازه[362]، فأما من هو ولده، وغير خارج عن اللطف به، والرغبة إليه، فما موضع اللجاج في أمره، والإصرار على ضيمـــه، ولو إشتهيت ملكا من أملاكه القديمة، لأستنزلته عنها، واستوهبته إياها، كما يستوهب الإنسان أباه وعمـــه، ولما إستكفت أيضا من قبول ذلك هديةً بغير ثمن، أفتراني كنت أفعل هذا معه؟ فأسألك طريقةً في مخاطبتـــه، وأطرح نفسي عليه طرح المسترفـــد المستوهب، فيردني عما ألتمس، ويلاجني فيما أسأل، والله ما أظن به هذا أبدا، ولكن المعاملة إنمـــا هي بيني وبين مـــن خدعك يا أبا سعيد، فديتك، وحسّنَ لك مساعدته على الدخول في مساءاتي، والتعلق بما قد أفني عمري في الإرصاد له، والمراعاة لوقته، وترشيح الآمال في التمكن منه، وأقام نفســـه لديّ مقام المفسد المنغص لعيشي، ونام على عتبي نوم المستهين به، المطرح له، وأصـــر على عقوقي إصرار المستصغر له، ووزنني بالميزان الخفيف، وقـــومني بالثمن الطفيف، ورأى أن نيفا وعشرين جريبا أعوَد عليه مني، وأفضل في نفسه من خالصتي وودي، ولـــم يراقب فيّ حُرمةً يرعاها، ولا رحما يصلها، ولا يذكر مني يوما صالحا، ولا مقاما محمودا. ودع هذا كله جانبا، أي عذر لك وقد عوّلت عليه، وسلمّت إليه مكاني، واطمأننت إلى منابه عني وحفظه غيبي، ومطالعتـه وحراسته إياي، ودخولهِ معي في المعاضدة التي يتعاطاها الأهل بينهم، والمجاملة التي يعتقدها بعضهم لبعضهم، في أن تقطع مكاتبتي منذ شهرين، وتترك إجابتي حتى بوصول مهمات تابعتها و سَفتجةٍ[363] له أنفذتها، ومفاوضة انبسطت اليه فيها، وفي نيابةٍ لا يوفيني فيها حقاً، ولا يعطيني قيادا، ولا يتأمل ما عليه في قطع سببي، وخيانة عهدي، وإفساد معاشي، ودخولـــه متوسطا

---

[361] لَجَّ في الأمر: تمَادى عليه وأبى أن يَنصرِفَ عنه

[362] المَضُّ: الحُرْقةُ. مَضَّني الهَمُّ والحُزْنُ والقول يَمُضُّني مَضّاً ومَضيضاً وأَمَضَّني: أحْرَقَني وشقّ عليّ. ويعازه: يكون شديدا عليه

[363] السفتجة (كلمة فارسية) وتعني الكمبيالة أو السند للملكية أو الصك المحرر على وفق نمط معين ومتفق عليه

بين أقطاعي وملكي، وضماني ومجاوراتي، وبحيث أملي موقوف على ممر السنين عليه، وعلى التفسح فيه، والتوسع به لنفسي ولخلقٍ من ولْدي وولد ولْدي، وهو مع هذا لا ملك لـه في جوار ذلك، ولا بحيث يقرب منــه، والله العظيم يا بني، لقد كنت أظن أنني إذا متُّ وخلفني أبو الخطاب أيده الله لم أعَدُ في الموتى ببقائه، صيانةٍ لحريمي وذبا عنيّ، وحفظا لغيبي ورعاية لولدي، وإن الذي جرى منه في هذا الوقت، لو جرى من غيــره لما أعتدت لدفعه إلا هو، ولا اعتضدت في منعه إلا بــته، فياليت شعري كيف ذهب عنه وهو شيء يعلم أن الناس يكرهونه، وأن القوي يدفعه عن نفسه بقوته، والضعيف بمن يعينه وينصره، وليتني خاصة معه في أدون هاتين المنزلتين، وأحط من هاتين الطبقتين، لأنني لا أطاولــه بقوة، ولا أحاوله باستعانة، ولا أقف عنــــده إلا موقف السائل له، الراغب إليه، المؤثر له، الصابر عليـــه، ولا أضر به إلا بدّالة ما بيني وبينه، ولا ألجأ من خطابه إلا إلى المعاتبة له، وألا يرى، أيـــده الله، ما عليه الناس قبلنا في هذه الحال من ملامة مَن ظلم المودة ظلمه، وبسط عذر من تظلّم ظلامتي من مثل فعله، وقد علم أنه قد ملأ بفعله عيني قـــذىً، وحلقي شجـــاً، وصدري غصة. وبــأي عين يلقاني، وبأي لسان يفاوضني، وقــد جرحني جرحا لا يأسوه إلا هو، وأثـرً في نفسي أثراً لا يعفى عليـــه غيره، وأودعني مضضا لا تزيله الأيام، ولا تخلقه الأعوام، ولا يخرج مثله عن النفوس، إلا بالتلافي والإستدراك اللذين هو بهما خليق، وبفعلهما حقيق، إن شاء الله. وأما العذر الآن في القطيعة وحسم مادة المكاتبة، وقد علم أن عليه في حفظي فيما غبت عنه ومواصلتي بما أحتاج إليه، أمانةً تلزمه المراعاة لها بالحقوق بيننا، والمشاركة التي تجمعنا، ونترك أيضا هذا كله، أما تستحي مني أن تكدني هذا الكد وتحوجني إلى هــذا الموقف وتُلجئني إلى أن أتألف قلبه كما يتألف قلب البعيد، وأن أخاطبــه بهذا الخطاب الذي لا مدخل بيننــا، ونحن العصــا ولحاؤها، وسبيلك، أنا أفديك، أن تعرض هذا الفصل عليه وتعلمه أنني توقفت عن مكاتبته صيانة لنفسي، عما قد تكرر علي من إتصال كتبي وإهمال إجابتي، وإنتظار أن تلوح لي منه لوائح الأنباء، ويبدو الي بشائر الإرعواء، ونعود حينئذ كما كنا. وتقول له من بعد، يا سيد أخيـــه، ما شأنُك وأين يذهب بك، ومـــا فعلت محاسنك التي اعتددتهــــا زمنا لي، وخالصتك التي أعدُّها جنةً من زماني، ولم قد أتيت من مأمني، ودهيت من حيث ثقتي، وما هذا الشّح على هذه الجِربان الخسيسة، والسماحة مني التي ليست مثلها عنك، ولا قريبــة من ألف ضعف لها في نفسك، ولم لا تتبـــرع قبل التمادي، وترجع قبل التناهي، وتهديها إليّ هدية تحرس ما بيني وبينك من اللطخ، وتصونه معها من الشوب،

وتجعل ذلك منــةً لك في عنقي ويداً عندي أكافيك عنهما، وأجازيك عليهما، وتعود إلى معرفة حقي، وإزالــة هذه الروائع واللوائع من قلبي، فوالله ما أتهنئ عيشا منــذ أنكرتك، ولا أعرف غمضا منــذ استردتك، حتى أن الظنون تذهب بي كل مذهب، وأعود القهقري مفكرا فيما سلف من زماننا، وسبق من أيامنا، ولا أجد أني أتيت قبيحا ألوم نفسي، عليه واعتذر لي من الخروج معه إلى ما خرجتُ، ثم أتهمك مرةً بالإستحالة مع بعد داري عنك، وغيبة شخصي عن عينك، ومرة بأن الأعداء استهانوك، وأن الإنفــراد غيرك، فلا أزال من ذلك في وســاوس تغشاني، وهواجس تعروني، ثم أتذكر فضلك، وأرجــع إلى بصيرتي فيك، فأعلم أن ذلك محال، وأن ظن المشفق يصــــوره لي، ويقيمه في نفسي، وإن ظننت، أيدك الله، أنك قــد أوحشتني إيحاشا قد نفذ سهمه، واتسع خرقه، ورأيت معه أن تستمر فبئس الفكر فكرت، وشر الطريق سلكت، وحوشيت من الذهاب إلى هذا، بل ينبغي أن تعلم يا سيدي أنك إذا أطعتني وانثنيت إلى مرادي، فقد استحققت مني شكرا مستأنفا، ومحبة مستقبلة، وإنني أراك بعين من إشتراني ولم يبعني، وآثرني ولم يؤثر علي، ورغب فيّ ولم يرغب عني. وتصور، أدام الله عزك، بمكاني أبا العلا صاعد وأبا الحسن بن السكن، أدام الله عزهما، وأبا الحسن الجرجاني وأبا الحسن بن البهلول، أيدهما الله، أو من هو دونهم من أصدقائك حتى يسألك هــذا السؤال، ويدخل عليك من هذا البـاب، هل كان يسعك في سياستك لأمرك، وقيامك على مروءتـك، وحفظك لجاهك، ومحاماتك على جميـل ذكـرك، وحراستك ما بينك وبين إخوانك، أن تخالف محبتــهُ. أفترضى أن أكون عندك دون هذه الطبقات كلها، ولي عليها من الفضل حق اللحمة ووصائل أبي الحسن ثابت بن إبراهيم، أدام الله عزه، وأبي الحسين هليـل بن إبراهيم، رضى الله عنه، وأخويَّ[364]، أيدهما الله، وولدنا، أبقاهم الله، والأمهات والأخوال والخالات رعاهم الله؟ أعوذ بالله من أن تكون هذه الوشائج أوجبت قطعي فيما يوصل فيه القريب المنقطع السبب خاصة، وقــد علمت أنني لا أماحكك ولا أخاصمك، ولا أشكوك إلا إلى نفسك، ولا أستجيش عليك بغيرك، ولا أفارق الصبر ولو إلى مائة سنة، ولا أدعُ الوصية في الأعقــاب بمثل ذلك أبدا، حتى أظفر بمـوضع العرق الكريم الذي تنزع إليه، والأصل الزكي الذي تجتمع عليه، وحتى أجد منك ويجــد ولــدي من ولدك من يستحي وينثني ويرجع إلى الأجمل والأولى، وكأني بك، أيدك الله، وقد قلت إنني دخلت فيما أراد ابن دينار الوكيل أن

---

[364] يركن الى هذا التثبت والإقرار من أبي إسحق بأن له اخوين فقط.

يدخل فيه، فياليت شعـــري من أين لك أنني كنتُ أصبـــر لابن دينار على ذلك وألاّ يعلم أن (بينه)[365] وأنا أكرهه حتى ينزل لي وبينك، وأنا أسألك وأتعب هذا التعب الشديد معك في استنزالك فرقا كثيرا، وإنما اردتُ هذا لئلا أترك موضع شبهةٍ في الاحتجاج، وعلى أن هذا أمر لا يعول لي في مثله على الجدل، بل على حراسة الأحوال وانقياد اللحمة للحمة، والفرع للأصل والأخ لأخيه والوالد لأبيه، وإن سلكنا هذه السبيل فهي الأليق بنا وألا فليس غيرها، ولا أن يدل على ما قدمته من شكرك إن أجملت، أو الصبر عليك إن توقفت، عن ثقة أنك لا تقيم على ما يسخطني ولا ترضى ما يغضبني. فإن ورد أنـــا أفديك هذا كله عليـــه، أيده الله، وتنجّز لي الجواب بمـــا أعمل بحسبه، وأردد اليّ هذا الفصل، إن شاء الله".[366]

وكتب إلى إبن عمه أبي الخطاب المفضّل بن ثابت الصابي

وتظهر المخاطبة غاية تأثر الصابي من أبن عمه الذي لم يسعفه فيما صارت تغالبه صروف الدنيا في عيشه وحاله، وتكشف المخاطبـــة أوضاع الصابي المؤلمة. ويبدو أن الرسالة قـــد كتبت بعد خروج الصابي من السجن حيث كانت حالته على أسوأ ما يكون. وقـــد بلغ الصابي في المخاطبة مبلغه الرصين في البلاغة والعتب، يقول:

" والله يا سيـــدي، أطال الله بقاك، لو لم تضع رقاعي من يدك حتى تجيب عنهـــا، ثم لا تكون أنت المبتدئ في المكاتبـــة والمراعاة، والمواساة واستعلام الخبر والوطر، وبذل القدرة والممكن، وعرض الجاه والسعي، لما كنت في فسحة من عـــذر، ولا مؤثرا في إيجاب حق، فكيف وأنت بمنزلة الحالف الذي يخاف الحنث، ألا تجيبُني عن رقعة، ولا تطالعني بتهمة، ولا تتذكرني عن وحشة، ولا تترثى لي من ضغطة وكربة، فإن كان هذا شيئا تقودك إليه سلوةٌ عني، وجفوةٌ لي، فما استحقهما منك، ولا أتيت ما يقتضي كونهما لي عندك، وإن كان عن توانٍ تذهب فيه عن سجية وخليقة، فما أحوج محاسنك إلى أن تُهذّبهـــا وتزحزح هذه القذاة عن جَوازِها، وأنا أترك الإغـــراق في هذا القول لجهات منها كراهيةُ الغلط في إستعتابك، ومنها أن يظن بي من لا يعرف المتقدم من أمثالـه أنني وقفت وقوف المكتفي، وأمسكت إمساك المجتري، فتحسن القصة في

---

[365] هكذا وردت في أصل النص ولكن بدون نقاط

[366] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي الكاتب فيما كتبه في المعاتبات وما كتبه في الشفاعات وبعض ما نفذ الى المتصرفين والنواحي. مخطوطة في جامعة لايدن

عينه، ومنها أن تتصور أنت، ادام الله عزك، أنه إقتصادٌ من يرى أن الإطناب لا ينفعه، فيكون ذلك أحث لك على التلاقي، وأنهى عن التجافي، وما تـــراني، جعلني الله فداك، وأملاكي مأخوذة وطُعمي مجذوذة، ومنافعي محسومة، ومضاري معتمدة، والألسن بما أكره مطلقة، وعما أحبُّ معتقلة، وزادي غيـــر مبلغ، ومسكتي[367] غير آتيةٍ، وحالي مضمحلة، وعزيمتي مترجحة، وأعلام الصواب عليّ دارسة، وأبوابها دوني مغلقة، ومناهجه كيف طلبتها وتحريتها طامسة مشتبهة، والمُحسن المجمل من كان مثلك لا يقول هُجرا، ولا يسعف برأي يرشد، ولا سعى بعضدٍ، ولا يكون منه ألا الجواب الواحد بعد الأيام المتطاولة عن الرقاع الكثيرة، ولا يتعلق عليه ولا منـــه لسعيه من يأس مريح، ولا من اجتهـــاد صحيح، وإذا كان أحنى الناس علي هذا نعتـــه وأغلظهم ذلك وصفه، فهل أحد بينهما من أتخذه معوّلاً، وأسميه معقلا، وهل ها هنا إلاّ رفع الطمع عن المخلوقين قاطبة، وصرف الأمل إلى من لا تحجب عنه الظلامة، ولا تتـأخر منـه الإدالة، وكذاك فعل، وأعوذ بالله أن يكون لي عنه معدل. إلا أنك، أيدك الله، إن نشطت لأن تجيبني عن تلك الرقعة السابقـة، وهذه الشافعة، وتطلعني على ما لا أجـده عند غيرك من حقي، وحـالٍ وإيناسٍ ورشدٍ لي، وإتساق مصلحة تعـود علي، ومحض رأي يـؤدي إلى راحتي، وانحسار النحوس عني، وانكشاف همومي وغمومي، أتيت في ذلك ما أنت أهله، وإلا فإن نقصان الاهتزاز بهذه الرقعة يفضي بي إلى النجح ما لي فيه راحةٌ، وعليك قباحةٌ، وأعيذك بالله من أن لا تختار حسن الأجمل، والأشبه بك والأشكل، والسلام" [368]

ومن رسالة كتبها إلى وزير تتضمن عتابا منسوجا بالإستعطاف

محبتي يا سيدي بما التاث علي من ودك، وتغير من جميل رأيك، أضعاف المحنة في الحال، ووالله العظيم ما أزالني ما جرى عن عهـــد المودة والمحافظة، والبصيرة والثقـــة، لأن بيننا أشياء متأكدة منذ ثلاثين سنة، وإن بطل مثلها، والعياذ بالله تعإلى، فعلى أي شيء تعـــول فيما يجتمعون عليه ويرجعون إليه، ...وأقول مع هذا أنني لست ممن يصلحك فساد حاله، ولا يضرك استقامتها، ولا أتصرف فيما يصلح لك التصرف

---

[367] السُكْة، بالضم:ما أَسْكِتَ به صبي أو غيره. وقال اللحياني:ما له سِكْة لِعيالِه ومُكْتة أي ما يُطْعِمُهم فيُسْكِتُهم به. لسان العرب

[368] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي الكاتب فيما كتبه في المعاتبات وما كتبه في الشفاعات وبعض ما نفذ الى المتصرفين والنواحي. مخطوطة في جامعة لايدن

فيه ، ولو صلح لأفــرجت لك عنه إفراج من يؤثرك ولا يستأثر عليك،.... وما أنا بما أنا فيه من ثقل الظهر، وطول الذيل، وكثرة العيال، والولد وولد الولد، وإلحاح الزمـــان عليّ بالشدائد، وذهاب ما كان بـــدي لهذا العدد الجم من الوقوف والمعايش وتَستُّري إياهم بالستر الرقيق من التجمل، خفياً عنك ولا عن أحد، والإجهاز على مثلي ممكن سهل، ولكنه قبيح لا يشبهك وغيره أولى بك، وأليق بعادتك، وهوذا تراني في خلال ما يجري متمسكا بحبلك ضنينا بمـــودتك، صابرا على ما امتحنني به الزمان فيك، صبر المستصلح لك لا المتعدي عنك، وإنني منتظر أن تسكن فورة سوء الظن منك، وتستقر الشبهة المعترضة لك، فترجع إلى ما توجبه ديانتك ومروءتـــك، من غير أن أكون عدلت عن مكاتبتك، ولا تجاوزت الرغبة إليك، ولا داخلت بيني وبينك من عسى أن تكره مخاطبته، ولا قابلت النبوة منك بمعاودة توغر صدرك، ولا بالالتجــــاء إلى غيرك، ولا عدلت إلى التلطيف الذي مـا يدعوني إليه إلا الإعظام لقـــدرك، والرغبة في الإعتضاد بك، والرجاء لأن يثبت في يدي ما يخرج عنها منك، فتأمل أيدك الله مسؤولا غير مأمور ما كتبت به إليك، وانزع شيطانا نزع لك، واحفظني إذا لم أضيعك، وأقبل علي إذا لم أنصرف عنك،... وأنا أتقـدم الناس في المعرفة بفضلك، والظن بك، للمرزوقين منـــك، والحسد للحاملين في ذمامك،... وأن تجعل ثمـرة هذه الرقعة مكرمة تتخذها عندي ومنةً أطوقها وأحدوثة حسنة تُنشر لك ولي، واعلم أن الله غير معلّمٍ أن يفضّلك بذلك، ويـــؤنس القلوب بك ويجلب المحامد لك، ويقر عيـــون أوليائك وإخوانك فيك، وأن ردك منسوبٌ إلى القسوة التي نزهك الله عنها، وباعدك منها، فليس يقول القائلون إذا أحسنت وأجملت أنك وليت عن هزيمـــة، بل رجعت إلى سجية كريمة، وكيف يقـــال ذلك وليس بإزائك خصم منابذ، ولا ضد مباين، بل سائل طالب، ومستصلح راغب،... فارجع رجوع مثلك، واعمل ما هو الأولى بك، ولا تطرح صديقك، ومن هو حاصل في يدك، ولا تقم في أمره وأمور الجماعة المتصلين به على ما يؤثمُك، إن شاء الله" [369]

وكتب إلى أبي الحسين محمد بن أحمد الجرجاني

لو كنت يا سيدي ممن يعرف منه سوء العهد، والتغير مع البعد، لاغتنمت منك الصفو، وأخذت العفو، وضربت صفحا عما يعترضها وطويت كشحا ما يشوبهما ولا

[369] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي الكاتب فيما كتبه في المعاتبات وما كتبه في الشفاعات وبعض ما نفذ الى المتصرفين والنواحي. مخطوطة في جامعة لايدن

سيما وتلك عادةً قد رضتُ نفسي عليها، وسننت ما بيني وبين أكثر الإخوان بها، إذ كانت المسامحة أنجع فيهم وأوصل لحبالهم، لكنك المهذب الذي لا أشرب في مودته على القذى، ولا أغضى منه على الأذى، وقد ودّعتك يا مــولاي قبل إنحداري مكاتبا، إذ لــم أمكن من توديعك مشافها، وأبثثتك من أمري ما تأخر جوابه، مع تيقني وصوله، ووالله لو أجبت، ثم أمسكت بعد الإجابة عن الصلة، هذا الإمساك الطويل، لما وسعنا جميعا إلا الاصطلاء على العقوق، فنزل البلاء ومن فيه، والتعاتب عليه، وبلغني في هذا الوقت أنــك وجدت رمـدا في عينك، أرمد الله عنك عين الزمان وطرفها وصدها عن محاسنك وصدفها، وأقلني ذلك وأهمني، وبلغ كل مبلغ مني، وأخلصت دعاء الله سبحانه بأن يتوحدك بالكفاية والوقاية، ويتولاك بالحراسة والرعاية، وأن يجعل العافية لجسمك شعارا، ويجعله لها قرارا، ورأيت القطيعــة أقبح ما ساعدتك عليه، والخلاف فيها أحسن ما عاملناك به، فكتبتُ هذا الكتاب عايذا مما اتصل بي، ومستعيدا لك إلى البر الذي كنت عودتني ، ومعاتبا على أن أهملت مني على بعد الدار من الرمد الذي لا يعاد منه على قربها، وهو محتاج إلى العيادة من علة حاله، وجفا سفره، وتنكر زمانه، وسوء سلطانه. فإن رأيت يا سيدي، أيدك الله، أن تبشرني بما وهب الله من إقالتك، وتمم من صحتك، لأسكن إلى زوال المحذور عنك، وأشركك في النعمة اللابسة لك، وتعرفني ما تعوّل عليه فيما تقدم ذكره من عذر يصحبه الوضوع، أو إقرار يقترن به النزوع، وتكلفني مهماتك وأمرك ونهيك، وتنبسط اليّ في كل وطر، إن شاء الله".[370]

وكتب إلى أبي بكر وأبي عثمان محمد وسعيد ابني هاشم الموصليين الشاعرين المعروفين بالخالديين وهما بالموصل[371]

" لو كان لكما أيدكما الله خصم يجتمع له شعر البحتـري، وغناء إبراهيم بن المهدي، وكتابة جعفر بن يحيى البرمكي، ومذاكرة الأصمعي، وظرف عريب، وطيب عشرة بن حمدون، وحسن وجــه الأمين، وصلته إلي أوكد حرمــة، وضمته إلي أقرب عصمة، لبتتُ حبائله، وقطعت قراينه، وانعكست محاسنه عندي مقابح، وفضائله في نفسي معايب، وما كنت إلا حرياً له وإن سالمني نائيا عنه وإن بَرّني، هاجرا له وإن

---

370 الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي الكاتب فيما كتبه في المعاتبات وما كتبه في الشفاعات وبعض ما نفذ الى المتصرفين والنواحي. مخطوطة في جامعة لايدن

371 شاعران مجيدان كان يحسب الحساب لسطوة لسانهما ويتجنب شعرهما في الهجاء من يتعرض لهما

وصلني، فكيف ظننتمــا بي مساعدة سري الشاعر[372] على عداوتكما، والرضا بطعنه عليكما، ولِمَ وضعتما عهدي بهذه المنزلــة من الضعف، ومودتي في هذه الرتبة من الوهن، ومتى رأيتم أني أرعى سمعاً في ذم صديقي ومساءتــه، وأضرب صفحاً عن حراسته وخلافته، وهل عرفتما من طبعي على طول الصحبـــة، واختبارتما من مذهبي على تقادم الألفة، ما يقربني عندكما من ظِنــةٍ وهجنةٍ ويدنيني إلى وهاء[373] ذمام وعقد، وألا دفعتما ذلك لما قيل لكما وَكِذبتُه موديـــة اليكما. أما والله لو تواتر الي عنكما قبيح يرتفع فيه الشك، ويقع بتناصره العلم، لخرجت في قبوله عن الإجماع، ورضيت في دفعـــه بالانفراد، ولما مكنتُ من ثقتي بكما تهمةً، ولا سلكت على نفسي فيكما شبهةً، وقد كتبت على عجلة لا أقدر معها على أكثر من هذه الجملة التي هذا الكتاب مشتمل عليها، وناضح عني بها، وإذا اجتمعنا بإذن الله بلغت من عتابكما ما في نفسي، وشفيت من تأنيبكما صدري بإذن الله. نعم، أيدكما الله، تأدى إليّ عن (سري) كلامه فيكما، وطعنه عليكما، وأنــا إذ ذاك لا أجمع بين إسمــه وشخصه، فكنت أتلقى الحكاية عنه بالرد، وألقم رواتها بحجر، وأعتدهما جميعا من ضرائر الحسناء، ثم سأل استماع شعر مدحني به، فلم أجب إلى ذلك إلا بعد أن شرطت ألا يقرع سمعي منــه ذكرٌ لكما بسوء، ولا إشارة فيكما إلى غمــز، فبدأ من نفســه ذلك، وتجاوزه إلى طلب الصلح، وجنح إلى السلم، ونخـــع[374] بطاعتي في الإمساك عن كل سالف، والإغمــاض عن كل ماضٍ، وامتثال أمـــري في الانتقال عن عداوتكما إلى مودتكما، والانصـراف عن مخالفتكما إلى موافقتكما. ثم حضر فقال مثل الرسالة (الأولة)[375]، وأحضرني قطعة من شعره فيها أشعار لكما، وأخرجت ما عندي من نسخها، وجعلت أناظــره ويناظرني، وأرد عليه ويدعي عندي، فلما طال ذلك عرفته أنه قد نقض الشرط بيننا، وفسخ الأصل الـــذي عليه إجتمعنا، فعاد إلى الإمساك، فوقف

---

[372] أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي الرفاء الموصلي شاعر مشهور، كان في صباه يرفو ويطرز (يعمل خياطا) في دكان بالموصل ولذا سمي بالرفاء أي الخياط، وهو مع ذلك يتولع بالأدب وينظم الشعر، ولم يزل حتى جاد شعره ومهر فيه، وقصد سيف الدولة الحمداني وأقام عنده مدة، ثم إنتقل الى بغداد ومدح الوزير المهلبي، وانتشر شعره وراج. وكانت بينه وبين الخالديين معاداة فادعى عليهما سرقة شعره وشعر غيره.

[373] لغةً: هاء وهاء تعني خُذ وأعط قال الجبي في شرح غريب ألفاظ المدونة : هاء وهاء أي خذ وأعط يداً بيد. وقال الخطابي هاء وهاء معناه التقابض.

[374] نخع: أقــرَّ

[375] هكذا وردت في أصل المخطوطة وأحسبها (الأولى)

على إنتظار الاجتماع، وظننت أنني قد عملت عملا يحمدانه في استصلاح فاسد عليكما، وردَّ شاذ عنكما اليكما، وأحضرني عدة قصائـد إلى الوزير، أطال الله بقـــاه، قد كان دفع نسخا لها إلى جماعـــة من حاشيتــه ،أيده الله، ليوصلوها اليه، فتخوفت أن تصل من جهة غيري، ويعاد عليه من هــذا الخوض ما يتحامل فيه عليكما، ويخالف لإيثاري فيكما، فعرضت بعض القصائد. وذكر له بعض الحاضرين ما بينه وبينكما من هذه المشاجرة، فقال، أدام الله عزه، بهذا اللفظ: قد كثر في الشعراء من يسمو إلى منازعتهما ويتمرس مجاذبتهما ولم يصل هو إليه ولا عاد له ذكر عليه. هذا، أيدكما الله، شرح ما جرى، والله ما حذفت ما استحييتكما فيه، ولازدت ما أصانعكما به، فإن كان مقبولا فقد إتفقنا، وإن كان مردودا فالموافقة توضح الشبهة، والدلالة تزيح العلة، والاجتماع عن قريب يأتي على ذلك كله، وإن إعتذرتما إليّ من سرعتكما إلى الريب، وعجلتكما إلى الشك، سامحتكما وقبلت عذركما إن شاء الله".[376]

وكتب إلى أبي دلف محمد بن المظفر الأنباري الكاتب

يا سيدي أطال الله بقاك، أشكاً بعد يقين، وشبهة بعد بصيرة، وتهمة بعد ثقة، واسترابة بعد استنامـة، أعيذك بالله، وأستعيذ به من تَطرُّق ذلك علينا، أو دخول شيء منه بيننـــا، تأدى إلي عتبك، أدام الله عـزك، على من كَذِبٍ رُقيَّ إليك عني، يخالف ما نرجع إليـه ونجتمع قديما وحديثا عليه، وما أجريت عادتي به فيمن يلزمني حقه لزوم حقك، ولا أعترف بفضله إعترافي بفضلك، فأقلقني ذلك قلقاً شديـدا، ووجدته من الصحة والحقيقـة بعيدا، واعتددته من بقايا تراث الزمان عندي، وآثاره السيئة لدي، وأحمد الله وأشكره، وأستقبله وأستغفره، قد عرفتني يا سيدي، أيدك الله، معرفـــة البلوى والإختبـــار، على مرور الليالي والأيـــام الطوال، فأحمدتني جذعا، واستحملتني غرا، وأنا إذ ذاك في عنفوان شبيبة تخاف سقطاتها وهفواتها، ولا تؤمن نزواتها وجمحاتها، فكيف تذمني أو تشك فيّ وقـــد افتررت عن سن القارح، وارتفعت عن مقالة القادح، وعركتني النوايب عـــرك الأديم، وتجاوزت بي حدَّ التقوم إلى التحطيم، وبالله أحلف أني ما أزال أعض على الشكائم، وأحتمل العظائم من طوائف كلمتني، وعصائب ثلمتني، واستحقت الغضب والثلب مني، وأعلقتني فيهما لو استجزتهما

[376] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي الكاتب فيما كتبه في المعاتبات وما كتبه في الشفاعات وبعض ما نفذ الى المتصرفين والنواحي. مخطوطة في جامعة لايدن

بالواضح من عذري لزوما مني للمسكة، وتخلقا بالحنكة، وكظما على الحّرة وتصونا عن الهجنة، فكنت أتعدى إلى شيخ صناعتي وواحد عصري، وعديل نفسي، وآكل لحمه وهو لحمي، وأرميه من حيث يصيبني سهمي، وأطلق من سوء اللفظ فيه، ما لا تقذي به عينٌ قبل عيني، ولا تبـدأ معرته الأبي. أنت، أدام الله عزك، تعلـم أن ذلك بعيـد من الصحة، شاهد على ذاته بالفساد والاستحالة، وتفسده مع ذلك أدلة تحيط به من خارجـه كثيرة ظاهرة، أقربها وأوضحها أنني كالغائب منذ ثماني سنين، أربع منهن أيام محمد بن بقيّة التي كنت فيها أما مستترا أو محبوسا، وأربع أخر إعتقلت فيها إعتقالا، لبست فيه شرفا كان مخزونا فظهر، ومطويا فنشـر، بحمد الله ومَنِّه، وإنما إتصلت وترددت منذ عشرون يوما وحكم الغيبة واحد في جميع تلك السنين، ووالله ما لاقيت فيها أحدا من أهل الثقة، ولا من أهل الضنة، إلا إطلاعا من خلل العثرات الممضة، والنكبات المرمضة، على شغل من الخاطر، وتقاسم من اللب، وقصور من اللفظ، وكلالٍ من اللحظ، فليت شعري متى إجتمعت مع الحاكي لك ما حكاه، وأي مجلس ضمنا، وانبساط شملنا، حتى حللتُ حبوة التحفظ، وخلعتُ منه ربقة التجمل، وفاوضتـه الطعن على من محاسنـه محاسني ومساوئه لو كانت، وقد نزهه الله عنها مساوئ ما يومئ يا سيدي بواحـد من أكاذيب تلفق، وأباطيل تزخرف وتنمق، في تشعيث نيات سادتي وأخواني، أدام عزهم عليّ، وتطريق الصفاء بينهم وبيني، وسيجمعنا عما قريب مقام فصل الحكومات، ويوم النظر في الظلامات، وما أحل هذا المتزيد علي عندك، والساعي لإعلال ما صحّ لي من ودك، جازاه الله بما يستحقه، فلقد عقّك وعقني وعق نفسه. أما عقوقي فبأن روى عني ما لم يسمعه مني، ولا من تائب له إلي، وأما عقوقه نفسه، فبما إحتقبه من الإثم وتزوده من الوزر والله حسيب لنا وله، ووليٌّ بنا وبه، وهو حسبنا ونعم الوكيل. إن رأيت يا سيدي، أدام الله عزك، أن تعرفني خبرك، أطابه الله، في الجواب عن هذه الرقعة إلى أن أتمكـن مـن معرفته بالزيـارة والمشاهدة، وهـل زال ما كان خامـرك، بعد نظرك فيما كتبتُ بـه إليك، فانني إلى جميع ذلك متطلع، فعلت إن شاء الله" [377]

---

[377] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي الكاتب فيما كتبه في المعاتبات وما كتبه في الشفاعات وبعض ما نفذ الى المتصرفين والنواحي. مخطوطة في جامعة لايدن

وكتب إلى سعيد بهرام بن أردشير المجوسي[378]

هُمُ كتموني سيرهم يوم أزمعوا وقالـوا: أتعدنا للرواح وبكروا!

هذه قصتي مع سيدي أيده الله قـد جعلتها إليه رفيعة المتظلم، وشكوتـه فيها شكوى المتألم، والشاهد على السرائر، البالي البواطن والضمائر، يعلم ما أقاسيه من التشوق إليه، والتلهف عليه، وأن ذنوب الزمان عندي التي لا أغتفرها، ولا أملك الانتصار فيها بفرقتـه بيننا أسر ما كنت برؤيته، وأحوج ما كنت إلى رأيه ومعونته، ولا أعرف الذي دعاه أيـده الله إلى أن طوى عني خبره، وستر دوني حرمه، ومنعني من فائدة التزود منه، وحرمني بلغه التشييع له، ولو كنت أعلم منه القسوة، لحملت هذا الفعل عليها، ونسبته اليها، لكنه بعيد والله عن كل غلط وجفاء حريٌّ بكل ودٍ وصفاء، وهبـه لا أعدمنيه الله لم يحفل بمـا لحقني من الممض، ونالني من المرمض، فكيف صبّر نفسه عن توديعي، ولم كلّفها مرارة الإعراض عني، وهي النفس الشريفة التي مازلتُ أعهدها صَبَّةُ اليّ، مقبلةٌ علي، معتدة بي من أحبابها، حاسبة لي في أواديها، اللهم إلا أن يكون أشفق من شدة الوجد والأسف، وما يعتورني من الكمد والكلف، فيفسد الطريق إلى تسليتي بأن أودعني دُنيـا تغلظ قلبي، وتمسك علي لبي، وتحميني من التهافت في الجزع، والتهالك في الهلع، فهذا لعمري مذهب يذهب إليه. وقد كنت نظمت هذا المعنى في أبيات لي غزلية قلتها في أيام الحداثة:

ولما إلتقينا للوداع أريتُهـا عـزاءً وقـد عـزَّت علـيَّ مطـالبُـه
حِذاراً عليهـا أن تـرى جزعي لها فيصحبُها منه الذي أنا صاحبه
فمرَّت وقـد غلّظتُ رِقّـة قلبِهـا يُغالبُهـا شوقي وطـوراً تُغالبـه
فما بَرحتُ حتى اضمحل تجلدي وبَرّحَ بي من ماء عيني ساكبـه

هيهات أدام الله عز سيدي ما قلبي قلبٌ يؤثر ذلك فيه، ولا يطور السلوُّ بنواحيه، بل هـو في الشغف به، واللهج بذكره، كما قال حبيب بن أوس الطائي للحسن بن وهب:

كلُّ شِعـب كنتمُ بـه أل وهـبٍ فهو شِعبي وشِعبُ كلِ أديبِ
إن قلبي لكم لكالكبد الحرّى وقلبي لغيركما كالقلـوبِ

وأنا أقف من هذا الفصل حيث إنتهيت إلى أن يأتيني جوابه بالعذر، فإن كان معلولاً رددته، فلست أطيق أن يجتمع عليّ الشوق والوحشـة، ومحمل المغالطة في الحجـة. وأتتني

---

[378] وهو من الملازمين لعضد الدولة وكان الصابي قد طلب منه أن يأخذ له الأمان من عضد الدولة حين دخل الى واسط وكان يومها مستترا حتى وصله الأمان من عضد الدولة. الصابي.

رسالة سيدي الشيخ، أدام الله عزه، يلتمس الجزء من رسائلي المنسوخ له وعرفت أنه أمر بابتياعه وانفاذه على أثره، وقد أنفذته وتقدمت بنسخ ما يتلوه، وأضفت في العاجل إليه ثلاث كراريس مفردات في معانيها، ومن قصد حضرة سيدنا الصاحب الجليل أطال الله بقاءه فقد أثرى من البلاغة، وأخذ بمجامع كل فضيلة، وليس مولاي، أيده الله، في جملة هذا الجزء اليها كمن جلب إلى هجر تمراً بل حشفا، وحقا أقول أنه كوز ماء أجاج يجهز إلى بحر فرات عجاج، وعلى أنني في هذا التسليم له كمن دلٌ على فضل نفسه، وبيّن عن جودةِ تمييزه وحسه، فإن إتفق أن يعرضه سيدي، أدام الله عزه، فليقدّم أمامه إعتذاراً وتمهيدا، وليعلم، أدام الله عزه، وحرس مدته، وثبّت وطأته، وأدام دولته، أني عبده في الخدمة، وتلميذه وتخريجه في الصناعة، وأن الحسنة مني إن ظهرت فهي له محسوبة وإليه منسوبة، ويسأله لازال مسؤولا أن ينبه على ما يرضاه ولا يخفيه، ويستر على ما يأباه ولا يبديه، إن شاء الله. ولي عند مولاي، أدام الله عزه، نسختان قلبي والله معلقٌ معذبٌ إلى أن تعود إليّ ، وقد وعدني بهما وعدا بعد وعد وأعيذه بالله من أن يؤخرهما عني، أو أن يخل بشروط الأمانة في ردهما علي، وهو، أطال الله بقاءه، ولي ما يراه في ذلك، وفي إجابتي عن هذا الكتاب، بوصوله ووصول من الجُزء والكراريس، وبما أسكن إليه من أخباره، وأتصرف عليه من أمره ونهيه، إن شاء الله. وإذا اجتمع بسيدي الشيخ أبي نصر، أدام الله عزه، وتفضل وعرفه شدة شوقي واستيحاشي له ومواصلتي الدعاء بأن يسلمه الله ويحفظه، ويكلأه ويلحظه، ويرده فائزا غانما، موفورا مسرورا، ويجمع شملنا في ظل مولانا الملك السيد الأجل المنصور ولي النعم عضد الدولة وتاج الملة، ويطيل بقاءه ويكبت أعداءه، ويجعلنا ممن يُكنّه ذراه، ويصونه حماه، ويشمله فضله، ويكنفه إقباله، بمنه وطوله، وقدرته وحوله، وهو حسبنا ونعم الوكيل" [379]

---

[379] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي الكاتب فيما كتبه في المعاتبات وما كتبه في الشفاعات وبعض ما نفذ الى المتصرفين والنواحي. مخطوطة في جامعة لايدن

مما كتب في الشفاعات[380]

جاء في لسان العرب: " شَفَع لي يَشْفَعُ شَفاعةً وتَشَفَّعَ: طَلَب. والشَّفِيعُ: الشَّافِعُ، والجمع شُفَعاء، واسْتَشْفَعَ بفُلان على فلان وتَشَفَّع له إِليه فشَفَّعَه فيه. وقال الفارسيّ: اسْتَشْفَعَه طلَب منه الشَّفاعةَ أَي قال له كُنْ لي شافِعاً. وفي التنزيل: من يَشْفَعْ شَفاعةً حسَنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كِفْلٌ منها. وقرأَ أَبو الهيثم: من يَشْفَعُ شَفاعةً حسَنة أَي يَزْدادُ عملاً إِلى عَمَل. وروي عن المبرد وثعلب أَنهما قالا في قوله تعالى: مَنْ ذا الذي يَشْفَعُ عنده إِلاّ بإِذنه، قالا: الشفاعة الدُّعاءُ ههنا. والشَّفاعةُ: كلام الشَّفِيعِ لِلْمَلِكِ في حاجة يسأَلُها لغيره. وشَفَعَ إِليه: في معنى طَلَبَ إِليه. والشَّافِعُ: الطالب لغيره يَتَشَفَّعُ به إِلى المطلوب. يقال: تَشَفَّعْتُ بفلان إِلى فلان فَشَفَّعَني فيه، واسم الطالب شَفِيعٌ، قال الأَعشى:

واسْتَشْفَعَتْ مَنْ سَراةِ الحَيِّ ذا ثِقةٍ   فَقَدْ عَصاها أَبُوها والذي شَفَعا

واسْتَشْفَعْتُه إِلى فلان أَي سأَلته أَن يَشْفَعَ لي إِليه، وتَشَفَّعْتُ إِليه في فلان فشَفَّعَني فيه تَشْفيعاً، قال حاتم يخاطب النعمان:

فَكَكْتَ عَدِيّاً كلَّها من إِسارِها   فَأَفْضِلْ وشَفِّعْني بقَيْسِ بن جَحْدَرِ

وفي حديث الحُدُود: إِذا بَلَغَ الحَدُّ السلطانَ فَلَعَنَ اللّهُ الشَّافِعَ والمُشَفَّعَ. وقد تكرر ذكر الشَّفاعةِ في الحديث فيما يتَعَلَّق بأُمُور الدنيا والآخرة، وهي السُّؤَالُ في التَّجاوُزِ عن الذنوب والجرائِم. والمُشَفِّعُ: الذي يَقْبَل الشفاعة، والمُشَفَّعُ: الذي تُقْبَلُ شَفاعَتُه. والشُّفْعَةُ والشُّفُعَةُ في الدَّارِ والأَرضِ: القَضاء بها لصاحِبها.[381]

وسئل أَبو العباس عن اشتِقاقِ الشُّفْعةِ في اللغة فقال: الشُّفْعَةُ الزِّيادةُ وهو أَنْ يُشَفِّعَك فيما تَطْلُب حتى تَضُمَّه إِلى ما عندك فتَزِيدَه وتَشْفَعَه بها أَي أَن تزيده بها أَي أَنه

---

[380] لقد ورد في المخطوط المشار إليه في المصدر السابق 57 كتابا في الشفاعات إقتصرنا إيراد عدد منها لطولها وكثرة عدد صفحاتها وإتفاق أغراضها في باب محدد وتكاد لغتها تتفق في المعنى والى حد ما في المبنى، وربما يتاح تحقيق المخطوط عرض كامل الرسائل في هذا الباب وفي غيره.

[381] ابن منظور، لسان العرب

كان وتراً واحداً فَضَمَّ إليه ما زاده وشَفَعَـه به. وقال القتيبي في تفسيـر الشُّفْعة: كان الرجل في الجاهلية إذا أراد بَيْعَ منزلٍ أتاه رجل فشَفَع إليه فيما باعَ فَشَفَّعَهُ وجَعَلَه أولى بالمَبيعِ ممن بَعُدَ سَبَبُه، فسميت شُفْعَةً وسُمِّي طالبهـا شَفِيعاً. وفي الحديث: الشُّفْعَـةُ. في كُلِّ ما يُقْسَمُ، الشفعة في الملك معروفة وهي مشتقة من الزيادة لأن الشفِيع يضم المبيع إلى ملكه فَيَشْفَعُه به كأنه كان واحداً وتراً فصار زوجاً شفعاً."

أما أبو إسحق الصابي فيكتب في الشفاعة شارحا وموضحا ومقيما ومبينا حقها وحقوقها بين المستشفع الشافع والمشفوع فيقول: " الشفاعة، أدام الله عزك، حالٌ تجمـع المستشفع والشافع والمشفوع إليه وعلى كل منهم أن يجري إلى غاية إذا وصل إليها، فقد بلغ نفسـه عذرها، وأمن عاقبة اللوم فيها. فأما المستشفع، فعليه أن يختار لأمله الجناب المريع، والمورد العذب، والجهة المعهود منها التقبل لأمثاله، المشهور عنها الإقبال على أشكاله، وأن يعتقد إذا تعلق بحبلها، وسكن في ظلها، إبانة الكفاية فيما تولاه، وإطالة الشكر على ما يُولاه، وإتخاذ الأثر الجميل شافعا يُعين الأول ويعَضده، ويصدقه ولا يهجنه، وأن يعتمد بالأول أن يكون صديقا يوجب له، ويستحب إيداع العارفة عنده، ولم يتقدم منه في الحاجات بإكثار المسرف، ولا إملاك الملحف، ولم تقصُر منزلته عن إحتمال الإثقالِ لـهُ التي هي أرجح وزنا من حاجته، وأبعد مداً من إرادته، إستظهارا في أمره، وإستنجاحا لسعيه، وتحرزا من التغرير بما قيل له، وإحتراسا من الإخفاق فيما يطلبه. وأما الشافع، فعليـه أن يُجرد في المسألـة، ويتقلد إذا شُفِّعَ المنّة، ويحل ذاك ديوان الديون المفترضة، ويلزمه الجزاء إذا أمكنه والمقابلة إذا أريدت منه. وأما المشفوع إليه، فعليه أن يعلم أنه ما أُمِّلَ إلا عن تأمّل، ولا سُئِل إلا بعـد تثبتٍ، وأن الزائر له قد أنفق مزجا بضاعتهِ، والكاتبَ علي يده قد راق ماء وجهه، وأنه متى قصّر في التعريض، ولوى عن المطلوب، فقد خسر أكثر مما خسر، وأثبت أضعاف ما أسما، وسبقهما إلى ما يلجئهما إليه من الخجلة، ويحصلهما عليه من الخيبة. وكتابي هذا، أيدك الله، واصل من يد فلان، وهو راغب وأنا شافع في أن تنفعه وتصرفه، والشريطة أن تنتفع به وتحمده، وقد جمعتنا في ذلك المُقدم ذكرها وقام وقمنا بما علينا فيهـا، وأنت، أدام الله عزك، وليُّ ما تراه في التصديق لظننا بك، واللحاق بنا في القيام بما عليك، إن شاء الله" [382]

---

[382] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي الكاتب فيما كتبه في المعاتبات وما كتبه في الشفاعات وبعض ما نفذ الى المتصرفين والنواحي. مخطوطة في جامعة لايدن

وكتب إلى عبد العزيز بن يوسف حينما أراد منه التدخل في الشفاعة له قائلا:

" كُتب الأتباع محتاجة عند الملوك إلى قائد يطرق ويمهد لها. وسائق يشيع ويحدو بها، وناصح يعضدها في متضمناتها، ويشفع لها في ملتمساتها، ويعتمد بعرضها في أوقات الفراغ والنشاط، وأحيان الخلوة والانبساط".[383]

وكتب مستشفعا لأحدهم

قد جرت العادة، أطال الله بقاء الأمير، بالتمهيد للحاجة قبل موردها، وإسلاف الجفوة[384] الداعية إلى نجاحها، وسالك هذه السبيل يسيء الظن بالمسؤول، فهو لا يلتمس فضله إلا جزاءً، ولا يستدعي طَوله إلا قضاءً، والأمير، أطال الله بقاءه، بكرمه الغريب ومذهبه العجيب يؤثر أن يكون السلف له والابتداء منه، ويوجب للمهاجم برغبته إليه حقَّ الثقة به ومنه، والحمد لله الذي أفرده بالطرائق الشريفة، وتوحده بالخلائق المنيفة، وجعله عين زمانه البصيرة ولمعته الثاقبة المنيرة[385]، وإياه أسأل أن يحرسه بعينه التي لا تنام ويحرزه في حماه الذي لا يرام بمنه وقدرته. وتوفي، أيدَ الله الأمير، قريب لنا وعبد من عبيده(...)[386]بن هليل بن مروان بن شير زاد، وخلف أمّا وأختين وزوجة وابني عم، وعورضوا في تركته معارضة لا ألتمس إزالتها عنهم من طريق الحجة، بل من طريق الاجتداء والمساءلة، وأقول في ذلك:

لعمري لقد جرَّت على مالك العلى	جرائر أضحى بينها مُتقسَّما
عممتَ به أحياءنا فتركتنا	(سنرمك) للموتى عطاً ومَغنما
وأقسم لو آمنتهم من حمامهم	لسالمتهم حتى تكون المسَلّما

والأمير، أطال الله بقاءه ولي يحملنا في ذلك على شريطة كرمه وتفضله" [387]

[383] الثعالبي، يتيمة الدهر

[384] في زهر الآداب وثمر الألباب للحصري ترد كلمة الظنون بدلا من الجفوة

[385] وكذلك ترد في المصدر السابق كلمة المنيرة بعد كلمة الثاقبة فتكتمل السجعة. وهذا يظهر لنا جوانب القصور في النسخ عن الأصل إلا بالمقارنة فيما يرد في أكثر من مرجع وهو ما قد لا يتوفر دائما.

[386] كذا لم يرد الإسم الأول في أصل المخطوطة

[387] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي، مصدر سابق

وكتب إلى أبي علي الحسين بن أبي الريان أحمد بن محمد[388]

النعمة في فضائل سيدنا الشيخ، أطال الله بقاءهُ، وإن كانت باديةً، ولسيدنا الأستـــاذ، أطال الله بقاءه، فما يتقدمني أحدٌ بعدهما من أوليائهما في الاغتباط بها والمعرفة بقدرها، والشكر لله عليها. وقد كنت أحب أن أحظى بملازمة حضرتهما غدواً ورواحا، ومســـاءً وصباحا، لكنني معوّق عن ذلك بالعـــذر الذي أرجو أن يكون زواله بهمـــا وعلى أيديهما، فيجتمع لي الخلاص من الكريـــة، والظفر بالمحبـــة، تحت ظلهما الظليل الكنين، وفي فنائهما الحريز الحصين. ولما تمادت أيامي في هذه العُقلة الجميلة النبيلة التي أولها والحمد لله حصولُ الأمانِ، وآخرها بإذن الله بلوغ الأماني، طلبت سبب الصلاح، وطرقت بـاب النجاح، لائذا بسيدنا الشيخ، أدام الله علـــوه، ومنقطعا إليه، ومعتصما بـــه ومعولا عليه، وجعلته وكيلي ونعم الوكيل، في مخاطبة الأستـــاذ، أطال الله بقاءه عني، والمواظبـــة في مجالس خلواته على ذكري، والتنجز لمواعيد آمالي فيه، والاجتناء لثمرات حُرماتي به. وبدأت في هـــذه الرقعة بسلوك سبيل التخفيف، وتجنب التطويل والتثقيل، إلى أن يـــرد من الجواب بحسبه في الانبساط، لا شكاً في كرمه، ولا تهمة لشريف خلائقه وشيمه، ولكن لزوما للآداب في التدرج إلى إحراز البغية، وترك الهجوم عليه قبل التمهيد والتوطيد. وسيدنا الشيخ أعلا عينا وما يراه، فيما سألته إياه، ورغبت إليه فيه، مما يوفر عليه عاجل جمالـــه، ويذخر له آجل ثوابه، إن شاء الله، وأقول ذلك له أيده الله:[389]

سُميت شيخا لفضل فيك أوجبـهُ ... فعَـش لِتوجِبَـهُ الأيـامُ والحقـبُ
وربَّ ذي شيبةٍ في العقل منه صبيً ... وذي صبيً شابَ منهُ العقلُ والأدبُ
فخذ بحظّك من شيخوختيك معاً ... تعلوا سنـوك كما تعلوا بكَ الرّتبُ
أشبهتَ والدك الأستـاذ في كـرمٍ ... فبـورك ابنٌ نجيـبٌ منكمـا وأبُ
لا أحذر الفَـوتَ من خيـرٍ أوأملـهُ ... وأنتمـا لـي إلى إدراكـهِ سبـبُ

وكتب إلى قاضي القضاة أبي محمد بن معروف

" قاضي القضاة، أطال الله بقاه، المُشرع العذب ونحن الشرائع إليه، والوسائل لديه، ولئن كانت مطالب السائلين مبذولة لهم من جهته، وقريبة عليهم مع إسماحه

---

[388] الحسن بن أحمد بن محمد، أبو علي بن أبي الريّان الأصبهاني. كان والده وزيراً لعضد الدولة وكان أبو علي هذا فاضلاً أديباً وقد أستوزره أبو الفوارس بن عضد الدولة لمدة سبعة أشهر ثم قبض عليه وقتله.

[389] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي، مصدر سابق

وإسعافـــه، فإن التوصل إليها بأهل الحظوة عنده، والقربة من قلبه، أدعى إلى نجاحها ، وأيسر في تناولها، زاده الله فضلا ونبلا، إن كان بقي مزيد، وعلى أنه لم يتوالاه الاستدامة كما قال أبـو تمام:

نعمــة الله فيــك لا أسـأل الله إليهـا نعمىً سوى أن تدوما

ولـــو أني سألت كنت كمــن يسألــه وهو قائم أن يقومـا

وحامل هذه الرقعة فلان، أحد عبيده وخدمه، وذكر أنه قد ثبت له حق عند قاضيالقضاة وهو يسأل وأسأل له الإسجال به، والإيعاز بكتابه في معناه إلى البصرة، وله، أيده الله، علو الرأي في ذلك إن شاء الله"[390]

وكتب مستشفعا لنفسه وبيان قيمته بقدراته

" ما تحدثني نفسي، أطال الله بقاك، أن الغمرة تتجلى عني إلا بك، وأن الحظ يصل إلي إلا من جهتك، ولو كنتُ غريبا لكانت الرعاية عتيدةً لمثلي عند مثلك، ممن قلّ الله أمثالــه وأشكاله، وعظّم نبله وجلاله، فكيف وأنا بضاعتك المزجاة التي يوحشك أن تذهب منك، ويؤنسك أن تبقى عليك، ولم أرد بهذا القول أن أمدح نفسي، وإنما أردت أنك لا تجد مثلي مع جموم آلائك لديّ، وتكاثفها عليّ، ومع معرفتي بقــدّها، والتزامي الحق بها، إذ كان حصــول ذلك بين الرجلين إنمــا يتم في مستأنفٍ من عمــرين، أملي قويّ منهمــا في الذي يخصك، ضعيف في الذي يخصني، وما أقول أكثر من هذا لأنه إذا هُزَّ الكريم إستطارك، وإذا أيقضته أسهرك، ومصلحتي كلها يا مولاي في إلحاحك على سيدنا الوزير بالمكاتبة في أمري، والتنجز لعادة محافظته ورعايته لي، والدخول عليه من مداخل أنت أهدى إليها، وأقدر عليها، حتى يشملني إنصافه، ويقرب علي إنعطافه، وأن تكتب إلى ذلك الصديــق الآثم، في بعض ظنه، المحتاج إلى إستغفار ربه، بما يكفه ويصده ويعيــده، إلى الأولى بــه ويرده، والله يعلم وأنت تشهد أنني بعيد من فرقته، بريء من تهمته، حقيق منه بخلاف فعله ومعتقده، ويضمن له عني إقامة الدليل عنده، الذي يثلج صدره، ويسلُّ ضغنه، ثم نزولا على حكمه في جميع ما بيني وبينــه، وما أولاك يا سيدي بالتجريد فيما سألت، والمبالغة فيمــا إقتــرحت، والتقــدم بمطالعتي بما يصدر في ذلك عنك، ويــرد من الجواب عليك، إن شاء الله" [391]

---

[390] المصدر السابق

[391] المصدر السابق

وكتب عن نفسه مستشفعا في إعادة داره إليه

" أنا منذ ضاقت علي أوقات خدمة سيدنا الأستاذ، أطال الله بقاءه، تعلقا بجنبته ولياذا بها، وبلوغا إلى غاية الممكن في المواظبة عليها، وكنت سلّمت إليه رقعةً إلى سيدنا في أمر داري، التي لم لم يبق شيءٌ أقول أنه ملكي وإن لم يكن في يدي سواها، وسألته، لا سلبني الله ظله، التوصل إلى أن يتصدق عليّ بها، ويجمع شملي فيها، إذ كانت نزلت بغير رسم جرى بذلك عليها، وقد برح بي التشتت عنها، ومقاساة المنازل الضيقة، وأداء الأجرة الوافــرة، فذكر أنه طالعَ سيدنا، أعز الله نصره وأطال الله عمره، بجملة ما تضمنته الرقعة، وأنه أومأ أن طالبا طلبها، وأنه يحتاج أولاً إلى صرفه عنها، وتعويضه بغيرها، فجعلت التذكرة بذلك وبأصل أمري كله الذي لا خفاء بشيء منه عنه في أبيات تتلوا هذه الرقعة، ولسيدنا علو الرأي في تأملها وبسطي إلى متابعة أمثالها فإن الغرض الأول فيها هو القيام بالخدمة، ومهما تسهل بعدها من مطالبي فزائد في إحسانه وإمتنانه.

هل المجــدُ إلا خِلةٌ من خِــلالِكــا أو الجــودُ إلا قبضَــةٌ مــن نوالِكــا[392]

وهل يصلحُ الصدرُ المعظّم لامــرئٍ سـواكَ وهـل يبَـهى بغيــر جَلالكــا

وهل أحدٌ من سائـرِ الناسِ سـالــمٌ من الدهرِ إلاّ مَن ثـوى في ظلالِكـا

وكتب إلى أبي جعفر محمد بن مسعود بن ماكولة كاتب الأمير أبي نصر بن عضد الدولة أبي شجاع بن ركن الدولة

" أنا مواظب على مولاي، أطال الله بقاءه، بالنيــة الصادقة والموالاة الخالصـة، وإنما أُغبُّ زيارته على شعفي[393] بها، وافتراضي لها، وحاجتي إليها تخفيفا عنه، وترقيها لــه، وتعويلا على الثقة التي نرجع إليها، ونجتمع عليها، ونتقابل بها، وتتعادل ضمائرنا فيها، وفي تفضل مولاي، أدام الله عزه، ما وسع العذر، وجمّل الأمر، وأغنى عن الإطالة إن شاء الله. وقــد عرف، أدام الله عزه، ما لي على الضيّعة المعروفة (بيالوس) ووقف مزنه، وهذا وقت حلوله لسنة اثنتين وسبعين وثلثمائة ما إعتدّه حقاً يُوجَبُ، بل فضلاً يُوهَب.

---

[392] القصيدة كاملة في الصفحة 378

[393] شَعَفةُ القلبِ: رأسُه عند مُعَلَّقِ النِّياطِ. والشَّعَفُ: شِدّة الحُبِّ. والحُبُّ الشديد يتمكن من سَوادِ القلب لا من طَرفه. وشَعَفَني حُبُّها: أصابَ ذلك مني.(لسان العرب)

فإن رأى مولاي أن يأمر فيه بما هو أهله، فعل إن شاء الله. وأقول في ذلك:[394]

محمدٌ أنت في الحاجات محمـودُ وباب غيركَ عنها الدهر مسـدودُ
وبيننـا مـن لطيـف الـود آخيـةٌ يشدها من حفاظ العهد توكيد
وفي ذمـامك لي حـق إذا ظفـرت يدي به فهـو من جدواك معـدود
ولـم يقرّبـه إلا حسن رأيـك لـي فكان فيه لصرف الدهر تبعيد
ووقتـه حاضـرٌ والعين ترقّبـه ومـا لعـارفـةٍ أسديتَ تنكيـد
ولستُ أحـذرُ عُقبى الخُلفِ مـن أملٍ فإنـني بابـن مسعودٍ لمسعودٍ
عليّ منـهُ إذا ما حاجـةٌ عَرضَتْ ظـلٌّ ظليـلٌ وإعـزازٌ وتـأييـدُ
من أجل ذلك شُكري مايزالُ له على الحـوادث تخليـدٌ وتأبيـدُ

وكتب إلى عامل واسط يسأله في أمر الضيعة وغلامه

" كتابي عن سلامةٍ ونعمةٍ لازالتا سابغتين عليه، ومتظاهرتين لديه، والحمد لله، وإذا كانت القلوب تتقابل بسرائرها، وتتشاهد بضمائرها، فلاشك في أن مولاي قد استملى من عيني المخالصة في أيام الاجتماع، واستدل على تمسكي بها في أيام الافتراق، وأحسَّ لشوقي عليه من شوقهِ إليّ، وبذكراي له من ذكره لي، ولئن كنت أخّرت مكاتبته تخفيفا عنه، وثقةً به، وسلوكا لسننــه ومذهبه، فما تركت مراعـاة أخباره، أطابها الله، من الجهات العارفة بها، واستنباطها من مضانها ومعادنها، ولا أغببت الدعاء له بأن يرعاه الله حاضـرا وغائبا، ويكون له محافظا ومصاحبا، ويجعلـه من كنافته وحياطته في الحـرز الحصين والحرم الأمين، والجانب الذي لا تصل النوائب إليه، ولا ترد المخاوف عليـه، والله عز وجل يفعل ذلك ويتولاه به، في كل سفرٍ وحضر، وغيبة وأوبة بقدرته. وإتصل بي في هـذا الوقت إصعاده إلى واسط متوليا للتقرير بها، فسررت بذلك من جهات، أولها وأفضلها، قرب مرام الزيادة لمن قدر عليها، ودنو مسافة المكاتبة لمن لا يمكنه غيرها، وكتبت هـذا الكتاب مجددا للعهد، وقاضيا للحق، ومستدعيا للمواصلة، ومفتتحا باب المؤانسة، ومستمدا من أخباره وأحواله ما أسكن إليه، ومن أمره ونهيه ما أتصرف عليه، ومن مهماته وأوطاره ما أقوم به وله علو الرأي في مقابلة ذلك بمثله، واسعا فيّ بما خطبته وطلبته منه، إن شاء الله. وفي أعمال واسط، أعز الله مولاي، ضيعة هي إلي منسوبة، ومن خاص أملاكه محسوبة، وموصل كتابي هذا

[394] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي، مصدر سابق

غلامٌ لي ينوب عني في أمورها، وقد أمرته بأن يكون بغلمانه مختلطا، وإليه في إلتماس مصالحـــه منبسطا. فـإن راى مولاي أن يأتي في ذلك ما هو وليه وأهلـــه، ويوليني به اليد التي يوجبها فضله وطوله، فعل إن شاء الله" [395]

وكتب شفاعة لأحد المشايخ

" قاضي القضاة، أطال الله بقاءه، يعلم أن أبـا فلان من المشيخة الموسومين بالعدالـة، والمعروفين بالستر والصيانة، وله مع ذلك خصوص بنا، ومكانة عندنا، وحرمة وكيدة لدينا، وقد أخرجنا توقيع مولانا أمير المؤمنين الى قاضي القضاة في أمره، بما توقيعنا هذا مقرون به وتابع له، ووقوفه، أيده الله، عليه يغني عن إعادة متضمنة. وقاضي القضاة حقيق بالمسارعة إلى امتثاله وإجرائه في قبول الشهادة، وحضور مجلسه على رسمه، والإبانة عـن حسن رأينا فيه، بما يستظهره من الإقبال عليه والميل إليه، حتى نكسوه بذلك شعارا من الجمال يوافق استحقاقه، وإيثارنا فيه، والتقدم بمثل هذا إلى سائر خلفائه النائبين عنه، أيدهم الله إن شاء الله" [396]

وكتب إلى القاضي أبي عمر الهاشمي

" كتابي، أطال الله بقاء سيدي القاضي الشريف، وحالي سلامةٌ أحمد الله عليها، وأسأله أن يخصه بأحسنها وأجملها، وقد بعُد عهدي بمكاتبة سيدي وذلك موحش لي، ومخالف لشريطة ما بينه وبيني،... وكيف تصرفت الأمور فوالله ما أخل بعده، ولا أحول عن وده، ولا أخلو من ذكره، ولا أخليه من تقريظ له، وثناء عليه، بما هو أهلـــه، والله يعين على قضاء حقه، ويسهّل قضاء الوطر من رؤيته، بمنـــه وقدرته. والى ذاك فله علـــو الرأي في مكاتبتي بأخباره وأحواله، والسانح من مآربه وأوطاره، والمتمثل من مراسمه وأوامره،... كنت أعتقد أن الجُلّةَ لا تُسأل إلا ما يجلُّ، والشاعر يقول : إنما يسأل الجليل الجليـلا. وحُكي عن بعضهم أن قائلا قال له: قد عَرضت لي إليك حُويجة، فقال له: إلتمس لهـــا رُجيلاً. إلى أن رويت عن جده الفاضل السيد عبد الله بن عباس رضوان الله عليه، أن رجلا قصده فقال له: لي حاجة صغيرة قَدرُك يجلُّ عنها، فقال له: هاتها فإن الصديق لا يكبر عن صغير صديقه ولا يصغر عن كبيره،..". [397]

---

[395] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي، مصدر سابق

[396] المصدر السابق

[397] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي، مصدر سابق

وكتب عن عضد الدولة

" كتابنا، ونحنُ ونعــم الله السابغة علينا، ومنائحه الراهنـة لدينا، بين سَوالفٍ ماضيةٍ وأوانف دانيةٍ، وأحوالنا جارية، في عز أوليائنا وكبت أعدائنا، وعلو كلمتنا ونصرة رأينــا، ونفاذ أمرنا ونهينا، وإصابة مطالبنا وأغراضنا، على أفضل ما جرت به عادة عندنا، وأحسن ما عُرف وأُلف من تفضله علينا، وهو المحمــود رب العالمين وأكرم المنعمين،... ولأن الملك السعيد عضد الدولة نص عليك في الاصطناع والتنويه، واختصك بالتشريف والتنبيــه، وآثرك على كل نظير وقرين، وفــوق كل عديل وخدين، ولا غرو أن ترعى مـا إسترعيت وأوليت، وتحفظ ما استودعت وأوُتيت، والله يصل سببيلك الوكيد، ومحلك المهيد، بأحسن ما اتصلت الأسباب عليه، وترقت الرتب والمنازل إليه،... فلولا البقايا والرقبى، وتحرك عرق الوشيجة والقربى، لكان لنا في أثر النكوص عن الأهــواز حركة بل حركات تثقل الوطأة بها، وتزيد الحال انقراضا معها، لكنا قابلنا صنيع الله جل إسمه لنا، وحسن بلائه لدينا، بمثل ما كنا بدأنا به، من بلّ الرحم، وحفظ الذمم، والتمسك بالعصم، ويحزنا من أن نكون في شيء مما جرى، وتجري حجة تتوجه عليها، أو معتبةٌ تتطرق الينا، وأحببنا أن يكون الفضل مأخوذا به بيننا وبين من يرى أن الفضل على كل حال له، وألاّ نتســرع الى مقابلته على ما بدر إلينا منه، ورجونا أن يكون الندم واقعا على الماضي والتلافي مستشعرا في الآتي، وصادف كتابك عندنا الذي هذا جوابه، ورسالتك التي أداها حامله تقبــلا لما أشرت به، وانقيادا الى ما دعوت إليه، وتيقنا لما فيه من الصلاح الشامل، والحظ العاجل والآجل، وعرض عارض دافع عن تقديم الإتمام، وما طل بالإحكام والإبرام، فرددنا الرسول بهذا الجواب، وبمــا حملناه إيــاه من الخطاب، عن عزيمة منا على قبــول رأيك مستقرة، وبصيرة فيه مستمرة، لتكون، أيدك الله، ساكنا منا الى سلامة النية، وخلوص الطوية، والإغضاء عما استعمل معنا من الجفوة، وجرى به مقدور تلك الهفوة، والتعويل عليك في لم شعث المودة، واعادتها الى صحة العقدة والعهدة، فــإن جرت الأحوال على هذا السبيل، وتقابلت جهاتها بالحسن الجميل، فـذاك الذي سعيت له ووجدت عندنا مثله، فإن تراخت المدة الى غاية تجرى إليها، ونهاية مقدّرة لها، وعَرضَ في أثناء ذلك عارض يؤخر الاستقرار، ويقتضي اللبث والانتظــار، فحقيق عليك أن تتذكر الحقوق بيننا وبينك، والحرمات الجامعة لنا ولك، وما في عنقك من مواثيق الملك السعيد، وأطواق مننه، وقلائد نعمه، التي حقوقها عليك، ودائع لنا في يديك،

وتجعل حينئذ ضلعك معنا، وانحطاطك في شعبنا، فإنك مع هذا واجـــد عندنا ما لا تجده عند غيرنا من الرغبة فيك، والميـــل إليك، والتمسك بك، وخلوص المعتقد لك، وإستواء الباطن والظاهر فيما نلقيه إليك، من قول وفعل، ونقرره معك من عقـــد وعهد، فتكون المشارك في نعمنا، والمتمكن في أيامنا، والمتحكم في أموالنـــا وعساكرنا، والمواسي بكل ما نفذ عليه سلطاننا، وانبسطت فيه أيدينا، عند نائبة والعياذ بالله إن نابتك، أو طارقة إن طرقتك، وحاجة إن عرضت لك ومسّتك،..." [398]

وكتب شفاعة في محمد بن يلتكين الكاتب

" العهد يا سيدي بعيدٌ، والشوق شديدٌ، وسبيلي إلى زيارتك عني متسهلة، وعادة تفضلك في المراعاة منقطعة، وأنت على صلتي أقدر وأظهر، ولم أقل هذا شكوى لك، بل شكوى إليك، وكيف أشكو من لا أخلو له من مبرّة أشكرها، ومنّـة أتحملها، وبر أحفظها وأعتدُ بها، وبالله لولا تلازمنا على المداومة، وتلاقينا على المواظبة، لما نقع ذلك غلة ظمأي إليك، ولا عدمت نزوات الحنين نحوك، فكيف والشقة بيننا معترضة، والأعمار دون اجتماع الشمل منقرضة، والله يطيل عمرك، ويمـد أيام عـزك، ويقرب مني دارك، ويوشك علي مزارك، ويحرس النعمة عندك، وعلي بك، ويرينيك على ما أحبه لك، وتحبه لي، من سكون الجاش، ورفاعة المعاش، وصلاح الحال، ورخاء البال، بقدرتـه، وإلى أن يجيب الله عز وجل هـــذه الدعوة، فلك، أدام الله عزلك، علو الرأي في إيناسي بكتابك، وتطويقي منـةً من مننك، وتقليدي نعمة من نعمك، بالانبساط في الحاجة العارضة، والوطر السانح، والاستنابة التي أرى التعب بها راحـة، والقيام بها فريضة، إن شاء الله. وحضرني يا مولاي، أبـو الحسن محمد بن يلتكين الكاتب، أيده الله، وهو من أحسن من أعرف خطاً، وطبعا في منظـوم الكلام ومنثوره، وذكرانك الى كاتب يلازم حضرتك، ويخفف عنك، وقد جرى بينه وبين أبي فلان خليفتك، أيده الله، خطاب يجري مجرى السلف في خدمتك، والخطبة للكون في جملتك، وأحب أن يقوى هذا السبب بكتاب مني إليك، فكتبت بما لم أعره فيه شهادة، ولا وفيته منه أيضا حق التقريض والصفة، ولعل السعادة أن تسوقه إليك، وتقره بين يديك، ويكون ما تراه منه، وتحمده من خدمتـه، وتستطلعه من طبعه، وترتضيه من سكونـه وهديه، وتستحليه من منظره وشاهده، شفيعا له إليك، وسائل لديك، تستغني ببعضها عن إستضافة ما تستضيفه إليها، وإن كنت أعلم وأثق أن لكتابي عندك فضلُ موقع يتأكد به ما

---

[398] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي، مصدر سابق

ضعف من الأسباب، فضلا عمــا قوى وتمكنت به الأواخي، وأنت يا سيدي ولي ما تراه وتنعم به في أمره، محققا لجميل ظنه، ومتقبلا لشديد رغبته، ومنتفعا به في كفايته، وقاضيا حقي فيه، إن شاء الله" [399]

وكتب الى الوزير أبي الريان حمد بن محمد شفاعة في الخروج من السجن لقضاء حق المشاركة في جنازة عمه

وفاة الخادم، أطال الله بقاء الأستاذ، في حياة مولاه سعادة له، وقد مضى عمي عبده أبو الحسن ثابت بن إبراهيم الحراني رحمه الله على الطاعـة والمشايعة، والدعاء والثنـــاء، وكانت وفاته ليلة السبت، جعل الله العمــر الطويل لمولانا الملك، شاهنشاه السيد الأجل، المنصور ولي النعم عضد الدولة وتاج الملـة، وكبت أعدائه، وورثه تراث العدو والولي، ورزقنا ما رزقه هذا الشيخ من الوفاة على بساطه، وفي دولته وتحت ظله وكنفه، وألحقني بالسعداء ممن رضى عنه، ووهب له ذنبه، وأجرى ذلك على يد الأستاذ، وببركتــه وحسن نيته، وإنتشار فضله وخيره، بمنه ورأفته. وأردت أن أسأل الأستاذ، أدام الله عزه، الإنعــامُ عليّ، والتقدم بحل قيدي وإخراجي مع الموكل بي، بمقدار ما أصلي على جنازته، وأواريـه في حفرته، وأقضي هذا الحق الذي هو آخر حقوق الميت على الحي، ، ثم أعود الى موضعي، فأحجمت عن ذلك، وضاق الوقت عن نفوذ رقعة في معناه وانتظار جوابه فيما قضاه الله. ونحن، أطال الله بقاء الأستاذ، أهل بيت خدمةٍ قد تقدمت، وحرمةٍ قد سلفت، وقد مضى شيوخنا، وألحت المصائب علينا، والعدد كثير، والستر رقيق، والذمــار ضعيف، والشمل منتشر، وأنا من بينهم العبد الخاضع الضارع، المقر بذنبي، والمحيل على شقــاوة جدي، اللاجئ الى سيدنا، أطال الله بقاءه، في جميع أمري، وما أعرف سواه، ولا يجــوز لي أن أتعداه، وعادته أدام الله عزه جاريــة، ببث الصنائع، وإيداع الودائع، والرحمـــة للمتحن، والأخذ بيد المرتهن، وهو أعلا عينا، وما يراه ويدبر به عبده، المنقطع إليه، والمعتمد عليه، إن شاء الله" [400]

ومن فصل كتبه عنه إلى أبي تغلب في الشفاعة لأخ له

" وقد يكون لعمري من ذوي الأرحام الشابكة، والقرابات الدانية، من يتمادى في العقوق، ويذهب عن حفظ الحقوق، ولا يسع ترك تألفه حتى يرجع، واستصلاحه حتى ينزع، فــإن تجشم الإعراض عنه لرياضة تقصد، أو عاقبة نفع تحمد، لم يبلغ به إلى

---

[399] المصدر السابق

[400] المصدر السابق

قطع المعيشة، ومنع المادة، لأن قباحة ذلك بمن يستعمله أكثر من مضرته بمن يعمل معه، وقد قيل إن الملوك تؤدب بالهجران، ولا تعاقب بالحرمان، هذا في الاتباع والأصحاب، فكيف في الأقران والأتراب؟[401]

فصل من كتاب عن بختيار إلى مؤيد الدولة لما قبض على أبي الفتح بن العميد ذي الكفايتين في الشفاعة له

" وهذا غلام أفسدته سجية ركن الدولة الشريفة في شدة الاحتمال، والصبر على الإدلال، واجتمع له إلى التقلب في نعمة حازها حيازة وارث لها، لم يكدح في تأثيلها، ولا مسه النصب في تثميرها، ولا اهتدى إلى طريق استيفائها، ولا تحزن من طرق دواعي انتقالها، ومن ألزم اللوازم في حكم الرعاية أن نحفظه من سكر نعمة نحن سقيناه بكأسها، وأن نعذره عند هفوة قد شاركناه في إيجاد أسبابها، وأن تكون نفسه محروسة، والبقية من حاله بعد أخذ فضلها المفسد له متروكة، وأن يتحدث الناس بأن سيدي الأمير أصاب غرض الحزم بالقبض عليه، ثم طبق مفصل الكرم في التجاوز عنه".[402]

وكتب من الحبس إلى الوزير ابن المطهر شفاعة لنفسه وقد مرت عليه سنتان في الحبس الذي حبسه فيه عضد الدولة[403]

" أنا، أطال الله بقاء سيدنا الأستاذ، مع معرفتي بقدر النعمة التي لبستها، وتقلبت مُقرّبا ومُبعدا فيها، موسوم بميسم لا تسكن نفس صاحبه إلا بانجلائه عنه، وخروجه منه، وقد مضت سنتان ودخلت ثالثة، وما أستطيل والله مع الثقة بحسن عقباه، ولكن ورائي عدداً كثيرا من ذرية ضعاف قد ضاعوا وتشتتوا، وأضر بهم طول الإعراض، وهم صالون بجريرتي، ومنحوسون بنحوسي، وأمسكت عن الإذكار الى أن وردت الأخبار السارة التي توجب طيب النفس، لا أعدمنا الله أمثالها، ولا أخلانا في هذه الدولة الميمونة من جميل العادة عندها، فإن رأى الأستاذ، أطال الله بقاءه، أن يتطول باثبات اسمي في تذكرته، وتأهيلي لمنزلة شفاعتي فعل، إن شاء الله، وعبده يقول:

---

[401] الثعالبي، يتيمة الدهر

[402] المصدر السابق

[403] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي، مصدر سابق

لساني في نشــرِ المدائــح مطلــقُ وساقي في قيدِ المحابسِ موثــقُ

وحلمك يأبى الجمع ما بين ذا وذا فحتى متى بين الفريقين أفرق؟

ومن كتب شفاعات أخرى نقتطع جملا وفقرات ذات مغزى ومعنى وقدح بلاغة مُحلى ومُعلى

" ... شفاعة لا أشوبها إقامة حجة، ولا ألم فيها بمناقضة، بل أبنيها على الإستصفاح عن رجل محجوج مخصوم، معنفٍ ملوم، لا أنني أثبت عليه خيانة لم أستوضحها، وألصق بــه جريرة لم أتبينها، لكن لأحسم مادة المراجعة، وأستعفي من الحاجة الى المعاودة. فــإن لم يكن أيده الله بريء الساحة ، فعدله الفائض أقوى شفائعه إليه، وألد وكلائه عليه، ولئن لم يكن مفارقاً للريبة، فقد صلى من عقابها، والعقوبة عنها، ما ضارت حقيقة مساءتي، ومحصول طلبتي عليه، وترك المزيد فيه، وهذه بكر حوائجي، وأولى مسائلي، وأعوذ بالله من أن أنقلب عنها بخيبة الممنوع، وخجلة المردود.."[404]

ولأبي الحسن.. ذرائع لدينا قوية، ووسائل إلينا كثيرة، وحظوظ من عنايتنا متضاعفة، ودواع من مراعاتنا مترادفة، أوكدها رطوبة لسانه بشكرك، واتصال ثناياه عليك،..."[405]

" وأما أبو مُخلد... ذكره ســار باصطناعنا واصطناع آبائنــا، رضي الله عنهم، وإن معظم عمره تصرم في خدمتنا وخدمتهم، وأنه يصاحب هذه الدولة مصاحبة المساير لها، والمساوي لأيامها، الضارب بأوفــر سهم مع أهلها، وذوي التخلق بهــا،.. وإنه في حد من علــو السن يتضاعف معه بحسن الإقرار لها عليه، وقبح التفرقة بينهمــا وبينه،..."[406]

[404] جزء من كتاب كتبه الصابي عن الوزير ابن بقية الى الأمير فخر الدولة

[405] من كتاب عن عز الدولة الى صاحب سجستان

[406] من كتاب شفاعة عن عز الدولة الى عضد الدولة في أمر أبي مخلد عبد الله بن يحيى

وسيدي الأمير مؤيد الدولة، أدام الله عزه، بما منحه الله من مكارم الأخلاق، وورثه من مفاخر الأسلاف والأعراق، يوجب الرعاية لمن ضعف سببه، وبَعُدَ عن الدولة منتسبه، فضلاً عمن أستحكمت عُلقهُ، وتوثقت شُعبه، وتعلّى قدحــه، وتوفر نصيبــه، واقتضت الحرمات الوكيدة، والموات القوية، أن يكون مزيدا غيــر منتقص، وملوما غير مشعث، ومصونا غير منهضم، ومحبوا غير مسلوب،..."[407]

كتابنا أطال الله بقاء الحرة الكريمة الجليلة وأدام عزها وتأييدها وسعادتها وسلامتها ونعمتها وكفايتها، ولا أخلانا منها،... وتأدى إلينــا، أدام الله عز الحرة الكريمــة، من القبض على أبي مخلد.. ما شغل قلوبنا، وقسّم أفكارنا، وخالف إيثارنا، ولم نجده لائقا بحقوقه التي مكنها، وحرماته التي وكدها،... ونحن مُعوّلون عن منابها عنا في الشفاعة والمساءلة والاستعطاف والاسترحام، والإذكار بحقوقنا فيه، وبحقه في نفسه،..."[408]

" كتبت، أطال الله بقاء سيدي الوزير، وقد تنسمتُ روائح الحياة، وثنيتُ وجهي الى الدنيا بعد أن أشفيت على مفارقتها، وبما وهبه الله لي خصوصا، ولجميع خدم الوزير، أيده الله، عموما، من إقباله إلينا، وإظلال الخير به علينا، الذي هو معدوم منذ عَدِمتُ غرته الجليلة، وخلائقه الشريفة، ونفسه الفائضة، ويمينه المنطلقة،..."[409]

مما كتب في الإهداء والشكر

فصل في ذكر الشكر والكفر

" للنعم شروط من الشكر لا تريم ما وجد، ولا تقيم ما قعد، وكثيراً ما تسكر الواردين حياضها، وتغشى عيون المقتبسين إيمــاضها، فيذهلون عن الامتراء لدرتها، ويعمهون عن الاستمتاع بنضرتها. ويكونون كمن أطار طائرها لما وقــع، ونفر

---

[407] من كتاب عن عز الدولة الى مؤيد الدولة شفاعة لأبي مخلد

[408] من كتاب عن عز الدولة الى الملكة بنت عماد الدولة في الشفاعة لأبي مخلد، ويظهر فيها أن زوجات الأمراء كان لهن دورهن وبخاصة في التوسط والشفاعة.

[409] من كتاب في الشفاعة لنفسه عند وزير أيام عز الدولة.

وحشيها لما أنس، فلا يلبثون أن يتعروا من جلبابها، وينسلخوا من إهابهـــا، ويتعوضوا منها الحســــرة والغليل، والأسف الطويل".[410]

ويذكر الثعالبي أنه لم يسمع في إهداء دواة ومرفع أحسن وأظرف مما كتب به الصابي إلى وزير حيث قال: " قد خدمت مجلس سيدنا الوزير بدواة تداوي مرض عفاته، وتدوي قلوب عداته على مرفع يؤذن برفعته وارتفاع النوائب عن ساحته..."[411]

كتب الصابي عن نفسه يشكر الصاحب بن العباد

"كتابي، أطال الله بقاء مولانا الصاحب الجليل كافي الكفاة وليس من جارحة إلا ناطقة بشكره وحمده، ولا في الدهر جارحة إلا عافية بفضله ورفده، وأنا مستمر له على دعاء، إن خلوت من أن يكون عائداً لصـــلاحي، ورائشاً لجناحي، لألتزمنه عن الأحرار العائشين في نداه، المستظلين بذراه، فكيف وأنا أول ساهر في مرابعه، ووارد لشرائعه، وأحوالي جارية على استقامة أقوى أسبابها تصرف الأيام على آرائـــه، واتباعها إيثـــاره في أوليائه وأعدائه، والحمد لله رب العالمين، قضـــاء لحقه واقتضاء لمزيده، واستدامة للنعمة عنده، التي استحصفت في أيدينـــا سعتها، وسالت علينا شعابها، وغمرتنا سجالها، وتفيأت لنا ظلالها، وما يزال بين رغبـــة مولانا الصاحب الجليل كافي الكفاة أدام الله علـــوه، وكبت عدوه، في عبـــده ورغبة عبده إليه سر مكنون في الصدور، ومستور تحت الضلوع، فهما يتناجيان به على بعد الدار، ويلتقيان عليه بالأفكار، فإن تطلع من حجاب القلوب، وشذ من ظهور الغيوب، فإن ظهوره يكون من جهته في نفحات الإنعام، ومن جهتي في ثمرات الكلام. وقد وصل كتابه المخطوط بكرمه لا بقلمـــــه، إلى صنيعته الماثل بين يديه بهممه لا بقدمه، فلم يستطع إلا أن ينهض من الفكر، إلا بقـــدر ما يبرأ ساحته من الكفر، ويبلغـــه إلى آخر الاجتهـــاد والعـــذر، وأسأل الله أن يطيـــل بقاءه للإفضال المأخوذ منـــه، والفضل المأخوذ عنـــه، والعلم الذي يزخر به بحــــره، والفخر الذي يسحب له ذيله، والعز الذي ضرب عليه رواقه، والسلطان الذي ألقي إليه استحقاقه، والأمر والنهي اللذين يحويهما تراثاً واكتساباً، إذا حواهما غيره غلولاً واغتصاباً، بمنه وطولـــه، وقد كان كذا وكذا.[412]

---

[410] الثعالبي، يتيمة الدهر

[411] الثعالبي، خاص الخاص

[412] القلقشندي، صبح الأعشى

مما كتب في الوصف

كتب يصف بستان:

" قد تضوعت بالأرج الطيب أرجاؤها، وتضرعت بظلل الغمام صحراؤها، وتفاوضت بغرائب المنطق أطيارها. بستان كأنه أنموذج الجنـــة. ولا يحل للأريب أن يحل به لأنه نعمــة. به أشجار كأن الحور أعارتها ثيابها وقدودها وكستها برودتها وحلتها عقودها" [413]

وكتب يصف الخريف: " الخريف أصح فصول السنة زمانا، وأسهلها أوانا، وهو أحد الاعتدالين، المتوسطين بين الانقلابين، حين أبدت الأرض عن ثمرتها، وصرحت عن زينتها، وأطلقت السماء حوافل أنوائها، وتأذنت بانسكاب مائها، وصارت الموارد، كمتون المبارد، صفاء من كدرها، وتهدباً من عكرها، واطــراد من نفحات الهواء، وحركات الريح الشجواء، واكتسب الماشية وبرها القشيب، والطائر ريشه العجيب" [414]

فصل من رسالة في وصف الرمي عن قسي البندق

رماة البندق ومما وصفت به الجلاهق[415] وهو البندق القاسيّ ومن قسوته أنه يستخدم في الرماية وعلى ذلك سميت الآلة التي ترمي الآن بالبندقية نسبة للرمي بالبندق. من ذلك ما كتب به أبو إسحاق الصّابي من رسالة إلى أبي الفرج محمد بن العباس بن فسابخش، جاء فيها: " أقبلت رفقة الرّماة قد برزت قبل الذّرور والشروق، وشمّرت عن الأذرع والسّوق، مقلّد بن خرائط شاكلت السيوف بحمائلها ونياطاتها، وناسبتها في آثارها ونكاياتها، تحمل من البندق الململــــوم، ما هو في الصّحة والاستدارة كاللؤلؤ المنظوم، كأنما خرط بالجهر، فجاء كبنات الفهر، قد اختيـــر طينه، وملك عجينـــه، فهو كالكافور المصّاعد في اللّمس والمنظر، وكالعنبر الأذفر في الشمّ والمخبر، مأخوذٌ من خير مواطنـــه، مجلوبٌ من أطيب معادنه، كافلٌ بمطاعم حامليه، محقّقٌ لآمال آمليه، ضامنٌ لحمام الحمام، متناولٌ لها من أبعد مرام، يعرج إليها وهو سمٌّ ناقع، ويهبط بها وهي رزقٌ نافع.

---

[413] الثعالبي، من غاب عنه المطرب

[414] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب.

[415] الجلاهق وهو قوس يتخذ من القنا ويلف عليه الحرير ويغرى، وفي وسط وتره قطعة دائرة تسمى الجوزة توضع فيها البندقة عند الرمي.

ومنها في وصف القسيّ: وبأيديهم قسيٌّ مكسوّةٌ بأغشية السّندس، مشتملة منها بأحسن ملبس، مثل الكماة في جواشنها ودروعها، والجياد في جلالها وقطوعها، حتى إذا جرّدت من تلك المطارف، وانتضيت من تلك الملاحف، رأيت منها قدوداً مخطفةً رشيقه، وألواناً معجبة أنيقه، صلبة المكاسر والمعاجم، نجيبة المنابت والمناجم، خطّيّة الأسماء والمناسب، سمهريّة الأعراق والمناصب، ركّبت من شظايا الرّماح الداعسه، وقرون الأوعال الناخسه، فحازت الشرف من طرفيها، واستولت عليه بكلتا يديها، قد انحنت المشيخة النّسّاك، وصالت صيال الفتية الفتّاك، واستبدلت من قديمها في عزذ الفوارس، بحديثها من نفيس الملابس، وانتقلت من جدّها في طراد المغارات، إلى هزلها في طرد المسهرات، ظواهرها صفرٌ وارسه، ودواخلها سودٌ دامسه، كأنّ شمس أصيلٍ طلعت على متونها، أو جنح ليل اعتكر في بطونها، أو زعفراناً جرى فوق مناكبها، أو غاليةً جمدت على ترائبها، أو قضبان فضّةٍ أذهب شطرها وأحرق شطر، أو حبّات رمل اعتنق السود منها صفر.

فلمّا توسّطوا تلك الروضه، وانتشروا في أكناف تلك الغيضه، وثبتت للرّمي أقدامهم، وشخصت للطير أبصارهم، وتروها بكل وترٍ فوق سهمه منه، وهو مفارقٌ للسهم وخارجٌ عنه، مضاعفٌ عليها من ترين، كأنّه شخص ذو جسدين، أو عناقٌ ضمّ ضجيعين، في وسطه عينٌ كشرجة كيسٍ مختوم، أو سرّة بطنٍ خميصٍ مهضوم، تروع قلب الطير بالإنباض، وتصيب منها مواقع الأغراض".[416]

فصل عن عز الدولة إلى أبي تغلب في ذكر فرس أهداه إليه

" أما الفرس الذي سألت إيثارك به، فقد تقدمنا بقوده إليك، والله تعالى يبارك لك فيه، ويجعل الخير معقد ناصيته، والإقبال غرة وجهه. وإدراك المطالب تحجيل قوائمه، ونيل الأماني طلق شده، وفتح الفتوح غاية شأوه. وسلامة العواقب مثنى عنانه".[417]

وكتب عن ابن فسانجس إلى بختيار بن أحمد بن بويه في صفة متصيد كان له بواسط

ويظهر الصابي في الكتاب معرفته الواسعة بالصيد والتصيد وآدابه وفوائده ثم يصف

---

[416] المصدر السابق

[417] الثعالبي، يتيمة الدهر

مراميه وأغراضه وطرائقه وفنونه وصفا رائعا يتخذ أنماطا متعددة في بيان صورة التصيد وما تقوم به الأدوات وبضمنها الطيور المستخدمة، وهو مع إسهابه في كل ذلك إنما يعتمد اللغة الراقية في الوصف، والإتيان بالبديع من الكلام المسجوع فيأخذ القارئ مع الصيادين في رحلة صيدهم، وإذا غنم الصياديون صيدهم، فإن القارئ سيغنم هذه المتعة الأدبية والرحلة المعرفية. يقول الصابي عن لسان من طلب:

" من حَلَّ محلي في اصطناع الأمير عز الدولة، أطال الله بقاءه، واصطفاءه، وانتهى إلى غايتي من أثرته واجتبائه، كان حقيقاً في التسوية في طاعته بين سره وجهره، والجمع في نصيحته بين جده وهزله، غير مسامحٍ نفسهُ بقضاء وطر لا حظ له فيه، ولا موسع له في بلوغ أرب لا فائدة له منه، تمسكاً بعلائق الولاية في سائر الأحوال، وأداء الفريضة الأمانة في صغير وكبير الأعمال، والله بلطفه يمدني في خدمته بالتوفيق، ويقف بي منها على سواء الطريق، ويهب لي تحفظاً يحرس من الزيغ والزلل، وتيقظاً يعصم من الخطأ والخطل.

ووجدت في سفري هذا، أيد الله الأمير عز الدولة، فضلاً في زماني عن المهمات، يستروح النفوس إلى توفيره على المحبوبات، فاعتمدت معها التصيد تأدباً بأدبه، أطال الله بقاءه، في الولوع به، واعتماداً لعائدته على من يحضرني من أوليائه وعبيده، في قوة أبدانهم ونشاطها، ورياضة خيلهم وانبساطها، واعتيادهم طراد ما يسنح ويعن، واستثارة ما يستكن ويستجن، وإغرائهم بطلب ما يحاولونه، وإضرابهم عن الفتك بمن يساورونه، إذ كان هذا الأمر مثالاً يحتذى في مطاعنة الفرسان، ومنهجاً يقتفى في مطاردة الأقران. وافق لي من السرور لذلك يوم غاب نحسه وهوى، وطلع سعده واعتلى، وصدق الله أيامِنهُ وسوانحه، وأكذب أشائمه وبوارحه، بما رزقناه من اجتماع الصيد ووفوره، وكثرته وجمومه، وسهله لنا من إدراك ما طلبناه منه وأرغناه، والوصول إلى ما اعتمدناه وانتحيناه، بظل مولانا الأمير عز الدولة، أدام الله عزه الممدود علينا، وبركة اسمه الذي به استنجحنا والزمان ساقطة جماره، مفعمة أنهاره، مورقة أشجاره، مغردة أطياره، ونحن غب سماء أقلعَ بعد الارتواء، وأقشع عند الاستغناء، والبقل خضل ممطور، والنقع ساكن محصور، والرياض كالعرائس في وشيها ومطارفها، متجلية في خلعها وملابسها، متبرجة في حللها ومجاسدها، باسطة زرابيها وأنماطها، ناشرة حبراتها ورياطها[418]، زاهية بحمرائها وصفرائها، تائهةً بعوانها وعذرائها، كأنما عارضت

---

[418] الربطة: الملاءة

عصباً، أو فاخرت صحباً، أو احتفلت لوفدٍ، أو هي من حبيب على وعد، تتبـارى طيباً وحسناً، وتتفـاوحُ أرجاً وعرفاً، فما نرد منها حديقـة إلا استوقفتنا بهجتها ونضارتها، واستنزلتنا جدتها وغضارتها، وخيلنا كالأمواج المتدفقـة، والأطواد الموثقة، متشوفة عاطية، مستبقة جارية، تشتاق إلى الصيد وهي لا تطعمه، وتحن إليه كأنه قضيم تقضمه، وعلى أيدينا جوارحُ مؤللة المخالب والمناسر، ومذربة[419] النصال والخناجر، طامحة الألحاظ والمناظر، بعيدة المرامي والمطارح، ذكية القلوب والنفـوس، قليلة القطوب والعبوس، ذات قوادم كثةٍ أثيثـة، وخوافٍ وحفةٍ أثيرة، سابغـة الأذناب، كريمة الأنساب، صليبة الأعواد، قويمـة الأوصالُ، تزيـد إذا ألحمت شـرها وقرماً، وتضاعفُ إذا شبعت كَلَباً ونهماً. فبينـا نحن سائرون، وفي الطلب ممعنون، إذ وردنا ماء زرقاً جمامهُ، طاميةً أرجاؤه، يبوح بأسراره صفاؤُهُ، وتلوحُ في قرارهِ حصباؤهُ، وأفانين الطير به محدقة، وغرائبه عليه واقعة، متغايرة الألوان والصفات، مختلفة اللغات والأصوات، فمن بين صريح خلص وتهـذب نوعه، ومن مشوب تهجن أو أقرف عرقـه. فلما أوفينـا عليها، أرسلنا الجوارح إليها، كأنها رسل المنايا، أو سهام القضايا، فلما تسمع إلا مسمياً، ولم تر إلا مذكياً. ثم عدنا لشأننـا دفعات، وأطلقنا مرات، حتى ازددنا واستكثرنا، وانتهينا واكفينا، وانطلقنا بعد ذلك نعتام ونتخيـر، ونقترح ونتحكم. فكان الدراج أطـرف مطلوباتنا، وأنظف مأكولاتنا، فاستثرناه عن مجاثمه، وانتزعناه من مكامنه، واختطفنا ببزاتنا ما طار منه وانتشر، وبعثنا بوازجنا على ما تبنج واستتر، فاهتدت إليها كالودائع المستودعة، وأظهرتها كالكنوز المستخرجة، تستدل عليها بالشميم، وتستنبطها بالنسيم. فلم يفتنا ما برز، ولا سلم منا ما احتجز.

ثم عدلنا، أيد الله الأمير، عن مطارح الحمام، إلى مسارح الآرام، نستقري ملاعبها، ونؤم مجامعها، لا نألو بحثاً وفحصاً، ولا نفتر اجتهاداً وحرصاً، وأمامنا أدلة فرهة يهدون، ورواد مهرة يرشدون، حتى أفضينا إلى أسرابٍ كثيرة العدد، متصلة المدد، لاهية بأطلائها، راتعة في أكلائها، غارة بما أحاط بها، ذاهلة عما أعد لها، ومعنا فهود أخطفُ من البروق، وأسرع من السهم حين المروق، وأثقف من الليوث، وأجْدى من الغيوث، وأمكر من الثعالب، وأنزى من الجنادب، وأدب من العقارب، خمص الخصور،

[419] الذرب: الحاد من كل شيء

قب البطون[420]، رقش المتون، حمر الآماق، خرز الأحداق، هرت الأشداق[421]، عراضُ الجباه، غلب الرقاب،[422] كاشرة عن أنياب كالحراب، تلحظ الظباء من أبعد غاياتها، وتعرف حسها من أقصى نهاياتها، تتبع مرابضها وآثـــارها، وتتسم روائحها وأنشارها. فأقبلنا من تجاه الريح إليها وأغذذنـا السير نحوها، ثم دببنا لها الضـراء، وشننا عليها الغارة الشعواء، وأرسلنا فهودنا إليها، فانقضت كالشهب عليها، جائلةً في أدمها وعفرها، صائلة بعترها وشصرها. وجرت خيلنا في آثارها، كاسعة لأدبارها، فألقينا كلاً منها على ظبيٍ قد افترسه وافترشه، وصرعه وجعجعه، فصانعناها بالدماء فقنعت وولغتْ، واستنزلناها عن الظباء فسامحت ونزلت. وأوغلنا من بعد في اللحاق بما شذ وشرد، وقص أثر ما ند وبعـد، قد انتهت النوبـة إلى الكلاب والصقور، وفي صحبتنا منها كل كلب عريـق المناسب، نجيح المكاسب، حلو الشمائل، نجيب المخايل، حديد الناظرين، أغضف الأذنين، أسيـــل الخدين، مخطف الجنبين، عريض الزور، متين الظهر، أبيُّ النفس، ملهب الشد، لا يمس الأرض إلا تحليلاً وإيماء، ولا يطأها إلا إشارة وإيحاء، وكل صقـر عميم الجسم، مصمت العظم، ماضٍ كالحسام، قاضٍ كالحمام، كثير التلفت، طويل التلهف، متيقظ في نواظـره، مشتط في مطالبه، خفيف النهضة إلى ما يريد، ثقيل الوطأة على ما يصيد. فما لبثنا أن أشرفنا على يعافير متطرفة، ويحامير متعزية، فخرطنا القلائد والشباقات، فمرت مترافقات متوافقات، قد تباينت في الصور والأجناس، وتألفت في الارتياد والالتماس، فسقت الصقور إليها ضاربةً وجوهها، ناكسة رؤوسها، ولحقت الكلاب بها منشية فيها، مدمية لها. وبادرناها مجهزين، وغنمناها فائزين. واعترضنا في المرجع، أيد الله الأمير ، عانةٌ من حميـر، لم نحتسبها ولم نطمع في الوقوع على مثلهـــا، فثاورها[423] سرعان خيلنا، وخالطها فتاك فرساننا، فصرعنا منها جحشاً ومنعنا مما سواه شدة الكلال والملال، وامتلاء الحقائب من الأثقال.

وانقلبنا أيد الله الأمير، إلى معرس كنا استطبناه بادئين، وأعددناه للاستراحة عائدين. وقد وجب الجمع بين صلاتي الظهر والعصر، فنزلنا ريثما صلينا، وعرفنا عدد ما

---

[420] قبّ البطون: دقيقة الخصر

[421] الهَرَتُ: سَعَةُ الشِّدْقِ. والهَرِيتُ: الواسعُ الشِّدْقَيْن

[422] غَلِبَ غَلَباً، وهو أَغْلَبُ: غليظُ الرَّقَبة

[423] ثارَ إليه ثَوْراً وثُووراً وثَوَراناً: وثب. والمُثاوَرَةُ: المواثبةُ.

صدنا، واجتمع إلينا أهل موكبنا، ونهضنا فأتممنا، وأخذنا في صيد ما يقرب ويحف، وتحصيل ما يلوح ويستدف[424]، فكان ذلك حبارى أرسلنا بعض شواهيننا إليه، فثاروه وهو يتقيه، وثاقفه وهو ينتحيه، يعلو عليه تارةً ويستفل عنه أخرى، كالفارسين المتطاردين، والبطلين المتنازلين، فداما كذلك ساعة أو ساعتين، إلى أن اعتلقه وهبط به، وخبطه وجثم عليه. وكان قريباً منه قنبر أطلقنا عليه يؤيؤاً لنا[425]، فعرجَ إلى السماء عروجاً، ولجج في إثره تلجيجاً، كأن ذلك يعتصم منه بالخالق، وكأن هذا يستطعمه من الرازق، حتى غابا عن النظار، واحتجبا عن الأبصار، وصارا كالغيب المرجم، والظن المتوهم، حتى خطفه ووقع به وهما كهيئة الطائر الواحد، فأعجبنا أمرهما، وأطربنا منظرهما، ووردنا المنازل سالمين، وولجناها غانمين، والغزالة[426] مصوبة للغروب، مؤذنة بالمغيب، والجو في أطمار منهجةٍ من أصائلـــه، وشفوف مورسةٍ من غلائله. فالحمـــد لله الذي قـــدر الأرزاق ونزلها، ويسرها وسهلها، وآتاهـــا عبادهُ من مستصعب جهاتها، وممتنع مراماتها، وجعل لهم في الأطيـــار السارية والوحوشِ الجارية طعماً من أطايبها، وخدماً من جنائبها، وعلمهم تذليل شامِسِها وآبيها، واستجابة نافرها وعاصيها، إسباغاً للمواهب، وإرغاماً للمعايش، وإمتاعاً بالأوطار، وإسعافاً بالمسار. وإياه أسأل أن ينصر راية الأمير في دقيق الأغراض وجليلها، ويقضي الظفر لها في جسيم المطالب وضئيلها، حتى يكون شعاره في الجميع ضامناً للظهور والغلبة، وافياً له كفيلاً باليمن والبركة، ويلهمنا من شكره جل ثناؤه ما يؤذن بالدوام والتمـــام، ويؤمن من الانفصام والانصرام، بمنه وطوله، وقدرته وحوله" [427]

وكتب فيما نفذ الى العمال والمتصرفين والنواحي[428]

" قد علمت أيدك الله ما أحسن الله التوفيق له وسهل السبيل إليـه من تـــمام الصلح الذي توسطه أبو نصر خرسيد وإستقامة الأمر فيه وانتهائه الى الاشتراك في النعمة

---

[424] الدَّفِيفُ أن يَدُفَّ الطائرُ على وجه الأرض يحرّك جَناحيه ورجلاه بالأرض وهو يطير ثم يستقل

[425] اليُؤْيُؤُ: طائرٌ شِبهُ الباشَقِ، والجمع: اليآيِىءُ واليآئي.

[426] الغزالة: الشمس

[427] ابن حمدون، التذكرة الحمدونية

[428] ورد في مخطوطة جامعة لايدن 54 كتابا ورسالة بإنشاء الثابي وقد إخترنا منها ما ثبتناه، وقد وجدنا أن بعض الإنشاءات قد وردت في مراجع أخرى.

والتساهم في الدولة ولله الحمد والمنة. وسبيلك أن تتقدم بإقامة الخطبة على منابر أعمالك قاصيها ودانيها على المثال المرسوم لك في آخر هذا الكتاب. فرأيك في العمل به ومكاتبة الولاة في نواحيك بمثله والإجابة بما يكون منك موفقا إن شاء الله"[429]

وكتب إلى ابنه أبي سعيد سنان يوصيه بشؤونه

وقد أوردنا الكتاب كاملاً لما يظهر فيه من توجهات بخصوص حياة الصابي الشخصية وأسرته وأفرادها ومعلومات تخص أملاكه وتحسباته فيها. ويظهر أن تأريخ الكتاب متقدم فهو يكتبه وعمره اثنان وأربعون سنة، وأمه ما زالت على قيد الحياة كما أن عمر ابنه سنان ليس كبيرا، ومع ذلك فإن ظروف الصابي الصعبة قد بدلت في أحواله ، ويظهر الكتاب أن أبا إسحق يومها كان يسكن في واسط ، يقول:

" كتابي، جعلني الله فداك، ووصل كتابك، أبقاك الله، وفهمته وأجبتك عنه جوابا كنت أمليته على الكاتب بعد إفطاري من صوم اليوم الأول من صومنا الذي نحن فيه، عرفنا الله جميعا بركته، وأنا تعب ملتاث، فلم أستوفه، وعملت على اتباعه بما أشرحه، وأعلم، فديتك، أن صورتي قد إستحالت عن كل ما كنت تعهده مني، لأن الشيب قد لبسني وأسرع إلي، حتى أنك لو رأيتني لما عرفتني[430] مثلا مضروبا، وقد لحقني فتور وضعف في نفسي وجسمي، وتواترت علي منامات رأيت فيها شيخي[431] على أحوال إستوحشت لها، فلولا أنّ سيدنا الأستاذ غائب في الوجه الذي هو بصدده، أحسن الله معونته، وأن معوّله علي خاصة في النيابة عنه في الأمور كلها، لتوصلت الى وقوع الإذن في الإصعاد، وأرجو أن يسهل الله من إنحلال هذه العقدة على الإيثار والمحبة، ما تتعجل معه الأوبة، ويرزقني من النظر الى وجهك، ووجوه الجماعة، أبقاها الله، ما أسكن إليه وأُسر به، وأحمد الله عليه إن شاء الله. وقد تجددت لي، قدمني الله قبلك، نيةٌ في وصية أوصي بها عليك، والى أخيك أبي علي، أنا أفديكما من المحذور كله، وليس يحتمل ذلك الكتاب، ولا بد معه من المشافهة وسبيلك ألا تضع

---

[429] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلال بن زهرون الحراني الصابي، مصدر سابق

[430] تظهر المكاتبة أن أبا إسحق ليس في المكان الذي تسكن فيه أسرته ومنذ فترة طويلة، فهو يذكر لابنه أنه لو رآه لما عرفه من شدة التغييرات التي أثرت في شكله.

[431] يقصد والده

كتابي هذا من يدك حتى تستعد للانحدار وتنتظر إنفاذي الزبزب[432] فإنه لا يتأخر عنك على أثر هذا الكتاب بعد عوده من حضرة سيدنا، فإن أبا سهل إستعاره مني وحدره معه الى هناك في رسالة تحمّلها من مولانا الأمير معز الدولة، وهو يعود عن قريب بإذن الله، وأول سبيلك أن تعمله أن تُسلم الى والدتك أبقاها الله، كل ما لي في يديك من حساب ودراهم ودنانير وقليلٍ وكثيرٍ، وتأخذ خطها بحصول ذلك في يـــدها، واحمله معك لتسلمه إلي، ونتواقف عليـــه وعلى غيره مما بيننا شفاها، وتصلح، أنا أفديك، أمورك، وتنتظر الزبزب لتتحدر فيه ، وينبغي أن تنسخ ثبت أملاكي كلها من ضيعة وشقص[433] وحصة وشركة ورحا[434] قليل وكثير، ليثبت ذلك في الوصية، فإن لي في تقديم هذا الباب غرضا سبيلك مع ما لي عليك من الحق والطاعة أن تساعدني عليه ولا تخالفني فيه، فاعمل، أنا أفديك، على ذلك، واحذر أن تضجع فيه أو تتشاغل عنه إن شاء الله. وينبغي، قُدمتُ قبلك، ألا يقف على هذا الكتاب والدتي ولا أحـــد من حُرمنا وباقي أهلنا لئلا يغتموا وتضعف نفوسهم، بل أنت وحدك تقف عليه ووالدتك وأخوك وأبو العلاء أخي خاصة، وتسأله عني مثل ما قد كاتبته به وسألته إياه من النيابـــة عني فيما كنتَ، أنا أفديك، تنوب فيه عني من أمر الضيعة والتسويغ والمنزل ولقاء السلطان مـــدة الأيام التي تغيب فيها عن مدينة السلام والى أن تعود بإذن الله، فإنني عامل على أن أنظر فإن كان إصعادنا يَقرُبُ، إحتبستك عندي الى أن نصعد في موضع واحدٍ، وإن كان لنـــا مقامٌ يطول فرغت مما بيني وبينك، واستودعتك الله ورددتك الى بغداد، ولله المشيئة. نعم، ومما ينبغي أن تفرغ منه قبل إنحدارك إلي إقامة خادم بوابٍ بغيضٍ جَلدٍ، لا يشرب النبيذ، ولا يدخل في الفضول، وتستحلفـــه أن يلازم الباب، وتسلّم إليـــه الأقفال، وألا يتصرف في قضاء حاجة ولا يفارق موضعه، وعلى أنني أظنك قد أحكمت ذلك ولم تستجزنا خيره، مع ما نفذ عني فيه من الكتب المهمة إليك، والى إخي أبي العلاء. واعلم، قدمني الله قبلك من كل سوء ومحذور، أني لست أخط إليك خطا بعد هذا الكتاب، ويرد علي جوابه بما أسكن إليه، وأقف عنده، إن شاء الله. ولعلي أنا أفديك أن أُدخِلكَ الى مولانا معـــز الدولة، وأجعل لك رسما في الوقوف بين

---

[432] الزبزب ضرب من السفن النهرية الصغيرة التي يستخدمها الخلفاء والأمراء والوزراء وعلية القوم، ويبدو أنه سريع وأمين ومريح من حيث لمبيته في السفر والرحلات.

[433] الشقص: السهم والحصة والنصيب في الشيء إن كان مالا أو أرضا

[434] الرحى مطحنة لطحن القمح والشعير

يديه، بل هذا متمكن في نفسي، مع ما قد إستشعرته، وأوكد على سيدنا في أمرك وتصريفك، فقد صرت رجلا، أعيذك بالله، وأنا في وقتي هذا على خلاف ما عهدتني، ضعفَ قلبٍ وجسمٍ وخوفا ووجلا، والحوادث غير مأمونة، ولا بد من بلوغ ما في نفسي من هذه الوصية، وأن آخذ بحظٍ من النظر في أبواب البر، وإخلاص النية في أسباب إستئنافها، وأمورٍ أعملها بحسب الإمكان، إن شاء الله. ولا تقدّر، قدمني الله قبلك، أن كتابي هذا صدر عن خاطر ضعيف، ولا عن عارض خفيف، ولا عن نية فيها فـتورٌ، ولا بصيرة فيها تقصير، بل بعد أشياء تكررت عليّ، وألوان طريفة إتفقت لي، وطويةٍ صحيحة أخلصتها، وعزيمة قوية أمضيتها، فليكن عملك بحسب ذلك. ومن الأشياء الصغائر التي أضعفت نفسي، ما إتفق من غرق بغلنا الأشهب بواسط يوم تحولت سنتي الثانية والأربعون، نسأل الله بركتها، فإنه سقط بمركبه الى وسط دجلة وتلف ثم أخرجه الغاصة، فأخذنا المركب سالما تاما، ولله الحمد، وقد كنت كتبت إليك في هذا المعنى كتابا أرجـو أن يكون قد وصل، وعرّفتك فيه أنني لم أغتم على البغل، بل اغتممت لاتفاق مثل ذلك يوم تحوّلت سنتي، ورسمت لك أن تتقدم الى أبي الحسن المنجم بتحويلها، والحكم عليهـا، وشرح ذلك ليكون معك إذا أنفذت اليك الزيزب، وأذنتُلك في الانحدار حدرته الي معك، فافعل، أنا أفديك ذلك، وقدّمه ولا تؤخره، ولا تشغل قلبك بالبغل، فقـد إبتعت لك بغلةً شعرةٌ منها خيرٌ منهُ، وبه فداك الله، يا سيد أبيه، وحسبنا الله ونعم الوكيل".[435]

وكتب عن عز الدولة الى فخر الدولة

" كتابي، أطال الله بقاء سيدي الأميـر، ومولانا أمير المؤمنين على أفضل ما عوّده وعـوّد خدمه فيه، نفاذ أمر ونهي، وتمام عز وتمكين ، وسمو كفاية ووقاية، ونيل إرادة وبغية،... وورد أبو سهل وأبو منصور وأوصلا ما إستخدمهما سيدي في تحمله تذكرة وكتابا، ورسالة وخطا،... وصادف ذلك مني ثقة لا يعترضها شك، ويقينا لا يطور به ريبٌ، وصار ما نتعاطى بيننا من القول فيه، بمنزلة الفضل الذي لا يحتاج إليه، وأسأل الله أن يصل الحبل ويجمع الشمل، ويجعل ما أخلصه بيننا، وهذّبه من ودنا، مرعيا بعينه، ومحروسا في ضمنه، ومفضيا الى غاية تمامه، ونهاية إنتظامه، بقدرته،...".[436]

---

[435] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي، مصدر سابق

[436] المصدر السابق

ومن كتاب الى الأمير أبي تغلب

" لو كانت الخدمُ أطال الله بقاء الأمير لا يُطالب ساداتها بالحقوق إلا إذا سلفت موجباتها، وإستحكمت أسبابها، لقل المتعلق بهـــا منهم والمات[437] بها إليهم، لأن الأقوى مستغن عن الأضعف، والأدنى محتـــاج الى الأشرف، فليس تستـوي بالجهتين أقــــدام التقارض، ولا تجمعهما منازل التداين، وإذا كان هذا الأصل ثابتا مستقرا، وراسخا مستمرا، فأيســـر شُعبِ الحق والخذمة[438] ، وأخفض درج الذمام والعصمة، يمدان على التابع ظل المتبـوع، ويبوأن الأمل كنف المأمول، هذا على المتعالم في الجمهور، والمتعارف في العموم، فإذا إتفق أن يتفرد السيد ببراعة في كرمه، والمَسودَ ببلاغةٍ في شكره، وكانت الصنيعة من ذاكَ نبيلةَ المصدر، شريفة المنسبِ، وعند هذا مُصيبة الغرض، جميلة الموقع، فقد صار ذلك قُربا يلزمهما، ويؤكد ما بينهما، وتلك حال الأمير فيما يختص به من طيب أعراقه وأخلاقــه، وكرم أصوله وفروعه، وحالي فيما أختصُ بـــه من إستحقاق رأيه وعنايته، وإستيجـــاب إحسانه وإمتنانه. ولي به، أيده الله، وإن لم تكَن الأقدار أسعدتني بلقائه، وضمتني الى فنائه عصمة التأميل له، والمناب عنه والكون مع أسبابه المختص به في كل أمرٍ يمسه، وحال تهمه، وله، أيده الله، عندي سلف في الإنعام، لم يزل واصلا إلي على الأيام، ثم قصّر بعد الدُرور، وركد بعد الهبوب، وتوقعت أن يهتز لإعادة رسمه هزة الجواد من ذاته، وأن يجريني في التطول به على أحمل سُننه وعاداته، فاعترضتْ دون ذلك عوارض ما غيرت رأيه ولا ثقتي، ولا أعلّت نيته ولا يقيني، ولم يكن إنقباضي عن الكتاب الى الأمير إلا إنتظارا لسببٍ يقتضيه، وعلما بأنه محمول مني على المذهب المحمود من مستعمله. وأنا واللهِ، أيد اللهُ الأمير، على تصرف أحوالي من قربٍ أو بعدٍ، ومشهدٍ أو غيب، ومكاتبة أو إجمـــام، ومواظبة أو إغباب، أتجاوز في موالاته غايات جميع عباده الحاملين لنعمته المنتسبين الى جملته، المشار إليهم في طاعته، الموثوق بهم في مشايعته، ولو ملكتُ إختياري، وتصرفتُ على إيثاري لها، جرتُ الى حضرته، وثابرت على خدمته، ولم تقصر بي المسعاة عن وطئ بساطه، والهمّةُ عن تقبيل يده، ولكنني بين عقالي خدمةٍ أو نكبةٍ يترامياني بي متداولين، ويتعاقبان عليّ متناوبين، ورُبَّ بعيد الـــدار ناصحِ الحبيب، وقريب الجوار متّهم الغيب، والأحوال بين الحضرتين الجليلتين متمهدة ولله الحمد، تمهدا يقتضي

---

[437] هكذا وردت في أصل المخطوطة ويمكن أن تعني من يمت لهم.

[438] الخذمة: السرعة في السير

التساهم في النعــم، والتقارض في الخِدَم، فمن إنقطع منهم الى إحداهما، فقد تحرّم بكلتيهما، وأخذ بعروتيهما، والله جل اسمه يزيد في ذلك ويتممه ويُبرمـــه، ويزيد للأمير السلامـة والكفاية، ويجعلهما لباسا وسربالا، وعليه جُنةً وظلالاً، ولا يعدمه زحام الراغبين إليه، واللائذين به، والمستكنين في ذراه، واللاجئين الى حمـاه، بقدرته. وقـد نابتني في هذا الوقت نائبةٌ، نهكت وأجحفت، وبالغت وأسرفت، وما أسامح نفسي بالإغراق في شكواها، لأنها تجافت عن المهجة والجاه، ولم تتعدَّ الأعواضَ والأعراض، وأنا أحمـد الله الذي لا يُخلي عباده من صنعٍ لهم تنطوي عليه أثناء النكبات إذا طرقتْ، ولطفٍ بهم تلين بـــه صعابُ الخطوب إذا أجمحت، وإياه أسأل أن يعيذ الأمير منها، ويجعل ساحته محرّمةً عليها، ولا يسلبه النعم غاديةً ورائحـــةً، والمواهب راتبة وحادثة، ولي في تفضله، أيده الله، بالمعونة على هذه الحال أمل هو أكرم من أن يرده خائبا، وحقيق بأن يصدره غانما، فإن رأى الأمير أن يتوّلى في ذلك بما تبعثه عليـــه همته السامية، ويده الهامية، ونفسه الفائضة، ويأمر، زاد الله أمره علواً، بإجابة لي عن هذا الكتاب، تُشرفني وتجملني، وتوكد آلاءَهُ وصنائعه عندي فعل، إن شاء الله"[439]

وكتب عن محمد بن بقية إلى عضد الدولة

" وقفت على ما شرفني به مولانا الملك الجليل، أطال الله بقاءه، في خطابه، وأهلني لـه من كتابة وإنابة، من جميل رأيه وجليل إصطفائه وإجتبائه، وتلقيت نعمة الله في ذلك بالشكر المستديم لها، والاعتداد المستزيد منها، وإشتد إغتباطي بالمرتبة التي لنتها وحللتها، والمرقبة التي علوتها وامتطيتُها، وألزمت نفسي مايلزمهـــا من التمسك بأسباب طاعتـــه، والتعلق بإمراس مشايعته، والمحاماة على ما تمهد لي من عنايته، وأزل إلي من رعايته، والله المعين. وأما التذكرة المفردة من مولانا الملك الى مولاي الأمير عز الدولة فقد عرضتـها عليه، ولخصتها له، وجرى على عادته في العمل عليها، والانتهاء إليها، وأجاب عنها بما أبو الحسن يؤديه، ويورد ما سوّفه به فيه، ولله المشيئة. ولن يقع عدولٌ عما أمر به مولانا الملكُ من المقام والثبات وترك المسير والبراح بوجه ولا سبب، إلا أن الحاجة ماسةٌ الى الاستظهار بطائفة من الرجال يسيرون سيرا حثيثا ويحصلون بهذا المعسكر حصولا وشيكا للدواعي الموجبة التي قد تضمنها جواب

---

[439] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي، مصدر سابق

التذكرة، ولمولاي في ذلك فضل رأيه العالي إن شاء الله...." [440]

وكتب إلى أهل عُمان عن مُعز الدولة

" أنتم، أكرمكم الله، بمـــا ترجعون إليه من صحة الإفهام، ورجحان الإحلام، تعلمون ما يجب على الرعية من طاعـــة راعيها، ويلزمها من مشايعـــة واليها، وتفترضون ذلك على نفوسكم، وتعرفون ما فيه من الحظ لكم، إذ كان عائدا عليكم بالسلامـــة في العاجلة والآجلة، والنجاة في الدنيا والآخرة، والله يوفقكم ويسددكم، ويهديكم ويرشدكم، ويعين على ما نعتقده فيكم ولكم، ونعتمده من مصلحتكم وموافقتكم بمنهِ وقدرته. ولم يزل، أكرمكم الله، مولانا أمير المؤمنين يتطلع أخباكم، ويتعرف أحوالكم، ويرى فيكم ما يراه في كافة المسلمين من حماية حريمكم، وصيانة جميعكم، ونظم شؤونكم وتهذيب معاملاتكم، وقبض أيدي العصاة عنكم، وإزالة طمعهم فيكم وفي بلادكم، ويجارينا، أعزه الله، ذلك من نيّته، ويبعثنا فيه على خدمته، ويهيب بنا الى الذّب عن دياركم، والاستخلاص لنواحيكم، والاستنقاذ لها ممن غلب عليها، وإنتزاعها ممن نازع فيها، حتى نتولى السيرة بكم والسياسة لكم، والإقامة لفرائضكم والتنفيذ لأحكامكم، من يعقد لـه، أيده الله، لـواء التقليد، ويكون في طاعته على سواء السبيل، والله يطيل بقاءه، ويكبت أعداءه، ويمد ظله على المسلمين والمعاهدين، ويوفقنا للقيام بحقه أجمعين. ولمّا رَدّدَ في أمركم فكرهُ، وأتعب فيما عاد بالحظ عليكم نفسه، إختار لكم عِزَّ الدولة واليا وراءه فيما أهمّـــه من أحوالكم كافيا، فعقد له على عُمان وأعمالها، وسهولها وجبالها، وجزائرها وسواحلها، وأكنافها وأطرافها، وندب، أيده الله، وندبنا أبا الفرج محمد بن العباس نائبا عنه، في الشخوص إليكم، والخلافة له في الولاية عليكم، لرفيع محله، وخصيص موقعه، وتأكد سببه، وتقادم حُرمته، وما له من المقامات المحمودة، والآثار المرتضاة، ففوض، أيده الله، إليـه ما عوّل مولانا أمير المؤمنين فيه عليه، وشخص إليكم في جيش يلين كنفه لكم، ويخشن مسّه في الدفع عنكم، وتخف وطأته عليكم، وتثقل في مقارعته عدوكم، وكتب مولانا اليكم بما جعله الحجة عليكم في الانقياد له، وقرن، أيده الله، طاعتكم له بطاعته ، ومعايشتكم إياه بمشايعته، إذ كان من قبلنا وقبل عز الدولة بعده، وفوض إليه مسالمة من تجبُ مسالمته، ومحاربة من تجب محاربته، وجعل إليه أمان من يستحق

---

[440] المصدر السابق

الأمان بالطاعة والموافقة، والإيقاع بمن يستوجب النكال بالخلاف والمشاقة، فاعلموا ذلك من رأي أمير المؤمنين ورأينا، واعملوا عليه، وامتثلوه وانتهوا إليه، وبايعوا أبا الفرج على ما نفذ له مبايعة من يسعى لصلاح شأنه، وعمارة بلاده، وطاعة إمامه وسلامة دينه، وكاتبونا وعــز الدولة بما نتطلع الى علمه من جهتكم، ونراعيه من مجاري أموركم، إن شاء الله" [441]

وكتب عن نفسه

" كتابي، وكان عودي الى مديــنة السلام يوم الأحد الماضي، بكتاب الوزير الوارد عليّ مبشرا بالنعمة المتجددة له ولنا معشر أوليائه وخدمـــه فيها، وشاهدت من الحال ما كان إغتباطي به بحسب ما عرفت، أيدك الله، من صورتي قبلها، وأنا أحمد الله على ما كشفه من الغمة، وأنزله من الرحمة، وأسأله التمام والدوام بقدرته. ووردت منـــه، أيده الله، على منزلة متضاعفةٍ، ورتبة مستقرةٍ وعناية زائدة، وتفويض تام إليّ، وتعويل في الملم عليّ، وقـــد رسم لي النّظر في خدمته بأسرها، وجمع لي متفرقهـــا، والله تعالى يُحسن المعونة على ما قضى حق الضيعة، وأنت يا مولاي المهنا بما تجدد للوزير، لأنك ما زلت غالي المقالة في موالاته، عالي المنزلة في طاعته، وقد عرفتك ما وجدتك عليه في تلك الأيام، من التألم والاغتمام، والحزن والاهتمام، وازدادت بصيرته في ودك، وإيجابــه لحقك، ومحافظته على عهدك، وأخرج إلي كتابك في عُرض الكتب الواردة، فأجبت بما تقف عليه، وخدمتي في ذلك مشتركة، أنني عبد الأمير وخادمه، والمتمسك بعلائق العصمة عنده، ووثائق الحرمة به، لا يزيلني الإغفال عن حسن الظن، ولا يجد عندي الإحسان مستزادا في الشكر، والله تعالى يُعينني على وجود ما أطالبه من فعله الكريم، وعهد تفضلـــه القديم، ويوفقني لما حرس رأيه، واقتضى إنعامه، بمنه وطوله. وقد علمت أن تأخر كتابك عني ليوهمك غيبتي عن مدينة السلام، وأنك لم تغفل ما سألتك إيصاله ولم تقصّر فيما جشمتك إياه وأنا على الظن الجميل مقيم ولأثرك المشكور متوقع إن شاء الله". [442]

---

[441] المصدر السابق

[442] المصدر السابق

نسخة منشور كتب للصابئين المقيمين بحران والرقة وديار مضر

هـذا كتاب منشور من عبـد الله عبد الكريم[443] لجماعـة الصابئين المقيمين بحران والرقة وديار مضر، أن أمير المؤمنين يأمر بصيانتكم وحراستكم، والذّب عن حريمكم، والحياطة من ورائكم، ودفع الظلم والضيم عنكم، وتوفيتكم ما يوجبه العهد والذمّة لكم، وإنصافكم فيما يُجتبى من جواليكم، وحملكم فيها على عادل رسومكم، والتخلية بينكم وبين مواريثكم الحشريّة[444] وغيرهـا، أصولها وفصولها، وكثيرها وقليلها، وترك مداخلتكم فيها، ومشاركتكم في شيء منها، على الوجوه والأسباب كلها، إذ كان أمير المؤمنين يرى فيها، وفي مواريث المخالفين بأسرها، رأي رسول الله عليه وآله في الأثر الثابت عنه قوله إذ يقول: لا يتوارث أهل ملتين، وتمكينكم من حضور مصلياتكم ومساجدكم ومجامعكم ومشاهدكم لإقامة فرائض دينكم على ما جرت عاداتكم، من غيـر منع لكم، ولا إلحاق أذيّة ولا هضيمة بكم. فليعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين وأمره، وليعمل به جميع من عُرض هذا الكتاب عليه، من ولاة الخراج والمعونة والأحكام والمواريث والحسبة وغيرها من الأعمال، ومن خاصة المسلمين وعامتهم، وليحذروا من مخالفته والتجاوز له، إن شاء الله" [445]

ونسخة فصل من كتاب

وعرض علينا كتابُك، أعزك الله، بما يدل على إستيحاش خامرك، وسوء خاطرٍ عارضك وظنٍ منك، بتنكر كان منّا لك، فعجبنا من ذلك لأنه محالٌ، لا أصل له وباطلٌ، لم يُهْمَمْ بشيء منـه، بل نحن على خلافـه إرتضاء لخدمتك، وإحمادا لمناصحتك، وإعتقـادا لربّ الصنيع عنك، والزيادة في الإحسان إليك. فأسكن، أعزك الله، الى ما ذكرناه لك، واجرِ على عادتك في خدمتنا، وسجيتك في التقرب منا، بصدرٍ في ذلك منشرح، وأملٍ منفسح، وثقةٍ لا إنزعاج معها، وطمأنينة لا إرتياع يشوبها، إن شاء الله" [446]

---

[443] أبو بكر عبد الكريم الطائع لله ابن المطيع لله ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فترة خلافته 363 - 381 هـ

[444] المواريث الحشرية : هي مال من يموت وليس له وارث.

[445] الجزء الثالث من رسائل أبي إسحق ابرهيم بن هلل بن زهرون الحراني الصابي، مصدر سابق

[446] المصدر السابق

وكتب إلى الصاحب بن عباد وهو بالري [447]

" أطال بقاء سيدنا الصاحب الجليل في سلامة دنيا، ودين ونفاذ أمرٍ وتمكين، وتمام عزٍ وتأييد، وثبات وطأة وتمهيد، وعلو قدر وسلطان، وتعاظم خَطَرٍ وشان، وتولاه في نفسه وأوليائه بأحسن ما عُرف وألف، من نعمٍ دارَّةِ الحلب، متفرعة الشعب، محمية الجهات والجوانب، محجوبة عن النوائب والشوائب، وأراهُ في حُساد فضائله، وكفّار فواضله، ما عوّده فيهم من شقاء جدودهم، وفلول حدودهم، وحلول النكال بهم، وإنبات العِصم منهم، وجَعل قطبه حُكما لمدار الأفلاك، ونهجا لمجاري الأقدار، فلا ينزل منها محبوب مطلوب إلا توجه إليه ونجاه، ولا مكروهٌ محذورٌ إلا إنحرف عنه وتحاماه، ثم كان برؤوس معانديه حُلوله، وبرقابهم إحاطته، وفوق ظهورهم محمله، وعلى صدورهم مجثمهُ، أمراً جزماً قضاه الله تعالى له، وخصّه به، وأعطته الأيام عليه عهد أمانها، وأمرت له به عقد ضمانها، عاطفة عليه بطاعتها ومواتاتها، معضية له عن نوائبها ونبواتها، وحقيق عليه جَلّ إسمه أن يفعل ذلك به، ويسمع هذا الدعاء فيه، إذ كان مرفوعا إليه في أوفر عباده فضلا، وأغمرهم نبلاً وأجزلهم أدبا، وأكرمهم حَسبا، وأعلمهم بطاعته، وأولاهم بإحسانه ومعونته. كتبت هذا الكتاب أيد الله سيدنا وأنا أود أنّ سواد عيني نقسُه، وبياضها طرسه [448]، شوقا الى سنا طلعته، وتوقا الى لآلئ غرته، وقرما [449] الى تقبيل أنامله، وظمأ الى إرتشاف بساطه، وبالله لولا الجناح المهيض، وأن الجريض حال دون القريض، [450] لعز على حامله أن يسبقني، وأن يكون

---

[447] يعد هذا الكتاب من أبلغ الكتب في شكر فضل العلاقة التي ربطت بين الصادين الصاحب بن عباد وأبي إسحق الصابي الذي يكتبه وهو في آخر أيام حياته وقد تقصر عنه المعاش وضعف الحال بأسباب ما تجمع عليه من أهوال جراء خدمته البارة المنيفة لدار الأمارة والخلافة، وصار عيشه مرهون بمن يذكر له الفضل في الكتابة والرياسة ويقدر ظروف الزمان التي قد تنشب أظفارها في الأبرار والعظام. ولذلك نرى أن الصابي يكبر في زميله وصديقه حسن الذكر والتفقد الدائم ويأمل بأن يكون موصولا غير منقطع على معاشه في حياته، بل ويأمله لأسلافه من بعده بحكم حرص الصابي على رعاية أفراد أسرته. ويظهر الكتاب تفنن الصابي في أساليب البلاغة وإختيار المفردات وأزواج الفقر المسجوعة ذلك أن من يخاطبه هو الصاحب بن عباد الذي يعد أيضا من كتاب الدنيا الأربعة والذي يتذوق الكلمة والسجعة والأدب والشعر عامة. ووقد أوردنا الكتاب على طوله لما فيه من قيم بلاغية وجماليه في الذكر والعرفان.

[448] النِّقْسُ: الذي يكتب به، بالكسر. ابن سيده: النِّقْسُ المِداد، والجمع أنْقاسٌ وأنْقُس، والطرس الصحيفة التي يكتب عليها.

[449] القرم: شدة الشهوة

[450] هاضَ الشيء هَيْضاً: كسره. وهاضَ العظمَ يَهِيضُه هَيْضاً فانْهاضَ: كسَره بعد الجُبور أو بعدما كاد يَنْجَبِرُ، فهو مَهِيضٌ. واهْتاضَه أيضاً، فهو مُهْتاضٌ ومُنْهاضٌ. والجَرَضُ: الجَهْدُ؛ جَرِضَ جَرَضاً: غَصَّ. والجَرَضُ والجَرِيضُ: غَصَصُ الموت. والجَرَضُ، بالتحريك←:

حظَّه منه أكثر من حظي، لكني قد قدمت الاعتذار، وأوضحت البرهان، وذكرت ما أنا مرتهنٌ به من طول الذيل، وثقل الدَّين وضعف الجسم، وقصور الحال، وغير ذلك من القواطع والموانع التي لا فَكاك منها، ولا إختيار معهـا، ولا يملك المدفـوع إليها إلا التأدب بإدب الله جل وعزَّ في الشكر على ما قضى، والصبر لما أمضى، والثقة بوعده الحق، وقوله الصدق، فله الحمد رب العالمين. وورد، أيد الله سيدنا، أبو العباس وأبو محمد، أيدهما الله، حاجين، فعرجا إلي ملمين، وعاجا عليّ مسلمين، فحين عرفتهما وقبل أن أردَّ السلام عليهما مدّدت اليد الى ما معهما، كما مدها حسان بن ثابت الى رسول جبلة بن الأيهم، ثقة مني بصلته، وتشوفا الى تكرمته، وإعتيادا لإحسانه، وألفا لموارد أنعامه، وتيقنا أن الخطرة مني على باله، مقرونة بالنصيب من ماله، وأن ذكراه لي مشفوعة بجدواه، فقمت عند ذلك قائما، وقبّلت الأرض ساجدا، وكررت الدعاء والثنــاء مجتهدا، وسألت الله، جل اسمه، أن يطيل له البقاء كطول يده بالعطاء، ويمد له في العمر كامتداد ظله على الحُر، ويطرف العيون عن إصابة كماله، ويصرف الغير عـن تطرُّق إقباله، ويحرس على هذا المدد القليل العدد من مشيخـة الكُتاب ومنتحلي الآداب، ما كنفهم به من ذراه وأفاءه عليهم من نداه، وأسامهم فيه من مراتعه، وأعذبه لهم من شرائعه التي هم محلؤون إلا عنها، ومحرومون إلا منها، وما عسيت أن أبلغ في شكر سيدنا وحمده، على ما أهلني له بره ورفده، وجُهدي يقصر عن عفوه، وإسهابي يعجز عن وحيه، وهل أنا في ذلك لو فعلته وتعاطيته، إلا كمن جارى الحصان بالأتان، وواجه الغزالة بالذبالة[451]، وقارع الحسام بالعصا، وبارى الدُّر بالحصى، من الذي تسمو به النفس الى مجاراته في حلبات الفضل، في قول أو فعل، وإبتداء أو جزاء، وقرض أو قضاء، وهيهات عزُّ المرام، وبعُدَ المنال، واستوى الناس في التسليم لـــه، وتقاربوا في الإنحطاط عنه، وتأسى بعضهم ببعض، في الاعتراف والإقرار، والاستراحة من الاعتذار، وعَلاَّمُ الخفايا، المستبطن للطوايا، يعلم أني ما انتهيت قط في تأميله الى غاية، إلا أوفت بي الهمة عليها، ولا عددت كل صلة كانت منه، إلا فائدة لما بعدها، ولا كان سـروري بمــا تفقدني به، إلا سرور الواصــل الى النــادرة لم تحتسب، والبديعــة لم ترتقب ، بل

الرِّيقُ يَغَصُّ به. وجَرِضَ بِرِيقِه: غَصَّ كأَنه يبلعه. والقَرِيضُ: ما يَرُدُّه البعير من جِرَّتِه، وكذلك المَقْرُوضُ، وبعضهم يَخِيلُ قولَ عَبيد: حالَ الجَرِيضُ دون القَرِيضِ على هذا. ابن سيده: قَرَضَ البعيرُ جِرَّتَه يَقْرِضُها وهي قَرِيضٌ: مَضَغَها أَو ردَّها.(لسان العرب)

[451] الغَزالةُ: الشمس إذا ارتفع النهار، وقيل: الغَزالةُ عين الشمس، وغَزالةُ الضحى وغزالاته بعدما تنبسط الشمس وتُضْحي، وقيل: هو أَول الضحى إِلى مَدِّ النهار الأَكْبَرِ حتى يمضي من النهار نحوٌ من خُمُسِه. والذُّبالةُ: الفَتِيلة التي تُسْرَج.

كانت كما قال أبو عبادة:

ما أملي فيكَ بالضعيف ولا	ظني في نجحه بمكذوبِ
ولا قبولي ما كنتَ جدت به	عليَّ بالأمس من خلسة الذئبِ
لي أملٌ دائمُ الوقوفِ على	منتظرٍ من جَداك مرقوبِ
وهمةٌ ما تزالُ حائمةً	حول رواقٍ عليك مضروبِ

قد تصفحت، أطال الله بقاء سيدنا، السِّيَر، واختبرت الشيم، وعرفت فرق ما بين الخُلق والتخلق، والطبع والتطبّع، وخدمت الأمراء والوزراء، وشاهدت العلماء والأدباء، فوجدت أهل كل زمان يلهجون بالثناء على من تقدمهم، ويقرون بالسبق لهم، ويتخيلون أنهم مقصورون عنهم، وواقفون في كل منقبةٍ دونهم، وما زال هذا ديدناً ومذهبا يجمعهم، حتى رأيناه، أيده الله، قد عكسه عن وجهه في السالف، وأجراه على سننه في الخالف، فصار المتأمل لمواقع فضله، والمستقرئ لآثار نبله، يعلم ضرورةً أنه بالغ في المعالي الى غايةٍ لم ينلها مَن مَضى، ولا يرومها مَن بقى، فبارك الله له فيما خوّله وأعطاه، وأفضى به الى أبعد أملٍ وأقصاه، وأدام دولته في العز السامي، والمحل المترامي، والمجد الزائد النامي، والأمر النافذ الماضي، وشفع له سعادة الكون في زمانه، بسعادة الانصراف عن الدنيا في أمانهِ، والتقدم الى كل مخوفٍ ومحذور قبله بمنه. وقد كنت أحِبُّ أن يكون سيدنا وصلَ لخادمه التشريف بالتكليف، والإنعام بالاستخدام، وأزال إليه توقيعا بخطّه ينيله فائدة الفضل مع فائدة الإفضال، وعائدة الأدب الى عائدة النشب[452]، فقد علم الله، وكفى به، أنني إذا قرأت فقرة من فقره، أو أومضتْ لي لمعة من لمعه، وقفت بين سرور الإعجاب، وسرار الاحتجاب، وترددت بين تطاول الفاخر به، وتقاصر المتأخر عنه، وعلى أني في هذا القول كالصغير المستكبر، والبغاث[453] المستنسر، إذ قدره أفخم، وشأنه أعظم، من أن يعتذر من التأخر عنه الجواد الرائع، فضلا عن السُّكيت التابع، لكني أرسلت نفسي على سجيتها، فتعدى لساني حد همتها، وقد علمت أن سيدنا عوضني من ظاهر المكاتبة، بباطن المحافظة، وأبدلني من الإحسان المقول، بالإحسان المفعول، وأنا ساكن في ذراه آمن في حماه، مكفي بعطاياه ومواهبه، مكفول بمطاعمه ومشاربه، تمم الله النعمة عليه، وضاعفها لديه، ونهج لي قبل حلول ما لابد منه، سبيل ما لا عوض عنه، من النظر إليه وتقبيل

[452] التعلق

[453] البغاث: الضعيف من الطيور

يده، ولا حسر عني ظلهُ دانيا ونائيـا، ولا سلبني طولـه بادئا وعائدا، إنه لِمن دعاه مجيب، وعلى من نحاه قريب. وقد وصلت بهذا الكتاب قصيـدة أرغب الى سادتي أهل المجلس المعمور في إنشادها، والى الصاحب في الإصغاء إليها، مسامحا لي في قصورها عن قدره، ووقوعها دون حقه وفرضه، ولولا أن إكثار العبد في مخاطبة مولاه محمـول على التبسط، ومجانب لسبيل الإجلال والتحفظ، لظننت أن يدي تستمر في مكاتبته إستمرار الجامح، وخاطري يستَنُّ في مفاوضته إستنان السارح، فإن رأى الصاحب أن يحمل عبده في منثور ما نثره، ومنظوم ما نظمه، وفي الإيجاز إذا إختصر وخفف، وفي الإطناب إذا أكثر وأكثف، على الإحتساب له نصفا، وترك المحاسبة في العجز والتقصير، فعل إن شاء الله. أطال الله بقاء سيدنا الصاحب نافذا قدره، فائتا مداه، دانيا نداه، ساكنا جأشه، هنيا معاشه، عزيزا جاره، محمياً ذماره، قريرة عينه، مطمئنة نفسه، وقضى له في جميع حالاته، وسائر متصرفاته ومتقلباتــه، بظهور الولي، وثبور العدو، ونجاح المطالب، وبلوغ المـآرب، وإكتساب المكارم، وإدخار المثاوب، وإنبساط اليد، وصعود الجد، وتطويق الرقاب، أما بنعمة مُسداة الى شاكر، وأما بنقمة ممضاة على كافر، وأقول بالكليّة الجامعة سمع الله تعالى له واستجابةُ فيه، فإن جملتهُ تحيط بالتفصيلات، وغايته توفي في الغايات. وأول القصيدة:

مرحبا بالسني من جدواكا   والهني المري من نعمــاكا[454]

فصول من خطابات ومراسلات كتبها الصابي للخلفاء والأمراء والوزراء من التي تتعلق بشؤون الخلافة والدولــة وما يرتبط بها

وقد آثرنا إقتباس الاستهلالات والمقدمات في هذه المخاطبات وأهم الفقرات التي وردت فيها تلك التي تظهر البلاغة في التوجيه والمعرفة في طبيعة الأمر وخصوصيته فيما يتطلب من تقديم واستهلال وهذا الأمر عائد الى اختيار الصابي للبدء به ولا يعتمد على ما أوصى به الخليفة أو الأمير أو الوزير رغم أن هذا يقع ضمن الصياغة التي يعدها الصابي ولكنها تكون موجهة بوجهة من طلب في الغالب.

[454] ورد في المخطوطة أن القصيدة ثابتة في شعره، إلا أننا لم نعثر عليها في جميع المصادر التي إطلعنا عليها .

فصل عن الخليفة في رعاية حقوق الآباء في الأبناء واصطناع أولاد الأولياء

" وأمير المؤمنين يذهب على آثار الأئمة المهديين، والولاة المجتهدين، في إقرار ودائعهم عند المترشحين لحفظها، والمضطلعين بحملها. من أولاد أوليائهم وذرية نصائحهم، إذ لا بد للأسلاف أن تمضي، وللأخلاف أن تنمو، كالشجر الذي يغرس لدنا فيصير عظيماً، والنبات الذي ينجم رطباً فيعود هشيماً، فالمصيب من تخير الغرس من حيث استنجب الشجر، واستحلى الثمر، وتعهد بالعرف من طاب عنه الخبر، وحَسُن منه الأثر" [455]

مستهل كتاب أنشاه الصابي عند فتح بغداد وانهزام المماليك سنة 364 هـ

" أما بعد، فإن لله قضايا نافذة، وأقدار ماضية، فيهن النعم السوابغ والنقم الدوامغ، فأما النعم فيؤتيها عباده أجمعين بادية، ثم يجتذبها الشاكرين منهم عائدة، وأما النقم فلا تقع سلفا وابتداءً، لكن قصاصاً وجزاءً، بعد إمهال وانظار، وتحذير وإنذار، فإذا حلت بالقوم الظالمين فقد طوى في إنائها صنع لآخرين معتبرين، فلا يخلو أهل الطاعة من الثبات والاستبصار، وأهل المعصية من الارتداع والازدجار، ومن هناك شهدت العقول الراجحة، ودلت المناهج الواضحة، على أن أولى ما فغر به الناطق فمهِ وأفلح به كَلِمهِ، حمد الله الذي هو الجالب لرحمته ورضاه، والذائد لسخطه وسطاه، والذريعة الموصلة الى الخبرات، والذخيرة النافعة في الملمات، والمؤمل المانع من لجأ إليه، والمعقل العصم من عول عليه...، ومنها: ولو تعاطيت ، أطال الله بقاء مولانا، شكر أنعام سيدنا الملك الجليل عضد الدولة أدام الله علوه، والاعتداد بمنته، لتعاطيت معجزا وطلبت معوزا، لأنه ذلل الصعب بعد إبائه، وهوّن الخطب بعد إعيائه، ونظّم الأمر بعد اختلاله، وشد الأزر بعد انحلاله، وبذل النفس النفيسة التي لو أمكن عوض من غيرها لتعذر فيكف منها مع شرفها، وكيف لا يفعل ذلك من خصه الله بكرم ضرائبه، ويمن نقائبه، وسداد آرائه، ويمن أنحائه، وانفراده عن المساجلين، وامتناعه على المطاولين، فما تحل قدمه في موضع إلا كان على النوائب محرماً، ومن المحاذر محصناً، وللفضل الباهر معدناً، وللخبر الطاهر موطناً، فأحسن الله جزاءه عن مُلكٍ صانه ووقاه، وحريم حاطه وحماه، وأخ لهيفٍ أنجده، وحُرٍ صريح إستعبده...، "[456]

---

[455] الثعالبي، يتيمة الدهر

[456] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي

وكتب عن معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه عند ظفره بروزبهان بن وندا خرشيذ العاصي عليه بالأهواز[457]

" أما بعد، فإن أحق النعم بأن يلقى ضيفها العصا[458]، وتستقر به النوى، ويستوطن عاكفا، ويطمئن محالفا، نعمة قرنت بالشكر، وجُنِّبت الكفر، وتلقيتْ بالارتباط والاستدامة، وتُنوولت بالتأنيس والاستمالة، وصادفت كفوًا مطيقا لحملها، وواليا حقيقا بمثلها، وناهضا مستقلا بأعبائها، وناشرا مثنيا بآلائها، فثبّت الله عنده أطنابها، ومكن لديه أسبابها، وأضفى عليه ملابسها، وساق إليه نفائسها، وعقد له بها لواء الظفر أين يمم، ومد عليه رواق النصر حيث خيّم، والله سبحانه يقول: (ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إنّ الله غفور شكور)، وإن أخلقها بأن يأبى زَورها[459] المقام، وينبو عن الدوام، وينعب غرابه بالزيال، وتحدي ركائبه بالانتقال، نعمةٌ وقعت عند مسيءٍ لجوارها، جاهل بمقدارها، عيّي بحراستها، مليٌّ بإضاعتها، فاتخذها أكبر أعوانه على كيد موليها، وأحصن جنته على حرب مسديها، غافلا عنَ عادة الله الجارية، بنزعها عمن سلك موحش سبيله، واتبع مضل دليله، وتعويضه منها بشعار العار الشنار، وجلباب المذلة والصغار، فلا يلبث أن يصبح مترديا برداء بغيه، مقتنعاً قناع خزيه، مأخوذا من مأمنه وحرزه، مستنزلا عن نخوته وعزه، مائلا عرشه بعد السمو، مخفوضا عماده بعد العلو، مهتوكا حجابه وذراه، مستباحا حريمه وحماه، مستمرًا ما كان استحلاه، مستوبيا ما كان استمراه، كابيا ليديه وفمه، مفضيا الى عواقب حسرته وندمه، عاثرا لا يستقيل، سقيما لا يبل، كسيرا لا ينجبر، مضيما لا ينتصر،... فالحمد لله الذي نصب لنا معالم الهداية، وجنبنا مجاهل الغواية، وجعلنا من العارفين بنعمه، الشاكرين لمننه، المستحقين لمزيده، المعضودين بتأييده، وعصمنا من مراكب أهل البغي المزلة لأقدامهم، الجالبة لحمامهم، المذلة لإبائهم، الصارعة لجنوبهم، الصائرة بهم الى العذاب الأليم، والحال الذميم، وسكنى الجحيم، وشرب الحميم، والحمد لله الذي أعلقنا من طاعة أمير المؤمنين أطال الله

---

[457] كان ذلك سنة ثلثمائة وخمس وأربعين حين خرج روزبهان عن طاعة معز الدولة الذي سار لمحاربته وتمكن منه وإقتاده أسيرا ثم قتله في بغداد.

[458] ألقى المسافِرُ عَصاهُ إذا بَلَغ موضِعَه وأَقام، لأنه إذا بلغ ذلك ألقى عَصاه فخيَّم أو أقام وترك السفر؛ قال مُعَقِّرُ بنُ حِمارٍ البارقيُّ يصف امرأةً كانت لا تَستَقِرُ على زَوْج: فألقتْ عَصاها واستَقرَّ بها النَّوَى كما قَرَّ عَيْناً بالإيابِ المُسافِرُ (لسان العرب)

[459] الزور هنا بمعنى الزائر، ويكون للمفرد والجمع. والمقصود أن يكون الزائر خفيف الإقامة غير مديمها.

بقاءه بالعروة الوثقى، والعصمة الكبرى، والسبب المتين، والحبل الأمين، والكهف المنيع، والمحل الرفيع، وقرن مشايعتنا بمشايعته، ومبايعتنا بمبايعته، حتى صار ولينا وليه، وعدونا عدوه، وحربنا حربه، وحزبنا حزبه، والقريب منا قريب منه، والبعيد عنا بعيد عنه، فما يلوذ بجانبنا لائذ، ولا يعوذ بعقوتنا[460] عائذ، إلا كانت عليه يد من الله كانفة واقية، وعين كالئة[461] راعية، وكانت السلامـــة له مضمونة، والعاقبة عليه مأمونة، ولا ينجـــم بمنابذتنا ناجم، ولا يعـــزم على مباينتنا عـــازم، إلا قطع الله دابره، وجبَّ غاربـــه، وكوّر شمسه، وأزهق نفسه، وطمس نوره، وأظلم ديجوره[462]، وكانت دعائمه مخفوضة، ومرائره منقوضة، والهلكة عليه مكتوبة، واللعنة به معصوبة، ... وأن الله بحكمته الباهرة، وقوته القاهرة، ومشيئته النافذة، وعزيمته الماضية، خلق الخلائق من طينة واحدة ابتدعها على صور شتى إخترعها، غير حاذٍ على مثال، ولا راجع الى إستدلال، ولا محتاج الى معين، ولا معتضد بقرين، ولا آخذ بتعريف معّرف، ولا مؤتم بتوقيف[463] موقف، واختص منها الإنسان بالعقل الذي هداه بعد الضلالة، وفقهه بعد الجهالة، وأهله به لحمل تكاليفه، والتصرف مع تصاريفه، والائتمار لأوامره، والازدجار لزواجره، والاستحقاق لثوابه أو عقابه، ورحمته أو عذابه، وهو مُطلعٌ من كل نفس ذرأها[464]، ونسمة برأها، على طاعة مطيعها، وإضاعة مضيعها، ونسك ناسكها، وفتك فاتكها، ... وليجزي كلاً منهم عن بينة بما كسب، وبصيرة بما إحتقب". [465]

وكتب عن الخليفة المطيع لله الى عضد الدولة بمنحه لقب عضد الدولة

" أما بعد، فإن أمير المؤمنين إذا صنع صنيعا راعاه، وإذا غرس غرسا أنماه، وإذا أولى نعمة أسبغها، وإذا أسدى عارفـــة تممها، ولا سيما في أعيان دولته، وأنصار دعوتـــه، الذين أنت بحمد الله ومنه غـــرة فيهم، وصفوة منهم، بمشهور إستقلالك ووفائك، ومأثور كفايتك وغنائك، ... وقد كان أمير المؤمنين لما تخيل فضلك، وتبين حزمك،

---

[460] العَقْوةُ والعَقَاةُ: الساحة وما حوْلَ الدارِ والَمحَلّة، وجمعُهما عِقاءٌ. عقوتنا: ساحتنا، ساحة دارنا

[461] حارسة

[462] الديجور: الظُـلمة

[463] التوقيف: التعليم

[464] برّها وإحسانها

[465] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي

وعول فيما يتولاه من أعمالـــه عليك، وفوض تدبيـــر ذلك إليك، شرفك بالتكنية، ونزهك عن التسمية، رفعا لدرجتك، وإشادة لذكرك، ودلالة على منزلتك، وإبانة عن موقعك، فما زالت آثارك تبعث على اختصاصك، وأفعالك تحث عزيمته على إستخلاصك، حتى إستحققت عنده النهاية، واستوجبت من تكرمته العناية، فلقبك عضد الدولة، "

ومن كتاب آخر" وأضاف لك الى اللقب بعضد الدولة اللقب بتاج الملة، إذ كانت آثارك الجميلة، وأياديك الصالحة موجبةً ذلك وداعيةً إليه ومقتضية له وباعثة عليه، وخرج أمره بأن توفى هـذا الحق في محاورتك ومكاتباتك إفرادا لك باللقبين عمن لقبه باللقب الواحد.."[466]

وكتب عن الخليفة الطائع لله في الجفوة بينه وبين عضد الدولة بأسباب توجهاته للحرب ضد عز الدولة

"... فإنك من المنزلة العالية عند أمير المؤمنين، بحيث يقتضيه تأهيله إياك لها، وإنافته بك إليها، ألا يصير منك على حدوث قطيعة، ولا يغضي لك على إعتراض جفوة، ولكنه يوجب في الحقوق بينه وبينك، والأواصر المتهـــدة عنده لك، أن يجمَّ صفـــوة الحال عما يشوبها، وينقيها مما يعيبهـــا، ويتأناك الى أن تعود من ذاتك الى ملازمـــة طبعك السليم، وسننك المستقيم، ويعتقد أنك منه كالعين الناظرة التي تصان عما يقذيها، واليـــد الباطشة التي تحفظ مما يدويها[467]، وأنك من الطبقـــة المنيفة، وذوي الأنفس الشريفة، الذين يصلحون على الإكرام، ويسمحون مع الإجمال، ويعرفون حق ما يتناولون به من الملاينة، ويسلك بهم من طريق المحاسنة،... وقد علمت أن هذا الخلاف بينك وبين من جعله الله منك، وخصصه بك يؤدي الى طمع طوائف من الأعداء المنحرفين عنكما، والجند المطيفين بكما، فيتخذونه سوقاً، ويجعلونه الى إستكمال الأموال طريقا، وإذا كان بينك وبين أمير المؤمنين منيرا مسفراً، وكان عز الدولة على متابعتك وموافقتك ماضيا مستمرا، فالأروح لقلبك، والأربح لمالك، والأصلح لحالك، أن تتقبل ما جنح إليه معك، وأن تكون هذه الكلف ساقطة عنك، ومتى فعلـت ذلك ضممت النشر، وحصّلت الأجـــر، ووصلت الحبل، وجمعت الشمـل، وحقنت

---

466 المصدر السابق

467 من الدويّ بمعنى المرض والضنى

الدماء، وسكنت الدهماء،... لكنه عالم بأنك الحوَّل القلَّب[468]، المحنَّك المجرَّب، الثاقب في درايته، الغزير في روايتــه، المرتفع عن منزلة من يوّقظ من غفلته، ويستَهَبَّ من سنته، وأنك ترجع الى نفس أمارة بالخير، بعيدة عن الشر، تواقّة الى لباس الفخـر، مدلولــة على سبيل البــر، محقوقــة بأن تتنـــزه عن ســوء قالة[469] القائلين، وأحاديث المتحدثين.."[470]

وكتب عن أمير المؤمنين إلى جماعة البصرة بضرورة الطاعة

" أما بعد، فقد علم فاضلكم بما سمع ووعى، ونقل وروى، ومفضولكم بما بالغ فيه واجتهد، وسلم له وقلد، أن الطاعة مفروضة على الجمهور، وبها قوام الأمور، وأن من الآداب التي أدبنا بها معشر المسلمين أن نتفاوض الإلفة، ونتجنب الفرقة، وتتفق منا الكلمة، وتجمعنا العصمة، وأن الخارج عن هــذا الإجماع فاسق مارق، حقيـــق بأن يوعظ ويرشد، ويوقف ويسدد، فإن أطاع وإلا جوهد حتى يرجع الى عمود الطاعة، وزمرة الجماعة،... وآمل منكم يا أهل البصرة الغناء والنصرة،... وقد قرن أمير المؤمنين العهد في ذلك عليكم بعهد البيعة الحاصلة في أعناقكم، وجعلكم في أضيق حرج من التقصيــر أو التعذير، أو المراقبــة أو المخاتلة، وليس لكم صلاة ولا زكاة، ولا عقد ولا مناكحة، ولا معاملة، إلا مع طاعته، والإخلاص له سرا وجهرا، وقولا وفعلا.."[471]

مما كتب في مباحث عامة

رسالة في الفرق بين الشعر والترسل:

وقد سألتني عن الفرق بين المترسل والشاعر، وكنت سألتني، أدام الله عزك، عن السبب في أن أكثر المترسلين البلغاء لا يفلقون في الشعر، وان أكثر الشعراء الفحول لا يجيدون في الترسل. فأجبتك بقول مجمل، ووعدتك بشرح له مفصل، وأنا فاعل ذلك بمشيئة الله فأقول: إن طريق الإحسان في منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه، لأن أفخــر الترسل هو ما وضح معناه، وأعطاك غرضه في أول وهلة سماعه، وأفخر الشعر ما غمض، فلم يعط غرضه إلا بعد مماطلة منه لك، وعرض منك عليه.

---

[468] شخص حوّل قلب أي محتال بصير بتقليب الأمور

[469] محقوقة به كحقيق به أي خليق له، والقالة تجنب القال والقيل

[470] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي

[471] المصدر السابق

فلمـا صارت الإصابتان في الأمرين متراميتين على طريقين متباينين بعد على الفراغ أن تجمعهما، فشرقت إلى هـذا فرقة، وغربت إلى ذاك أخرى، ومال كل من الجميع إلى الجانب الموافق لطبعه. ثم ترتبوا في المسافة بينهما، فكان الأفضل من أهل كل مذهب من وقع في الغاية او قريباً منها، وجعل الوسط خالياً أو كالخالي لقلة عدد الواقعين فيه. فليس يكاد يوجد جامع بين الإحسانين إلا على شرط يزيد به الأمر تعذراً والعدد تنزراً، وهو أن يكون طبعه طائعاً له، ممتداً معه، فإذا دعاه إلى التطرف به إلى أحد الجانبين أطاعه وانقاد إليه، كإبراهيم بن العباس الصولي وأبي علي البصير ومن جرى مجراهما. فهذا جواب مسألتك. وتبقى فيهـا زيادات وانفصالات لا بأس بإيرادها ليكون القول قد استغرق مداها، وتمت أولاه بأخراه. ذلك أن للسائل أن يقول: فمن أيـة جهة صار الأحسن في معـاني الترسل الوضوح وفي معاني الشعر الغموض؟

فالجواب أن الشعر بُني على حدود مقررة وأوزان مقدرة، وفصل أبياتاً كل واحد منها قائم بذاته وغير محتاج إلى غيره إلا ما يتفق أن يكون مضمناً بأخيه، وهو عيب فيه. فلما كان النفس لا يمكنه أن يمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه، وكلاهما قليل، احتاج إلى أن يكون الفضل في المعنى، فاعتمد أن يلطف ويدق، ليصير المفضي إليه والمطل عليه بمنزلـة الفائز بذخيرة خافية استفادها، والظافـر بخبيئة دفينة استخرجها واستنبطها. ثم إن للمتأمل وقفات على أعجاز الأبيات، وقد وضعت لإدراك المعنى، والفطنة للمغزى، وفي مثل ذلك تحسن خفايا الأثر وبعد المرمى. والتـرسل مبني على مخالفة هـذه الطريقة ومعاكستها، إذ كان كلاماً واحداً لا يتجزأ ولا ينفصل إلا فصولاً طوالاً. وهو موضوع وضع ما يهذ هذاً أو يقـرأ متصلاً، ويمر على أسماع شتى الأحوال: من خاصـة ورعية، وذوي أفهام ذكية وغبية. فإذا كان متسهلاً ومتسلسلاً ساغ فيها، وقرب إذنه في أفهامها، وتساوقت الألسن في تلاوتـه، والألباب في درايته. فجميـع ما يستحب في الأول يستكره في الثاني، وجميع ما يستحب في الثاني يستكره في الأول، حتى إن ما قدمناه من عيب في التضمين في الشعر هو فضيلـة في فصول الرسائل. ألا تـرى أن حسنها ما كان متعلقاً بعضه ببعض، ومقتضياً تعطفاً من الهـوادي على التوالي، ورداً من الأواخـر على المبادي. فمتى خرج الشعر على سنن الابتداع والاختراع، فكان سانجاً مفسولاً، فقائله معيب غير مصيب، والترك له أدل على العقل، وأولى بذوي الفضل. ومتى خرج الترسل عن أن يكون جلياً سلساً، تعثرت الأسماع في حزونته، وتحيرت الأفهام في مسالكه، فأظلـم مشرقه، وتكدر رونقه، وكان صاحبه مستكره الطريقة، مستهجن الصناعة.

وقد بقيت في الباب زيادة أخرى: وهي الإخبار عن سبب قلة المترسلين وكثرة الشعراء، وعن العلة في نباهة أولئك وخمول هؤلاء. فالجواب عن ذلك أن الشاعر إنما يصوغ قصيدته بيتاً بيتاً، فهو يجمع قريحته وقدرته على كل بيت منها، فيقرره ويبلغ إرادته نمه، وله من الوزن والقافية قائد وسائق يقومان له بأكثر حدود الشعر، فكأنه إنما يحذوه على مثال، أو يفرغه في قالب مماثل. والمترسل يصوغ رسالته متحدة متجمعة، ويضمها من اقطار متراخية متسعة، وربما أسهب حتى تستغرق الواحدة من رسائله أقدار القصائد الطوال الكثيرة. هذا إلى ما يتعاطاه من فخامة الألفاظ اللائقة بأن يصدر مثلها عن السلطان وإليه، والتصرف فيها على ضروب ما تتصرف عليه أحوال الزمان وعوارض الحدثان. فلذلك صار وجود المضطلعين بجودة النثر أعز، وعددهم انزر. فاما ارتفاع طبقتهم على تلك الطبقة، فإن المترسلين إنما يترسلون في جباية خراج، أو سد ثغر، أو عمارة بلاد، أو إصلاح فساد، أو تحريض على جهاد، أو احتجاج على فئة، أو مجادلة لملة، أو دعاء إلى ألفة، أو نهي عن فرقة، أو تهنئة بغبطة، أو تعزية على رزية، أو ما شاكل ذلك من جلائل الخطوب ومعاظم الشؤون التي يحتاجون فيها أن يكونوا ذوي أدوات كثيرة، ومعرفة مفننة. وقد وسمتهم الكتابة بشرفها، وبوأتهم منزلة رياستها، فأخطارهم عالية بحسب علو خطر ما يفيضون فيه ويذهبون إليه. والشعراء إنما أغراضهم التي يرتمون نحوها، وغاياتهم التي يجرون إليها، وصف الديار والآثار، والحنين إلى الأهواء والأوطار، والتشبيب بالنساء، والطلب والاجتداء، والمديح والهجاء. فليس يجرون مع اولئك في مضمار، ولا يقاربونهم في الاقتدار. وهذا قول فيما أردناه إن شاء الله تعالى"[472]

ومن كتاب كتبه عن الخليفة إلى رعية خرجت عن الطاعة

" أما بعد، أحسن الله توفيقكم، إن الشيطان لا يزال يكسو الخدع والشبهات سرابيل الحجج والبينات ليستفل[473] بها الأحلام، ويستزل الأقدام، وتتجه له المداخل على عقول ربما استضعفها، ومال بها إلى موارد غوايتها، وأزلها عن سنن هدايتها، وأراها الحق محالاً، والرشد ضلالاً، والخطأ إصابة، والخطل أصالة، بذلك جرت منه

---

[472] ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية

[473] إستفل من الفل أي الكسر، ومنه حديث الأمام علي (رض) يستزل لبك ويستفل غربك، أو هو إستفل بمعنى أصاب من الموضع العسر شيئا قليلا.

العادة، وقامت عليه الشهادة، واستحق أن تعصب به اللعنة، وتتوقى منه الفتنة. وإذا كان ذلك كذلك، فحقيق على كل ناظر لنفسه، وحافظ لدينه، أن يتحرز من الوقوع في أشراكه المبثوثة، وحبائلـه المنصوبة، وخطاطيفه الجحن[474] التي تجتذب القلوب، وتغتال الألباب، وتورد الموارد التي لا صـدر عنها، ولا انفكاك منها، وأن يتهم هواجس فكره، ووساوس صدره، ويعرضها على نظره وفحصه، وتأمله وبحثه.

ومنه: وقد علمتم، رعاكم الله، أن هذا الشيطان اللعين نازعٌ لكم منذ حين، وأنكم على ثبج[475] من خطة فتنة قـد برقت بوارقها، وزمجرت رواعدها، وجرت الفرقـة التي لا شيء أضر منها، ولا أنفع من تجنبها، والنزوع عنها. قال الله تعالى، وهو أصدق القائلين، وأكرم المنعمين: واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها. ومن خالف آدابه وسننه فقد خسر دنياه وآخرته، وأضاع عاجلته وآجلته، وتبوأ مقعده من النـار، واستحقها استحقاق الكفار الأشرار، والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء الى سراط مستقيم.

وتواترت الى أمير المؤمنين أخبارٌ أهمَّته، وأنباءٌ أرمضته، من اجتماع طوائف مـن أحداثكم على أمر خرجوا فيه عن طاعته، ونكثوا بيعته، مما أظهروه من مشايعة من لم يجعل أمير المؤمنين له ولاية عليكم، ولا سبيلا إلى تقلد شيء من أموركم، بل هو مقيم من عنـاده، ويعيث في بلاده، على مركب سيستوعره، ومشرب سيستمره، وهـذه حالٌ لا ينتظم لكم معها نظام صلاة ولا زكاة، ولا مناكحة ولا محاكمة، إذ كان ذلك إنما يصح من أوليائه الراشدين، وأما إذا إقتديتم فيه بير قد خرجت عن عصمته، وسقطت من جملتـه، وبرئت ذمته منها، وانبتت الأسباب بينه وبينها، فأنتم في هذا الفعل خارجون آثمون، غاوون ضالون، وكل راضٍ منكم به فقد أسخط إلهه ونبيه وإمامه... فما عذر أحدكم غدا يوم يجزى المحسن عن حسناته والمسيء عن سيئاته...، وأمير المؤمنين يستعيذ بالله لنفسه ولكم من زلة القدم، وعاقبة الندم، ويسأله أن يردكم إلى الأولى ويلهمكم التقوى، ويصدف بكم عن المناهج الغوية والموارد المخزية، بمنه وحوله وطوله... ، ومتى قل إنتفاع أميـر المؤمنين منكم، وأطلتم عناءه فيه، ورآكم على المعصية مصرين، وللنقمة مستجرين، فهل يجد بداً من تسريب العساكر إليكم،

---

[474] خطاطيف: جمع خطاف وهو حديدة تعقل بها البعير، والجحن الرهيف الضعيف

[475] الثبج: كل الشيء معظمه ووسطه وأعلاه

وإطلاق أعنتها عليكم، وهل يماز لها حينئذ بريئكم من سقيمكم، وبرّكم من أثيمكم، ألا تـــرون الى قول الله: (واتقوا فتنةً لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة).
وأي فتنةٍ هي أعظم من طاعة الشيطان ومعصية السلطان، والعيث في الدماء والديار، وإتباع السفهاء الأغمار، الذين يحملونكم على أشنع خطة، ويلجئونكم الى أضيق ورطة....، وأمير المؤمنين يُعذر ويُنـــذر، ويَعظ ويُزجر، ويُخوّف ويُحذّر، ويُعيـــد ويُكرر، إبقاءً عليكم، ورعاية للحق الذي يوجبـــه فيكم، فمـــن رجع القهقرى، ونزع وارعوى، فالتوبة تنفعه، والإنابة تنعشه، والعفو يسعه، والحلم يغمره، ومن دام على لجاجه، وأصر على إعوجاجه، فجيوش أمير المؤمنين تطرقه، وعساكره ترهقه، والمعاصم تلفظه، والمعاقل تسلمه، والشقي من كان معه، والسعيد من برء منه"[476]

وكتب عن نفسه إلى الصاحب ابن عباد

كتابي، أطال الله بقاء مولانا، عن حظ من السلامة وافر، وظل من الكفاية ساتر، والحمد لله رب العالمين. وقـــد كنت فيما قبل أقل من مكاتبة مولانا إقـــلال المخل بحق يجب، والمقارف لذنب ينكر، وأسكن مع ذاك إلى أن معرفته الثاقبة تستنبط عذري وإن غمض، ومعدلته الفائضة تمحص ذنبي وإن ظهر. وتقابل فطنته وإشارتي، وتوارد صفحه ومعذرتي، فلا بأس بأن أوضح الأمر لغيره، ممن عسى أن يكون خفيَ عنه لأسلم عليه من التعجب، سلامتي على مولانا الصاحب من التعتب، وهو أنني كنت منذ سنين كثيرة مرمياً بعطلة، وموسوماً بعزلة، فتخوفت أن يتطرق لبعض المنحرفين عني، والباغين علي، قول ربما تطرق مثله على من نبا به زمانه، وهرته أوطانه، فأكون قد أبديت لمراصده عن مقاتلي، ولمخاتلة عن حز مفاصلي، فلزمت التقية، وكرهت الأذية، وانتظرت الإمكان، وتوقعت دورة الزمان، وعلى ذاك فوالله، أطال الله بقـــاء مولانا، ما فارقت منـــذ عرضت بيني وبينـــه الشقة، وأبعدتني عنه الشقوة، ذكره وشكره، والثناء عليه والاعتداد به، وإن محاسن وجهـــه لنصب عيني، ومخارج لفظه حشـــو سمعي، ونوادر فضله جل أدبي، والإسناد عنـــه كنه فخري. هذا وإنما خدمته أيام كانت رياسته سراً في ضمير الزمان، وديناً في ضمان الأيام، فكيف لو رأيته آمراً ناهياً بين وسادتيه، ورأني خادماً ماثلاً بين يديه؟ وما يمكنني أن أهجو دهراً قصر خطوتي عنه، وقد أعطاه من استحقاقه ما أعطى، ولا أن أمدحه وقد حرمني من جواره

[476] شكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي

ما حرم. فإن أوجبت له شكراً فلعظم بلائه عنده، وإن ألحقت بـــه ذماً فلاتصال القواطع عنه، ولا سيما وإنما حماني عن ورود بحر زاخر، وحجبني عن ضياء بدر زاهر، ومنعني من بلال نوء ماطر، وأخرجني عن غمرة غيث قاطر، وحال بيني وبين من إليه الشكوى له، ومنه العدوى عليه، حتى خلا بي فأفرط ظلمه، وتحكم في فجار حكمه" [477].

وكتب عن قاضي القضاة محمد بن معروف إلى الوزير أبي منصور محمد بن الحسين

الدنيا، أطال الله بقاء سيدنا الوزير، مذمومة ممن تساعد، فضلاً عمن تعاند. وقد علم الله انني لـــم أزل زاهداً فيها، ذاهباً عنها، أيام الإقبال والشبيبة، فكيف عنـــد وشك الرحيل والمفارقة؟ ولو سلم الأحرار فيها من دواعي الحاجة، وعوارض الخلة، لهانت عليهم مقاطعتها ومصارمتها، واستتب طريقهم إلى متاركتها ومفارقتها، وخاصـــة من كان مثلي في تداني المدى، وتقاصر الخطى، والتوجه إلى الدار الأخرى. لكنه لا بد فيها للمجتاز، وإن كان لابثاً على أوفاز، من مادة تسبل ستر التجمل عليه، وتمنع من ظهور الخصاصة بـــه. ولمولانا الملك علي نعم سوابغ، وأياد سوابق، وقد كان سبيلي أن أشتغل بشكرها، وأستمر على نشرها، والحديث بها، وأتوقف عن استضافة غيرها إليها، لولا المعذرة التي قدمتها، والضرورة التي أومأت إليها، ومن تمام هذه النعم أن يكون الوجه مصوناً والقوت موجوداً" [478].

وكتب إلى أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن حمزة

" لو كانت الدنيا، أطال الله بقـــاءَ الشيخ، على مراديَ تجري، لاخترت أن أضـــرب بهذه الحضرة أطناب عمري، وأنفق على هذه الخدمة أيام دهري، ولكن في أولاد الزنا كثرة، ولعين الزمان نظرة، وقد كنت حَظيتَ من خدمة الشيخ المحسن بشرعة أنس نغصها بعض الوشاة عليّ، وذكر أني اقمت بطوس بعد استئذاني إلى مَرْوَ وفي هذا ما يعلمه الشيخ، فإن رأى أن يحسن جَبْرِي بكتاب يطرز به مقدمي، فعل إن شاء الله تعالى" [479]

---

[477] القلقشندي، صبح الأعشى

[478] ابن حمدون، التذكرة الحمدونية

[479] الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب

وله في هذا الباب إلى أبي نصر الميكالي

" الشيخ، أعـزه الله، مَلَكَ من قلبي مكاناً فارغـاً، فنزلـه غير منـزل قلعَة، ومن مودتي ثوباً سابغاً، فلبسـه غير لبْسَةِ خلعة، ومن نصب تلك الشمائل شبكاً، وأرسل تلك الأخـلاق شركاً، قَنَصَ الأحرار فاستحثّهم، وصاد الإخوان واسترقهم.

وتالله، ما يُغبَنُ إلا من اشترى عبداً وهو يجدُ حرّاً بأرخص من العبد ثمناً، وأقلّ في البيـع غبناً، ثم لا يهتبل غرّةَ وجوده، وينتهز فرصة امتلاكه بجوده، وأنا أنم للشيخ على مكرمة يتيمـة، ونعمة وسيمـة، فليعتزل من الرأي ما كان بهيمـاً، وليطلق من النشاط ما كان عقيماً وليحلل حَبوة التقصير، وليتجنبْ جانب التأخير، وليفتضَّ عُذْرَتها، وينقض حجّتها وعُمْرتها، برأي يجذبُ المجد باعه، ويعمر النشاط رِباعَه، وتلك حاجة سيدي أبي فلان وقد ورد من الشيخ بحـراً، وعقد بـه جسراً، وما عَسُر وَعْدٌ هو مستنجزُه، ولا بَعُدَ أمرٌ هـو منتهزه، ولا ضاعت نعمة أنا بَرِيدُ شكرها، وعزيم نشرها، ووليّ أمرها، وهـذا الفاضل قرارة مائها، وعماد بنائها، وقد شاهدت من ظَرْفه، ما أعجز عن وصفه، وعرفت من بَاطنه ما لم يُدرَ بظاهره، ورأيتُ من أوله ما نَمَّ على آخر، ثم له البيت المرموق، والنسب الموموق، والأولية القديمة، والشيمة الكريمة. وقد جَمَعَتْنا في الودّ حلْقة، ونظمَتْنا في السفر رفقـة، وعرفني بما أنهض له وفيه، فضمنت له عن الشيخ كَرَماً لا يغلَق بابه، وغَدَقاً لا يُخْلف سحابه. فليخرجني الشيخ من عهـدة هذه الثقة، زادها إليـه تأكداً، وإن رأى أن أسأل الشيخ في معناه عرفني كيف المأتى له، وإنما أطلْتُ ليعلم صِدْقَ اهتمامي، وفَرْطَ تقليدي للمنّة والتزامي" [480]

وله جواب عن صنيعة بصاحب هذه العناية

" ورد فلان، سيدي، وهو عينُ بلدتنا وإنسانُها، ومُقْلتها ولسانها، فأظهر آيات فضله، لا جرم أنه وصلَ إلى الصميم، من الإيجاب الكريم، وهو الآن مقيمٌ بين رَوْح ورَيحان، وجنّة نعيم، تحيته فيها سلام، وآخر دعـواه ذكرك، وحسن الثناء عليك بما أنت أهلـه، وأنا أصدق دعواه، وأفتخر به افتخار الخصيّ بمتاع مولاه؟ وقد عرفته ولسَنَه، وكَيف يَجرُّ في البلاغة رَسَنَه، فما ظنّك به، وقد ملكتها المجالس ولحظتها العيون، وسلّ صارماً من فيه، يعيدُ شكرك ويبديه، وينشر ذكرك ويطويه، والجماعة تمدحُ لمدحه، وتجرح بجرحـه، فرأيك في تحفظ أخلاقك التي أثمرت هذا الشكر، وأنتـجت

---

[480] المصدر السابق

هــذه المآثر الغرّ، موفقاً إن شاء الله تعالى" [481]

ومن إنشائه في مقامات الإسكندري

" قال: حدّثنا عيسى بن هشام، قال: لما نَطّقَني الغِنى بفاضل ذَيلِه، اتُّهمت بمـــال سلبتُه، أو كنز أصبتُه، فخَفَرَني الليلُ، وسرَت بي الخيلُ، وسلكْتُ في هربي مسالِك لم يَرُضها السيرُ، ولا اهتدَتْ إليها الطيرُ، حتى طويت أرض الرُّعْبِ وتجاوزتُ حدّه، وصِيــرت إلى حِمَى الأمنِ ووجدتُ بَردَه، وبلغتُ أذربيجان وقد حَفِيَت الرواحلُ، وأكلتها المراحل، ولما بلغتها: الطويل:

نزلنــا على أن المقام ثـلاثـةٌ   فطابَتْ لنا حتى أقمنا شهْرا

فبينا أنا يـــوماً في بعض أسواقِها إذ طلع رجل برَكْوَةٍ قد اعتضدها، وعصا قد اعتمدها، ودنيّة قد تَقَلّسَها، وفوطةٍ قد تطَيْلَسَها، فرفع عقيرته وقال: اللهمّ يا مبدئ الأشياء ومعيدَها، ومحيي العظام ومبيدَها، وخالق المصباح ومديـــره، وفالقَ الإصباح ومنيـره، وموصِلَ الآلاءِ سابغة إلينا، ومُمْسِك السماءِ أن تقعَ علينا، وبارئ النَّسَمِ أزواجاً، وجاعلِ الشمس سراجاً، والسماءِ سَقْفاً، والأرض فراشاً، وجاعلَ الليل سكَناً والنهار معاشاً، ومنشئ السحاب ثِقالاً، ومرسل الصواعق نكالاً، وعالِمَ ما فوق النجوم، وما تحت التخوم. أسألُك الصلاة على سيد المرسلين محمد وآلِــه الطاهرين، وأن تعينني على الغربة أثني حَبْلَها، وعلى العُسْرَةِ أعدو ظلّها، وأن تُسهِّل لي على يدَيْ مَنْ فَطَرَتْهُ الفِطْرة، وأطلعَتْه الطُهْرَة، وسعِــد بالدِّين المتين، ولم يَعْمَ عن الحق المُبين، راحلةً تطْوي هذا الطريق، وزاداً يسعني والرفيق". [482]

وكتب عن ابن بقية إلى عضد الدولة

" فأما اعتقاده، اطال الله بقاءه، حفظ الألفة، ودحض ما ألم بها من الوحشة، فمُشاكل لآرائه الصحيحة وأخلاقه السجيحة، ولما لم أزل أبعث وأحث عليه، وادعو وأرشد إليه. وإذا كان هذا رأيه، وكان عند مولانا الأمير عز الدولة مثله، وكنت بينهما مسدياً ملحماً فيه، وباذلاً وسعي في تقرير أواخيه، فما ينبغي أن تقعد بنا حال عـــن الجمع بين القول والفعل، والمساواة بين الشاهد الغائب، والمطابقة بين البادي والخافي. وأمـا اللزوم لسنن موالينا الماضين، رضي الله عنهـم أجمعين، فمولانا أولى من حافظ عليها، وتمسك

---

[481] المصدر السابق

[482] المصدر السابق

بها، وكل من بعده من موال، أدام الله نعماءهم، فيهم يقتدى، وبآدابهم يهتدى. وما يخالف في ذلك إلا من الحق خصمه، والحجة عليه، والله تعالى من وراء معونته إن انثنى وراجع، أو المعونة عليه إن أصر وتتايع. وها هنا، أيد الله مولانا، أحوال أخر، ودواع إلى اعتقاد هــذه الألفة لو لم تسبق الوصية بها من القرن الخالف: فمنها أن الأدوات التي أدت الماضين إلى تلك الآراء السديدة الرشيدة، هي في الغابرين الباقين، مد الله في أعمارهم، أوجد، وعليهم أحسن، وهم بأن يستأنفوها ويستقبلوها أولى من أن يتعلموها ويتقيلوها، لارتفاع العصابة التي مولانا وسيدنا زعيمها، واللحمة التي هو كبيرها وعظيمها. ومنها أن انتشار التظالم إن بدا، والعياذ بالله، لم يقف عند الحد الذي يقدر أن يقف عنده، ولم يخص الجانب الذي يظن أنه يلحقه وحده، بل يدب دبيب النار في الهشيم، ويسري كما يسري النغل في الأديم. وكثيراً ما يعدي الصحاح مبارك الجرب، ويتخطى الأذى إلى المرتقى الصعب، في مثل ذلك، وانعكاس المتحملات في مثل ذلك أقرب من استتابها، والتواؤها أسرع من اعتدالها" [483]

وكتب في تحويل سنة

حكى أبو الحسين هلال بن المحسن بن أبي إسحاق إبراهيم الصابي عن أبيه أنه قال: لما أراد الوزير أبو محمد المهلبي نقل سنة خمس وثلثمائة الهلالية، أمر أبا إسحاق والدي وغيره من كتابه في الخراج والرسائل، بإنشاء كتاب عن المطيع لله في هذا المعنى. فكتب كل منهم، وكتب والدي الكتاب الموجود في رسائله، وعرضت النسخ على الوزير، فاختاره منها، وتقدم بأن يكتب إلى أصحاب الأطراف، وقال لأبي الفرج بن أبي هشام خليفته: اكتب إلى العمال بذلك كتباً محققــة، وانسخ في أواخرها هذا الكتاب السلطاني، فغاظ أبــا الفرج وقوع التفضيل والاختيار لكتاب والدي، وقد كان عمل نسخة أطرحت في جملة ما أطرح،

وكتب: (وقد رأينا نقــل سنة خمسين إلى إحدى وخمسين فاعمل على ذلك)، ولم ينسخ الكتاب السلطاني، وعرف الوزير أبو محمد ما كتب به أبو الفرج، فقال له: لماذا أغفلت نسخ الكتاب السلطاني في آخر الكتب إلى العمال وإثباته في الديوان؟ فأجاب جواباً علل فيه، فقال له: يا أبا الفرج، ما تركت ذلك إلا حسداً لأبي إسحاق على كتابــه، وهو والله في هذا الفن أكتب أهل زمانه، فأعد الآن الكتب وانسخ الكتاب

---

[483] القلقشندي، صبح الأعشى

في أواخرها.[484]

وتظهر النسخة التي كتبها الصابي سعة معرفتـــه وصوابها ودقتهـا في جملة ميادين من المعرفة بتقاويم الأقوام ومـــدد سنيهم وأقيام الأيام وكيفيات الجبر فيها، وهـــذا ما تم التأكيد عليه في أن صاحب الإنشاء يجب أن يكون على قـــدر عال من المعارف والعلوم ليكون له القدرة على إجابة شؤون الخلافة والدولة عامة، وهذا من جملة ما قدّم قَـــدم الصابي في هذا الميدان.

ونقلت سنة خمسن وثلثمائة الخراجية إلى سنة إحدى وخمسين وثلثمائة في خلافة المطيع لله وإمارة معز الدولة ووزارة أبي محمد الحسن بن محمد المهلبي بكتاب أنشأه أبو إسحق وهو يومئذ صاحب ديوان الرسائل، نثبت نسخته لأهمية الإطلاع العلمي فوق الإطلاع البلاغي:

" أما بعد، فإن أمير المؤمنين لا يزال مجتهداً في مصالح المسلمين، وباعثاً لهم على مراشـد الدنيا والدين، ومهيئاً لهم إلى أحسن الاختيار فيما يوردون ويصدرون، وصـــواب الرأي فيما يبرمون وينقضون، فلا تلوح له خلة داخلة على أمورهم إلا سدها وتلافاها، ولا حال عائـدة بحظ عليهم إلا اعتمدها وأتاها، ولا سنة عادلة إلا أخذهم باقامة رسمها وإمضاء حكمها، والاقتداء بالسلف الصالح بالعمل بها، والاتباع لها، وإذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصـة بوفور ألبابها، وتجهله العامة بقصور أذهانها، وكانت أوامره فيه خارجة إليك وإلى أمثالك من أعيان رجاله، وأماثل عماله، الذين يكتفون بالإشارة، ويجتزئون بيسير الإبانة والعبارة، لم يدع أن يبلغ من تلخيص اللفظ وإيضاح المعنى إلى الحد الذي يلحق المتأخر بالمتقـــدم، ويجمع بين العالم والمتعلم، ولا سيما إذا كان ذلك فيما يتعلق بمعامــلات الرعية، ومن لا يعرف إلا الظواهر الجلية دون البواطن الخفية، ولا يسهل عليه الانتقال عن العادات المتكررة إلى الرسوم المتغيـــرة، ليكون القول المشروح لمن بـــرز في المعرفة مذكراً، ولمن يتأخر فيها مبصراً، ولأنه ليس في الحق أن تمنع هذه الطبقة من برد اليقين في صدورها، ولا أن يقتصر على اللمحة الدالة في مخاطبة جمهورها، حتى إذا استوت الأقدام بطوائف الناس في فهم ما أمروا به، وفقه ما دعوا إليه، وصاروا فيه على كلمة سواء لا يعترضهم شك الشاكين، ولا استرابة المسترببين، اطمأنت قلوبهم، وانشرحت صدورهم، وسقط الخلاف بينهم، واستمر الاتفاق فيهم، واستيقنوا أنهم مسوسون على استقامة من المنهاج، ومحروسون

---

[484] هلال الصابي، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق ميخائيل عواد

من جرائــر الزيغ والاعوجاج، فكان الانقيــاد منهم وهم دارون عالمون، لا مقلدون مسلِّمون، وطائعون مختارون، لا مكرهون ولا مجبرون.

وأمير المؤمنين يستمد الله المعونــة في جميع أغراضه ومراميه، ومطالبه ومغاديه، مادة من صنعه تقف به على سنن الصلاح، وتفتح لــه أبواب النجاح، وتنهضــه بما أهله بحمله من الأعباء التي لا يدعي الاستقلال بهــا إلا بتوفيقه ومعونتــه، ولا يتوجه فيها إلا بدلالتــه وهدايته، وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل.

وأمير المؤمنين يرى أن أولى الأقوال أن يكون سدداً، وأحرى الأفعال أن يكون رشداً، مــا وجد له في السابق من حكمة الله أصولٌ وقواعد، وفي النص من كتابــه آيات وشواهد، وكان مفضياً بالأمة إلى قوام من دين ودنيا، ووفاق في آخرة وأولى، فذلك هــو البناء الذي يثبت ويعلــو، والغرس الذي ينبت ويزكو، والسعي الذي تنجح مباديــه وهواديــه، وتبهج عواقبه وتواليه، وتنير سبله لسالكيها، وتوردهم النحور والثغر[485] من مقاصدهم فيها، غير ضالين ولا عادلين، ولا منحرفين ولا زليلين. وقد جعل الله عز وجل لعباده من هذه الأفلاك الدائرة، والنجوم السائرة، فيما تتقلب عليه من اتصال وافتراق، ويتعاقب عليها من اختلاف واتفاق، منافع تظهر في كرور الشهــور والأعوام، ومرور الليالي والأيــام، وتناوب الضياء والظلام، واعتدال المساكن والأوطان، وتغاير الفصول والأزمان، ونشوء النبات والحيوان. فما في نظام ذلك خلل، ولا في صنعة صانعه زلل، بل هو منوط بعضه ببعض، ومحفوظ من كل ثلم ونقض. قال الله عز وجل: "هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحــق"، وقال: " ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى ". وقال: " والشمس تجري لمستقر لها "، وقال: "والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم" ففصل الله تعالى في هذه الآيات من الشمس والقمر، وأنبأنا في الباهر من حكمه، والمعجز من كلمه، أن لكل منهما طريقاً سخر فيها، وطبيعة جُبل عليها، وأن تلك المباينة والمخالفة في المسير تؤدي إلى موافقة وملازمة في التدبير، فمن هنالك زادت السنة الشمسية فصارت ثلثمائة وخمسة وستين يوماً وربعاً بالتقريب المعمــول عليه، وهي المدة التي تقطع الشمس فيها الفلك مرة واحدة، ونقصت السنة الهلالية فصارت ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً وكسراً، وهي المــدة التي يجامع القمر فيها الشمس اثنتي عشرة مــرة،

---

[485] الثغر: جمع ثغرة وهي نقرة النحر فوق الصدر

واحتيج إذا انساق هـذا الفصل الى استعمال النقل الـذي يطابق احدى السنتين بالأخرى إذا افترقتا، ويداني بينهما إذا تفاوتتا.

وما زالت الأمم السالفة تكبس زيـادات السنين على أفنان[486] من طرقهـا ومذاهبها، وفي كتاب الله تعالى شهادة بذلك إذ يقول في قصة أهل الكهف: (ولبثوا في كهفهم ثلثمائـة سنين وازدادوا تسعاً). فكانت هذه الزيادة بأن الفضل في السنين المذكورة على التقريب.

فأما الفرس فإنهم أجروا معاملاتهم على السنة المعتدلة التي شهورهـا اثنا عشر شهراً، وأيامها ثلاثمائة وستون يوماً، ولقبوا الشهور اثنى عشر لقباً، وسموا أيام الشهر منها ثلاثين اسماً، وأفردوا الأيام الخمسة الزائدة، وسموها المسترقة، فكبسوا الربع في كل مائة وعشرين سنة شهراً. فلما انقرض ملكهم، بطل في كبس هـذا الربع تدبيرهم، وزال نوروزهم عن سنتـه، وانفرج ما بينه وبين حقيقة وقته انفراجاً هو زائد لا يقف، ودائر لا ينقطع، حتى إن موضوعهم فيه يقع في مدخل الصيف وسينتهي إلى أن يقع في مدخل الشتاء، ويتجاوز ذلك، وكذلك موضوعهم في المهرجان يقع في مدخل الشتاء وسينتهي إلى أن يقع في مدخل الصيف ويتجاوزه. وأما الروم فكانوا أتقن منهم حكمة وأبعد نظراً في عاقبة، لأنهم رتبوا شهور السنة على أرصاد رصدوها، وأنواء عرفوها، وفضوا الخمسة الأيام الزائدة على الشهور، وساقوها معها على الدهور، وكبسوا الربع في كل أربع سنين يوماً، ورسموا أن يكون إلى شباط مضافاً فقرَّبوا ما بعَّده غيرهم، وسهلوا على الناس أن يقتفوا أثرهم، لا جرم أن المعتضد بالله صلوات الله عليه على أصولهم بنى، ولمثالهم احتذى في تصيير نوروزه اليوم الحادي عشر من حزيران، حتى سلم مما لحق النواريز في سالف الأزمان، وتلافوا الأمر في عجـز سني الهلال عن سني الشمس بأن جبروها بالكبس، فكما اجتمع من فضول سني الشمس ما بقي بتمام شهر جعلوا السنة الهلالية التي يتفق ذلك فيها ثلاثة عشر هلالاً، فربما تم الشهر الثالث عشر في ثلاث سنين وربما تم في سنتين بحسب ما يوجبه الحساب، فتصير سنتا الشمس والهلال عندهم متقاربتين أبداً لا يتباعد ما بينهما.

وأما العرب فإن الله عـز وجل فضلها على الأمم الماضية، وورثها ثمرات مساعيها المُتبعـة، وأجرى شهر صيامها ومواقيت أعيادها، وزكاة أهل ملتها، وجزية أهل ذمتها، على السنـة الهلاليـة، وتعبدها فيها برؤيـة الأهلَّة، إرادة منه أن تكون مناهجها

[486] أفنان بمعنى طرائق وضروب

واضحة، وأعلامها لائحة، فيتكافأ في معرفة الفرض ودخول الوقت الخاص منهم والعام، والناقص الفطنة والتام، والأنثى والذكر، وذو الصغر والكبر، فصاروا حينئذ يجتبون في سنة الشمس حاصل الغَلاّت المقسومة، وخراج الأرض الممسوحة، ويجتبون في سنة الهلال الجوالي والصدقات، والأرجاء والمقاطعات والمستغلات، وسائر ما يجري على المشاهرات.

وحدث من التعاضل والتداخل بين السنين ما لو استمر لقبح جداً، وازداد بعداً، إذ كانت الجباية الخراجية في السنة التي تنتهي إليها تنسب في التسمية الى ما قبلها، وواجب مع هذا أن تطرح تلك التسمية وتلغى، ويتجاوز إلى ما بعدها ويتخطى، ولم يجز لهم أن يقتدوا بمخالفيهم في كبس سنة الهلال بشهر ثالث عشر، لأنهم لو فعلوا ذلك لتزحزحت الأشهر الحرم عن مواقعها، وانحرفت المناسك عن حقائقها، ونقصت الجباية عن سني الأهلة بقسط ما استغرقه الكبس منها، فانتظروا بذلك الفضل إلى أن تتم السنة، وأوجب الحساب المقرب أن يكون كل اثنين وثلاثين سنة شمسية، ثلاثاً وثلاثين سنة هلالية. فنقلوا المتقدمة إلى المتأخرة نقلاً لا يتجاوز الشمسية، وكانت هذه الكلفة في دنياهم مستسهلة مع تلك النعمة في دينهم. وقد رأى أمير المؤمنين نقل سنة خمسين وثلاثمائة الخراجية إلى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة الهلالية جمعاً بينهما، ولزوماً لتلك السنة فيهما. فأعمل بما ورد به أمر أمير المؤمنين عليك، وما تضمنه كتابه هذا إليك، ومر الكتاب قبلك أن يحتذوا رسمه فيما يكتبون به إلى عمال نواحيك، ويخلدونه في الدواوين من ذكورهم ورفوعهم، ويقررونه في دروج الأموال، وينظمونه في الدفاتر والأعمال، ويبنون عليه الجماعات والحسبانات، ويوعزون بكتبه من الروزنامات والبراءات، وليكن المنسوب كان من ذلك إلى سنة خمسين وثلثمائة التي وقع النقل عنها معدولاً به إلى سنة إحدى وخمسين التي وقع النقل إليها، وأقم في نفوس من بحضرتك من أصناف الجند والرعية، وأهل الملة والذمة، أن هذا النقل لا يغير لهم رسماً، ولا يلحق بهم ثلماً، ولا يعود على قابضي العطاء بنقصان مما استحقوا قبضه، ولا على مؤدي حق بيت المال بإغضاء عما وجب أداؤه، فإن قرائح أكثرهم فقيرة إلى إفهام أمير المؤمنين الذي يؤثر أن تزاح فيه العلة، وتسد به منهم الخلة، إذ كان هذا الشأن لا يتجدد إلا في المدد الطوال التي في مثلها يحتاج إلى تعريف

الناشي، وإذكار الناسي، وأجب بما يكون منك جواباً يحسن موقعه لك، إن شاء الله تعالى" [487]

مما كتب في الهزليات

وهذا باب من الكتابة إعتنت الملوك ببعضه، فاقترحت على كتابها إنشاء شيء من الأمور الهزلية، فيحتاجون إلى الإتيان بهـــا على وفق غرض ذلك الملك. وقد وقع مثل هـذا لمعين الدولة بن بويه الديلمي في اقتراحـــه على أبي إسحق الصابي كتابة عهد بالتطفل، لرجل كان عنـــده اسمه عليكا، ينسب إلى التطفل، ويسخر منه السلطان بسبب ذلك. فكتب الصابي هذا التعهد الذي صار مدار مجالس الأدب في التندر بموضوع التطفل، والذي يظهر أيضا قدرة الصابي على معرفة خصائص المتطفلين ونوزاعهم وأدق المعلومات التي دونها في هذا العهد.

وهذه نسخة عهد التطفل التي أنشأها أبو إسحاق الصابي لعليكا[488]

هـذا ما عهد علي بن أحمد المعروف بعليكا إلى علي بن عرس الموصلي، حين استخلفه على إحياء سننه، واستنابه في حفظ رسومه، من التطفل على أهل مدينة السلام، وما يتصل بها من أرباضها وأكنافها، ويجـــري معها في سوادها وأطرافها، لما توسمه فيه من قلــــة الحياء، وشدة اللقاء، وكثرة اللقم، وجودة الهضم، ورآه أهلاً له من سد مكانه، والرفاهه المهملة التي فطن لها، والرقاعـــة المطرحة التي اهتدى إليهـــا، والنعم العائدة على لابسيها بملاذ الطعوم، وخصب الجســـوم، وردا على من اتسعت حالـــه، وأقدره الله على غرائب المأكولات، وأظفره ببدائع الطيبات، آخـــذاً من ذلك كله بنصيب الشريك المنـــاصف، وضارباً فيـــه بسهم الخليط المفاوض، ومستعملاً للمدخل اللطيف عليه، والمتولج العجيب إليه، والأسباب التي ستشرح في

---

[487] تمت متابعة الموضوع من مصدرين هما: القلقشندي، صبح الأعشى، وشكيب أرسلان، المختار من رسائل الصابي.

[488] هو رجل كان كثير التطفيل على جميع أهل العسكر من الحجاب، و القواد و الكتاب، و وجوه الخاصة، والغلمان. و شاع له ذلك عند بختيار عز الدولة، فرسم له أن يستخلف على التطفيل خليفة. و تقدم إلى أبي إسحاق، إبراهيم بن هلال أن يكتب بذلك عهداً، عن عليكا يخاطب به ابن عرس الموصلي ليجعله خليفته على التطفيل.

مواضعها من أوامر هذا الكتاب، وتستوفى الدلالة على ما فيها من رشاد وصواب، وبالله التوفيق وعليه التعويل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أمره بتقوى الله التي هي الجانب العزيز، والحرز الحريز، والركن المنيع، والطود الرفيع، والعصمة الكالئة، والجنة الواقية، والزاد النافع يوم المعاد، وحيث الأمثلة من الأزواد، وأن يستشعر خيفته في سره وجهره، ويراقبه في قوله وفعله، ويجعل رضاه مطلبة، وثوابه مكسبة والقربة منه أربة، والزلفى لديه غرضه، ولا يخالفه في مسعاة قدم، ولا يتعرض عنده لعاقبة ندم، ولا يقدم على ما كره وأنكر، ولا يتقاعس عما أحب وأمر. وأمره أن يتأدب بأدبه فيما يأتي ويذر، ويقف على حدوده فيما أباح وحظر، فإنه إذا كان ذلك مجـراه وديدنه، وجرى عليه منهاجه وسننـه، تكفل الله له بالنجاح والصلاح، وأفضى بـه إلى الرشاد والفلاح، وأظفره بكل بغيـة، وأوصله إلى كل مشيـة، ولم يخله من الفوز بما يرصد، والحوز بما يقصد، بذاك وعد، وكذاك يفعل، وما توفيقنا إلا بالله، ولا مرجعنا إلا إليه.

وأمره أن يتأمل اسم التطفيل ومعناه، ويعرف مغزاه ومنحاه، ويتصفحه تصفح الباحث عن حظه بمحموده، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده، فإن كثيراً من الناس قد استقبحه ممن فعله، وكرهه لمن استعملـه، ونسبه فيه إلى الشره والنهم، وحملـه منه على التفه والقرم. فمنهم من غلط في استدلاله، فأساء في مقالـه، ومنهم من شح على مالـه، فدافع عنـه باحتياله، وكل الفريقين مذموم، وجميعهما ملوم، لا يتعلقان بعذر واضح، ولا يعتريان من لباس فاضح، ومنهم الطائفة التي ترى فيها شركة العنان، فهي تتدله إذا كان لها، وتتدلى عليه إذا كان لغيرها، وترى أن المنة في المطعم للهاجم الآكل، وفي المشرب للوارد الواغل، وهي أحق بالحرية، وأخلق بالخيرية، وأحرى بالمروة، وأولى بالفتوة. وقد عُرفت بالتطفيل، ولا عار فيه عند ذوي التحصيل، لأنه مشتق من الطفل وهو وقت المساء وأوان العشاء، فلما كثر استعمل في صدر النهار وعجزه، وأوله وآخره، كما قيل للشمس والقمر: قمران وأحدهما القمر، ولأبي بكر وعمر: العمران وأحدهما عمر، وقد سبق إمامنا "بيان" رحمة الله عليه إلى هذا الأمر، سبقاً أوجب له خلود الذكر، فهو باق بقاء الدهـر، ومتجدد في كل عصر، وما نعرف أحداً نال من الدنيا حظوظها فبقي له منه أثر يخلفه، وصيت يستبد به إلا هو وحده، فبيان، رضوان الله عليه، يذكر بتطفيله كما تذكر الملوك بسيرها، فمن بلغ إلى نهايته، أو جرى إلى غايته، سعد بغضارة عيشه في يومه، ونباهة ذكره في غده، جعلنا الله جميعاً من السابقين إلى مداه، والمذكورين كذكره.

وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه، وسمط الأمراء والوزراء بسراياه، فإنــه يظفر منها بالغنيمة الباردة، ويصل عليها إلى الغريبة النادرة، وإذا استقراها وجد فيها من طرائف الألوان، الملذة للسان، وبدائع الطعوم، السائغة في الحلقوم، ما لا يجده عنـد غيره غيرهم، ولا يناله إلا لديهم، لحذق صناعتهم، وجودة أدواتهم، وانزياح عللهم، وكثرة ذات بينهم، والله يوفر من ذلك حظنا، ويسدد نحوه لحظنا، ويوضح عليه دليلنا، ويسهل إليـه سبيلنا.

وأمره أن يتبع ما يعرض لموسري التجار، ومجهزي الأمصار، من وكيرة الدار، والعرس والإعذار، فإنهم يوسعون على نفوسهم في النوائب، بحسب تضييقهم عليها في الراتب، وربما صبروا على تطفيل المتطفلين، وأغضوا على تهجم الواغلين، ليتحـدثوا بذلك في محافلهم الرذلة، ويعدوه في مكارم أخلاقهم النذلـة، ويقول قائلهم الباجح باتساع طعامه، المباهي بكثرة حطامه، إنني كنت أرى الوجوه الغريبة فأطعمها، والأيدي الممتدة فأملؤها. وهـذه طائفة لم ترد بما فعلته الكرم والسعة، وإنما أرادت المن والسمعة، فإذا اهتدى الأريب إلى طرائقها وصل إلى بغيته من إعلان قضيتها، وفاز بمراده من ذخائر حسنتها، إن شاء الله.

وأمره أن يصادق قهارمة الدور ومدبريها، ويرافق وكلاء المطابخ وحماليها، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمة مطاعمهم ومشاربهم، ويضعونها بحيث يحبون من أهل موادتهم ومعارفهم، وإذا عَدّت هذه الطائفة أحداً من الناس خليـلاً من خلانها، واتخذته أخاً من إخوانها، سعد بمرفقتها، ووصل إلى محابه من جهاتها، ومآربه في جنباتها.

وأمره أن يتعهد أسواق المسوقين، ومواسم المتبايعين، فإذا رأى وظيفة قد زيد فيها، وأطعمة قد احتشد مشتريها، اتبعها إلى المقصد بها، وشيعها إلى المنزل الحاوي لها، واستعلم ميقات الدعوة، ومـــن يحضرها من أهل النسيان والمروة، فإنه لا يخلو فيهم من عارف به يراعي وقت مصيره إليها ليتبعه، ويكمن له ليصحبه ويدخل معه، وإن خلا من ذلك اختلط بزمر الداخلين، وعصب الراحلين، فما هو إلا أن يتجاوز عتب الأبواب، ويخرج من سلطان البوابين والحجاب، حتى يحصل حصولاً قل ما حصل "عليه" أحد قبله فانصرف عنه إلا ضليعاً من الطعام، بريقاً من المـــدام، إن شاء الله. وأمـــره أن ينصب الأرصاد على منـازل المغنيات والمغنين، ومواطن الأبليات والمخنثين، فإذا أتاه خبر لجمع يضمهم، ومأدبة تعمهم، ضرب إليها أعناق إبله، وأمضى نحوها مطايا خيله، وحمل عليها حملة الحوت الملتقم، والثعبان الملتهم، والليث الهاصر، والعقاب الكاسر، إن شاء الله.

وأمره أن يتجنب مجامع العوام المقلين، ومحافل الرعاع المقترين، وأن لا ينقل إليها قدماً ولا يعفر لمآكلها فماً، ولا يلقى في عتب دورها كيساناً، ولا يعد الرجل منها إنساناً، فإنها عصابة يجتمع لها ضيق النفوس والأحلام، وقلة الأحكام والأموال، وفي التطفيل عليها إجحاف بها يوسم، وإزراؤه بمروءة المتطفل يوصم، والتجنب لها أحرى، والأزورار عنها أحجى، إن شاء الله.

وأمره أن يحزر الخوان إذا وضع، والطعام إذا نقل، حتى يعرف بالحدس والتقريب، والبحث والتنقيب، عدد الألوان في الكثرة والقلة، وافتنانها في الطيب واللذة، فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها، وينتهي منها عند انتهائها، ولا يفوته النصيب من كثيرها وقليلها، ولا يخطئه الحظ من دقيقها وجليلها. ومتى أحس بقلة لطعام، وعجزه عن الأقوام، أمعن في أوله إمعان الكيس من سعته، الرشيد في أمره، المالئ لبطنه، من كل حار وبارد، وخبيث وطيب. فإنه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكفون تطرفاً، ويقلون تأدباً، ويظنون أن المادة تبلغهم في آخر أمرهم، وتنتهي بهم إلى غاية سعيهم، فلا يلبثوا أن يخجلوا خجلة الواثق، وينقلبوا بحسرة الخائب، أعاذنا الله من مثل مقامهم، وعصمنا من شقاء جدودهم، إن شاء الله.

وأمره أن يروض نفسه، ويغالط حسه، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحا، ويطوي دونه كشحا، ويستحسن الصمم عن الفحشا، وإن أتته اللكزة في حلقه، صبر عليها في الوصول إلى حقه، وإن وقعت به الصفعة في رأسه، صبر عليها لموقع أضراسه، وإن لقيه لاق بالجفاء، قابله باللطف والصفاء، إذ كان قد ولج الأبواب، وخالط الأسباب، وجلس مع الحضور، وامتزج بالجمهور، فلا بد أن يلقاه المنكر لأمره، ويمر به المستغرب لوجهه، فإن كان حراً حيياً أمسك وتذمـم، وإن كان فظاً غليظاً همهم وتكلم، وتجنب عند ذلك المخاشنة، واستعمل مع المخاطب له الملاينة، ليبرد غيظه، ويفل حده، ويكف غربه، ويأمن شغبه، ثم إذا طال المدى تكررت الألحاظ عليه فعرف، وأنست النفوس به فألف، ونـال من المحال المجتمع عليها منال من حشم وسئل الذهاب إليها.

وقد بلغنا أن رجلاً من العصابة كان ذا فهم ودراية، وعقل وحصافة، طفل على وليمة، لرجل ذي حال عظيمة، فقرمته فيها من القوم العيون، وصرفت بهم فيه الظنون، فقال له قائل منهم: من تكون أعزك الله؟ فقال: أنا أول من دعي إلى هذا الحق. قيل له: وكيف ذاك ونحن لا نعرفك؟ فقال: إذا رأيت صاحب الدار عرفني وعرفته نفسي، فجيء به إليه، فلما رآه بدأه بأن قال له: هل قلت لطباخك: أن يصنع طعامك زائداً على

عدد الحاضرين، ومقدار حاجة المدعوين؟ قال: نعم! فإنما تلك الزيادة لي ولأمثالي، وبها يستظهر لمن جرى مجراي، وهي رزق لنا أنزله الله على يدك وبك، فقال له: كرامة ورحباً، وأهــلاً وقرباً، والله لا جلست إلا مع عليــة الناس ووجوه الجلساء، إذ أطرفت في قولك وتفننت في فعلك. فليكن ذلك الرجل إماماً يقتدى به، ويقتفى طريقه، إن شاء الله.

وأمره بأن يكثر من تعاهد (الجوراشنات)[489] المنفذة للسدد، المقوية للمعد، المشهية للطعام، المسهلة لسبل الانهظام، فإنها عمــاد أمره وقوامه، وبها انتظامه والتئامــه، إذ كانت تعين على عمل الدعوتين، وتنهض في اليوم الواحد الأكلتين، وهو يتناولها كذا كالكاتب الذي يقط أقلامه، والجندي الذي يصقل حسامه، والصانع الذي يحدد آلته، والماهر الذي يصلح أدواته، إن شاء الله.

هذا عهد عليكا بن أحمد إليك، وحجته لك وعليك، لم يألك فيه إرشاداً وتوفيقاً، تهذيباً وتثقيفاً، وبعثاً وتبصيراً، وحثاً وتذكيراً. فكن بأوامــره مؤتمراً، وبزواجره مزدجــراً، ولرسومه متبعاً، وبحفظها مضطلعاً، إن شــاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته"[490]

ويكتب الصابي في أجمل الوصف التندري لهدية كبش[491]

وصلت رُقْعَتك، فَفَضَضْتُها عن خَط مُشْرق، ولفظ مُونق، وعبارةٍ مُصيبة، ومعاني غريبة، واتساع في البلاغة يَعْجِزُ عنه عبدُ الحميد في كتابته، وقس وسَحْبَان في خطابته، وتصرف بين جِدٍ أمْضى من القَدر، وهَزْلٍ أرق من نسيم السحَر، وتقلب في وجوه الخِطاب، الجامع للصَّواب، إلاَ أن الفعل قَصَّرَ عن القول، لأنك ذكرت حَملاً، جعلته بصفتك جَمَلاً، فكانَ المُعَيديَّ الذي تسمعُ به ولا أنْ تراه. وحضر فرأيت كَبْشاً

---

[489] كلمة فارسية

[490] القلقشندي، صبح الأعشى

[491] نسبَ الحصري هذه الرسالة الى أبي الخطاب عم أبي إسحق الصابي، أما ابن حجة الحموي فقد نسبها الى أبي أسحق ويظهر لنا بأنها للأخير ذلك أنه لم يعرف عن أبي الخطاب مثل هذا النوع من الكتابة ولا مثل هذا المستوى الفني الأخاذ في طول الرسالة وبيان الحجة بمثل هذا الظرف الذي كتب فيه الصابي في أكثر من رسالة، وربما تكون للمحسن إبنه ذلك أن في آخر سطر يذكر جملة كابي وأبي الخطاب، وهذا يعني أبو الكاتب، ومعلوم أن المعلى بين الكتاب هو أبو إسحق .

مُتَقَادِمَ الميلاد، من نِتَاج قَوْمِ عاد، قد أَفْنَتهُ الدهـور، وتَعاقَبَتْ عليه العصور، فظننته أحَدَ الزَّوْجين اللذين جعلهما نوع في سفينته، وحفظَ بهما جِنْسَ الغنم لذرِّيته، صَغُر عن الكبر، ولَطُف عن القـدم، فبانتْ دَمامتُه، وتقاصرت قَامتُه، وعاد ناحلاً ضئيلاً، بالياً هزيلاً، باديَ السقام، عاري العِظام، جامعاً للمعايب، مشتملاً على المثالِب، يَعْجَبُ العاقلُ من حلول الحياةِ به، وتأتيَ الحركةِ فيه، لأنه عَظْم مجلد، وصوف مُلبد، لا تجـد فوق عظامه سلَبا، ولا تَلْقَى يدك منه إلا خَشَبا، لو ألقِيَ إلى السَّبع لأباه، ولو طرح للذئب لعافَه وقَلاه، قد طال للكلإ فَقْدُه، وبَعُدَ بالمَرعَى عَهْدُه، لم ير القَت إلاَ نائماً، ولا عرف الشعيرَ إلا حالماً، وقد خيَّرتني بين أن أقْتَنيه فيكون فيـه غِنَى الدهر، أو أذبحه فيكون فيـه خصْب الرَحل، فمِلتُ إلى استبقائـه لما تعرف من محبتي من التوفير، ورغبتي للتَّثمير، وجَمْعي للولد، وادّخاري لغَد، فلم أجِد فيه مستمتعاً للبقاء، ولا مَدْفعاً للفناء، لأنه ليس بأنثى فتَحْمِل، ولا بفتى فَينْسُل، ولا بصحيح فَيرَعى، ولا بسليـم فيَبْقَى، فملتُ إلى الثاني من رأيَيك، وعولت على الآخـر من قَوْلَيك، وقلت: أذبحه فيكون وظيفة للعيال، وأقيمه رطباً مقام قَديدِ الغَزال، فأنشدني وقـد أضرِمت النار، وحُدت الشفار، وشمّر الجزّار: البسيط:

أعيذهَا نظـراتٍ مِنـك صادِقَـةً   أنْ تحسِب الشحم فيمَن شَحمُه وَرَمُ

وقال: ما الفائدة لك في ذبحي؟ وأنا لم يَبْقَ مني إلا نَفَس خافِتٌ، ومُقْلة إنسانها باهت، لستُ بذي لَحْم فأصلح للأكل، لأن الدهرَ قد أكل لحمي، ولا جِلدي يصلح للدّبـاغ، لأن الأيام قـد مزقَتْ أديمي، ولا لي صوف يصلُح للغزل، لأن الحوادث قـد حَصَّت وَبَرِي، فإن أردتني للوَقُود فكفُّ بعْـرِ أبقى من ناري، ولن تَفي حـرارةُ جمري بريح قتاري، فلم يبـق إلا أن تطلبني بذَحْل، أو بيني وبينك دَم. فوجدته صادقاً في مقالته، ناصحاً في مَشُورته، ولم أعلم من أي أمْرَيه أعجب، أمِن مماطَلَته للدهر بالبقاء، أم من صبره على الضّرّ واللأواء، أم من قدرتك عليه جمع إعواز مثله، أم من تأهيلك الصديق به مع خَسَاسة قَدْره؟ ويا ليت شعري إذ كنت، وإليك سوق الغنـم، وأمرك يَنْفُذ في الضأن والمَعز، وكلُّ كبش سمين وحَمَـل بطين مجلوب إليك، مقصـورٌ عليك، تقول فيه قولاً فله تُرَد، وتريده فلا تُصـد، وكانت هديتك هذا الذي كأنه نَاشر من

القبور، أو قائم عند النفخ في الصور، فما كنتَ مُهْدِياً لو أنك رجل من عُرْض الكُتَّاب، كأبي وأبي الخطّاب، ما كنت تهـدي إلاّ كلْباً أجرب، أو قرداً أحدَب"[492]

كتب أبو إسحاق الصابي إلى القاضي أبي بكر ابن قريعة عن الوزير أبي طاهر ابن بقية يعزيه عن ثور له مات

" التعزية عن المفقود، أطال الله بقاء القاضي، إنما تكون بحسب محله من فاقده، من غير أن تراعي قيمته ولا قدره ولا ذاته ولا عينه، إذ كان الغرض تبريد الغلة، وإطفاء اللوعة، وتسكين الزفـرة، وتنفيس الكربة. فرب ولد عـاق، وشقيق مشاق، وذي رحم عـاد لها قاطعاً، وقريب قوم قلدهم عاراً، وناط بهم شناراً، فلا لوم على التارك للتعزية عنه، وأحرى بها أن تستحيل تهنئة بالراحة منه. ورب مال صامت أو ناطقٍ كان صاحبه به مستظهراً وله مستثمراً، فالفجيعة به إذا فقد موضوعةٌ موضعها، والتعزية عنه واقعة موقعها. وبلغني أنه كان للقاضي أيده الله ثور أصيب به فجلس للعزاء عنه، وأنه أجهش عليه باكياً، والتدم عليه والهاً، وحكيت عنه حكايات في التأبين له، وإقامة الندبة عليه، وتعديد ما كان فيه من فضائل البقر التي تفرقت في غيره واجتمعت فيه، فصار بها منفرداً عنهم كالذي قيل فيه من الناس: من السريع

وليس لله بمستنكرٍ   أن يجمع العالم في واحد

وأنه كان يكرب الأرض مغمورة، ويربها مزروعة، ويدور في الدولاب ساقيا، وفي الرحى طاحناً، ويحمل الغلات مستقلاً، والأثقال مستخفاً، فلا يؤوده عظيم، ولا يبهظه جسيم، ولا يجري في القران مع شقيقه، ولا في الطريق مع رفيقه إلا كان مجلياً لا يُسبق، ومبرزاً لا يُلحق، وفائتاً لا ينال شأوه ونهايته، وماضياً لا يدرك مداه وغايته، وأشهد الله أن الذي ساءه ساءني فيه، وما آلمه آلمني له، ولم يجز عندي في حكم ما بيني وبينه استصغار خطب جل عنده وأرمضه، ولا يهون صعب بلغ منه وأمضه، فكتبت هذه الرقعة قاضياً بها من الحق في مصابه بقدر ما أظهره من إكباره، وأبله من إعظامه. وأسأل الله أن يخص القاضي من المعوضة بأفضل ما خص به البشر عن البقر، وأن يفرد هذه العجماء بأثرة من الثواب، يضيفه بها إلى المكلفين من ذوي الألباب، فإنها وإن لم تكن منهم فقد استحقت أن تلحق بهم، بأن مس القاضي أيده

---

[492] الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب

الله سببها، وأن كان إليه منتسبها، حتى إذا أنجز الله ما وعد به عباده المؤمنين من تحميص سيئاتهم، وتضعيف حسناتهم، والإفضاء بهم إلى الجنة التي جعلها الله لهم داراً، ورضيها لجماعتهم قراراً، أورد القاضي حينئذ موارد النعيم، مع أهل الصراط المستقيم، وثوره مجنوب معه مسموح له به. وكما أن الجنة لا يدخلها الخبث، ولا يكون من أهلها الحدث، إنما هو عرق يجري من أبدانهم، ويروي أغراضهم كالمسك، كذلك يجعل الله مجرى الأخبثين من هذا الثور يجريان للقاضي بالعنبر الشحري، وماء الورد الجوري، فيصير ثوراً له طوراً، وجونة عطار طوراً. وليس ذلك بمستبعد ولا مستنكر، ولا مستصعب ولا متعذر، إذ كانت قدرة الله جل ثناؤه محيطة، ومواعيده لأمثاله ضامنة بما وعد الله في الجنة لعباده الصادقين، وأوليائه الصالحين، من شهوات نفوسهم وملاذ أعينهم، وما هو سبحانه مع غامر فضله وفائض كرمه بمانِعِه ذاك مع صالح مساعيه ومحمود شيمه. وقلبي متعلق بمعرفة خبره أدام الله عزه فيما أدرعه من شعار الصبر، واحتفظ به من صالح الأجر، ورجع إليه من التسليم لأمر الله عز وجل الذي طرقه، والسكون لما أزعجه وأقلقه، فليعرفني القاضي من ذلك ما أكون به ضارباً معه بسهم المشاركة فيه، وآخذاً بقسط المساعدة عليه، إن شاء الله."

ومعروف أن ابن قريعة من ذوي اللسان الذرف والقدرة البالغة في إستحكام الأمور والظرف المشهود له والمشهور به، وقد فكتب الجواب الآتي

" وصل توقيع سيدنا الوزير بالتعزية عن اللاي الذي كان للحرث مثيراً، وللدولاب مديراً، وبالسبق إلى كثير من المنافع شهيراً، وعلى شدائد الزمان مساعداً وظهيراً. ولعمري لقد كان بعمله ناهضاً، ولحماقات البقر رافضاً، وأنى لنا بمثله وشرواه ولا شروى له، فإنه كان من أعيان البقر، وأنفع أجناسها للبشر، مضاف ذلك إلى خلائق حميدة، وطرائق سديدة. ولولا خوفي تجديد الحزن عليه، وتهييج الجزع لفقده، لعددتها فيه ليعلم أن الحزين عليه غير ملوم، وكيف يلام امرؤ فقد من ماله قطعةً يجب في مثلها الزكاة، ومن خدم معيشته بهيمة تعين على الصوم والصلاة. وفهمته فهم متأمل لمراميه، وشاكر على النعمة فيه، فوجدته مسكناً ما خاطر اللب وخامر القلب، ففقد هذا اللاي من شدة الحرق، وتضاعف القلق، وتزايد اللوعة، وترادف الارتماض بعظم الروعة، فرجعت إلى أمر الله فيه من التسليم والرضا، والصبر على ما حكم وقضى، واحتذيت ما مثله سيدنا الوزير من جميل الاحتساب، والصبر على أليم المصاب، وإنا لله وإنا إليه راجعون، قول من علم أنه سبحانه أملك بنفسه وماله وولده وأهله منه، وأنه لا

يملك شيئاً دونه، إذ كان جل ثناه وتقدست أسماؤه الملك الوهاب، المرجع ما يعوض عنه نفيس الثواب.

ووجدت، أيد الله سيدنا الوزير، للبقر خاصة على سائر بهيمة الأنعام التي أكثر أقوات البشر بكدها وعلى ظهرها وحرائها إلا قليلاً، قال الله سبحانه: " أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون" الواقعة: 63- 64. ولما رأى الحجاج الأسعار قد تضايقت، وقرى السواد قد خربت، حرم لحوم البقر، لعلمه وعلم جميع الناس بما في بقائها من المنافع والمصالح. ورأيت الله تعالى قد أمر في القتيل الذي وجد في بني إسرائيل أن يضرب بقطعة من بقرة بلغ ثمنها ثلاثمائة ألف دينار، فلولا فضيلة البقر لما خصت من بني الأنعام بذلك، ووجدت بني إسرائيل بعدما شاهدوه من قدرة الله جل وعلا في جفوف البحر ويبسه وأمر الحية والعصا، فلما غاب عنهم موسى عليه السلام عبدوا عجلاً. ووجدت الحكمة في أربعةٍ من الأمم: الهند والفرس تعظمها وتتطهر بأبوالها. ووجدنا الروم تعظمها وقد جعلت لها عيداً، وتمنع من أكل لحومها. ووجدنا العرب قد جعلتها أجل قرباناتها إلى الله في أعيادها، وعقيقتها عن أولادها. ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن ملكين من حملة العرش على صورة البقرة يدعوان الله بأرزاق البهائم، فلولا ما فيها من التكريم والتعظيم والتقديم على سائر البهائم لما خصت بهذه المناقب العظام، ولولا إشفاقي من الخروج في الإطناب عن الغرض المطلوب، والمذهب المركوب، والمثيرات والحارثات، لذهبت أكثر مما أوردت، ولكن قد مضى ما فيه كفاية، وإن لم يكن بلغ النهاية. وبعده الدعاء.[493]

---

[493] رسالة الصابي وجواب ابن قريعة وردا في التذكرة الحمدونية لابن حمدون

الباب الثالث

أبو إسحق الصابي الشاعر

الباب الثالث

أبو إسحق الصابي الشاعـر

عُرف أبو إسحق كاتباً ورئيساً لديوان الإنشاء، وقد غلبت قَدمه المتقدمة في هذا الميدان الأخرى المتقدمة أيضا في ميدان الشعر. ومع ذلك فقد اتفقت المصادر القديمـــة على أن الصابي كان شاعرا وأشادت بجودة شعره[494]. وتؤكد الكثير من المراجع أن الصابي ترك ديوان شعر[495]، ولكن يبدو أنه ضاع فلم يتم العثور عليه كاملا. كما يشار الى أن الشريف الرضي كان قد وضع كتابا في المختار من شعر إبي إسحق، ولكنه ضاع أيضا. وما يركن إليه ويتابع في شعره هو القصائد وبعض المقطوعات التي نقلت عنه المصـــادر وبخاصة في يتيمة الدهر للثعالبي ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، وبعض المصادر الأخرى. كما استطعنا أن نجد بعضـــه مُضمنا في بعض الرسائل التي كتبها وقـــد عملنا على تضمينها ضمن تلك الرسائل. وربما أن هذه القصائد غير كافية في الحكم على شاعرية الصابي بحكم أنها مما انتقاه الناقلون بحسب أغراض معينة، وفي أحيان كثيرة تم انتقاء بيت شعر أو أكثر. كما أن طبيعة عمل الصابي كصاحب ديوان الإنشاء وما يتطلبه عمله من كتابة دائمة أدت الى أن يتوجه نحو الكتابة بشكل أكبر، وصار توجهه للشعر بحسب ما يرغب بذلك وبحسب ما يتطلبه إقران الرسالة ببعض أبيات الشعر أيضا، أو نظم أبيات في مناسبـــة تقتضيها وبخاصة في التهاني والتعازي أو الاستماحة والمعاتبـــة. وربما يميط الكشف عن ديوان الصابي اللثام عن كامل شعره وأغراضه والإفادة منها مثلما صارت الإفادة من أدبه ورسائلـــه في كل أغراضها منذ كتبَ والى اليوم. ويبدو لنـــا أن الصابي نفسه كان فخورا بكونه كاتبا وأديبا أكثر من كونه شاعرا وهذا ما يظهره رأيه في الدراسة التي كتبها والتي عالج فيهـــا الفرق بين المترسل والشاعر[496] وأبرز ما جـــاء فيها وأخذت به المصادر عن الصابي في التمييز بين الاثنين قوله: " إن طريق الإحسان في منثور الكلام مخالف طريق الإحسان في منظومه، لأن أفخر الترسل هو ما وضح معناه وأعطاك غرضه في أول وهلة سماعه، وأفخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعـد مماطلة منه لك وعرض

---

[494] وصف الذهبي في أعلام النبلاء شعر الصابي بالنظم الرائق، وأشار ابن كثير في البداية والنهاية إليه بالجيد القوي، وعده القفطي في تاريخ الحكماء وابن خلكان في وفيات الأعيان بأنه كان موازيا لنثره في البلاغة والجودة.

[495] ابن النديم، الفهرست. وياقوت الحموي، معجم الأدباء. والبغدادي، هدية العارفين

[496] يمكن قراءة الرسالة في الصفحة 331

منك عليه"[497]. وفي هذا يقول:

أحبّ الشعر يبتدع ابتداعاً   وأكره منه مبتذلاً مشاعا

ويمكن تلخيص الفروق بين الترسل والشعر في الجوانب الآتية استنادا الى رسالة الصابي في هذا الخصوص:

1- الفضل في الشعر للمعنى، ومن أهم ضروراته الابتداع والاختراع، فإن خلى من ذلك فلا فائدة أو تذوق فيه، أما في الترسل فهو للأسلوب وأهم خصائصه الألفاظ الفخمة والبلاغـــة وخصائص الكتابة في الوضوح والبيان.

2- بيت الشعر يمكن أن يشكل وحدة كاملة في معناه ومبناه، في حين أن الوحدة في النثر هي للرسالة بكاملها أو لفقراتها المتكاملة.

3- غالبا ما تكون موضوعات الشعر شخصية أو مرتبطة بالفرد أو بموضوع محدد بينما يذهب النثر الى خدمة مواضيع جليلة وخطيرة في أغراضها وتعد وثائق تاريخية.

4- تحدد الشعر بالوزن والقافية، وبمقدار جودة الشاعر في ذلك وإتيانه بالغريب فيهما وفي المعنى يمكن أن يركن الى شاعريتـــه، أمّا في الترسل فكتابة النثر فيها يكون مستمرا منسابا ولصيغة متحدة في الغرض وهذا يتطلب التواصل في صياغتها للتواصل في قراءتها.

5- طبيعة مهنة الكاتب تتطلب اطلاعه على معارف جمة وميادين عديدة لأن كلها داخل ضمن متطلبات كتابته، في حين أن الشاعر يمكن أن يتحدد بموضوع واحد ولا يطالب بدقة معرفته فيه بمقدار ما يطالب بدقة وصفه وعاطفة صياغته.

6- الكلمة في الشعر تأتي بحسب ما يطلقها اللسان في لحظة حدث، في حين أن الكلمة في النثر محسوبة ومدروسة ومقصدوة الغرض وواضحة المعنى لأن عدم الوضوح قد يذهب بها الى التأويل ومن نتائجه أن تقوم حرب لسوء فهم مثلا.

وقد أحصى البعض عـــدد أبيات الشعر المفردة وضمن القصائدالتي كتبها الصابي بما يصل الى 1236 بيتا[498]، ولكننا نزيد في ذلك بحكم ما عثرنا عليه في مخطوطة جامعة لايدن بهولندا من قصائد وأبيات شعر نعتقد أنها مما لم يتم جردها سابقا.

---

[497] ابن حمدون، التذكرة الحمدونية

[498] ورد هذا العدد لدى مهدي صالح محمد البدري في رسالة الماجستير التي تقدم بها لكلية الآداب جامعة بغداد بعنوان: أبو إسحاق الصابي، حياته وأدبه.

كانت بعض قصائـــد الصابي من الطول بما يصل إلى 60 بيتا، وأخرى قصيرة قـــد تتحدد بثلاثة أبيات، كما كان بعضها مجرد مقطوعات قيلت ارتجالا وذهبت غناءً ومثلاً.
وقد كتب الصابي الشعر في أغراض متعددة سنأتي على ذكرها وتدوين كل ما كتبه ضمن كل غرض بماوثق له وتم العثور عليه بسبب ضياع ديوان شعره.

خصائص شعر أبي إسحق الصابي

إن النظر فيما توافر من شعر الصابي يجعلنا نقف كما ذكرنا على أن توجه الصابي في شعره إنما كان متأثرا ومسايرا لما كان يدور في عصره، خاصة وأنه لم يوليه وقته وجهده الأكبر قياسا بالكتابة ووظيفتها. ولغرض الوقوف على سمات شعره، فإنه يمكن الإشارة إلى أن شأنه فيه لم يكن تقليديا وأنه كان مباشرا في طرح الفكرة والمخاطبة التي هو بصددها إن كانت شكوى أو استماحة أو فخرا أو مدحا أو عتابا وغير ذلك، ولذلك لم يكن شعره متكلفا ولا غامضا ولا صعب الفهم، بل كان واضحا واستخدم فيه لغة مفهومة تصيب الغرض. ومن تحدده بأهداف الموضوع الذي يريد أن يخاطب فيه نراه لم يعمد الى الإطالة في قصائده عدا عدد محدود منها تطلبته أغراض سجنه لاستعطاف عضد الدولة أو الاستماحات التي كتبها للشريف الرضي لادراكه شاعرية من يخاطب ورفاهة حسه. وربما كانت له قصائد طوال أكثر مما وقفنا عليه ولكنها لم تصل وما يسند ذلك وجود العديد من قصائده مصرع المطلع بما يجعلنا نشك بأنها مقتطعة البداية.
أما لغة وأسلوب شعر الصابي فكانت كما عُرف عنه لغة ثرة كثيرة المعاني ومن كثرتها نجده يحشر الكثير من المعاني أحيانا في بيت الشعر الواحد، ويكتب بأسلوب جزل رصين، وينتقي من الكلمات ما لها وقع تأثير من حيث المعنى والقصد وكذلك من حيث الوقع الموسيقي والانسيابية فتدخل النفوس بسهولة ويسر ودونما تكليف حد أن يصل بعض شعره الى شكل نثرة في الكتابة. وكان في الكثير من شعره يلجأ إلى الطباق والجناس أيضا بحكم ما كان يستخدم في كتابتها من فنون البلاغة والمحسنات اللفظية. وكان الصابي يلجأ إلى الاعتناء في اختيار الكلم وبخاصة فيمن يخاطب. وقد لمسنا ذلك في مخاطباته لعضد الدولة والشريف الرضي، مع إنه كان يلجأ إلى الحرص على البلاغة والتأثير في المقابل من خلال مقطوعات شعرية ليظهر بها قدرته

وتباهيه في أنه شاعر أيضا رغم غلبة صفة الكاتب الناثر عليه. كما تميز شعره بتضمينه شواهد من القرآن والأمثال وأشعار الآخرين في بيان منه لقدرته وثروته اللغوية والفكرية.

الأغراض الشعرية

لقد نظم الصابي شعرا في العديد من الأغراض الحياتية المعهودة كما غيره من الشعراء، ونعتقد أن شعره في مراحل حياته الأولى كان أغزر في المواضيع العامة وما تتطلبه الحياة المرفهة بحكم رفاهية عيشه الأول قبل نكباته، إلا أن عدم توثيق هذا الشعر كما اهتم به هو أو غيره ممن وثق له جعلنا لا نقف عليه جميعا، بل ولم يتم تناقله ليحفظ بمقدار ما تم تناول الأشعار التي قالها في نكباته. وقد تفرد الصابي ببعض الأغراض فنجـده ينظم للسر مقطوعات ويخاطب الشريف الرضي تحكيما فيها ربما بسبب مَن نكبه ممن أودع سره لديهم فأذاعه فصار سببا فيما نُكب. وندرج في هذا الباب جميع ما تمكنا من الوقوف عليه من أشعار الصابي التي وثقت له بعد تصنيفها بحسب أغراضها.

مما قال في الغزل

ربما كان الغزل أول الشعر بحكم حاجة الإنسان للتعبير عن أحاسيسه ومشاعره في وصف الطبيعة والحب للمقابل إن كانت الأم والأب أو الحبيب. ولقيمة هذا النوع من الشعر تجده هـو السائد في ثقافات الشعوب على اختلافها ، بل أن تذوقـه يكون من قبل الجميع وإن اختلفت ثقافاتهم. ويظهـر لنا أن شعر الصابي في الغزل، الذي وصل في بعض المقطوعات، يرتبط في المراحل الأولى من حياته. ومن استقراء ما كتب يظهر أنه كتبه مساهمة منه في الكتابة في هذا الميدان فالعاطفة فيه ليست جياشة بما يبين أنه أغرم غراما شديدا فكتب، بل حتى أنه يخلو من الغزل المعنوي في ذكر اسم محبوبة هام بها وتشبب، بل أنه يورد ذكر جارية أو معنى عاما دونما تحديد، بل يستغل ما هو شائع في دار الخلافة من ذكر وتعامل مع الجواري في الإشارة والتعبير. أما في غزلـه الحسي الذي ينطلق فيـه من التعبير عـن المشاعر والأحاسيس دونما تجربة فعلية، فقد جارى الصابي في هذا الميدان على الرغم من أنه مقل فيما وصل على الأقل. وتظهر ذلك اللمحات المبتدعة والمستحدثة التي ترد في بعض الأبيات التي حفظها الناس وترددت على ألسنتهم وإشاراتهم بل وصارت أغاني طرب لها من سمع ورقصت عليها الغواني.

وقد كتب الصابي في الغزل الغلماني[499] ويتمثل ما كتب في غلام لـــه أسود اسمه رشد أو (يمن). ومما حفظ للصابي من أشعاره في هذا الخصوص:

أبصرتُ في رشـــدٍ وقـــد أحببتـــه   رشدي، ولم أحفل بمن قد ينكرُ

يا لائمي أعلى الســـواد تلـــومني   من لونـــهِ وبـــه عليك المفخـــرُ

دع لي السواد وخذ بياضك إنني   أدرى بمـــا آتي ومـــا أتخيـــرُ

مثـــوي البصيرة في الفؤاد ســـواده   والعين بالمســـود منهـــا تبصـر

والدينُ أنت مناظـر فيـــه بـــذا   وكذاك في الدنيا بهـذي تنظـر

بسواد ذينك تستضيء ولو هما إبـ   ـيضا تغشّاك الظـــلام الأكدر

فغـــدا بياضكُ وهـو ليـل دامس   وغدا سوادي وهـــو فجـر أنـــور

وقال فيه أيضا :

لك وجـــه كأن يمنـــاك خطتـّ   ـــه بلفـــظٍ تملـــه آمـــالي

فيـه معنى مـــن البدور ولكن   نفضتْ صبغهـــا عليـــه الليـــالي

لم يشنك السواد بل زدتَ حُسناً   إنمـــا يلبسن الســـواد المـــوالي

فبمالي أفديك إن لم تكن لي   وبروحي أفديك إن كنت مالي

وقال يصفه وفي هذا الوصف تبرز قدرة الصابي على بيان الجمال الأسود فهو يريد أن يشبه فتاه باشراق البدر فاحتال بأن جعل الليالي قد صبغته بصبغتها فجمع التناقض بين السواد والإشراق:

قـــد قال رشـــد وهو أسودُ للذي   ببياضـــه استعلى علوَّ مبـــاين

ما فخر خدك بالبياض وهل ترى   أن قد أفدت به مزيد محاســـن

ولـــو أن مني فيـــه خالاً زانـــه   ولـــو أن منـــه فيّ خالا شـــانني

---

[499] الغزل الغلماني هو كتابة الشعر تغزلا بالغلمان. وهذا باب في الشعر شاع نقلا عن الفرس ثم صار مألوفا في الزمن العباسي وبخاصة أيام الخليفة المأمون وما بعدها. ويقول ابن عبد ربه في العقد الفريد " إن مغنيا غنى للخليفة الأمين بعض أبيات من الشعر في التغزل بالغلمان، فطرب الأمين طربا شديدا حتى وثب من مجلسه وركب المغني وأخذ يقبل رأسه ثم أمر له بجائزة. فقال المغني مندهشا يا سيدي قد أجزتني إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم.(ابن عبد ربه، العقد الفريد).

ومما يذكر في هذا المجال من الشعر أن أبا إسحاق الصابي كان واقفاً بين يدي عضد الدولة، وبين يديه كتب قد وردت عليه من ابن سمجور، صاحب خراسان، وعلى رأسه غلام تركي، حسن الوجه، جميل، الخلقة، وكان مائلاً إليه، ورأيت الشمس إذا وجبت عليه حجبه عنها، إلى أن استتم قراءة ما كان في يده، ثم التفت عضد الدولة إلى الصابي، فقال له: هل قلت شيئاً يا إبراهيم؟ فقال:

وَقَفتْ لتحجبُني عـن الشمسِ   نفسٌ أعـــزُّ عليَّ مـن نَفْسي

ظلّتْ تظللنـــي ومـــن عجـــبٍ   شَمْسٌ تُغيِّبني عن الشمس[500]

فَسُرَّ عضد الدولة بذلك، وطوى الكتب، وجعله مجلساً للطرب، وألقى على الجواري الستائر، فغنوا به في ذلك اليوم، وهو في الخامس من شوال سنة إحدى وستين وثلاثمائة.[501]

أما النوع الثاني من شعر الغزل، فهو قصائد مما هو مألوف الأغراض. وقد شاب بعض ما كتب الصابي شيء من الإباحية، وبينها قصيدة يفاد منها في معرفة وجهة الصابي في نظرة الأديان وبخاصة ديانته في وصف من رآه فأغرم به.

فمن غرر أشعاره:

إلى الله أشكو ما لقيت من الهوى   بجارية أمسى بهـــا القلب يلهجُ

إذا امتـــزجت أنفاسنـــا بالتزامنـا   توهمت أن الـروح بالروح يمـــزج

كأني وقـــد قبّلتها بعد هجعـة   ووجـــدي ما بين الجوانح يلعـج

أضفت إلى النفس التي بين أضلعي   بأنفاسها نفساً إلى الصدر تولـج

فإن قيل لي اختر أيمّا شئتَ منهما   فإني إلى النـفس الجديدة أحوج

وقوله أيضا:

إن نحن قسناك بالغصن الرطيب فقد   خفنا عليك به ظلماً وعدوانـا

الغصن أحســـن ما نلقـــاه مكتسياً   وأنت أحسن ما نلقاك عرياناً

---

[500] وردت في بعض المصادر تقنعي بدلا من تغيبي

[501] العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص

ويبين الصابي توله القلب بالعشق والهوى ، فإن عانى وتاب سيعود ويتعلق وكأنه الذبالة التي تنتظر قدحة أو نظرة حب فتشتعل بسرعة مرة أخرى، وقد أجاد حين قال:

حذرت قلبي أن يعود إلى الهوى   لما تبـــدل بالنـــزاع نـــزوعا
فأجابني لا تخش مني بعد ما   أفلتُ من شَركِ الغرام وقوعا
حتى إذا داعٍ دعـــاه إلى الهـوى   أصغى إليـه سامعــاً ومطيعا
كذبالة أخمدتها فكما دنا   منها الضرامُ تعلقتــه سريعا

ومن أجمل التشبيهات تشبيه النهود بالرمان، كما أنه ثبّت معرفة أثر عصير الرمان في معالجة سعير الحشا، يقول الصابي:

مرضت من الهوى حتى إذا مـا   بدا ما بي لإخواني الحضـور
تكنفني ذوو الإشفاقِ منهم   ولاذوا بالدعـــاء وبالنـــذور
وقالــوا للطبيب: أشــرْ فإنا   نعـــدك للعظيم مــن الأمـور
فقـــال شفاؤه الرُّمان ممـــا   تضمنـــه حشاه من السعيـر
فقلت لهم: أصاب بغير قصـد   ولكن ذاك رمـان الصـــدور

ويصر الصابي ولا يقبل اللوم على الهوى فيقول:

أيها اللائم المضيـق صدري   لا تلمني فكثـرة اللوم تغري
قد أقام القوام حجة عشقـي   وأبان العـذار في الحب عذري

ونتأمل الجناس والطباق في (مر و مر) وكذلك في (العذاب والعذب) في هذين البيتين ومعناهما المبتدع

لست أشكو هواك يا من هواهُ   كل يوم يروعني منه خطبُ
مرٌّ مـــا مرّ بي من أجلك حلـــوٌ   وعذابي في مثل حُبـك عذبُ

وفي أوصاف المحبوب تذكر للصابي المراجع بعض المقطوعات، يقول، والبيت الأخير من أملح الأوصاف:

يا قمراً كالخشف في نظرته   وكالقضيب اللدن في خطرته[502]
خلتك صيداً صـار في قبضـي   فصرت من صيدي في قبضته

[502] الخشف: الجريء على هول الليل

فديـــتُ من لاحظني طرفهــا   من خيفــة النــاس بتسليمتـه
لما رأتْ بــدر الـدجـــا تـائهاً   وغاظهـــا ذلك من شيمتـــه
أزاحت البرقـــع عن وجههـــا   فــردّت البـــدرَ إلى قيمتـه

وما أجمل وصف الصابي حين يبرز أن الفرك والقرص يوّرد البياض فيصير كالبنفسج على خلفية من الجمّار (قلب رأس النخلة)، فيقول:

مازلت في سكري ألمُ كفها   وذراعَهــا بالقــرصِ والآثــارِ
حتى تركتُ أديمها وكأنما   غرس البنفسج منه في الجمارِ

وقوله، وقد أبدع في أن يعتبر الصباح عيبا لأنه كشف المستور والسرور الذي كان فيه طول ليله وجمال ليلته:

هيفاء تحكي قضيباً   قـد جشمتــه الـرياحُ
تفترُّ عــن سمط درٍّ   عليــه مســـكٌ وراح
جرّدتهـــا واعتنقنــا   كلٌّ لـكلٍّ وشـــاحُ
باتت وكلُّ مصونٍ   لي من حمــاها مباح
في ليلــةٍ لم يعبهــــا   في الدهر إلاّ الصباح

وله أيضا:

هيفاء كالغصن في رشاقته   لفّاء كالدعص في كثافته[503]
تبخرت والعثان يكنفهـــا   فكانت البدر وسط هالتـه[504]

وله أيضا:

أحشمتهـــا بالعتب عنــد لقائها   فتلثّمت من شدة استحيائها
واستكملتْ صفة البدور بطلعةٍ   وبحلّة صبغت بلون سمــائها
فبهتُّ أنظــر من لجين جبينهـــا   متخفــراً في لازَوَرد ردائهـــا

المرأة اللفاء: المكتنزة الفخذين، الدعص: قورٌ (كثيب) من الرمل المتجمع

[504] العثن والعثان: الدخان، ويقال: عثنت المرأة بدخنتها إذا استجمرت. وعثنت الثوب بالطيب إذا دخنته عليه حتى عبق به.

وما أجمل تعبيره ومعناه رأفة بحال من يحب كيلا تجزع لفراقه، أن يلجأ الى حيلة مؤثرة في نفسه ولكنها مخففة لوجد فراق التي تحبه بأن يظهر لها عزاء وغلظة حتى يغلظ قلبها عليه فيخف وجدها، يقول:

ولما إلتقينا للوداع أريتُها عزاءً وقد عزَّت عليَّ مطالبُه
جِذاراً عليها أن ترى جزعي لها فيصحبُها منه الذي أنا صاحبه
فمرَّت وقد غلظتُ رِقَّة قلبها يُغالبها شوقي وطوراً تغالبه
فما برحت حتى اضمحل تجلدي وبرّحَ بي من ماء عيني ساكبه

وبعض شعره يأخذ صفة الإباحية ومن ذاك ما يقول:

ما أنس لا أنس ليلة الأحد والبدر ضيفي وأمره بيدي[505]
قبّلت منه فماً مجاجته تجمع بين المدام والشّهد
كأن مجرى سواكه بردٌ وريقه ذوب ذلك البُرد

وله أيضا وفيه يظهر التزام الصابي ضمنا التطهر بالماء وهو شرط في الجنابة، وذكر الصابي له يدل أنه معتمد في ديانته وهو أيضا منصوص ومعتمد في ديانة المندائيين

طيب عيشي في عناقك ووفاتي في فراقكْ
أنت لي بدرٌ فلا عشـ ـت إلى يوم محاقك
فاسقني الصهباء صرفاً أو بمزجٍ من رياقك
لا أريد الماء إلاّ عند غسلي من عناقك

وقوله الجميل وتشبيه الثياب على من رأى بالعورة وأن الستر هو في التجريد وبذلك فقد عكس المفهوم السائد من أن الجسم عورة وأن الثياب ستر له، يقول:

يا من بدت عريانة فرأيت كل الحسن منها
كانت ثيابك عورةً فسترت بالتجريد عنها

وتأمل جمال قول الصابي قوله في أنه يضحي بكسر ضلعه مقابل أن يُجبر قلبه:

---

[505] أيمكن رد إختيار الصابي لليلة الأحد كون يوم الأحد من الأيام المقدسة لدى الصابئة المندائيين!

أقــول وقــد جردتها من ثيابها وعانقتها كالبــدر في ليلة التمّ

لئــن آلمتْ صــدري لشدّة ضمها لقد جبرتْ قلبي وإن أوهنتْ عظمي

وفي التشاكل وخلط المعاني والأوصاف يكتب الصابي ويحسن في ذلك أيما إحسان فيصور أن عينه تسكب دما كما الخمر في كأسه، فهل أن ما في عينيه خمر وهل أنه كان يشرب مما تدمع به عيناه؟ يقول:

تـورّد دمعي إذ جــرى ومُـدامتـي فمن مثل ما في الكأسِ عيني تسكبُ

فوالله مــا أدري أبالخَمر أسبَلَت جفـونيّ أم من عَبرتي كنتُ أشـربُ

وفي نفس المعنى يقول:

جرت الجفون دماً وكأسي في يـدي شــوقاً إلى من لـجَّ في هجرانــي

فتخالف الفعــلان، شــارب قهــوة يبكي دمــاً، وتشاكل اللونـان

فكأن ما في الجفن من كأسي جرى وكأن ما في الكأس من أجفانـي

ومن بهي ترحابه بمن يحب يقول[506]:

ولقــد زارني على ظمــــاء النفس إليه فقلت أهلاً وسهلا

وسقاني من الحديث بكأس هي أشهى مــن المدام وأحلى

لست أدري أحلّــهُ في ســواد العين ضنا بــه وشحاً وبخــلا

أم ســواد الفــؤاد مني وما أرضاه من خفيــة عليه محلا

وتأخذ الصابي الخيفة في الجهر بما يريد لمن يحب فتراه يكني بالغير ويقصد المحبوب حذرا، حتى أنه يتوقى من السعادة فكيف يؤمن جانب الكيد؟[507]

أكني بغَيرك في شعرِي وَأعنيكِ تَقِيّــةً، وَحِذَاراً مِــنْ أعَاديكِ

فإنْ سَمعتِ بإنسانٍ شُغِفتُ بــه فإنّمــا هُــوَ سِتــرٌ دونَ حُبّيكِ

غَالطتُهم دونَ شَخصٍ لا وُجودَ لَهُ مَعنــاهُ أنتِ، وَلكن لا أُسَمّيكِ

أخافُ مِنْ مُسعدِي في الحبّ زَلّتَهُ وكَيفَ آمَنُ فيـهِ كَيدَ وَاشِيكِ

---

[506] البهاء العاملي، الكشكول

[507] القاضي التنوخي، نشوار المحاضرة

وَلَوْ كَشَفتُ لهُمْ ما بي وَبحتُ بهِ   لاستَعبَرُوا رَحمةً من محنَتي فيكِ

وما ألطف تصوير الصابي لمن دهش برؤيته لشدة جماله وحسن مقدمه وبهاء طلعته يقول:

أتاني البدرُ باكياً خجلا   فقلتُ: ماذا دهاك يا قمرُ؟

قال: غزالٌ أتى ليغزوني   بحسنه فالفؤاد منفطر

فقلت: قبِّلْ ترابهُ عَجلا   واسجد له. قال: كل ذا غرر

قد بايعت أنجم السماء له   فليس لي مفزع ولا وزر

أما قصيدته التي مطلعها (كل الورى)، فهي وإن كانت العاطفة فيها ليست جياشة، إلا أنها تفيد في بلورة وتقديم صورة عن الجوانب التي اختارها الصابي من فكر الأديان التي كانت سائدة في المنطقة والبيئة التي يعيشها. فقد اختار من كل دين خير ما ينطبق على من تشبب به ووصفه به ببيتين أو أكثر. أظهر في القصيدة سعة معرفته حين يجعل من يرى المحبوب من كل دين يثبته على دينه إلا هو فقد فسد حاله بسبب شدة تولهه. وفيما يتعلق به كصابئي، فقد لخص لنا في البيتين أبرز جوانب العقيدة الصابئية في نظرتها الى الخالق كفرد مفرد وهذا مؤشر التوحيد الخالص عندها والمستمر لدى الصابئة المندائيين، كما أنه أبرز أيضا الاعتبار الكبير الذي يقدمه الصابئون للكواكب بأنها أبرز جوانب الخلق وقد جعل فيها الخالق المدبرات والمؤثرات في الكون وورد ذكرها في جميع الأديان، وأبرزُ ذكر كان في القرآن الكريم. يقول الصابي:

كلُّ الورى من مُسلمٍ ومعاهدِ   للدين منهُ فيك أعدلُ شاهدِ[508]

فإذا رآك المسلمون تيقنوا   حورَ الجنانِ لدى النعيم الخالدِ

وإذا رأى منك النصارى ظبيةً   تعطو ببدرٍ فوق غصنٍ مائدِ[509]

أثنوا على تثليثهم واستشهدوا   بكِ إذ جمعتِ ثلاثةً في واحدِ

هذا سنا الرحمن حين أبانهُ   لكليمهِ موسى النبي العابدِ

ويرى المجوسُ ضياءَ وجهك فوقه   مسوّد فرعٍ كالظلام الراكدِ

---

[508] المعاهدون هم الرعايا غير المسلمين الذين يعيشون في ديار الإسلام.

[509] ظبية تعطو مدت أيديها وتطاولت حتى تتناول أغصان الشجر

فتقـوم بـين ظـلامِ ذاك ونــور ذا	حجـجٌ أعــدّوها لـكلِ معــانـدِ
أصبحتَ شمسَهُم، فكم لـك فيهمُ	من راكعٍ عنــد الظلام وساجـدِ
والصـابئــون يرونَ أنّـك مفــردٌ	في الحُسن إقــراراً لفــردٍ ماجـدِ
كـالزهـرةِ الزهــراء أنت لديهــم	مَسعـودةٌ بالمشتــري وعطــاردِ
فعلى يديـك جميعهـم مستبصـرٌ	في الدين من غاوي السبيلِ وراشـدِ
أصلحتهــم وقتلتِـني فتـركـتِني	من بينهــم أسعى بـديــنٍ فاسـدِ

ففي فكر الصابئين خصائص لكل جرم من الأجرام كما ثبته عنهم إخوان الصفا وخلان الوفا في رسائلهم. ومما أوردوا فيها أنه: " ينبث من جرم الزهرة قوة روحانية فتســري في جميع العالم وأجزائه، وبها تـكون زينة العالم وحسن نظامه وبهاء أنواره، ورونق الموجودات وزخرف الكائنات، والتشوق إليها والعشق لها، والمحبات والمودّات أجمع"، " وينبث من جرم المشتري قوة روحانية تسري في جميع العالم، بها يكون اعتدال الطبائع المتضادات، وتأليف القوى المتنافرات، وسبب المتولدات الكائنات، وحفظ النظام على الموجودات"، " وينبث من جرم عطارد قــوة روحانيــة تسري في جميع جسم العالم وأجزائــه، بها تكون المعارف والإحساس في العالم والخواطر والإلهام والوحي والنبوة والعلوم أجمع". وبهذا التثبيت فقد اختار الصابي في وصفه لمن أحب أكثر الأجرام انطباقا حسبمــا أراد أن يظهر فيمن وصف.[510]

وقد وجدت السيدة (أنّا ماريا شيمّل)[511] في هذه القصيــدة قيمة أدبيــة ومعرفية عاليـة فترجمتها من العربيــة الى الألمانية بوزن وقافيــة. والترجمة تظهر قدرة المترجمة بحكم صعوبــة بعض مدلولات التعابير التي وردت فيها. وأدناه نص ترجمة القصيــدة باللغــة الألمانية[512]:

---

[510] رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، الرسالة رقم 20

[511] أنــّا ماريا شيمّل 1922-2003 تعلمت العربية وعمرها 15 سنة، حصلت على شهادة الدكتوراه من جامعة بون، درّست في العديد من الجامعات وفي بلدان متعددة من العالم لها أكثر من 100 كتاب، وحازت على جوائز دولية عديدة.

[512] http://www. literaturnische.de/GG/sabi.htm. Abu Ishak Ibn Hilal as-Sabi

Du kannst für die Frommen jedes Glaubens
Den Beweis für ihre Dogmen leihn:
Sieht der Muslim dich, hält er dich sicher
Für die Huri, ewig hold und fein.
Sieht ein Christ dich, *Reh*, wie du voll Anmut
Wiegst auf schlankem *Zweig* des *Vollmonds* Schein,
Preist sein Dogma von der Trinität er:
Denn in dir ward Drei ja ganz zu Ein!
Sieht ein Jude deine Stirn erglänzen,
Weißt er Ketzer ab und Heiden: „Nein,
Seht ihr nicht – das ist der Glanz des Herrn,
Der dem Mose strahlt' am Wüstenstein!"
Sehn die Magier dein Gesicht so leuchtend,
Drüber nächtig schwarz die Locken dein,
Wirst du ihre Sonn – und ob des Dunkels
Werfen sie sich hin in langen Reihn.
Die Sabäer sehen, dass du einzig
Bist an Schönheit, unvergleichlich rein,
Wie die Venus scheinst du ihnen, glückhaft,
In Merkurs und Jupiters Verein.
Alle schauen nur auf deine Hände,
Ob sie irrend oder gläubig sei'n –
Jenen halfst du, mich verwirrst, verlässt du,
Und ich wandle, glaubenlos, allein!

[*Annemarie Schimmel*]

مما قال في الفخـــر

الفخر أن يخص الشاعر بالمدح نفسه إبرازا لقيمته وإظهارا لمواقفه وإعلاءً لشأنـــه. وقد زاوله كل الشعراء منذ العصر الجاهلي. ولم يكن الصابي متفاخرا بنفسه وبمنزلته، بل كان كثير التواضع، ولذلك لم نجد له قصائد كثيرة في هذا الباب مع أنه يعـــرف قدر نفسه وشهادة كبار الأدباء والشعراء الذين عاصروه فيه ناهيك عن تقييم الخلفاء والأمراء والوزراء والقضاة والقادة الذين كان يأمل بعضهم قولا منه فيه

إن كان نثرا أو شعرا. وربما يكون له ولكنه لم يصلنا بأسباب ضياع الكثير من نتاجه. ومع ذلك فنحن نجـــد فيما قاله مفتخرا الكثير من القيمـــة الأدبية ودقة الوصف وبيان علو المنزلة بقـــوة معانٍ وحسن نظم وجودة تصوير. وقد أخذ الشريف الرضي من بعض ما افتخر الصابي به بنفسه ليعتمده في معناه ومفرداته في رثائه بالقصيدة التي سيرد ذكرها. يقول الصابي مفتخراً:

أيسرُ جـــودي أنّني كلّما   أسرفتُ في السكر ولا أدري
ندمتُ في صحوي على كل ما   أبقيت مـن مالي في سكري

ويبرز الصابي درجة إلتزامه بما يمليه عليه دينه وإخلاقيات هذا الدين على الرغـم من أن النفس تواقة الى الإنغماس في الملذات ، فيكبر ويفخر بنفســه إذ هو كبح الجماح إيمانا وليس عجزا فيقول:

حَمَتني لـذّتي رُتَبَ المعـالي   وضنّي بالمـــروءةِ والوقـارِ
ودِينٌ ضاقَ فيه مجالُ فتكي   لخوفِ عقوبـةٍ وحَـذارِ نارِ
فواشقـــا إلى خلع العـــذار   وفعلي ما أريـد بلا إعتذار
ويـــالهفي على حـــل الإزار   صريعا بين سكر أو خُمار

ويبرز الصابي قيمة وجوده عند السلطان حد أن تكون يده يد للسلطان وما يكتب يجري على لسان السلطان ويســـدي الرأي ثم يتباهى بأن يجاريه قس وسحبـان ويطاول جرير والفرزدق، فيقول:

وقـــد علم السلطان أني لسانـــه   وكاتبُه الكافي السديدُ الموفقُ
أوازرُه فيمـــا عَـــرى وأمـــدّه   برأي يريه الشمس والليـلُ أغسق
يجددُ بي نهجَ الهدى وهـــو دارسٌ   ويفتح بي بـاب النهى وهـو مغلق
فيمنـــاي يمنـاهُ ولفظيَ لفظـــهُ   وعيني لـــه عينٌ بها الدهـرَ يَرمُق
ولي فقـــرٌ تضحى الملوك فقيـرةٌ   إليها لـــدى أحداثها حين تطـرق
أردُّ بهـــا رأس الجمـــوح فينثني   وأجعلها سَـوط الحرون فَيُعنـــقُ
فيُغضي لنثري خاطبٌ وهو مصقعٌ   ويعنـــو لنظمي شاعرٌ وهـو مُفلق
معالٍ لـــو الأعشى رآهن لم يقـل   "وبات على النار الندى والمُحلّـق"

ويقول مفتخرا برجولته وصولاته غراما وشجاعة، ويبدو أن هذا من شعره زمن الشباب وقد أحسن غاية الإحسان في البيت الأخير، يقول:

لقد عَلِمتْ خيلُ هذي الخيام   ونسوانُها القاصراتُ الغواني
بأني شفاء صدورِ الجميع   وأكرَمُ من ضمَّهُ الخافقانِ
أسُرُّ القرينةَ ليلَ العناقِ   وأفتِكُ بالقِرن يومَ الطعان
فبطنُ الحصَانِ وظَهْرُ الحِصانِ   عليّ بما قلتهُ يشهدان

ويبرز إفتخاره بنفسه حينما يشمت به من يشمت على إثر نكبته ورزوحه في السجن، بأن هذا شأن أهل العزم الذين يمدون أيديهم نحو النجم إرتقاء فإن خاصمهم السلطان فيكون في سجنهم تشريف ومنزلة. وفي القصيدة من جمال السبك والمعنى الذي يصل حد الحكمة ما يجعل القارئ يقف على قدرة الصابي في قوة شعره وافتخاره وهو في السجن فيقول:

يُعيرُّني بالحبس مَن لو يَحلّهُ   حُلولي لطالت واشمخرَّت مراكبه
ورُبّ طليقٍ أطلقَ الذلّ رِقّهُ   ومعتقلٍ عانٍ وقد عزَّ جانبه
وإني لَقِرنُ الدهر يوماً تنوبني   سطاه ويوماً تنجلي بي نوائبه
ومَن مَدَّ نحو النجم كيما يناله   يداً كَيدي لاقتهُ أيدٍ تجاذبه
ولا بدّ للساعي إلى نيلِ غايةٍ   مِن المجدِ مِن ساعٍ تدبُّ عقاربه
وإني وإن أودت بمالي نكبةٌ   نظيري فيها كل قرمٍ أناسبه
فما كنتُ كالقسطار يُثري بكيسه   ويملقُ إن أنحى على الكيس سالبه[513]
ولكن كليثِ الغاب إن رام ثروةً   حَوتها له أنيابُهُ ومخالبه
يبيت خَميصاً طاوياً ثم يغتدي   مُباحاً لهُ من كل طعمٍ أطايبه[514]
كذلك مثلي نفسُه رأسُ مالهِ   بها يدركُ الرِّبحُ الذي هو طالبه
وللمال آفاتٌ يُهنّا ربهُ   بها إن تخطّتهُ إليه مصائبه

---

[513] القَسْطَرُ والقَسْطَرِيّ والقَسْطارُ: مُنتَقِدُ الدراهم وجامعها.

[514] والخَمْصُ والخَمَصُ والمَخْمَصَة: الجوع، وهو خَلاء البطن من الطعام جوعاً

ومن يكنِ السلطانُ فيه خصيمَــه   فلا عـــارٌ في الغَصْب الذي غاصبـــه
وما ضرني إن غاض ما مَلكت يدي   وفي فضل جاهي أن تفيض مذاهبه[515]
إذا كان مالي مـــن طريف وتـالدٍ   قتيلَ يَدَي فضلي فَمُفنيـــه جالبـــه
ولي بين أقـــلامي ولُبيِّ ومنـــطقي   غِنىً قلما يشكو الخَصاصـةَ صاحِبُه

بل نرى الصابي يشـــن في شعره الغارة مفتخرا حتى وهو في أحرج الظروف منبها ومباريا ومذكرا بما له وبأن الإستغناء عنه إستغناء عن قيمة الكلم فيقول:

يا أيهـــا الرؤساء، دعوةَ خادمٍ   أوفت رسائلـــه على التعديـــر
أيجوز في حكم المروءةِ عندكم   حَبسي وطول تهددي ووعيدي؟
قلّدت ديوان الرسائلِ فانظروا   أعدلتُ في لفظي عن التسديدِ؟
أعليّ رَفعُ حُســام ما أنشأتـــهُ   فأقيم فيـــه أدلتي وشهودي؟
أنسيتمُ كتباً شحنتُ فصولها   بفصولِ درٍّ عندكم منضـودِ؟
ورسائلاً نفذت إلى أطرافكم   عبد الحميدِ بهنّ غيرُ حميـــد
يهتز سامعهنَّ مـــن طربٍ كما   هـــزّ النديمَ سماع ضربِ العود
أنا بين إخوان لنـــا قد أوثقوا   بســـلاسلٍ وجوامـعٍ وقيـــود
وموكلين بنـــا نـــذل لعزّهم   فكأننـــا لهم عبيـــدُ عبيد
والله ما سمـــع الأنام ولا رأوا   نقـــداً توكل قبلهم بأسـودِ
من كلّ حر ماجـــد صنديدٍ   في كل وغـــد عاجز رعديدِ
قصرتْ خطاه خلاخل من قيده   فتــراه فيها كالفتـــاة الـرود
يمشي الهوينـــا ذلّتة لا عـــزة   مشي النزيـف الخائف المزءود
فتفضلوا وتعطّفوا وهبـــوا لنـا   عفـــواً قديـمَ حفائظٍ وحقـودِ
وتعلموا أن الولايـــة عنـدكم   عاريـــةٌ ليست بـــذات خلـــود

ويختتم إحدى قصائده للشريف الرضي مفتخرا بالقول:

وإن أخّرتني اليومَ سنٌّ تقدَّمتْ   فقـد أسلفَتني حَـوزَ كُلِّ رِهـان

---

[515] غاض: نقص

لياليَ طارتْ بي عُقابُ بَلاغتي وبَذَّت بُغاثا ما استطاعَ يراني
أبابيلُ جابتْ دونَ إدراكِ غايتي على أنّها لم تألُ في الطّيران

مما قال في المدح

لما كان الصابي قد ارتقى منزلته بقدراته وأخلاقه وعايش بحكم منزلته ومرتبته كرئيس لديوان الإنشاء والمستخلف في الوزارة في أحيان، فإنه بذلك قد تعامل مع الجميع بدءًا من الخلفاء وحتى الكتاب من النظراء في الأقاليم. ولما كان المدح أحد سبل بيان المحبة والتقرب بالعلاقة فقد لجأ إليه الأدباء والشعراء عامة. والصابي قد جمع الاثنين بكفاءة وشهادة مبرزة فصارت مقطوعاته النثرية مما يُبذل لها، وصار هو يعرف كيف يخطب الود وينال التكرمة، وهكذا في القصائد. كما أن تعرض الصابي للنكبات والحبس ألجأه الى مدح عضد الدولة خاصة وبعض الوزراء في محاولة لتخلصه من الحبس. وعلى هذا نجد للصابي، فيما وصلنا من أشعاره، قصائد ومقطوعات عديدة في مدح الملوك البويهيين كعضد الدولة وصمصام الدولة، وكذلك سيف الدولة الحمداني، والوزراء كالمهلبي والصاحب والمطهر، والكبراء كالشريف الرضي، والشعراء كالببغاء. ولم يصلنا مدح للخليفتين الذين عايشهما المطيع لله والطائع لله على قربه منهما وكتابته عنهما.

وأسلوب الصابي في المدح سلس وألفاظه عذبة لا يظهر فيها التكلف، ثم أنها واضحة المعنى دونما تعقيد، على أن العاطفة ليست بالضرورة صادقة بل قد يصل المدح في مقطوعاته حد التزلف.

حكى أبو إسحاق، قال: طلب مني رسول سيف الدولة بن حمدان عند قدومه الحضرة شيئاً من شعري، وذكر أن صاحبه (يقصد سيف الدولة) رسم له ذلك، فدافعته أياماً، ثم ألحَّ علي وقت الخروج فأعطيته هذه الثلاثة الأبيات:

إن كنتُ خُنتك في المودةِ ساعةً فذممتُ سيفَ الدولة المحمودا
وزعمتُ أن له شريكاً في العلا وجحدتهُ في فضلهِ التوحيدا
قسماً لو أني حالفٌ بغموسها لغريمِ دينٍ ما أراد مزيدا

فلما عاد الرسول إلى الحضرة، ودخلت عليه مسلّماً، أخرج لي كيساً بختم سيف الدولة، مكتوباً عليه اسمي، وفيه ثلثمائة دينار.[516]

وقد اضطر الصابي الى مدح عضد الدولة حين سجنه أملا في أن يعفو عنه وقد بذل في ذلك كل مسعى وأتى بأبلغ الشعر لأن فيه وسيلته التي يمكن أن تنقذه من القيد الذي أدماه والحال الذي تهتكت فيه أوصاله وذهبت به آماله. وقصيدته اللامية[517] هي التي ساهمت في إخراجه من السجن حين عرضت على عضد الدولة. لقد قالها بعد أن عرف بعودة عضد الدولة من زيارته الى مشهد الإمام علي بن أبي طالب في الكوفة.

أهلاً بـأشرف أوبـةٍ وأجلهـا	لأجل ذي قـدم يُـلاذ بنعلهـا
فُرشت لك الترب التي باشرتهـا	بشفائها من كهلهـا أو طفلهـا
لم تخط فيها خطـوة إلاّ وقـد	وضعت لرجلك قبلـة من قبلهـا
وإذا تـذلّلت الرقـاب تقرُّبـاً	منهـا إليك فعـزّها في ذُلّهـا
شاهـانشـاه تاج ملتـه التي	زيـدت بـه في قَدرها ومحلهـا
يا خير من زهت المنابر باسمـه	في دولـة علقت يـداه بحبلهـا
وأقمت فينا سيرة عضديـة	هيهات لا تـأتي الملـوك بمثلهـا
يردى غوي فـاجر في بأسهـا	ويعيش بـر صـالح في فضلهـا
مولاي عبـدك حالف لك حلفةً	تعيا مناكب يذبـل عن حملهـا
لقد انتهى شوقي إليك إلى التي	لا أستطيـع أقِلّهـا من ثقلهـا
طوبى لعين أبصـرتك ومـن لها	بغبار دارك جارياً مع كحلهـا؟
أو لو بـدتْ لي غـرة لاحظتها	عفّرت خدي تحت أخمص رجلها
لو بعتني بجميع عمـري لفظـة	أو لحظة بالطـرف لم أستَغْلهـا
أترى أمـرُ بخَطرةٍ مـن بالهـا؟	أترى أعـود إلى كثافةِ ظلهـا؟
لي ذمـة محفوظـة في ضمنها	ووثائـق محروسـة في كفلها
لا في الرجـال الناقعين بوبلهـا	كلا ولا في القـانعين بطلهـا

[516] الثعالبي، يتيمة الدهر

[517] إنفردت مخطوطة المجمل لأبن فارس بنقل القصيدة كاملة.

قابلت بالزفـــرات هبــة ريحــها وحكيت بالعبــرات درة سجلها

فلو أن عيني راهنت بدموعهـــا يمناك في السقيا لفـزت بخصلها

وكتب أيضا يمدحه في مناسبة أخرى فقال:

لا تحسبَ المُلك الـــذي أوتيتـــه يقضى، وإن طال الزمان، إلى مدى

كالدوح في أفق السمـــاء فـروعـه وعروقــه متولجـــات فـي الـنـدى

في كل عـام يستجـد شبيبـــة فيعود ماء العـــود فيه كمـا بـدا

حتى كأنك دائـر فـي حلقـــة فلكية في منتهـــاهـا المبـتـدا[518]

وقال بديها مهنئا ومادحا عضد الدولة وقد أظهر له الإكبار وأبان تلقبه بالملك في ذكر التاج سواء بلقب تاج الملة الذي كان الصابي قد اختاره له ليضاف الى لقبه عضد الدولة أو ببيان افتخار التاج على مفرقه[519]، يقول:

يا عضـد الدولةِ الذي عَلِقت يـــداه من فخـــره بأعرقـــه

لبستَ للمُلـــكِ تـــج ملتـــه فصلٌ عرى غربـــه بمشرقـــه

أحرزت منك الجديد في عمـــر أطالـــه الله غيـــر مخلقـــه

يلوح منك الجبين بحاشيـــة لحاظنـــا في ضيـــاء رونقـه

كأنـــه الشمس في إنارتهـــا ويشبـــه البـــدر في تـألقـــه

لما رأيت الرجـــال تنشـــده من كل فحل القريض مغلقه

ألجأت نفسي إليـــك رؤيتهـــا لتطلب المـدح طـــول منطقه

قال لـــه خاطـــري بطمـع أن تساجـــل البحـــر في تدفقـــه

خفف وأوجز فقلت مختصـــراً للقـــول في جـــده وأصدقـــه

يفتخـــر النعل تحت أخمصـــه فكيف بالتـــاج فوق مفرقـه؟

---

[518] لقد أبرز الصابي هنا قيمة الحلقة في أنها الصيغة الفلكية للديمومة وأن نهايتها تلتقي مع بدايتها وهكذا في تواصل دائم، وهذا المفهوم معتمد في عقيدة المندائيين أيضا، وقد أبرزوه في لغتهم حين جعلوا شكل حرف الألف وهو الحرف الأول في كتابة الأبجدية عبارة عن حلقة دائرية ويكررونه في آخر الأبجدية إيمانا بأن كل شيء في منتاه يعود الى مبتداه.

[519] الجوزي، المنتظم

وحدث هلال بن المحسن، قال: حدثني جدي أبو إسحاق، قال: كان أبو طاهر بن بقيــة (الوزير) واقفاً بين يدي عضد الدولة في سنة أربع وستين وثلاثمائة وهي السنة التي ورد فيها للمعاونة على الأتراك، فقال لي عضد الدولة: لو عرضت علينا أبياتك إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف، التي هي، وأنشدها، وكانت:

يا راكب الجسرة العيرانة الأجـد	تدمـى مناسمها في الحزن والجدد[520]
أبلغ أبا قاسم نفسي الفــداء لـه	مقـــالة مـن أخ للحـــق معتمـدِ
أنصفت فيها ولم أظلم، وما حسنٌ	بالمرء إلا مقــال الحق والسَّـــددِ
في كل يـوم لكم فتح لــه خطـر	يشاد فيـه بذكر السيد العضـد
وما لنـا مثلـــه لكننــا أبــداً	نجيبكم بجـواب الحاسـد الكمد
فأنــت أكتب مني في الفتـوح وما	تجري مجيباً إلى شأوى ولا أمدي
إذ لست تعرفهـا تأتيك مـن أحــد	ولست أعرفهـا تمضي إلى أحــد
وما ذممت ابتــدائي إذ بدأتكم	ولا جوابكم في القـرب والبعـدِ
وإنمـــا رمـــتُ أن أثني على ملكٍ	مستطـــرد بدليل فيــه مطـردِ

قال: فلما استتمها، قال لأبي طاهر: ما قصد أبو إسحاق في هذه الأبيات؟[521] وسمعها أبو طاهر صفحاً، وقد كان شرب أقداحاً، ولم يعلق بذكره من الأمــر إلا ذكر المجلس، واشتهر خبرها عند كل أحد، ولما عاد عضد الدولة إلى شيراز سألني أبــو طاهر بن بقية عنها، وطالبني بإنشادها اياه، فلم يمكنني إنكارها، فغيرتها في الحال على هذا الوجه:

يا راكبَ الجســرةِ العيرانةِ الأجد	تدمى مناسمها في الحزن والجــدد
أبلغ أبا قاسم، نفسي الفـــداء له	مقالـــة من أخ للـــود معتقـــد
أنصفت فيهـا ولم أظلم، ولا حسن	بالمـــرء إلا مقال الحـــق والسـدد

---

[520] حَسَرَ يَحْسُرُ حُسُوراً وحَسارَةً: مضى ونفَذ. وحَسَرَ على كذا يَحْسُر حَسارَةً وتَحاسَرَ عليه؛ أقدم. والحَسُورُ: المِقْدامُ. ورجل حَسْر وحَسُورٌ: ماضٍ شجاعٌ، والأنثى حَسْرَةٌ وحَسُورٌ وحَسْورَةٌ. ورجل حَسْرٌ: جسيمٌ حَسُورٌ شجاع(لسان العرب).

[521] المدح في القصيدة واضح لعضد الدولة الذي حضر لبغداد لمناصرة عز الدولة في دفع الإتراك بعد أن أطاحوا به لضعف الأخير ولهوه في ملذاته. ونبين القصيدة وبخاصة في البيت الأخير من المقطوعة التي غيرها الصابي حيث يشير الى أن قريحته قد صديت بسبب عدم وجود الفتوح التي تشحذها فتجود شعرا.

قد أعجبتك فتــوح أنت كاتبها | تــردد السجــع فيها غير متئــد
خلا لك الجــو إذ أصبحت منتشياً | تشـــدو بها طرباً كالطائر الغرد
تـروعني كل يــوم منـك رائعـة | تبغي الجواب لها من موجع كمـد
فأنت أكتب مني في الفتـــوح وما | تجري مجيباً إلى شأوي ولا أمدي
أعطيتني شر قسميها وفــزت بما | فيه الفوائد من قرب ومــن بعــد
فاشكر إلهك واعذرني فقد صديت | قريحتي مــن زمان مقرف تلـــد

ويذكر أن من أبيات هذه القصيدة ما إنضاف الى أسباب صفح عضد الدولة عن الصابي والأمر بإخراجه من السجن. فيذكر أن الصاحب بن عباد دخل على عضد الدولة بهمذان، وهو مكب على دفتر يقرؤه، فقال له: يا أبا القاسم، هذه رسالة لك في بعض فتوحنا، نحن نأخذها بأسيافنا، وأنت تجملها بأقلامك، فقال له: المعنى مستفاد من مولانا وإن كانت الألفاظ لخادمه ثم أنشد: (من البسيط)

وأنتَ أكتبُ مني في الفتوح وما | تجري مُجيباً إلى شأوي ولا أمدي

فقال: لمن البيت؟ فقال: لعبده أبي إسحاق الصابي. فكان ذلك سببا مضـــافا لخلاص الصابي من نكبته.[522]

وأكثر الوزراء الذين مدحهم الصابي هو الحسن بن محمد عبد الله بن هارون أبو محمد المهلبي، وقد مر بنا أنه هو الذي عرف قيمة الصابي فقدمه على جميع أقرانه. وفيه يقول الصابي:

وتعلّقتُ بالــرئيس الــذي صــر | تُ رئيســاً مــذ عدّني في العبيـد
والوزيـــر الـذي غـــدا وُزراء الـ | ـملك رُكنـــا لعـــزّه الـموطـــود
أريحــــيٌّ مُهلبــــيٌّ سعيــــد الـ | ـجد صافي الجدوى كريمُ الجدود
وإذا استنطـــق الأنــاملَ جادت | ببيـــان كالجـــوهـر المنضـــود
في سطـــور كأنمـــا نَشرَت يمـ | ـنـاه منهـــا عصائبـــاً من بـــرود
فِقَـــرٌ لم يـــزل فقيـــراً إليها | كلُّ مُبـــدي بـــلاغةٍ ومُعيـــد
يغتـــدي البـــارعُ المفيـــدُ لديها | لاحقـــاً بالمقَصّـــد المســـتفيـــد

---

[522] ابن حمدون، التذكرة الحمدونية

ببيـــانٍ شـــافٍ ولفظٍ مصيبٍ   واختصـــارٍ كافٍ ومعنى سديـد

وله يمدحه أيضا وقد برع في تصوير كلام المهلبي على أنه اللؤلؤ المنقى فحين يصل الى آذان السامعين تكون له أصداف حرصا عليه وحفظا له:

قل للوزيـــر أبي محمـــد الذي   قد أعجزتْ كلّ الورى أوصافُهُ

لك في المحافِلِ منطقٌ يشفي الجوى   ويسوغُ في أذن الأديب سُلافه[523]

فكأنّ لفظـك لـؤلؤٌ متخّـلٌ   وكأنمـا آذاننـا أصدافـه

وربما أن البيتين الآتيين قد قالهما الصابي في المهلبي أيضا لما يكنه له من قدر وقيمة ويعترف له بأنه من عرف منزلته فقدمه على نظرائه:

أنت الـوزيرُ الذي الدنيا تناطُ به   وأهلها تُبّـعٌ من دونـه خَوَلُ

تظلُّ بالعز مـلء الأرض أجمعهـا   كأنكَ النَّصلُ والدنيا لك الحَلَلُ

وحين حضر المهلبي مجلس العزاء الذي أقامه الصابي بوفاة والده، أكبر أبو إسحق حضوره ومدحه ارتجالا قائلا:

لو وثقنـا بأن عمـرك يمتـ   ـد بأعمارنا قتلنا النفوسا

قد تركت الموت الزؤام مغيظاً   يتلظى لجرحه، كيف يوسا

فغدت عندنا المصيبـة نعمى   بأياديك وهي من قبل بوسا

وكتب واصفـا ومادحا أدبـه وعطاءه باستخـدام جوانب الاختلاف بين البياض والسواد والظلمة والشمس، يقول:

وكم من يَدٍ بيضاء حازت جَمالَها   يدٌ لك لا تسودّ إلا من النّقسِ

إذا رقشتْ بيضَ الصحائف خلتها   تطرّزُ بالظلمـاء أرديةَ الشمسِ

وكتب له فأجاد في المدح باستخدام اللفظ والمعنى الغريب واصفا نعم الله والخيرات مثل كبار الوحوش التي لا تختار إلا الأخاير والأكابر:

نِعَم اللّه كالوحوش فما تأ   لَفُ إلاّ الأخايـرَ النساكا

نفَّرَتها آثامُ قوم وصيِّـر   ن لها البر والتُّقَى أشرَاكا

---

[523] سُلافةُ كلِّ شيء عصرَتُه: أوَّلُه، وقيل: السلافُ والسلافةُ من كل شيء خالِصُه.

كما كتب للمهلبي وهو بدجلة البصرة متوجها إلى عُمان ويصوره بأنه بحر راكب بحرا:

لقـد كنفتْ منك السّعودُ موفقاً مصـادرهُ محمودةٌ والمـواردُ
كأني بالبحر الـذي خيف هولهُ وقـد خاف حتى ماؤهُ فيه جامدُ
يرى منك بحراً زاخراً فوق متنـهِ فيصبح جاري موجـهِ وهو راكد
كأنّ عصا موسى بكفك فوقـه وقـد خَرّ إعظاماً لها وهوَ ساجد
ستَعنوُ لما تَبغي ظهـور صفـائـه وتبلغُ ما تهـوى وجَدُّك صـاعدُ
فلا تخشَ من صَرف النوائب نَبوة فنصرُك محتـومٌ عليه شواهـد
إذا عـادةُ الله التي أنت عـارف تذكرتَها هانت عليك الشدائـد

وقال فيه وقد فصد فأظهر المدح مع الدعاء بالصحة والشفاء:

لَهجتْ يمينك بالنـدى، فَبَنانُها أبداً يفيض على العُفاة عطاءُ
حتى فَصدتَ، وما بجسمك علةٌ كيما تُسببَّ للطبيب حِبـاء
ولقد أرقت دماً زكياً من يـدٍ حَقنتْ بتدبيـر الأمور دِماءُ
يجري العُلا في عرقهِ جري الندى في عوده، فهو اللُّباب صفـاءُ
لو يَقـدرُ الأحرارُ حين أرقتَـهُ جعلوا له حَبُّ القلوب وِعـاء
فانعمْ وعِش في صحـة وسلامة تُحيي الوليَّ وتكبِتُ الأعداءُ

وفي الفصد قال أيضاً مادحا كرم المفصود:

تَبَرَّعَ جودٌ لا دمٌ من يمينـهِ فأضحى لكي يُعطي الأطباء فاصدا
وليس به أن يَفصِدَ العِرقَ حاجةٌ ولكنـه ينحُو المحامـد قاصدا
يُسبِّبُ أسباب الندى لعُفاتـه ويرقبهُا مستفـرصاً ومُراصـدا

وكتب أبو إسحاق إلى المطهر بن عبد الله، وزير عضد الدولة، وقد عرضت له شكاة قصيدة قال فيها:

لو استطعت أخـذتُ عِلـةَ جسمه فقـرنتهـا مني بعلّـة حالي
وجَعلتُ صحَتيَ التي لم تَصفُ لي بَـدلاً لـه من صحَّةِ الإقبالِ
فتكونُ عندي العلتانِ كلاهما والصحتـانِ لـه بغير زوالِ

وكتب الى الوزير أبي عبد الله بن سعدان[524]:

ثنائي لــو طولتــهُ لك قــاصرٌ وطولُك لــو قصَّرتهُ لي باهــرُ

فكيف نُهوضي حين لا أبلغ المدى بجهدي وعَفوُ الجود لي منك غامر

وما زلتَ من قَبل الوزارة جــابري فكُنْ رائشي إذ أنت نــاهٍ وآمرُ

أمِنتُ بك المحذور إذ كنتَ شافعاً فبلّغني المأمــولُ إذ أنت قــادر

لعمري لقــد نلتُ المنى بك كلّها وطــرفي إلى نيل المنى لك نــاظر

وقال يمدح الوزير عبد العزيز بن يوسف:

أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف عليــه من العليــاء عينٌ تراقبه

روى ورعى لمــا روى قــول قائل (وشبع الفتى لؤمٌ إذا جاع صاحبه)

وكتب أبو إسحاق إلى الوزير أبي نصر سابور أبن أردشير جواباً عن كتاب إليه شاكرا ومادحا فضله فقال:

أتتني على بعــد المدى منك نعمــة تشاكل ما قدمت من نعم عندي

كتابك مطويــاً على كل منــةٍ يمن بها المولى الكريم على العبد

فقبلتُ إجلالاً له الأرض ســاجداً وعفرت، قُدامَ الرسول بــه خدي

وقابلتُ ما فيه من الطول والنــدى بما فيَّ من شكر عليه ومن حَمد

وعاليتُ نحــو العرش طرفي باسطاً يدي بدعاءٍ قــد بذلتُ به جَهدي

وكم لك عندي من يدٍ قد حفظتها ولم ينسنيها ما تطاول من عَهــد

وكتب يمدح أبو علي الحسن بن أبي الريان حمد بن محمد مع رسالة شفاعة هذه الأبيات:

سُميت شيخا لفضل فيك أوجبــهُ فَعِــش لِتوجِبَــهُ الأيــامُ والحقــبُ

وربَّ ذي شيبةٍ في العقل منه صبيً وذي صبىً شابَ منهُ العقلُ والأدبُ

فخذ بحظّك من شيخوختيك معاً تعلوا سنوك كما تعلوا بكَ الرّتبُ

أشبهتَ والدكَ الأستاذ في كــرمٍ فبــورك ابنٌ نجيــبٌ منكمــا وأبُ

لا أحذر الفَــوتَ من خيــرٍ أوأملــهُ وأنتمــا لــي إلى إدراكــهِ سبــبُ

---

[524] الوزير أبوعبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان، وزير صمصام الدولة البويهي، وقد استوزره صمصام الدولة سنة 372

وكتب مع جواب لخطاب وصله من أحد أصدقائه:

فسبحـــان رب كـريـــم حبـاً   ك بطول اللّسان وطول البَنـان

ووفاك من فضـل إنعـامـــهِ   كمالاً تَقصَــر عنه الأمـاني

فمـــا كنتُ أحسب أنَّ الـزمـا   ن يـزان بمثلكَ لـــولا عيانـي

ومن الوزراء الذين مدحهم الصابي، الصاحب بن عباد. وهو فوق كونه وزير الدولة البويهية في خراسان فقد كان شاعرا وكاتبا بليغا. وكان بينه وبين الصابي صداقة ذكرناها في باب صداقات الصابي وقد كتب له الصابي رسائل وقصائدة عديدة وفيها من الإستعطاف الكثير بحكم الظروف التي صار بها الصابي وبحكم محبة الصاحب له وما عرف عنه من إكرام الأدباء والشعراء. وقد أوردنا ما توفر من أشعار الصابي في الصاحب في مواضع عديدة، ومما قاله أيضا وهو يرسل له رسالة في أبدع أبيات ترفق مع رسالة، يقول:

لمـــا وضعـتُ صحيفـتي   في بطـن كفٍّ رسولها

قبّلتهـــا لتمسّهـــا   يمناك عند وصولهـــا

وتـــودُ عيـنـي أنّهـــا   قرنت بـبعض فصولها

حتى ترى من وجهلك الـ   ـميمـــون غاية سولها

وكتب يمدح أحد الوزراء بقصيدة طويلة أثبتناها كاملة في باب كتاباته في الشفاعة وهي مرفقة مع رسالة يطلب فيها إعادة داره إليه التي هي ملكه، يقول فيها:

هل المجـدُ إلا خِلـةٌ من خِـلالِكـا   أو الجـودُ إلا قبضَـةٌ مـن نوالِكـا[525]

وهل يصلحُ الصدرُ المعظّم لإمـرئ   سـواكَ وهـل يبَـهى بغيـر جَلالكـا

وهل أحدٌ مـن سائـرِ الناس سـالـمٌ   من الدهـرِ إلاّ مَن ثـوى في ظلالِكا

ألـمْ تـــراني نِلـتُ قاصيَـــةَ المُـنى   بيُمنـاي لمـا أمسَكتُ بـحبـالكـا

وأنّ المنـــايـا والرزايـا بَعـثـنـنـي   بأمرِكَ حيّا بعدَ مـا كُنتُ هالِكـا

تنـاولتني مِنهّـن حَيـثُ تقـاصَرتْ   يـــدُ المُتعاطي عَـن بلـوغِ منـالِكـا

---

[525] إستخدم الثعالبي شطر البيت في الكتابة لخوارزم شاه بأن قاله له: هل المجد إلا خلة من خلالكا   أو البدر إلا نقطة من جمالكا
وقد ورد ذلك في كتاب الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب.

وأقـررتُ نفسي بعـدَ وشكِ زيالَهـا فـلا ابتُليَـتْ ما عـمرّت بـزيـالِكـا
وإني وإن هـاضَ الزمـانُ قـوادمــي لأعلـمُ حقـاً أننــي مِن رجـَالِـكـا
وأني لـمْ أخلص نجيـًا مــن الـرّدى لشيءٍ سـوى أن تفتـدي لـي مالِكا
ولا صـفـرت كفـاي إلا تطـهّـراً من النشبِ المجموعِ من غير مَالكا
ولي فيـكَ آمـالٌ كأني لابس شبـا بًا بهـا مـن بعـدِ شيـبـي حـالكا
وقد بدأتنــي منـكَ آلاءُ منعـمٍ ومـا كُـنَّ بدعـاً مـن جميـل فِعـالكا
ويـوشكُ أن تتـلــو البـوادي عـوائدٌ كواملُ تَحكي ما لدي من جَمالكا
ضـوامـنُ أن أحلـو لـديـكَ محلـةً تكونُ بهـا حالـي رديفـةُ حـالكـا
فـإن لمْ أكن أهـلاً لها فمعيشـةٌ مُوّسعـةٌ نَـزدادهـا مِـن جَـلالكـا
وعـودةُ داري إنهـا لـك مـوطـنٌ أنا وعيـالي فيـه بعـضُ عيـالكا
فقـد نالَنـا عنـهـا شتـاتٌ مبـرحٌ وكانت لنا حُصنًا يقينـا المهالكا
نَحِـنُّ إليهـا حِنّـة النـيـب كلّمـا مَـررنا عليها سالكين المسـالكا
وللشاعـر الرومـي فيـهـا مقـالـةٌ كفتني إن أخطـرتهـا لي ببالكـا
وحبَّب أوطـان الـرجـال إليـهـمُ مآربُ قضّاها الشبـاب هنـالكا
إذا ذكـروا أوطـانَهـم ذكّرتـهـم عُهـودَ الصبى فيها فحنّوا لذلكا
فـلا تُرجِـعنّـي إذ سألتُـك خائِـبـاً فمـا خابَ قبلي سائـلٌ في سؤالِكا
وما هي إلا لفظـةٌ منـكَ لـم تكنْ ليعـدلَ فيهـا عـادلٌ عـن مثـالكـا

وقد مدح من الأشراف الشريف الرضي في قصيدة من أربعين بيتا كانت مقرونة برقعة تهنئة بعيد الفطر من سنة أربع وثمانين وثلاثمئة، ويشار الى أن بين إنفاذ هذه القصيدة ووفاة الصابي اثنا عشر يوما، وقد تكون آخر أشعاره. وبها يظهر الصابي أنه ظل ماسكا عقله وزمامه وقريضه حتى آخر أيام حياته، بل أن فيها مـن العبر والالتزام وعهـود الحب والوفاء والوصية ما يحفظ للصابي حرصه على أسرته ورعايتها وإقرار حق الشريف الرضي كشخص وشريف وأنه صاحب الحق في الخلافة بحكم النسب والمناقب والأهلية. كما وجد فيه الصابي بحكم الروابط التي ربطتهما الشخص الوحيد من ذوي الجاه الذي يمكن أن يصون حرمات الصداقة ويرعى الذمم فأوصاه في أهله وذريته دون سواه:

أبا كلَّ شيءٍ قيـل في وصفه حَسَـنْ إلى ذاكَ ينحـو مـن كناك أبا الحسَنْ

يُوحدها للاختصار إشارةً   إلى جملة تفصيلها لك مُرتهن[526]

تخوّلْتَها في خِلقةٍ وخَليقةٍ   فإن لم تكن أنتَ الخليقُ بها فمنْ؟

عمومٌ طوتهُ في خصوصك شيمةٌ   أحاطتْ به فيما استَسرَّ وما علَن

فدون الذي تُخفيه منهُ الذي بَدا   وفوقَ الذي تُبديه منهُ الذي بَطن

وما هي إلا كُنيةٌ لك إرثُها   وإن مسَّها من غير أربابها الدَّرن

ولو أنّ في تحريمها ليَ قدرةً   لما أصبحتْ في غير بيتِكَ تُمتهن

ألستَ لها بعد الوصيِّ وآلهِ   وأنتم أناسٌ فيكمُ المجدُ قد قطَن

ولكنَّ هذا الدهرَ جارَ عليكمُ   وبالغَ حتى في الكنى لكُمُ محَن

يجاذبُكم علياءَكمْ كلُّ حاسدٍ   به مرضٌ بين الحيازيم قد كَمن[527]

فيجري إلى غاياتكُم طالباً لها   على غيرِ منهاجٍ وأنتم على السَّنَن

مناقِبُكم حَقٌّ بَدَتْ بيناتُهُ   ودعواهُ أضغاثٌ يَراهُنَّ في الوَسَن

لكم في الثُّريا خطةٌ وهو في الثرى   فيا بُعدها من أنْ يَلُزَّهُما قَرَنْ

وقد تستوي الأشخاصُ في عينِ من رأى   وتفترقُ الأعيانُ في فهمِ من فَطَن

وبين وَسيماتِ الوُجوه تَشابهٌ   فكُن فاصلاً بين التَّهيُّج والسِّمَن

فإن جلدةُ الوجهِ الهزيل تَغضَّنت   فلا تَحسَبنَ تلك الغُضون بها عَكن[528]

تدافعُ عن أحسابِهم بِمُهنَّدَيْ   لِسانٍ وسيفٍ ذَبّبا عنهم الفِتَن

فأنتَ لهم يومَ الكريهةِ صارمٌ   حُسامٌ وطوراً أنتَ دونَهُمُ المِجَن[529]

تَقَسّمَ هذا الفضلُ بين طوائفٍ   وأقسامُهُ مجموعةٌ فيك تختزَن

غدواً لك كالأبعاضِ إذ أنت كلُّهم   كمالاً عجيباً مِثلُه قطُّ لم يَكُن

---

[526] في يتيمة الدهر(فوحدها)

[527] الحيازيم جمع حيزوم وهو الصدر، والحزيم موضع الحزام من الصدر والظهر، وفي حديث للإمام علي بن أبي طالب(ع) أشدد حيازيمك للموت....إن الموت لاقيكا. وفي اليتيمة (بين) بدلا من (فوق) و(حيازم) بدلا من (حيازيم).

[528] في اليتيمة، الوسيم بدلا من الهزيل ونراه الأصوب، تغضنت: تكسر الجلد وإنطواؤه، العكن: التراكم إشارة الى الكثرة والسمنة.

[529] المجن: الترس

وفيــك إذا استوعبتَ أشتـات فضلِهم   زوائـد كُلٌّ ضاق منـــه بها العَطَن[530]

إذا ما هُمُ غابــوا عن المنـــزل الذي   تحلُّ بــه كانــوا حُضوراً لــه إذن

وإن غبت عنهم ظاعنــاً بان فَقــرُهُم   إلى الواحــدِ الفــذِّ الذي عنهـم ظعن

وإمّــا يباريـــك المُبــاري بهيئـــةٍ   وزيٍّ وملبــوسٍ عــلى جسمـــه حَسَن

ففي درعِـــك الإنسانُ تمت صفـــاتُهُ   وجَمَّعت معاليـــه وفي درعـــه الـــوثن

ألِكني إلى ابـــنِ الموسوي ألُـــوكةً   بلا دخــلٍ يدنو إليهـــا ولا دَخَـــن[531]

بأنّي مـــذ بايعتنـي الـــودّ جاعـــلٌ   سَــوادي من قلبٍ وعـــينٍ لـــه ثمــن

فإن رُمتـــهُ من صادقٍ غيـــر ماذقٍ   فدونكَ صدري مسكناً تحتهُ سكن[532]

إذا اغتَــرَيت منكَ الموَالاةُ عنــدَ مَـــن   ينافــقُ فيها فهيَ عنــديَ في الوَطـــن

صَفَتْ مثلَما تصفُو المُــدامُ من القَــذى   وطابت كما طابت من العنبــر الدخن

ولِمْ لا وأنت السيّـــد الماجــدُ الـــذي   له مِنَنٌ لم تستطـــع حملها المُنـــن[533]

أقيك الردى ليس القلى عنــك مقعدي   ولكن دهاني بالزّمانـــة ذا الزمـن[534]

وغـــادرني حلفُ المضـــاجـع راهنـــاً   على خلّـــةٍ في الحال والنفس والبـــدن

فإن تنأَ عنكَ الــدارُ فالذكر ما نــأى   وإن بان مني الشخصُ فالشوقُ لم يبن[535]

وإن طـالَ عهـــدُ الإلتقـاءِ فـدونَـــهُ   عُهــودٌ عليها من رعايتنـا جُنَـــن[536]

وأيسرُ حـــدٍ يَلـــزَمُ الشـــارخَ الفتـى   من الحقِّ بسطُ العذر للدّالفِ اليفَن[537]

---

[530] العَطَنُ للإبل: كالوَطَنِ للناس، وقد غَلَبَ على مَبْرَكِها حولَ الحوض.

[531] في اليتيمة، كتبت الى ابن الموسوي رسالة. أَلَك بين القوم إذا ترسّل أَلْكاً وأُلُوكاً والاسم منه الأُلوك، وهي الرسالة. والدَّخَل: ما الإنسانَ من فساد في عقل أو جسم، وقد دَخِلَ دَخَلاً ودُخِلَ دَخْلاً، فهو مَدْخول أي في عقله دَخَلٌ. ودَخِن خُلُقُه دَخَناً، فهو داخل دَخِن وداخِن: ساءَ وفسَد وخَبُث

[532] في اليتيمة شحن بدلا من سكن

[533] المُنة: القوة

[534] القلى: البغض، الزمانة: المرض

[535] في اليتيمة منط بدلا من عنك ، و الفكر بدلا من الشوق

[536] الجُنَّةُ: السُّترة، والجمع الجُنَن: أستارٌ

[537] الشَّرْخُ: أوّل الشَّبابِ. والشارِخُ: الشّابُّ، والدَّالِفُ: الكبير الذي قد اخْتَضَعَتْه السنّ، اليَفَنُ: الشيخ الكبير

كما كتب له أيضا:

أبـا حسنٍ لي في الرجـال فراسـةٌ تعوَّدتُ منهـا أن تقـول فتصدقـا

وقـد خبرتني عنـكَ أنك ماجـدٌ سترقى من العليـاء أبعـد مرتقى

فوفيتـك التعظيـم قبـل أوانـه وقلت أطـال الله للسيـد البقـا

وأضمرت منـه لفظةً لـم أبح بهـا الى أن أرى إظهـارها لـي مطلقـا

فإن عشتُ أو إن متُ فاذكر بشارتي وأوجب بهـا حقـا عليكَ محققـا

وكن لي في الأولاد والأهـل حافظا إذا ما اطمأن الجنبُ في مضجع النقا

وقد مدح الصابي من الشعراء أبو الفرج الببغاء ودارت بينهما مراسلات ومخاطبات جميلة ورقيقة ذلك أن كلاهما كان كاتبا لكنهمـا لم يلتقيا إلا حينمـا كان الصابي في السجن فزاره أبو فرج الببغاء في محبسه وجرت بعدها المخاطبات التي كانت تنقل لعضد الدولة فيسر بعلاقتهما ويتأثر لما يدور بينهما. سننقل قسما منها في باب ماقاله الصابي في الحبس، أما ما نثبته هنا فهو قصيدة المدح التي قالها الصابي وتعد من أفضل ما قيل في مدح الألثغ ذلك أن أبا الفرج كان ألثغ:

أبا الفـرج استحققت نعتاً لأجلـه تسميت من بين الخلائـق ببغـا

بياناً منيـراً كاللجين مضمنـاً نضـاراً من المعنى أديباً وأفـرغا

فلو لامرئ القيس انتدبت مجـارياً كبا أو لقس في فصاحتـه صغـا

متى ما يرم ذا الاسم غيرك رائـمٌ ليبلغ من غايـات فضلـك مبلغـا

فإني أسميـه بـه ثـم أنثني فأسلبـه بـاء من الاسم إذ بغـى

إذا أنا سلمت البلاغـة طائعـاً إليك فأي النـاس خالفني طغى

كفتك على رغم الحسود شهادتي بأن كنت منـه ثـم مني أبلغا

وما هجنت منـك المحاسن لثغـة وليس سـوى الإنسان تلقاه ألثغا

أتعرفهـا فيما تقـدم خاليـاً لعير إذا مـا صاح أو جمل رغـا

فيا لك حرفـاً زدت فضلاً بنقصه فأصبحت منه بالكمال مسوغـا

بقيت ولا تعـدم بقـاء مرفهـاً وعشت ولا تعدم معاشاً مرفغـا

وقال في الشاعرين الخالديين الذين كان يَحسب الحساب لهما لشدة شعرهما في الهجاء وسلاطة لسانهما إن لم ينالا ما يبغيان. ولذلك فقد حذر السري الرفاء الصابي من مقدمهما الى بغداد كما سبق وحذر عم الصابي أبي الخطاب منهما أيضا[538]. وقد حكّم الصابي بينهما لما اختلف في شاعريتهما مع شعراء آخرين فقال:

أرى الشاعِرَيْن الخالديَّيْن سيَّرا   قصائد يَفنى الدهرُ وهيَ تخلُدُ
جواهر من أبكار لفظ وعونهِ   يُقصِّرُ عنها راجزٌ ومُقصِّدُ
تنازَعَ قومٌ فيهما وتناقضوا   ومرَّ جدالٌ بينهم يتردَّدُ
فطائفةٌ قالت: سعيدٌ مقدَّمٌ   وطائفةٌ قالت لهم: بل محمدُ
وصاروا إلى حُكمي فأصلحتُ بينهم   وما قلتُ إلاّ بالتي هي أرشدُ
هُما في اجتماع الفضلِ زوْجٌ مؤلف   ومعناهما من حيث يثبت مفردُ
كذا فرْقدا الظلماء لما تشاكلا   عُلاً أشكلا هل ذاك أم ذاك أحمدُ
فزوْجهما ما مثله في اتِّفاقِهِ   وفرْدُهما بين الكواكب أوْحدُ
فقاموا على صلحٍ وقالوا جميعهم: رَضينا، وساوى فرْقدَ الأرض فرْقدُ

---

[538] فمما كتبه السري الرفاء محذرا الصابي من الخالديين قصيدة طويلة أوردناها في ص 123 قال فيها (القابسي: معاهد التنصيص):

قد أظلّتك يا أبا إسحاق   غارة اللفظ والمعاني الرقاق
فاتّخذ معقلاً لشعرك يحميه   مروق الخوارج المرّاق
قبل رقراقة الحديد تريق   السمَّ في صفو مائه الرقراق
كان شنُّ الغارات في البلد القفر   فأضحى على سرير العراق
غارة لم تكن بسمر العوالي   حين شنّت ولا السيوف الرقاق
يا هلال الآداب يابن هلال   صرف الله عنك صرف المحاق

ومما كتبه السري الرفاء أيضا لأبي الخطاب عم الصابي من قصيدة طويلة وعذبة بلغ عدد أبياتها 78 بيتا وردت في ديوانه:

بكَرتْ عليك مُغيرةُ الأعرابِ   فاحفظ ثيابَكَ يا أبا الخطابِ
وردَ العراقَ ربيعةُ بن مُكَدّمٍ   وعُتيبةُ بن الحارثِ بن شهابِ
أفعندنا شك بأنهما هما   في الفتْكِ، لا في صحة الأنسابِ

وقال في أبي الورد[539]:

ومِن عَجبِ الأيام أن صُروفهـــا تســـوءُ امرأً بمثـــلِ أبـي الـوردِ
فيا ليتها اختارت نظيراً وأنّهـــا رمتني بشنعاء الدّواهي على عمدِ
فكم بين معقورِ الكلاب وإن نجا ذليلاً ومقتول الضّراغمــة الأسـدِ

وكتب أبو محمد جعفر بن ورقاء الشيباني إلى أبي إسحاق الصابي، وكانت بينهما مودة وتزاور فانقطع عنه أبو إسحاق لبعض العوائق :

يا ذا الذي جعل القطيـــعة دأبه إنّ القطيعـــةَ موضعٌ للريب
إن كان ودك في الطوية كامناً فاطلب صديقاً عالماً بالغيب!

فأجابه أبو إسحاق بهذه الأبيات وقد أظهرا عذرا ومدحا في آن:

قد يهجر الخل السليـم الغيب للشغل وهـــو مبرءاً من ريب
ويواصل الرجل المنافـــق مبدياً لك ظاهـــراً مستبطنا للعيب
لا تفرحن من الصديق بشاهــد حتى يكون موافقـــاً للغيـب
وتأمل المسوَّد من شعـــر الفتى أهو الشبيه أم خضاب الشيب؟
وإذا ظفرت بـــذي وداد خالص فاغفر له ما دون غـش الجيب

مما قال في الوصف

درج الشعراء على وصف الحياة العامة في أشعارهم بتنوع متضمناتها، وهذا الأسلوب وثق لنا الكثير من جوانب الحياة التي عاشوها إبان عصورهم وصارت مادة للوقوف على طبيعـــة تلك الحياة بحسب أنواع الوصف. والوصف عادة هو صيغة تصويرية للموضوعات قد يتبارى فيها الشعراء ويتنافسون بمقدار ما يأتون في الوصف من قدرة على التصوير، وأحيانا اللغز في ذلك والتفنن في التشبيـــه بما يثير الدهشـــة من قبل

---

[539] يذكر أن أبا الورد كان من عجائب الدنيا في المطابية والمحاكاة، وكان يخدم مجلس المهلبي الوزير، ويحكي شمائل الناس وألسنتهم، فيؤديها كما هي، فيعجب الناظر والسامع ويضحك الثكلان. وكان أبو إسحاق الصابي قد بلي به حتى قال فيه ما قال.

القارئ. وقد يأخذ الوصف ذكر خصائص الموصوف كما في وصف شمعة أو سكب العاطفة كما في وصف الورد. والصابي من بين شعراء عصـــره الذين سلكوا هذا الباب وقــدم لنا الكثير من الأشعار والمقطوعات في وصف مواضيع متعددة وفي صارت تدور على الألسن لأنها تتغنى بمواضيعها العامة المرتبطة بحيـــاة الناس وأجوائهم. وقـــد حفظت بعض المصادر أشعاره في الوصف وحصلنا على قطع متميزة وبنغم موسيقي يعلق ويطرب. ونورد في هـــذا الباب أشعاره علما بأننا سبق أن أوردنا بعض القطع النثرية في الوصف من التي أجاد الوصف فيهـــا الصابي أيضا في مواقعها.

فقال الصابي واصفا الورد مشبها إياه بالحبيب وبالشباب بعد المشيب:

وزائرة لنـــا في كلّ حولٍ لها حظّان مـن حسنٍ وطيبِ
تنالُ النفسُ حين تشمّ منها منالَ العين من وجهِ الحبيبِ
كأنّ زمانها نعتاضُ فيــه إذا طلعتْ شباباً مـن مَشيب

وقال أيضا:

أما ترى الوردَ قد حيّاك زائرهُ بنفحة فرجت عن كل مصدور
كأنَّ أنفاسهُ أنفـاسَ غـانيـةٍ معشوقةٍ خالطت أنفاس مخمور
تفتّحت وجناتٌ في جوانبــــه كأنّما انتُزعت من أوجه الحور

وقال في النرجس:

ربّ يومٍ نقعتُ فيـــه غليلي وهمومي بين الضُلوع كمونُ
بوجـــوهٍ مملوءة بعيـــونٍ وعيـونٍ تخشى عليها العيونُ
تلك من نرجس نضير وهذي من غوانٍ وجدي بهنّ جنـــون

وقال يصف شمامة كافور[540]:

كافورةٌ جعلتهــا لأسود العين غـــرضْ
حتّى وددت أنّهـــا من أبيض العين عوض

وفي وصف شمامة يقول:

وشمّامةٍ كالبــدر عند اعتراضه وكالكوكب الدريّ عند انقضاضه

---

[540] الشمامة ما يشم من الأرواح الطيبة، والكافور نبت طيب الريح وهو على أنواع.

يـودُ ســـواد العين من شغــفـرٍ بها لو اعتاضها مستبدلاً من بياضـه

وقال في وصف النافجة[541]:

ومشيمـــة من نَسل بطـ ـنٍ لم تكن من ظهر فحلِ

أهـــدت إليك جنينها من غيــر تطريق بحمل

بل باقتنـــاص حبائـــل بثَّت لها وبرَشْـــقِ نَبـلِ

فغـــدت بضاعـة تاجـر لا تُشتـــرى إلاّ ببـــذل

فيهـــا لنفسٍ قُوتهـــا لكن بشـــمٍّ لا بـأكـل

حَـلَّت محـلاً لا تـــرى إلاّ لـــذي الخطر الأجلّ

وقال في عتيدة الطيب[542]:

وعتيـــدةٌ للطيب إن تَستَدعِها تَبعَثْ إليك أمامهـــا ببشيرهـا

يلقاك قبل عيانهـــا أرجٌ لهـــا فكـأنّــه مستأذنٌ لحضورهـا

نَفَحاتُها لم تدر من كافورها تأتيك أم من مسكها وعبيرها

مزجت ببعضٍ بعضُها فتوحدّت عن أن تُقاس بشكلها ونظيرها

لا عيب فيهـــا غير أن نسيمَها مثل اللسان يشيع سرّ ضميرها

وقال في مدخنة وهي للتطيب بالعطر أيضا:

ومكرُوبة الأحشاء يَعلو زَفيرها وتَعصِف ريحُ الطيبِ بين فروجها

إذا رَوَّحت عن نفسهـا بخروجها فللنفس مني راحـة في ولوُجهـــا

وقال فيها أيضا وقد أملَحَ في الوصف كثيرا:

ومحـــرورة الأحشاء تحسبُ أنّهـــا مُتيَّمة تشكـو من الحبّ تبـريحا

تُناجيك نجـــوى يَسمَعُ الأنف وَحيها وتجهله الأذنُ السَّميعــةُ إذ يوحى

إذا استودعَتْ سراً من الطيب مجملاً أشاعتهُ تفصيلاً وأفشته مشروحا

وإن حاولتْ إخفـــاءه في ضميـــرها أبى عَرفُها إلا اعترافـاً وتصريحا

---

[541] النافجة هي سرة الظبية التي يجتمع إليها فضل دموي فيقع فيها الورم ويشتد وجعها حتى تمسك عن الرعي وورود المياه فتسقط عنها، وإذا جفت إشتدت رائحتها التي تكون عطرة وطيبة.

[542] العَتِيدَةُ: وعاءُ الطِّيب ونحوهُ

يُحَرِّقُ فيهـا العودُ عَوداً وبـــدأةً فتأخذُه جِسمـاً وتبعثـه روحا

وقال فيها أيضا:

ومجلس سمــاؤه من النُّجوم عائمـه
في جوه سحابــةٌ لها الأنوفُ شائمـه
تنتابه مِدخَنــةٌ لحاضريه خادمـه
داخلها مِجمــرة مثلُ القطاة الجاثمه
كأنها طارمَــةٌ فيها فتاة نائمـه
تهـدي لنا روائحاً من الجنانِ قادمـه
لنـا عليها خلـعٌ من الذبولِ دائمـه
لكنها عاريــةٌ تخرجُ منها راغمـه

وقال عن لسان مدخنة:

جَمَعتُ من حليتي وعَرفي ما بين حسنٍ وبين طيبِ
أدخلُ في الذيل من محبٍّ طوراً وفي الكمِّ من حبيب
فكم تَرددتُ بين هـذا وذا بالرغم مِن الرقيب

وقال في الغالية[543]:

غاليـة تنتمي لِحـام قد استعارت لباسَ قارِ
في قدحٍ ينتمي لسـامٍ من سنة البدر مُستعـار
جامع ما بين ذا وهـذا قد أوْلَجَ الليل في النهار

وفيها أيضا:

غاليــة صَرَّحَ عَطّارُها في عَجنها عن خالص النيَّة
تُعزى إلى تُبَّتَ من مسكها وهيَ مـن العنبر شِحريَّه
منشورةَ الطيب على أنهـا في قَدَح البلُّور مَطويـه

[543] الغالِيَةُ نوعٌ من الطِّيب معروفة. يقال: إنَّ أولَ منْ سَمَّاها بذلك سليمانُ بنُ عبدِ المَلكِ، ويقال منها تَغَلَّلتُ وتَغَلَّفتُ وتَغَلَّيت، كله من الغالية.

كأنها فيه وقـد حازها   روميـــةٌ حُبلى بزنجيّـه

وقال يصف الشمعة في شكلها الذي أجاد في وصفه بأنه غصن ذهب في أعلاه ياقوتـة وكذلك في وظيفتها كونها الدليل في جنح الليل المعتكر:

وليلة مِن مَحاقِ الشهـر مُدجِنــة   لا النجمُ يهدي السرى فيها ولا القَمرُ
كلّفتُ نفسي بهـا الإدلاج مُمتطياً   عَزماً هو الصارمُ الصّمصامة الذكَرُ
إلى حبيبٍ لــه في القلبِ منزلــة   ما حَلَهــا قبلُــهُ سمعٌ ولا بصـــرُ
ولا دليلَ سوى هيفــاءَ مُخطفـةٍ   تهدي الرِّكابَ وجُنـحُ الليل معتكـر
غُصنٌ من الـذهبِ الإبريز أثمر في   أعــلاه ياقوتـــةٌ صفـــراءُ تَستعرُ
تأتيك ليلاً كما يأتي الُمريبُ فإن   لاح الصباحُ طواهـــا دونك الحَـــذرُ

وكتب في وصف القبجة[544] وأرسلها الى أبي الفرج الببغاء وطلب منه مماحكا الإجابة:

أنعتُ طارونيـــةَ الثيـــاب   لابسةً خـــزاً على الإهابِ[545]
تصبغت تصبُّغ التصـــابي   وأبرزتْ وجهـــاً بلا نقـــابِ
ريّان من محـــاسن الشباب   مكحولة العينين كالكَعاب[546]
مغموسة الحاجب بالخِضاب   منقارُها أحمرُ كالعُنّـــاب[547]
كأنما تُسقى دمَ الرقــاب   محـــذورة محميّـــة الجَناب
لها على الأرجـــل والأعقـاب   حَمــلاتُ ليثٍ من ليوث غـــاب
أقفاصُها كمحبس الحجاب   مُـــدورات الشكل كالقبـاب
تسمعنا منها وراء البــــاب   تمتمـــةً بالقاف في الخطـــاب
كأنما تقـــرأ من كتاب   مكروزة زادت على الحساب[548]

---

[544] القبجة: نوع من طيور الحجل

[545] الطارونية: نسبة الى الطاروني، وهو ضرب من الخز. والخز ثياب تنسج من صوف وإبْرَيْسَم

[546] الكَعابُ، بالفتح: المرأةُ حين يَبْدو ثَدْيُها للنُّهود

[547] العُنّابُ: الثّبكةُ الطويلةُ في السماءِ الفاردة، المُحدَّدةُ الرأس، يكون أسودَ وأحمر. والنبك ما ارتفع من الأرض.

[548] والكُرَّزُ: النجيب. والكُرَّزُ: الرجل الحاذق، كلاهما دخيل في العربية.

قهقهةَ الإبريق بالشراب   ملآن مُنكباً على الأكواب

أهلاً بصياد لها جَلاّب   جاء بها كريمةَ النصاب

ربيبة الجبال والهضاب   كريمة الأعراق والأنساب

لم تدر ما باديةُ الأعراب   غريبة صارت من الأحباب

دونك يا ذا المفخر اللُباب   أرجوزةً من صنعة الكتاب

باكورة من ثمر الألباب   وتحفة من تُحف الآداب

هدية الأتراب للأتراب   قُل ما ترى فيها ولا تحابي

هل خلصت من هُجنةٍ وعابِ   وسلمت من عيبة العياب

أم خِلتها أشبهَ بالصواب   فهاتِ ما عندك من جواب

وكتب الصابي يصف الجلاهق[549]:

ومرنانٍ معبّسةٍ ضحوك   مهذّبة الطبائع والكيان

مغالبةٍ وليس بها حراكٌ   وباطشةٍ وليس لها يدان

لها في الجارح النّسب المعلّى   وإن هي خالفته في المعاني

تطير مع البزاة بلا جناح   فتسبقها إلى قصب الرّهان

وتدرك ما تشاء بغير رجلٍ   ولا باعٍ يطول ولا بَنان

وتلحظ ما يكلّ الطرف عنه   بلا نظرٍ يصحّ ولا عيان

لها غضوان من عصب ولحم   وسائر جسمها من خيزران

يخاطب في الهواء الطير منها   بلفظٍ ليس يصدر عن لسان

فإن لم تصغ أردتها بطعنٍ   ينوب الطين فيه عن السّنان

مقرطقة ممنطقة خلوب   مهفهفة مخففة الجران

مذكرة مؤنثة تهادى   من الأصباغ في حلل القيان

[549] الجلاهق: البندق الذي يستخدم في الرمي ومنه البندقية، وهو أيضا الطين المدور المدملق الذي يستخدم في الصيد. وقد وردت هذه المقطوعة في مصدرين الأول: نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري وقد نسبها الى أبي الفرج البيغاء، والثاني: مباهج الفكر ومناهج العبر للوطواط وقد نسبها لأبي إسحق الصابي ونحن نرى أنها من نسج الأخير وأسلوبه.

معمــرة تـزايد كـل يــوم   شبيبتها على مــر الـزمــان
كأن الله ضمنـهــا فبـاتـت   لنا في الرزق عن أوفى ضمان
أعز على العيون من المــآقي   وأحلى في النفوس من الأماني
إذا ما استوطنت يوما مكـانا   تولى الجدب عن ذاك المكـان

وكتب أبو إسحاق إلى أبي الفرج هذه الأرجوزة في صفة الببغاء :

أنعتهــا صبيحةً مليحـــة   ناطقة باللغـــة الفصيحـــة
غدت من الأطيار، واللســان   يوهمني بــأنهــا إنســـان
تنهي إلى صاحبها الأخبــارا   وتكشف الأسـرار والأستـارا
سكاء إلا أنها سميعـــه   تعيــد ما تسمعـــه طبيعه
وربمــا لُقنَت العضيهـــه   فتغتـدي بذيئـة سفيهه[550]
زارتك من بــلادها البعيده   واستوطنت عندك كالعقيده
ضيف قــراه الجـوز والـرز   والضيــف في أبياتنــا يُعــز
تراه في منقــارها الخلوقي   كلؤلــؤ يلقط بـالعقيـــق
تنظر من عينين كالفصين   في النـــور والظلمة بصاصين
تميس في حلتهــا الخضـراء   مثل الفتاة الغــادة العـــذراء
خريـدة خدودها الأقفـاص   ليس لها من حبسها خلاص[551]
تحبسهـــا وما لها من ذنب   وإنمـــا تحبسهـــا للحُب
تلك التي قلبي بها مشغـوف   كنيت عنها واسمها معــروف
نشرك فيها شاعر الـزمــان   والكاتب المعروف بالبيـــان
وذاك عبد الواحد بن نصـر   تقيـــه نفسي عاديات الدهـر!

---

[550] العضيهة: الإِفْكُ والبُهْتانُ والنَّمِيمة

[551] الخريدة: الناعمة الحسناء

فأجابه أبو الفرج بهذه الأرجوزة :

من منصفي من حكـــمِ الكُتاب شمـــسُ العلـــوم قمـــرُ الآداب؟
أضحى لأوصاف الكـلام محـرزا وســـام أن يلحق لمـــا بـــرزا
وهل يجاري السابق المقصــــر؟ أم هل يســـاوي المدرك المعـــذر؟
ما زال بي عن غرض معـــرضا ولي بمـــا يصـــدره مستنهضـا
فتـــارة يعتمـــد الخطافـــا ببـــدع تستغـــرق الأوصافـــا
وتـــارة يعني بنعت القبـــج مـن منطـــق لفضلـــه محتـــج
يحـــوم حول غـــرض معلـوم ومقصـــد في شعـــره مفهـــوم
حتى تجلّتْ رغـــوة الصـــريح وسلـم التلـــويح للتصـــــريح
وصح أن الببغـــــاء مقصــــده بكـل ما كان قـــديماً يورده
فلـــم يـــدع لقائـــل مقـــالا فيهـــا ولا لخاطـــر مجـــالا
أهدى لها من كل نعت أحسنـه وصـــاغ من حلي المعاني أزينـــه
أحال بالريش الأشيب الأخضـر وباحمـــرار طوقهـــا والمنسر
على اختلاط الروض بالشقيـق وأخضـــر المينـــاء بالعقيـــق
تزهـى بـــدواج مـــن الزمـــرد ومقلـــة كسبج في عسجد[552]
وحسن منقـــار أشـــم قـــاني كأنمـــا صيـــغ من المرجـان
صيرها انفرادهـــا في الحبس بنطقهـــا من فصحـــاء الإنس
تميزت في الطيـــر بالبيـــان عن كل مخلـــوق سوى الإنسان
تحكي الذي تسمعـه بلا كذب من غير تغييـــر لجـــد أو لعب
غذاؤها أزكى طعـام رغـدا لا تشرب الماء ولا تخشى الصـدا
ذات شغى تحسبـــه ياقوتـــا لا تـــرتضي غيـــر الأرز قوتـــا
كأنما الحبـــة في منقارهـــا حبابـــة تطفـــو على عقارهـــا

[552] الدُّوَاجُ: ضربٌ من الثياب؛ والسبج:بُرْدَة من صوف فيها سواد وبياض؛ العَسْجَدُ: الذهب؛ وقيل: هو اسم جامع للجوهر كله من الدرّ والياقوت. والخركاهة ربما موضع القفص.

إقدامهـــا ببـأسهـا الشديـــد أسكنهـــا فـي قفـــص الحـديد

فهي كخـــود في لبـاس أخضـر تأوي إلى خركاهـة لم تستـر[553]

ووصفهـا المعجز ما لا يـدرك ومثلـــه في غيرهـــــا لا يملك

لو لم تكن لي لقبـاً لم أختصـر لكن خشيت أن يقال منتصــــر

وإنما تنعـــتُ باستحقـــــاق لوصفهـــا حـــذقَ أبي إسحـــاق

شرّفهـــا وزاد في تشريفهـــا بحِكمٍ أبـــدع في تفويفهـا[554]

فكيف أجزي بالثنـــاء المنتخب من صرف المدح إلى اسمي واللقب

وقال الصابي في الخطاطيف:

وهنـــديةِ الأوطان زنجية الخَلـق مســـودة الأثواب محمـــرة الحـدق

كأن بها حُزناً وقـــد لبست لـه جـــداداً وأذرَتْ من مدامعها العَلَـق

إذا صَرصَرت صرَّت بآخر صوتها كما صرَّ ملوى العود بالوتر الحرق

تصيفُ لدينـــا ثم تشتُو بأرضها ففي كل عـــامٍ نلتقي ثم نفتـــرق

وله في وصف البعوض[555] وفي المقطوعة يندب حظه الذي جعله بمثل هذا المقام ليفتك به البعوض. ويبدو أن هذه الأبيات قيلت والصابي مستتر تخوفا من بطش عز الدولة كما مر بنا:

ألحت صروف الدهر من كل جانب علي بأصنـــــاف الأذى والجـوائح[556]

وأخـــرجنني من موطن كان جنـــتي لحسن مرابعــــه وحســـــــن الـروائح

وعوضننـــي من ذلك الظـل والجني على الرغم من أنفي بسكنى البطائح

محل خسيـــس لا يطيب مســــاؤه لثاويـــه والإصبـــاح ليـس بصابح

بليت ببـــقً ذي منـــاسر طعمـــــه لحوم صنـــاديد الرجـــال الجحاجح

وقـد كنت في بغداد أشكو بغاثه فكيف اصطبـــاري للبـــزاة الجوارح

---

[553] الخَوْدُ: الفتاة الحسنة الخَلق الشابة

[554] تفويفها: تقشيرها

[555] ابن عبد ربه، بهجة المجالس وأنس المجالس

[556] الجَوْحةُ والجائحة: الشدّة والنازلة العظيمة التي تُجتاح المالَ من سَنَةٍ أو فتنة

أجاور في جنح الـــدجى كل جحفلٍ   يجالـــدني أبطالـــه بـالصفـائـــح
إذا سفكت كفى دماً من بغوضةٍ   فــذلك جــزء من دمٍ لــي طائـــح
له وخـــزة في السمـــع قبل وقوعـه   على الجسم من تغريد نشوان صابـح
فكم مستغيث ساهر العين صائح   إلى مثلـــه من شاهـــر العين صائح
وكم غائـص في النوم يصفع نفسـه   لنبلـــة رامٍ أو لطـعنـــة رامـــح

وقال في البق والبراغيث وقد أجاد وأملح في هذه الأبيات وبخاصة في البيت الأخير

وليلـــةٍ لم أذُق من حرّهـــا وَسَنـاً   كأنَّ من جوهـــا النيـــران تَشتَعـلُ
أحاط بي عسكرٌ للبـقِ ذو لَجَبٍ   ما فيـــه إلاّ شُجـــاعٌ فاتـــكٌ بطلُ[557]
من كُلِ سائلةِ الخرطوم طاعنـةٍ   لا تحجبُ السَّجفُ مَسراها ولا الكِلل[558]
طافوا علينا وحرُّ الصيف يَطبُخُنا   حتى إذا طُبِخَـتْ أجسامُنـــا أكلـــوا

وقال يصف قاضيا فذهب وصفه مثالا وصار يذكر في كل مناسبة تندرا على قاضي أيدج[559]:

يـــا رب علج أعلـج   مثل البعيـــــر أهـوج
ذي فيشـــة عظيمة   إن دخلت لم تخرج[560]
رأيتـــه مطّلعـــاً   من خلف باب مـــرتـج
وتحتـــه دنـيّـــةٌ   تـــذهب طوراً وتجي
فقلت: قاضي أيدجٍ؟   فقـــال: قاضـي أيدج

---

[557] اللّجَبُ: الصَّوْتُ والصِّياحُ والجَلَبة

[558] السَّجْفُ والسِّجْفُ: السِّتْر. الكلل: جمع كلة وهي الناموسية

[559] تقدمت امرأة إلى قاض، فقال لها: جامعك شهودك، فسكتت فقال كاتبه: إن القاضي يقول لك هل جاء شهودك معك، قالت: نعم، هلا قلت مثل ما قال كاتبك كبر سنك وقل عقلك وعظمت لحيتك حتى غطت على لبك ما رأيت ميتاً يقضي بين الأحياء غيرك. وقيل المضروب بهم المثل في الجهل وتحريف الأحكام، قاضي منى وقاضي كسكر وقاضي أيدج، وهو الذي قال فيه أبو إسحاق هذه المقطوعة تندرا. (الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف). أيدج: كورة من كور الأهواز (تاج العروس).

[560] قيل الفَيْشةُ: الذكَرُ المتفخ، وباب مرتج بمعنى مغلق

وكتب أحدأصدقاء الصابي معتذرا له عن عدم إمكانية الحضور لزيارته بسبب الريح وقد وصف الحال الذي أدى به الى عدم المجيء بغاية اللطافة والبلاغة، وقد أثبتناه هنا لما له قيمة ووقع طيب:

عراني عنك يا مولا ي عذر أيما عذر
عصوف الريح مع مدّ عظيم زاخر يجري
فلم أقدم على الماء ولم أجسر على الجسر
ولم أسمع إلى الآن على ما مدّ من عمري
بريح حجبت روحاً وبحر صدّ عن بحر

مما قال في الخمر

ليس للصابي شعر كثير في الخمر مقارنة بباقي أغراض شعره. وأوصافه فيه أوصاف تقليدية حاكى بها عصره الذي أسرف في تناول هذا الباب من الشعر بعد أن صارت الخمر تدار في المجالس وبين العامة بشكل كبير في القرن الرابع الهجري. وقد جاء شعر الصابي في الخمر دون تكلف بل نراه أبرز وصفها وأجاد في مختلف المجالات ما كان في لونها وتأثيرها وحامليها وسقاتها ومجالسها وأدواتها والترغيب لدعواتها ومشابهتها مع المعارك وأبطالها شاربوها . ولنا في المقطوعات التي وصلتنا ما يشير الى ذلك. فيقول واصفا الخمر:

صفراء كالتبر جامُها يَقَـقُ شُعاعها كالذُّبال يأتلقُ[561]
كأنّ في كفّ مَن أتاك بها ضُحى نهارٍ في وَسْطه شَفَـقُ

وقال فيها أيضا:

كوكبُ الإصباح لاحا طالعاً والديكُ صاحا
فاسقنيها قهوة تأ سُو من الهمّ جِراحا
ذات نَشر كنسيم الـ ـروض غِبّ القطر فاحا
يا غلامي ما أرى فيـ ـها ولا فيك جناحا

[561] الجام: إناء من فضة، يَقَقٌ ويَقِقٌ، بكسر القاف الأولى: شديد البياض ناصعه

حــرم المـــاء وأبعد ه وإن كان مبــاحـــا

أقـــراحٌ أنـــا حتـى أشــربَ الماء القراحا؟

ويقول في نبيذ دار به ساق يشبّهه بالعروس التي تتجلى، وتبرز أمامها سوداء قبيحة، لتكون كالعوذة لها، وتكون محاسن العروس أظهر بإزاء مقابحها:

بنفسي مقبلاً يهدي فنونــا إلى الشّرب الكرام بحسن قدّهْ

وفي يده من التمـريَّ كأسٌ كسوداء العروس أمام خـدّه

وقال واصفا رقة الخمرة وتشاكل لونها مع لون زجاجتها فأبرز ذلك الصابي بدقة تشبيه جميلة:

رقَّ الزجاجُ وراقت الخمرُ وتشاكلا فتشابه الأمرُ

فكأنما خمرٌ ولا قـدحٌ وكأنما قدحٌ ولا خمــرُ

وله أيضا واصفا حبابها الذي يعلو عليها إذا مزجت:

رُبَّ عذراء راوحَتني من الـــرا ح بعَـــذراء تطـــرد الهمّ طـردا

خنـــدريس إذا المـــزاج علاها نظمت بالحباب للكأس عقدا[562]

تترك البال ناعماً وأخا الشجـ ـو خلياً وطائـــر اللهـــو سعـدا

عبقتني بكـأسهـــا ذات دَلٍّ دلّ قلبي إلى الهـــوى فتعدّى[563]

وفي حباب الخمر يقول أيضا:

إذا جال فيها المزج خلت حبابها عيون الأفاعي أو قرون الجنادب

وصار الصابي يصف رائحة الخمر بأنه عطر يملأ البيت في حال تعاطيها فيقول:

حمراءُ مُصنفَرَّةُ الأحشاءِ باعثةٌ طيباً تخالُ به في البيت عَطَّارا

كأن في وسْطها تِبْراً يُخلّصِهُ قَيْنٌ يُضرِّم في أوراقِـــهِ النـارَا

---

[562] الخندريس: الخمرة المعتقة

[563] الدل الأولى من الدلال، والدل الثانية بمعنى عرّف

وقوله من قصيدة شبه فيها مجلس الأنس بالمعركة:

ألاقي هُمـــومي في جَحفــل لها من مقــامي فيـــه قَرارُ
دبادبـــة من طوال القيــا ن والنـــاي بــوق له مستعار
ومَجلسُنــا حَومـــةٌ أرهجت لزحفِ النـــدامى إليهــا بِدارُ
كأنَّ فكاهاتهـــم إذ عِلت غمــاغمُ للحرب فيها شعـــار
كأنَّ الكؤوس بأيدي السُّقاة سيــوفٌ لها بالدمـــاء احمرار
كأنَّ منـــاديل أكتافهــم حمائِلُهـــا إذ عليهم تـــُدار
كـأنَّ رُجُـــومَ تحايـــاهمُ سهـامٌ على الجيش منها نِثار
كأنَّ المجامـــرَ خيلٌ جَرتْ وقـــد ثـار للنـدِّ منها غُبار
كأنَّ السُّكارى رجالُ الوَغى وقـد عَقرتهُم هنـــاك العقارُ
وقـــد جَدَّلتهم جُـــروحٌ بهم وجَـــرحُ المدامـــة فيها جُبـــار
كأنَّ تساكبها في الزجــاج حريـــقٌ له من حَبـــابٍ شــرار
فيــا لك من مأقط لي بـــه بَـــلاءٌ وقـــولٌ إليـــه يشـــارُ
ولما بـــرزت إلى الهمّ فيـــه ولي بالســـرور عليه اِقتـدار
جـــرى الضربُ مختلفا بيننـا فمــاتَ وعشتُ وقـــد نيلَ ثارُ

ومن أجمل الدعوات التي يوجهها محب لمن يحب يستدعيـــه للحضور ما كتبه الصابي واصفا المجلس الذي أعده له من كل ما طاب مأكلا ومشربا وطربا والنقص لا يكتمل إلا بحضور المدعو، يقول:

طباخنـــا صانعٌ رؤوســـاً يسقط في طيبهــا الخلافُ
مبيضـــةٌ كاللجين لونـاً شهيـــةٌ كلّهـا نظـــاف
وأخذها من الرقاق يحكي صريــع حمّى لـــه لحـاف
من بين عجل إلى خـــروف تزهى بتضيدها الصحّاف
مختلفـات القدود لكن لها بأسنـــانها ائتـــلاف
وكلها راضـعٌ صغيـــرٌ له على ضَرعهـا اعتكـاف

قـد اسمنتهنّ أمهـاتٌ | من طول إرضاعها عجاف
نُسقي على ذاك روح دَنّ | أرقّ أسمائها السُّلافُ
عروس دَنٍّ صفت وطابت | لوناً وطعماً فما تُعاف
كأن إبريقها لدينا | ناكسُ رأسٍ به رُعاف
والنُّقلُ من فستق جنيٍ | رطبٌ حديثٌ به القطافُ
لي فيه تشبيه فيلسوف | ألفاظه عذبةٌ خفاف
زمردٌ زانه حريرٌ | في حُقِّ عاجٍ له غلاف
ومُسمعٌ مطربٌ مليحٌ | يَحرمُ عن مثله العَفاف
يظلمني صاحياً ولكن | في سكره ما به انتصاف
فَصِرْ إلينا غداً بليلٍ | أفديك من كلّ ما يخاف
فأنت أصلُ السرورِ عندي | وكلُّ ما بَعدهُ مُضافُ

مما قال في التهاني والتهادي

إن عمل الصابي كرئيس لديوان الإنشاء جعله ضمن حلقة علاقات الخلافة والإمارة والوزارة، وهذا يتطلب منه أن يقيم علاقاته مع علية القوم، كما إنها تتطلب فيما تتطلب رسوم التهاني والتعازي والمواساة والمجاملات. ولما عهد فيه بلاغة الكتابة وحلاوة الكلمة وسبك النص، حتى صار ما يكتبه مدار تناول مجالس الأدب والقراءة، فقد حرص الصابي على أن يكتب في المناسبات كما حرص من يُكتب لهم على تفقد كتابته وطلبها ومتابعتها. من هنا يحفل موروث كتابات الصابي الذي وصلنا بالتهاني. ونثبت هنا أبرز أشعاره في هذا الميدان التي انصب أكثرها على مخاطبة عضد الدولة كونه الملك الذي ملك زمام رئاسته وزمام أمره وإطلاقه من حبسه. وبذلك صار الصابي يتحين المناسبات للكتابة له من أجل أطلاق صراحه.

فكتب الصابي قصيدة إلى عضد الدولة يهنئه فيها بعيد الفطر وقد أحسن في مطلعها بإختيار الألفظ والمعاني:

يا مـــاجداً يَدهُ بالجـــود مُفطـرة   وفوهُ من كل هُجرٍ صائمٌ أبدا[564]

اسعَـد بصومك إذ قضيتَ واجبـه   نُسكاً ووفيتَـهُ من شَهره العددا

واسحبْ بذا العيـد أذيالاً مُجددّة   واستقبلِ العيشَ في إفطـاره رَغدا

وانعمْ بيومك من ماضٍ قَررتَ بـه   عيناً ومنتظـر يُفضي إليك غدا

وفزْ بعمرك ممدوداً وملكك مَـوْ   طوداً ونل منهما الحدَّ الذي بَعُـدا

حتى ترى كُرة الأرض البسيطة في   يُمناك مملـوءةً أرجاؤها رَشَـدا

وحولـك الفَلَكُ الـدَّوار متبعـاً   أوطار نفسك لا يألوك مُجتهـدا

وكتب إلى عضد الدولة أيضا مهنئا بعيد الفطر في سنة أخرى:

لـمْ أطـوّل في دعـوتي لمليكٍ   طـوّلَ اللّهُ في السلامـة عُمره

بلْ تلّطفتُ باختصـار محيـط   بالمعـاني لمن تـأمَّل أمـره

فهيَ مثلُ الحروفِ من عنـد الهنـ   ـدِ قليلٌ قد انطوت فيه كَثْره

جمـع اللـه كلَّ دعـوة داعٍ   مُستجاب دعاؤه فيـك صبره

وأعادَ العيـدَ الـذي زارهُ العـا   مَ بأمـن يحـوزهُ ومَسـرَّه

وأراه الآمـالَ فيـه ولَقّـا   ه سعـادتهُ ووفّـاه أجْـرَه

وكتب له أيضا مهنئا في عيد الأضحى:

إسلـم ودُم للرتبـة العليـاء   وتمـلَّ مُلكَك في أمَـدٍّ بقاءِ

واستقبل العيـد الجديد بغبطةٍ   ومسـرةٍ وزيـادةٍ ونَـمـاء

وكفاك من نُحر الأضاحي فيه ما   نَحَرَتْ يمينك من طُلا الأعداء[565]

بهم تعفـر كالبهـائم جعجعت   أشلاؤهـا في حَومـة الهيجـاء

حَرُمَتْ مآكلها علينـا واغتدت   حِـلاً لِوَحشِ القفـر والبيداء

---

[564] والهُجْر، بالضم: الاسم من الإهجار، وهو الإفحاش، وكذلك إذا أكثر الكلام فيما لا ينبغي. ويرد في كتاب الصابئة المندائيين " الكنزا ربا" ضمن نصوص الصوم التي يجب الإلتزام بها: صُم فـميمكُن من ميمرا كدبا. وترجمته: صموا أفواهكم عن قول الكذب. وربما يكون الصابي قد ترجم ذلك في مطلع قصيدته.

[565] الطُلا: المهدورين

هـــذي مناسكُك التي قضيتها ... بالسيف أو بالصَّعْـــدة السمـــراء

ووراء ذلك للعُـــفـــاة منـــائح ... هَطلتْ هطـــول الدِّيمـة الوَطفاء

ومواهب ومنـــاقـــب ومفـــاخـــر ... ومـــآثر أوفـــتْ على الإحصـــاء

وله في تهنئة أخرى، وقد بنى مطلع قصيدته على كلمات سورة الكوثر، يقول:[566]

صَـلِّ يا ذا العـــلا لربك وانحَـرْ ... كلُّ ضِـــد وشانئٍ لك أبتَرْ

أنت أعلى من أن تكون أضاحيـ ... ـك قُـــروماً من الجِمال تُعفَّر

بل قُروماً من الملوك ذوي السـؤ ... ددِ تيجانهـــا أمامك تُنثـــر

كلما خَـرَّ ساجـــداً لك رأسٌ ... مِنهمُ قال سيفك: اللّهُ أكبر

وكتب في يوم مهرجان هذه الأبيات وأرفقها مع إصطرلاب أهداه إلى عضد الدولة[567]:

أهـــدى إليك بنـــو الآمال واحتفلوا ... في مهرجـــان جـــديد أنت مُبليـــهِ

لكنَّ عبـدَك إبراهيـمَ حين رأى ... عُلُوَّ قـــدرك عـــن شيء يُدانيـــه

لم يرضَ بالأرض مُهداة إليك فقد ... أهـــدى لك الفَلكَ الأعلى بما فيه

وأهدى إليه زيجاً[568] وكتب معه:

---

[566] يظهر في المقطوعة صيغ المبالغة التي تعطي التصور عن حجم جبروت الحاكم وشدة تسلطه وأن التقرب اليه من قبل من يمدحه يكون بأساليب وكلمات شديدة المبالغة لكي يحظى بالحظوة.

[567] وللصابي كلام بليغ وقيم في أسلوب مهاداة الملوك وقيمة ما يهدي لهم رعيتهم ، فقد كتب إلى عضد الدولة في هذا المعنى: العبيد تُلاطِف ولا تكاثر الموالي في هَداياها، والموالي تَقْبَل الميسور منها قبولاً هو محسوبٌ في عطاياها. ولما كان - أدام الله تعالى عزّه - ميرزاً على ملوك الأرض في الخطر الذي قَصّروا عنه شديداً، والسعي الذي وقفوا منه بعيداً، والآداب التي عجزوا عن استعلامها فَضْلاً عن علْمها، والأدوات التي نكِلوا عن استفهامها فضلاً عن فهْمِها، وجب أن يُعْدَلَ عن اختيارهم ما تَحْظَى به الجسومُ البهيمية، إلى اختيارِه فيما تحظَى به النفوسُ العليَّة، وعما يَنْفُق في سوقهم العامية، إلى ما يَنْفُق في سوقه الخاصية، إفراداً لرُتبِته العُلْيا، وغايته القصْوى، وتمييزاً له عمن لا يجْري معه في هذا المضمار، ولا يتعلقُ منه بالغُبار. وقد حملت إلى خزانته - عمّرها الله - شيئاً من الدفاتر وآلة النجوم، فإنْ رأى مولانا أن يتطوّل على عبده بالإذن في عَرْضِ ذلك عليه مُشرّفاً له وزائداً في إحسانه إليه فَعَلَ إنْ شاء الله تعالى".(الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب).

[568] الزيج: جداول للحسابات الفلكية، وأشهر زيج فلكي هو المسمى بالزيج الصابئ الذي وضعه العالم الفلكي الفذ البتاني وهو من علماء الصابئة أيضا.

أهديتُ محتفِلاً زيجاً جَداوله   مثل المكاييل يُستَوفى بها العمرُ

فَقِسْ به الفَلك الدّوار واجرِ كما   يَجري بلا أجلٍ يُخشى ويُنتَظر[569]

وكتب إليه وهو في الحبس وقد أهدى له في مناسبة درهمين خسروانيين وكتاب المسالك والممالك" في دفترين ، يقول:

أهدي إليك بحَسْب حا   لي في الخَصاصة درهمينِ

وبحسب قدرك دفتريـ   ـن هما جميعُ الخافقين

فإذا فتحتهما رأيـ   ـت بيان ذاك بلحظ عين

كما كتب إليه وهو في الحبس مهنئا بمهرجان مع درهم خسرواني، وقد حاول استمالة عطفه مبشرا بنصر ينتظره وملاطفا ومذكّرا بمحبسه، فقال :

تَصَبَّح بعز واعتلاء جُدود   وابشر بخير واطّراد سعودِ

وقُل: مرحباً بالمهرجان وحَيِّه   بطلعة بَسّام أغّر مجيدِ

له زورة في العام ما زال يومها   كفيلاً بحظّيْ سيدٍ ومَسودِ

فَيحظى بفخر مِن عُلاك مجدد   وتحظى بعمر في مَداه جديد

تراه إذا ما جاء طامحَ مقلة   إليك، وإن ولى فثاني جيدِ

أتتك الهدايا فيه بينَ مُوَفَّر   على قَدَر المُهْدي وبين زهيدِ

فبان على يُمناك حين مَددتها   تكلفُ فَيّاضِ اليدين مُفيد

تقاعَسَ عن بسط القبول ولم تكن   لها عادة إلا ببسطةِ جُود

ولكن إذا أهدى لك الله نعمةً   مَددتَ لها كفيك مَدَّ رشيد

وقد نزلتْ منه إليك هديةٌ   بجُرجان ما مَحصُولها ببعيد

وما بيننا إلا المسافةَ فانتظر   ورودَ بشير فوق ظهر بَريد

ولما رأيتُ الله يُهدي وخَلقُه   تجاسَرتُ واستفرغت جَهْدَ جَهيد

فكان احتفالي في الهديةِ درهماً   يطيرُ من الأنفاس يوم ركود

---

[569] لم تنفع دعوة الصابي عضد الدولة فقد مات بمرض الصرع وهو في الثامنة والأربعين من عمره، وربما أنها لم تكن دعوة من القلب صادقة بمقدار ما كانت مجاملة حاكم!

وجـزءاً لطيفاً ذَرعـه ذَرعُ مَحبسي وتقييـده بالشكلِ مثـل قيودي
ألاطفُ مـولانا وكالمـاءِ طبعـهُ تَسلسلَ من عذب النطافِ بَرود[570]
زلالاً على المستعطفين وجلمـداً على كلِّ عِرِّيضٍ ألـدَّ مَـرِيدِ[571]

وكتب إليه في يوم نوروز مهنئاً يقول:

تَهنَّ بهـذا اليـوم واحـظَ بخيـره وكُن أبـداً بالعَودِ منه على وعدِ
أرى الناس يهـدون الهدايـا نفيسـةً إليكَ ولم يترك لي الدهرُ ما أهدي
سـوى سكرٍ يحلو لك العيش مثلـه وآسٍ أخي عمرٍ كعمرك مُمتـد[572]
وبينهمـا من ضربِ قومـكَ درهـمٌ وأبياتُ شعر من ثنائي ومـن حَمدي
فإن كنت ترضى ما به انبسطتْ يدي وتقبلـه مني فهذا الذي عنـدي

ويبدو أن حتى الدرهم والدينار قد تعذر على الصابي فلم يجد غير الشِّعر هدية، وهو لا شك أبقى هدية. فكل الأموال ذاهبة فانية ولكن بلاغة الكلم والشعر باقية. وفي هذا كتب الصابي إلى عضد الدولة أيضا:

تعـذر دينـاري علي ودرهـمي فلاطفتُ مولانـا ببيتين من شعري
وكم بيتَ شعر زاد بالشكر قدرهُ على بيتِ مال من لُجَين ومن تبـرِ[573]

وربما أن أبيات هذه التهنئة كتبها الصابي لعضد الدولة في إجلال قدره ومحاباته لسلطته وحظوته وخشيته منه يقول:

يا سيداً أضحى الزمـا نُ بـأسرهِ منـهُ ربيعـا
أيـام دهـركَ لم تزل للناس أعيـاداً جميعـا

---

[570] النطاف: جمع نطفة، وهي الماء الصافي. والبرود بفتح الباء: البارد.

[571] العريض: الذي يتعرض للناس بالشر، الألد: الخصم الشديد، المريد: العاتي

[572] يبدو أن السُّكر والآس مما يقدم في بعض المناسبات الفارسية، ويعرف أن الآس يضعه الشخص في عمامة الرأس في مناسبات فارسية ولذلك قدمه الصابي لعضد الدولة، كما أن الصابئة المندائيين يضعون غصنا من الآس تحت العمامة أثناء إجراءات التعميد وضمن اللباس الذي يكفّن به المتوفي ويسمى " كليلا ". أما الدرهم من ضرب قومه فالمقصود به الدرهم الخسرواني.

[573] اللُّجين: الفِضة، والتِبر: الذهب

حتى لأوشـك بينهـا   عيدُ الحقيقة أن يضيعا

فاسلم لنا ما أشرقَتْ   شمسٌ على أفقٍ طلوعا

واسعَد بعيدٍ ما يـزا   ل إليك مُعتقِداً رجوعـا

ونتوقف عند هذه الأبيات لسببين: الأول أن كلمة (عيد) قد وردت في بعض المصادر بحسب نسخها (عند) وبها يستقيم المعنى. والسبب الثاني أننا لا نجد معنى أيضا في عبارة (عيد الحقيقة) ولا ينساق مع معنى الأبيات، إذ لا يعرف أن هنالك عيدا اسمه عيد الحقيقة ولا توصف الحقيقة بالعيد تقييما لها. ونرى أن الأصح هو (عيد الخليقة) الذي يتماشى مع المعنى والوزن الشعري. وعيد الخليقة هو أحد أبرز الأعياد لدى الصابئة المندائيين وهم يحتفلون به لمدة خمسة أيام احتفاء بخلق الخالق للعالم العلوي بملائكته ومائـه وأنهاره وأشجاره. فإن كان هذا صحيحا فإنه ينضاف إلى جوانب تطابق ما لدى مجموعة صابئة حران التي قدمت العراق مع الصابئة المندائيين الذين مازالوا يقدسون هذه الأيام ويعدون مناسبتها من أقدس المناسبات لديهم.

وكتب إلى صمصام الدولة يهنئه بعيد الأضحى فقال:

يا سنـة البدر في الدَّياجي   وغُرَّة الشمس في الصبـاحِ

صَمصامُ حربٍ وغَيثُ سلمٍ   ناهيك في البأس والسمـاح

اسعَدْ بفطر مضى وأضحى   وافـاك باليمـنِ والنجـاح

وانحر أعـادي بني بويـه   بالسيف في جملة الأضاحي

فالكُل منهم ذوو قـرونٍ   يصلح للذبـح والنطـاح

وكتب إليه أيضا:

دامت لمولانـا سعادتـه   موصولـة دائمة تَتـرى

ونال ما أمَّـل من ربـه   في هذه الدار وفي الأخرى

وزاده النيروز في ملكـه   عـزاً وفي دولتـه نصرا

لما رأيت الناس لم يتركوا   فيما ادَّعوا نظماً ولا نثرا

أعملتُ فكري في دعاء له   يجمـع ما جاءوا به طُرّا

فقلت بيتـاً واحداً كافياً   لم يَعـد في مقداره سطرا

لازالت الدنيا لـه منزلاً   يأويـه، والدهر له عمرا

وقد أهداه إصطرلابا وكتب معه إليه:

يعزّ عليّ أن أهدي نحاساً إلى مَن فَيضُ راحته نُضارُ

ولكنّ الزمان اجتاح حالي وأنت عليه لي إذ جار جار

وكتب إليه أيضا وقد أهدى إليه فنجانا من الصُفر:

نُهدي النحاس إلى مولىً أنامِلُهُ تهدي النُّضارَ إلى العافين منتهباً

وكان يلزمنا، لو لا التعذّر، أن يكون إهداؤنا من عين ما وهبا

لكنَّ بُعدي عن جَدواه أصفَرني من كل خيرٍ فصار الصُّفر لي نشبا[574]

وسوف أظفر من أخلاط نائله بالكيمياء فيضحي صُفرُنا ذهبا

فَليبسط الآن عذراً لست أسأله في قابلٍ إن أنل من خدمةٍ سببا

فقد جرى الماء في عُودي بدولته وكان من قبله مستيبساً حَطَبا

وأقبلتْ نحوي الآمال آتيةً من بعدما أزمعتْ من ساحتي هربا

وكتب مهنئا الوزير المهلبي بعيد الفطر أيضا:

أسيدَنا هُنِّئتَ نُعماك بالفطر ووُقِّيتَ ما تخشاه من نُوب الدَّهرِ

مضى الصومُ قد وَفَّيته حقَّ نسكهِ ووفّاك مكتوبَ المثوبة والأجر

كَلِفْتَ بذكر الله فيه فلا تَزل من الله فيما ترتجيه على ذُكر

هَجرتَ هُجُودَ الليل فيه تهجُداً وصبراً على طول القراءة للفَجر

فلو نطقَتْ أيامُنا باعتقادها لناجَتك لفظاً بالدعاء وبالشكر

وللفطر رَسمٌ للسرور وسُنّةٌ ومثلُك من أحيا لنا سُنّةَ الفطر

ولا بُدَّ فيه من سَماعٍ وقهوةٍ نُقضّي بها الأوطار من لذةِ السُّكر

نواصلُ قصفاً بين يوم وليلةٍ دِراكاً فنستوفي الذي فات في الشهر

فَمُرْ بالذي نبغي وكن عند ظَنِّنا فلا زلتَ فينا نافِذَ النهي والأمر

وعاد إليك العيدُ حتى تملَّه بأقصر يوم طاب في أطيب العمرِ

وكتب إلى الوزير المطهر بن عبد الله مهنئا بالعيد:

---

[574] الصفر: النحاس، أصفرني جعلني خاليا، النشب: كل ما يملك الإنسان

عيــدٌ إليك بمـــا تحبُّ يعــودُ ... بطوالـع أوقــاتُهُنَّ سعــودُ

مُتباركات كل طالـــع ساعـةٍ ... يُــوفي على ما قبلــه ويزيــد

يأتيــك من ثمـــر المنى بغرائب ... مَعدومهــا لك حاصلٌ موجــود

قضَّيتَ شهرَ الصوم بالنسك الذي ... هــو منك معــروفٌ له معهــودُ

أكثرت فيــه من تهجُّـد خاشعٍ ... ما يَطمئــن بمقلتيــه هجــود

فاشـــربْ وسَقِّ عصابةً قد مَسّها ... عَطشٌ وجهدٌ في الصيام جَهيـدُ

أرويتهـــا جوداً فَـرَوٌّ مُشاشهـــا ... راحاً فمنكَ الجودُ والناجودُ[575]

وتَمَلَّ عيشـــك في ســرور دائم ... سِربالُــه أبداً عليك جديــد

وكتب إليه يهنئه بمناسبة يومه الأجود وهو يوم الولادة والسعادة، وقد ضمن مـا كتب مقارنته بالأفلاك وأبراجها إيمانا منه بهذه الصنعة وتقديرا لما تلاقيه من قبول في الوقوف على الطالع واستقراء تحويل السنة وأن يكون يوم الولادة هو يوم الجود والأجود:

نَــل المنى في يومــكَ الأجـودِ ... مُستنجحاً بالطالع الأسعدِ

وارقَ كمرقى زُحــل صاعــداً ... إلى المعالي أشرفَ المصعَــدِ

وفِضْ كفيض المُشتَري بالنّـدى ... إذا اعتلى في بُرجــه الأبعـدِ

وزِدْ على المريــخ سِطِيــواً بمــن ... عاداك مـن ذي نَخــوةٍ أصْيَد

واطلعْ كما تطلعُ شمسُ الضحى ... كاسفـةً للحِندس الأسـود

وخُــذ من الزهـــرة أفعالهـــا ... في عَيشك المقتبــل الأرغَــد

وضــاهِ بالأقــلام في جَريهـــا ... عُطارد الكاتب ذا السـؤدد

وبـــاهِ بالمنظــر بــدرَ الدُّجى ... وأفْضُلــه في بهجتــه وازْدَدِ

واسلمْ على الدّهر ولا تخش مِن ... مكروهِـهِ الرائح والمغتـدي

ذا مهجـــة آمنـــةٍ للـــردى ... ما أمَّنتــه مهجــة الفرقد

---

[575] المُشاشةُ أرض صُلْبة تتخذ فيها ركايا يكون من ورائها حاجزٌ، فإذا مُلِئَت الركيَّةُ شربت المشاشةُ الماءَ، فكلما استُقي منها جمّ دلو مكانها دلو أخرى. الناجود: وعاء الخمر، وقيل هي الخمر نفسها.

وقال مخاطبا أحد الوزراء مهنئا بعيد الفطر وقد أحسن في بيان ما يصام عنه وما يفطر به:

يصومُ الوزيرُ الدهرَ عن كل منكر وليس لهذا الصوم عيـدٌ ولا فطرُ

ويُفطرُ بالمعروف والجـود والندى وليس لهذا الفطر صـومٌ ولا حَظر

فأكرمْ به من صائمٍ مفطـرٍ معاً تَوافى لديه الأجر والحمد والشكر

وقال أيضا مخاطبا من هو في منزلته:

إذا دعا الناس في ذا العيد بعضهم لبعضهم وتمادى القول واتسعا

فَصَيَّرَ الله ما من فضلـه سألوا فيـه لسيدنا الأستاذ مجتمعا

حتى يكون دعائي قـد أحاط لـه بكل ذلك مرفوعاً ومستمعـا

وكتب الى أحد الوزراء مهنئا في يوم نوروز وقد أهدى إليه بطيخة كافور، وصيغة المبالغة في البيت الأخير بليغة ومتميزة

أسْعَـد وزيـرَ الملك بالنيـروز ما سَجَعَتْ مُطوقـة على أعوادهـا

وافى فأنجـزَ وَعْـدَ عـامٍ أول بميامين سَتكـرُّ من ميعادهـا

نُهـدي إليك بـه هدايا كلها من راحيتك حقيقة استمدادهـا

فتمدّ كفّاً نحوهـا نشأت على إرفاد أيدي الناس لا استرفادها

عاداتُها إعطاء مـا قد أعطيت أكرِم بعـادتهـا وبالمعتادها

ولقد طلبت فلم أجد شيئاً سـوى كافـورة لم آلُ في إعدادهـا

وبديـع أبياتٍ إذا هي أنشـدت نَفَقَتْ بضـاعتها على نُقّادهـا

فالصبحُ من تلك ابيضاض أديمها والليلُ من هـذي اعتكار مدادها

ولو أنني مكّنت مـن عيني التي هي بعض حقك يا معيد رقادهـا

لسكبت كافوري بشحم بياضها وكتبت أبياتي بذوب سوادهـا

وكتب الى الوزير أبي نصر بن أردشير يهنئه بالخروج من الاستتار والملاحقة:

صَحَّ أنّ الـوزير بـدرٌ منيـر إذ توارى كما تَوارى البـدورُ

غابَ لا غابَ ثم عاد كما كا ن على الأفقِ طالعـاً يستنيـرُ

لا تسلني عن الوزير فقـــد نبـ ـئتُ بالوصـــف أنّـــه سـابورُ
لا خلا منه صدرُ دَستٍ إذا مـــا قَرَّ فيه تقــرُّ منـــه الـصدورُ

وكتب إليه مهنئا أيضا بعد أن أعيد إلى الوزارة وكان قد صرف عنها، وما أجمل أن يجعله هو من طلّق الوزارة وزعل عليها فعادت إليه أكثر مما عاد هو إليها:

قد كُنتَ طَلقتَ الوزارة بعدما زلتْ بهـــا قـدم وساء صنيعها
فغدتْ لغيرك تستحيلُ ضـرورةً كيما يحلُّ إلى ذراك رجوعهـــا
فالآن آلت ثـم آلت حلفـــةً أن لا يبيتَ سواك وهو ضجيعها[576]

وكتب مهنئا أبي نصر بشر بن هارون بتجاوزه علة أصابته فقال:

أهــلاً وسهلاً بمكروه تخطاكا وصائب من سهام الدهر أشواكا
إذا سلمت لنـــا ممـــا أحل بنـــا فمـــا تعدى علينـــا إذ تعداكا
وما أعـــود عليـــه بـالـمـلام وإن عفا على أثري إذ كان أعفاكا
لكن سأشكر نعماه التي ظهرت عليّ لما ابتـــلاني ثـــم عافاكا

وكتب إلى بعض الرؤساء: عرفت أن سيدنا الأستاذ الجليل أطال الله بقاءه يشتكي إلتياثا فأقول:

فلو استَطَعتُ أخذت علّةَ جِسمـــهِ فَقَرنتُهـــا مني بعِلـــةِ حـالـي
وجَعلتُ صحتَّي التي لـم تَصفُ لي صَفـواً له معَ صحة الإقْبَالِ
فَتكونُ عندي العِّلتانِ كِلاَهُـمَـا والصِّحَّتانِ له بغيـــرِ زَوالِ

كما كتب إلى بعض الرؤساء يهنئه بخلعة سلطانية حلت عليه فقال:

قَـــرمٌ عَلَتـــهُ مَلابس العليـــاء فَعَلا على النظراءِ والأكفاءِ
أهدَتْ إليَّ سرورها مثل الذي أهدى مساءتهـــا إلى الأعـداء
ومِن العجـــائبِ أنّني هنـــأتهُ وأنا المُهنـأ فيـــه بالنعمـــاء
لا زال يفتـــرعُ المراتبَ صاعداً حتى يجوزَ محلّـــة الجـــوزاء

---

[576] كلمة آلت الأولى بمعنى رجعت، وآلت الثانية بمعنى حلفت

وكتب الصابي إلى بعض الرؤساء في عيد الأضحى قائلا:

لا تزالُ كلُّ دعوةٍ مَسموعَةْ   من بِرٍ ونحورٍ بها مرفوعَةْ
للرئيسِ الأستاذ في موسم الأضـ   ـحى وفي كلِّ موسمٍ مجموعَةْ
هذه جملة الدُّعاء الذي عمَّـ   ـتْ وضمَّت أصولَه وفروعَةْ
وقديماً أسْدَلَ اختصاري لِلَّفـ   ـظ ثُغوراً من المعاني وسيعَةْ

وكتب مهنئا صديقه الشريف الرضي في عيد الأضحى وقد أبرز كل ما يكنه لهذا الصديق في هذه الأبيات من محبة ودعاء ونصر، وقد استخدم كلمة صابيك التي تحتمل المعنيين في الصابي له، وصابئه الذي يعرف فيه الأمانة قياسا بالآخرين، فقال:

مُرجيك وصابيك   بذا الأضحى يُهنيكا
ويدعو لك واللّهُ   مجيبٌ ما دعا فيكا
وقد أوجز إذ قالَ   مقالاً وهو يكفيكا
أراني الله أعداءَ   ك في حالِ أضاحيكا

مما قال في الهجاء

مدح الكثيرون أخلاق الصابي وحسن عشرته لأبناء ملته ولجميع من تعامل معهم من الرؤوساء والنظراء، وكان حريصا على أن يحظى بحب الجميع وتقديرهم، ولكن ذلك لم يمنع الغيرة والحسد. ومثلما أُوقع به أكثر من مرة وشاية أو وصاية، فقد برزت في مقطوعات الهجاء التي كتبها إشارات الى غير واحد ممن استحق هجاء الصابي. وكان هذا الهجاء أحيانا من القسوة واستخدام الكلمات النابية ما يلفت الانتباه ويؤشر درجة معاناة الصابي من البعض إلى الحد الذي لم يحتمل السكوت عنه. وبالمقابل فقد قدم لنا مقطوعات قابلة للاستخدام حتى اليوم في هجاء البعض ممن قيمتهم تستحق ذلك.

ففي وصف أحدهم يقول:

يا جامعاً لخِلالٍ   قبيحةٍ ليس تحصى

نقصتَ من كُل فضلٍ فقد تكاملت نقصــا

لو أن للجهـــلِ شخصاً لكُنتَ للجهل شخصاً

وقال في هجاء شخص وقد أجاد في عجز البيت الثاني أيما إجادة:

أيهـــا النابحُ الذي يتصدّى بقبيـحٍ يقولـــه لجوابـــي

لا تؤمل أنّي أقول لكَ إخسأ لست أسخو بها لكُلِّ الكلابِ

على أن للصابي ثلاثة أبيات بليغة في ذم الدولة البويهية أيام الخلافة العباسية تظهر جرأته وهو الذي عرف عنه الحذر من عقوبة أمرائها، ولكن يبدو أن ما عانى وقاسى منـــه قد قاده الى هذا القول الذي صار مجال استشهاد الكثيرين في ذم دولتهم إن لم تكن بمستوى خدمة شعبها. يقول:

ألا قُلْ لأهلِ الدولة النّذلـة التي ثوى داؤها فينا وأعيـا دواؤها

لقد كَبَتْ الدُّنيا على أمِ وجهها فنحنُ لها أرضٌ وأنتم سماؤها

فلا تُفلحوا بالحظِّ منهـا فإنهُ قليلٌ على هذا المَحال بقاؤهـا

ويهجو صائما لم يصم سلوكه عن الظلم فيقول:

يا ذا الذي صامَ عن الطعم ليتك قد صمتَ عن الظُلمِ

هل ينفعُ الصومُ أمرأً ظالماً أحشاؤه مَلأى من الإثــمِ

وقال يهجو من لبس عمامة على رأس فارغ:

يا مـــن تعمّمَ فـوق رأسٍ فـارغ بعمامــةٍ مَرويةٍ بيضـاءِ[577]

حَسُنَتْ وقبّحَ كُلَّ شيءٍ تحتهـا فكأنها نورٌ على ظلمـــاءِ

لما بـــدا فيها أطلتُ تعجبـــي من شرِ شيءٍ في أجلِّ إنـــاء

لو أنني مُكِنتُ ممـــا اشتهي وأرى من الشهـواتِ والآراء

لجعلتُ موضعها الثرى وجَعلتها في رأس حرٍّ من ذوي العلياء

وينزعج من شخص فيتمنى له كل أنواع الصفع فيقول:

---

[577] مروية: أي من مدينة مرو

وراكبٍ فوقَ طرفٍ كأنّه فــوق طرفي

له قـــذالٌ عريضٌ يَجلُّ عن كُلِّ وصفِ

يذوبُ شوقاً إليــه نعلي وخفّي وكفي

وما أجمل نبذ شخص في وصفه بالبغل فيقول:

أبو الفضل إذا يَحصُـ ـلُ فيما بينا فضـلُ

ومـا نُـؤثر أن يدخـ ـل في شَطرَنجنا بَغلُ

وقال يهجو بشكل قاذع شخصا أصبح رئيسا دونما أهلية:

وأرعنَ من سكر الحداثة ما صحا دفعنا إلى تعظيمه وهو ما التحى

لـه همّـة لكنّها في حتـارة فـما يطلبُ العلياء إلا ليُنكحا

فلو أن ما قاسى من الأيــر دبره يقاسيــه من سير المعلم أفلحا

وشبيه بهذا يقول:

يُبـدي اللواطَ مغالطاً وعجانُـه أبداً لأعراد الورى مُستهدفُ[578]

فكأنه ثعبـان موسى إذا غـدا لِحِبالهـم وعِصِيِّهـم يتلففُ

وقال في آخر أيضا:

قَرنُ ابن هاورن قد تمادى عُلُوُّه فالغيـورُ غَيـرُه

فكاشَفَتهُ البظراءَ جهراً بفسقها حين قلَّ خيره

خَلَتْ بـه للنكاحِ يومـاً فقامَ حَرِهـا ونامَ أيـره

وقال في إنسان شريف الأصل وضيع النفس:

قُل للشـريف المنتمي لِلغـرّ من سَرَواتــهِ

آبـائــهِ وجــدوده والزُّهـرِ من أمـاتـه

وهو الوضيعُ بنفســه وعيوبــهِ وهنـاتــهِ

والظاهـر السوءات في أخلاقــه وصفـاتـه

لا تجرينَّ مــن الفخا ر إلى مــدى لم تاته

---

[578] العجان: الأست والدّبر

شاد الألى لك منصباً قوضت من شرفاته

وأبوك متصل به فعققتهم ببتاته

إن الشريف النفس ليـ ـست تلك من فعلاته

والعود ليس بأصله لكنه بنباته

والماءُ يفسدُ إن خلطـ ـت أجاجَه بفراته

وأحقُ مَن نكسته بالصفع من درجاته

مَن مجدهُ من غيره وسفالهُ من ذاتهِ

وقال من قصيدة لأبي الفضل الشيرازي يوصيه بغلمانه ويعلمه بحالهم:

نَبَّ هذا التيس نبّا وعلى الغلمان هبّا

كلّما نادى غزالاً منهم للنَيكِ لبّى

ما رأينا قبل هذا رَشأً طاوع كلبا

ليس فيهم من صغير وكبير يتأبّى

وغدت دار أبي الفضـ ـل لهذا التيس زربا

وهو يزداد على ذا ك به ضناً وعجبا

يا أبا الفضل استمع نُصـ ـح امرئٍ يُصفيك حباً

سَرحُ غلمانكَ للسُّر حان قد أصبح نهبا

وقال الكثير من المقطوعات الشعرية في هجاء وذم المبخرين وذوي الخلوف[579] ، وقد حفظت بعض المراجع مقطوعات مما قال في ذلك، منها:

إني بليتُ بقَرنانٍ يساررني سيّان عنديَ مجشاه ومفساهُ

القبر نكهته، والسمُّ ريقته والموتُ عِشرته، والبَخر نجواه

[579] الخـلوف: رائحة فم الصائم أو المنقطع عن الطعام، والبخر: النتن والرائحة الكريهة في الفم.

وقال في هجاء أبخر وربما كان أبو الفضل الشيرازي وهو من الوزراء البويهيين:

في أبي الفضل من النقـ ـص ضُروبٌ وصنوفُ
رجـلٌ في وعـــدو خلـ ـفُ، وفي فيـه خُلوفُ
فـــإذا فاوضـك القـو ل فقد فاض كنيفُ

وقال في ابن نصر:

لم ترَ العينُ أبخـــراً كابن نصـرٍ ولا تـرى
مَدخلُ الخبز منهُ أخـ ـبث من مخرج الخرى

و قال فيه أيضا:

قد أبصرتْ عيني العجائبَ كلّها ما أبصرت مثلَ ابنَ نَصر أبخر ا
ما شمَ نَكهتـه أمـرؤ متعطـرٌ إلا استحال مخاطه منهـا خَرى

و قال فيه أيضا:

نطقَ ابنُ نصرٍ فاستطارت جيفـةٌ في الخافقين لِنَتن فيهِ الفاسد
فكأن أهلَ الأرض كلُّهم فسوا متواطئينَ على اتفاق واحـــد

وقوله فيه:

يا ابن نصرٍ تِـهْ ما شئت بالبخرة إذ بَلغَتـك حـــالاً شـريفـــه
لك في الناسِ مثلُ معجزة الخضـ ـر، وإن كنت منه بئس الخليفة
لا يشمـــونَ حينَ تجتـــاز طيباً ويشمـــونَ حين تجتـــاز جيفة

وقال في شخص أبخر:

ما مـرّ بي في عُمري مثل سرار القنطَرى
مكّنتُـهُ من أذنـي فَبالَ فيهـا وخَرى

ومن أجود ما قيل في البخر قول الصابي:

مَضَـغ الأزديُّ للهرّ ةِ خُبْزاً فرماهَــا
فدنتْ منـهُ فَشَمَّتْـ ـهُ فظنَّتهُ خَراهَـا
فحَثَتْ تُرْباً عليـه ثمَّ ولَّتْـهُ قَفَاهـا

مما قال في الشعر

ثبّت الصابي رأيه في المقارنة بين الشعر والنثر في رسالة وجهها لأحدهم حينما سأله عن الأمر، أوردناها في هذا الكتاب. وله أيضا إضافة لذلك بعض المقطوعات الشعرية التي يبدي فيها رأيه في الشعر. وفيها يقول:

أُحبّ الشعــر يُبتــدعُ ابتداعاً   وأكره منــه مبتذلاً مُشاعــا
ولي رأي غيـــورٍ في المعـــاني   فمـــا آتي بهـــا إلاّ إفتراعــا
وقِدماً كانت الأبكار أحظى   مِن العُونِ التي انتهبت شعاعاً

وقال أيضا معيبا طول الشعر دون أن يكون له معنى واصفا إياه باللغو، ومميزا في هذا بين ماء النهر العذب على قلته وماء البحر الأجاج على كثرته يقول:

رُبّ شعــرٍ أطاله طول معنــا   ه وإن قلّ لفظُه حين يــروى
وطويلٍ فيه الكلام كثير   فإذا ما استعدته كان لغواً
عَرضُ البحر وهو ماءٌ أجاج   وقليــلُ الميـــاه تلقـــاه حلوا

ومن قيمة هذا المعنى والتمييز في هذه الأبيات الشعرية فقد قامت الأديبة الألمانية (أنّا ماريا شيمّل) بترجمة المقطوعة الى اللغة الألمانية بالوزن والقافية[580]. ونورد ما ترجمته عن العربية للتوثيق والإفادة:

Wie manch Gedicht läßt lang sein Inhalt scheinen,
Und wenig Worte nur sinds, wenn dus liest,
Und manches, das mit vielen Worten prunket,
In dem du nur Geschwätz und Torheit siehst!
Das Meer ist weit, doch salzig ist sein Wasser,
Und süß der See, drin wenig Wasser fließt.
Annemarie Schimmel

---

[580] http://www. literaturnische.de/GG/sabi.htm. Abu Ishak Ibn Hilal as-Sabi

وله يذم بعض الناس الذين يقدمون على كتابة الشعر وهم ليسوا بمنزلة الشعراء:

لقد شانَ الشعرَ قومٌ كلامهم   إذا نظموا شعراً من الثلجِ أبردُ
فيا ربِّ إن لم تَهدِهم لصوابه   فأضلِلهُمُ عن وزن ما لم يُجَوِّدوا

وفي أحدى القصائد التي كتبها للصاحب بن عباد يقول واصفا أن الشعر في مدحه يجب أن لا يأخذه فيه التراخي:

لو تراخيت عن مديحك لاستجـ   ـررت من كلّ نعمة لك هجوا
فتأملْ وانظر إليه إذا ما   طبَّقَ الخافقين حَضْراً وَبَدوا
كيف تحدو به عفاتك حَدواً   ثم تشدو به قيانك شدوا

مما قال في العتاب

إن تقلّب حياة الصابي بين ارتفاع وانخفاض وبين رئاسة ونحاسة وبين سجن واستتار، قد ألجأته إلى ذوي الجاه والقرار، في العفو والصفح، وفي المساعدة والسمح، وكان عليه أن يخاطب في هذا كما مر بنا سواء برسائله البليغة المؤثرة أو بأشعاره. ومع أنه كثيرا ما وجد المناصرة حتى في الإبقاء على حياته إزاء غضبة عضد الدولة التي كادت أن تضعه تحت أرجل الفيلة حتى يموت، فإنه لم يحصل على ما كان يرجوه أحيانا أخرى ولذلك نراه يكتب معاتبا الأشخاص الذين كان يتوخى منهم العون والمساندة سواء من النظراء والزملاء أو حتى من الأهل. بل نرى الصابي يعاتب الزمن الذي كان يعتقد أنه خانه في العديد من المواقف ولم يمكنه من أن ينول ما يستحّق أن يناله تأسيسا على قدراته وحنكته ورجاحة عقله. وفي هذا يقول وقد أبدع في تصوير حاله واجتهاده الذي يندب فيه الحظ لأنه لم يكن على قدر متناسب مع آهليته. والبيت الرابع سرى حكمة وبخاصة في عجزه، يقول :

وأيامٍ تُعدُّ عليّ عدّا   وحظيّ من رغائبها يَفوتُ
يَظنُّ الناسُ لي فيها ثراءً   وحَسبي مِن ظنونِ الناس قُوتُ
كأنّي من تخاصُمِهم مكينٌ   وحالي من خَصاصتها تموتُ

ولم آلُ إجتهــاداً وإحتفــالاً ولكنْ أعيتْ الحيلَ البخـوتُ

إذا رامَ الكريمُ شكاة بـثٍّ فغايتــه التحمّلُ والسّكوتُ

وقال معاتبا بعض أصدقائه الموجودين في مقر الدولة والخلافة:

صديق لكم يشكو إليكم جفـاكم وفي قلبه داءٌ من الشوق قاتـلُ

تناسيتمــوهُ وهــوَ للعهد ذاكـرٌ وللغيب مأمونٌ وللحبلِ واصلُ

يقولُ لكم والوجدُ بين ضلوعــه مقيمٌ وقد جَمَّت عليه البلابل[581]

أكابرُنا عَطفاً علينـــا فإنــــنا بِنا ظمأٌ بَرْحٌ وأنتــم منـاهلُ

وعاتب الوزير عبد العزيز بن يوسف بقصيدة طويلة لأنه كان يأمل فيه العون على قدر ما كانت تربطه به من علاقة وحفظ للود والمناصرة والمساهمة معه في الوزارة، وكان عتبه شديدا ومباشرا:

كفاني عــلاءً حين أفخَــرُ أنني أضــافُ إلى عبـــد العزيز وأنسبُ

حَنَتــهُ عليَّ الحانيـــات فصرتُ في كفالتـــه كالابن وهــوَ لـــه أبُ

فهـا أنا كالأولادِ والفـــرعُ أشمطُ وها هـــوَ كالآباءِ والفـــرعُ غيهبُ

عَممتُم جميعَ النـــاس حُسناً لمحسنٍ وعفواً لذي جُــرم فغيثوا وأخصبوا

فمـــا بالَ إبراهيـــم إذ ليسَ قَبلَـه وليٌّ عـــراقيّ غداً وهــــو مُجـدب

مُجليهُـــمُ فـي حَلبــــة حين أرسلوا وسُكَيْتهم في رتبـــةٍ حينَ رُتبــــوا

ومالك يا عيني البصيـــرةَ غَمضتَ جُفونك عَني حين أبكي وأنـــدُب

وكيفَ استطبتَ العيشَ في ظلِ نعمةٍ غُلامــك عنهـــا بـالعَراء يعــذّبُ

أتضربُ صَفحاً وادعَ الجأش ساكنا وجَنبـــي على رَمضائــه يَتضــرّب

متى لم يكنْ تريــاقُ جاهِكِ ضامناً نجاتــي إذا دَبَّتْ إلى الحالِ عَقــرب

و مالي إذا لم أســق ريّـاً من الحيا ولم تـــرو مني غِلـــة الروح أخصبُ

ولكّنه التقويم إن كـان طعمـــهُ أمَـــرٌ فعقباه الحميـــدةُ تَعــذُبُ

[581] البَلْبلة والبَلابل والبَلْبال: شدّة الهم والوَسْواس في الصدور وحديث النفس

ومَن ذا الذي أهَّلتمـــوهُ لنـكبـــةٍ تقومــــه إلا العُـــذَيقُ المُـرَجّبُ[582]

إذا مُنصُلٌ بالغَثـْــمُ فـي صقـالــــه فمـــا هـــو إلا المَشـــرفيُ المجـــربُ

ولم تشحذوا حَديـــهِ حَيفـــاً وإنمّـا تريـــدون أن تَسطوا به وهو مقضب

تجرّعتُ هـــذا الشّري كالأري عالماً بأن سوف يحلو لي جَني فيه طيب[583]

ويا ســـوءَ حالي لو جـــريتُ لـديكمُ بمجـــرى الذي لا يصطفي فيُهـذبُ

فَصبراً على بُؤسي قليـــلٌ بقاؤهـــا لنُعمى لنا فيهـــا مَـــراد ومَـــرحَبُ

لئِن غمَّنـــي التأنيبُ فيكم وساءني لقـــد سرّني أن كنتُ مِمـن يـؤنب

وعلمي باستحكام حقـــي لـديكم يحقـــقُ ظنّي إنَّ جُرمي سَيُـوهب

وإنـــكَ لَلحُـــرُّ الذي لي عنـــده وديعـــةُ ودٌّ خيـــرها مُتَـــرَقَبُ

وكتب معاتبا أيضا:

ومِنَ الظُلم أنْ يكونَ الرِضا ســ ـراً ويبدو الإنكار وسط النادي

ومِنَ العـــدل أن يُشـــاع بهـــذا مثلُ ما شاعَ ذاك في الإشهــــاد

كي يُسرَّ الصديقُ بالعفـو عنّي مثل ما سُرَّ بالنكير الأعــــادي

مما قال في الحبس والشكوى

لقد تقدمت قدم الصابي في المنزلة حتى رأس ديوان الإنشاء، وكانت بلاغته وقدرته تقوده من درجة الى أخرى وحال عيشه في أحسن مرتقى، لكن العمل مع الخلفاء والملوك مرهون بالرضا وتقلب الأحوال فيــــه بتقلب أحوالهم. ولا تضمن الرتب أن تبقى عاليـــة دائما، بل كثيرا ما أهينت الكرامات وسملت العيون وقتلت النفوس. وشأن الصابي في هـــذا لم يختلف عن غيره، فقد تعرض للنكبات وأستتـــر وسجن وكاد أن يهلك تحت أرجل الفيلة. وقد كتب في كل ذلك وبخاصة عندما كان في الحبس والشكوى

---

[582] العُذيق المُرَجَّبُ، تصغيراً لعَذْق النخلة وهو تصغير تعظيم

[583] الشَرْيُ، بالتسكين: الحَنظَلُ وكل شيء مر، والأري عسل النحل، تَأري: تُعَسّل، وقد أرَتِ النّحلُ تأري أرْياً وتأرَّتْ وأتْرَتْ: العَسَل. وأراد الصابي انه يتجرع المر كأنه عسل أملا بانه سوف تحلو نتائجه. عَمِلَت

منه ومن قلة الوصل أحيانا أو من الزمن والمرض. ولأن مدة حبسه كانت طويلة فقد كتب الكثير من الرسائل والقصائد من الحبس أيضا.

فكتب واصفا محبسه:

كتبتُ أقيك السّوء مِن محبسٍ ضنك وعين عَــدُوي رحمةً منـــه لي تبكـي

وقـــد ملكتني كفُّ قـطٍّ مسلّطٍ قليـــل التقى ضـارٍ على الفتك والإفكِ

صَليــــتُ بنـــار الهم فـازددتُ صفـوةً كذا الذهبُ الإبريز يصفو على السبكِ

وكتب إلى قاضي القضاة أبي محمد بن معروف، وقد كان زاره في معتقله رقعة وأرفق معها هذه الأبيات التي يظهر بها فضل الزيارة وبيان صعوبة الحال في الحبس:

دخلتَ حاكم حُكام الزمان على صنيعةٍ لك رَهنَ الحبس مُمتَحنِ

أخنَتْ عليـــه خطوبٌ جار جائرها حتى توفـــاه طولَ الهمّ والحـزنِ

فعـــاش من كلماتٍ منك كُنَّ لـه كالروح عائــدة منه إلى البـدن

وحين حبس الصابي وتمت مصادرة ممتلكاته قال في مستخرج[584] المال الذي كلف بذلك حيث رأى منه رفقا بحاله ومحاباة:

للـــه دَرُّ أبـــي محمـــد الـذي ضَمِنَتْ إساءتـــه بنـــا إحسانا

طُويت جوانحه علـى خيـــريّـــة مكتومة تبـــدو لنـــا أحيانـــا

حُرٌّ تكلف غير مـــا في طبعـــه من قسوة تكسو العزيـز هَوانا

عكسَ النفاق لنا، فأخفى باطنـاً حسناً وأظهر ضـــدّه إعـــلانا

وله خِلالَ العَسف رفـــقٌ ربمـــا يغشى الضعيف الرازح الحيـرانا

مُستخرج للمال مضطر إلى اسـ ـتعمال ما يـــرضى به السلطانا

مُتلطفٌ في فَقرِنـــا ولـــو أنـــه وَجدَ السبيلَ إلى الغنى أغنـــانا

يتطرقُ الأستـــارَ لا عـــن نيـــةٍ ولو استطاع لها الصيانــة صانا

متوعِّر الجنبات في استخراجـه وإذا تعـــطّفَ للفتـــوّةِ لانــــا

فتـــراهُ في ديوانـــه مُستـأسداً ليثـــاً وفي خلواتـــه إنسانـــاً

رجـــلٌ يؤدّبنـــا ونحنُ مَشايخٌ مثل المعلم يضـــربُ الصبيانـــا

---

[584] ربما كان هذا المستخرج هو القاضي أبو محمد بن معروف لأن كنيته ترد في أول بيت من القصيدة

عدنا وقد شبنا إلى حال الصّبا في مكتبٍ يستشهد الولدانا
نهواهُ علماً أنه خير لنا مِن غيرهِ أن قُلّدَ الديوانا
عجباً له إذ هذهِ آثاره فينا وهذا شكرنا وثنانا
فالله يحفظه علينا راضياً ويعيذنا من بأسهِ غَضبانا

وكتب الصابي من الحبس معاتبا الوزير بن بقيه وحثه على استخلاصه منه فقال:

ألا يا نصير الدين والدولة الذي رددت إليها العز، إذ فات رده
أيعجزك استخلاص عبدك بعد ما تخلصت مولاك الذي أنت عبده؟

ومرت على الصابي فترة طارده فيها عز الدولة البويهي فاستتر حتى حصل على الأمان الذي لم يدم طويلا حيث سجن بعد ذلك، فكتب وهو في الاستتار بأبلغ ما يصور حالة الخوف والرعب وبشكل واقعي:

ليس لي منجدٌ على ما أقاسي من كروبي سِوى العليم السميع
دَفتري مؤنسي وفكري سَميري ويدي خادمي وحلمي ضجيعي
ولساني سيفي وبطشي قريضي ودواتي عيني ودَرجي ربيعي
أتعاطى شجاعة أدّعيها في القوافي لقلبيَ المصدوع
بمقالٍ أعزَّ من ليث غاب وفعالٍ أذلّ من يربوع
كلما هرّ في جواريَ هِرٌّ كاد يفضي إلى فؤادي المروع
وإذا اجتازَ في السطوحِ فمِن قَبـ ـل قبوع الجُرذان منهُ قبوعي

وكتب شاكيا في بعض نكباته:

أما ترينَ الخطوبَ استوعَبَتْ نفسي وأوثقتني رَهيناً بين أشراكِ
ولم تدعْ لي سوى نفسٍ مُعذبةٍ موقوفةٍ بين إرسالٍ وإمساكِ
ومنطقٍ خافتٍ عن سَمعِ سامِعهِ شاكٍ ومستعبرٍ من ناظرٍ باكي
اللهُ يَعلَمُ أني ما أحسُّ بها إذا تداركتَ أن اللهَ أبقاكِ

وكتب من الحبس الى صديق له وقد وصلت شكواه حد تمني الموت:

نفسي فداؤك غير مُعتدٍّ بها إذ قد مَلِلتُ حياتها وبقاءها
ولو أنّ لي مالاً سواها لم أكن أرضى لنفسكَ أن تكون إزاءها

لكن صفرتُ فلم أجد إلاّ التي　　قد آن لي أن أستطيل ذَماءها

فإذا شكرت لمن فداك فإنّني　　لك شاكرٌ أن قد قَبلت فداءها

وكأنني المفديُّ حين أرحتني　　من نائبات ما أطيق لقاءها

وتبرز حالة الصابي الصعبة في الحبس من خلال ما يكتب متمنيا الموت على حياة ذليلة، يقول:

إذا لم يكُن للمرء بُدٌّ منّ الردى　　فأسهله ما جاء والعيشُ أنكدُ

وأصعبه ما جاءه وَهوَ راتعٌ　　تطيف به اللذات والحظُ مُسعدُ

فإن أكُ شرَّ العيشتين أعيشها　　فإني إلى خير المَماتين أقصدُ

وسيّانِ يوما شقوةٍ وسعادةٍ　　إذا كان غباً واحداً لهما الغدُ[585]

ويكتب واصفا وشاكيا حاله وما آلت إليه بعد ما كان يكتب وبعد مجلس الخلان فيقول:

هجرتُ دواتي بعدَ تصريف حلّيها　　وواصلتُ كالورّاق قارورة الحِبرِ

وعاشرتُ من دون الأخلاء دفتراً　　يحدّث عما مرّ في سالف الدهرِ

فَطوراً يُسلّيني التعلل بالمُنى　　وطوراً يكون الموتُ مني على ذُكْرِ

وكتب من الحبس الى عضد الدولة مستغلا زيارة الأخير الى مزار الإمام علي في مدينة الكوفة مستهلا القصيدة بالتهنئة بالزيارة مضمنا إياها شكوى حاله بعتب رقيق واستمالة النظر لهذه الحال ، ذلك أن قرار صلاح الحال وبؤسه مرهون بكلمة من عضد الدولة، فكانت القصيدة من الطول والشمول و العذوبة فيما يرق لها من يسمع. قال:

تَوَجهتَ نحو المشهدِ العَلَمِ الفَردِ　　على اليُمنِ والتوفيق والطائرِ السَعدِ

تزورُ أمير المؤمنين فيالـه　　ويالك من مجدٍ منخ على مجدِ

فلم يرَ فوقَ الأرضِ مِثلُك زائراً　　ولا تحتها مثل المَزور إلى اللحدِ

مددتَ إلى كوفان عارضَ نعمةٍ　　يصوب بلا برقٍ، يروع بلا رعدِ

وتابعت أهليها ندىً بمثوبةٍ　　فَرُحتَ إلى فوزٍ، وراحوا إلى رِفدِ

---

[585] الغب: آخر الأمر وعاقبته

أمـــولاي، مـــولاك الـذي أنت ربــه
إليـك على جـور النـــوائبِ يستـعدي

وهـــذي يـــدي مُدَّتْ إليــك بقصةٍ
أعيــذك فيهـــا من إبـــاء ومـــن ردٍّ

أتـــاني شتـــاءٌ ليس عنـــدي دِثارهُ
ســوى لوعـــةٍ في الصّدر مشبوبة الوَقـــدِ

فلـــو أن بَرد الجلـــد عاد إلى الحَشا
وفـــارَ الحشا الحـران مني على الجِلـدِ

أزيـحتُ لنفسي عِتّــاها فـأعـرضتُ
عن البث والشكوى إلى الشكر والحمد[586]

وداويـــتَ داءيَّ الـنـقـضــينِ ذا بـــذا
أعـــدّل إفراطـاً مِن الضـِّــدِّ بـالضـــدِّ

ولكنيَ أستبطـــنُ الحر كُربَـــةً
وأستظهــــرُ الضـّــرَ الشديد من البـرد

وكم تثبــتُ الحـــوباء في شبحٍ به
جـــروح دَوام من مناحســـة النـــكد

أليمـــاتُ وقــــعٍ لو تكون بيـذبل
تضعضـــع ركنـــاه تضعضع مُنهدِّ[587]

فلولا رجـــاءٌ ملء أرجـــاء أضلعـي
وعلـــمٌ يقـــينٌ بالرعايـــة والعهـد

وأنّ نسيـــمَ الانعطافِ تَهـبُّ لـــي
هبـــوبَ نسيم النـــرجسِ الغَضّ والورد

قضيتُ بإحـــداهُـــن نحبيَ حَسـرةً
ولو كان لي قلب مِــــن الحجر الصلدِ

وَهَبْني قـــد حُمّلتـــها فأطقتهــــا
إطاقـــةَ صلب العــودِ مُصطبـــرٍ جَلْدِ

فمَـــن لي بصبــــرٍ عن جَبينك لامعاً
إذا شيـــمَ ما بين السماطين من بعـــد

بَـــراني بَريَ القِـــدح شـــوقٌ مُبـرحٌ
إليــــهِ ووجدٌ جلّ عن صفــــةِ الوَجـد

إذا أبصـــــرتْ عَيناي خـــداً معفراً
لديـــكَ نقلتُ التُـــرب منه إلى خدي

وإن سَمِعَتْ أذنــــاي عنــــك مُحدثــاً
لَهجتْ بتكريـــر الحديث الذي يبـــدي

فذكراك جَهـــري حين يطرق زائري
ونجواك ســـري حين أخلو بهـــا وحـدي

فلا تبعُـــدني عنــــك مـــن أجلِ عَثرةٍ
فـــإن جيـــادَ الخيـــل تعثرُ إذ تخـدي

ولو كنتَ تنفي كُلّ مَن جاء مُخطئاً
إذاً لعممـــتَ النـــاس بالنفـي والطـــردِ

ومـــن زَلّ يومـــاً زلـــةً فاستقالهـــا
فـــذاك حقيـــقٌ بالهدايـــة والرشـد

وليْ عنـــدَ مـــولانا وديعـــةَ حرمةٍ
وشـكـر أياديـــه وديعتـــهُ عنـــدي

---

[586] عتاها: شدتاها

[587] اليذبل: الشديد القوي

فـإن عشتُ كانت عـدتي وذخيرتي　　وإن لم أعـش فهـي التـراث لمن بعدي

تـوالتْ سنـيٌّ أربـعٌ ومـدامعـي　　لها أربـع كالسلك سُـلّ من العقـد

أحـومُ إلى رؤيـاك كيمـا أنالها　　حيـامَ العطـاش الناظرات إلى الـوردِ

فيـا أيها المـولى الذي اشتاقَ عبدهُ　　إليه أمـا تشتـاق يومـاً إلى العبد؟

فإن كان لـم يبلغْ إلى رتبـة الرّضا　　فَبلّغـهُ فيمـا قبلهـا رتبـةَ الوعـد

وَمُـر أمـرك العالي بتغييـرِ حالهِ　　وتخفيفِ ما يلقى مـن البؤس والجهـد

لعلكَ تـرضى عـودةً بعـدَ بـدأةٍ　　فيغـدو بـوجهٍ أبيـضٍ بعـد مسـودٍّ

فقـد يجبـرُ العظمُ الكسيرُ وربما　　تـزايدَ بعـد الجبـر شـدّةَ مشتـدٌ

وكتب من الحبس مادحا الوزير المطهر لما قدمه له من حنو ومتابعة فقال:

لساني في نشـرِ المدائح مطلـقُ　　وسـاقي في قبرِ المحابسِ موثقُ

وحلمك يأبى الجمع ما بين ذا وذا　　فحتى متى بين الفريقين أفرق؟

وكتب الى ابن عمه أبي العلاء صاعد بن ثابت يعتب عليه في قلة السؤال ومتابعة الحال في السجن. وقد أبدع الصابي في تصوير الحال بأنه وابن عمه نسران لكنه قد وقع في السجن وعلى الأخ أن يخشى ويتابع ويطالع:

أيهـا السيـد قـد كنـ　　ـت إلى الوصل تسـارع

وتـراعيـنـا ببـرٍ　　مُتـوالٍ مُتتـابـع

فلمـاذا قـد تسـربلـ　　ـت لنا سربـالَ قاطع

نحن كالنسرين في الصحـ　　ـبة، لكنّي واقـع

وعلـى الطائـرِ أن يغشـ　　ـى أخـاهُ ويُطالـع

وعتب واشتكى من دهره وما آلت إليه حاله، ومع ذلك فهو يصر على الثبات والجَلد ولا يفقد الأمل بالفرج بعد كل شدة فيقول:

كأنّ الدهر من صبري مغيظٌ　　فليس تَغبنُّي منـه الخطوبُ

يحـاول أن تلين لـه قنـاتي　　ويـأبى ذلك العُـودُ الصليب

ألاقـي كل معضلـة نـآدٍ　　بوجـه لا يغيره القطوبُ[588]

[588] الإدّ، بكسر الهمزة: الشدّة

وأعتنــقُ العظيمـةَ إن عرتنـي كأنْ قـد زارني منها حبيبُ

وبين جـوارحي قـلبٌ كـريمٌ تعجَّبُ من تماسكه القلوبُ

تلوحُ نواجذي والكأس شربي وأشربهـا كأنّي مُستطيب

ففـوقَ السرّ لي جَهرٌ ضحوك وتحتَ الجهر لي سرٌّ كئيب

سأثبتُ إن يصـادمني زمانـي برُكنيهِ كما ثبتَ النجيبُ

وأرقبُ ما تجيءُ بـه الليـالي ففي أثنائـه الفـرجُ القريبُ

وصوّر حاله في أيام عزه وكثرة ماله وضياعه، ثم ما آلت إليه بعد النكبات. والبيت الأخير مما يستشهد به لحكمته وبلاغته:

قد كنتُ أعجبُ من مالي وكثرتـه وكيف تغفل عنـه حِرفـة الأدبِ

حتى انثنتْ وهي كالغضبى تلاحظني شَزراً فلم تبق لي شيئاً من النشب[589]

فاستيقنـت أنّهـا كانت على غلطٍ فاستدركَتهُ وأفضتْ بي إلى الحربِ

الضَّبُ والنـون قـد يُرجى التقاؤهما وليسَ يُرجى التقاء اللُّبِ والذهب[590]

وقال وهو يذم دهره وما أصابه فيه:

قاسيتُ من دهري سفيهاً ما إن رأيتُ لـه شبيهاً

ثبَتتْ نصـالُ سهامـهِ في ثغـرةٍ لي تنتحيها

فكأنني استقبلتـه بمقـاتِلي إذ أتّقيها

وأبرز ما يظهر سوء الحظ في أبياته التي سارت على الألسن في بيان التمييز في ما يمكن أن يقوده الحظ وما تؤهله الحذاقة في الصنعة أيا كانت فقال:

إذا جَمعـتْ بين امرأيـن صناعةٌ وأحببتَ أن تـدري الذي هو أحذقُ

فلا تتفقـد منهما غيـرَ ما جَرتْ بـهِ لهمـا الأرزاقُ حين تُفـرّق

فحيثُ يكون النقصُ فالرزق واسعٌ وحيثُ يكون الفضلُ فالرزقُ ضيّقُ

---

[589] النشب: كل ما يمتلكه الفرد

[590] الضبّ حيوان صغير لا يعيش إلا في الصحراء، والنون هو الحوت، والقصد أن هذين الحيوانين على الرغم من شدة تباعد بيئتهما وإستحالة إلتقائهما إلا أنهما يمكن أن يلتقيا سوى إلتقاء اللب (العقل) والمال.

مما قال في الأبنـــاء

لقد كان الصابي براً بوالديه، بل وفي كل أبناء ملته. كيف لا وقد وصفه القاضي بن قريع بشيخ الصابئة! وكان حريصا كل الحرص على أتباع هذه الملة ولذلك نراه يعتذر عن مرافقة عضد الدولة في الذهاب إلى خراسان، وكذلك يعتذر الى الصاحب بن عباد في أن يلتحق به ويكون كاتبه في وزارته بخراسان أيضا وقال له ضمن ما قال:

كثرت عوائقي التى تعتاقني　　　من غيث راحته الملث الساكبِ

ولِـــدٌ لهم ولِـــدٌ وبطـــنٌ ثالث　　　هـــو رابعي وعشيـرتي وأقاربي

وكان ذلك بأساب الرعايـــة والمسؤولية التي يدركها إزاء أسرته الكبيرة وأتباع ملته. ونراه قد وثق ذلك في كتاباته وكذلك في مقطوعات شعرية إن كاملة أو أبيات مـــن قصائده الموجهة للآخرين.

فمن قوله واصفا معنى الأسرة وقيمتها يقول:

أســرةُ المرءِ والـــداهُ وفيمـــا　　　بينَ حُضنيهما الحياة تطيبُ

فإذا ما طواهما الموتُ عنـــه　　　فهو في الناسِ أجنبيٌّ غريـبُ

وقال معاتبا ابنه سنان وقد خالط عتبه بالخشية من الغضب لأنه يدرك أن في غضبه عليه غضب الله أيضا يقول:

أرضى على ابني إذا ما عَقني حَـــذراً　　　عليه أن يغضبَ الرَّحمنُ من غضبي

ولستُ أدري بم إستحققتُ من وَلدي　　　إقذاءَ عيني وقد أقْرَرتُ عينَ أبـــي؟

وقد رأى ولدا مترعرعا ناشئا لولده المحسن فقال:

أبـــو عليٍ مُحسنٌ كَبـــدي　　　وقد نَشأ مِن فتاه لي خِلْبُ

كأنَّ هـــذا وذاكَ إذ نُسبا　　　مِنّي سَوادٌ يَضمّـــه قَلبُ

لازلتُ ألقى الخطوبَ دونهما　　　حَتّى كأنّي عليهـا حُجْبُ

وكان الصابي حريصـــا لأن يرتقي أبناؤه المراتب والأعمال الكبار ويستخدم جاهه في قبولهم. نقرأ ذلك فيمـــا كتب لبعض الرؤساء لإجـراء الرزق لبعض ولـــده وقـــد أجاد

تماما في التعبير البليغ أن يكون ولده زرعه وحيث شاب هو فإن من ينوب عنه هو هذه الأغصان التي هي منه:

وما أنا إلاّ دَوحة قد غَرستها وسقيتها حتى تَراخى بها المَدى

فلما أقشَعَّر الجِلد منها وصَوحَتْ أتتك بأغصانٍ لها تطلبُ النَدى

وفي نفس المعنى والغرض يكتب:

بعثتُ إليك إبني وبالله إنهُ لأحلى مِنَ النَفسِ المُقيمة في جَنبي

وهل أنا إلا نُسخةٌ هي أصلُه وهل هو إلا كالمُحرَّر في الكُتبِ

وفي النسخةِ السوداءِ ما أنتَ عارفٌ مِن المَحوِ والإصلاحِ والحكّ والضرب

وهذا الذي يُرضيك مَرأىً ومَخبراً ويمضي مَضاءَ السَّهمِ والصارم العَضب

وشَتّانَ بين العودِ أيبسَ وانحنى وبينَ النباتِ الغَضِّ والغُصُن الرَّطبِ

فَدونك فاقبلهُ وَثِقْ مِنهُ بالذي يُراد من العبدِ المُناصحِ للربِّ

وَجَرِّدهُ من غِمدِ التَّقبُضِ باسطاً وَجَرِّبهُ فالتَجريبُ عَن رُشدهِ يُنبي

وكتب للصابي ولده المحسن يؤاسيه في مالٍ ذهب على أثر إحدى النكبات قائلاً:

لا تأسَ للمال إنْ غالتهُ غائِلةٌ ففي حياتك مِن فقد اللُّهى عِوضُ

إذ أنتَ جَوهرُنا الأعلى وما جَمعَتْ يداك مِن تالدٍ أو طارفٍ عَرَضُ

فأجابه والده بهذه الأبيات التي تظهر المحبة والحنو حتى يصف نفسه بأنه صدف لأبنه مشبها إياه بالدُّرة:

يا درّةً أنا مِن دون الردى صَدفُ لها أقيها المَنايا حين تَعترِضُ

قد قلتُ للدهرِ قولاً كانَ مَصدره عن نيّةٍ لم يَشُبْ إخلاصها مَرض

دع المُحسن يحيا فهو جَوهرة جَواهِرُ الأرضِ طراً عندها عَرَضُ

فالنفسُ لي عوضٌ عمّا أصبتُ به وإن أصبتُ بنفسي فهوَ لي عوض

اتركهُ لي وأخاهُ ثم خُذ سَلبي ومُهجَتي فَهُما مَغزايَ والغَرَضُ

ومن أجمل ما كتب الصابي من الحبس مخاطبا عضد الدولة يرققه لحاله. ويُذكر أنه ما رق عضد الدولة لشيء أكثر من قصيدة الصابي القافية والتي كتبها يهنئه بولده وزهوه بهم وتجمّعهم حوله وهو الملك الذي يظللهم، ثم أدخل حاله ضمن هذا

الوصف بالمقابل في خلو ولده هو من أي ظل. قيل فما رققه شيء كهذه القصيدة التي مطلعها[591]:

تمتع بصفو العيش غير مرنقِ   وصل مَصبَحاً منه هنيا بمغبقِ

ومنها يقول:

وإنك في أفـــق السعـــادة صاعد   إلى ذروة لم يرقها قط مرتـــقِ
عطية دور الشمس عمرك مضعف   وأفضلُ مما مر منه الذي بقي

حتى يغالي في المدح فيقول:

أسيد أهلِ الأرض من بين ما مضى   ومن هو آت لا أحاشـي وأتقـي

ويدغدغ الصابي مشاعر عضد الدولة بمناغمة الأبوة فيه ورعاية الأسرة فيقول:

أجلْ في البنين الزهرُ طَرفك إنهـــم   حَـــووا كل مَرأى للأحبةِ مُؤنــقِ
وتَمتْ لكَ النُعمى بقربِ كبيرهــم   فأهلاً بــه من طــارقٍ خير مُطرقِ
مُـــوال لنا مثل النجـــومِ مَطيفـة   بمَولى مُوال منك كالبدرِ مشـرق
وقـد ضَمهم شَمــلٌ لديك مُؤلــفٌ   فـأرثِ لِذي الشَّملِ الشتيتِ المُفَرَّقِ
وإنْ كنتَ يومــاً عَنهــمُ مُتَصدِّقاً   فَمَن مثـل ما خَوَّلتَ فيهم تَصدق
فلي مقلــةٌ تَقـــذى إذا ما مَددتُها   على حلـةٍ مِمَـــن أعـــولُ ودورق
إنـــاثٌ وذكرانٌ أبيتُ مـــن أجلهم   على كَمــدٍ بين الحجابينِ مُقلق
رسائِلهـــم تـــأتي بما يَلدغُ الحَشا   ويصـــدَعُ قلبَ النـــازعِ المتـــشوقِ
فباكيـــةٌ تَرثي أباهـــا ولَمْ يَمُتْ   وبائنـــةٌ مـــن بَعلها لـــمْ تُطلّـــق
زغـــبٌ مِنَ الأطفـــالِ أبنـاءُ مَنـزلٍ   شـــواردٌ عَنهُ كالقِطا المتمـــزق
إذا حَرقـــوا قلبي بنجـواهم انثَنَتْ   عَـداكَ تُناجيني فتطفـي تَحَرُّقي
شَهـدتُ لئن أنكرتُ أنَّك صِنتني   ولـــم أرعَ ما أولَيتنـــي مِن تَرَفق
لقد ضيَّع المعروفُ عندي وأصبحتْ   ودائِعـــهُ مَودوعـةً عنـــدَ أحمَقِ
وحَبسُكَ لي جـــاهٌ عَريضٌ ورفعـــةٌ   وقيـــدُك في ساقي تـــاجٌ لِمفرقي

---

[591] وردت القصيدة كاملة في مخطوطة المحمل لأبن فارس، وأورد ياقوت الحموي 20 بيتا منها في كتابه معجم الأدباء.

وما مُـــوثقٌ لـــم تطرحـــه بمُوثقٍ ولا مُطلـقٌ لم تصطنعـهُ بمُطلق

خَــلا أن أعــواماً كمُلن ثلاثـةٌ تَعَــرَّقتْ البَقيّــا أشَــدَّ تَعَـرُّقِ

وقـد ظَمِئتْ عيني التي أنتَ نُورها إلى نظــرةٍ مِـن وَجهك المُتـألِّـق

فيـا فَرحتي إن ألقِــهِ قبلَ ميتتـي ويا حَسرتي إن مُتُّ مِن قَبلُ نلتقي

خَدمتُــك مُذ عُشرونَ عاماً مُوفقاً فَهَبْ ليّ يومــاً واحـــداً لم أوفَقِ

فإنْ يَــكُ ذنبٌ ضاقَ عندي عُذرُهُ فَعِنــدَك عَفــوٌ واسعٌ غيرُ ضَيّقِ

مما قال في المرض والشيب والكبر

شكى الصابي الزمان فيما أحوجه وما أصابه من القنوط واليأس والمرض، وكتب في هذا نثرا وشعرا، وقد حفظت لنا بعض المصادر أبياتا ومقطوعات من أشعاره، وهي في الوقت الذي توقفنا فيه على حال الصابي فإنها صارت مدار استرسال وذكر في المجالس يستشهد بها لمعانيها الجزلة ودقة تعبيراتها وتصويراتها الشعرية، ذلك أن الشاعر ينفس فيها عن مكاربه وما يعاني ، وهو بهذا يتطابق مع الكثير من البشر الذين يجدون في مثل هذا النوع من الشكوى تعبيرا عن معاناتهم فيتلقفونها ويلهجون بها بيانا أو راحة وسلوى.

فقال يشكو الزمن في آخر أيام عمره:

عجبــاً لحظي إذ أراه مصــــالحي عصر الشباب، وفي المشيب مغاضبي

أمِــنَ الغواني كان حتــى ملّنــي شيخاً وكان على صباي مصاحبي؟

أمــعَ التضعضــعِ ملّنــي متجنّباً ومَــع الترعرعِ كان غيــتر مجانبي

يا ليــتَ صبوتـــهُ إليّ تــأخرتْ حتــى تكون ذخيــرةً لعواقبـــي

ويمقت الصابي الشيب ولا يرى فيه عزاً فيقول:

يقولُ الناسُ لي: في الشيبِ عزٌ يَــزيدُ به جَلالُ المرء ضعفـا

ولـــولا أنــــه ذلٌّ وهـــــونٌ لما احتَكَمَ المزينُ فيه نتفـا

وقال فيه أيضا وقد بين الأمر بشكل طريف والطرافة سمة معهودة لدى الصابي[592]:

خَضَبْتُ مشيبي للتعلقِ بالصبا ... وأوهمتُ من أهواهُ أني لم أشبْ

فلما ادّعى مني العَذار شَبيبةً ... إذا صلعي قد صاحَ من فوقه كذب

فكم طُرةً طارتْ ودانتْ ذوائبٌ ... وكم وجنةً حالت وماءٌ بها نَضب

شواهدٌ بالتزوير يحوين ربها ... فهجرانه عند الأحبة قد وَجَبْ

ومن شعره في صبغ الشيب، وفيه ظرافة القول بأنه يسخم وجه المشيب قال:

رأتني أُميّزُ خَلطَ الخضابِ ... وأقسّمُ أجزاءَه بالقضيبِ

فقالت: أبنْ لي ماذا تريدُ ... بقسمةِ هذا السّوادِ العجيب؟

فقلت: فَديتُكِ ماءَ الشّبابِ ... وعَزمي أُسخّمُ وَجهَ المَشيبِ

وذم الصلع حيث صار الصابي أصلع العارض والمفرق فقال:

لقد أخلَقَتْ جِدّتي الحادثاتُ ... ومن عاش في رَيبها يخلقِ

وبَدّلَتني صَلَعاً شاملاً ... مِن الشعر الفاحم الأغسقِ

وقد كنتُ أصلعَ من عارضي ... فقد صرتُ أصلعَ من مفرقي

وقال وأظرف في حساب المزين حيث الشعر قليل:

لمّا دهتني السنونُ بالصّلعِ ... وقلَّ مالي وضاقَ مُتّسعي

حاسبت عن لمّتي مزينها ... حسابَ شيخٍ للحزم مُتبعِ[593]

قلتُ له: اقنع عن قسط نابتها ... بالرّيع ممّا به عملتَ معي

واعملْ على أنها مُزارعةٌ ... شكوت فيها شكاةَ متّضعِ

فاحطُطْ خَراجَ الذي أصبتَ به ... واستوفِ منّي خَراج مزدرع

ويبدو أن الصابي قد أصيب في آخر أيام حياته بمرض المفاصل فصار لا يقوى على الحركة ولا الكتابة. ويروى أنه كان جالسا يوما في مجلسه وحوله الكثير من الأبناء والأدباء، وطلب دواته للكتابة فاستبشر الحاضرون أن يروا الصابي يكتب، لكنه حاول فلم يستطع فدفعها وقال وقد أحسن في البيت الأخير حتى ذهب مثلا:

---

[592] ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة

[593] اللِّمّةُ من شعر الرأس: دون الجُمّة، سمّيت بذلك لأنها أَلَمّت بالمنكبين، فإذا زادت فهي الجُمّة

وجــعُ المفاصلِ وهو أيــ ـسرُ مـا لَقِيتُ من الأذى
جَعلَ الذي استَحسَنتُـهُ واليأسُ من حَظي كذا
والعُمرُ مثلُ الكأسِ ير سِبُ في أواخـــرِهِ القَذى

وكتب عن ضعف النظر بسبب الكبر فقال:

قد كنت للحدة من نـاظري أرى السّهى في الليلةِ المقمره
الآن ما أبصـــرُ بدر الدجى إلا بعين تشتكي الشّبكره
لأنني أنظـــرُ منهـــا وقـــد غيَّرَ مني الدهـرُ مـا غيـــره
ومَن طوى الستينَ من عمـره رأى أموراً فيــه مُستنكـره
وإن تخطاهـــا رأى بَعدهـــا من حادثات الدَّهر ما عيّره

وكتب للشريف الرضي يبين اعتذاره ويصف له حاله بأبلغ صورة عن تأثيـــر المرض الذي ألم به وبخاصة وجع المفاصل الذي أعاق حركته، وقد مر بنا ذلك لكننا نثبته هنا ضمن مجال شعره في المرض، فقال:

قد كنتُ أخطو فَصرتُ أمطو وزادَ ضَعفي فَصرتُ أعطُو[594]
خَانتْ عُهـــودُ يَـــدي وَرجلي فليـسَ خطــوٌ وليس خـــطُ
كَلٌ علـــى كُلٌ مــن يَلينــي أُشـــال كـالثُقلِ أو أحـــطُ
وســـوف أفضـــي إلـى أوان عَليَّ فيـــه الحِمـامُ يسطو[595]
فللمنـــايـــا إلـــيَّ قـــربٌ وللأمـــاني نـــوىً تشـــطُّ
وللّـــذي أتّقيــــهِ وَشـــكٌ وللّـــذي أرتَجيـــه شَحـــطُ
مثـــلُ الغريمـــين: ذا مُلِـــحٌ فَـظُ التقـــاضي، وذا مُلـــطٌّ
هاتيـــك حالي فهـلْ لعُـــذري إذا تـــأخرتْ عنـــكَ بَســـطُ

وحين يعتذر للشريف الرضي عن عدم إمكانية زيارته فإنما السبب هو المرض والكبر، يقول:

أقعدتنـــا زَمانـــةٌ وزمـــانُ عائـــقٌ من قضاءِ حَقِ الشَّريفِ[596]

---

[594] أمطو: يمشي كالمطية أي على الأربع، أعطو: أستحق العطية

[595] الحِمامُ، بالكسر: قضاء الموت وقَدَرُه

[596] الزمانة: المرض

ولئـــن ثَقُــلا عن الخِدمةِ الخَطـ ـوَ لَعَــنْ خاطــرٍ إليهـــا خفيــفِ
فاقتَصرنا فيمـــا نُـؤدي مِن الفَر ض على الكُتبِ والرَّسولِ الحصيفِ
والفتى ذو الشبابِ يَبسطُ في التَق ـصير عُذرَ الشيخ العَليل الضَّعيـفِ

فأجابه الشريف الرضي على هذه المقطوعة لأنها أثرت به وحركت مشاعره ، وامتد الكلام به فجاء الجواب قصيدة طويلة بلغ عدد أبياتها 53 بيتا مدح فيها الصابي أيما مدح وقال فيه خير المقال وصدق في المشاعر غاية الصدق فكانت قصيدة معبرة بحق نثبتها كلها توثيقا وبياناً:

كـم ذَميـلٍ إليــكم وَوَجيـــفِ وصُـــدودٍ عنّـــا لكم وصـدوفِ
وغـــرامٍ بــكُم لـــو أن غـــراما جَرّض نفعـا للواجـد المشغـــوفِ
صبـــوَةً ثـــم خلـوةً ما أضـــرَّ الـ ـحُـبُّ في كل خَلــوةٍ بالعفيـــف
هَجَـــرونا ولــم يـــلامـوا وواصلـ ـنا علـــة مُلـــمٍ مـــن التعنيـــفِ
وطلبنـــا الوفـــاء حتـــى إذا عـــزَّ رضيـــنـــا بالمَطْـــلِ والتســـويف
كيف يرجو الكثير من راضه الشو ق إلـــى أن رضى ببــذل الطفيـف
إن بـــين الحِمى الى جـــانب الرمـ ـلِ مَعـــاناً مـــن الظبـــاءِ الهيـــفِ
عاطيات بـــل عاطــــلاتٍ وما أغـ ـنى الدُّمـــى عـــن قلائدٍ وشُنـوفِ
عارضتك الحُـــدوجُ بالجزع يُحديـ ـنَ بغـــرٌ أيمانهـــم في السيوف[597]
سائلات الرِّفـــاق أين مصـــابُ الـ ـمُـزن من جَـــوٍّ مـــريعٍ ومصيـف
وبـــدورٍ يلُـــطُّ مـــن دونهـــا النقـ ـعُ ولا يكتفـــى بلطِ السجــوفِ
بَعُـــدت شُقـــةُ الـوصـــالِ إذا كا نَ بخـــوضِ القَنـا وخَرق الصفوف
ووراءَ الغبـــيـــط من ذلـــك السِّـــر بِ أحـــمٌ مُبـــرقَـــعٌ بالنصيـــفِ
مانـــعٌ لا يجـــودُ بالنيـــل ممنـــو عٌ بِـــرزٍ مـــن القنـا وحفيـــفِ
مِن إقاحٍ غُمِسنَ في البـــارد العَـــذ بِ طويـــلا ومن قضيبٍ قضيـفِ
مـــوردٌ ينـقـــعُ الغليـــل ويـــزدا دُ صفـــاءً على طُـــروق الـرشيف

597 الحُدوج: الأحمال

كلُّ سـوم وداعُ ركـبٍ عِجـالِ بالنـوى أو عنـاءُ ركبٍ وقوفِ
فكثيـرٌ الى الحمُـول التفـاتي وطويـلٌ على الديـار وقـوفي
لا تـوُلِّ الأظعـانَ عينـا فما تَر جـعُ إلا بنـاظـرٍ مطـروفِ
ودعِ المَـرَّ بالـديـار فمـا يجـ ـدي علـى واقـفٍ ولا مـوقوف
واعـددِ الجيرةَ الحُضورَ إذا ضَنُّـ ـوا عِـداد النـائينَ عنك الخلـوف
شغـلَ الهمُّ أهلـه واستقلنـا الـ ـليـلَ من زورةِ الخيـال المطيـفِ
وضيـوفُ الهُموم مُـذ كُنَّ لا ينـ ـزلنَ إلا علـى العظيـم الشـريفِ
كالجناب المطـور يـزدحم الرو ادُ فيـه والمنـزلِ المـألـوف
لـم يُثقِّف عُودي الزمـانُ ولكن ضـجَّ عـود الزمـان من تثقيفي
قلت للدهـر يـومَ رامَ اختـداعي عن جناني الماضي ونفسي العَزوف
عُـد ذميما هُبلتَ واطلب لسمٍّ الذ لِ يـا دهـرُ غيـر هـذي الأنوف
لـم تُـوفِّ العشرين سني وإنَّ الـ ـحلم منـي على الجبـال لَمـوفِ
فيَّ معنـى المشيـبِ حلمـا وإن كا ن نهـوضي عن الصبـا وخفوفي
وإذا البـردُ كان في اليـد والعيـ ـن صنيعـا أغنى عـن التفويـف
هـزُّ عِطفي الى الأغـرِّ أبي إسـ ـحـاقَ وُدٌّ يلـوي إليـه صليـفي
ونـزاعٌ إليـه يهـفـو بلُبـي هفـوات المُصـرصـر الغطريف
كيف لا أغلبُ الزمـان وهـذا الـ ـندبُ يغـدو على الزمـان حليفي
كَلِمٌ كالنصـول هـذَّبهـا القيـ ـنُ ووجـه كالهـرقلي المشـوفِ
إن شكـواك لـلـزمان مُبـينٌ لي عـن قـدر عقلـه المضعوف
أيعـوم المجهـولُ فيـه ولا ينـ ـقَـعُ غُـلاٌّ للفاضـل المعـروف
قَدَّمتْ غيـرك الجـدودُ وأُخِّـر ت ولكن أنـافَ غيـرُ منيـف
والحظـوظُ البلهـاء من ذي الليالي أنكحت بنـت عامـر من ثقيـف
قصفَ الدهرُ فيك رمحا من الكيـ ـد وحـامى عـن الضعيف المؤوف
إنْ حُـرمتَ الـرزقَ الـذي نالَ منه فـدواءُ العيـي داءُ الحصيـف

عمـلٌ فاضـحٌ وأجمـل مـن بعـ	ـضِ الولايـات عُطلـةُ المصروف
فاصطبـر للخطوب رُبَّ اصطبـار	شـقَّ فجـراً في ليلهـن المخـوف
إنمـا نلبـسُ الـدروعَ ثـقـالاً	لـرُجـوعٍ الى خفـافِ الشفـوف
كم تحملتهـا بظهـر مـن الصَّبـ	ـر فخفَّت والعبءُ غيـرُ خفيـف
إنَّ أولـى بالصبـر إن جَرحَتـه	من حشـاهُ منهـا كثيرُ القروفِ
لـم تغب عن سـواد قلبي وإن غِبـ	ـتَ مُعنًّـى نـوائبٍ وصـروفِ
قَـرَّ عينـاً بطارقـات الشكايا	ما تجافـت مُطـرقاتُ الحُتـوف
أتُـرانا نطيـقُ دفعـا لمـا أعـ	ـيا صِـلالَ النقـا وأُسدَ الغريف
أُمهِـلَ الناقصونَ واستَعجـلَ الدهـ	ـرُ بسَـوقٍ للفـاضلين عنيـف
مَـن يكن فاضلاً يعش بين ذا النا	س بقـلبٍ جـوٍ وبـالٍ كسيف
كلما كان زائـدَ العقـل أمسى	ناقصـا من تليـده والطـريف
لا عجيـبٌ أنـي سبـقتُ وأعـرقـ	ـتُ جيـادَ المنثـور والمـرصـوف
أنتَ يـا فارس الكـلام تقـدَّمـ	ـتَ وخلَّيتَ لـي مكانَ الـرديفِ

كما كتب الصابي للشريف الرضي يمدحه ويشكو الزمان والمرض الذي أقعده في شهر رجب من عام 384 هجرية. ويبدو أن مطلع القصيدة قد فقد فقافية شطـر البيت الأول لا تماثل قافية العجـز كما هو الدأب. وتحمل القصيدة الكثير من المعاني وتؤشر العلاقة الحميمة التي ربطت بين الصابي والشريف الرضي والتي أهلت الطلب إليه أن يكون أمينا على عائلته من بعـده لما يعرفه فيه من شهامة وأصالة وطيب نسب وحفظ للود والشرف حتى لكأن القصيدة وصية من الصابي للرضي. يقول:

إذا ما تعـدّت بي وسـارت محفّـةٌ	لها أرجـلٌ يسْعى بهـا رَجُلانِ[598]
وما كنتُ من فرسانهـا غيـر أنها	وَفَت لي لمـا خانـت القدمـان
نـزلتُ إليهـا عن سَـراة حِصـان	بحُكم مشيبي أو فـراش حَصَان

[598] المِحَفَّةُ مَرْكَب كالهَوْدَجِ إلاّ أنّ الهودج يُقَبَّبُ والمِحَفَّةُ لا تُقَبَّبُ

فقد حَملت منّي ابن تسعينَ سالكاً ... سبيلاً عليها يسلكُ الثّقلان[599]

كما حَمَلَ المهدُ الصبيُّ وقبلها ... ذَعَرتُ ليوثَ الغيلِ بالنّزوانِ

ولي بعدها أخرى تسمى جنازةً ... جَنيبةَ يومٍ للمنيةِ دانِ

تسيرُ على أقدامٍ أربعةٍ إلى ... ديارِ البَلى مَعدُودُهنَّ ثمانِ

وإنّي على غيث الردى في جوانبي ... وما كفَّ من خطوي وبطش بناني

وإنْ لم يدعْ إلا فؤاداً مودعا ... به غُبَّرٌ باقٍ من الخفقان[600]

تَلوَّم تحت الحُجب ينفثُ حكمةً ... إلى أذنٍ تصغي لنُطق لسان

لأعلمُ أني ميّتٌ عاقَ دفنهُ ... ذماءٌ قليلٌ في غدرٍ هو فانِ

وإنَّ فماً للأرض غرثان حائماً ... يُراصدُ من أكلي حضورَ أوانِ

به شرهٌ عَمَّ الورى بفجائعٍ ... تَركن فلاناً ثاكلاً لفلان

غدَا فاغراً يشكو الطوى وهو رائعٌ ... فما تلتقي يوماً له الشفتان

وكيفَ وَحَدُّ القوتِ منه فناؤنا ... وما دونَ ذاك الحدِّ رَدُّ عَنان

إذا عاضنا بالنسل مِمَّن يغوله ... تلا أوّلاً منه بمهلكِ ثانِ

إلى ذاتِ يومٍ لا ترى الأرض وارثاً ... سوى الله من إنسٍ بَراه وجانِ

ألا أبلغا فرعاً نمتهُ عُروقهُ ... الى كلِ سامٍ للمفاخرِ بانِ

محمداً المحمودَ من آل أحمدٍ ... أبا كُلِّ بكر في العُلا وعَوان

أبا حَسَنٍ قطَّعتَ أحشاءَ حاسدٍ ... طواها على البغضاء والشنآن

يراك بحيثُ النجمُ تَصدَعُ قلبهُ ... بحدٍّ لسان أو بحدِّ سنان

جرى جاهداً والعفو منك يفوته ... فكان هجيناً طالباً لهجان

فأنت سماءٌ في الذؤابة صاعدٌ ... وذاك حضيضٌ في القرارة عانِ

أقيك الردى إني تنبّهتُ من كَرىً ... وسهوٍ على طول المدى اعتوراني

فأثبتُّ شخصاً دانياً كان خافياً ... على البُعد حتى صار نُصب عياني

---

[599] في بعض المصادر ابن سبعين وفي يتيمة الدهر ابن تسعين

[600] الغبر: الباقي، وغُبْرُ كل شيء: بقيَّته، والجمع أغبارٌ

هـو الأجلُ المحتـومُ لي جَـدَّ جَدّه   وكان يُـريني غَفلـةَ المُتـواني
له نـذرٌ قـد آذنتنـي بهجمـةٍ   لـه لَستُ منهـا آخـذاً بأمـان
ولا بـدَّ منـه مُمهـلاً ومُعاجلاً   سيـأتي فـلا يثنيـه عنّي ثـانِ
هنـالك فـاحفظ في بنـيّ أذمتي   وذُد عنهُـمُ روعـات كلِّ زمان
فإنـي أعتـدُّ المـوَّدةَ منك لـي   حُسـاماً بـه يقضون في الحدثان
ذخـرت لهم منـك السجـايا وإنّها   لأنفـعُ ممـا يَـدخرُ الأبـوان
وفـاءً ومـدّاً للجنـاح عليهـمُ   وضنّـاً بهم عـن مَسٍّ كل هوان
وحُـرمةَ أسـلافٍ كرامٍ حقوقهـا   ديـونٌ على الخِلّـينِ يصطحبان
وحظك منهـا حسبَ شأنك إنّـه   تَعـاظمَ قـدراً أن يُقـاسَ بثـانِ
وقـد ضَمـنَ اللهُ الجزاءَ لُمحسنٍ   وحسبك مِـن وافٍ وَفَى بضمـان
وهـذا قريضي وهـو هَمٌّ بعثتـهُ   إلى همّـةٍ عَـذراء ذاتِ بيـان
فكنتُ كمَن جارى جواداً بمقـرف   قوائِمُـهُ مشكولـةٌ بِجِـران
فإن لثمتنـي بالغبـار سَوابقـاً   قوافيـهِ من لفظٍ وحُسـنِ معانـي
فـلا عـارَ إن قصَّرتُ دون مُبـرِّزٍ   شـأى الناس قبلي سعيـهُ وشآني
وعُـذري إليـه خاطرٌ كَلَّ بعدما   ثـوى وهو ماضي الشفرتين يماني
كذا الدهرُ إمّا عاد ينقُضُ ما بَنـى   وإمـا بَنى مـا ينقُـضُ المَلـوان
وإن أخَّرتنـي اليومَ سـنٌّ تقـدَّمتْ   فقـد أسلفَتني حَـوْزَ كُلُّ رِهـان
ليالي طـارتْ بي عُقـابُ بَـلاغتي   وبَـذَّت بُغاثـا ما استطـاعَ يراني
أبابيـلُ جابـتْ دونَ إدراكِ غـايتي   على أنّهـا لم تـألُ في الطَّيـران

وقد أجاب الشريف الرضي على قصيدة الصابي بقصيدة طويلة أيضا بلغ عدد أبياتها 46 بيتا وقد فاضت بالمودة التي يترجمها مطلعها وفيها الاشادة بأبي إسحق وضمن الأخوة حتى يرى فيه أنه رضيعه في الصفاء، بل أنه يتمنى أن تكون لـه على الدهر إمـرة ليجود على الصابي بكل ما يعيد إليه الصحة وحمل ثقل الشيب والسن العالية.

وإذا أردنا شهادة حقيقية على قيمة الصابي وأحقيته في المدح فهذه شهادة العَلَم الشريف الرضي الذي يقول للصابي[601]:

ظَمائــي إلى مَن لَــو أرادَ سَقــانـي ... ودَيني على مَن لــو يشاءُ قَضــاني
ولو كانَ عنــدي مُعْســراً لعَذرتهُ ... ولكِنّــه وَهـــوَ المَليّ لـــواني
رَمــى مَقتلي واسترجعَ السّهمَ دامياً ... غـــزالٌ بنَجــلاوينِ تنتضـــلانِ
أأرجو شفــائي منــهُ وهو الذي جَنى ... على بَــدني داءَ الضَّنــا وشجاني
أبيتُ فلم استسـق من كان غُلّتي ... ولــم استرشْ من كانَ قبلُ براني
مــررتُ على تلك الديــارِ ووحشُهــا ... دوانٍ زمَــن يحـكين غيـــرُ دوانِ
فأنكرتْ العينــان والقــلبُ عارفٌ ... قليــلاً ولجّــا بعــدُ في الهمـــلان
عشيــة بلتنــي الدمــوعُ كأنمــا ... رداوى بُــردا مــاتــح خضـــلانِ
ضمــنَّ وصالي ثــم ماطلــن دونــهُ ... وإنَّ ضمــان البيض شــرُّ ضمـان
أمِنْك طُــروقُ الــزور أيــةَ ساعة ... وعيـــدُ خيــال عـــاد أيَّ أوانِ
ألــمَّ بعــوجٍ كالحنايــا مُناخــة ... على جــزع وادٍ ذي رُبى ومَحــاني
وميــلٍ كخيطــان الأراكِ ترنحـوا ... فمِـــن ذَقــنٍ مستقبــل بلبــان
ومالــوا على البوغاء من كل جانب ... عواطــفَ أيــدي نُــوَّمٍ ونُــوانِ
يعُــودُهــمُ منــي غُــلامٌ غشمشــمٌ ... مُعينٌ على البــأساء غيــرُ مُعــانِ
إذا إنفــرجت عنــه السجوفُ لناظرٍ ... تــألق نــورٌ مِــن أغــرُّ هِجـان
وإنـــي لآوي مِــن أعـــزُّ قبيلــةٍ ... الى نضــدٍ أو جــامل عكنـــانِ
وإن قعـــودي أرقبُ اليــومَ أو غـداً ... لعجـــزٌ فمــا الإبطــاء بالنهضـان
سأتــركُ في سمــع الزمـــانِ دويهــا ... بقــرعى ضِــرابٍ صـــادق وطعان
وأخصِبــفُ أخفاقــا بوقــع حوافــرٍ ... الى غايـــةٍ تقضي مُنــىً وأمــاني
فإن أســرِ فالعلياءُ هَمّي وإن أقِــم ... فإني على بكر المَكــارِم بــانـي
وإن أمضِ أترك كُلَّ حيّ من العِدى ... يَقُـــولُ ألا اللهِ نَفــسُ فَــلانِ

---

[601] سوف نعرض القصيدة في ضوء ما جاء في يتيمة الدهر وتحقيقها الذي ورد في كتاب رسائل الصابي والشريف الرضي

أكرِّرُ في الإخــوان عيناً صَحيحَةً | على أعــينٍ مــرضى مــنَ الشنآن
فلولا أبــوُ إسحــاق قــلَّ تشبثـي | بخــلٍ وضــربي عنــدهُ بجِــران
هــوَ اللافتي عَن ذا الزمــان وأهلهِ | بشيــمــةِ لا وانٍ ولا مُتــوانــي
إخـــاءٌ تساوى فيــه أنســاً وألــفةً | رضيـــعُ صفــاءٍ لا رضيـــعُ لِبــان
تمــازجَ قلبــانــا مِــزاجَ أُخــوةٍ | وكُلُّ طُلــوبـي غايــةٍ أخَــوان
وغيــرُك ينبُــو عنــه طرفي مجانبــاً | وإن كان منِّي الأقــربَ المتــداني
ورُبَّ قــريبٍ بالعــداوة شـــاحِطٍ | ورُبَّ بـــعـــيـــدٍ بالمَـــودَّة دانِ
لئـــن رامَ قَبضــاً مِن بَنانك حادثٌ | لقد عاضنــا منكَ انبساطُ جَنان
وإنْ بُــزَّ مِن ذاك الجَنــاح مَطــارُهُ | فَــرُبَّ مَقــالٍ مِنـــك ذي طَيران
وإن أقعَــدتكَ النائبــاتُ فَطالمــا | سَرى مُوقَراً مِن مَجدِك المَلوانِ[602]
وإن هَــدَمتْ منك الخُطوبُ بِمَرِّهـا | فَثَــمَّ لِســانٌ للمَنــاقِب بــانـي
مآثِــرُ تَبقى ما رأى الشمسَ نـاظِــرٌ | ومـــا سَمِعتْ من ســامِعٍ أُذُنـان
وموســومةٌ مقطوعَةُ العقلِ لم تـزل | شَــواردَ قــد بالغَنَ في الجَوَلان
وما زَلَّ مِنك الرَّأيُ والحَزم والحِجى | فَتــأسى إذا مـــا زَلَّتِ القَدَمـــان
ولـــو أنَّ لي يومــاً على الدَّهرِ إمرةٌ | وكان لي العدوى على الحدَثان[603]
خلعتُ على عطفيــكَ بُــردَ شيبتي | جَــواداً بعُمــري واقتبــالِ زمــاني
وحَمَّلتُ ثُقــلَ الشيبِ عنــك مَفارقي | وإن فَــلَّ من غَربــي وغَضَّ عِناني
ونــابَ طويلاً عنك في كُلِّ عــارضٍ | بَخطٍ وخَطــوٍ أخمصي وبَنـــاني
على أنَّــه ما انفلَّ مَن كان دُونَــهُ | حَميـــمٌ يُــرامي عَن يــدٍ ولِسان
وما كُلُّ مَن لـم يُعطَ نَهضاً بعاجِزٍ | ولا كُلُّ ليــثٍ خــادرٍ بِجَبـــان
وإنَّك ما استــرعيتَ مني سِوى فَتىً | ضَمــومٍ على رعــي الأمانــةِ حانِ
حَفيظٍ إذا مــا ضيَّعَ المــرءُ قَومَــهُ | وَفــيٍ إذا مـــا خُــوِّن العَضُدان

---

[602] الملوان: الليل والنهار

[603] حَدَثانُ الدَّهر وحَوادِثُه: نُوَبُه، وما يَحْدُث منه، واحدُها حادِثٌ

مِن اللّه استهـــدي بقاءَك أن تُرى ... مُحَـــلاً لأيـــام العُلــى بمَكــان

وأسـألُـــــهُ ألا تــــَزالَ مُخلّـــداً ... بمَلقـــى سَمـــاعٍ بيننـــا وَعِيان

إذا ما رعاكَ اللّهُ يوماً فقـد قَضى ... مــــآربَ قلبــي كُلُّهــا ورَعانــي

مما قال في الرثـــاء

ليس للصابي شعر كثير في الرثاء، وكل الذي ورد في المصادر قصيدتان إحداهما يرثي فيها ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة، والأخرى يرثي ولده أبا سنان سعيد الذي توفى قبل والده. ولا يعقل أن محبـــة الصابي لوالده وتأثيره فيه وكذلك لوالدته أنه لم يقل فيهما شعراً إثر وفاتهما أو في وفـــاة غيرهما من الأقارب الأعلام الصابئين الذين اشتهرت بهم الخلافة العباسية قبل أيام الصابي وخلال حياته. أما قصيدته في رثاء ثابت فهي على غرار قصائد الرثاء المعهودة في ذكر مناقب المتوفى وخصائصه وما ترك من أثر قيمي وأما رثاء ابنه فقد جاء متأثرا بوجده ويذكر فيها حالته أكثر من الإشادة بابنه. وقد مر بنا أن ابنه الكبير سنان لم يكن بدرجة الابن الأصغر المحسن من حيث الذكاء والتقدم والارتقاء في المنزلة بل ربما حتى في الطاعـــة وهذا ما لمسنـــاه في روح بعض الأبيات الشعريـــة التي كتبها والتي عاتب فيها عقوقه دون أن يشير إليه بالاسم، ومع ذلك فقد كان حبه الغامر يشملها الاثنين.

فمما قال في رثاء خاله ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة وكان طبيبا لامعا متقدما في صنعته التي لم تبعد عنه المنية:

أسامعٌ أنتَ يا مـــن ضَمَّـهُ الجدفُ ... نشيجَ باكٍ حزينٍ دَمعُـــهُ يَكِفُ[604]

وزفـــرةً من صميـم القلبِ مَبعثُها ... يكادُ مِنها حِجابُ الصَّدر يَنكَشِفُ

أثابتُ بنَ سنــــانٍ دَعــوةً شَهَدَتْ ... لِرَبِّهـــا أنـــهُ ذو غِلـــةٍ أسِفُ[605]

ما بالُ طِبِّك ما يشفي وكُنتَ بـهِ ... تَشفي العليلَ إذا ما شَفَّهُ الدَّنفُ[606]

---

[604] الجَدَفُ: القَبْرُ، والجمع أجْدافٌ

[605] يقال لِمَوْتِ الفَجْأَةِ: أخذةُ أَسَفٍ. ويبدو أن موت الطبيب سنان كان فجاة.

غالَتكَ غُول المنايا فاستَكنتَ لها   وكُنتَ ذائدهـــا والرّوح تُختَطـفُ

فارقتني كفِراقِ الكَفِ صاحِبَها   أطنَها ضــاربٌ من زندِها نَطِفُ[607]

فَتَّتَ في عضـــدي يا مَن كُنتُ به   أفُتُّ في عَضــدِ الباغــي وأنتَصفُ

ثوى بمثــواك في لَحدٍ سَكَنتَ بهِ   الدِّيــنُ والعقـلُ والعلياءُ والشَّرفُ

لَهفي عليك كريمــاً في عَشيرتهِ   مُمهــداً جِسمُــهُ من نعِمة تَـرِفُ[608]

قـــد أسلَموهُ إلى غبـــراءَ يَشمُلهُ   فيها التُرابُ فمِنها الفَـرشُ واللحِفُ

وحين توفي ولده البكر أبو سعيد سنان كتب الصابي نفحات عبر فيها عن حزنه لهذا الفقد أكثر من كونه رثاء ذلك أنه لم يعمد إلى ذكر خصائص أو فضائل ابنه، قال:

أسعـــداني بالدَّمعـــةِ الحمـراءِ   جُلُّ ما حـــلَّ بي عـن البيضـاءِ

يؤلمُ القلبُ كلُّ فقـــدٍ ولا مثـ   ـلُ افتقـــادِ الآبـــاءِ للأبنـــاءِ

هَدَّركني مَثوى سِنان وقد كـا   نَ يَهدُّ الأركانَ مـــن أعدائي

عُكِستْ فيكَ دعـوتي إذ أفديـ   ـك بعمري فصرتَ أنتَ فدائي

إنما كُنتَ فلـــذةً مـن فـؤادي   خَطفتها المَنــون مِــن أحشائي

كُنتَ منّي وكُنتُ منكَ اتفاقاً   والتئاماً مِثلُ العَصـــا واللّحـاء

كنتَ في اليُتم فيَّ أجمـلُ منّـــي   فيـــكَ للثُكل في أوانِ فنـائي

ولئِـــن كـان فـي أخيـــكَ وأولا   دُكُمـا ما يغضُّ من بَـرحائي

فَلعَمري لرُبمـــا هيَّجـوا الشـو   قَ فـزادوا في لوعتـي وبُكائي

مما قال في الحكمـة

كون الصابي من بيت علم وأدب وفلفسة بحكم ما كان لوالده وأعمامه من جهة وأخواله من جهة ثانية، فلا غرو أن تكون خلفية الصابية مؤسسة على ثقافة عالية أهلته

[606] الدنف: المرض الشديد

[607] النطف: مستخرج الشيء من أصله

[608] يقال: إن جِسمه لعَمَمٌ وإنه لعَممُ الجسم. وجِسم عَمَم: تامٌّ

لمنزلته بين الكتاب والأدباء ومكنته من أرقى المنــازل وبخاصة في تولي ديوان الإنشـاء واستخلاف الوزارة، وما ذاك إلا لطول باعه وحنكته وحكمته. وقد ترجم هذه الحكمة في العديد من المقطوعات النثرية التي مرت بنا، وكذلك فيما وصلنا من مقطوعات شعرية نثبتها هنا. ومن ذاك قوله:

جُملة الإنسانِ جيفة   وهُيولاهُ سَخيفة[609]

فلمـاذا ليت شعـري   قيل للنفس شريفة؟

إنَّمــا ذلـك فيــهِ   صَنعة اللّهِ اللّطيفة

وقال في حتمية الأمور وأقدارها أيضا:

ألا أيُّهــا الإنســانُ لا تكُ آيســاً   من الدهر أنْ تصفو عليك مَشاربه

فإنَّ لك حَتمــاً مِن الشّــر واجبـاً   وحَتمــاً من الخَير الهَنِيِّ عَواقبـه

وإنْ تَلقَ مِن حَتْمَيـه ما كُنتَ تَبتغي   فلَولى بكَ الحَتمُ الذي أنتَ طالبـه

ستَكسب ما تَرجو ولو كنتَ كارهاً   ككسبك ما تخشى وأنت مُجانبه

وفي تقسيم الآرزاق والنعم يقول:

قــد تُحابي الجواد نـائبةُ الدَّهـ   ـر وفيها على البَخيلِ وَقاحـــه

كم رأينا مِن نعمةٍ قادها البُخـ   ـلُ وأخرى تذودُ عنها السَّماحـه

رُبَّما ضَرهــا التَّشــددُ والضّبـ   ـطُ فأضحتْ مِن أصلِها مجتاحه

فهيَ مَحميّـــةٌ إذا نِيــلَ مِنهـــا   وإذا عَــزَّ نيلُهـــا مُستبـاحــــه

وخصــومُ الشحيح يَسعونَ فيمـا   غَض مِن طرفـه وهاضَ جَناحـه

وبنـــاتُ القلوبِ تَصغي إلى مَــن   كان أسخى نفساً وأطلقُ راحـه

وترجم ما مر به من معاناة وأن المرء لابد آيل إلى نهايته فكتب يوصيه:

أتهـــابُ في العَزمـاتِ ظـ   ـناً رُبَّمـــا وُقيـــتَ عَنـهُ

وأمامــكَ المـــوتُ الـذي   أيقنـــتَ أنْ لا بُـــدّ مِنـهُ

---

[609] الهيولي لفظة فلسفية يونانية نقلت بلفظها إلى بقية اللغات، معناها عند الفلاسفة: الجوهر والمادة الأولى المجردة عن الصورة من حجم وامتداد ولون وما أشبه ذلك.

هذي سَبيلَ الخائبُ الكـ ـابي الزنـادَ فلا تَكُنْهُ
الدَّهـرُ خَـوّانٌ ولـ ـكن كَم سَعيدٍ لم يَخنه!
وشَقيٌّ جَـدٌ قـد تَحَرَّ زَ بالتَّصـونِ لـم يَصنهُ
فاحـذَرْ مِـراراً أنْ يخو نَ، ومَـرةً لكَ فائتَمِنـهُ
وإستبـرِ حظـك بالتَّقَلُّـ ـبِ في المطالبِ وامتَحنـهُ
وابسطْ رَجـاءً قد قَبضـ ـتَ وثِقْ برَيك وإستَعنـهُ

ويبين الصابي أن كل الأشياء الى زوال سوى خالقها وأن ما يبتدأ ويشتد يبدأ بالنقص حتى ينقضي فيقول[610]:

تهـونُ علـي النائبـات كواملاً وأُفـرّق من أطفالها حين توضعُ
ألم تـرَ أن الكاملَ العمرَ مؤذنٌ بنقـصٍ وأن المُبتـدي يَترعـرعُ
إذا اشتدَّتْ اللأواء حان انقراضها وعاضَتكَ منهـا دولة تتوقعُ[611]
تطابُ، فللأيـام بـؤسٌ وأنعـمٌ عَواقبهـا مَكرُوهةً يتوقـعُ

وقال وفي قوله حكمة التمييز بين الأشخاص والأعيان

وقد تَستَوي الأَشخاصُ في عينِ من رآى وَتفترِقُ الأعيانُ في فَهمِ من فَطِنْ

[610] محي الدين العبشمي، ترتيب الأمالي الخميسية

[611] اللأواء بوزن فَعْلاء، ويُجْمَعُ على فَعْلاوات: الشِّدّة والبليّة

مما قال في مواضيع أخرى

هنالك مقطوعات شعرية حُفظت للصابي لا تقع ضمن المجالات التي ذكرناها ولا تشكل مجالا بحد ذاتها، وقد جمعناها ضمن هذا الباب لترد منفردة بحسب مواضيعها.

لقد عُرف عن الصابي أنه كان من نساك أهل دينه ومن المتشددين في ديانته، ودليل ذلك أنه عرضت عليه الوزارة من قبل عز الدولة إن أسلم فلم يقبل. وللأسف لم تحفظ المصادر الكثير من كتاباته وأشعاره بهذا الخصوص. فكيف يمكن التسليم بأن الصابي الذي كتب في مختلف المواضيع لم يكتب فيمـــا يتعلق بديانته وعقيدتها وطقوسها وأحـــوال الصابئين وهو الذي كان وراء مرسوم من الخليفة عبد الكريم الطائـــع لله بخصوص الصابئين قام هو بنفسه بكتابته كما ثبتنا ذلك في موقعه.

ومما يشير الى تقيده بمبادئ الدين والتزامه بها في ترويض النفس يقول:

حَمَتني لـــذَّتي رُتَبَ المعـــالي وضنّني بالمـــروءةِ والوقـــارِ
ودينٌ ضـــاقَ فيه مجالُ فتكي لخوفِ عقوبـــةٍ وحَذارِ نارِ
فوا شوقـــاً إلى خَلع العـــذارِ وفعلي ما أريدُ بلا اعتذارِ
ويـــا لَهفي على حـــلّ الإزارِ صَريعاً بين سُكرٍ أو خمارِ

وكتب عن مدينة البصرة وإقامته فيها لفترات متباينة ولم تلاقِ إقامته فيها راحة ربمـــا تشوقا إلى أسرته ببغداد، أو لطبيعة ظروفها. وتكشف كتابته عن طبية الحال في البصرة وبخاصة فيما يتعلق بمائها ويبدو أن هذه المشكلة قديمة ومقيمة في البصرة وإلى الوقت الحاضر تقريبا.

فقال واصفا:

ليسَ يَغنيك في الطهارة بالبصـ ـرة إن حانَتِ الصَّـــلاةُ اجتهادُ
إن تطهّـــرتَ فالميـــاهُ سَلاحٌ أو تَيمَمتَ فالصعيدُ سَمادُ[612]

وقال مقارنة بين الإقامة في البصرة والإقامة في بغداد:

لهفَ نفسي على المقـــامِ ببغدا دَ وشربي من مـــاءِ كوز بثلج
نحنُ بالبصرة الذميمـة نُسقـى شَرَّ سُقياً من مائها الأتـــرجّي

---

[612] السَّلَحُ ماء السماء في الغُدْران

أصفر مُنكر ثقيـلٌ غليظٌ   خاثرٌ مِثْـل حُقنـة القَولنج
كيف نَرضى بشربـه، وبخيرٍ   منهُ في كُنفِ أرضنا نستنجي؟

وقال يصف قصر روح بها لحسن بنائه:

أحْبِبْ إليّ بقصـرِ روح مَنـزلاً   شهدَتْ بنيَّتُـه بفضلِ البانـي
سورٌ عَلا، وتمنَّعت شُرفاتـه   وكأنَّ إحداهنَ هَضبُ أبـان
وكأنمـا يشـكو إلى زوارهِ   بينَ الخليطِ وفرقة الجـيران
وكأنما يبدو لهم من نفسـه   إطراقُ مَحزونِ الحَشى حَرّانِ

وقال وهو يرحل عن البصرة:

توليـتُ عن أرضِ البُصيـرةِ راحلاً   وأفئـدةُ الفتيانِ حَشوُ حَقائبي
منازلُ تَقري ضَيفهـا كُل ليلـةٍ   بأمثـالِ غِزلانِ الصَّريم الربائب
أقمتُ بها سوقَ الصِّبا والندى معـاً   لعاشِقـةٍ حَرى وحَيـران لاغِب
فمـا تظهرُ الأشواق إلاّ صنـائعي   ولا تسترُ الجـدران إلاّ حبائبي

وكتب في السر وحفظه خمس مقطوعات، ومن حرصه على ما كتب رغب بأن يسمع رأي صديقه الشريف الرضي فيها، فكتب إليـه وبعث مع رسالته المقطوعـات التي كتب وكانت:

المقطوعة الأولى:

لِسرِ صَديقي بينَ جَنبي معقلٌ   مَداه على المُستنبطين طويلُ
إذا لَقحتَ أُذني به من لِسانـهِ   فليسَ عليها للمخاضِ سَبيلُ

المقطوعة الثانية:

لسـرِ صديقي مكمنٌ في جوانحي   تَمنَّـعَ أن يَدنـو إليـه المبـاحثُ
تغلغـلَ منـي حيـثُ تستطيعُـهُ   كؤوسُ الندامى والأنيسُ المُحادثُ
إذا الفحصُ آلى حالفـا أن ينالـهُ   تَراجعَ عنـهُ وهـو خزيـانُ حانثُ
فقُل لصديقي كُن على السِّرِ آمنا   إذا لم يكُن مـا بيننـا فيه ثالثُ

المقطوعة الثالثة:

يمــوتُ معي سِرُّ الصديــقِ ولَحدُهُ ضَميــرٌ له الجَنبــانِ مُكتنفانِ
وأُسألُ يومَ البعثِ عن كُلِّ ما وعى سَمــاعٌ ومــا فاهَت به شفتــانِ
فأنكِرهُ مِـن بين مــا في صَحيفتي وأجحـــدُه إذ يشهـــدُ المَلَكانِ
وذنبي في ذا الجحـــد أيسرُ مَحملاً مِن الذَّنــبِ في إفشائـــهِ بلساني

المقطوعة الرابعة:

إذا ما السِّرُّ أودعنيــه خِلٌّ فذاكَ السِّرُّ سرٌّ لي لديـه
لأنــي لا أخافُ عليــه إلا شَريكا فيه أن أُفشي إليه

المقطوعة الخامسة:

وللسِّـــرِ فيمــا بين جَنبي مَكمَـنٌ خَفِـــيٌّ قصيٌّ عــن مَـــدارج أنفاسي
أضنُّ بـــه ضَنّي بمــوضعِ حِفظـهِ فأحميهِ عن إحساس غَيري وإحساسي
فقـد صارَ كالمعدومِ لا يستطيعُـهُ يقــينٌ ولا ظنٌّ بخلـــقٍ من النــاسِ
كأني مِن فَرطِ احتفــاظي أضَعتُه فبَعـــضي لــهُ واعٍ وبَعضي لــهُ ناسي

واستغل الصابي هدية قدمت في مجلس يضمه وآخرين الاستشهاد بحديث نبوي جاء فيه: " من أهديت إليه هدية فجلساؤه شركاؤه فيها " فقال:

رُويتْ في السُّنةِ المشهورةِ البَركه أنّ الهديَّة في الجُلاَّس مُشتركه

وكتب مهنئا بعرس وقد أجاد وأبدع في المعاني حين صور البدر يزف الى الشمس، قال:

عرسٌ يَعـــرسُ عِنده الإقبــالُ وتُنـــالُ في جَنباتـــهِ الآمـــالُ
بدرٌ يُزفُ عليــهِ وسطَ سَمائـهِ شَمسٌ عليهــا بهجــةٌ وجمــالُ
وإذا تقاربتْ السُّعـــودُ فعندها يُرجى الصلاحُ وتَحسُنُ الأحوالُ

وقال في الجوع والطعام ما عثرنا عليه في بيت واحد فيه قدرة تصوير بليغة تشكل حكمة:

وهَلْ هيَ إلا جوعة إن سَدَدتها فَكلُ طعامٍ بين جَنبيك واحدُ

وحين تنقلب الأمور يقول:

وحافت على الذئب النعاج بأرضه   وخافت من الوحش الليوث الخوادرُ

وله في مدح سخاء الأمراء:

ما نوالُ الغمام وقتَ ربيعٍ   كنوال الأمير يومَ سخاءِ
فنوالُ الأمير بَـــدرةُ عين   ونوالُ الغمام قطرة مـــاءِ

وما أبلغ قول الصابي في مدح ضيافة البعض من الذين إستضافوه فيضع اللوم من حيث أنه يريد به شدة المدح فيقول:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ ضيوفهمُ   تُــلامُ بنسيانِ الأحبةِ والوطن

وربما يكون هذان البيتان لأبي إسحق الصابي على ما يذكر القاضي التنوخي في نشوار المحاضرة، وهما في الشوق للزيارة، وعجز البيت الأخير في غاية العاطفة يقول:

كُنا نـزُورُكُـم والـدّار ُدانيــةٌ   في كُلِّ وقت فلّما شَطَّتْ التـدارُ
صِرنا نُقّدرُ وقتاً في زيارَتـكم   وليسَ للشّوقِ في الأحشاءِ مقدارُ

رثـــاء أبي إسحق الصابي

لم تورد المصادر رثاء كثيرا في أبي إسحق الصابي على كثرة معارفه من الأدباء والشعراء بل ومن أسرته، خصوصا ولده المحسن وحفيده هلال اللذين كانا أديبين أيضا ولهما شعر حسن. ونعتقد أن ما كتب في رثائه قد ضاع بعد موته كما ضاع الكثير من أشعاره وكتبه. وقد حفظت المصارد وبشكل مبرز قصائد الرثاء التي قالها الشريف الرضي في أبي إسحق وهي ثلاثة وكذلك قصيدة الرثاء التي قالها أخوه الشريف المرتضى لأنها قد وثقت لهما في ديوانيهما أيضاً. وسنعقب على ما تقوّله بعض المتقولين عن الشريفين في هذا الرثاء.

1- رثاء الشريف الرضي بالقصيدة العصماء المشهورة[613] بعد وفاة الصابي حبا وتأثرا وتبين الفضل يقول في مستهلها:

أعلِمتَ مَن حملُوا على الأعـوادِ　　أرأيتَ كيفَ خبا ضيـاءُ النّـادي؟

جبلٌ هوى لوْ خَـرَّ في البحر إغتـدى　　مِـن وَقـعِـهِ مُتتـابعَ الإزبـادِ

ولم يتوقف رثاء الشريف الرضي لصديقة الصابي على هذه القصيدة العصماء بل أننا نجده في إحدى مكاتباته لأحد أصدقائه الذي يعاتبه على قطيعة وعلى بؤس حاله وعدم تفقده لأصدقائه أنه يكتب نثرا يصف فيه حالته بعد وفاة صديقه الصابي بما يفطر القلب لصدق العاطفة التي تنم عن قيم العلاقة والصداقة الراقية وعن هذا الفقد الذي أضر بـه فيقول: (... والأولى صفته معي في الصديق الصادق والحميم الموافق أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ، فإنه كما لم يغير لي وده في حياته، رماني بالخطب الجليل من وفاته، وانتزعه من يدي على حين انضمامهما على إخائه وتشبثهما بعقد صفاته، وحصوله أخاً في المودة لصيقا، ونسيبا في الفضل عريقا. وإلى الله أشكو دهرا حال دونـه وقطع ما بيني وبينه، وأفردني عنه إفراد الأم عن جنينها والشمال عن يمينها... وأن فقـده أعرى ظهري على كثرة حُماتي وأنصاري، وأوحدني على أقاربي وعشائري، وجرعني من ثكله غصة لا أزال أجد مرارتها في لهواتي، وأحس بألمها ما بين أضلاعي أبدا، ما أُطيل لي في الأمـد وروخي لي من الطول، حتى لقد ضاقت لذلك مفاسحُ قلبي وضعفت حوامل جسمي، وحَنَنْتُ إلي قرب الوفاة وسئمت من تكاليف الحياة. فتالله لقد بلغ مني مبالغة الهم واشتفى مني بنومه الدهر، وفجعني بـه الخطب

[613] أوردنا القصيدة كاملة في الصفحة 180 يمكن الرجوع اليها لعدم التكرار

الهاجم بلا دليـــل، والوارد بـــلا رسول، وسقاه كأسا فضلتها مُعدَّة لي بعده، وياليته صبَّحني بها قبله. فلقد فجعت منـــه بغصن من الفضائل الوريق، ولسان المناقب الذليق، والأروع الذي ما ضل في مسارح الخطوب، ولم يظلع بأعباء الأمور، ولا إلتفّت عليه العظائم إلا فرجها، ولا استبهمت دونه المضائق إلا ولجها، ولا جُرِّد في مُهم إلا كفاه، ولا استُطِبَ لداءٍ إلا شفاه. فأعزز عليَّ بذلك الوجـــه الوضاح واللسان الخَطّار، كيف سكن بعد النَّزَوان ووقف بعد الجوَلان، وذلك الجَنان الذي كان ينبوعَ البلاغة وقرارة الفصاحة، كيف غاض بعد الجمام حوضُه، وصوّح بعد الإخضرار روضه، وتلك الأنامل التي كانت منابت البيان ومغارس الإحسان، كيف عاث البلى في أطرافها وتحيّف الزمان من أقطارها. ولهفي على تلك الفضائل التي أدرَّ لُبونها وأنبط عيونها، وفتح مغالقها ونوَّر مشارقها كيف أُجرَّ بعده لسانها، وقبض عنانها، ونضب رونقهـــا وتساقط ورقها. والله،. لقد وجدتُ به وجد الرؤوم[614] ببكرها وقد فَقَدَتـــهُ، والبغوم بطلاها[615] وقد أضَلَّتهُ، وسلبنيه الزمان آنسَ مـــا كنت بفضلـــه، وأحوجَ ما كنتُ الى مثله، شاحذا لخاطري في المنافثة وحافظا لسري عند المباثّة. وإن ذهاب النظـــراءِ والأقران، وافتقـــاد الأتراب والأخذان[616]، غصة ما لغليلها بلال، ولا لعليلها إبلال. فإلا يكن قريني سنا ولِدَةً، فإنه قريبي صفاءً وإلا يكن موازني شرفا وحسبا[617]، فإنه مساهمي فضلا وأدبا. ولقد تركني بعده أزداد من النـــاس بعدا، وأمشي على الأرض وحِشاً، ومـــع ذلك فما أخلو من تصوُّرِه ولا أخلو ساعة من تذكره. إما بأن أرى فاضلا لا يساويه في مكانه ولا يجاريه في ميدانه، فأذكر إبراره على أمثاله، وتحليقه على طبقاته، وإما بأن أرى ناقصاً فأعجب من إيثار الزمان لمثله، وبيعه مثل ذلك العَلق النفيس به.

وبعد، فبيننا من مناسبة الخلائق ومشاكلة الطبائع، ثم من المودة التي ألّفت بين شخصينا وضربت برواقها علينا، وما كنا نتهاداه من ألطاف الفضائل ونتشاراه من أعلاق المناقب، ما يعذرني إنْ أفرط جزعي لفقده، وأنكشف بالي بعده. ولعمري لقد

---

[614] الناقة رؤوم ورائِمَةٌ: عاطفة على ولدها

[615] بُغَامُ الظَّبْيَة: صَوْتُها. بَغَمَتِ الظَّبْيةُ تَبْغَمُ وتَبْغِمُ وتَبْغُمُ بُغاماً وبُغُوماً، وهي بَغُومٌ: صاحتْ إلى ولَدها بأَرْخَم ما يكون من صوتها، وطلاها:صغيرها.

[616] الأخذان: غدران الماء

[617] يعقب الشريف الرضي بهذا على كل من وجه له النقد بهذه العلاقة داخلا مدخل شرف النسب والحسب، فنراه يرد الرد الإنساني المفند.

أحببته من حيث لو كان غيري لمقتهُ، وأقررت بفضله ولو كان سواي لجحده، لأنه قلّما إتفق رجلان في صناعة إلا وتباينا تباين عداوة، فكان كل منهما حافرا على معائب أخيه وحاثيا على الفضائل والمناقب التي فيه. وعجبي لهذا الزمان ينبذ عنه الأشرف فالأشرف، وينفي الأشف فالأشف، ويؤوي إليه كل دَنِس الخلائق ذميم الطرائق، لا يكثر جمعا ببقائه، ولا ينقص عددا بفنائه. فهو بالضد من الكير الذي ينفي الأخباث والأدران، ويصطفي اللبـــاب والنُّضار، إلا أن معنا شدة إلهابه وتحريقه، وليس لنا حسن تمييزه وتهذيبه. فياليت شعري على ما آسي من أبي إسحق بعد خلو مكانه وتهافت بنيانه: على رياسته القديمة وقَدمه المتقدمة، وتقلبه في الدول يستمدها من التجارب وتستمده من المناقب، وتكسوه ملابس العز والفخر، ويكسوها ملابس الصيت والذكر. أم على انقطاعه من المجارين وانفراده عن المبارين، وحصوله في البلاغة لمعةً ساطعةَ الشعاع وغرةً سائلة القناع، وسابقا قد أعجز الطالبين وأمن اللاحقين. وتخليده لهذه الدولة حرسها الله مجداً لا تزول رواسيه ولا تنهدم مبانيه، فلقد جعل كلامه سلكا نظمَ عليه المناقب وأجمع فيه المفاخر، وقيداً قيد به المآثر ووسما وسمَ به البواقي والغوابر. أم على سجاحة أخلاقه وسماحة ألفاظه وتواضعه مع تأخر الأكفاء وتسليم النظراء، ووثاقة معاقد عهده وتأكد علائق وده، وتكافؤ خلاله وتغايرها على التمام، فلعمري لو طَلَبَ فيه عائبةُ خِلةً تحتاج الى أن تتهم ونقيصةً يجب أن تُتمم من الفضائل الدنياوية والمناقب الاكتسابية لأعجزه ما طلب وأعياه ما أراغ والتمس. وإنه الأحق بقولي فيه في المرثية التي رثيته بها وهي من المراثي الأعيان والأشعار الأعلام:

ولقد كبا طيفُ الرقاد بناظري	أسفا عليكَ فلا لَعاً لرُقادي
ثكلتكَ أرضٌ لم تَلِــد لك ثانياً	أنّى ومِثلكَ مُعْــوِزُ الميلاد
ضاقتْ عليّ الأرضُ بعدكَ كُلّها	وتَركتَ أضيقها عليَّ بلادي
بَقيتْ أُعيجــازٌ يَضلُ تَبيعُهـــا	ومَضتْ هَوادٍ للرجال هــوادِ

وأول هذه القصيدة:

أعلِمتَ مَن حَملوا على الأعوادِ	أرأيتَ كيف خبا ضياءُ النّادي؟

أم على ما بيني وبينه خصوصا من خوالص المودة وخصائص الصداقة، وما تبادلناه بيننا من نفائس الصفاء وتحافظناه من ودائع الوفاء. وحسبه،..، أن ثقته استحكمت بي في حياتــه وفضلت حتى أعدَّها لمُخلفيه بعد وفاته، ويشهد بذلك قوله بقصيدة كتبها إلي:

هنالك فاحفظ في بنـــيّ أذمتي   وذُد عنهُمُ روعات كل زمانِ

فإنيَ أعتــدُّ المـــوَّدةَ منك لي   حُساماً به يقضون في الحدثان

ذخرت لهم منك السجــايا وإنّها   لأنفـــعُ ممــــا يَذخرُ الأبوان

ولو أردت تعديد مناقبه كلها، وإيراد مآثــره بأسرها، لأتعبت أناملي وكددت خواطري وعجـــز الزمان عـــن إسعادي على استيفائها، ومعونتي على إحصائها وتعدادها. ولكنه يكفي من جميع التأبين الذي أوردته والرثاء الطويل الذي رددتــه أن أقـــول: أبو إسحاق أبراهيم بن هلال، فلو كان اسم يوضع على جماع الفضل، ويكون علما لمجموع النبل، في زماننا هذا، لكان هذا الاسم واستغنى بذكره عن ذكر الثناء الجميل، واختصرتْ به مسافة القول الطويل.[618]

ولم يتوقف رثاء الشريف الرضي على ما قاله في الصابي عقب وفاته، بل أنه ظل يذكره ويستشهد به وبفضله في كل المحافل التي كان يحضرها. وتبرهن محبة الشريف الرضي للصابي أنه ظل يرثيه ما وجـــد إلى ذلك مناسبة أو سبيلا، ومن ذاك أنه مر بقبـــره وهو بالشوينزي من أرض كرخايا يوما فقال مرتجلا[619]:

أيعلـــمُ قبـــرٌ بالجنينــــــة أننــــا   أقَمنـــا بـــه ننعـــى النـــدى والمعاليـــا

عَطَفنـــا فحيينـــا مســـــاعيـــه إنهـــا   عِظامُ المســـاعي لا العِظــام البواليـــا

مَرَرنـــا بـــه فاستشرفتنــــا رسُومُـــهُ   كما استشرفَ الروضُ الظباءَ الجوازيا

ولم يكتف الشريف الرضي بهذا الحد من الذكر والرثاء بل ظل صديقه الصابي في خاطره سنينا وربما حتى مات هو، ولذلك فحين مر بقبره أيضا في شهر جمادي الأولى

---

[618] محمد يوسف نجم، رسائل الصابي والشريف الرضي

[619] أوردنا القصيدة كاملة في الصفحة 185

من سنة ثلثمائة وثلاث وتسعين أي بعد حوالي عشر سنوات من وفاة الصابي قال بديها[620]:

لولا يَذمُ الرَّكبُ عِنـدك موقفـي حَيَّيْـتُ قَبْـرَك، يَا أبَـا إسحَـقِ
كَيفَ اشتياقُكَ مُذْ نأيـتَ إلى أخٍ قَلِـقِ الضَّميـرِ إلَيْكَ بالأشْوَاقِ
هل تَذكُرَ الزَّمنَ الأنيقَ وعيشنـا يحلـو على مُتـأملٍ ومَـذاقِ

أما الشريف المرتضى فقد رثا أبا إسحق بقصيدته الطويلة والمنمقة التي تشير الى فضل الصابي وطيب العلاقة التي جمعته وأسرته مع أسرة آل الموسوي آباء وأبناءً وأعلاقا. وبهذه القصيدة التي نثبتها يزال أي تخرص تخرص به البعض للنيل من قيمة المرتضى حين ادعى بأنه تهجم على الصابي وذمه، والقصيدة مثبتة في ديوان المرتضى ومما يستشهد بها في المعنى والقيمة. يقول[621]:

ما كان يـومُك يا أبـا إسحـاقِ إلاّ وداعـي للمنـى وفـراقـي
وأشـدُّ ماكانَ الفراقُ على الفتى ماكانَ موصـولاً بغيـرِ تـلاقِ

وبودنا أن نقف مع القارئ الكريم هنا وقفة تصويب وتصحيح ودفاع عن الشريفين والصابي من جهة وعن طبيعة العلاقة التي ربطتهما والتي يمكن اعتمادها مثالا راقيا للتسامح الديني بين نسب الشريفين الممتد إلى النبي محمد والتزام الصابي الديني الذي لم تغريه مغريات تقديمه للوزارة إن أسلم، فنقول: إن النفوس كلما ارتقت تسامت في فكرها الإنساني وتعالت على المُضيّقات وانفتحت في تقبل الآخر وتقديره على أسس بعيدة عن التعنصر أو التمذهب أو التحزب. فهذه الأخيرة ترتبط بنوازع عاطفية وانفعالية في النفس غير المهذبة مما يجعلها متشددة في الانغلاق على الذات والكيان فاقدة للبصر مُفقدة للبصيرة. أما ما يتجاوزها إلى الجانب العقلاني المبني على تقدير الإنسان بقيمه الإنسانية وقدراته العامة وتقبله على هذه الأسس فذاك ما يقع ضمن معايير التمكن والإبداع والتفوق للنفوس المالكة التي يقاس رقيها برقي أحكامها في التقدير حد التميز.

ومن بين أشهر من تميز في الارتقاء القيمي لتجاوز العلاقة المبنية على التعصب الديني ما كان بين آل الموسوي وآل الصابي. تلك العلاقة المعروفة والتي بنيت على روح

---

[620] أوردنا القصيدة كاملة في الصفحة 186

[621] أوردنا القصيدة كاملة في الصفحة 187

التسامح والمودة والموامقة بين النفوس على اختلاف الانتساب الديني للذوات فيها. ومثلما أثرت هذه العلاقة والصداقة حتى صارت مثالا يستشهد به لحفظ حقوق التقدير القيمي ورعايـــة وحفظ الحقوق المبنية عليها بتقدير عال، فقـــد أثارت نوازع الأنانية والتعصب لدى البعض الآخر من الحاسدين والمتعصبين بما قاد إلى محاولات النيل منها وإغماط قيمتها عن طرق الدس والتحريض. ولا استغـــراب في أن تُنال هذه الصداقة بسوء السيئين. فقد أشاع المغرضون وعلى لسان الشريف المرتضى أخو الشريف الرضي ما يشينها ويقلل من قيمـــة العلاقة بينهما . ولكي يقف القارئ على الأمر، فإنه يتعلق بالقصيدة العصماء درة شعر الرثاء التي قالها الشريف الرضي راثيا صديقه أبو إسحق الصابي بمطلعها الشهير:

أعلمتَ من حملوا على الأعوادِ   أرأيتَ كيف خبا ضياء النادي

فبمقدار ما جاءت فيه هذه القصيدة المعبرة من قيمـــة تقديرية لما جاد بـــه الصابي في أدبه وخلقه ورسائله وللتواد والموامقة بينـــه وبين الشريف الرضي، بمقـــدار ما أثارت الحسد والحقد في نفوس المبغضين لما كان لها من كشف وتعبيـــر عن قيمة هذه العلاقة من جهة ومن بلاغة وجمال لفظ وقـــدرة تعبير وشـــدة تماسك جعلها من عيون شعـــر الرثاء بين الأصدقاء، التي مع حنق البعض لم يتوان في الإشارة إليها من جهة ثانية. وهكذا سعى من أراد التقليل من أثرها وتأثيرها أن لا يدخل مدخل بلاغة الشريف الرضي فذاك ما يعلن عنه شعره بل والقصيدة ذاتهـــا، لذاك ذهب مذهب التجني على موضـــوعها بالنيل من الراثي والمرثي بعد وفاتهما في أمرين:

الأول، الإشاعة بأن الشريف الرضي لما لامـه البعض وعاتبه في كيف يرثي أبا إسحق ابراهيم بن هلال الصابئ بمثل هذه القصيدة وهـــو على غير دين الإسلام فزُعم أنه قال: " إنما رثيت فضله"! وكأن المتقوّل بهذا يسحب قيمة القصيدة من الشخص إلى الفضـــل الذي تميز به الصابي بمقدار ما كان له من أدب رشحه لترؤس ديوان الإنشاء، ومن الخُلق ما يجمعه مع الشريف الرضي. وبهذا فإن من تجنى إنما أراد أن يقلل ، دون أن يدرك، من قيمـة الشريف الرضي في أنه يرثي الفضل دون صاحبه. ونرى، لو كان ذلك حقا، أن هذا الفضل كان يمكن أن يجازى بمنحة أو هبة أو تقدمة على قدر ما يقدم المقابل ولا يصل الى درجة الرثاء بالمعاني الفياضة في معنى الصداقة الذي قدمته قصيدة الرضي متوجـــة للعلاقة بينهما. لقد كان القصد واضحا في النيل من تلك الصداقة ومن تقدير الشريف الرضي العالي للقيم الإنسانية

النبيلة وإن اختلفت بين الصديقين ديانة في تفصيل طقس أو نهج شرع ذلك لأن كليهما يلتقيان في توحيد الخالق خالص التوحيد والإيمان باليوم الآخر وبالعمل الصالح، وهذا لعمري التعريف الحق للدين الذي ورد في القرآن الكريم" سورتي البقرة والمائدة ، الآيتين 62، 69 على التوالي"

كما أن مقوّلوا الشريف الرضي يناقضون سلوك الشريف الرضي نفسه. فلو كان قد رثى فضل أبي إسحق وحسب، لاكتفى بذلك في قصيدته المشار الى مطلعها. لكننا نجد أن الشريف الرضي قد وَجَدَ وجَزَعَ كثيرا على صديقه الصابي حتى أنه يجيب بعد فترة من وفاة الصابي من حاول أن يخفف هذا الوجد عنه بقوله واصفا الصابي:".. الصديق الصادق والحميم الموافق أبي إسحق ابراهيم بن هلال الصابئ، فإنه كما لم يغير لي وده في حياته، رماني بالخطب الجليل من وفاته، وإنتزعه من يديَّ على حين انضمامها على أخائه وتشبثهما بعقد صفائه، وحصوله أخا في المودة لصيقا ، ونسيبا في الفضل عريقا. والى الله أشكو دهرا حال دونه وقطع ما بيني وبينه، وأفردني عنه إفراد الأم عن جنينها والشمال عن يمينها.. إن فقده أعرى ظهري على كثرة حماتي وأنصاري، وأوحدني على أقاربي وعشائري..."

ولو كان الشريف الرضي حقا قد رثى فضل أبي إسحق كما نسب المقوّلون وليس صداقته، لما ظل الشريف الرضي حافظا العهد ومتتبعا الصداقة مع أبناء عائلة الصابي، ولما ظل يذكره ويحن إليه. ولم تتوقف مراثيه على تلك القصيدة، بل تراه يكتب فيه بعد سنين قصيدتين مطلع الأولى:

لولا يذمُ الرَّكبُ عندك موقفي حييتُ قبركَ يا أبا إسحق

ومطلع الثانية:

أيعلمُ قبرٌ بالجُنينةِ أننا أقمنا به نَنعى النَدى والمعاليا

فها هو الشريف الرضي يقول بلسانه أنه رثى الصابي كي يسلو، ومع ذلك فقد ازداد لوعة. فهل من يرثي الفضل يكون بهذا الحس الحميم؟

من هنا تسقط مقولة المتقولين الباطلة بحق الشريف الرضي وأبي إسحق الصابي من أن الأول قد رثا فضل الثاني وحسب ويتبين مقصدها الدنيء في النيل من القيم الإنسانية العالية التي بنيت عليها علاقتهما وما تميزت به صداقتهما من روح المودة والتآخي.

والثاني، ما أشيع على لسان الشريف المرتضى المولود 355 والمتوفى 436 هـ ، فهو يتأسس على الحقد والضغينة ذاتها، ويجحد سمو نفس المرتضى وتربيته على الفضيلة

والقيـــم الإنسانية السامية في جذر نسبه. كيف لا وهو المرتضى أبو القاسم علي بن الطاهــر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بـــن إبراهيم بن الإمام موسى الكاظم عليه السلام بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فقد أورد البعض أن المرتضى لما سمع بقصيدة أخيه الرضي التي رثا بها الصابي في مطلعها: أعلمت من حملوا على الأعواد؟ أنه قال (على ما زُعم) نعم علمنا، ما حملوا إلا كلبا. وقد طور البعض التقول على المرتضى بانه قـــال: "نعم، علمنا أنهم حملوا على الأعواد كلباً كافراً صابئاً عجلَ به إلى نار جهنم"! علما بأن عُمر الصابي وصل سن الحادية والسبعين وفي مصدر والتسعين، فلم يعجل به!

ونرى جوانب إبطال هذا التقويل في النقاط الآتية:

1- إن العلاقة التي جمعت بين آل الصابي وآل الموسوي تأسست وتوطدت على حياة والد الشريفين فقد جمعهم التقدم في الأدب والعلم والرياسة وأن كليهما كان منحازا لبختيار بن معز الدولة البويهي على ابن عمه عضد الدولة الذي فتك بالاثنين بعد تمكنه من العراق. فقد سجن والد الشريفين كما سجن أبو إسحق الصابي.

2- ليس من المنطق أن ينسحب الشـــريف الرضي في مودته للصابي ويكون الشـــريف المرتضى مبغضا له خاصة وأن العلاقة بين الأخوين الرضي والمـــرتضى من أسمى علاقات الأخوة المعروفة. فكيف يذهب المرتضى الى أن يذم هذا الذم القاذع من رثـــاء أخوه الرضي بتلك القصيدة الرقيقة والمؤثرة، فكأنه بذلك ينتقد أخاه في قصيدته ويقلل من قيمته. وهو بذاك يكون مبغضا له ليجيب إجابة إستهزاء وذم على ما عظم فيه استغراب القصد وشدة سحب الانتباه لقيمة الصابي التي أراد الرضي الإعلان عنها في مطلع قصيدتـــه حتى صار مثار استشهاد.

3- ليس صحيحا أن المرتضى كان من خشونـــة الجانب وهو الإمام والفقيه والحكيم والذي كان مجلسه أو مدرسته العلمية، بتعبير أصح، جامعة إنسانية تلم شتات كثير من طلاب العلم ومريديـــه من مختلف المذاهب والنحل، دون تفـــرقة بين ملة وملة أو مذهب ومذهب. وكل هذا يقود الى أن يكون متوامقـــا مع الصابي الأديب الرئيس لتقدمه في موقعه وخلقه. وما عُرفتْ في المرتضى جفوة ولا هفوة.

4- سبق واتهم الشريف المـــرتضى بأنه أمر بسحب الشاعر أبي العلاء المعري من رجله وطرده من مجلسه خارجا في قصة مختلقة أشير فيها الى تعصب المعـــري للمتنبي

وكره المرتضى للمتنبي رغم أن الأخير مات قبل ولادة المرتضى (يمكن الرجوع لهذه الرواية في مواضعها). وبهذا يكون الشريف المرتضى موضع تقوّل بما يقصد به النيل من القيمة أو الطعن في السلوك أو اعتماده أداة في الإشارة المختلقة لتعصبات دينية أو عرقية هو بعيد عنها وبريء.

5- لقد امتدت علاقة الشريفين بآل الصابي حتى بعد وفاة الصابي وكانت تتواصل وتراعى في حفيده هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي. فإن صَدقَ ذم المرتضى لتوقفت وانقطعت هذه العلاقة ولم تذكر. لكننا نجد أن هذه العلاقة موصولة بين الشريف الرضي وبين حفيد الصابي هلال بن المحسن الذي يكتب للشريف المرتضى فيقول:

أسيّدنا الشريفَ عَلَوْتَ عن أنْ تضافَ إليك أوصافُ الجلالَهْ
لأنّك أوحدٌ والنّاسُ دونٌ ومَن يسمو لمجدك أنْ ينالَهْ؟
وفُتَّ وزدتَ فضلاً إنّ فضلاً كفضلكَ لا تحيطُ به مقالَهْ
ولي أملٌ سأدركه وشيكاً بعون الله فيك بلا محالَهْ
وليس على موالاتى مزيدٌ لأنّي لم أرثها عن كلالَهْ

ويكتب له الشريف المرتضى مجيبا بقصيدة عدد أبياتها أربعة وعشرون بيتا مطلعها:

متى يبدي الكثيبُ لنا غزاله ويدني من أناملنا مناله

وفيها:

وإنك من أناسٍ ما رأينا لهم إلا الرّياسةَ والجلاله
فلا مَلّ لقلبي منك دهرا وحاشا اللهُ قلبي مِن مَلاله

ويذكر أن الشريف المرتضى لما مات رثاه هلال بن المحسن بن الصابي بقصيدة عينية نوّه عنها ابن القفطي في تأريخ الحكماء لكننا لم نتمكن من الوقوف عليها.

6- وأمضى ما يُدحَض به التجني الذي نسب للشريف المرتضى في ذمه للصابي ويُكذِّب ما نسبه إليه بعض الرواة دون مبالاة مرثيته للصابي بقصيدة طويلة تظهر عمق اتصال المرتضى بالصابي أيضا وبفضل العلاقة معه بما لا يدع مجالا للشك في انسحاب المرتضى في المودة والتقدير نحو الصابي أيضا. والقصيدة مثبتة في ديوان الشريف المرتضى، وقد ثبتناها كاملة في باب رثاء الصابي ومطلعها:

ما كان يومُك يا أبا إسحاقِ إلاّ وداعي للمنى وفراقي

وأخيـرا:

رحمك الله يا أبا إسحق، فقد كان اسمك قمة إيمان ارتبط بأبي الأنبياء، وكُنيت بأبي إسحق نبيا، وكنت ابن هـلال علو النظر وبهجة البصر وقيمته في الوصف والدليل والإشارة والعبادة، وكنت حفيد زهرون معنى الإشراق ودليل سبر الأعماق، وتلقبت بالصابي إختيار القِدم، فعُرفت بـه وعَرّفتَ بكيان ظلّ يُذكر بك ويتبـاهى بما قدمت. ناضلتَ شـاباً من أجل التميُز والتفرُد وارتقيتَ سلّم الأدب حتى تربعتَ على هـام الكتابة والبلاغة فقهرتَ العداوة بالصداقة، وسرى حرفكَ حتى تسابقتْ عليـه الصحائف ليذاع في المنتديات وينشره نسيم العذوبة في آفاق البلدان. ترقيتَ، على الرغم من حدود الوظيفة، فكنت صاحب ديوان الإنشاء بتميز وجدارة وكنتَ الأولى بالوزارة لـولا أن حفظتَ لنفسك إصرارَ تجاوز المساومة على حساب الكفاءة. دخلت معترك السياسة فكان لك رأيك فيما أقدمت لكي لا تبقى ناسخا كاتبا وحسب، وكان لك رأيك في سياســـة البلد التي جرّتك الى صعود وهبوط. قدّرتَ أصحاب البلد في أحقية الخلافة والإمارة فكنتَ إلى جانب أهل العراق على حساب من جاء دخيلا. رحلت عن الدنيا بعـد أن مـلأت بطون الدواوين رسائـل، وبطون كتب الأدب بلاغة وعذوبة ألفاظ وقدرات صياغة تجاوزت كل المصاغات الذهبية التي بليتْ ولم تبلى صياغاتك النثرية فظلتْ درراً للنثر، ومصاغاتك الشعرية التي ظلت غـرراً للشعـر، مازلنا نرددها ونتغنى بهـا ونطرب لسماعهـا، بل ونقتفيها طريقـة وأسلوباً في الكتابة حين نـريد أن نصيب الأغراض. حقّ علينـا أن نفخـر بكَ ونُحيي أثركَ ورسمك وذكركَ ، فما زلت جَدنا حياً هلالاً صابيا.

ࡓࡅࡀࡄࡀ ࡀࡃࡄࡉࡉࡀ ࡅࡔࡀࡁࡒ ࡄࡈࡀࡉࡉࡀ ࡍࡄࡅࡉࡋࡊ ࡋࡃࡉࡋࡊ

ࡁࡄࡓࡀࡌ ࡁࡓ ࡄࡉࡋࡀࡋ ࡁࡓ ࡆࡄࡓࡅࡍ

رواها إد هيي وشابق هطايي نهويلخ لديلخ

بهرام بَر هِلال بَر زِهرُن

المـراجع

1- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو القاسم أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت 1965

2- ابن أبي الحديد، عزّ الدّين أبو حامد عبدالحميد، شرح نهج البلاغة، دار إحياء الكتب العربي، 1967

3- ابن الأثير ، ضياء الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مكتبة النهضة، القاهرة، 1959

4- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحن علي بن محمد، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1966

5- ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر

6- ابن العبري، مار كريغوريس أبو الفرج بن الحكيم اهرون، مختصر تأريخ الدول، دارالكتب العلمية، 1997

7- ابن المعمر، علي بن يحيى بن علي بن محمد بن المعمر، لقاح الخواطر وجلاء البصائر، مخطوطة في جامعة كامبرج برقم Q 9 139

8- ابن النديم، أبوالفرج محمد بن أبي يعقوب الوراق، الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران 1971

9- ابن تغري بردى الأتابكي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية 1956

10- ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي، التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس، معهد الإنماء العربي، بيروت 1983

11- ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، تأريخ ابن خلدون، دار الفكر، دمشق2001

12- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1972

13- ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، دار الفكر، دمشق، 1981

14 ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، المجمل ، مؤسسة الرسالة، بيروت 1404هـ

15- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد،أحكام أهل الذمة، جامعة دمشق، دمشق 1961

16- ابن منظزر، أبو الفضل جمال الدين الأفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت

17- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل، المختصر ف أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة 1325هـ

18- أبو رسلان، ندى ، أبو إسحاق الصابي الكاتب والشاعر. رسالة ماجستير مقدمة الى الجامعة الأمريكية في بيروت. بيروت لبنان1987

19 أبو شجاع، محمد بن الحسين بن عبد الله، ذيل تجارب الأمم، شركة التمدن الصناعية، مصر 1916

20- إحسان عباس، شذرات من كتب مفقودة في التاريخ،دار الغرب الإسلامي، 1988

21- إخوان الصفا، رسائل أخوان الصفاء وخلان الوفاء، الرسالة رقم 20، دار صادر، بيروت

22- الأبشيهي، شهاب الدين المستطرف في كل فن مستظرف، دار الكتب العلمية 2004

23- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد، الأغاني، تحقيق عيد السلام هارون، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1969

34- القاضي التنوخي، أبو علي المحسن بن علي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، دار صادر، بيروت 1971

25- الباباني، إسماعيل بن محمد أمين، هدية العارفين، مكتبة الوراق الإلكترونية

26- بخاري، كمال ، لباب الالباب، المكتبة الإلكترونية

27- البدري، مهدي محمد صالح ، أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية جامعة بغداد 1976

28- بروكلمان كارل، تاريخ الادب العربي، ترجمة د. عبد الحليم النجار، دار المعارف.

29- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت 1957

30- البيروني، أبوالريحان محمد بن أحمد، الآثار الباقية، ار الكتب العلمية، 2000

31- التنوخي، القاضي أبي علي المحسن بن علي بن محمد ، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي ، دار صادر، بيروت 1975

32- التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1954

33- ــــــــ ، مثالب الوزيرين، دار الفكر، دمشق 1961

34- ـــــــ ، المقابسات، مطبعة الإرادة، بغداد 1970
35- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل، خاص الخاص تحقيق حسن الأمين، مكتبة الحياة، 1966
36- ـــــــ ، من غاب عنه المطرب، دار طلاس، دمشق 1987
37- ـــــــ ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، دار الباز للنشر، 1979
38- ـــــــ ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، مصر 1909
39- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، وزارة الثقافة ، دمشق 2001
40- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت 1978
41- الحصري، أبو إسحاق ابراهيم بن علي بن تميم القروت\اني، زهر آداب وثمر الألباب، المطبعة التجارية، مصر 1925
42- الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1956
43- ـــــــ ، معجم الأدباء، دار المأمون، مصر 1936
44- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، تأريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت
45- دراوور، الصابئة المندائيون، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي، مطبعة الدواني، بغداد 1987
46- الديباجي، محمد ، الأدباء الصابئة في العصر العباسي، منشورات جامعة الحسن الثاني/ سلسلة أطروحات ورسائل 1989
47- الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، محاضرات الأدباء ومحاورات العراء والبلغاء، دار مكتبة الحياة، بيروت 1961
48- الزبيدي، محب الدين أبو الفيض محمد بن عبد الرزاق، تاج العروس من جواهر القاموس، مصر 1306 هـ
49- السعدي، قيس مغشغش، معجم المفردات المندائية في العامية العراقية، درابشا للنشر، ألمانيا 2008
50- ـــــــ ، أبو إسحق الصابي والشريف الرضي، صداقة خلدها التاريخ، دراسة منشورة في مواقع الإنترنيت
51- ـــــــ ، إنصاف الشريفين الرضي والمرتضى من ذم الصابي، دراسة منشورة في مواقع الإنترنيت

52- ـــــــــــــــــ ، الصابئون في القرآن: قراءة موضوعية، دراسة منشورة في مواقع الإنترنيت
53- الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين، ديوان الشريف الرضي، دار صادر، بيروت 1961
54- الشريف المرتضى، على بن الحسين بن الحسين بن موسى تحقيق رشيد الصفار، دار إحياء الكتب العربية 1958
55- الشوكاني، مُحمد بن علي البدر، الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار ابن كثير، دمشق 2006
56- الصابي، أبو إسحق ابراهيم بن هلال، الجزء الثالث من رسائل الصابي، مخطوطةغير محققة، جامعة لايدن/ هولندا
57- الصابي، أبو إسحق ابراهيم بن هلال، المختار من رسائل أبي إسحق الصابي، تحقيق الأمير شكيب أرسلان، دار النهضة الحديثة، بيروت.
58- ـــــ ، المنتزع من كتاب التاجي، تحقيق محمد حسن الزبيدي، دار الحرية للطباعة، بغداد 1977
59- ـــــ، رسائل الصابي والشريف الرضي، تحقيق محمد يوسف نجم، الكويت، 1960
60- الصابي، أبو الحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم، تحفة الأمراء في تأريخ الوزراء، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1904
61- ـــــ ، رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائي عواد، مطبعة العاني، بغداد 1964
62- ـــــ ، غرر البلاغة، تحقق أسعد ذيبان، دار الكلمة، بيروت 1983
63- الصابي، غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال، الهفوات النادرة، مجمع اللغة العربية، دمشق 1967
64- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، فرانز شتاينر، 1972
45- العاملي، محمد بهاء الدين، الكشكول، دار الكتب العلمية، 1998
66- العباسي، عبد الرحيم بن أحمد، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عالم الكتب، بيروت 1947
67- العبشمي، محيي الدين محمد بن أحمد القرشي ، ترتيب الأمالي الخميسية، مكتبة الوراق الإلكترونية
68- عزيز سباهي، أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية، دار المدى، دمشق 1996

69- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله ديوان المعاني، عالم الكتب بيروت 1985
70- ــــــــــ، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، دار الكتب العالمية، بيروت 1989
71- القرآن الكريم
الكنزا ربا، الكتاب المقدس للصابئة المندائيين، منشورات المجلس الروحاني، بغداد 2001
72- القفطي، جمال الدين أبو الحين علي بنيوسف، أخبار العلماء بأخيار الحكماء ، تحقيق جوليوس ليبرت، لايبزك 1919
73- القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية القاهرة 1919
74- كرنكو، فز، الصابي أبو غسحق ابراهيم بن هلال، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشناوي
75- محمد عبد الحميد الحمد، التأثير الآرامي في الفكر العربي ، دار الطليعة الجديدة، دمشق 1998
76- محمد عبد المنعم الجميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة
77- مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد، تجارب الأمم/ شركة التمدنن مصر 1916
78- المقري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار لفكر 1998
79- الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن عبد الله بن بلهيد النجدي، مطبعة السعادة 1953

80- Klaus U. Hachmeier. Die Briefe Abu Ishaq Ibrahim al-Sabi. Georg Olms Verlag 2002

81- http://www. literaturnische.de/GG/sabi.htm. Abu Ishak Ibn Hilal as-Sabi

Qais Al-Saadi

Abū Isḥāq Al-Ṣabi

بعض ما قيل في أبي إسحق الصابي

أبو الطيب المتنبي:
"والله ما رأيتُ بالعراق من يستحق المَدحَ غيرك، ولا أوجبَ عليّ في هـذه البلاد أحدٌ من الحق ما أوجبت"

الثعالبي:
"هو أوحدُ العراق في البلاغةِ، ومَن به تُثنى الخناصرُ في الكتابةِ، وتتفقُ الشهاداتُ له ببلوغ الغاية، من البراعةِ والصناعة"

ياقوت الحموي:
"هو أوحـدُ الدنيا في إنشـاء الرسائلِ، والاشتمالِ على جهاتِ الفضائلِ، فأما بلاغتُهُ، وحسنُ ألفاظهِ، فقد أغنتنا شهرتها عن صفتها"

ابن العميد:
"ذاك رجل له في كل طِراز نسجٌ، وفي كل فضاءٍ رهجٌ، وفي كل فلاةٍ ركبٌ وفي كل غمامةٍ سكبٌ، الكتابةُ تدعيه بأكثر مما يدعيها، والبلاغة تتحلى به بأكثر مما يتحلى هو بها"

الشرف الرضي:
"ثكلتكَ أرضٌ لم تلد لك ثانياً أنـى، ومثلـكَ مُعوزُ الميـلادِ
أبو إسحاق ابراهيم بن هلال، فلو كان اسمٌ يوضع على جماع الفضل ويكون علما لمجموع النبل، في زماننا هذا لكان هذا الاسم، واستغني بذكره عن ذكر الثناءِ الجميلِ، واختصرتْ به مسافة القول الطويلَ"

چاپخانەی وەزارەتی رۆشنبیری ـ هەولێر
www.kurdchap.com